هاشم معروف الحسني

سيرة الأئمة الاثني عشر

دار القلم
بيروت ـ لبنان



سيرة الأئمة الاثني عشر

الطبعة الاولى
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م.

الطبعة الثانية
١٣٩٨ هـ. ـ ١٩٧٨ م.

هاشم معروف الحسني

سيرة الأئمة الاثني عشر

القسم الأول

دار القلم
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار القلم
بناية درويش ـ الطابق الثالث
ص.ب ٣٨٧٤
تليفون ٢٣٠٤١٨

في هذا الكتاب

في هذا الكتاب عرض ودراسة لبعض الجوانب مـــن سيرة الأئمة الاثني عشر (ع) وما قدموه من بذل وعطاء وتضحيـــات لخير الانسان ومواقفهم من حكام زمانهم التي كلفتهم راحتهم وحياتهم فبذلوها راضين مطمئنين في سبيل مجتمع افضل وانسان افضل وحاكم افضل ووقفت حيث اقتضت الحاجة مع بعض المرويات والأحداث التاريخية التي لـم تسلم من أيدي الدساسين والحاكمين وأتباعهم ملتزما الحياد والتجرد في كل ما كتبته ووقفت عنده من المرويات والأحداث وأرجو ان أكون قد وفقت لذلك .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على صفوة الخلق محمد وآله الهداة المهديين الذين اجتباهم الله من خلقه وجعلهم الأدلاء على طاعته والدعاة الى سبيله ورحمته وبركاته .

وبعد لقد كنت أفكر في الكتابة عن سيرة الأئمة الاثني عشر، وأتمنى أن أوفق للقيام بذلك ، وقد تبلورت لديّ الفكرة وأيقنت برجحانها عندما وجدت وأنا ادرس سيرة النبي (ص) وأكتب فيها ، ان الذين دوّنوا الآثار الاسلامية في عصور التدوين الاولى لم تعنهم الحقائق اكثر من ارضاء عواطفهم المذهبية وتفاعلهم مع الفئات السياسية يوم كانت سياسة الحاكمين تجري لدى أكثر المسلمين مجرى الدين ، وأحسب اني بعد قناعتي بهذه الافكار قد استطعت الى حد ما أن أكتب سيرة النبي بعد دراسة موضوعية لاكثر المراحل التي مرت بها الدعوة من بدايتها الى آخر مرحلة منها وخرجت منها بأفكار لعل أكثرها جديد على القراء اوحتها الى دراستي للأحداث التي فرضتها الظروف والملابسات خلال تلك

الفترة من التاريخ ، ملتزما في ذلك جانب الحياد في كل ما كنت اقف عنده من المواضيع وأفكر فيه .

وان كنت لا أزعم ان التزام النزاهة والحياد التام في موضوع يتعلق بالعقيدة بالامر اليسير ، ولكنها محاولة أرجو ان اكون صادقا بها كما أرجو ان لا ينظر القراء الى ما احسبه جديدا فيها من الزاوية التي اعتادوا ان ينظروا التاريخ ويحكموا عليه من خلالها .

وبعد فراغي من سيرة النبي (ص) أحسست من جديد وكأني مدفوع على المضي في الكتابة عن الأئمة الاثني عشر وفاء لحقهم ولان سيرتهم امتداد لسيرة النبي ومن معينه كانوا يغرفون ، وقد اعترضتهم أحداث قاسية بسبب مواقفهم من أحفاد اولئك الذين اعترضوا الدعوة وحاربوها منذ ان بزغ فجرها حتى استنفدوا جميع امكانياتهم في هذا السبيل .

لقد وقف الأئمة من اهل البيت من أحفاد ابي سفيان والحكم بن العاص والعباس بن عبد المطلب ومن كل حاكم ظالم ومستغل شره ومنافق مضلل نفس الموقف الذي وقفه جدهم المصطفى من طغاة قريش وجبابرة مكة ويهود بني قريظة وتحدثوا عن الحرية والعبودية والغنى والفقر والعدل والظلم والجهل والعلم والحرب والسلم ، ووقفوا الى جانب المظلومين والمستضعفين والأتقياء والصالحين والفقراء والمعذبين ومع العلم والسلم ، ووضعوا مع ذلك أسس النضال في سبيل عالم افضل وانسان افضل وحاكم افضل ومجتمع افضل لانقاذ البشرية مما تعانيه من الفقر والجهل والظلم والعبودية والاستغلال وعالجوا جميع مشاكل الحياة بالحلول السليمة التي تتفق مع كل زمان ومكان ، وتركوا من العلم والفضائل والآثار في شتى المجالات ما لا تتسع له المجلدات الكبار ، وما اكثر ما تركوه للانسان أنى وجد وأين كان ، وليس ذلك بغريب عليهم وقد اخذوا عن علي ما اخذه عن النبي (ص) وقد اخذ عنه ألف باب من العلم، وفتح الله له في كل باب الف باب، وجعلهم النبي(ص)

كالقرآن لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض وفي القرآن تبيان كل شي

لقد كابد الأئمة من اهل البيت من الحكام وأجهزتهم شتى انواع المصائب والمحن ، وظلوا يكابدون حتى رحلوا عن الدنيا بين قتيل وسجين وأسير اقامة فرضت عليه ليبقى قريبا من الحكام الذين كانوا يحصون عليهم وعلى شيعتهم الأنفاس ، وكابدوا من المندسين في صفوف شيعتهم ليفسدوا عليهم امرهم ويشوهوا تعاليم الاسلام بما أدخلوه بين آثارهم من البدع والاساطير ، وكابدوا حتى من المحبين الذين نسبوا اليهم ما لم يصنعوه وقالوا فيهم ما لم يقولوه في انفسهم، وكانوا يتلوون من اولئك وهؤلاء ويقولون : والله ما الناصب لنا العداء بأشد علينا ممن قال فينا ما لم نقله في انفسنا ، ويقولون : ما جاءكم عنا مما يجوز ان يكون من المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردوه الينا ، وما جاءكم عنا مما لا يجوز ان يكون من المخلوقين فاحجدوه ولا تردوه الينا .

ولعلهم وهم في مراقدهم يكابدون ممن جمعوا ما رواه الرواة عنهم من الآثار ودوّنوا جميع ما ينسب اليهم من الاقوال والافعال بنية حسنة كما أعتقد ، بدون غربلة وتمحيص ليظهر الحصى من الجوهر والدر من الصدف . هؤلاء على ما بذلوا من جهد مشكور قد امدوا أعداء الاسلام والحاقدين عليه وعلى اهل البيت (ع) بالسلاح ويسروا لهم بث سمومهم وتشويه العقيدة الشيعية كما يبدو ذلك من مؤلفاتهم التي تصدر بين الحين والآخر .

وسواء كتب هؤلاء بنية حسنة ام سيئة فهم يعتمدون فيما نسبوه الى الشيعة وما ألصقوه بأئمة الشيعة على تلك المرويات المنتشرة في مجاميع الحديث التي بين أيدينا ، والتي لا يزال بعض التجار المنتسبين الى اهل البيت يعيدون طباعتها بما هي عليه ويهتمون باخراجها بثوب أنيق برّاق

يتناسب مع الزمن متجاهلين ما فيها من المرويات التي تسيء الى الشيعة وأئمتهم ولو بإشارة توحي بذلك .

وحتى ان الذين يكتبون عن الأئمة في عصرنا هذا من الشيعة يكررون ما قاله الكليني والصدوق والمفيد وغيرهم من مئات السنين لفظا ومعنى وترتيبا ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان اولئك قد كتبوا ما كتبوه وبذلوا ما بذلوه من جهد مشكور كان يتفق مع عصرهم وكان السبيل الافضل للتعبير عن واقعهم يوم ذاك .

اما بعد ان طرأت على العقول والافكار تلك التطورات ، وأصبح الانسان في عقله وتفكيره ونظرته الى الحياة غريبا عن انسان ذلك العصر ، فلم يعد التعبير عن عظمة الاشخاص بذلك الاسلوب وبالمعجزات والغيبيات مقبولا ولا مجديا ، ولا بد من دراسة حياة العظيم على ضوء ما جدّ من أحداث وتطورات وما تركه من آثار ، وآثار اهل البيت (ع) أغنى بالأدلة على عظمتهم من الغيبيات والكرامات ، ولا اكون مغاليا اذا قلت : ان بامكان الباحث أن يستخرج من سيرتهم وآثارهم من الكرامات ما يباهي به عباقرة العصور مهما بلغوا من الشأن والمكانة .

ولو كان لغير الشيعة مثل علي والأئمة من بنيه لملأوا الكون بمفاخرهم وآثارهم واستخرجوا منها كنوزا من الاسرار والمثل لا تحصى . لقد قال الحفناوي في كتابه الذي وضعه في ابي سفيان ، والشيخ الخضري في محاضراته : ان قول الرسول من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، لشرف عظيم لم ينله احد مثله الى الان في حين ان كل من يتتبع سيرة النبي (ص) وأسلوبه الذي اختاره في نشر الدعوة يعلم بأنه قالها لمناسبة خاصة وحتى يستدرج قريشا وأهالي مكة الى التسليم وعدم اراقة الدماء ، مع العلم بأنه قال في نفس الوقت من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ومن القى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن . ومع كل ذلك فان شرف ابي سفيان لم ينله احد عند الخضري والحفناوي وغيرهما

من شيوخ بعض السنّة حتى علي بن ابي طالب (ع) الذي قال فيه النبي في عشرات المناسبات ما قال باجماع السنّة والشيعة وقد حمله على منكبيه يوم ذاك ليحطم الاصنام التي كان يعبدها ابو سفيان وظل يعبدها حتى مات كافرا بمحمد ورب محمد (ص) .

ومهما كان الحال فلقد وفقني الله لابراز بعض النواحي من سيرتهم حسب طاقتي وامكانياتي المحدودة وأحسست بالغبطة والسعادة بعد فراغي منها لان سيرتهم تذكر بالله وتحيي النفوس الميتة كما تحيى الارض وتنبت من كل زوج بهيج بغيث السماء وبمقدار ما يأخذ الانسان من علومهم ويتأثر بسيرتهم يأخذ نصيبه من العظمة والخلود .

لقد برز في كل عصر مئات العلماء من شيعتهم تنحني الرؤوس إجلالا لقدرهم ومقامهم ويرتبط تاريخ اكثر العلوم بتاريخهم ، ولم يبلغوا هذا المقام الرفيع الا لانهم تخرّجوا من مدرسة اهل البيت وتأثروا بسيرتهم وتعاليمهم ولولا ذلك لم يكونوا شيئا مذكورا .

ولا أدعي بأني قد جئت بجديد وأحطت بسيرتهم من كل جوانبها وأدركت أسرارها وغوامضها ، لا أدعي ذلك لان الإحاطة بسيرتهم وأسرارها ليست بالامر اليسير على من لم يدرك واقعهم ولا أحسب ان ادراكه ميسور لغير من اجتباهم الله واصطفاهم من خلقه .

وكل ما أدعيه هو اني قد كتبت في سيرتهم وحاولت ابراز بعض نواحيها وأرجو ان اكون قد وفقت لذلك ، كما حاولت أن أختصر جهدي فاختصرت حيث وجدت مجالا لذلك ، واضطرتني الاحداث التاريخية والظروف السياسية التي رافقت حياة بعضهم وتلاعب المؤرخين بحقائق التاريخ وتحريفه لمصلحة الحاكمين ، لقد اضطرني ذلك الى الاطالة احيانا حيث لم اجد عنها بديلا ، لذلك أخرجته في مجلدين وافتتحت الاول منهما بالحديث عن الصديقة الكبرى الصحابية الاولى خديجة بنت خويلد وفاء لحقها على كل مسلم وتقديرا لخدماتها الجليلة

التي قدمتها للاسلام وتضحياتها في سبيله بكل مالها وراحتها ، وعن الصديقة الزهراء التي ساهمت كأمها في خدمة النبي والاسلام وبذلت كل راحتها في هذا السبيل بعد ان فارقت أمها الحياة ، وصارت بعد ذلك أما لأكرم عشرة عرفها التاريخ ، وبعد ذلك دخلت في سيرتهم على التوالي .

واني اذ أقدم اليهم هذه اللمحات من تاريخهم أقدمها وأنا أردد تارة مقالة اخوة يوسف حينما وفدوا عليه بعد ان اجتباه الله وأكرمه بالنبوة كما حكى الله عنهم في كتابه :

● «يا ايها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا ان الله يجزي المتصدقين» .

وأخرى مقالة شاعرهم :

آل بيت النبي انتم غياثي ... في حياتي وعدتي لمعادي
ما تزودت للقيامة الا ... صفو ودي لكم وحسن اعتقادي

والحمد لله الذي هدانا لولايتهم وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله.

المؤلف
هاشم معروف

تمهيد

من المتفق عليه بين المؤرخين والمحدثين ان كلمة اهل البيت الواردة في الكتاب الكريم وسنّة الرسول العظيم في عشرات المناسبات لا تعني خصوص ما لها من المعنى العرفي او اللغوي ، بل أريد منها معنى أخص من ذلك لا يتعدى عليا وفاطمة ومن تناسل منهما من الأئمة الاطهار عند عامة الشيعة وأكثر محدثي السنّة وعلمائهم ، وعند الفريق الآخر من محدثي السنّة الذين وقفوا بجانب المفهوم العرفي واللغوي وتجاهلوا الظروف والملابسات والقرائن التي احاطت بهذه الكلمة في موارد استعمالها في الكتاب والسنّة والتي تعني ذرية الرسول منها لا غير ، هؤلاء وغيرهم ممن حاولوا تخصيصها بنسائه او بهم وبغيرهم من آله لم يعتمدوا على منطق معقول او سنّة مقبولة بل كانوا مسيرين بدوافع اخرى ليست بعيدة عن التعصب والحقد على اهل البيت وشيعتهم كما هو شأنهم في تحوير وتأويل جميع ما ورد عن النبي (ص) في فضائل علي وبنيه ومصير الخلافة الاسلامية كما سنثبت ذلك بالارقام خلال الفصول الآتية من هذا الكتاب . كما وان الآية الكريمة من سورة الاحزاب التي اشتملت على كلمتي اهل البيت وان كان موردها الخمسة اصحاب الكساء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) كما فهم

منها ذلك اكثر المحدثين والمفسرين لكتاب الله الا ان استعمال النبي (ص) لهذه الكلمة يعطيها معنى اوسع من ذلك يتسع للأئمة الاثني عشر الذين يدين الشيعة بإمامتهم والبراءة من أعدائهم ، فقد جاء عنه انه قال اكثر من مرة : اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابدا • وفي رواية ثانية : فانظروا كيف تخلفوني فيهما • فقد قرن النبي (ص) اهل بيته الى كتاب الله وجعلهم عدلا له يهتدي بهم الحائرون كما يهتدون به ويسترشد بهم الضالون كما يسترشدون بأحكامه وتوجيهاته وتعاليمه ولن يضل المقتدي بهم والموالي لهم لانهم يعكسون في سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم مبادىء القرآن وسنّة الرسول وسيرته ويجسدون الاسلام بكل ما يهدف اليه بدقة وأمانة واخلاص ، وبلا شك فان العترة الطاهرة التي قرنها النبي (ص) بالكتاب ولن يضل المتمسك بها والموالي لها لا تنطبق الا على الأئمة الاثني عشر الذين نوه الرسول عنهم في مختلف المناسبات وذكرهم باسمائهم كما جاء في كثير من المرويات عن الأئمة وغيرهم •

ومجمل القول ان القرآن الكريم قد سبق السنّة في استعمال هذه الكلمة في الأقربين من آل النبي (ص) وذريته ولا بد لنا ونحن بصدد الحديث عن سيرة الائمة من اهل البيت من الرجوع الى مصادر هذه الكلمة في الكتاب والسنّة وما تعنيه ودراسة موارد استعمالها وما أحيط بها من الملابسات دراسة موضوعية بروح بعيدة عن التعصب والهوى لكشف المراد منها •

فقد ورد في الآية رقم ٣٣ من سورة الاحزاب :

● وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا •

والخطاب في الآية التي قبلها لنساء النبي (ص) بلا شك في ذلك ، حيث جاء فيها :

● يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا .

كما وان صدر الآية السابقة والآيات التي بعدها رقم ٣٤ لنساء النبي وحدهن بدليل نون الإناث المقترن بجميع الافعال والصيغ الموجودة في هذه الآيات ، وبهذه الملابسات تكون الفقرة الاخيرة من الآية رقم ٣٣ وهي انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا وكأنها غير منسجمة مع الآيات التي قبلها وحتى مع صدرها والآيات التي بعدها ، وبلا شك فانها لا تعني زوجاته بل تعني اهل بيته الذين دخلوا معه في كسائه ، ولو كانت تعنيهن لوجب حسب السياق والقواعد الحاق ضميرهن بنون الإناث بأن يقول : انما يريد الله ليذهب عنكن الرجس اهل البيت ويطهركن تطهيرا .

هذا بالاضافة الى ان الآية تنص على انه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم منه ، والرجس هو كل ما لا يرضي الله سبحانه من الخطايا والذنوب ، والتطهير بهذا المعنى يرادف العصمة وزوجات النبي (ص) لسن بهذا المستوى الرفيع كما أجمع على ذلك المؤرخون والمحدثون فقد اسأن اليه في حياته مرارا حتى اعتزلهن شهرا كاملا وهددهن بالطلاق ووقف على مقربة من حجرة احداهن يوما ومعه جماعة من اصحابه وقال مشيرا بيده الى حجرتها : من ههنا تخرج الفتنة ، ومرة ثانية وقف الى جانب حجرتها وقال : من ههنا مشيرا اليها يطلع قرن الشيطان كما جاء في رواية البخاري جـ٢ صفحة ١٨٩ .

ومن بقي منهن بعد وفاته لم يكنّ بالمستوى المطلوب من سائر نساء المؤمنين فضلا عن نسائه اللواتي اراد منهن ان يكنّ القدوة الصالحة لغيرهن من النساء كما تنص على ذلك الآيات السابقة اذا

استثنينا السيدة الجليلة ام سلمة رضوان الله عليها التي التزمت بيتها وعاشت من بعده زمنا طويلا مثالا كريما للمرأة المسلمة التي وهبت حياتها لله وخير الناس أجمعين • في حين ان غيرها ممن بقين بعده من نسائه قد اشتركن فيما جرى بعده من الفتن والمشاحنات وبالتالي ارادت احداهن ان تكون في عداد الابطال الذين يديرون المعارك ويستبيحون كل شيء للخروج منها ظافرين منتصرين ، فقادت جيشا لحرب إمام المسلمين من المدينة الى البصرة تستبيح الدماء والاموال ، وكانت تلك المعركة التي كانت ولا تزال من أبرز الاحداث الداخلية الاولى في حياة المسلمين الاوائل ، والتي مهدت لمعاوية بن هند أن يستعصي بمن معه في الشام ويعتصم بها ومن ثم يطمع بالخلافة الاسلامية ويقاتل من اجلها بمن معه ممن غرر بهم وضللتهم مواقف السيدة عائشة في البصرة والمدينة وكانت المعارك الطاحنة في صفين وغيرها التي ذهب ضحيتها عشرات الالوف من المسلمين وأحدثت تحولا في تاريخهم كانت له اسوأ الآثار والنتائج في مختلف الميادين •

ومجمل القول : ان الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم هم اهل بيت النبي بلا شك في ذلك كما وان اختصاصها بعلي وفاطمة وبنيهما الاطهار قد ذهب اليه عامة الشيعة وأكثر محدثي السنّة ، ولم يذهب احد الى اختصاصها بنساء النبي (ص) • سوى عكرمة مولى عبد الله ابن عباس ، وليس ذلك بغريب عليه بعد ان اشتهر بالكذب ووضع الاحاديث، وتبنى افكار الخوارج ودعا اليها في المغرب العربي كما تنص على ذلك المصادر التي تعرضت لتاريخه وهو المؤسس الاول لمذهب الأزارقة من الخوارج في تلك البلاد الذي كان ولا يزال حتى اليوم وكان قد استغل ملازمته لعبد الله فنسب اليه جميع موضوعاته حتى اضطر ولده علي بن عبد الله الى جلده وحبسه في الكنيف كما جاء ذلك في تاريخ حياته •

كما روى نزولها في نساء النبي مقاتل وهو من فصيلة عكرمة ومن المعروفين بالنصب والعداء لعلي وآله ، وقد عده النسائي من الكذابين المعروفين بوضع الاحاديث ، وقال الجوزجاني كما في ترجمته في ميزان الاعتدال : كان مقاتل كذابا جسورا يقول لابي جعفر المنصور انظر ما تحب ان أحدثه فيك حتى أحدثه .

وقال للمهدي العباسي : ان شئت وصفت لك احاديث في العباس قال لا حاجة لي فيها . واذا كان هو وزميله عكرمة بهذا المستوى عند المحدثين فالامر في رأيهما وروايتهما لا يحتاج لاطالة الحديث وبخاصة اذا كان حديثهما عن علي وبنيه ، ومن ذلك تبين ان اختصاص الآية بنساء النبي لا مصدر له على ما يبدو من المصادر المعدة لهذه المواضيع الا عكرمة ومقاتل وهما من غير الموثقين حتى عند علماء السنّة ومحدثيهم ، والقولان الرئيسيان فيها هو انها هل تعني النبي وعليا وفاطمة والحسنين لا غير كما أجمع على ذلك الشيعة وجمع كبير من متحدثي السنّة ، او انها تعني بالاضافة اليهم نساءه كما ذهب الى ذلك جماعة من محدثي السنّة ومفسريهم .

والى جانب هذه الاقوال أقوال اخرى منها ان المراد بأهل البيت في الآية جميع بني هاشم ، ونسب ابن حجر الهيثمي في صواعقه هذا القول الى الثعلبي وأيده بحديث وصفه بالحسن جاء فيه ان النبي (ص) اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال : يا ربي هذا عمي وصنو ابي وهؤلاء اهل بيته فاسترهم من النار كستري اياهم بملاءتي ، ومضى يقول : والحاصل ان اهل بيت السكن داخلون في الآية لانهم المخاطبون بها (يعني بذلك أزواجه) ، ولما كان شمولها لاهل بيته النسبيين ليس واضحا بيّن بما فعله ان المراد بأهل البيت ما يشمل جميع بني هاشم .

هذه الرواية التي اعطت لاهل البيت معنى يتسع لعترته ونسائه وحتى

للعباس بن عبد المطلب وبنيه وجاء فيها ان النبي (ص) حينما جمعهم ودعا لهم بالنجاة من النار أمن سقف البيت وحائطه ثلاثا ، هذه الرواية ونظائرها بالرغم من ضعف أسانيدها ومخالفتها للروايات الكثيرة التي اعتمدتها صحاح اهل السنّة ومجاميعهم الموثوقة يبدو عليها الوضع والكذب فان نساءه وأقاربه من بني هاشم لم يكن لهم ميزة على غيرهم من سائر الناس ، وحسبها وهنا ان احدا من بني العباس لم يستدل بها في مقابل خصومهم العلويين وغيرهم ، مع ما فيها من الشرف العظيم لو صح نزولها فيهم ، هذا بالاضافة الى انه (ص) قبيل وفاته استدعى العباس وبني هاشم وتحدث اليهم بما لا يدع لهم امتيازا على احد من المسلمين ومضى يوصيهم بأن لا يستغلوا نسبهم القريب من رسول الله للاستعلاء على الناس والتفاخر به لان الانساب والاحساب لا تغني عنهم من الله شيئا كما جاء في كثير من وصاياه لاهله وأسرته .

وقال الرازي في تفسير الآية : ان الله سبحانه ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله : ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ليدخل فيه نساء اهل بيته ورجالهم وأضاف والاولى ان يقال : هم اولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلي منهم لانه كان من اهل بيته بسبب معاشرته بنت النبي وملازمته له [1] .

وممن رجح شمولها لازواجه وعلي وفاطمة وبنيهما ابن كثير في تاريخه وغيره ، ونقل الطبرسي في تفسيره مجمع البيان عن ابي سعيد الخدري وانس بن مالك ووائلة بن الاسقع وعائشة وأم سلمة ان الآية مختصة برسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وأضاف الى ذلك ان أبا حمزة الثمالي في تفسيره نقل عن شهر بن حوشب ان ام سلمة

---

١ ــ انظر جزء ٢٥ من تفسير الرازي ص ٢٠٩ .

قالت : جاءت فاطمة الى النبي (ص) تحمل حزيرة فقال لها ادعي زوجك وابنيك فجاءت بهم فطعموا ، ثم القى عليهم كساء له خيبريا فقال اللهم هؤلاء اهل بيتي وعترتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقلت يا رسول الله وأنا معهم فقال انت الى خير ، ومضى يقول : ان الثعلبي في الدر المنثور روى بالاسناد الى ام سلمة ان النبي (ص) كان في بيتها فأتته فاطمة (ع) ببرمة فيها حزيرة ، فقال لها : ادعي زوجك وابنيك فدعتهما فأنزل الله تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت. وروي عن مجمع انه قال دخلت مع امي على عائشة فسألتها امي عن خروجها على علي (ع) يوم الجمل فقالت : انه كان قدرا من الله ثم سألتها عن علي (ع) فقالت تسأليني عن أحب الناس لرسول الله وزوج أحب الناس اليه ، لقد رأيت عليا وفاطمة والحسن والحسين وقد جمعهم رسول الله تحت ثوب وقال : اللهم هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقلت يا رسول الله وأنا من اهلك فقال تنحي فإنك الى خير .

كما روى جماعة من المحدثين بسند ينتهي الى جابر بن عبد الله الانصاري انه قال نزلت الآية على النبي (ص) وليس في البيت سوى علي وفاطمة والحسن والحسين فقال النبي (ص) اللهم هؤلاء اهلي .

وجاء في صحيح مسلم المجلد الثاني ص ١١٦ ان عائشة قالت : خرج النبي (ص) غداة يوم وعليه مرط مرحل من برود اليمن من شعر اسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه وجاء علي وفاطمة فدخلا معهما ، فقال النبي (ص) انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، كما جاء في تفسير الطبري والبحر المحيط للأندلسي ، والتسهيل للحافظ وغيرها من التفاسير بأسانيدهم الكثيرة الى السيدتين عائشة وأم سلمة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد وغيرهم من ثقاة الصحابة .

ان الآية نزلت في الخمسة النبي وعلي وفاطمة والحسنين ، وآكد هذه الحقيقة كل من الترمذي في صحيحه وأحمد بن حنبل في مسنده والحاكم في مستدرك الصحيحين ، وابن الأثير الجزري في اسد الغابة ، والمتقى في كنز العمال ، والبيهقي في سننه ، والطحاوي في مشكل الآثار ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، والنسائي في خصائصه، والمحب الطبري في انرياض النضرة ، والهيثمي في مجمع الزوائد ، والحافظ ابو القاسم الدمشقي في الموافقات والاربعين الطوال ، وأبو داود الطيالسي في مسنده ، وغير هؤلاء من المحدثين الذين نصوا على نزول الآية في النبي وعلي وفاطمة وبنيهما ، وان المتتبع في مصادر الحديث ومجاميعه السنية والشيعية يخرج وهو مرتاح النفس الى ان الآية الكريمة لا تعني نساءه وعمومته وعصبته ، بل تعني عترته وأهل بيته الذين عناهم بقوله في مختلف المناسبات : اني مخلف فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي .

ويبدو من الموارد الكثيرة التي كان يتلو فيها الآية انه كان يحاول ان يقطع الطريق على كل مدع لدخوله في اهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس من نسائه وعصبته ، فقد جاء عن ابي الحمراء انه قال : لازمت رسول الله ثمانية اشهر في المدينة ليس من مرة يخرج الى صلاة الغداة الا اتى باب علي (ع) فيضع يده عليه ويقول الصلاة الصلاة انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا .

وجاء عن عبد الله بن عباس انه قال شهدت رسول الله (ص) ستة اشهر كان يأتي كل يوم باب علي بن ابي طالب في اوقات الصلاة ويقول السلام عليكم اهل البيت ورحمة الله وبركاته ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا .

واختصاصها بالنبي وعلي وفاطمة وبنيهما لا يتنافى مع ورودها في

ضمن الآيات التي كان الخطاب فيها لنساء النبي (ص) ففـــي القرآن الكريم اكثر من شاهد على عدم التقيد بالسياق والالتزام به ، وقد نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده في المجلد الثانـي ص ٤٥١ ان من عادة القرآن ان ينتقل بالانسان من شأن الى شأن آخر ثم يعود الى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة .

وقال الطبرسي في مجمع البيان ما مضمونه ان من عادة العظماء في خطاباتهم ان يذهبوا من خطاب الى غيره ثم يعودون لما كانوا يتحدثون عنه ، وأضاف الى ذلك ان القرآن مملوء من ذلك وكذلك كلام العرب وأشعارهم .

وجاء في رواية عن الإمام الصادق (ع) ان الآية من القرآن يكون اولها في شيء وآخرها في شيء آخر .

فالسياق وحده لا يجب الاعتماد عليه كقاعدة عامة بالنسبة الـــى القرآن الكريم بعد الذي نراه من عدم التقيد به في الغالب ، فلا بد من الرجوع الى كل آية بمفردها وما قيل فيها من التفاسير التي تنسجم مع منطوقها او ظاهرها ، ويتعين الاخذ بما صح عن النبي (ص) او احد الأئمة في تفسيرها حتى ولو خالف السياق او الظاهر احيانا .

وقد استدل بها اكثر المحدثين والمفسرين على عصمة اهل البيت من الذنوب بما حاصله انه يستفاد من كلمة انما في موارد استعمالها التأكيد والاصرار على وقوع ما بعدها والارادة الواقعة بعدها لا بد وأن يتبعها التطهير من الذنوب الذي تعنيه كلمة الرجس ، ذلك لان الارادة المطلقة لا تختص بأهل البيت من بين سائر الناس فلا يبقى لهم ميزة على غيرهم فيما لو أريد منها ذلك ، وقد جاءت الآية الكريمة لبيان فضلهم على من سواهم ، ولا يتم ذلك الا اذا تحقق المراد وهو عين العصمة التي يدعيها الشيعة للنبي والزهراء والأئمة الاطهار ، وقد أيد هذه الحقيقـــة محي الدين المعروف بابن العربي في كتابه الفتوح المكية جـ١ ص ١٩٦

من الطبعة القديمة ، فلقد جاء فيه ان الله سبحانه طهر نبيه وأهل بيته بدليل قوله تعالى : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهـــل البيت ويطهركم تطهيرا ، والرجس في اللغة الشيء القذر ولا شيء أقذر من الذنوب ، ومضى يقول : وعليه فلا يضاف لاهل البيت الا مطهر مقدس، بل هم عين الطهارة ، وأضاف الى ذلك ان سلمان الفارسي معصوم من الذنوب ايضا لان اهل البيت معصومون بشهادة الله سبحانه ، وقد ثبت عن رسول الله (ص) انه قال : سلمان منا اهل البيت فيكون معصومـا بشهادة الله ورسوله .

وقال في الجزء الثاني من كتابه الفتوحات ص ١٢٧ : لا يبقى في النار موحد ممن بعث اليه رسول الله لان النار تكون على الموحدين بردا وسلاما ببركة اهل البيت عليهم السلام .

ومما يؤكد نزول الآية في النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، ما رواه مسلم في صحيحه بأسانيد مختلفة تنتهي الى الصحابي الجليل زيد ابن ارقم ، وجاء فيما روي عنه انه سئل عن شمول الآية لنساء النبي(ص) فقال لا وأيم الله ان المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ، ثم يطلقها فترجع الى ابيها وقومها ، وأهل بيته اصله وعصبته الذين حرموا الصدقة من بعده .

ومن الآيات التي تشير الى قداسة أهل البيت وحتى عصمتهم وتأمر بإطاعتهم الآية من سورة النساء: ● يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى اللـــه والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا.

وقد قرب الفخر الرازي في تفسيره جـ١٠ ص ١٤٤ دلالتها علـــى عصمة اولي الامر فقال ان الله تعالى امر بطاعة اولي الامر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومن أمر بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوما من الخطأ ، اذ لو لم يكن معصوما من الخطأ وقدر

إقدامه عليه يكون الامر بإطاعته امرا بفعل ذلك الخطأ ، والمفروض ان الخطأ منهي عنه ، وهذا يفضي الى اجتماع الامر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وذلك محال عليه تعالى ، وبذلك يثبت ان كل من امر الله بطاعته على سبيل الجزم لا بد وأن يكون معصوما .

والشيعة يتفقون مع الرازي في وجوب عصمة أولي الامر لاسيما وقد قرن أولي الامر بالله والرسول من ناحية اطاعتهم والتسليم لامرهم وبلا شك فان الرسول معصوم عن الذنوب في جميع حالاته ، فلا بد وأن تكون لأولي الامر هذه الميزة على من سواهم من الناس ، ومن غير المعقول ان يأمر الله بإطاعتهم بهذا الاسلوب ومن غير تقييد مع صدور الخطأ منهم ومع ان الشيعة يتفقون مع الرازي في النتيجة التي انتهى اليها من هذه الآية ولكنهم يختلفون معه في المراد من أولي الامر ، فهو يدعي ان المراد من أولي الامر المعصومين من الخطأ هم اهل الحل والعقد من المسلمين بالتقريب التالي ، وحاصله انه لا يمكن ارادة الامام المعصوم من أولي الامر كما تدعيه الروافض على حد تعبيره لان اطاعته والرجوع اليه في مشاكل الحياة مشروطة بمعرفته والتمكن من الوصول اليه وهم يعترفون بغيبته وعدم التمكن من الوصول اليه والتكليف بإطاعته والحال هذه لا يغني شيئا ، فلا بد وأن يكون المراد بأولي الامر غير ما تدعيه الشيعة ، وليس ذلك الا جماعة المسلمين من اهل الحل والعقد .

ومضى يقول : ان في الآية ما يدفع دعوى الشيعة ، ذلك لان الله تعالى امر بطاعة الله والرسول وأولي الامر بأسلوب واحد ولفظ واحد ، واللفظ الواحد لا يجوز ان يكون مطلقا ومشروطا ، لانه بالنسبة الى الله والرسول مطلق ، وبالنسبة الى أولي الامر لا بد وأن يكون مشروطا بمعرفتهم والتمكن من الوصول اليهم .

هذا اولا ، وثانيا ان الله امر بطاعة اولي الامر وأولي الامر جمع ،

وعند الشيعة لا يكون في كل زمان الا امام واحد ، وإرادة الفرد من الجمع خلاف الظاهر ، وثالثا ان الله يقول : فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول • ولو كان المراد بأولي الامر الامام كما يدعيه الروافض لوجب ان يقول فان تنازعتم في شيء فردوه الى الإمام ، لانه يعبر عن الله والرسول بزعمهم ، وانتهى اخيرا الى القول بأن الحق في تفسير الآية ما ذكرناه لا ما ذكره الروافض وغيرهم •

والذي ينبغي ان يقال في تفنيد رأي الرازي ، هو ان المستفاد من الآية ان اولي الامر هم الذين بلغوا مرتبة من العلم والدين لا يجوز عليهم معها افتراض الخطأ والانحراف عن الحق لاسيما بعد ان قرن الله طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ، وأهل الحل والعقد المجمعون على امر من الامور مهما بلغوا من الكثرة لا يتصور في حقهم ان يكونوا بهذا المستوى ، الا اذا اتفقت الامة كلها بحيث لم يشذ منها احد ، والاجماع عندهم لا يتوقف على استقطاب رأي الامة بكاملها واتفاقها على رأي واحد ، بل ينعقد بالخمسة والستة وبالاقل من ذلك كما تصرح بذلك كتبهم ومؤلفاتهم في هذا الموضوع •

ومن المعلوم ان اهل السنّة الذين اعتبروا الاجماع من أصول التشريع التي لا يجوز مراجعتها ولا التشكيك فيها ، وتساهلوا فيه الى هذه الحدود لم تكن غايتهم من ذلك الا تصحيح خلافة ابي بكر التي اتفق عليها عمر بن الخطاب ونفر قليل غيرهما من المهاجرين والانصار في بداية الامر ، في حين ان المخالفين والمعارضين كانوا من سراة المسلمين وأكثر من المجمعين عليه ومعهم علي (ع) الذي قال فيه النبي (ص) في حديث متفق عليه بين السنّة والشيعة علي مع الحق والحق معه يدور كيفما دار ، وقد جعله في حديث الثقلين عدلا للقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفي حديث آخر جعله كسفينة نوح لا ينجو من غضب الله وسخطه غير المتمسك بها •

وما اكثر الاخطاء التي ارتكبها المجمعون من المسلمين بالمعنى الذي ذكروه للاجماع ، تلك الاخطاء التي كان لها اثرها السيء على مصير المسلمين في تاريخهم الطويل ولا يزال المسلمون يعانون من أخطارها حتى اليوم .

وبلا شك فان الرازي يعرف ذلك جيدا ويعلم ان اولي الامر الذين قرن الله طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله هم اهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس والذين عناهم في حديث الثقلين وغيره من النصوص الكثيرة التي اشادت بفضلهم وحثت على ولائهم والسير على خطاهم والاعتصام بهم ولكن العلم شيء والتجرد للحق وللحقيقة حتى ولو خالف ما نشأ عليه وورثه من الآباء والاجداد شيء آخر .

على ان قوله : ان طاعتهم مشروطة بمعرفتهم والتمكن من الوصول اليهم ، والتكليف بإطاعتهم بدون ذلك تكليف بما لا يطاق الى آخر كلامه ، هذا القول في منتهى الغرابة من عالم كالرازي ، اذ لازمه ان تتحول جميع القضايا المطلقة الى قضايا مشروطة ، ذلك لان كل حكم يتوقف أمثاله على معرفة متعلقه، فامتثال اوامر الصلاة والصيام والزكاة لا يمكن ان يحصل بدون معرفة هذه الموضوعات ، فلو إعتبرنا معرفة المتعلق شرطا كما يدعي الرازي لزم ان يكون الوجوب مشروطا ، وذلك لا يعدو ان يكون من الخلط بين مقومات الوجوب ومقومات الوجود، ومن غير المعقول ان يتمكن المكلف من الامتثال بدون معرفة المتعلق المأمور به ، ولكن ذلك لا يعني اكثر من كونه شرطا لامتثال التكليف لا لأصله كما هو الشأن في اكثر المقومات التي يتوقف عليها الامتثال ، وقد التزم اكثر الاصوليين بوجوب تحصيل هذا النوع من المقدمات ، في حين انه لم يلتزم احد بوجوب تحصيل مقدمات الوجوب ، ذلك لان الوجوب قبل حصولها غير موجود لكي يتولد منه وجوب تحصيل مقوماته ، وانما يتحقق الوجوب بعد وجودها ، وبعد وجودها لم يعد

لوجوبها اي فائدة للزوم تحصيل الحاصل .

هذا بالاضافة الى ان معرفة المتعلق للتكاليف لا يمكن اخذه شرطا للتكليف بما هو متعلق له لتأخره رتبة عنه وأخذه شرطا له يستدعي تقدمه ، وتقييد المتقدم في المتأخر يقضي بكون المتأخر متقدم في واحد.

على ان الملاحظة التي أبداها الرازي على ما يدعيه الشيعة وبعض محدثي السنّة بعينها واردة على النتيجة التي انتهى اليها وهي تفسيره لأولي الامر باجماع الامة على حد تعبيره ، لان اجماع اهل الحل والعقد او اجماع الامة لا بد من معرفته ، وبلا شك ان معرفتهم أشق وأعسر من معرفة فرد او أفراد في أزمنة متفاوتة ، لان الاجماع هو اتفاق الكل او اهل الحل والعقد ، وليس من السهل استقراؤهم والاطلاع على آرائهم فيلزمه على منطقه في ايراده على الشيعة ومن تبعهم من محدثي السنّة تقييد وجوب الاطاعة بمعرفة المجمعين ، وبالاضافة الى تعسر هذا الشرط يكون وجوب الاطاعة مقيدا بحصوله ، وقبله لا وجوب وبعده يكون التكليف به من باب تحصيل الحاصل كما ذكرنا في تقريب أشكاله على من أسماهم بالروافض .

والشيء الغريب في كلامه دعواه العجز عن الوصول الى الأئمة ومعرفة آرائهم ، ووجه الغرابة في ذلك هو ان اطاعة الله والرسول وأولي الامر لا تعني الا الرجوع الى ما يقولون ويرتأون ولا يتوقف ذلك على الاتصال بأشخاصهم ، ومعرفة اقوالهم وآرائهم ليست بذلك الامر العسير بعد توفر الادلة على معرفتهم ومعرفة آرائهم في جميع المشاكل بواسطة من اخذوا عنهم من الرواة الموثوقين ممن عاصرهم او اتصل بمعاصريهم ، وقد دأب الشيعة في اصولهم وفقههم على الرجوع الى رواة احاديثهم لاسيما بعد الغيبة التي اصبح الاتصال فيها بالإمام متعذرا على اي كان من الناس ، وحتى في عصر الظهور لم يكن الاتصال بهم مباشرة ميسورا لكل انسان ، فالبعيد عنهم كان يرجع

الى رواة احاديثهم وبعد الغيبة خلال تلك القرون فالمرويات في مجاميع الحديث التي تنتهي بأسانيدها الى النبي والأئمة (ع) هي المصدر بعد كتاب الله لكل ما ينسبه الشيعة من الاحكام والآراء الى النبي والأئمة الهداة من اهل بيته الذين تعنيهم هذه الآية وغيرها من الآيات والمرويات عن الرسول (ص) كحديث الثقلين وغيره مما لا يقبل التفسير بغير الائمة الا بعد التأويل والتحوير البعيدين عن ظاهر تلك الآيات والروايات وما أحيط بها من القرائن والملابسات .

والجواب عن الاشكال الثاني الذي وجهه الرازي على الشيعة والذي جاء فيه ان أولي الامر من صيغ الجمع وعند الشيعة لا يكون في الزمان الواحد الا إمام واحد ، وحمل الجمع على الفرد خلاف الظاهر . ومحصل الجواب عن هذا الايراد ، ان الظاهر من هذا النوع من العمومات هو العموم الاستغراقي الذي لا يشترط فيه اجتماع أفراده كلهم في وقت واحد ، فاذا قال القائل : اكرم العلماء فيصح هذا الحكم منه ولو كان وجود العلماء مترتبا بحسب الزمان ، فهو أشبه بما يسميه الاصوليون بالقضايا الحقيقية التي يكون الحكم فيها متجها الى الافراد ما وجد منهم وما سيوجد ، كما هو الشأن في اكثر العمومات القرآنية، نعم لا بد وأن يكون لأولي الامر عدد يصح معه التعبير بصيغة الجمع سواء كان ذلك على التعاقب او حين صدور الخطاب ، وهذا الشيء موفور لدى الشيعة الإمامية .

والجواب عن الايراد الثالث من الاشكالات التي وجهها الرازي على الشيعة ، والذي جاء فيه ان الآية لو كانت تعني أئمة الشيعة لوجب ان يقول فان تنازعتم في شيء فردوه الى الامام لانه يعبر عندهم عن الله والرسول ، مع ان الفقرة الثانية من الآية نصت على وجوب رده الى الله والرسول لا غيره. ومحصل الجواب ان عدم اشتمال الفقرة الثانية من الآية على ذكر اولي الامر لا يخل بالمراد لجواز الحذف في الكلام اعتمادا

على ذكر المحذوف في الفقرة الاولى الذي يغني عن اعادة ذكره ، بل يكون الحذف في بعض الاحيان من محسنات الكلام ، وبعد ان فرضت الآية اطاعة الله والرسول وأولي الامر لم يعد من موجب لذكر أولي الامر • ثانيا لاسيما بعد ان قال في الآية الثانية ولو ردوه الى الرسول وأولي الامر لعلمه الذين يستنبطونه منهم [1] •

ومجمل القول ان الآية تدل بمنطوقها على وجوب اطاعة الله والرسول وأولي الامر ولكنها بمنطوقها ليست صريحة في الائمة من اهل البيت ، فلا بد من الخروج عن نطاق الآية لمعرفة من هم اولئك الذين اقترنت اطاعتهم بإطاعة الله ورسوله ، وقد اعتمد الشيعة على مجموعة من الادلة منها ما يدل على المراد بظهوره ومنها ما يدل عليه بواسطة القرائن والملابسات التي تحيط به ، فمن ذلك آية التطهير التي تحدثنا عنها وحديث الثقلين الصريح في ان المتمسك بعترة النبي كالمتمسك بالكتاب لن يضل ابدا ، والحديث الذي شبه فيه اهل بيته بسفينة نوح، ومن المعلوم ان جهات الشبه بينهما مردها الى ان من يتولاهم ويعتصم بهم ويسير على خطاهم ينجو من العذاب والعقاب كما نجا من كان مع نوح من الغرق •

وأحاديث: الائمة اثنا عشر كلهم من قريش، التي نص بعضها على انهم من ولد علي وفاطمة بعددهم وأسمائهم فردا فردا ، وحديث : اهل بيتي أمان لاهل الارض كما ان النجوم أمان لاهل السماء ، الى كثير من الآيات والروايات التي تدل بمجموعها دلالة قاطعة على ان أولي الامر في الآية وعترته وأهل بيته في بقية الاحاديث هم الائمة الاثنا عشر من عترته لا غيرهم من اصحابه وعصبته لعدم توفر المؤهلات المطلوبة في هؤلاء وغيرهم من الناس •

---

١ ــ انظر الجزء العاشر من الرازي ص ١٤٥ و١٤٦ .

وقد حاول جماعة من مؤلفي السنّة ان يطعنوا في دلالة تلك الاحاديث على ما تدعيه الشيعة بعد ان وجدوا ان اسانيدها لا تقبل المراجعة ، فقالوا بأن تلك الاحاديث ليست نصا على امامة الاثني عشر ولا ظاهرة فيهم ظهورا تطمئن اليه النفس ، ومن هؤلاء الشيخ محمد ابو زهرة في كتابه الامام الصادق (ع) ص ١٩٩ .

وقد جاء فيه : وبعد التسليم بصحة اللفظ اي لفظ العترة في حديث الثقلين دون لفظ سنّتي الذي رجح ابو زهرة روايته على رواية عترتي ، فقد قال بأن لفظ عترتي على تقدير وروده في حديث الثقلين فلا يعين من ذكروهم من الائمة المتفق عليهم عند الإمامية الفاطميين ، بل هو لا يعين اولاد الحسين دون اولاد الحسن كما لا يعين واحدا من هؤلاء بهذا الترتيب ، وكما لا يدل على ان الامامة تكون بالتوارث لا يدل على الامامة السياسية ، وانه ادل على امامة الفقه والعلم من كل ذلك . وهذا الكلام وجيه في ذاته فان جميع القضايا لا تشخص موضوعاتها ، ولكن بعد القرائن والمناسبات التي أحيطت بتلك الاحاديث لم يعد بعد اخذها بعين الاعتبار مجال للتردد فيما تعنيه من كلمتي اهل البيت والعترة ، وقد جاء في ملابسات آية التطهير ان النبي (ص) بعد ان جمع عليا وفاطمة والحسنين (ع) تحت كساء خيبري تلا الآية ، كما وان حديث الثقلين وسفينة نوح وغيرهما مما اشتمل على كلمتي اهل البيت او العترة وجعلهما كالكتاب تارة وكسفينة نوح اخرى وأمان لاهل الارض ثالثة لا بد وأن يرادفها من بلغ اعلى درجات العلم والدين من اهل بيته وعترته وليس ذلك غير الائمة (ع) وبلا شك فان المسلمين الاوائل كانوا يعرفون من يعنيه النبي (ص) من اهل بيته وعترته لاسيما وقد شاهدوه خلال تسعة شهور يقف في اكثر الايام على باب علي وفاطمة ويقول : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ، كما جاء في رواية عبد الله بن العباس وغيره ، كما شاهدوه يخرج الى

المباهلة وليس معه غير علي وفاطمة وولديها وهو يقول: اللهم هؤلاء اهلي كما جاء في صحيح مسلم جـ٧ ص ١٣١ والترمذي والحاكم في المستدرك وغيرها من المصادر السنية .

وكما ذكرنا في مطلع حديثنا عما تعنيه هذه الكلمة ان النبي (ص) قد استعملها في اكثر من مناسبة في معرض التنبيه والتنويه بفضل عترته، فقد جاء فيما رواه جماعة من المحدثين بأسانيدهم الى زيد بن ارقم ، وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري ، والسيدة عائشة وأبي ذر وحذيفة بن اسيد وغيرهم من الصحابة ان النبي (ص) قال : ايها الناس اني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي ، وجاء في اكثر النصوص انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . وروى بعض الصحابة عنه انه كان يقول في بعض المناسبات: ان الله سائلكم عن اثنتين عن القرآن وعترتي اهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

وفي رواية اخرى عنه انه لما نزل الجحفة في طريقه الى المدينة من حجة الوداع وقف خطيبا فيمن كان معه من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : اني لا اجد لنبي الا نصف عمر الذي قبله ، واني يوشك ان ادعى فأجيب ، ومضى يقول : أليس تشهدون ان لا إله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وان الجنة حق والنار حق ، قالوا نشهد بذلك ، فرفع يده ووضعها على صدره ، ثم قال : وأنا أشهد معكم فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين ، فناداه مناد وما الثقلان يا رسول الله ، فقال كتاب الله طرف بيد الله وطرف بأيديكم وعترتي اهل بيتي، وان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم . ثم اخذ بيد علي (ع) وقال من كنت أولى به من نفسه فعلي وليه

الى غير ذلك من الصيغ المختلفة التي روي بها الحديث الذي أوصى به النبي بالتمسك بكتاب الله وعترته من اهل بيته .

وبلا شك فان هذا الاختلاف لا يوجب وهنا في الحديث المذكور ما دام الاختلاف ناتجا عن صدوره من النبي (ص) اكثر من مرة حسب المناسبات مع وحدة المضمون [1] ، ويكاد ان يكون متواترا في معناه لكثرة من رواه من الصحابة وغيرهم .

وجاء في فيض القدير عن السمهوري ان الذين رووه عن النبي من الصحابة يزيدون على عشرين صحابيا ، وأكد ذلك ابن حجر في صواعقه .

وممن رواه من المحدثين مسلم في صحيحه بأسانيد متعددة ، والترمذي والنسائي ، والحاكم في المستدرك ، وأحمد في مسنده ، وابن سعد في طبقاته ، وأبو نعيم في حلية الاولياء ، وابن الاثير الجزري في أسد الغابة والمتقي فيكنز العمال والهيثمي في مجمع الزوائد والمناوي في فيض القدير وابن جرير في تاريخه والمسعودي في مروجه وابنهشام في سيرته وابن كثير في بدايته الى غير هؤلاء من المحدثين والمؤرخين الذين دوّنوه ووصفوه بالصحة حتى على شرط الشيخيين على حد تعبير الحاكم في مستدركه .

وجاء في صواعق ابن حجر طبع شركة الطباعة الفنية في القاهرة ، لقد سمى رسول الله (ص) القرآن وعترته ثقلين ، لأن الثقل كل نفيس

---

١ ــ فلقد روى جماعة عنه انه قال ذلك في حجة الوداع بعرفة، ورواه عنه آخرون في غدير خم وفي خطبة خطبها بعد رجوعه من الطائف ، وفي مرضه الاخير وحوله جمع غفير من اصحابه كما نصت على ذلك طائفة اخرى من المرويات الى كثير من مواقفه التي كان يستغل فيها المناسبات ليؤكد على المسلمين حق اهل بيته وحرمتهم .

خطير ومصون وهذان كذلك لان كلا منهما معدن للعلوم الدينية والاسرار والحكم العلية والاحكام الشرعية ، ولذا حث رسول الله (ص) على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم وقال الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة اهل البيت وأضاف الى ذلك وقيل سميا ثقلين لثقل رعاية حقوقهما ومضى يقول : والذي حث على التمسك بهم هم العارفون بكتاب الله وسنّة رسوله ، اذ هم الذين لا يفارقون الكتاب ، ويؤيده الجزء السابق ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم ، وتميزوا بذلك عن بقية العلماء لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وشرفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة واستطرد يقول : ان احاديث الحث على التمسك بأهل البيت تشير الى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به الى يوم القيامة كما هو الحال في الكتاب العزيز .

وبلا شك فان اهل بيته الذين جعلهم النبي (ص) احد الثقلين ولن يفترقا عن القرآن ولا يضل المتمسك بهم هم الذين عنتهم الآية من سورة الاحزاب انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ، ولم تتوفر هذه المزايا الا بعلي وفاطمة والائمة من بنيهما ، لانهم هم الذين كانوا يعكسون نصوص القرآن وأوامره ونواهيه ووصاياه في سيرتهم وسلوكهم في جميع مراحل حياتهم ، وليس باستطاعة احد حتى ولو استبد به الحقد والهوى ان يجد في تاريخهم الطويل ولو خدشة تمس تاريخهم الحافل بالجهاد والتضحيات الجسام ، والعمل في سبيل الله وخير الناس جميعا بلا استثناء، وكما جعلهم عدلا لكتاب الله الذي لا يضل من تمسك به وأمر بإطاعة الله ورسوله وإطاعتهم ، شبههم في حديث آخر بسفينة نوح التي لم ينج من عقابه الا من ركبها او تمسك بها، ومقتضى التشبيه انهم الباب الوحيد الى النجاة من الهلكة والضلال كما كانت السفينة يوم ذاك هي السبيل الوحيد للنجاة من الغرق .

فقد جاء في المجلد الاول من مستدرك الصحيحين بسنده الى حنش

الكناني انه قال : سمعت أبا ذر يقول : وهو آخذ بباب الكعبة ايها الناس من عرفني فأنا من عرفتم ومن أنكرني فأنا ابو ذر سمعت رسول الله (ص) يقول : مثل اهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق .

وقد روى هذا الحديث بهذه الصيغة او بما يقرب منها مع الاتفاق في المعنى كل من المتقي في كنز العمال وعلي بن سلطان في مرقاته والبزاز والطبراني وأبو نعيم في الحلية والمحب الطبري في ذخائره والبغدادي في تاريخه والسيوطي في الدر المنثور ، والمناوي في كنوز الحقائق والهيثمي في مجمع الزوائد ، وابن حجر في صواعقه وغير هؤلاء من المؤرخين والمحدثين ممن لا يسعنا استقصاؤهم ، ورواه الرواة بأسانيد مختلفة ومتعددة وأكثرها ينتهي الى ابي ذر وابن عباس وانس بن مالك وأبي سعيد الخدري وعلي بن ابي طالب (ع) كما جاء في كنز العمال جـ١ ص ١٩٠ .

ويبدو من الروايات الكثيرة المنتشرة في مجاميع الحديث السنية والشيعية ان النبي (ص) كان يحاول بمختلف الاساليب ان يهيء تلك الفئة الصالحة من عترته لقيادة الامة ويلفت أنظار المسلمين الى الرجوع اليهم فيما يعترض حياتهم من المشاكل والاحداث ما كان منها يتعلق بأمور الدين او الدنيا ، فمرة كان يشبههم بسفينة نوح وأخرى بباب حطة فيقول : انما مثل اهل بيتي فيكم كباب حطة في بني اسرائيل من دخله كان آمنا من عذاب الله ، ومرة ثالثة كان يشبههم بنجوم السماء، فيقول : النجوم أمان لاهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي من الضلال والهلاك ، الى غير ذلك من الاحاديث التي تؤكد بمجموعها وملابساتها وظروفها انه كان في منتهى الحرص على ان تبقى القيادة من بعده بأيد امينة صالحة مخلصة لكي تتابع المسيرة التي بذل في سبيلها كل راحته وامكانياته واستطاع بعد جهود مضنية وشاقة ان يقطع بها أشواطا

واسعة الى الامام في بضع سنوات معدودات ، وفي الوقت ذاته فان تلك المواقف التي وقفها من اهل بيته وعترته توحي بأنه كان يتخوف من ان تلعب الاهواء والاحقاد دورها البالغ بعد وفاته وتقودهم الى التنكيل بأهل بيته والصلحاء من أتباعهم وشيعتهم قتلا وتشريدا وإمعانا في البغي والفساد في الارض .

وجاءت الآية من سورة الشورى لتؤكد على الامة بأن الوفاء لمحمد والعرفان لجميله هو مودة قرباه وأهل بيته وحفظهم بعد وفاته حيث تقول :

قل لا أسألكم اجرا الا المودة في القربى ، وقد جاء في الكشاف للزمخشري وهو يتحدث عن معطيات هذه الآية ان رسول الله قال : من مات على حب آل محمد مات شهيدا الا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، الا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ، الا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت ومنكر ونكير بالجنة وفتح الله له في قبره بابين اليها ، الا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه ايس من رحمة الله ولم يشم رائحة الجنة .

وأضاف الى ذلك الفيروزأبادي في كتابه فضائل الخمسة ان الفخر الرازي في تفسيره الكبير وهو يفسر هذه الآية نقل ما تقدم عن الزمخشري ، وعقب عليه بقوله : ان آل محمد هم الذين يؤول امرهم اليه ، فكل من كان امرهم اليه أشد وأكمل كانوا هم الآل . ومضى يقول ولا شك بأن فاطمة وعليا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله من أشد التعلقات وهو معلوم بالنقل المتواتر فوجب ان يكونوا هم الآل لا غيرهم .

وأورد في مجمع الزوائد للهيثمي وكنوز الحقائق للمناوي وذخائر العقبى للمحب الطبري ، ونور الابصار للشبلنجي بعض المرويات عن

النبي (ص) حول هذا الموضوع وكلها تلتقي في مضمونها مع روايـــة الزمخشري التي رواها في الكشاف وهو يفسر آية القربى [1] .

وبلا شك فان رواية الزمخشري التي وضعت محبي آل بيت محمد بتلك المنزلة العالية وحرمت على مبغضيهم الجنة وحرمتهم من رحمة الله على تقدير صحتها انما تعني المحبين الذين يسيرون على خط آل محمد ويعملون بكل ما أمر الله وما نهى عنه ، اما الموالون والمتشيعون الذين لا يعملون ولا يتابعون آل محمد كما هو الحال في اكثر مدعي الولاء لهم فهم كغيرهم من الناس ان عذبهم الله فبعدله وان أدخلهم الجنـــة فبعفوه وكرمه ، وليس بكثير على محبيهم العاملين ان ينالوا تلـــك الدرجات الرفيعة اذا انتهى بهم الولاء الى متابعة آل محمد فيما قالوا وفعلوا ولا بكثير على مبغضيهم الذين يتبعون أعداءهـــم ويتنكرون لتعاليمهم التي لا تنفصل عن تعاليم القرآن وسنّة الرسول ليس بكثير عليهم اذا كانوا في أسفل درك الجحيم مع المنافقين والكافرين .

---

١ ــ انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ٢ ص ٧٨ و٧٩

الأئمة اثنا عشر كلهم من قريش

لقد قال النبي كما جاء في المرويات السابقة ان اهل بيته كالقرآن والمتمسك بهم كالمتمسك بالقرآن والمنحرف عنهم كالمنحرف عن القرآن وانهم كسفينة نوح وباب حطة ونجوم السماء وغير ذلك من النصوص التي تفرض على المسلمين ان يقتدوا بهم ويرجعوا اليهم في جميع أمورهم ومشاكلهم لم يكتف بذلك مخافة ان تستبد الاهواء والاحقاد بالمسلمين من بعده فيلجأوا الى التأويل والتحوير والتضليل ويستأثروا بالسلطة من بعده فنص على الخلفاء من بعده بعددهم كما في المرويات السنية وبعددهم وأسمائهم كما في المرويات الشيعية حتى لا يبقى عذر لمنحرف ولا حجة لمتأول ومضلل ومع ذلك فقد فسرها السنّة بما يتفق مع واقعهم ومعتقداتهم ولو مضت الخلافة الاسلامية كما ارادها النبي (ص) لكانت هذه النصوص وغيرها بنظر اولئك الذين صوروها وتأولوها وكأنها من وحي السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومهما كان الحال فقد جاء في صحيح البخاري كتاب الاحكام بسنده الى جابر بن سمرة انه سمع النبي (ص) يقول : يكون اثنا عشر اميرا ،

وأضاف الى ذلك الراوي ان النبي قال كلمة خفيت عليه ولكن أبـــاه سمعه يقول : كلهم من قريش .

وهذا الحديث بنصه رواه أحمد بن حنبل في المجلد الخامس من مسنده بطريقين .

وجاء في كتاب الامارة من صحيح مسلم ، ان جابر بن سمرة قال: دخلت مع ابي على النبي (ص) فسمعته يقول : ان هذا الامر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش . وفي رواية ثانيـــة رواها مسلم في صحيحه ايضا ان النبي (ص) قال : لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش .

ورواه الترمذي في صحيحه بهذا النص وابن حجر في صواعقه ، والحاكم في المستدرك ، وزاد فيه ان النبي قال عدد نقباء بني اسرائيل، كما رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ، والمتقي في كنز العمال . وجاء في كنز العمال ان ابن عدي وابن عساكر قد أسنداه الى ابن مسعود عن النبي (ص) ورواه المناوي في فيض القديـــــر وغيره من المحدثين والمؤلفين [1] .

وجاء في رواية ابي نعيم في حلية الاولياء صفحة ٨٦ من المجلد الاول بسنده الى عبد الله بن عباس ان رسول الله قال : مـــن سره ان يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن فليوال عليا بعـــدي ويقتـــد بالائمة من بعدي فانهم عترتي خلقوا من طينتي ورزقوا فهما وعلما وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي لا أنالهم الله شفاعتي.

والذي لا يسع الباحث تجاهله والتنكر له ان هذه الروايات مع ما بينها من الاختلاف في صيغها كلها متفقة على ان العدد المستحق للامامة

---

١ ــ انظر فضائل الخمسة جـ٢ ص ٢٣ و٢٤ .

او الخلافة او الامارة حسب اختلاف الروايات لا يتجاوز الاثني عشر عدد نقباء بني اسرائيل الذين بعثهم الله لارشاد قومهم وانقاذهم من الضلالة كما تشير الى ذلك الآية :

● ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا .

كما نصت رواية ابي نعيم السابقة على انهم من عترة النبي ومن طينته ، ونص غيرها على انهم باقون ما بقي الاسلام او حتى تقوم الساعة كما نصت على ذلك رواية مسلم في صحيحه ، او ما بقي اثنان على وجه الارض كما جاء في روايته الثانية .

وبلا شك فان بقاءهم الطويل لا يعني بقاءهم مجتمعين ما بقي الدهر ولا بأشخاصهم لان ذلك لم يكتب لاحد من الناس ، بل يعني وجودهم على سبيل التعاقب الى أمد لا يعلمه غير الله ويكون بقاؤهم بعد ذلك ببقاء تعاليمهم ومناهجهم ومبادئهم التي تمد البشرية والاجيال بالخير وتوفر لها اسباب الراحة والحياة الحرة الكريمة الى حيث يشاء الله .

ولو تخلينا عن تفسير الامامية لتلك المرويات المتفق على صدورها من النبي (ص) لم يبق لها معنى مقبول تطمئن اليه النفس ، ذلك لان الخلافة بالشكل الذي سارت عليه قد تولاها من قريش أضعاف هذا العدد ، ولا يمكن التوفيق بين الخلافة بهذا المعنى وبين العدد الذي حدده النبي (ص) بتلك المرويات الا بعد التمحل والتأويل الذي لا ينسجم مع تلك المرويات بنصها ومضمونها ولذا فان اكثر محدثي السنّة وعلمائهم بعد ان وجدوا ان الذين تعاقبوا على الحكم بعد النبي (ص) من راشدين وأمويين وعباسيين يبلغون نحوا من ثلاثين حاكما اضطروا الى تأويلها والانحراف بها عن الائمة الاثني عشر من ذريته مهما كان الحال .

فقد جاء عن البيهقي ان العدد الذي تضمنته المرويات عن النبي (ص)

ينتهي بخلافة هشام بن عبد الملك ، ورد عليه ابن كثير في تاريخه بأن الذين تعاقبوا على الحكم باسم الخلفاء الى هذا التاريخ اذا ضممنا اليهم عبد الله بن الزبير يبلغون ستة عشر حاكما .

وقال آخرون : ان الاثني عشر الذين اشار اليهم النبي ينتهون باتتهاء ولاية سليمان بن عبد الملك ، فيكون يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم الطريد بن الطريد من الخلفاء الباقين ما بقي الدهر وممن لا يزال الدين قائما بخلافتهما ، ويخرج من العدد الذي حدده النبي عمر ابن عبد العزيز المعروف بعدله وحكمته ونقمته على سياسة الطغاة الذين حكموا قبله من تلك الاسرة .

وذهب بعضهم الى ان العدد الذي جاء في تلك المرويات يعني الخلفاء الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان وتسعة من حكام الامويين ممن اجتمعت الامة عليهم ، وقد أخرج منهم امير المؤمنين وولده الحسن بن علي لان الامة لم تجتمع عليهما على حد تعبيره .

وجاء في تاريخ ابن كثير ان البيهقي روى عن حاتم بن ابي صفرة عن ابي بحر انه قال : كان ابو الجلد جارا لي فسمعته يقول ، ويحلف على ما يقول : ان هذه الامة لن تهلك حتى يكون فيها اثنا عشر خليفة كلهم يعمل بالهدى ودين الحق منهم رجلان من اهل البيت احدهما يعيش اربعين سنة والآخر ثلاثين [1] .

ورأى بعضهم ان احاديث الاثني عشر تشير الى انهم يمثلون الاسلام تمثيلا صادقا ويعملون من اجل بقائه وانتشاره وهذه الصفات لا تنطبق الا على النخبة المختارة من بين اولئك الذين تعاقبوا على السلطة خلال القرون الاولى من تاريخ الاسلام فعد الخلفاء الاربعة والحسن بن علي (ع) وعمر بن عبد العزيز وغيره ممن عرفوا بحسن السياسة والعدل

---

١ ــ انظر جـ٢ من تاريخ ابن كثير ص ٢٤٩ و٢٥٠ .

في الرعية من العباسيين والامويين ، وأضاف السيوطي الى الخلفاء الاربعة والحسن بن علي وعمر بن عبد العزيز عبد الله بن الزبير والمهدي العباسي والملك الظاهر ومعاوية بن ابي سفيان . ومضى يقول ان المواصفات التي ارادها النبي لا تنطبق على الباقين ويبقى اثنان ليتم بهما العدد الذي حدده النبي (ص) منتظران على حد تعبيره وهما محمد ابن الحسن المهدي المنتظر وشخص آخر لم يذكره باسمه . الى غير ذلك من التحملات والمغالطات التي وقع بها بعض محدثي السنّة وعلمائهم بعد ان وجدوا ان لا مفر لهم من الاعتراف بصدورها عن النبي (ص) كما هو الحال في غيرها من المرويات التي وجدوا انفسهم ملزمين بتأويلها وتحويرها للتوفيق بينها وبين الواقع الذي انتهت اليه الخلافة الاسلامية.

ومجمل القول ان موقف السنّة من هذه المرويات بعد ان التزم اكثرهم بصدورها عن النبي (ص) لا يقره المنطق ويبدو عليه التكلف والتحيز ، في حين ان موقف الشيعة منها منسجم كل الانسجام مع ظواهرها ومضامينها ، وما كان النبي (ص) ليقف اكثر من مرة بين اصحابه ليعلن عليهم هذا العدد من الخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم من بعده في حين ان جميع الخلفاء اذا استثنينا بعض الراشدين وعمر بن عبد العزيز كانوا اداة هدم وتخريب اكثر منهم اداة اصلاح وهداية ، مع العلم انه في بعض تلك المرويات قد ربط بين الخلفاء الاثني عشر وبين بقاء الدين كما جاء في رواية مسلم الثانية في صحيحه .

ومن غير المعقول والجائز ان يخبر النبي (ص) عن اثني عشر من تعاقبوا على الحكم من بعده من اصل ثلاثين او اكثر كلهم قد حكموا بلون واحد وأسلوب واحد اذا استثنينا بعض المفارقات التي كانت تقتضيها طبيعة العصر ومصالحهم الخاصة .

والواقع الذي يجب المصير اليه كما هو الظاهر من تلك المرويات وصونا لكلام الرسول عن اللغو ان الاثني عشر المعنيين من تلك المرويات

هم الائمة من عترته على التعاقب ، والإمام الثاني عشر محمد بن الحسن باق وسيبقى ليخرج برسالته حتى ولو بقي على وجه الارض اثنان لا غير وسيبقى الدين ببقاء تلك الآثار التي ورثوها عن جدهم وتركوها بين أيدي الاجيال مشعل هداية لبني الانسان تمده بكل اسباب السعادة والكرامة في حياته وبما يحقق له الفوز بنعيم الآخرة لو قدر له ان يسير على هديها ويستفيد من وحيها .

وقال الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت : لقد توفرت في أئمة اهل البيت حصنة الاسلام وحماته والادلاء على مرضاة الله وطاعته الصفات الآتية كما ذكرها الماوردي وابن خلدون :

العدالة بشروطها الجامعة وهي الامتناع عن ارتكاب كبائر الذنوب وصغارها ، والعلم بما تحتاج اليه الامة في جميع مجالاتها ومعرفة النوازل والاحكام والشجاعة والنجدة والنسب لان الامامة لا تكون الا في قريش ، والعصمة وقد عرفها المتكلمون بأنها لطف من الله يفيضها على أكمل عباده ، وبها يمتنع من ارتكاب الجرائم والموبقات عمدا وسهوا .

ومضى يقول ان الشيعة اجمعت على اعتبارها في الإمام ، ويدل عليها حديث الثقلين حيث قرن الله بين الكتاب والعترة وكما ان الكتاب معصوم من الخطأ والزلل فكذلك العترة الطاهرة ، وإلا لما صحت المساواة بينهما . وبعد ان عدّد المزايا والصفات التي حباهم الله بها انتهى الى القول بأن هذه الاوصاف لم تتوفر الا في أئمة اهل البيت حصنة الاسلام وحماته والادلاء على مرضاة الله وطاعته .

واستطرد الاستاذ ابو علم في حديثه الذي يتسم بالاعتدال والتجرد لخدمة الحقيقة حتى انتهى الى الحوار الذي دار بين الامام علي بن موسى الرضا من جهة وبين المأمون وبعض العلماء من جهة ثانية وجاء فيه كما نقل المؤلف عن عيون الاخبار ان الامام الرضا قال للمأمون ومن

معه من العلماء في حديث طويل : ان الله فسر اصطفاء العترة في اثني عشر موضعا من كتابه ، وعد منها وانذر عشيرتك الاقربين وآية التطهير وآية المباهلة التي نزلت على النبي حينما وفد عليه نصارى نجران بقيادة زعمائهم وخرج النبي اليهم ليباهلهم بعد حوار طويل ومعه علي وفاطمة والحسنان بأمر من الله سبحانه كما نصت على ذلك الآية: ● فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين .

وقد اتفق اكثر المحدثين ان الآية تعني بأنفسنا عليا والنبي وبنسائنا فاطمة الزهراء (ع) وبأبنائنا الحسن والحسين لانه لم يخرج الى القوم بغيرهم كما أجمع على ذلك المؤلفون في سيرة الرسول (ص) .

كما عد من الآيات التي نزلت في عترة النبي الاية : وآت ذا القربى حقه ، ومضى يقول : فلما نزلت هذه الآية على النبي قال لفاطمة : هذه فدك مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب هي لي خاصة دون المسلمين وقد جعلتها لك بعد ان امرني الله بذلك فخذيها لك ولولدك . وعد منها الآية : قل لا اسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى ، وعقب على ذلك الامام الرضا (ع) ان هذه المودة فريضة من الله تعالى على كافة المؤمنين لا يأتي بها احد مؤمنا مخلصا الا استوجب الجنة لقوله تعالى :

● والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ، ومضى الامام (ع) يقول : ولكن ما وفى بهذه الآية اكثرهم .

وأضاف الى ذلك : حدثني ابي عن جدي عن آبائه عن امير المؤمنين (ع) انه اجتمع المهاجرون والانصار الى رسول الله (ص) فقالوا: ان لك يا رسول الله مؤونة لنفقة عيالك ولمن يأتيك من الوفود وهذه

أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها بارا مأجورا اعط ما شئت وامسك ما شئت من غير حرج ، فأنزل الله عليه الروح الامين وقال: يا محمد قل آية لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ، فقال المنافقون : ما حمل رسول الله على ترك ما عرضناه عليه الا ليحثنا على مودة قرابته من بعده ، ان هو الا شيء افتراه في مجلسه ، فأنزل الله تعالى عليه : ● ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور •

ولما تلا عليهم النبي الآية وعلموا بأن الله قد أخبر نبيه بمقالتهم ندموا واشتد عليهم الامر أنزل الله عليه الآية :

● وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون •

كما عد منها الآية: ● ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما • فقيل يا رسول الله عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك ، فقال قولوا : اللهم صلّ على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم وآل ابراهيم انك حميد مجيد ، وقد قال تعالى : سلام على إل ياسين ، يعني بذلك آل محمد ولم يسلم على آل احد من الانبياء سواهم •

ومضى يقول ومنها قوله تعالى : فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ، فنحن اهل الذكر ، لان الذكر هو رسول الله ونحن اهله ، بدليل قوله تعالى في سورة الطلاق : فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد انزل الله عليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات بيّنات •

واستمر الامام عليه السلام يسرد الآيات التي تخص اهل البيت وتفضلهم على جميع الناس وفيما هو يتحدث الى المأمون ومن معه من العلماء ، قال له المأمون ومن معه : نحن نشهد بأنكم اهل بيته المعنيون بهذه الآيات فجزاكم الله عن أمته خيرا •

وبعد ان عرض الاستاذ ابو علم ما قيل وما يمكن ان يقال حـــول الآيات والاحاديث التي ورد فيها ذكر اهل البيت تصريحا وتلميحا قال : وأخيرا لا آخرا فالرأي عندي والله أعلم ان اهل البيت هم اهل الكسا علي وفاطمة والحسن والحسين ومن خرج من سلالة الزهراء وأبـــي الحسن (ع) . وعقب على ذلك بقوله : ان رأيي هذا يستقيم مع الروايات الصحيحة التي قدمناها ويجعل الباحث يعكف على بحثه وهو مطمئـــن ويخرج للناس تاريخا صحيحا عن هذه العترة النبوية الكريمة التي قال فيها افضل الخلق (ص) حرمت الجنة على من ظلم اهل بيتي وآذاني في عترتي ، ومن اصطنع صنيعة الى احد منها ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا اذا لقيني يوم القيامة ، وقال في جملة من الاحاديث رواهـــا المحدثون في صحاحهم ومجاميعهم : والذي نفسي بيده لا يدخل قلب امرىء الايمانَ حتى يحب اهل بيتي لله ولقرابتي ، ومن احب حسنـــا وحسينا وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة .

الصحابية الاولى خديجة بنت خويلد

لقد رأيت قبل الحديث عن سيرة الائمة الاثني عشر ان أتحدث ولو يسيرا عن السيدتين خديجة ام الزهراء وجدة الائمة الاثني عشر التي ساهمت في بناء الاسلام بمالها وجاهها وتحملت في سبيل ذلك كل انواع الاذى والاضطهاد واستقبلت الدعوة بقلب مفتوح لكل تعاليمها وايمان راسخ بأن الله لن يخذل نبيه ، وحينما جاءها في اللحظات الاولى من نزول الوحي عليه خائفا غريب النظرات حاولت ان ترد اليه السكينة والامن وتسبغ عليه ود الحبيبة واخلاص الزوجة وتضمه الى صدرها فيجد فيها حنان الام الذي يحميه من كل عدوان في هذه الدنيا .

وفي ذلك تقول بنت الشاطىء : هل كان لزوجة عداها ان تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته خديجة به من حنان مستثار وعطف فياض وايمان قوي دون ان يساورها في صدقه أدنى ريب او يتخلى عنها يقينها بأن الله غير مخزيه ابدا ، هل كان في طاقة سيدة غير خديجة غنية مترفة منعمة ان تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف الى جانب زوجها في أحلك اوقات المحنة وتشاركه في أفدح الوان الاذى وصنوف الاضطهاد في سبيل ما تؤمن

به ، كلا بل هي وحدها التي اعدتها الاقدار لتملأ حياة النبي ، ولتكون له ثقة وطمأنينة وسلاما .

فمن الوفاء لحقها العظيم على جميع المسلمين ان تتحدث عنها حسبما يسمح به الوقت ونحن بصدد الحديث عن أحفادها الائمة الاثني عشر الذين شاء الله ان تكون لهم أما وزوجها العظيم أبا .

وعن ابنتها فاطمة الزهراء التي آثرها الله بالنعمة الكبرى فحصر في ولدها ذرية الرسول وحفظ بها أشرف سلالة عرفها العرب في تاريخهم الطويل ، فكانت وحدها الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة والمنبت الطيب لعترة الرسول من اهله وذويه .

لقد ولدت خديجة بنت خويلد زوجة النبي الاولى من ابوين قرشيين، فأبوها خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب .

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الاصم وتنتهي في نسبها الى لؤي بن فهر بن غالب ، كما وان ام فاطمة هالة بنت عبد مناف بن الحارث وتنتهي ايضا الى فهر بن لؤي بن غالب ، وبذلك كما يدعي الاخباريون تكون خديجة قد ولدت لابوين كلاهما من أعرق الاسر في الجزيرة العربية وقد اجتمع لها بالاضافة الى هذا النسب الرفيع الذكر الطيب والخلق الكريم والصفات الفاضلة وبلغ من علو شأنها انها كانت قبل ان تتزوج بالنبي (ص) تعرف بالطاهرة وبسيدة نساء قريش وهي مع ذلك من اثرياء قريش وأوسعهم جاها ومفطورة على التدين بعامل الوراثة والتربية، فأبوها خويلد هو الذي نازع (تبعا الآخر) حين اراد ان يحمل الحجر الاسود معه الى اليمن فتصدى له ولم ترهبه قوته وكثرة أنصاره حرصا منه على هذا النسك من مناسك دينه. وابن عمها ورقة بن نوفل كان يعكف على دراسة كتب النصارى واليهود ويعمل بما يستحسنه منهما ، لا لانه كان يعاشر النصارى واليهود ولا لان مكة كانت مقرا لهما ، بل

لانه كان يسخر من عبادة الاصنام والتماثيل ويبحث عن دين يطمئن اليه .

ويحدث الاخباريون والمؤلفون في سيرة الرسول ان النبي (ص) حينما رأى تباشير النبوة في غار حراء وسمع من يكلمه في الغار وعاد الى بيته خائفا غريب النظرات يقص على زوجته الوفية الصادقة ما رأى وما سمع ، اسرعت الى ابن عمها لتقص عليه ما جرى للنبي (ص) فبشرها بمستقبله العظيم الذي سيهز العالم بأسره ويحدث تحولا في تاريخ البشرية ، وبما سيلاقيه من قومه من عسف وجور واضطهاد .

لقد تزوجت السيدة خديجة قبل الرسول (ص) مرتين ، الزواج الاول من ابي هالة النباش بن زرارة فأولدت منه ولدا أسمته هندا أدرك الاسلام وكان من السابقين اليه ، وروى عنه الحسن بن علي (ع) حديث وصف النبي وتناقله عنه اكثر الرواة والمحدثين ، وشاع عنه انه كان يقول : انا أكرم الناس أبا وأما وأخا وأختا .

وقد اشترك مع النبي (ص) في جميع حروبه وغزواته وكان مخلصا للدعوة كأمه متفانيا في سبيلها الى أبعد الحدود ، ولازم عليا (ع) بعد وفاة النبي (ص) وقتل معه في البصرة .

وبعد وفاة زوجها الاول ابي هند تزوجت من عتيق بن عايد المخزومي ورزقت منه بنتا أسمتها هندا ايضا بقيت في أحضان امها وأسلمت منذ ظهور الاسلام وكانت من الصحابيات الكريمات اللواتي أخلصن للاسلام .

وبعد وفاة زوجها الثاني عتيق بن عايد المخزومي اعرضت عن الرجال وهي لا تزال في ريعان شبابها فخطبها أشراف قريش وقدموا لها العروض المغرية فلم تستجب لاحد منهم ، وظلت تعيش بعيدة عن الرجال ومشاكلهم طيبة النفس مرتاحة الضمير لان اكثر الخاطبين كانوا يضعون في حسابهم ثروتها الواسعة حتى بلغت الاربعين من عمرها . ويروي

المحدثون والمؤلفون في سيرة الرسول انها كانت ترسل في تجارتها الى الشام جماعة بأجر معين ، وقبيل زواجها بالنبي ارسلت اليه ليذهب في تجارتها وبذلت له ضعفي ما كانت تبذله لغيره لانه كان حديث الناس رجالا ونساء في أمانته وصدقه واستقامته ، فوافق على طلبها بعد ان استشار عمه أبا طالب ، وأرسلت معه غلامها ميسرة لخدمة القافلة ورعايتها ، وكانت الرحلة ناجحة وموفقة نجاحا لم تصادفه رحلة قبلها ، وأسرع ميسرة قبل دخول القافلة مشارف مكة ليخبرها بما جرى وما حدث لمحمد في طريقه مع بحيرا وغيره من الاحداث التي لم يجدوا لها نظيرا من قبل .

وبدأت مكة تسمع ضجيج الركب وهو يقترب منها فخرج الناس لاستقباله وامتزج رغاء الابل بهتاف المستقبلين وضجيجهم ، هذا والصديقة الكبرى خديجة في دارها تراقب طريق القافلة في لهفة ممزوجة بشيء في نفسها لا تجد له تفسيرا والى جانبها الغلام يملأ أذنيها بنجاح الرحلة وما جرى لمحمد في الطريق من الغرائب . وفيما هي غارقة في التفكير والتأمل واذا بمحمد (ص) يدنو من دارها بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة فاستقبلته مرحبة بقدومه ومهنئة بسلامة العودة بكلمات تفيض عذوبة وحنانا ، ورد عليها شاكرا لها هذا الموقف ، وعاد يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارتها وما حمله معه من انتاج بلاد الشام مما تفتقر اليه أسواق الحجاز ، وأصغت اليه معجبة بحديثه وبشخصه الكريم الذي وجدت فيه من النبل وكريم الصفات ما لم تجده عند غيره من كهول مكة وشبابها المترفين حتى انتهى وخرج من دارها ، وظلت واقفة تتبعه عيناها الى ان توارى في منعطف الطريق متجها الى حيث يقيم عمه الكفيل ابو طالب ، فاستقبله بلهفة وارتياح وهنأه بالعودة سالما لم يمسه مكروه من أعدائه ولا من وعثاء السفر وبعد المسافة .

وبعد هذه الرحلة الموفقة يدعي المؤرخون ان خديجة التي أكبرت

في محمد نبله وصدقه وجميع صفاته وما حدثها به ميسرة من غرائب الاحداث التي حصلت له في طريقه باتت ليلتها تفكر في امره وبما سيكون له من شأن في مستقبله القريب ، وعادت تستعرض شمائله وسيرته الطيبة العطرة وتمنت لو انها تصبح شريكة له فيما بقي من عمرها بعد ان نفضت يديها من الرجال وراحت تستعرض ما يحول بينها وبين ذلك ، وهل يستجيب ابن عبد الله مع شبابه الغض وفتوته الساحرة وصيته الذي ملأ القلوب والاسماع لعاطفة أرملة كهلة بلغت الاربعين وهو لا يزال في ريعان شبابه قد انصرف عن عذارى مكة وزهرات بني هاشم ، وما هي بالنسبة اليه الا كخالة أو أم ، ولو عاشت آمنة بنت وهب لذلك التاريخ لما تجاوزت سن الاربعين فكيف بها وقد بلغت هذا السن وتزوجت قبله مرتين ، وفيما هي في تلك الغمرة الهائجة من القلق والصور تتزاحم في نفسها ، واذا بنفيسة ابنة منبه احدى صديقاتها تدخل عليها زائرة وعبثا تحاول خديجة بنت خويلد ان تعود الى طبيعتها ، ولم يغب عن الزائرة ما في نفسها من القلق والاضطراب فلم تتركها حتى كشفت لها عما في نفسها ، فهونت عليها الامر وتعهدت لها بأن تفاتحه في الزواج منها وتعمل على تحقيق أمنيتها الغالية بكل ما أوتيت من خبرة ودهاء .

فقصدته وهو يخلو بنفسه وابتدأت حديثها معه تسأله عن اسباب عزوفه عن الزواج وقد تجاوز العشرين من عمره وأصبح في أمس الحاجة الى امرأة يسكن اليها وتملأ دنياه بهجة وانسا ، فأمسك عن جوابها وتراكمت في نفسه صور عن مشاكل الزواج ويتمه وفقره واستمر في صمته وتفكيره ولكنها اعادت عليه الحديث لتسمع منه الجواب وأحرجته في أسلوبها وإلحاحها فابتسم وقال : والله ما بيدي شيء من المال لكي أتزوج به . وهنا وجدت نفيسة منفذا للصارحة، فردت عليه تقول : اذا دعيت الى الجمال والشرف والمال والكفاءة ألا

تجيب ، تلك هي خديجة التي لا يساويها احد من القرشيات والمكيات • فرحب بتلك البادرة وعرضها على عمه ابي طالب فأشرق لها وجهه وغلبته ابتسامته واطمأن على مصير ابن اخيه الذي كان يفكر فيه اكثر من تفكيره بأعز اولاده عليه • وفي فترة قصيرة من الزمن تم التفاهم بين الزوجين على كل شيء ، فأسرع الى بيتها وفي صحبته عماه ابو طالب والحمزة ، وكان كل شيء مهيأ لهذا الزواج الذي خططت له مشيئة الله ليكون عونا لمحمد على اداء الرسالة التي تنتظره بعد سنوات قليلات •

وتم الزواج بينهما بعد كلمة قصيرة القاها ابو طالب جريا على المتعارف في مجلس الخطبة كما يدعي ذلك اكثر المؤرخين والمؤلفين في سيرة النبي (ص) كما روى جماعة منهم الى جانب هذه الرواية الشائعة التي نصت على ان رحلته في تجارتها الى الشام وما رافقها من نجاح وأحداث قد مهدت لهذا الزواج على النحو الذي صورناه الى جانب ذلك روى جماعة منهم ان زواجه منها لم يكن من نتائج رحلته الى الشام في تجارتها ولم تكن الواسطة بينهما نفيسة بنت منبه ، بل كان بواسطة اختها هالة وبناء لطلبها •

فقد جاء في تاريخ اليعقوبي عن عمار بن ياسر انه قال : أنا أعلم الناس بزواج خديجة بنت خويلد من رسول الله ، لقد كنت صديقا له وانا لنمشي يوما بين الصفا والمروة واذا بخديجة وأختها هالة معها ، فلما رأت رسول الله جاءتني اختها هالة وقالت : يا عمار ما لصاحبك رغبة في خديجة ؟ فقلت لها : والله لا أدري • فرجعت اليه وذكرت ذلك له ، فقال لي : ارجع فواضعها وعدها يوما نأتيها فيه ، فلما كان ذلك اليوم ارسلت الى عمها عمرو بن اسد ودهنت لحيته وألقت عليه حبرا ، ثم حضر رسول الله في نفر من أعمامه يتقدمهم ابو طالب فخطب في الحاضرين وتم الزواج بينهما •

وأضاف عمار بن ياسر الى ذلك انها لم تستأجره في تجارتها ولم يكن اجيرا لأحد ابدا ، كما أورد حديث زواجه منها على هذا النحو ابن كثير في تاريخه بعد ان أورد الصورة الاولى الشائعة بين المحدثين.

وجاء في تاريخ ابي الفداء انه بعد ان رجع من الشام وحدثها ميسرة بما حدث له في طريقه تعرضت له مباشرة وخطبته لنفسها وتم الزواج بينهما على عشرين بكرا .

وقد عرضت في كتابي سيرة المصطفى مراحل حياة النبي منذ طفولته الى زواجه من خديجة ، والمرويات التي تحدثت عن زواجه ورجحت رواية عمار بن ياسر وذكرت الاسباب التي اراها مرجحة لها .

ومهما كانت الاسباب والملابسات التي اقترنت بهذا الزواج فمما لا شك فيه بأن زواجهما كان بناءلطلبها ورغبتها بعد ان ردت عن بابها الخطّاب من سادة قريش وأشراف مكة ، كما وان محمدا (ص) كان له من شبابه وفتوته وشمائله وصفاته الكريمة التي عرف بها في مكة وجوارها ما يوفر له الزواج من اي فتاة ارادها من عذارى مكة وزهرات بني هاشم ، ولكن مشيئة الله سبحانه قد هيأت لهذا الزواج الذي لم تشهد مكة زوجين ينعمان بحياتهما الزوجية ويترشفان على مهل رحيق ود صاف سيظل حديث الزمان ، وظلا خمسة عشر عاما ناعمين بالالفة والاستقرار وأتم الله عليهما نعمته بالبنين والبنات كانت آخرهم الزهراء سيدة نساء العالمين .

قال الاستاذ كتاني في كتابه الزهراء : ان خمسا وعشرين سنة كانت مليئة بالحب والتفاني ذابت خديجة في حبها لزوجها وأخذت منه كل ما اعطاها وأعطته كل ما اخذ منها لقد كان الاخذ والعطاء بنسبة واحدة بدون اي شعور من الطرفين بأن الاخذ هو غير العطاء او ان العطاء هو غير الاخذ . ومضى يقول : لقد اعطت خديجة زوجها حبا وهي لا تشعر بأنها تعطي ، بل تأخذ منه حبا فيه كل السعادة ، وأعطته ثروة

وهي لا تشعر بأنها تعطي ، بل تأخذ منه هداية تفوق كنوز الارض وهو بدوره اعطاها حبا وتقديرا رفعاها الى أعلى مرتبة وهو لا يشعر بأنه قد اعطاها ، بل قال ما قام الاسلام الا بسيف علي ومال خديجه ، وأعطاها مع ذلك عمره وزهرة شبابه ولم يتزوج بغيرها حتى غابت عن الوجود وهو لا يشعر بأنه اعطاها .

وكان يقول :

(لا والله ما ابدلني الله خيرا منها امنت بي اذ كذبني الناس وواستني بمالها اذ حرمني الناس) .

بعد خمسة عشر عاما من تاريخ زواجهما الفريد من نوعه والذي كان وسيظل حديث الناس ، لانه كان سخيا في البـــذل والعطاء والصبر والتضحيات في سبيل المبدأ والعقيدة في أحلك الساعات وأقسى المراحل التي لا يقوى على تحملها انسان .

بعد هذه الاعوام التي أطل بعدها الزوج العظيم علـــى الاربعين استقبل الزوجان ذلك الحدث الخطير لا في حياة تلك الأسرة الوادعة فحسب ولا في حياة قريش والعرب وحدهم ، بل في حياة الانسانيـة جمعاء ، فقد تلقى الزوج العظيم رسالة السماء آيذانا بحياة جديدة شاقة مليئة بالاضطهاد والمتاعب والنضال المرير .

وفي الحق ان ذلك الحادث الذي نريد ان نمر عليه مرورا خاطفـا لنشير الى دور تلك الزوجة الفاضلة فيه ، هذا الحادث لم يكن مفاجئا لمحمد بن عبد الله بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولم يكن يستبعد ان ينتهي الى شيء من تأملاته العميقة وتفكيره الطويل في خلواته بنفسه بعيدا عن الناس ليجد المناخ الملائم للتفكير والتأمل في الكون وتقلباته وما فيه من الكائنات ، ويستشف أدق ما فيه من أسرار ليلمح من ورائها قوة عظمى خفية تدبر وفق نظام دقيق ونواميس منتظمة متناسقة .

لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون .

وهو مع ذلك يستخف بقومه ، ويستبشع منهم تقديس تلك الأصنام التي كدسوها حول الكعبة وقدموا لها القرابين وعبدوها من دون الله وهي لا تجلب لهم نفعا ولا تدفع عنهم سوءاً .

لقد كانت مواقفه تلك توحي اليه انه سينتهي الى شيء ، ويحس من خلالها انه سيدنو من الحقيقة الكبرى وسينجلي له السر الاعظم ، وظل يتابع مواقفه هذه وقد أشرف على الاربعين من عمره وألف الخلوة في غار حراء واستطابها ، وما كانت خديجة وقد قاربت الستين من عمرها لتضيق بهذه الخلوات التي تحول بينها وبينه في اكثر الأحيان ، او تحاول ان تعكر عليه صفو تأملاته ، بل كانت تحوطه بالرعاية والهدوء ما دام في بيتها ، فاذا انطلق الى حراء ظلت عيناها تشخص اليه ولا تفكر بشيء سواه ، وترسل اليه من يحرسه ويرعاه ولو من بعيد بدون ان يقتحم عليه خلوته او يفسد عليه وحدته .

وهكذا كان يبدو على الزوج العظيم وكأنه مهيأ لاستقبال تلك الرسالة ، ولكنه بالرغم من ذلك فما جاءه الوحي وهو معتكف في الغار حتى انطلق يلتمس بيته مع ظلمة الفجر مرتعد الأوصال ، حتى بلغ حجرة زوجته الوفية الصادقة ، فأحس وكأنه قد بلغ مأمنه . وجلس الى جانبها يحدثها بكل ما جرى وما حدث معه في الغار وقد بدا عليه الاجهاد ، فأقبلت عليه بلهفة الأم الرؤوف وهتفت به في ثقة ويقين قائلة ابشر يا ابن العم وثق بأن الله لا يخذلك ابدا ، انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر ، وما زالت به حتى هدأ روعه وأحس بالراحة والطمأنينة وهي تهيىء له فراشه وتأخذ بيده اليه كما تفعل ام بطفلها الوحيد ، وما زالت به حتى اطمأن الى النوم وغرق فيه ، فانسلت من الحجرة ثقيلة الخطا حتى اذا بلغت

الطريق اندفعت تجري نحو ابن عمها ورقة بن نوفل ومكة لا تزال تنعم بغفوة الصبح ، وقد بدأت تباشير الفجر تسير على مهل نحو النهار . وجاءت ابن عمها فأقعدته من فراشه وقد ظهر عليه الإعياء من آثار الشيخوخة فأخذت تحدثه وهو يصغي الى ما تحدث به من أنباء محمد وما جرى له في الغار ، فاستعاد نشاطه وأشرقت أساريره لحديثها واتنفض يقول :

قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان ياتي موسى وعيسى بن مريم ، وانه لنبي هذه الامة قولي له فليثبت ، وليكن على يقين من امره .

فانطلقت نحو بيتها بسرعة من غير ان تنتظر منه المزيد من البيان مطمئنة وكأنها تأخذ من وحي السماء ، انطلقت لتزف اليه البشرى بالنبوة التي كان يترقب ظهورها في شبه الجزيرة ابن عمها ورقة ، وعمرو ابن نفيل وغيرهما من المتألهين والكهنة والرهبان ، فاذا به لا يزال نائما كما تركته فوقفت الى جنبه ووجهها يطفح بالبشر وغابت عنها جميع الهواجس التي مرت بخيالها حينما رأته بعد رجوعه من الغار خائفا شاحب اللون .

وعز عليها ان توقظه من نومه وظلت واقفة الى جانبه تنظر اليه بلهفة وحنان ، وفيما هي غارقة في التفكير بمستقبله السعيد واذا به ينتفض في فراشه ويثقل تنفسه ويتقاطر العرق من جبهته واستمر على ذلك فترة من الوقت قبل ان يعود الى حالته الطبيعية وكأنه يستمع الى محدث ، كل ذلك والصديقة الكبرى تنظر اليه وقد عاودها القلق لحاله .

واتنبه بعد ان سرى عنه الوحي يتلو ما أوحي اليه .

يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر .

ونظر اليها مليا بنظرة تفيض بالشكر والامتنان وقد بدا عليها القلق

احاله فرغبت اليه ان يستمر في نومه فقال لها :

لقد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، هذا الامين جبرائيل يامرني ان أنذر الناس وأدعوهم الى الله وعبادته ، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب لدعائي .

فمضت به من ساعته الى عمها ورقة بن نوفل لتقص عليه ما جرى له ، ولم يكد يراه حتى صاح والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الامة ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن وتقاتلن ، ولئن ادركت ذلك اليوم لأنصرن الله فيك . ثم دنا منه وقبل يافوخه ، فقال له النبي :

أومخرجي هم .

فقال له :

نعم لم يات رجل بمثل ما جئت به الا عودي ، ليتني اكون جذعا ليتني اكون فيها حيا .

فطابت نفس النبي (ص) بما سمع وآب الى بيته ليبدأ نضاله في سبيل الدعوة مهما كلفه ذلك من جهد وتضحيات ، وهو يعلم ان قريش لا تتنازل عن كبريائها وجبروتها ، وهي ترى ان محمدا يسخر من الاصنام والاوثان التي وجدوا آباءهم لها عابدين من عشرات السنين ويدعو الى إله واحد لا شريك له ولا نظير والى تحرير العبيد والمستضعفين من تسلط السادة والمترفين .

ووقفت زوجته الى جانبه من اللحظات الاولى بنفسها ومالها وجاهها تنصره وتشد ازره وتشاركه كل أنواع الاذى والاضطهاد والحرمان في جميع المراحل التي مر بها كما اتفق على ذلك جميع المؤرخين والمحدثين.

ولما اتفقت قريش على مقاطعة الهاشميين والتضييق عليهم وحرمانهم حتى من ضرورات العيش وأخرجتهم من مكة الى شعب ابي طالب وضيقت عليهم الحصار حتى يموتوا جوعا او يعودوا الى قريش وآلهتها، لما اتفقت قريش على ذلك ونفذت بنود الاتفاق لم تتردد السيدة الجليلة

في الخروج مع زوجها العظيم وتخلت عن دارها ومالها تاركة كل ذلك بنفس طيبة مطمئنة بحسن المصير وان الفوز في النهاية سيكون للمؤمنين بحقهم والصابرين على الاذى في سبيل الله .

وأقامت معه في الحصار نحوا من ثلاث سنوات تشاركه أهوال الحصار ومرارة الجوع والحرمان وقد اشرفت على الشيخوخة المضنية تكافح الوهن الذي اخذ طريقه الى جسمها وقد تخطت الستين وظلت الى جانب محمد (ص) والمحاصرين معه من القلة المؤمنة التي صبرت على كل أنواع الضيم وعلى صراخ الاطفال من الجوع والحرمان وتحدت قريشا وغطرستها وعددها وعدتها .

وكان من المحكوم على تخطيط قريش ان يفشل كما فشلت في التدابير التي اتخذتها من قبل فدب الخلاف بين الذين تعاقدوا على الحصار وأرسل الله الارضة لتأكل الصحيفة ما عدا لفظ الجلالة ، واتفق جماعة من وجوه المكيين على رفع الحصار وإفساح المجال للهاشميين ليرجعوا الى بيوتهم ، وعادت قريش تجر من ورائها الخزي والعار والخذلان ، وتعاظم امر النبي (ص) واتخذت دعوته طابعا جديدا بعد فشل محاولات قريش وخذلانها . وشاءت الاقدار والدعوة في عامها العاشر ان يفقد النبي عمه أبا طالب اقوى أنصار الدعوة وأصلبهم عودا في وجه محاولات قريش وأتباعها ، وبعده بأيام او شهور حسب اختلاف الروايات فقد شريكته في الجهاد والبذل والتضحيات التي صدقته وآمنت به منذ ان قص عليها حديث الوحي ، وبذلت في سبيله كل مالها وراحتها وظلت تبذل وتعطيه مما تملك من امكانياتها حتى النفس الاخير، فعز ذلك على النبي (ص) وتلفت الى مكة فوجدها موحشة من عمه المحامي والكفيل ، والى داره فوجدها خالية موحشة من شريكته في البذل والعطاء والتضحيات .

واشتدت قريش عليه في ذلك العام الذي سماه عام الأحزان ، وظنت

قريش بأن الظلمات قد تكاثفت من حوله وان آماله وآمانيه قد تحولت الى يأس وخيبة ، ولكن سرعان ما تبددت امانيهم وخابت ظنونهم وبدا محمد (ص) ومن معه من المسلمين اشد ثباتا وأكثر تصميما وأمضى عزيمة من ذي قبل يفتدون الدعوة بالمهج والارواح ويرون الاستشهاد في سبيلها مجدا وانتصارا .

لم يمت ابو طالب وخديجة الا بعد ان مرت الدعوه بمراجل واسعة وتخطت مكة وجوارها الى جميع أطراف الحجاز والى ما وراءها من البلاد المتاخمة لحدوده ، وأصبحت حديث الناس في كل بقعة ومكان ، وحملتها فئة من صحابته عبر البحار الى الحبشة تاركين اهلهم وديارهم ليعرضوا على الدنيا صورا من الايمان والبطولات والتضحيات التي برزت في حياة محمد وصحبه الاكرمين ليجمع الناس كلهم على صعيد الايمان بالواحد الأحد والمحبة والعمل لخير الناس أجمعين .

لقد ماتت خديجة وغابت عن دنيا الناس ، ولكنها ظلت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي ودخلت في حياته من بعدها نساء عديدات حسبما يحدث بذلك التاريخ ، ولكن مكانها من قلبه وفي دنياه ظل خاليا لم تشغله امرأة غيرها ، ولم تستطع واحدة منهن ان تحتل مكانها وأن تفلح في ابعاد طيفها من قلبه ونفسه الذي كان يتبعه حيث يسير. وشهد بيته عائشة بنت ابي بكر وهي في مطلع صباها ونضرة شبابها تستبد بها الغيرة من خديجة التي سبقتها الى قلبه ، لانه ظل يردد اسمها ووفاءها في كل صباح ومساء .

لقد وفدت على المدينة اختها هالة ، فما ان سمع محمد صوتها حتى تذكر صوت اختها الراحلة ، فخفق لها قلبه وصاح مرحبا بك يا هالة . فلم تملك عائشة نفسها حتى هتفت به تقول :

ما زلت تذكر بحسرة والم عجوزا من عجائز قريش حمراء الشدقين

هلكت من عده سنين وقد أبدلك الله خيرا منها (١) .

ومع انه كان واسع الصدر صبورا على الأذى لا ينفعل لكلمات عابرة من هذا النوع ، بدا عليه الانفعال وتغير لونه والتفت اليها وقد استولى عليه الغضب وقال :

والله ما أبدلني الله خيرا منها آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس وواستني بمالها اذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء (٢) .

فأمسكت عائشة عن الكلام وهي تقول :

والله لا أذكرها بعد اليوم .

ولكنها الغيرة كانت تستبد بها في اكثر الاحيان ، فلا تملك نفسها اذا ذكرها النبي (ص) لمناسبة من المناسبات وما اكثر المناسبات التي كانت تذكره بها ، فلا تملك نفسها ان تنال منها وتقول :

كان لم يكن في الدنيا غيرها ، وعندما يسمع منها ذلك يأخذ في تعداد محاسنها ومواساتها له وبذلها السخي في سبيل الله والاسلام .

ويحدث الرواة عنه انه كان اذا ذبح شاة يقول :

ارسلوا الى اصدقاء خديجة فيوزع عليهم منها .

فاذا عاتبته عائشة على ذلك يقول :

والله اني لأحب من كان يحبها (٣) .

وجاء عن عائشة انها قالت في اكثر من مناسبة :

ما حسدت احدا كما حسدت خديجة وما تزوجني رسول الله الا بعد ان ماتت .

وأحيانا تقول :

ما غرت من امراة لرسول الله كما غرت من خديجة حينما كنت أسمع

---

١ ـ المحب الطبري والسمط الثمين .
٢ ـ المصدر السابق والاستيعاب لابن عبد البر
٣ ـ نفس المصدر .

رسول الله يذكرها ، وما تزوجني الا بعد موتها بثلاث سنين .

وحتى يوم الفتح وقد مضى على وفاتها اكثر من عشر سنين حافلة بالاحداث نرى رسول الله وقد دخل مكة يختار مكانا لينزل فيه قريبا من قبرها في قبة بنيت له الى جوار القبر ليشرف منها على فتح مكة كما جاء في حوادث السنة الثامنة في المجلد الثالث من تاريخ الطبري .

وستدخل في الاسلام بعد خديجة مئات الملايين من النساء ، ولكنها ستبقى وحدها من تلك الملايين المسلمة الاولى التي آثرها الله بالدور العظيم في بناء الاسلام ، رمزا للوفاء والمحبة والإيثار لزوجها الذي كانت اول من صدقه وآمن به وبذلت له راحتها ومالها وهان عليها كل شيء في سبيله .

وجاء في سيرة ابن اسحاق ان رسول الله (ص) كان لا يسمع شيئا يكرهه ويحزنه الا فرجه الله عنه بخديجة تثبته وتخفف عنه وتهون عليه امر الناس حتى فارقت الدنيا .

اولادها من النبي (ص)

لقد انجبت السيدة خديجة الكبرى للنبي (ص) من الذكور اثنين القاسم وبه كان يكنى وعبد الله الملقب بالطاهر والطيب ، وقيل ان الطاهر والطيب ولدان من اولادها ماتا صغيرين ، والمشهور بين المؤرخين والمحدثين انها لم تلد له من الذكور سوى القاسم وعبد الله كما ذكرنا ، وعاش القاسم نحوا من سنتين ، وقيل اكثر من ذلك ، وأنجبت له من البنات كما هو المشهور بين الرواة والمؤرخين اربعا ، وهن زينب ورقية وأم كلثوم والزهراء ، وقيل انها لم تلد له سوى زينب والزهراء ، اما رقية وأم كلثوم فمن صنع الوضاعين أضافوهما الى بناته وزوجوهما لعثمان بن عفان على التوالي ليكون الكفء الكريم عند الرسول لبناته كغيره ممن صاهروه ولقبوه بذي النورين لمناسبة زواجه من بنتيه ، وليس ذلك ببعيد .

وقيل انها قد اولدت له ثلاثا زينب ورقية والزهراء ، والقول الاول هو الشائع والمشهور عند المحدثين والمؤرخين . ولا يهمنا تحقيق هذه الناحية في حين اني أرجح القول الاخير وقد اضاف الوضاعون الى بناته الثلاثة ام كلثوم وزوجوها لعثمان بعد اختها رقية ليكون ذا النورين

او لغير ذلك من الاسباب التي ترفع من شأنه بنظر الوضاعين .

وقضت مشيئة الله سبحانه ان يفقد النبي (ص) البنين من اولاده في سن الطفولة ولا يبقى له سوى البنات ، في تلك البيئة التي كانت لا ترى للبنت وزنا مهما بلغ شأنها ، وبلغ اسرافهم في كراهية البنت ان فريقا من العرب كانوا يدفنونها حية ويعدون من لا عقب له من الذكور مبتورا ، وقد بدا عليهم الاستخفاف بالنبي (ص) حينما مات صبيته الذكور وقالوا : لقد اصبح يتيم عبد المطلب مبتور الذكر وسموه الأبتر ، فأنزل الله عليه بهذه المناسبة السورة :

انا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر .

وكان وأد البنات شائعا قبيل نزول الوحي على النبي عند بعض القبائل العربية كتميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل ، وقيل كما في مجمع الامثال للميداني وبلوغ الأرب في أحوال العرب للنويري ان وأد البنات كان شائعا بين جميع القبائل ونظرا لبشاعة تلك المأساة وعنف صداها حاول بعض الكتّاب تطويقها في مناطق محدودة وظروف خاصة ، وعلى اي الاحوال فليس باستطاعة احد ان ينفي هذه الجريمة عن العرب ويطهر تاريخهم منها بعد ان تواترت بها الانباء وندد بها القرآن الكريم في الآية من سورة التكوير :

واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت .

وفي الآية :

واذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم .

يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون .

اما الاسباب التي كانت تدعوهم الى ارتكاب تلك الجريمة البشعة والكيفية التي كانت تتم بها ، فالذي يبدو من بعض أخبارهم انهم كانوا يقدمون عليها لاسباب اقتصادية وذلك عندما يتعرض رب الاسرة لعوادي

الزمن وحوادث الدهر مع عجزها عن العمل والمقاومة في حين ان البنين اقوى منهن ويتاح لهم ما لا يتاح للبنت وفي ذلك يقول بعض شعـــراء العرب :

وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحـم
أخشى فظاظة عـم أو جفاء أخ وكنت أبكي عليها من أذى الكلم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحـرم
اذا تذكـرت بنتي حين تندبنـي فاضت لعبرة بنتـي عبرتـي بدم

ووصف حالته بعد وأدها بقوله :

فالآن تمت فـلا هـمٌ يؤرقني بعد الهدوء بلا وجـد ولا حلم

كما وان القرآن الكريم يشير الى ذلك في الآية من سورة الإسراء :

ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم .

وفي الآية من سورة الانعام :

قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالديـــن احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربـــوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

كما تؤكد بعض أخبارهم انهم كانوا يرتكبون هذه الجريمة خوف العار والفضيحة فيما لو شذت البنت في سلوكها وخرجت على عـــادة الاسرة وتقاليدها ، وبهذه المناسبة يدعي بعض المؤرخين ان اول مـن فعل ذلك لقمان بن عاد من العرب البائدة بعد ان روع بخيانة نسائـــه فقتلهن انتقاما وتشفيا كما قتل بناته ايضا .

ويرى بعض المؤرخين والمفسرين كالقرطبي والنيسابوري ان النعمان ابن المنذر اغار على تميم حينما امتنعت عن دفع الضريبة التي كان قـد فرضها عليها فقتل منهم وسبى نساءهم ، ولما ذهب قيس بن عاصم شيخ القبيلة ليسترد نساءه المسبيات تمنعت احدى بناته من الرجوع معـــه

وآثرت ان تبقى مع النعمان بن المنذر فعاد قيس وكأنما أصيب بالجنون فوأد كل بناته ومضى على ذلك لا تولد له بنت الا وأدها فاقتدى به رجال من تميم وغيرهم .

بينما يرى فريق آخر من الكتّاب ان وأد البنات قد انتقل الى العرب فيما انتقل اليهم من الامم السابقة الذين كانوا يقدمون البنات قرابين الى الآلهة كما كان يفعل المصريون القدامى الذين يقدمون كل عام عروسا من اجمل فتياتهم قربانا الى النيل ، ومهما كان الحال فمما لا شك فيه بأن وأد البنات كان موجودا عند العرب وشائعا بينهم ، ومن مجموع المرويات حول اسبابه يمكن القول بأن بعضهم كان يفعله خوف الفضيحة والعار وبعضهم كان يهبها لله كما تشير الى ذلك بعض الآيات ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون ، ام له البنات ولكم البنون ، ألكم الذكر وله الانثى .

وقد ذكرنا ان بعضهم كان يفعله مخافة الفقر والحاجة كما تشير الى ذلك الابيات السابقة. وجاء في أخبار العرب ان صعصعة بن ناجية وعمرو بن زيد بن نفيل قد استنقذا عشرات البنات من آبائهن وتعهدا لهم بتربيتهن ، وكان اول عمل من هذا النوع قام به صعصعة بن ناجية فقد مر برجل من تميم يحفر حفرة والى جواره امرأة تبكي وهي متعلقة بوليدة لها ولما سألها عما بها قالت ان زوجي هذا يريد ان يئد ابنتي فاثنى صعصعة على الرجل يسأله عن السبب فأجابه بأن الفقر قد دعاني الى ذلك فافتداها منه بناقتين معهما اولادهما وظل لا يسمع بعمل من هذا النوع الا وأقبل عليه وفي ذلك يقول بعض من ينتسبون اليه :

ومنا الذي منع الوائدات وحيا الوئيد فلم يوأد

اما كيف كان الوأد فيصفه لنا الزمخشري في المجلد الرابع من كشافه ص ١٨٨ فيقول :

كان يخرج الرجل بوليدته وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تسوى البئر وقيل غير ذلك .

ومهما كانت كيفيته فلقد حاربه الاسلام ونددد به حتى محاه من الوجود وأصبح قصة على لسان الرواة من جملة ما يروونه من أخبار الماضي ، ولم يكتف بذلك بل رفع من شأن المرأة وساوى بينها وبين الرجل في كثير من شؤون الحياة ، وقال الرسول (ص) :

ان أحسن الناس عند الله من أحسن صحبة أزواجه وبناته .

ومهما كان الحال فجميع بنات الرسول قد بلغن الصبا وتزوجن في حياته فكانت كبراهن زينب من نصيب العاص بن الربيع وأمه هالة شقيقة خديجة وكان زواجها ناجحا لم يتأثر بضغوط قريش ولا بالمغريات التي بذلتها له مقابل فراقها ، وظل وفيا لها حتى بعد هجرة ابيها في حين انه لم يكن يوم ذاك قد اعلن اسلامه ، وقد اضطرته قريش للخروج معها الى بدر فوقع اسيرا في ايدي المسلمين مع من أسر من المشركين ، وأطلقه النبي (ص) بدون فداء وشرط عليه ان يرسل ابنته زينب الى المدينة عند رجوعه الى مكة ، فوفى للنبي بذلك فور وصوله كما عرضنا ذلك في كتابنا سيرة المصطفى .

وخلال السنة السادسة من الهجرة شاءت المقادير ان تقع تجارة قريش غنيمة بيد المسلمين ، وكانت باشراف ابي العاص ، ففر من تلك السرية لينجو بنفسه تاركا وراءه كل ما في القافلة من أموال وأمتعة ، ودخل في جوف الليل وسكونه بيت زوجته زينب وكان الاسلام قد فرق بينهما ، فاستجار بها لتكون له شفيعة عند ابيها والمسلمين فاستجابت لطلبه وأدخلته بيتها وخرجت منه في فجر تلك الليلة حيث يجتمع المسلمون مع ابيها لصلاة الفجر ، وفيما هم يتأهبون للصلاة واذا بصوت زينب يدوي في أنحاء المسجد وهي تقول :

الا وانني قد اجرت أبا العاص بن الربيع وطلبت من ابيها والمسلمين أن يجيروه ويردوا عليه ما غنموه من أموال وأمتعة فاستجاب لها المسلمون وردوا عليه ما اخذوه منه .

فأسرع يجدّ السير باتجاه مكة ليؤدي الاموال لاصحابها ، وفور وصوله وزع ما معه من الاموال والامتعة على اصحابها وأغلن اسلامه على ملأ من قريش وكر راجعا باتجاه يثرب ، وما ان دخلها حتى رد عليه النبي (ص) زوجته بعقد جديد وظل وفيا لها طيلة حياته الى ان وافتها المنية في مستهل العام الثامن من هجرة الرسول (ص) متأثرة بعلتها التي لازمتها منذ القت جنينها على أديم الصحراء وهي خارجة من مكة يوم أرسلها زوجها مع اخيه الى المدينة بعد معركة بدر الكبرى وسارت قريش في طلبها كما ذكرنا ذلك مفصلا في كتابنا (سيرة المصطفى) .

وأما رقية وأم كلثوم فقد استعان عبد العزى المعروف بأبي لهب بأخيه ابي طالب ليخطبهما الى ولديه عتبة وعتيبة من ابيهما لعلمه بأن محمدا لا يرد لعمه ابي طالب طلبا ، وتم زواج الاختين الى الشقيقين كما شاء ابو لهب وزوجته ام جميل حمالة الحطب ، وانتقلتا الى بيتهما الجديد ، وقلب خديجة لم يكد يرتاح لحالهما او ينساهما رحمة لهما واشفاقا عليهما مما كانت تتخوفه من ام جميل المعروفة بطبعها الجامح ولسانها السليط الذي لا يوفر احدا وقلبها المتحجر الذي لا يرق لأحد.

لقد كانت خديجة تعرف كل ذلك عن ام جميل وتتلوى اشفاقا على ابنتيها فيمنعها احيانا من الرقاد ، ولكن لم تكن لتفضي بذلك الى زوجها العظيم الذي تراه يزداد يوما بعد يوم ميلا الى الوحدة واغراقا في التأمل ونزوعا الى الصمت الطويل ، وعزوفا عن الدنيا ومفاتنها ومشاكلها ، وتتمنى لو انها تشاركه همومه وتحمل معه العبء الذي تحسه ثقيلا لا يقوى على حمله واحد من الناس .

ولم تكن أحاسيسها نحو ابنتيها من نسج الخيال ، ولا هي مخاوف لا تعتمد على اساس مقبول بل كانت عن خبرة بأخلاق جارتها ام جميل. وما كان النبي (ص) يصدع بالدعوة ويدعو اليها حتى وقفت قريش بكل قوتها في وجهه ، ولم تكن ام جميل وزوجها عبد العزى بأقل حماسا

وتهجما على محمد من غيرهما من زعماء قريش وقادتها الاشداء ، وقد بدأوا يعدون الخطط لحربه والوقوف صفا واحدا لاحباط مساعيه ، وكان من بين تلك ارجاع بناته اليه لايذائه ، ومشوا الى اصهاره الثلاثة واحدا بعد واحد يحرضونهم على محمد وعلى ترك بناته ووعدوهم بالزواج بمن ارادوا من فتيات قريش ، فأما ابو العاص بن الربيع فقد ابى ان يتخلى عن زينب مؤثرا اياها على جميع النساء .

وأما عتبة وعتيبة فقد استجابا لطلب قريش وأم جميل على الفور تنفيذا لرغبة امهما التي كانت تكيد لبني هاشم الذين استأثروا بالمجد والجاه دون قومها بني عبد شمس ، وفي الوقت ذاته ارادت ان تشفي غليلها وحقدها من خديجة التي كانت السيدة الاولى في مكة بلا منازع .

وعادت البنتان الى بيت ابيهما الذي عاشا فيه سعيدين حتى أدركهما الصبا ، وأقاما الى جانب امهما ومضى محمد يتابع دعوته من غير ان يرى في رجوعهما ضيقا او حرجا يشغله عنها ، ولم تمض سوى مدة يسيرة حتى جاءه عثمان بن عفان خاطبا ابنته رقية فزوجه اياها كما يدعي اكثر المؤرخين وهاجرت معه الى الحبشة لما اشتدت قريش في مطاردة المسلمين ورجعت معه منها فأقامت معه الى السنة الثانية من الهجرة ، وتوفيت والنبي (ص) خارج المدينة حيث خرج مع اصحابه لمعركة بدر وتخلف عنه عثمان ليساعد زوجته على موضها فلم يشترك مع المسلمين في تلك المعركة ، وتم دفنها في اليوم الذي رجع فيه النبي منتصرا الى المدينة ، وبقيت اختها ام كلثوم في بيت ابيها مع اختها الزهراء ، فشهدت عودة ابيها منتصرا من بدر كما شهدت موت شقيقتها ام كلثوم . ويدعي المؤرخون انه بدخول العام الثالث وخلال شهر ربيع الاول منه والنبي (ص) في بيته واذا بعمر بن الخطاب يدخل عليه والغضب باد على جبينه ليشكو اليه أبا بكر وعثمان كما يدعي المؤلفون في سيرة الرسول ، فقال :

يا رسول الله لقد عرضت على احدهما بعد الآخر ان يتزوج مـــن ابنتي حفصة .

فسكت ابو بكر وقال عثمان :

اني لا أريد ان أتزوج الان .

ويضيف الراوي الى ذلك ان النبي (ص) قال لعمر بن الخطـــاب ملاطفا :

سيتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة كما جاء ذلك في الاستيعاب والسمط الثمين للمحب الطبري .

وتزوج النبي (ص) بعد ذلك من حفصة بنت عمر ، وجاءه عثمـان خاطبا ام كلثوم فزوّجه اياها كما يدعي اكثر المؤرخين ، وبقيت معه نحوا من ست سنين كان الاسلام خلالها قد قطع اشواطا الى الامام ودخـل فيه اكثر عرب الحجاز ، وأصبح مرهوب الجانب ، وبخاصة بعد صلح الحديبية وما تلاه من انتصارات في خيبر ومكة وهوازن وغير ذلك من الغزوات والمعارك التي كان النبي (ص) يخرج مؤيدا مظفرا .

وتشير المرويات الكثيرة ان عثمان بن عفان لم يحسن صحبتها ولـم يراعِ رسول الله فيها فتزوج عليها اكثر من امرأة وماتت على اثر ضربات قاسية منه أدت الى كسر أضلاعها ، وكان قد خرج لتشييعها جنبا والنبي كاره لوجوده بين المشيعين بعد ان تسبب بوفاتها ، فتوجه النبي الـى المسلمين وقال من كان منكم في جنابة فلا يحضر الجنازة وهو يعني بذلك عثمان بن عفان، فتجاهل كلام النبي (ص) ولكنه (ص) ظل يردد قوله ويتهدد بأن يعلن عن اسمه اذا لم ينسحب ، وأيقن عثمان ان امره سينكشف اذا بقي على موقفه ، فترخص من النبي (ص) محتجا بأن ألما قد اصابـــه وانسل من بين المشيعين مرغما ، وكانت وفاتها خلال شعبان من السنة التاسعة لهجرة النبي (ص) .

وجاء في تاريخ الخميس عن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة ان النبي (ص) قال للمشيعين :

هل منكم احد لم يقارف اهله الليلة .

فقال ابو طلحة :

أنا يا رسول الله .

فقال :

انزل قبرها فوارها .

فنزل في قبرها ابو طلحة زيد بن سهل الانصاري ، وروى هـذا الحديث البخاري وجماعة غيره من المحدثين .

وجاء في المجلد الثاني من الغدير ص ٢٣٢ عن الطبري عن جماعة عن النبي (ص) انه قال أيكم لم يقارف اهله الليلة ؟ فسكت عثمان لانه كان قد اتصل ليلة وفاتها ببعض نسائه ولم يشغله موتها عن ممارسة شهواته ، وذلك امر قلما يصدر من رجل فقد امرأته وشريكة حياته .

وفسر الخطابي ابو سليمان عدي محمد البستي الاقتراف بالذنب ، ومهما كان الحال فالحديث على تقدير صحته يدل على عدم اكتراثه بموتها ، وفي ذلك إشعار بعدم صحة الحديث الذي رواه جماعة عن النبي (ص) انه قال له بعد موتها : لو كان عندي ثالثة لزوجتها عثمان كما جاء في الطبقات الكبرى وغيرها . هذا في حين اني أشك في اصل وجودها وزواجها من عثمان وفي كل ما روي عن النبي وغيره خلال تشييعها ودفنها لان ذلك ليس من خلق النبي (ص) .

هذا بالاضافة الى ان المرويات التي تحدثت عن هجرة علي (ع) الى المدينة بعد ان نفذ ما اوصاه به النبي (ص) لم تشر الى انه قد حمل معه من بنات النبي غير فاطمة الزهراء ومن غير المعقول ان يحمل معه الزهراء وفاطمة بنت الحمزة وأمه فاطمة بنت اسد وأم لبنى ويترك ام كلثوم بنت النبي تحت رحمة قريش في مكة والله أعلم بواقع الحال .

فاطمة الزهراء

التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها كما جاء في بعض الروايات والتي قضت مشيئة الله أن تنحصر بها ذرية محمد ابن عبد الله وأن يكون أشرف الخلق وسيد الانبياء أبا لأولادها .

لقد كانت الزهراء رابعة بنات النبي (ص) واختلفت الروايات في تاريخ ولادتها . ففي رواية الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني عن حبيب السجستاني عن الامام محمد الباقر (ع) انها ولدت بعد مبعث النبي بخمس سنين وتوفيت وهي في الثامن عشر من عمرها ، وفي رواية الشيخ الطوسي في مصباحه وغيره ان ولادتها كانت في العشرين من جمادى الآخرة بعد مبعث النبي بسنتين في يوم الجمعة .

وجاء في رواية ثانية في المصباح ان ولادتها كانت بعد خمس سنوات من مبعثه ، وأكثر الروايات السنية متفقة على انها كانت قبل مبعثه بخمس سنوات ، وفي ذلك تقول بنت الشاطىء في حديثها عن بنات النبي (ص) : لقد شاء الله ان يقترن مولدها بالحادث الجليل الذي ارتضت فيه قريش محمدا حكما فيما شجر بينها من خلاف على وضع الحجر الاسود عند تجديد بناء الكعبة المكرمة فاستبشر ابواها بمولدها

واحتفلا به احتفالا لم تألفه مكة في مولد انثى سبقتها ثلاث اخوات ليس بينهن ولد ، وأمضت طفولتها سعيدة بحب ابويها وتدليل اخواتها لها وبخاصة كبراهن زينب التي كانت لها بمثابة ام صغيرة .

ومهما كان الحال في تاريخ ولادتها فلقد نشأت بين ابوين ما عرف التاريخ اكرم منهما ولا كان لاحد في تاريخ الانسانية ما لأبيها من الآثار التي غيرت وجه التاريخ ودفعت الانسان العربي أشواطا بعيدة الى الامام في بضع سنوات معدودات ، ولا حدث عن ام كأمها اعطت مالها ووهبت كل ما لديها وحتى حياتها لزوجها العظيم مقابل ما اعطاها من هداية ونور حتى اصبحت السيدة الاولى بين نساء المسلمين اللواتي يبلغن آلاف الملايين الى هذا التاريخ .

في ظل هذين الابوين درجت فاطمة الزهراء (ع) واستقبلت منذ طفولتها حدثا جليلا تخطى مكة والمدينة والجزيرة العربية بكاملها والعالم كله عصرا وراء عصر .

لقد نشأت في دار ابويها وحيدة يغمرها حنان ابيها الذي فقد بنيه ولم يبق له من عزاء بعدهم الا عبء النبوة الذي تأهب له زمنا ونهض به زمنا وتحمّل في سبيله ما تنوء به الجبال فأنى اتجه وأنى ذهب يرى قريشا وغلمانها وعبدانها نه بالمرصاد وفاطمة على صغر سنها ترى كل ذلك وتساهم مع امها في التخفيف من وقع ذلك في نفسه ، فكانت تتلوى من الالم لما يلقى من فادح الأذى ، وتتجرع مرارة ما كان يكابده المسلمون الاولون من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة وهي تلقى عليهم في حر الصيف وساعات اللهيب المحرقة ، وألم السياط التي كانت قريش تلهب بها ظهور المستضعفين والمعذبين بين أسوار الحصار المنهك عددا من السنين. وتوالت عليها المشاهد التي كان وقعها اليسا على نفسها وقلبها وهي لا تزال في سن الطفولة ترى اباها يتلوى من اجل اولئك المعذبين ولا يستطيع ان يصنع لهم شيئا .

وكان من أيسر ما لحقه من الاذى ان مر عليه احد سفهاء قريش كما جاء في رواية الطبري فاغترف بكلتا يديه من التراب والاوساخ وصبها على رأسه ، فدخل بيته والتراب على رأسه فقامت اليه بنته فاطمة وجعلت تغسل التراب عن رأسه وتبكي وهي حديثة عهد بوفاة امها الصديقة الكبرى خديجة ، وبالرغم من ان بكاءها كان موجعا لقلبه الا ان ذلك وغيره من الصدمات القاسية لم يزده الا صبرا وثباتا وايمانا بأنه سوف يتغلب على اعدائه في النهاية ، فالتفت اليها وعيناها تهمي بالدموع وقال:

لا تبكي يا بنية ان الله مانع أباك وناصره على أعداء دينه ورسالته .

ورأته مرة وهو ساجد في الحرم وحوله ناس من مشركي قريش يسخرون منه ويعدون الخطط لايذائه فسمعت منهم ما يجرح نفسها ويدمي فؤادها . وفيما هي الى جانبه واذا بعتبة بن ابي معيط يحمل سلي جزور ويقذفه على ظهره وهو ساجد ، فأقبلت اليه مسرعة باكية وأخذته عن ظهره وألقته جانبا ولما رفع رأسه من سجوده دعا على جماعة من اولئك الذين كانوا حوله يخططون لايذائه والزهراء تسمع دعاءه وشكواه الى الله ، ولم تمض سوى سنوات معدودات حتى سمعت بأخبارهم صرعى على رمال بدر تنهشهم سباع البر وهوام الفلاة .

وقال الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت :

ان للسيدة فاطمة الزهراء تسعة اسماء فاطمة والصديقة والمباركة والطاهرة والزكية والمحدثة والزهراء .

وأضاف الى ذلك ابو علم في الكتاب المذكور انه كان يطلق عليها ام النبي لانها كانت وحدها في بيته بعد موت امها تتولى رعايته والسهر عليه . ونقل ابو علم عن علي (ع) ان الرسول قال له :

انما سميت فاطمة لان الله قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة (١).

---

١ ــ كما جاء ذلك في الصواعق لابن حجر وغيرها من كتب الحديث .

ومضى يسرد المناسبات التي استحقت بسببها تلك الصفات حسبما ترويه كتب الحديث ، وسواء صح ذلك ام لا فمما لا شك فيه انها كانت المفضلة عند الرسول على شقيقاتها وأحب ولده اليه كما تؤكد ذلك عشرات المناسبات التي كان النبي يستغلها ليحدث عن فاطمة وما حباها الله به من الفضل على جميع النساء ، وقال لها اكثر من مرة : ان الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك ، وليس ذلك الا لانها لا ترضى الا بما يرضي الله ، ولا تغضب الا لما يغضبه .

وجاء في صحيح البخاري ان النبي (ص) كان يقول :

فاطمة بضعة مني فمن اغضبها أغضبني .

وروى مسلم في صحيحه انه قال :

فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها .

ورواها بنصها تارة وبمضمونها اخرى كل من ابن حجر في الإصابة والترمذي في صحيحه والنسائي وغيرهما من المحدثين. ولكثرة من روى ذلك عن النبي اصبح هذا النوع من المرويات من المتواتر في معناه ان لم يكن متواترا في لفظه .

وجاء في الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ان عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط دخل على عمر بن عبد العزيز فرفع مجلسه وأكرمه وقضى حوائجه . ولما سئل عن سبب اكرامه وتعظيمه له اجاب لقد حدثني الثقة كأني أسمع ذلك من فم رسول الله (ص) انه قال :

فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ويغضبني ما يغضبها ، وعبد الله هذا بضعة من فاطمة بضعة رسول الله .

وجاء في المستدرك للحاكم بسند ينتهي الى ابي ثعلبة الخشني انه قال :

كان رسول الله (ص) اذا رجع من سفر او غزاة اتى المسجد فصلى ركعتين ثم ثنى بفاطمة .

ويأتي ازواجه بعد ذلك كما روي عن عبد الله بن عمرانة انه قال :

كان رسول الله اذا سافر كانت آخر الناس عهدا به فاطمةواذا رجع من سفره كانت عليها افضل الصلاة والتحيات اول الناس عهدا به .

وفي الاستيعاب لابن عبد البر بسند ينتهي الى السيدة عائشة انها كانت تقول : احب الناس من النساء الى رسول الله ابنته فاطمة ، ومن الرجال زوجها علي . وتضيف الى ذلك انه كان صواما قواما .

وروي في المستدرك بسند ينتهي الى جميع بن عمير انه قال :

دخلت مع امي على عائشة فسمعتها من وراء الحجاب وامي تسالها عن علي (ع) تقول : تسائليني عن رجل والله ما أعلم رجلا كان أحب الى رسول الله من علي ولا في الارض امراة كانت أحب اليه من فاطمة .

وجاء في كتاب اهل البيت لتوفيق ابو علم وهو يتحدث عن فاطمة(ع) عن ابي سعيد الخدري ان علياً سأل فاطمة ذات يوم اذا كان عندها شيء من الطعام ليأكله ، فقالت له : لا والذي أكرم محمدا بالنبوة ما اصبح عندي شيء ولا اكلنا بعد شيئا . فقال لها ألا اعلمتني حتى ابغيكم شيئا. فقالت اني استحي من الله ان اكلفك ما لا تقدر عليه . فخرج من البيت واستقرض دينارا ليبتاع لعياله ما يصلح لهم وبينما هو بهذا الصدد واذا بالمقداد بن الاسود يعترضه في يوم شديد الحر قد لوحته الشمس ، فلما رآه علي (ع) أنكر حاله وقال ما الذي أزعجك يا مقداد وأخرجك من رحلك هذه الساعة ؟ فقال له : خلّ سبيلي يا ابا الحسن ولا تسألني عما ورائي . فقال له يا ابن اخي : لا يحل لك ان تكتمني حالك فقال :

اما اذا ابيت فوالذي أكرم محمدا بالنبوة ما أزعجني الا الجهد ولقد تركت اهلي يبكون من الجوع فخرجت من البيت لابحث لهم عن شيء يسد ولو بعض ما يحتاجون اليه .

ويدعي الراوي ان عليا لما سمع حديثه ورأى ما به من الجهد والحيرة اثره على نفسه ودفع له الدينار ورجع الى البيت من غير ان يشتري شيئا لأهله ، وصلى مع النبي ذلك اليوم ، ولما انتهى من صلاة المغرب قام

النبي من محرابه وقال له : **هل عندك شيء تعشينا به ؟** فأطرق علي (ع) برأسه حياء من رسول الله وأصيب بحيرة من امره وأخيرا وبعد صمت طويل رحب بالنبي (ص) وسارا معا حتى دخلا على سيدة النساء فاطمة فوجداها تصلي وخلفها جفنة تفور دخانا ، ولما انمت الصلاة توجهت الى النبي (ص) وسلمت عليه فمسح بيده على رأسها وقال كيف امسيت ؟ وطلب منها العشاء ، فأخذت الجفنة ووضعتها بين يديه ، فنظر اليها علي (ع) كالمستغرب لانه قد خرج من البيت ليشتري شيئا بعد ان قالت له ما اصبح عندنا شيء ولا اكلنا شيئا فأدركت سر نظرته اليها وحلفت له انها لا تعلم من اين جاءتها الجفنة فوضع رسول الله كفه بين كتفي علي (ع) وقال هذا جزاء الدينار يا علي : هذا من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب • ثم استعبر النبي (ص) وقال :

الحمد لله الذي لم يخرجكما من الدنيا حتى جزاك يا علي وجعل لك ولفاطمة ما جعله لزكريا ومريم حيث قال تعالى :

كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال : يا مريم آنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

الى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تصف النبي (ص) وأهل بيته بالفقر والبؤس ، وما كانوا يعانونه من الفاقة والجوع في كثير من الاوقات وبالتالي تنزل عليهم الموائد من السماء كما حدث للزهراء (ع) وحسبما اظن ان هذا اللون من المرويات اكثره من الموضوعات ، اولا لان اكثرها من المراسيل والمرسلين لها من غير المعروفين بالوثاقة والاستقامة والارسال من عيوب الرواية حتى ولو كان المرسل مستقيما بذاته ، الا اذا علمنا بأن المرسل لا يروي الا عن ثقة كما هو الحال في مراسيل محمد بن عمير، والمسند منها غير مستوفي شروط العمل بالرواية لضعف رواته .

وثانيا ان النبي (ص) بعد معركة بدر كان لديه مما افاء الله عليه من

الغزوات ما يكفيه لسد حاجته هذا بالاضافة الى ما كان يملكه من اموال خديجة ، مع العلم بأن اغنياء الأوس والخزرج قد وضعوا كل اموالهم في تصرفه ومن البعيد ان يتركوه يتجرع مرارة الجوع يوما كاملا او اياما كما في بعض المرويات هو وابنته وابن عمه ونساءه في حين ان البذل والعطاء من ابرز صفات العرب ومفاخرهم .

وبلا شك فان النبي وعلياً وفاطمة لم تكن لتشغلهم طيبات العيش وملذات الحياة وكانوا يكتفون بالقليل منها مواساة للفقراء والمساكين كما تؤكد ذلك سيرتهم .

ولا أستبعد ان تكون من صنع القصاصين والمرتزقة وقد وضعوها ليستدرجوا من كان يجتمع اليهم على تقديم الهبات لهم كما كانت عادتهم ، واما من صنع بعض المحبين الذين لا يفهمون اهل البيت الا من زاوية الغيبيات وهذا النوع من الكرامات والاساطير .

وحدث عبد الله بن العباس عن النبي (ص) انه قال يوما :

ان الله خلق الناس من اشجار شتى وخلقت أنا وعلي من شجرة واحدة فما قولكم في شجرة انا أصلها وفاطمة فرعها وعلي لقاحها والحسن والحسين ثمارها وشيعتنا أوراقها فمن تعلق بغصن من اغصانها ساقه الى الجنة ومن تركها هوى الى النار (١) .

وجاء في رواية ابن عباس عن النبي (ص) انه قال :

يا علي ان فاطمة بضعة مني ونور عيني وثمرة فؤادي يسوءني ما ساءها ويسرني ما سرها وهي اول من يلحقني من اهل بيتي فاحسن اليها

---

١ ــ والمراد من التعلق بأغصانها العمل بتعاليمهم والاقتداء بهم ، كما وان تركها يعني عدم الاقتداء بهم فيما أمر الله وأحب وكره وبلا شك فان مصير العاملين بسيرة النبي وأهل بيته الى الجنة ومصير من انحرف منهم ولم يعمل بما اراد الله الى النار كائنا من كان

من بعدي ، والحسن والحسين ابناي وريحانتاي وسيدا شباب اهل الجنة فليكونا عليك كسمعك وبصرك .

وأضاف الى ذلك ابن عباس : ان النبي (ص) رفع يديه الى السماء وقال :

اللهم اني أشهدك اني محب لمن أحبهم ومبغض لمن أبغضهم وسلم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم وعدو لمن عاداهم وولي لمن والاهم .

وروى الرواة ايضا ان النبي (ص) كان جالسا ذات يوم وعنده علي وفاطمة والحسنان ، فقال :

اللهم انك تعلم ان هؤلاء اهل بيتي وأكرم الناس عليّ فأحب من يحبهم وأبغض من يبغضهم ووال من والاهم وعاد من عاداهم وأهن من أهانهم واجعلهم مطهرين من كل رجس معصومين من كل ذنب وأيدهم بروح القدس يا رب العالمين .

وجاء في رواية ابن عبد البر في الاستيعاب ان النبي (ص) قال لها يا بنية :

الا ترضينّ انك سيدة نساء العالمين ، فقالت يا ابتي : اين مريم ابنة عمران فقال : هي سيدة نساء عالمها .

وبهذا المضمون روى الصدوق في اماليه عن النبي (ص) انه كان يقول فاطمة سيدة نساء العالمين ولما قيل له انها سيدة نساء عالمها ، قال تلك ابنة عمران فأما ابنتي فانها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين ، الى كثير من الاحاديث التي رواها محدثو الشيعة والسنّة في مجاميعهم وصحاحهم والتي تتفق في مضامينها على ان السيدة الزهراء قد فضلها الله على نساء العالمين لا لانها بنت الرسول بل لانها قد عملت بما اراد الله وأحب وأخلصت في عملها كأمها الصديقة الكبرى بما لم تعمله امرأة قبلها من الأولين والآخرين ، واختارها الله سبحانه من بين بنات الرسول لتكون أما للذرية الطاهرة تلك الذرية التي ستكون امتدادا لحياة الرسول فتتحمل ثقل الكفاح وعبء الجهاد وتنطلق بعزيمة صادقة واستبسال لا نظير له لرفع كلمة الله ونشر المثل العليا التي دعا

جدهم اليها وضحى في سبيلها براحته وبكل ما يملك هو والصفوة من أنصاره .

لقد روى الرواة عنه انه قال اكثر من مـــرة كما جاء في مستدرك الصحيحين وتاريخ بغداد : كل بني آدم ينتمون الى عصبتهم الا ولد فاطمة فاني انا ابوهم وأنا عصبتهم . وفي رواية كنز العمال ، ان لكل بني اب عصبة ينتمون اليها الا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم وقـــد خلقوا من طينتي فويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم فقد أحب الله ومن ابغضهم فقد ابغض الله .

وجاء في رواية ذخائر العقبى : كل بني انثى فان عصبتهم لابيهم الا ولد فاطمة فأنا ابوهم وأنا عصبتهم .

لقد قال ذلك في اكثر من مناسبة لانه قد استشف من وراء الغيب وأدرك ادراكا لا يخامره ادنى شك ان الذرية الطاهرة من بضعته الزهراء لن يفترقوا عن الكتاب حتى يردوا عليه الحوض وانهم سيهبون الناس ما وهبهم الله من الحق والخير والمثل العليا ، وسيتابعون المسيرة التي بدأها لتحرير الانسان من شهواته ومن التسلط ويقفون صامدين فـــي سبيل المعذبين في الارض وفي وجه اعاصير الشرك والضلال والاستغلال والاستعباد لتبقى للانسان حريته وكرامته .

لقد رأى النبي (ص) ان اهداف الرسالة التي جاء بها وضحى مـــن اجلها بأكثر مما تتحمله طاقة الانسان وان الاشواط التي قطعها في هذا السبيل ليس لها من يحميها من غطرسة الطغاة وكبرياء السادة اصحاب النفوذ والمال الذين يستخدمون هذين للتسلط على الناس والبغـــي والعدوان ، ليس لتلك الاهداف من يعمل على ترسيخها ويحميها مـــن التلاعب والتحريف لتستمر في عطائها الواسع لجميع الناس بلا استثناء الا نسله الطيب من بضعة فاطمة الزهراء (ع) فمنحهم حبه وعطفه وجباهم بالانتساب اليه ، فقال فيهم كلمته التي اشتهرت علـــى لسان المحدثين

والرواة : كل بني آدم ينتمون الى عصبتهم وآبائهم الا ولد فاطمة فأنا ابوهم وأنا عصبتهم ، وأنزل الله عليه قرآنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يفرض مودتهم على جميع الناس من بعـــده في كل عصر وزمان .

قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة في القربى

هجرتها الى المدينة

لقد توالت على الزهراء المشاهد التي كان وقعها اليما على نفسها وقلبها منذ طفولتها فمن المحن التي قاساها ابوها في سبيل الدعوة وما رافق ذلك من التعذيب والتنكيل بالمستضعفين من أتباعه الى الحصار في الشعب الذي استمر نحوا من ثلاث سنين الى وفاة عمها الكفيل ابي طالب وأمها خديجة في عام واحد الى هجرة ابيها الى المدينة خائفا يترقب بعد ان اتفقت قريش على قتله وتعاهدت قبائلها على ذلك ولم يبق له في مكة مكان يستريح اليه ، وتمت الهجرة بسلام بالرغم من تحفظات قريش ومطاردتها له وبذلها الجوائز السخية لكل من يرشدها الى مكانه او يقبض عليه ، وكان قبل هجرته امر عليا بالمبيت على فراشه وأوصاه بما اهمه وأن يلحق به مع من بقي من النسوة وهن فاطمة الزهراء وفاطمة بنت اسد وفاطمة بنت الحمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ولم يرد ذكر لأم كلثوم معالنساء اللواتي خرجن مع علي(ع) من مكة الى المدينة ، ولعل ذلك مما دعا الى التشكيك بوجودها بين بنات النبي (ص) .

ومهما كان الحال فبعد ان نفذ علي (ع) وصايا الرسول وسلم الودائع

لاهلها كما نصت على ذلك المؤلفات في سيرة النبي هيأ لهن الرواحل وأخرجهن من مكة في طريقه الى يثرب وأشار على من بقي في مكة من المؤمنين ان يتسللوا ليلا الى ذي طوى حيث يسير الركب منها باتجاه المدينة ، وخرج هو في وضح النهار بالفواطم ومعه ام ايمن وأبو واقد الليثي فجعل ابو واقد يجدّ السير مخافة ان تلحقهم قريش وتحول بينهم وبين اتمام المسيرة ، فقال له علي (ع) : ارفق بالنسوة يا ابا واقد وارتجز يقول :

ليس الا الله فارفع ظنكا يكفيك رب الخلق ما اهمكا

فلما قارب ضجنان ادركه طلب قريش وكانوا ثمانية من فرسانهم معهم مولي لحرب بن أمية يدعى جناح ، فقال علي (ع) لأيمن وأبي واقد انيخا الابل واعقلاها . وتقدم هو فأنزل النسوة ناحية واستقبل القوم بسيفه ثم قالوا له : أظننت انك ناج بالنسوة وناشدوه ان يرجع بهن طائعا قبل ان يرجع بهن مكرها ، ولكن عليا استقبل القوم بسيفه ، وشد عليهم حتى فرقهم عن الركب يمينا وشمالا ، ومضى في اثرهم الواحد تلو الآخر وضرب جناحا مولى بني أمية على عاتقه فقده نصفين ودخل السيف الى كتف فرسه ولاذ الباقون بالفرار ، وعاد علي (ع) يتابع المسيرة بمن معه من النسوة حتى دخل المدينة وقد أجهده السير على قدميه فرقّ النبي لحاله .

وجاء في بعض المؤلفات في السيرة : ان الحويرث بن نقيد بن عبد قصي كان احد الفرسان الذين ارسلتهم قريش لمطاردة علي (ع) ومن معه من النسوة وكان ممن يؤذي النبي (ص) في مكة ، فأقبل الحويرث على البعير الذي يحمل فاطمةومعها احدى الفواطمفرماها الى الارضفأضر بها وكانت نحيلة الجسم قد انهكت جسمها الاحداث التي سبقت هجرة ابيها، وبخاصة بعد وفاة امها .

ومرت سنوات على هذا الحادث وجاء العام الثامن للهجرة الذي فتح

النبي فيه مكة وجريمة الحويرث لا تزال عالقة في الاذهان ترددها الألسن ، واذا بالنبي (ص) يسميه مع النفر الذين اهدر دماءهم وان وجدوهم تحت استار الكعبة فقتله علي ابن ابي طالب (ع) .

وكان النبي (ص) بعد وصوله الى المدينة استقر حيث بركت ناقته على باب ابي ايوب الأنصاري ونزل ضيفا عليه وشرع في بناء مسجده واشترك مع المسلمين في العمل حتى اتموا بناءه ، وبعدها بنى بيته المتواضع المؤلف من عدة حجرات بعضها بالأحجار والبعض الآخر من جريد النخل والطين وكلها مسقوفة بجريد النخل ، اما ارتفاع الحجرات فقد وصفه الامام الحسن سبط الرسول (ص) فيما جاء عنه انه قال : كنت ادخل بيوت النبي (ص) وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدي .

اما الاثاث الذي هيأه النبي لبيته الجديد فهو في منتهى البساطة والخشونة والتواضع ، وأعد لنفسه فيه سريرا مؤلفا من اخشاب مشدودة بالليف كما جاء في بعض الروايات .

الى هذا البيت المتواضع جاءت فاطمة بنت محمد (ص) مهاجرة من مكة لترى اباها بين أنصاره في يثرب يفدونه بالمهج والارواح ومعه المهاجرون وقد اطمأن بهم المقام مع اخوانهم ممن أسلم من الأوس والخزرج وانصرفوا مع النبي (ص) الى الدعوه للاسلام والتخطيط لغد أفضل وقد آخى النبي بينهم وبين مسلمي المدينة ليذهب عنهم وحشة الاغتراب ويشد بعضهم الى بعض بتلك الأخوة التي تجمعهم على صعيد واحد وهو الايمان بإله واحد لا شريك له ولا نظير ، وترك عليا لنفسه فأخذ بيده ومعه حشد من المهاجرين والانصار ، وقال هذا اخي ووصي ووارثي من بعدي ولم يمض وقت طويل على تلك المؤاخاة التي فاز بها علي (ع) حتى اصبح صهرا للنبي وزوجا لأحب بناته اليه وأعزهن على قلبه وروحه .

لقد كانت الزهراء يوم زواجها من علي (ع) في حدود الخامسة عشرة

من عمرها كما في اكثر الروايات ، وفي حدود الثامنة عشرة عند فريق آخر من المحدثين . وقيل غير ذلك .

وقد استغل جماعة من المستشرقين الحاقدين على الاسلام الذين يتخذون من الاستشراق وسيلة للدس على الاسلام وحماته والتبشير بالمسيحية والصهيونية وعلى رأسهم (المستشرق لامنس) استغلوا وجود بعض المرويات المدسوسة بين الاحاديث الصحيحة لبث أحقادهم والتشويش على الذرية الطاهرة، فتحدث لامنس في كتابه عن الزهراء(ع) حديث الحاقد الحقير المشحون بالغيظ والحقد واعتمد اضعف الروايات في تحديد سن الزهراء (ع) حين زواجها من علي (ع) ليجد منفذا للكذب ومسخ الحقائق وتحويرها بما يرضي أسياده اعداء الاسلام الألداء .

ان مواقف لامنس وغيره من الاسلام وحماته لا يصح وصفها بالجهل والغباء ، لان الجهل يمكن علاجه بالبحث والتنقيب عن الحقيقة، وما أيسر الوصول اليها في مثل هذه المواضيع لو ارادها المبشرون في المسيحية العالمية والصهيونية الحاقدة الذين اتخذوا صفة الاستشراق واتجهوا الى البحوث الاسلامية لتسهيل مهماتهم . ان هؤلاء مصابون بمرض تزيده الحقائق الناصعة اشتعالا وفتكا في نفوسهم المريضة وقلوبهم المشحونة بالكراهية للاسلام والحقد على الرسول وذريته وان هذه الامراض اشر وأسوأ من الجهل بعشرات المرات بلا ريب في ذلك.

لقد قال لامنس : ان فاطمة بنت محمد لم يكن لها شأن يذكر حين زواجها وبعده وقد تناساها المؤرخون ولم يحفلوا بها قبل ظهور فكرة التشيع في الاسلام ، فلما ظهرت فكرة التشيع عادوا يطيلون الحديث عنها وأخذت شهرتها تتسع وتذاع ، في حين ظلت اخواتها وليس لهن ذكر ولم يرد بشأنهن حديث على لسان المحدثين .

ومضى يقول : لا يوجد سبب لتأخير زواجها الى ان بلغت سن

الثامنة عشر الا انها كانت محرومة الجمال لم يرغب بها احد من الناس وهي نفسها لم تصدق ان احدا يخطبها وقد بلغت هذا السن وهي تفقد ما يرغب به الخاطبون من الرجال ، وأضاف الى ذلك : ان النبي بعد ان عرض عليها الزواج من علي (ع) سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلا ، بل دهشة من ان يخطبها خاطب ، ثم تكلمت وفي نفسها شيء من التردد ان تتزوج من رجل فقير كعلي بن ابي طالب .

بهذا الهراء الذي لا يعتمد على العلم ولا على المنطق والبحث تحدث عنها لامنس وغيره ممن انتحلوا صفة الاستشراق ، في حين ان الذين تحدثوا عن صفاتها وضعوها فوق نساء عصرها في جمالها وجميع مواهبها ، وقد ولدت لأبوين كانا في منتهى الجمال كما وصفهما الواصفون ، هذا مع العلم ان الروايات الكثيرة التي نصت على ان زواجها كان وهي في سن مبكر اكثر عددا وأقرب الى الصحة من تلك التي اعتمدها (لامنس) بدون ان يذكر الاسباب التي جعلته يعتمد عليها دون سواها ، هذا بالاضافة الى ان المؤلفين في سيرة الرسول والذين تحدثوا عن زواجها من علي (ع) رووا وحدثوا في الوقت ذاته عن جماعة من الصحابة وغيرهم ان ابا بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من ذوي الجاه والمال قد رغبوا في مصاهرة النبي وخطبوها واعتذر عن اجابتهم بأنه ينتظر فيها امر الله سبحانه .

وجاء في جلال العيون للسيد عبد الله بشير عن الخوارزمي في المناقب وغيرها من كتب الخاصة والعامة على حد تعبيره عن ام سلمة وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين (ع) ان فاطمة الزهراء قد خطبها في مطلع صباها أكابر قريش من اهل الفضل والسابقة في الاسلام والشرف وذوي المال ، وكلما جاءها خاطب أعرض عنه النبي بوجهه حتى كان الرجل منهم يظن في نفسه ان رسول الله ساخط عليه ، او نزل على رسول الله (ص) فيه وحي من السماء . ومضى الراوي يقول : ولقد

خطبها من رسول الله ابو بكر فقال له النبي : امرها الى ربها ، وخطبها بعدُ ابي بكر عمر بن الخطاب فقال له رسول الله ما قاله لأبي بكر الى غير ذلك مما رواه المؤرخون والمحدثون في مجاميعهم من المرويات الكثيرة التي تجاهلها الحاقدون على الرسول وآله وتعلقوا ببعض المرويات التي لا تثبت في مقابل النقد العلمي والتمحيص لأسانيدها وانطلقوا منها الى ان تأخير زواجها الى الثامنة عشرة من عمرها لم يكن الا لانها تفقد الجمال وما يرغب فيه الخاطبون من الصفات ، بدون اي اشارة في تلك الاحاديث توحي لهم بذلك .

حديث زواجها من علي (ع)

لم يكن غريبا هذا الزواج فأكثر المسلمين كانوا لا يرون لفاطمة كفؤاً غير علي الذي احتضنه والدها وهو صبي لم يتجاوز السادسة من عمره فدرج ونشأ في بيت النبي مع اولاده وبناته ترعاه خديجة كما ترعى بناتها ، ولم يبق في بيتها بعد ان تزوج بناتها غير علي وفاطمة وهو يوم ذاك في مطلع صباه فاستقبل ذلك الحدث العظيم الذي دعا اليه كافله ومربيه بقلب مفتوح وبصيرة نافذة يواسيه في الازمات والشدائد ويفديه في الحروب والغزوات .

اما فاطمة فقد شاء الله ان يقترن مولدها بالحادث الجليل وتستقبل ذلك الإعصار المارد الذي أثارته الوثنية العاتية في وجه الدين الجديد وواجهت جميع ما واجهته أمها من الاحداث الجسام ، وقبل ان تبلغ العاشرة من عمرها واجهت تلك الصدمة العنيفة التي اصيبت بها بوفاة امها وألفت بها في دوامة الاحداث الهائلة التي اعقبت وفاة عمها ابي طالب ، واستقبلت حياتها الجديدة الحافلة بالمتاعب والآلام وهي تدرك ادراكا سليما ما اصبح عليها من المسؤوليات الجسام في ذلك البيت الذي كانت في طفولتها الباكرة تنعم في ظله مع ابن عمها علي بن ابي

طالب الذي اختاره ابوها من بين اولاد ابي طالب واتخذه ولدا في صغره وأخا يوم آخى بين المهاجرين في مكة وبينهم وبين الانصار في يثرب وصاحبا من أعز اصحابه وأقربهم الى قلبه وروحه وخليفة من بعده في مطلع الدعوة يوم دعا بني هاشم الى الاسلام ومناصرته على الدعوة اليه ، وأبا للعترة الطاهرة من بضعته الزهراء .

لقد استقبلت الزهراء حياتها الجديدة بعقل نير وقلب مفتوح لرسالة ابيها وهي تدرك على صغر سنها معنى بنوتها لمن اصطفاه الله واختاره بشيرا ونذيرا لاهل الارض ما دامت السموات والارض ، ولم تأس على ما فاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها ان تتخلى عما هو منتظر لامثالها من راحة وخلو بال ، فلم يشغلها عن رعاية ابيها والانصراف لشؤونه شيء من شؤون الطفولة ولا من شؤون الناس وصمدت لجميع الاحداث مع قسوتها وجسامتها لم تساورها الشكوك ولو لحظة واحدة ولا وهنت عزيمتها طرفة عين ابدا وظلت تراقب الاحداث بعد هجرة ابيها في جو مشحون بالقلق على مصيره حتى انضمت الى موكب الهجرة في البلد الامين ، فأحست بالانفراج مما كانت تعانيه من القلق والخوف على ابيها ودعوته وبخاصة بعد ان رأت اصحابه الجدد في دار هجرته يتسابقون الى الاسلام والبذل والعطاء ويندفعون الى السرايا والغزوات ويحققون الانتصار تلو الانتصار ، ورأت ابن عمها البطل الذي عاشت معه طويلا في كنف ابويها الرحيمين الكريمين ، والذي لم يكن بين فتية قريش ولا بين جميع العرب من يساويه في البطولات والتضحيات والدفاع عن النبي (ص) .

لقد رأته وقد تجاوز العشرين من السنين ألصق بأبيها من جميع المسلمين ، وقد احتل من نفسه مكانا لم يكن ليطمع به او يحلم ببلوغه احد من مهاجري المسلمين وأنصارهم ، وسمعت أباها يقول له وحشود المسلمين من حوله يوم آخى بين المهاجرين والانصار : لقد تركتك

لنفسي ، فأنت اخي في الدنيا والآخرة ، وكانت تحس له في نفسها بمكانة ليست لأحد من الناس وبروابط أعمق من رابطة الاخوة وأبناء العمومة الاقربين ولكنها لم تكن تستطيع تفسير أحاسيسها نحوه بما خبأه لهما الغد القريب من الزواج الذي اختاره الله لهما لانها كانت تؤثر بقاءها الى جانب ابيها ملتزمة بيته لتوفر له اسباب الراحة والاستقرار على الزواج وجميع متع هذه الدنيا حتى بعد ان تزوج بأكثر من واحدة من النساء .

وما ان دخلت السنة الثانية من هجرة النبي (ص) وبدأت طلائع الاستقرار تلوح للمسلمين حتى بدأ الخطاب يتسابقون الى النبي يطلبونها منه وهو يردهم ردا جميلا ويقول لكل من جاءه : اني أنتظر فيها امر الله ، وبلا شك لقد كان الامام علي (ع) احد الطامعين في الزواج منها ، ولكن الحياء كان يمنعه عن مفاتحة النبي بذلك ، وفي الوقت ذاته فان الزواج يتطلب بعض الامكانيات المادية وليس لديه شيء من ذلك ، غير ان جماعة من اصحابه قد شجعوه على الاقدام على ذلك وهنا لا بد لنا ان نلخص ما جاء في المؤلفات في سيرة النبي ومجاميع الحديث حول زواجه منها بذلك المهر المتواضع والجهاز البالغ أقصى حدود البساطة كما يصفه اكثر المؤرخين والمحدثين .

لقد جاء في الكافي للكليني عن الحسن بن محبوب عن حبيب السجستاني انه قال : سمعت ابا جعفر يقول ولدت فاطمة بنت محمد بعد مبعثه بخمس سنين ، وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوما ، فيكون لها من العمر تسع سنوات تقريبا حين زواجها ، ورجح الطبري في تاريخه انها كانت في العاشرة من عمرها ، وقيل كانت في الخامسة عشرة من عمرها وقيل غير ذلك .

وجاء في كشف القمة عن الامام الصادق (ع) انه قال : لولا ان الله

خلق امير المؤمنين ما كان لفاطمة كفء على وجه الارض ، وقد روى ذلك صاحب كتاب الفردوس عن النبي (ص) .

وفي مناقب ابن شهراشوب انه قد اشتهر في الصحاح بالأسانيد الموثوقة عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود والبراء بن عازب وغيرهم بصيغ تختلف في تركيبها وألفاظها وتتفق في مضامينها ان ابا بكر وعمر ابن الخطاب كانا ممن خطب فاطمة من النبي بعد ان استقر في المدينة وألحا عليه في الطلب فردهما بقوله : اني أنتظر فيها امر الله .

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد ان ابا بكر وعمر بن الخطاب حين خطباها من النبي (ص) لم يزد على قوله : اني انتظر فيها امر الله، وكان الذي يمنع عليا من خطبتها الحياء بالاضافة الى الفقر ، فلما شجعه بعض المسلمين على خطبتها دخل على النبي وهو مطرق الى الارض من الحياء فأحس النبي بما في نفسه ، فاستقبله ببشاشته التي اعتاد ان يستقبله بها ورحب بقدومه ، وأقبل عليه يسأله برفق ولطف عن حاجته وألح عليه في السؤال ، فأجابه بصوت ضعيف وهو مطرق برأسه ذكرت فاطمة يا رسول الله ولم يزد على ذلك فرد عليه النبي بقوله مرحبا وأهلا. وخرج علي (ع) ليقص على اصحابه ما جرى له ، وكانوا بانتظاره فلما اخبرهم بما جرى له مع النبي (ص) قالوا له لقد اجابك النبي الى ما تريد .

وعاد رسول الله الى بيته ليعرض على بضعته الزهراء رغبة علي بها، فقال لها كما جاء في رواية ابن سعد في طبقاته : لقد سألت ربي ان يزوجك خير خلقه وأحبهم اليه وقد عرفت عليا وفضله ومواقفه وجاءني اليوم خاطبا فما ترين ؟ فأمسكت ولم تتكلم بشيء ، فخرج النبي (ص) وهو يقول :

سكوتها رضاها واقرارها .

ثم ان رسول الله (ص) جمع المسلمين وخطب فيهم وقال كما جاء في

رواية كشف القمة عن المناقب :

ان الله أمرني ان أزوج ابنتي فاطمة من علي (ع) وقد زوّجتها اياه على اربعمائة مثقال فضة .

ثم التفت الى علي (ع) وقال :

لقد أمرني ربي أن أزوجك فاطمة ، واني قد زوّجتكها على اربعمائة مثقال من الفضة أرضيت هذا الزواج يا علي ؟

فقـال :

رضيته يا رسول الله وخرّ ساجدا الى الله .

فقال النبي :

بارك الله فيكما وجعل منكما الكثير الطيب .

وفي رواية انس بن مالك انه قال : بارك الله عليكما وأسعد جدكما وجمع بينكما وأخرج منكما الكثير الطيب ، وأضاف الى ذلك انس بن مالك والله لقد اخرج منهما الكثير الطيب .

وجاء في بعض الروايات عن اهل البيت ان مهرها كان خمسمائة درهم ، ما يعادل اثني عشر اوقية ونصف من الفضة كل اوقية اربعون درهما ، ويدعي ابن سعد في طبقاته ان بنات رسول الله لم يتعد مهرهن هذا المقدار .

وفي الاستيعاب لابن عبد البر ان رسول الله (ص) قال لها : لقد زوّجتك سيدا في الدنيا والآخرة وانه لاول اصحابي اسلاما وأكثرهم علماً وأعظمهم حلما .

وجاءه علي بالمهر بعد ان باع درعه لعثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهما فحملها علي ووضعها بين يدي رسول الله فقبض منها النبي قبضة ودفعها الى بلال وقال له : ابتع لفاطمة طيبا ، ثم قبض منها بكلتا يديه ودفعها لابي بكر وقال له اشتر لها ما يصلحها من ثياب وأثاث الى البيت وارسل معه عمار بن ياسر وجماعة من اصحابه فخرجوا الى السوق فكانوا يأتون بالشيء ويعرضونه على ابي بكر فان استصلحه

اشتراه ، ودفع مبلغا من المال لأم أيمن لتشتري به امتعة الى البيت ، فكان مجموع الجهاز قميص بسبعة دراهم ، وخمار بأربعة وقطيفة سوداء خيبرية وسرير مزمل بشريط ، اي ملفوف بالشريط وفراشان من خيش مصر حشو احدهما ليف ، وحشو الآخر من صوف الغنم ، وأربعة مرافق من ادم الطائف حشوها من الاذخر [1] وستر رقيق من صوف وحصير هجري ورحى لليد ، ومخضب من نحاس [2] وسقاء [3] وقعب للبن ومطهرة مزقة وجرة خضراء وكيزان من خزف وعباءة وقربة ماء وغير ذلك من الادوات المبتذلة المطبقات الفقيرة .

ولما تم الجهاز وعرض على رسول الله (ص) جعل يقلبه بيده ثم بكى وقال : بارك الله لقوم جل آنيتهم الخزف ، وهكذا وبهذا النحو من البساطة تمت الخطبة وتم الزواج وكان الجهاز من ابسط ما عرفته المدينة وذلك في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج الذي اختاره الله سبحانه وأراده لهذين الزوجين قبل ان يريداه وكتب الله لذكراه الخلود ولهذين الاسمين الكريمين ان يكونا مثالا للانسان الكامل الذي تكاملت انسانيته وأصبح المثل الاعلى لكل بني الانسان من ذكر وانثى ، ولو حاول ابلغ الناس وأقدرهم على صياغة الألفاظ وتركيبها ان يجمع الصدق والحق والاخلاص والعدل والطهارة والعفة والفضيلة في كلمة واحدة او اكثر لما وجد لهذه المفاهيم ألفاظا تتناسب معها وتعبر عنها غير هذين الاسمين الكريمين اللذين اتحدا مع تلك المفاهيم فكان علي خير الناس بعد رسول الله وأحب

---

١ ــ جمع مرفقة وهي ما يتكأ عليه والادم هو الجلد والاذخر نبات طيب الرائحة .

٢ ــ المخضب إناء لغسل الثياب .

٣ ــ السقاء طرف من جلد لنقل الماء .

الرجال اليه وفاطمة سيدة النساء وأحب النساء اليه كما جاء في رواية السيدة عائشة وغيرها من الرواة .

وقد استجاب الله للنبي (ص) فأخرج منهما النسل الطيب وأئمة الهدى خلفاء الله في ارضه وأمناءه على وحيه الذين من تمسك بهم نجا ومن تخلف عن سيرتهم وتعاليمهم ضل وغوى كما جاء في أصح المرويات عند السنّة والشيعة .

وهكذا استقبلت سيدة النساء فاطمة الزهراء حياتها الجديدة في ذلك البيت المتواضع بيت حارثة بن النعمان الملاصق لبيت ابيها الذي أعده لها علي (ع) تلك الحياة التي وصفها المؤرخون والمحدثون بالخشونة والفقر ، ولم نرَ واحدا منهم حاول ان ينفي عنها ما كانت تقاسيه من شظف العيش والفقر ويصف جهازها بغير هذا النوع من الاثاث المتواضع . ذلك لأن اباها لم يكن يملك شيئا ولا يدخر لنفسه شيئا مما كانت تدره عليه الغنائم وكان يتنكر لمظاهر الغنى والاغنياء ويواسي المساكين في جميع مظاهر حياته ، وزوجها كان صورة صادقة لأبيها لم يكن يملك المال لا من طريق التجارة ولا من طريق الإرث ، فلقد كان والده مع علو شأنه وعظيم مكانته فقيرا لا يملك ما يسد به حاجة عياله مما دفع محمداً (ص) ان يقترح على أعمامه ان يأخذ كل واحد منهم ولدا من اولاده ليخففوا عنه ثقل ما كان يعانيه فأخذ كل واحد منهم ولدا من اولاده واختار لنفسه من بينهم عليا وهو صبي لم يتجاوز الثامنة من عمره ولم يحترف عملا يدر عليه المال طيلة صحبته للرسول لا من نوع التجارة التي كانت تتعاطاها قريش ولا من نوع الزراعة حرفة سكان يثرب ، ولم يكن يملك سوى درعه فباعها وجهز بثمنها زوجته .

بتلك البساطة من مظاهر الحياة قد استقبلا حياتهما الجديدة واستسلما لمشيئة القدر الذي كان ينتظرهما وتقدمت سيدة النساء الى

ساحة الحياة الجديدة تحمل على منكبها أعباء المشاركة مستجيبة للمشيئة الكبرى صابرة على مرارتها لتفوز بنعيم الآخرة راضيـــة مطمئنة الى زوجها تغمرهما المودة والوداعة ، ولم يكن علي (ع) يهـــون عليه ان يراها تدير شؤون البيت كادحة مجهدة فحاول ان يساعدها في بعـض اعمالها ما مكنته ظروفه ولكن استقراره في المدينة كان محدودا بسبب الغزوات والسرايا التي كان يقودها احيانا ويشترك فيها حينا آخر فأشفق عليها ان تبقى على حالتها هذه لاسيما بعـد ان اصبحت أما وتضاعفت جهودها بسبب ذلك ، وظروفه لا تمكنه من مشاركتها الكاملـة وليس باستطاعته ان يستأجر او يشتري لها من يعينها ، فقال لها ذات يوم وقد عرف ان أباها رجع من احدى غزواته بسبي وغنائم : يـــا سيـــدة النساء لقد ضاق حدّي لأجلك وهذا رسول الله (ص) قد رجع بسبي من احدى غزواته فاذهبي اليه والتمسي منه احدى المسبيات لعلهـــا تخفف عنك بعض الاعمال ، وكانت تطحن الشعير فأجابته والرحى فـي يدها والتعب باد عليها افعل ان شاء الله ، فلما اتمت عملها انتظرت ساعة لتسترد بعض قواها ثم خرجت الى بيت ابيها بخطوات بطيئة ، فلما رآها رحب بها وهش في وجهها كعادته ، ثم سألها عن حاجتها فمنعها الحياء ان تذكر له ما جاءت من اجله ، وردت عليه بقولها : جئت لأسلم عليك، وعادت من حيث اتت لتخبر عليا (ع) بما جرى لها ، ولكن حرصـــه عليها دعاه لان يقوم بنفسه ليقص على النبي (ص) ما تعانيه بضعته من الجهد والعناء في ادارة البيت فأخبر النبي بحالها وهي مطرقة مـــن استحياء فأجاب(ص) لا والله لا اعطيكما وادع اهل الصفة تتلوى بطونهم لا اجد ما انفق عليهم ، ولكن ابيع ما تحت يدي من الغنائم وأنفق عليهم فرجعا الى البيت لا يلويان على شيء كما جاء في رواية احمد بن حنبل عن حياتهما وعزوفهما عن الدنيا ونعيمها .

ومست شكواهما قلب النبي (ص) وشغلته عن كل شيء فأقبـــل

عليهما ليخفف عنهما وقال لهما برفق : الا أخبركما بخير مما سألتماني ، فقالا بلى يا رسول الله . فقال تسبحان بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين وتحمدان الله ثلاثا وثلاثين ثم ودعهما ومضى ومضت السنّة على ذلك في كل صلاة كما تؤكد ذلك بعض المرويات .

وجاء عن علي (ع) انه قال : والله ما تركت هذه الوصية بعد ان علمنيها رسول الله ، وطابت نفسهما بعد هذه الوصية وتغلبت على جميع المتاعب وترسما خطا النبي في جميع نواحي الحياة ، وحدث عنها الرواة انها كانت مع كل ذلك طيلة حياتها مع ابيها وبعلها لا ترى الا واضحة المحيا باسمة الثغر لم تغرب بسمتها الا بعد وفاة ابيها ، لا يجري لسانها بغير الحق ولا تنطق الا بالصدق عزوفة عن الشر محبة للخير وفية بالوعد صدوقة في القول حافظة للسر . لقد ورثت كل خصال الخير من ابيها وعاشت مع زوجها وهي تعلم بأنه لم يبلغ ما بلغه عند رسول الله الا لانه كان صورة ثانية عنه في جميع صفاته وخصاله .

وروى عمرو بن دينار عن السيدة عائشة انها قالت :

ما رايت احدا اصدق من فاطمة غير ابيها .

وفي رواية الاستيعاب انها قالت :

ما رايت احدا اصدق لهجة من فاطمة الا ان يكون الذي ولدها .

لقد قنعت في اليسير من العيش لانها سمعت اباها يقول للناس اجملوا في الطلب فانه ليس للعبد الا ما كتب له في هذه الدنيا ، ولن يذهب عبد منها حتى يأتيه ما كتب له فيها ، وقد قال لها : يا فاطمة اصبري على مرارة الدنيا لتفوزي بنعيم الآخرة ، ولم تكن تستشرف ببصرها الى ما ليس من حقها او تتنزل الى سؤال احد غير ربها ، بل كانت غنية بنفسها قريرة بحالها لانها سمعت اباها يقول : ليس الغنى من كثرة المال انما الغنى غنى النفس ، ويقول لاعرابي وهو يعظه : اذا صليت فصلّ صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا واجمع اليأس

عما في أيدي الناس ، فان اليأس عما في ايدي الناس هـــو الغنى الحاضر ، وسمعت الامام علي (ع) يقول لبعض اصحابه :

ليجتمع في قلبك الافتقار الى الناس والاستغناء عنهم فيكون افتقارك اليهم في لين كلامك وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهـــة عرضك وبقاء عزك .

ولم تكن تحفل بزخارف الدنيا ومظاهرها وقد سمعت أباها يقول :

من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه امره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته من الدنيا الا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة .

وقد قال لعلي وفاطمة تسمعه :

يا علي من عرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة على الدنيا فلـــه الجنة ومن اختار الدنيا استخفافا بآخرته فله النار .

وسمعت اباها يقول :

ان ربي عز وجلّ عرض عليّ ان يجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يا رب : ولكن أجوع يوما واشبع يوما فأما اليوم الذي اجوع فيـــه فأتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم الذي اشبع فيه فاحمدك وأثني عليك .

وكان من أبرز صفاتها الصبر على البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بواقع القضاء بعد ما روت عن ابيها (ص) انه قال : ان الله اذا احب عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه وان رضي اصطفاه ، وروت عنه انه قال : ان الله اوحى الى موسى بن عمران وقال له : انا اعلم بما يصلح عبـــدي المؤمن فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي اكتبه فـي الصديقين عندي .

وكانت من اقرب الناس الى ابيها في الجود والسخاء لانها سمعته يقول : السخاء شجرة من اشجار الجنة اغصانها متدلية الى الارض فمن اخذ منها غصنا قاده ذلك الغصن الى الجنة ، وسمعته يقول : السخي قريب من الله قريب من الناس وقريب من الجنة بعيد عن النار وان الله جواد يحب الجواد .

وجاء في دلائل الإمامة عن الحسين عن امه الزهراء (ع) انها قالت قال لي ابي رسول الله: اياك والبخل فانه عاهة لا تكون في كريم، اياك والبخل فانه شجرة في النار وأغصانها في الدنيا فمن تعلق بغصن من اغصانها ادخله النار ، وسمعت زوجها عليا (ع) يقول : من يبسط يده بالمعروف اذا وجده يخلف الله له ما انفق في دنياه ويضاعف له آخرته.

وبلغ من جودها وسخائها انها كانت تؤثر على نفسها وتعطي الفقراء قوتها الذي لا تملك سواه اقتداء بأبيها وبعلها وبخاصة بعد ان نزلت الآية ، ويؤثرون على انفسهم ولو كان بها خصاصة ، والاية : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .

وقد روى المحدثون من سنيين وشيعيين عشرات الروايات في فضلها وكراماتها . ومن غير المستبعد ان يكون للمحبين والقصاصين وغيرهم من الوضاعين دور في صنع البعض من تلك الفضائل والكرامات ، ولكن بعضها الآخر يكاد ان يكون من نوع المتواتر بمعناه ان لم يكن متواترا بلفظه .

على ان تاريخها الحافل بالقيم والتضحيات في سبيل ابيها ورسالته التي جسدتها في سلوكها وأقوالها يغنينا عن التعلق بالغيبيات التي لا تتسع لها آفاق الكثير من الناس ولا يقوى على تحملها الا من اوتي الحكمة وفصل الخطاب .

لقد ظلت فاطمة الزهراء طيلة حياتها مع ابيها وزوجها الامام وذابت في حبهما كما تذوب الشموع وكانت مستقرا للذرية الطاهرة التي انحدرت بمشيئة الله صانع المشيئات من نبي ووصي فأولدت لهما الحسن والحسين وقال فيهما جدهما هذان ولداي امامان قاما او قعدا وأدخلهما تحت كسائه مع ابيهما وأمهما فأنزل الله عليه ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واخبر الامة بجميع اجيالها المتتالية الى يوم البعث انهما وأباهما وأمهما والائمة الاطهار من ولد

الحسين لن يفترقا عن القرآن ما دام على وجه الارض اناس يقدسونه ويرددون آياته كما اولدت زينب وأم كلثوم .

وأول مولود استقبله رسول الله من دوحة النبوة والامامة سبطه الحسن (ع) في نصف رمضان من السنة الثالثة للهجرة فأقر به عين الزهراء ومحبيها وسعى البشير بنبأ ولادته الى النبي (ص) فخف اليها يحدوه الشوق للنظر الى مولوده الجديد الذي وجد فيه وفي اخيه الحسين الذي ولد بعده بأقل من عام سلوته عن ولديه اللذين استردهما الله اليه صغيرين قبل سن الفطام وتفتح قلبه لهذين الحفيدين ورأى فيهما امتدادا لحياته على هذه الارض ومنفسا لما يفيض به قلبه من عاطفة الأبوة بعد ان يئس من الاولاد بموت خديجة في حين انه خلال سبع سنوات على وفاتها قد تزوج بخمس من النساء كما جاء في سيرته وبينهن من هي في سن مبكر من حياتها ومع ذلك لم يرزق بولد من هاتيك الزوجات اذا استثنينا مارية القبطية التي أولدها ابراهيم فكان يداعبه ويحنو عليه ويرتاح الى حركاته ونموه السريع وملامحه تزهر في قسماته وتزداد وضوحا على مرور الايام ، ولكن مشيئة الله قضت بأن ينتظره الموت في اواخر السنة التاسعة من هجرته بعد ان عاش ستة عشر شهرا او تزيد على اشهر الروايات فدب في جسمه المرض ولم يمهله سوى ايام معدودات فبكاه النبي حتى ظهر ذلك لاصحابه وانقطعت بموته ذرية الرسول الا من ابنته فاطمة سيدة النساء .

قالت بنت الشاطىء في كتابها تراجم سيدات بيت النبوة : فليس بغريب بعد هذا اذا أقبل (ص) على سبطيه الحسن والحسين يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد على كثرة ما تزوج به من النساء ، وليس بعجيب ان دعاهما ابنيه وشمهما وضمهما اليه وكان اسماهما نغمة حلوة في فمه يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وان يجد فيهما انسه

وسلوته عمن فقد من الابناء ومضت تقول : لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى فحصر في ولدها ذرية نبيه المصطفى وحفظ بها اشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت ، كما كرّم الله عليا (ع) فجعل من صلبه نسل خاتم الانبياء فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الأبد .

ولعل محمدا لو خيّر اي بناته تكون وعاء لنسله الطاهر وأي أصهاره يكون ابا لأهل البيت الشريف لاختار ما اختاره الله . فعلي (ع) أقرب اصهاره اليه مكانا وأمسهم به رحما في عروقه يجري الدم الهاشمي الاصيل وعند عبد المطلب يلتقي نسبه بنسب الرسول العظيم.

ومضت تقول : وكان علي (ع) يعرف منزلته عند النبي ويعتز بها الى حد جعله يسأل الرسول ذات يوم وقد غمره فيض من عطفه ، أيهما أحب الى رسول الله (ص) ابنته فاطمة ام زوجها علي فأجابه رسول الله في ابتسامة لبقة فاطمة احب الى منك وأنت أعز عليّ منها

وبلا شك فقد كان لموقف النبي (ص) من فاطمة وبنيها اثر عميق في نفسها ونفس ابن عمها علي (ع) فأحست فاطمة بالغبطة والسعادة اذ استطاعت بفضل الله سبحانه ان تهيىء لابيها هذه المتعة التي وجدها في سبطيه الغاليين ، ولم يكن علي (ع) أقل منها سعادة وغبطة بهذا الاتصال الوثيق الذي مزج دمه بدم النبي وأخرج من صلبه ذرية سيد العرب والعجم ابناء بنته الزهراء وآل بيته الكرام وذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبي ، وسلام الله عليه حيث يقول : كل بني قوم ينتمون لآبائهم الا ولد فاطمة فاني انا ابوهم ، وقال فيهما اكثر من مرة وحوله حشد من المهاجرين والانصار :

انهما ابناي وابنا ابنتي اللهم اني احبهما واحب من يحبهما .

وسنعرض في الفصول الآتية من هذا الكتاب عندما تتحدث عن سيرة هذين الامامين العظيمين بعض المرويات في فضلهما ومكانتهما من الرسول المتفق عليها عند السنّة والشيعة ان شاء الله .

هل فكر علي (ع) في الزواج من غيرها

لقد عاشت الزهراء طيلة حياتها مع علي (ع) في بيت ابيها يوم ضمه اليه وهو في سن الطفولة شطرا من حياتهما والشطر الآخر بعد زواجهما في البيت الذي أعده لها ، وبلا شك حينما وافقت على الزواج منه كانت تعرفه من جميع نواحيه وتعرف فيه الرجل الذي توفرت فيه افضل الصفات وتكاملت فيه جميع المواهب ، وقد وجدت فيه الرجل الذي تكتمل فيه حياتها وتتم بينهما وحدة لا يفصمها الا الموت ، وفوق ذلك فقد ارتبطت حياتهما مع ذلك برباط أوثق وأصلب من جميع انواع الروابط التي تشد الناس بعضهم الى بعض ، رابطة الايمان بنبوة محمد ورسالة محمد التي ذابا في سبيلها ونسيا نفسيهما وجميع متع الدنيا وملذاتها كما ذابت ام الزهراء في سبيلها وسبيل زوجها العظيم من قبل.

لذلك كان من الطبيعي ان لا يحدث بينهما ما يكدر صفو حياتهما كما لم يحدث بين ابيها وأمها شيء طيلة حياتهما غير ان الباحث يجد نتفا من الروايات تنص على انه كان يحدث بينهما خلاف بين الحين والآخر اذا بلغ سمع الرسول يهتم بعلاجه وإزالته .

وجاء في بعض المرويات انه خرج يوما الى دار ابنته الزهراء وهو بادي الهم والقلق فأمضى وقتا فيه وخرج ووجهه الكريم يفيض بالبشر والارتياح ، فقال له احد اصحابه يا رسول الله : دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك • فأجاب وما يمنعني من ذلك وقد اصلحت بين أحب اثنين الي •

وروى ابن سعد في طبقاته ان الزهراء ضاقت يوما بما كانت تجد من شدة زوجها وصلابته وحزمه ، فقالت له : والله لأشكونك الى رسول الله (ص) وخرجت من بيته لتشكوه الى ابيها ، وخرج علي في اثرها واجتمعا عند النبي ، ولم يكن من النبي الا ان تلطف بهما وأعادهما الى بيتهما راضيين مطمئنين •

ويمضي بعض الرواة في سرد تتف من هذا النوع من العتاب الذي كان يجري بينهما كما يزعمون ، ومع ان هذا النوع مما يسمونه خلافا بين علي والصديقة الزهراء (ع) مروي بروايات مرسلة ، والمرسلين لها ليسوا في المستوى الذي ترتاح النفس لمروياتهم ، وعلى تقدير وقوعه فلا يتنافى مع مقام الامام علي وسيدة النساء ولا مع عصمتهما التي دلت عليها الآيات الكريمة والاحاديث النبوية ، وليس من الادلة ما يمنع من حدوث خلاف في الرأي بينهما في بعض المسائل التي لا تتعلق بالدين ولا بالحقوق الثابتة لكل منهما على الآخر •

على ان خشونة علي (ع) وصرامته وشدته التي كانت تسبب الخلاف بينهما كما تزعم بعض المرويات ، هذه الصفات ليست غريبة على الزهراء ولا يمكن ان تكون ثقيلة عليها ، لانه كما اتفق واصفوه كان شديدا على أعداء الله وصارما في احقاق الحق وخشنا في مأكله وملبسه ، اما في حياته مع الناس وصلاته بهم فقد كان هشا لينا يداعب المؤمنين احيانا ويحنو على المساكين حتى عاب عليه أخصامه بشاشته ومداعبته لبعض اصحابه وعدوا ذلك من عيوبه •

وأما حديث زواجه من غيرها فقد جاء في بعض المرويات انه كاد ان يأتي شيئا تكرهه سيدة النساء ولا تتمكن من التغاضي عن نتائجه ، ويشير اليه الرواة انه هم بأن يتزوج من جويرية بنت ابي جهل عمرو ابن هشام المخزومي عدو الله وعدو الاسلام ، وان اهلها استشاروا النبي (ص) فأنكر عليهم ولم يأذن لهم بذلك ، وأضاف الرواة لهذه الاسطورة ان الزهراء ذهبت الى ابيها باكية تقول له : ان الناس يزعمون بأنك لا تغضب لبناتك ، وان رسول الله (ص) قام من ساعته وأقبل الى المسجد مغضبا وصعد المنبر وقال على ملأ من المهاجرين والانصار : ألا وان بني هشام بن المغيرة استأذنوني في ان ينكحوا ابنتهم عليا الا واني لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن ، ان فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما يؤذيها واني أتخوف ان تفتن في دينها ، ثم دخل بيت فاطمة وخرج منه وقد اخذ بيدها وهو يقول :

من عرف هذه فقد عرفها ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني وقلبي وروحي من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله .

الى غير ذلك مما جاء حول هذه الاسطورة التي تصور النبي وكأنه انسان تستبد به العاطفة الى الخروج عن المألوف ومحاباة ابنته على حساب حكم من احكام الله ، وتصور الزهراء وكأنها أقل حظا من الدين والصبر من سائر النساء ، وان النبي يتخوف عليها ان تتعدى حدود ما أنزل الله لو تم هذا الامر .

ان الذين وضعوا هذه الاسطورة ارادوا ان يسيئوا الى النبي (ص) لا الى علي وحده ، لان النبي (ص) كما جاء في الرواية اراد ان يمنع عليا (ع) مما اباحه الله لجميع الناس وما فعله هو وجميع المسلمين او اكثرهم ، ومع ذلك فهل يجوز على النبي ان يقف هذا الموقف المتصلب ويحابي ابنته الزهراء في حكم من احكام الله ، مع العلم انه كان يقول لفاطمة : اعملي فلن اغني عنك من الله شيئا ، وقال لمن جاءه يتشفع في

امرأة من الانصار قد سرقت : والله لو ان فاطمة بنت محمـــد سرقت لقطعت يدها .

هذا بالاضافة الى ان قوله المزعوم : اخاف ان تفتن ابنتي عن دينها، هذا القول على تقديره يعني انها كغيرها من النساء اللواتي يخرجن عن المألوف ويتجاوزن احكام الله في مثل هذه الحالات ، في حين انه قال اكثر من مرة : ان الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها .

وبلا شك فانها لم تبلغ هذه المرتبة الا لان جميع اعمالها وتصرفاتها وأقوالها في حدود ما اراد الله ، واذا صح كما يزعم الراوي ان تفتن في دينها لأمر قد أباحه الله لعلي وغيره من سائر الناس ، فكيف يربط النبي رضاها برضى الله وغضبها بغضبه . هذا بالاضافة الى انها احد المعنيين بآية التطهير بلا شك في ذلك عند احد من المسلمين ، ومع ذلك فكيف تفتن عن دينها وقد اذهب الله عنها الرجس وطهرها من الذنوب وجعلها السيدة الاولى لنساء العالمين .

ان الذين رووا هذه الاسطورة ونسبوا الى النبي هذا الموقـــف المتصلب وتلك المقالة البعيدة عن منطقه قد رووا الى جانبها انه اذا كان يوم القيامة يجمع الله الاولين والآخرين على صعيد واحد ، ثم ينادي منادي الجليل جل جلاله نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم فان فاطمة بنت محمد تريد ان تمر على الصراط .

واذا كانت بهذا المستوى كما تنص الرواية ، فكيف تفتن عن دينها لأمر مباح ومألوف بين المسلمين وفي بيت ابيها سيد المسلمين اكثر من اربع من النساء .

على ان المتتبع لتاريخ علي (ع) في تلك الفترة من تاريخ الاسلام سواء ما كان منها في حياته مع الرسول وهو الى جانبه يجاهد فـــي سبيل الدعوة ، او بعد زواجه من سيدة النساء لا يتردد في ان جميع ما روي عنه من محاولة زواجه من ابنة ابي جهل ، ومن اختياره لنفسه

بعض الجواري في احدى غزواته الناجحة كما تحدث بذلك بعض المؤلفات في السيرة من موضوعات منافقي الصحابة او الامويين بقصد ايجاد ولو فجوة بسيطة في علاقته بالنبي التي كان يحسده عليها القريب والبعيد والصديق والعدو .

والغريب في المقام ان اكثر المؤرخين يذهبون الى ان خطبة علي (ع) لجويرية بنت ابي جهل كانت في السنة التي تزوج بها من فاطمة الزهراء وقبل ان يأتيها العام الثالث بأولى الثمرات المباركة لزواجهما على حد تعبير الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت ، حيث قال :

ان الحادث كان وعلي وفاطمة في مستهل زواجهما ، وأضاف الى ذلك : والى هذا يميل كثير من المؤرخين وانه كان قبل ولادة الحسن (ع) .

ووجه الغرابة في ذلك ان ابا جهل وبني المغيرة كانوا في مكة وأبو جهل كان من أقطاب المشركين وألد اعداء الاسلام ومن اكثرهم تحريضا واساءة الى النبي (ص) وأتباعه ، وهو الذي اشار على قريش قبل هجرة النبي ان تختار كل قبيلة منها فتى صلدا ويعمدوا جميعهم الى قتل محمد ليتفرق دمه بين القبائل . وقد اخذت قريش برأيه ، ولولا الوحي الذي أخبر النبي بالمؤامرة وأمره بالهجرة لتم لهم ما ارادوا ، وقد قتل ابو جهل في معركة بدر كما اتفق على ذلك جميع المؤرخين وظل بنوه على شركهم في مكة الى السنة الثامنة التي فتح فيها النبي مكة وأسلموا مع من أسلم من اهلها ، فكيف يجتمع هذا مع قول النبي في مطلع السنة الثالثة للهجرة وقبل ولادة الحسن : الا وان بني المغيرة قد استأذنوني ان يزوجوا ابنتهم عليا كما جاء في تلك المرويات . ومهما كان الحال فلو افترضنا ان عليا فكر في غير فاطمة الزهراء من النساء ، وان فاطمة الزهراء لم تكن طيبة النفس بهذا التفكير فذلك لا يوجب تجريحا ولا يبيح لاحد ان ينال من قداستها شيئا .

مصحف فاطمة

لقد أحصى المسلمون الأوائل على الرسول جميع اقواله وأفعاله ومن هؤلاء انتقلت سنّة الرسول (ص) الى الطبقة الثانية وغيرها من الطبقات ، وبلا شك فان اكثرهم وعيا لاقواله وأفعاله من الطبقة الاولى اولئك الذين كانوا على صلة به في اكثر الاوقات وفي مختلف المناسبات وعلى هذا الاساس لا بد وأن يكون للصحابة الاوائل دور في هذه الناحية ابرز من اولئك الذين دخلوا الاسلام في السنين الاخيرة من حياته كأبي هريرة وغيره ممن امتلأت مجاميع الحديث السنية بمروياتهم وأصبحوا من اوسع المصادر لها في حين ان صلاتهم بالرسول (ص) كانت محدودة للغاية، لذلك ولغيره من الاسباب التي لا يعنينا الان استقصاؤها كان موقف الباحثين من مروياتهم مشوبا بالحذر ، وفي الوقت ذاته لا يستبعد احد على الذين لازموه منذ بعثته الى ان اختاره الله اليه ان يرووا عنه آلاف الروايات وبخاصة اذا كانوا من المقربين اليه كعلي(ع) وغيره من الصحابة الابرار في حين ان مجاميع السنّة لم ترو عنهم الا القليل القليل بالقياس لما روته عن غيرهم في السنين الثلاثة الاخيرة من

حياته ، كما يجب ان لا نستبعد ما ترويه المصادر الشيعية عن مصحف فاطمة ، ذلك الكتاب الذي ورد ذكره على لسان الائمة من اهل البيت، لان الزهراء لم تفارق اباها طيلة حياتها وكانت ترعاه وتتولى خدمته وتسمع احاديثه وأخباره وخطبه بنحو لم يتوفر لغيرها من الناس اذا استثنينا ابن عمها عليا (ع) .

فليس بغريب والحال هذه ان تكون السيدة فاطمة (ع) قد جمعت قسما مما سمعته منه ومن زوجها في التشريع والاخلاق والآداب وما سيحدث في مستقبل الزمان من الاحداث والتقلبات وقد ورث الائمة من ابنائها في جملة ما ورثوه عنها هذا الكتاب واحدا بعد واحد .

وقد جاء في رواية الكليني عن احمد بن عمرو الحلبي عن ابي بصير انه قال : دخلت على ابي عبد الله الصادق (ع) فقال لي يا ابا محمد : **لقد علّم رسول الله عليا الف باب من العلم يفتح له في كل باب الف باب .**

قلت هذا والله العلم . فنكت ساعة في الارض ثم قال : انه لعلم وما هو بذاك يا ابا محمد ان عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة ، فقلت جعلت فداك : وما الجامعة قال صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله واملائه من فلق فيه وخط علي بيمينه فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج اليه حتى ارش الخدش ، وأضاف الى ذلك الراوي ان الامام قال : ان عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر انه وعاء من ادم فيه علم النبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بني اسرائيل ، ثم قال الامام (ع) : وان عندنا مصحف فاطمة (ع) وما يدريهم ما مصحف فاطمة ، قلت وما مصحف فاطمة : قال مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد .

كما جاء في الكافي عن علي بن الحكم عن الحسين بن ابي العلاء ان الامام الصادق (ع) كان يقول : ان عندنا الجفر الابيض قلت فأي

شيء فيه : قال زبور داود وتوراة موسى وانجيل عيسى ومصحف ابراهيم ومصحف فاطمة (ع) .

وحتى لا يلتبس الامر على احد ، ويظن ظان ان كلمة مصحف تعني قرآنا غير الموجود بين أيدي الناس ، او يستغل احد هذا الاسم فيفسره بغير واقعه بقصد التشويه والتضليل ، قال الامام (ع) : ما ازعم ان فيه قرآنا ، بل فيه ما يحتاج الناس الينا ولا نحتاج الى احد حتى ان فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وارش الخدش .

ومضى الامام (ع) يقول : وعندي الجفر الاحمر ، فقال له الراوي: وأي شيء فيه ، فقال (ع) فيه السلاح وذلك انما يفتح للدم فيفتحه صاحب السيف . فقال له عبد الله بن يعفور: اصلحك الله ايعرف ذلك بنو الحسن ، فقال اي والله : كما يعرفون الليل انه ليل والنهار انه نهار ، ولكن يحملهم الحسد وطلب الدنيا على الجحود والانكار ولو طلبوا الحق بالحق لكان خيرا لهم. الى غير ذلك من المرويات المتفقة في مضامينها على ان الجامعة ومصحف فاطمة والجفر هذه المسميات الثلاثة قد توارثها الائمة (ع) عن جدهم علي وجدتهم الزهراء وتكاد الروايات التي تعرضت لها تكون صريحة في أن محتويات تلك المسميات الثلاثة لا تتعدى ما جاء به النبي (ص) من احكام وتشريعات وارشادات وغير ذلك من المواضيع ، ومن غير المستبعد ان يكون فيها بالاضافة الى ذلك اشارة لبعض الاحداث والتقلبات التي حدثت خلال الشهور او السنين والقرون التي تلت وفاته كما تلقاها من الوحي ، كما تشير الى ذلك رواية الفضيل بن سكرة عن الامام الصادق وقد جاء فيها ان الامام الصادق (ع) قال : كنت انظر في كتاب فاطمة ، ليس من يملك الارض الا وهو مكتوب فيه باسمه واسم ابيه وما وجدت لولد الحسن فيه شيئا ، وألمحت الى ذلك رواية الحسين بن أبي العلاء ومع ان المرويات التي تحدثت عن هذه الكتب قد تعرضت لمضامينها ومحتوياتها ، وليست

تلك المضامين بعيدة المنال عن النبي وعن طريق الوحي ، وليس غريبا على النبي (ص) ان يخبر عليا وفاطمة (ع) بشيء مما كان وسيكون ، ومع ذلك فقد استغل جماعة من المحدثين والمؤلفين هذه الاسماء للتشنيع والتشويش على المرويات الشيعية ، فقالوا : ان لفاطمة قرآنا غير القرآن الموجود بين المسلمين ، وان لعلي كتابين الجفر والجامعة يحتويان على الحوادث الكونية والاحداث العالمية الى انقراض العالم ، والكتابان مبنيان على حروف ورموز وحسابات يعتمد عليها ائمة الشيعة فيما يخبرون به من الغيبيات . وأضاف هؤلاء الى ذلك ، ان القسم الاكبر من الشيعة يعتقدون بأن الائمة عندهم من الغيب ما لا يمكن ان يكون لأحد سواهم .

وممن نسب الى الشيعة ذلك الأيجي في المواقف والجرجاني في شرحها وابن الضياع المالكي في الفصول المهمة وغيرهم من المتأخرين الذين يدعون الى التقارب بين السنّة والشيعة وتجاهل الخلافات الجانبية والمقالات التي تثير الاحقاد وتسيء الى التقارب المنشود ، ومن بين هؤلاء الشيخ محمد ابو زهرة في كتابه الامام الصادق حيث ألصق بالشيعة وأئمتهم هذه التهمة .

ولو افترضنا ان المرويات تنسب لعائشة وأبيها او لغيره من كبار الصحابة شيئا من هذا النوع ، لو افترضنا ذلك لا بد وأن يقف الكثير منهم الى جانب تلك المرويات يتلمسون لها الوجه الصحيح والمبررات التي تقطع الشك بها كما اعتادوا عليه في كل ما يتعلق بالصحابة .

ولو تغاضينا عن كل ذلك فكما تحدثت مرويات الشيعة عن مصحف فاطمة تحدث المرويات عن مصحف لعائشة تزيد محتوياته عن القرآن الموجود بين ايدي المسلمين .

فقد جاء في المجلد الاول من الاتقان للسيوطي ان مهيدة بنت ابي يونس قالت : قرأ ابي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة ان الله

وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الاولى الى غير ذلك من المرويات التي تشير الى ان مصحفها يشتمل على بعض الفقرات التي لا وجود لها في القرآن الموجود بين أيدي المسلمين، ومع ذلك فقد تجاهلها الكتّاب وراحوا يوجهون الاتهامات المشينة الى الشيعة وينسبون لائمتهم ما يبرئهم منه تاريخهم المجيد الحافل بالقيم في جميع الميادين ، مع ان المرويات التي تحدثت عن مصحف فاطمة والجفر والجامعة تعرضت لمحتوياتها بصراحة لا تترك مجالا للدس والتشويش والتلاعب بالالفاظ، هذا مع العلم بأن تلك المرويات ليست في المستوى الذي يفرض على الشيعة التدين بها والالتزام بمضامينها .

الزهراء في فتح مكة

لقد أحست سيدة النساء بالغبطة والسعادة وقد رأت القسم الاكبر من الجزيرة يخضع لسلطان الاسلام ويدين برسالة ابيها ، وها هي قريش مع عتوها وكبريائها ترسل احد زعمائها الى يثرب عاصمة الاسلام لتفاوض النبي (ص) على تمديد امد الهدنة التي تم الاتفاق عليها في الحديبية حينما ذهب النبي معتمرا في العام السادس من الهجرة .

لقد ارسلت قريش زعيمها أبا سفيان بعد ان اخلت بالشروط التي تم الاتفاق عليها وساعدت بني بكر احلافها على خزاعة حليفة النبي (ص) وبعد ان ادركت ان المسلمين قد اصبحوا قوة ليس في الامكان تجاهلها، وكانت أخبار غدرهم بخزاعة قد ترامت الى النبي وأخذ يعد العدة لغزوهم ، فأقبل ابو سفيان يعرض على النبي (ص) طلب قريش ، ولما لم يجد من النبي تجاوبا استجار بجماعة من المسلمين فلم يجره احد ، ودخل على ابنته رملة زوجة النبي (ص) فلم ترحب بقدومه وما كاد يهم بالجلوس على فراش كان بحجرتها حتى اسرعت وطوته عنه كراهية ان يجلس عليه وهو مشرك يعادي الاسلام ويكيد له ، فازداد غمه وحزنه لهوانه حتى على ابنته ، ولم يكن يتصور تلك الصلابة التي وجدها حتى

من ابنته وكاد ان ييأس لولا ان عاودته احلامه وآماله بنجاح مهمته لو طرق بيت علي (ع) وهو وزوجته الزهراء من اقـــرب الناس الى قلب محمد وأحبهم اليه .

ودخل على علي (ع) وقال يا ابا الحسن : انك أمس القوم بي رحما واني قد جئتك في حاجة لا اجد لها غيرك فاشفع لي عند رسول الله(ص) في نجاح مهمتي حتى ارجع الى قريش . ورد عليه علـي (ع) بقوله : ويحك يا ابا سفيان والله ان رسول الله ان عزم على امر لا يستطيع احد ان يكلمه فيه . ولاحت لابي سفيان بارقة اخرى من الامل فاتجه الى الزهراء وولديها وظن انها قد تستجيب لطلبه فنظر اليها والحسنـــان يدرجان بين يديها وطلب اليها ان تجيره كما اجارت اختها زينب ابـــا العاص بن الربيع يوم كان مشركا على حد تعبير الراوي ، فأبت عليه ان تتدخل مع ابيها في مثل هذه الامور ، ولكنه ظل يلح عليها ويتوســـل اليها بولديها الحسن والحسين ولكنها بقيت على موقفها السلبي منه .

وعاد ابو سفيان يتحدث مع علي (ع) ونبرات صوته تنقطع مـــن الفشل والخيبة ، ويقول : يا ابا الحسن لقد اشتدت علـيّ الامور ولا ادري بأي لسان ارجع الى قريش وقد عقدت عليّ الآمال وأوفدتنـي الى محمد وهي ترجو ان لا ارجع خائبا ، فانصحني وأشر عليّ بمـــا أفعل ، فقال له علي (ع) والله اني لا ارى لك ما ينفع غير ان تقوم على ملأ من الناس وتجير بين الفريقين فانك من سادة كنانة ، ومع ذلك فاني لا اظن ان ذلك يجديك نفعا ، ولكني لا اجد لك غير ذلك .

فخرج ابو سفيان من بيته حتى انتهى الى جمع من المسلمين فصاح الا فاني قد اجرت بين الناس ، ثم دخل على النبي (ص) وقال لا اظنك ترد جواري يا محمد ، فلم يزد النبي في جوابه على قوله : انت تقول ذلك . واتجه ابو سفيان بعد هذه المحاولات نحو مكة خائفـا منكسرا يتعثر بالفشل والخذلان .

وليس بغريب على الزهراء (ع) اذا وقفت في تلك اللحظات التي رأت فيها ابا سفيان اكبر زعماء قريش يتململ ذليلا بين ايدي المسلمين لينتزع من احدهم وعدا بمساعدته على رسول الله ليمدد امد الهدنة بينه وبين قريش وأحلافها ، ليس بغريب عليها اذا وقفت مزهوة باتتصار الحق على الباطل والايمان بالله على الشرك والضلال ، وعادت الى مواقف قريش مع ابيها في مكة يوم كانت تطارده هو وأصحابه بكل انواع الأذى والاساءة حتى اضطرته اخيرا ان يخرج في جوف الليل لينجو بنفسه متجها نحو يثرب ووجد فيها انصارا عاهدوه على ان يمنعوه من قريش وأحلافها ومن جميع من يريدون به وبرسالته سوءاً .

لقد تزاحمت كل تلك الصور والافكار في نفس الزهراء وهي ترى شيخ قريش وزعيمها يستجدي من يستمع اليه ليحدثه عن مهمته ، وبالامس القريب وقبل سنوات قليلات كان الآمر الناهي يتحكم في مصير ابيها وأصحابه وأتباعه كما يشاء .

لقد ايقنت الزهراء بعد موقف ابيها من ابي سفيان انه سيغزو مكة بمن معه من الانصار والأتباع وأيقنت بأن النصر سيحالفه بعد انهيار معنويات اهلها وتمنت ان تخرج معه مع من يخرج من نساء المسلمين ونسائه ، وما هي الا ايام قلائل واذا برسول الله (ص) يخرج من المدينة في عشرة آلاف من المسلمين ولواؤه مع ابن عمه ووصيه علي بن ابي طالب ميمما شطر البلد الحرام الذي تسلل منه قبل ثمانية أعوام في جوف الليل وخرجت معه الزهراء فيمن خرج معه من النساء وأطياف الذكريات لا تفارقها . ولما اشرفت على مكة تذكرت امها خديجة وعمها ابا طالب وأختيها زينب ورقية وقد هاجرا مثلها من مكة ولكن الى غير رجعة ، وها هي ترجع مع ابيها وحدها وقد تمنت لو ان امها وأختيها تشاركانها الفرحة وهاجت بنفسها الذكريات والاشجان ، ولكن سرعان ما تبددت وهي تصغي الى هتاف عشرة آلاف مسلم يرددون الله أكبر

الله أكبر لا إله الا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده لا إله الا الله والله أكبر . ورأت الناس وأهالي مكة يفرون من وجه تلك الجموع وقد استولى عليهم الخوف والجزع ، ورأت اباها بين اصحابه محني الرأس تواضعا لله وشكرا له على ما انعم عليه حتى لتكاد جبهته الشريفة تمس رجل ناقته وهو يوصي قادة جيشه ان لا يقاتلوا احدا ولا يتعرضوا لاحد بسوء ويعلن العفو العام حتى عن جبابرة قريش وطواغيتها الاشداء ويستثني أفرادا قلائل من النساء والرجال سماهم بأسمائهم وأمر بقتلهم ولو كانوا تحت استار الكعبة ، منهم الحويرث بن منقذ الذي روعها وهي مهاجرة مع الفواطم ونخس راحلتها فألقت بها على الارض .

وفي رواية ثانية هبار بن الاسود الذي روع اختها زينب وألقت حملها ، وعبد الله بن ربيعة والحرث بن هشام من بني مخزوم ، وكانا قد استجارا بأم هاني بنت ابي طالب ودخلا بيتها . وبينما هما في البيت واذا بعلي (ع) يدخل عليها مدججا بالحديد فعرفها ولم تعرفه ، فقالت له : انا بنت عم النبي وأخت علي فأسفر عن وجهه عند ذلك فاعتنقته ، ولما نظر اليهما شهر سلاحه عليهما فتعلقت به وقالت : انت اخي وتصنع معي تلك وحالت بينه وبينهما وقالت له : اذا اردت قتلهما فاقتلني قبلهما فتركهما وخرج . وخرجت في اثره تريد رسول الله (ص) فقصدت خباءه بالبطحاء فلم تجده فيه ووجدت الزهراء فرحبت بها ، ولكنها كانت اشد من ابن عمها علي (ع) حينما قصت اليها ام هاني قصة الرجلين اللذين استجارا بها وما كان من اخيها علي معهما ، فوقفت ام هاني كالمدهوشة من صلابتها وأحست بخيبة امل لم تكن تنتظرها .

ولكن رسول الله (ص) حينما رجع الى الخباء ووجد فيه ام هاني رحب بها وأكرمها وأجلسها الى جانبه يحدثها ويستمع الى حديثها فأحست بالفرج وتبددت مخاوفها على اسيريها ، وأخبرت رسول الله

بما جرى لها مع اخيها وزوجته الزهراء ومضت تقول : ماذا لقيت من ابن امي علي لقد اجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ولا تزال حياتهما مهددة بالخطر بين الحين والآخر ما لم تشفعني فيهما يا رسول الله . فالتفت اليها بقلبه الكبير الذي ينبض بالعفو والرحمة وقد اتسع لطغاة قريش وحتى لابي سفيان وزوجته هند التي فعلت معه ومع عمه الحمزة ما لم يفعله احد من الناس ، وقال لها مطمئنا ما كان ذلك له : قد اجرنا من اجرت وأمنا من امنت ثم ذهبت ام هاني الى بيتها لتزف لمن فيه البشرى بالعفو والسلامة .

وظلت الزهراء الى جانب ابيها مزهوة بنصر الله وقد رأت الاصنام واللات والعزى ومناة تحت أقدام ابيها ، ورأت قريشا تلوذ به وتقول : انت اخ كريم وابن اخ كريم ما رأينا منك الا الصدق والحق والعفو منذ عرفناك وأباها يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وتمنت سيدة النساء امها خديجة ان تشهد هذا الموقف لترى اولئك الطغاة وقد تركتهم قبل سنوات قليلات يلاحقون زوجها العظيم من مكان لآخر بكل انواع الاذى والاستخفاف لتراهم اليوم يلوذون به ويتململون بين يديه مخافة ان يقتصّ منهم لنفسه ولمن عذبوه من انصاره ، ولتسمع صوت بلال في ذلك اليوم الميمون الأغر تتجاوب أصداؤه في شعاب مكة وهو يهتف من على سطح الكعبة وحوله عشرة آلاف من المسلمين الله أكبر لا إله الا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده .

ليت خديجة الكبرى التي بذلت كل مالها وراحتها لتحطم الاصنام واللات والعزى بقيت الى هذا اليوم لترى اللات والعزى وجميع الاصنام التي كانت في داخل الكعبة وعلى سطحها تحت أقدام المسلمين وترى قريشا التي ذاقت منها الأمرّين وقد خيم عليها الذل والهوان والناس يدخلون في دين الله أفواجا ولكن مشيئة الله قد قضت عليها ان تذهب

عن هذه الدنيا وفي قلبها حسرة ولوعة وهي على ثقة بأن النصر في النهاية سيكون حليف محمد ودعوته وان جند الله هم الغالبون .

لقد كانت الايام التي قضتها الزهراء مع ابيها في مكة حافلة بالذكريات المحزنة تذكرت فيها فاطمة الزهراء ايام ابيها والمشركين يطاردونه وأصحابه وحصارهم في الشعب وما مر عليهم خلال مدة الحصار من ضيق وحرج وحرمان ، وتذكرت امها خديجة وأيامها وعمها الكفيل المحامي أبا طالب وجميع الاحداث التي ذاقت مرارتها وبخاصة بعد وفاة امها ، وفي هذا الجو المشحون بالذكريات كانت تنعم بالغبطة وهي ترى فلول الشرك تنهار تحت أقدام ابيها والانتصار تلو الانتصار ومعاقل الشرك لا ترى بديلا لها عن قبول الدعوة والدخول في الاسلام .

وقد رأت في تلك الرحلة المظفرة هوازن وثقيفاً وأحلافهما من العرب الذين ظلوا حتى ذلك التاريخ على موقفهم المتصلب من الاسلام رأتهم ينهارون وتندك حصونهم ومعاقلهم وتقع اموالهم وصبيانهم ونساؤهم في معركة حنين غنيمة للمسلمين خلال ساعات معدودات وعددهم يزيد على عدد المسلمين ثلاثة أضعاف كل ذلك قد رأته الزهراء في رحلة لم تتجاوز الشهرين ، وعادت بعدها مع ابيها وزوجها الى مدينة الانصار تاركة مكة مرتع الصبا وموطن الاهل والاحباب وامتدت حياتها عامين بعد هذه الرحلة كانا من أسعد ايام حياتها حيث الاسلام قد انتشر في جميع انحاء الجزيرة وأصبح الاول بين جميع الاديان والمعتقدات فيها والوفود من جميع انحاء الحجاز تتزاحم على المدينة لتدخل في الاسلام وتضع جميع طاقاتها وامكانياتها في تصرف صاحب الدعوة وقائد مسيرتها محمد بن عبد الله (ص) .

وانقضت السنتان من غير ان يتخللهما ما يسيء الى سعادتها او يكدر صفوها .

الزهراء مع أبيها في مرضه

وبدخول الحادية عشرة من هجرة ابيها الى المدينة ، وفي الايـــام الاخيرة من شهر صفر في تلك السنة بالذات اشتكى النبي (ص) مـــن مرض ألم به وكان قد عزم على غزو الروم وأعد لقيادة جيشه اسامة بن زيد وهو في مطلع شبابه وأمر جميع المهاجرين والانصار ان ينضموا اليه ، وجعل يستحثهم على الخروج والمرض يشتد عليه يوما بعد يوم ، وظن اكثر المسلمين في بداية الامر انها وعكة طارئة لا تلبث ان تزول بين حين وآخر ، غير ان الزهراء لم تكد تسمع بشكوى ابيها حتـــى ارتج قلبها وانهارت وكأنها والموت على ميعاد، لاسيما وقد سمعته قبل ذلك يقول في بعض المناسبات لاصحابه وهو يعظهم : يوشك ان ادعـــي فأجيب ، وسمعته في حجة الوداع على جبل عرفـــات وقد وقف بين المسلمين يقول : لعلي لا القاكم بعد عامي هذا ، وتكررت منه هـــذه المقالة في السنة العاشرة من هجرته .

ورأته اكثر من مرة يخرج الى زيارة القبور ويخاطبهم بكلمـــات تشعر بدنو أجله كل ذلك كانت تراه وتسمعه من ابيها فيرتجف لذلـك قلبها ويستولي عليها الحزن . ولكنها كانت تتجلد وتصبر ولا تبدي ما

في نفسها لاحد ، ولما سمعت بشكواه ورأته يجمع اصحابه ويوصيهم بأهل بيته ويطلب دواة وقرطاسا ليعهد اليهم فيه حتى لا يضلوا من بعده ويرتدّوا على أعقابهم ايقنت بنهايته وخانها تجلدها لاسيما وقد رأته يتململ من الوجع ويصيح واكرباه . ثم يأخذ الماء بيده ويصبه على رأسه لتخف حدة الالم ويكرر واكرباه فتنكب عليه وتقول واكربي لكربك يا ابتاه ، فينظر اليها نظرة مودع راحل عن دنيا الناس وآلامها ويقول لا كرب على ابيك بعد اليوم .

وجاء في البداية والنهاية عن الصحيحين : لقد اجتمع نساء رسول الله (ص) عنده في مرضه لم تغادر منهن واحدة فجاءت فاطمة (ع) تمشي لا تخطىء مشيتها مشية رسول الله فهش اليها وقال مرحبا بابنتي ، وأقعدها الى يمينه وقد رآها متجلدة تتكلف الصبر ولا تكف عن الدعاء والابتهال ، فأشفق لما بها وأدناها اليه وتحدث معها بكلام لم يسمعه احد غير انها بكت وتغيرت ، ثم ادناها اليه وتحدث معها فعادت الى طبيعتها وابتسمت وكأن ليس في الامر شيء .

وجاء في رواية عائشة انها قالت لها : لقد خصك النبي بالسر دوننا فبكيت وابتسمت اخبريني بما قال لك . فقالت لها الزهراء (ع) : ما كنت لافشي سر رسول الله (ص) ومضت تقول : فلما توفي رسول الله قلت لها : اسألك بما لي عليك من الحق الا أخبرتني بما اسر اليك رسول الله ، فقالت لها : لقد اخبرني اولا باقتراب اجله وأوصاني بالصبر وتقوى الله فبكيت ، وفي المرة الثانية قال لي وقد رأى ما بي من الهم والجزع: اما ترضين ان تكوني سيدة نساء العالمين وأن تكوني اول اهل بيتي لحوقا بي فاستبشرت بلقاء الله واللحوق بأبي في داره التي أعدها الله له .

وكان الالم يشتد برسول الله والخطر على حياته يتزايد ساعة بعد ساعة ، ولم يكن ذلك ليشغله عن التأكيد على المسلمين ان يخرجوا

بقيادة اسامة بن زيد ويستحث اسامة بالاسراع ، ثم يغمى عليه فاذا افاق من غشوته قال واكرباه ، وفاطمة تتلوى الى جانبه وتقول : واكربي لكربك يا ابتاه . وفيما هو في هذه الحالة سمعته يقول : بل الرفيق الاعلى ، فأيقن من في البيت انه قد خير بين الحياة ولقاء الله فاختار لقاء ربه .

وكان علي (ع) قد احتضنه حين رآه يصارع الموت ففاضت نفسه الشريفة وهو على صدر علي كما جاء في رواية ابن سعد في طبقاته .

وروى الحاكم في مستدركه بسند ينتهي الى ام سلمة زوجة النبي (ص) انها قالت : والذي احلف به ان عليا كان اقرب الناس عهدا برسول الله ومضت تقول : سمعنا رسول الله قبيل وفاته يقول : جاء علي ويكرر ذلك ، فقالت له فاطمة : كأنك بعثته في حاجة ، فلما جاء علي ظننا ان له اليه حاجة فخرجنا من البيت وجلسنا عند الباب وكنت من أدناهم الى الباب فأكب عليه رسول الله يساره ويناجيه وقبض من يومه ذلك وعلي اقرب الناس به عهدا وذلك في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر كما تنص على ذلك اكثر المرويات ، وقيل لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الاول كما رجح ذلك الكليني وقيل غير ذلك .

وعلا الصراخ والعويل من بيت رسول الله ، فأيقن اهل المدينة بوفاته وأسرعوا يبكون وينشجون وتعالى الصراخ في جميع انحاء المدينة وقد أذهل اهله وقع المصاب وصرفهم عن التفكير فيما كان يفكر به الطامعون ويخططون له . وفيما كان المسلمون يتوافدون الى بيت الرسول يغمرهم الحزن والاسف واذا بعمر بن الخطاب يقوم في وسط تلك الحشود ويصرخ بأعلى صوته الا ان محمدا ما مات وقد غاب وسيرجع كما رجع موسى الى قومه فيقطع ايدي قوم وأرجلهم . وراح ابن الخطاب يهدد بالقتل كل من يدعي بأن محمدا قد مات ، وسرت مقالته هذه بين تلك الجموع المحتشدة سريان النار في الهشيم ، واشتغل

الكثير من العامة بها عن البكاء لوفاته واقترب الشك بوفاته من النفوس وأخذ الناس يتحدثون بها وهم بين اليأس والرجاء ، لاسيما والمتكلم ليس غبيا لا من عامة الناس وله مكانته بين صحابة الرسول .

ونجح ابن الخطاب فيما كان يخطط له وظلت مقالته حديث الجماهير الى ان اقبل ابو بكر الى بيت النبي حيث الجثمان وكان خارج المدينة حيث تسكن احدى زوجاته كما يدعي اكثر المؤرخين وان كنت اشك في ذلك وأرجح انه كان مع جماعة يضعون الخطط لقطع الطريق على اصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، وقد ارسلوا عمر بن الخطاب ليشغل الناس عن القيام بأي عمل لغير صالحهم .

ودخل ابو بكر على النبي وما ان القى عليه نظرة حتى رجع الى الناس يقول : من يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . وتلا على الناس قول الله تعالى : انك ميت وانهم ميتون ، وهدأ ابن الخطاب من ساعته بعد ما كان كالبركان الثائر، وانصرف هو وأبو بكر وجماعة من المهاجرين الى مكان ما ، وبعده الى سقيفة بني ساعدة حيث الانصار قد اجتمعوا يتداولون في امر الخلافة بعد ان أحسوا ان المهاجرين قد تكتلوا ضد اصحابها الشرعيين ويوشك ان يكتب لهم النجاح ، وكان بين الطرفين حوار واسع كانت نتيجته لصالح ابي بكر كما تحدثنا عن ذلك مفصلا في كتابنا سيرة المصطفى(ع).

وانصرف علي وجماعة من خيار الصحابة عن كل شيء الا عن النبي وتجهيزه لمثواه الاخير . هذا وفاطمة يغشى عليها ساعة بعد ساعة لهول المصاب ، ولما تم دفنه تحاملت تسعى نحو القبر وألقت بنفسها عليه مغشيا عليها ، ولما افاقت اخذت حفنة من ترابه وأدنتها من عينيها اللتين قرحهما البكاء كما جاء في رواية البخاري وراحت تشمها وتقول :

ماذا على من شم تربة أحمد ... الا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو انها ... صبت على الايام عدن لياليا

وبكى المسلمون لبكائها وتقطعت قلوبهم وهم ينظرون اليها تقلب التراب بيديها وتشمه ثم تحدق فيه وكأنها يئست من الدنيا وتقول :

إنا فقدناك فقد الارض وابلهـا وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان المـوت صادفنا لمـا نعيت وحالت دونك الكثب

ثم التفتت الى انس بن مالك وقالت : يا انس كيف طابت نفوسكم ان تجثوا التراب على رسول الله . وبقيت بعد ابيها خمسا وسبعين يوما، وقيل ستة اشهر كانت تبكيه خلالها ليلا ونهارا حتى ضج المسلمون من بكائها وجاءوا يسألونها الصبر الجميل .

وفي رواية الامام الصادق انها كانت تأتي قبور الشهداء في الجمعة مرتين وتقول ها هنا كان رسول الله وها هنا كان المشركون ولم ترى ضاحكة طيلة حياتها بعده .

وجاء في رواية الصدوق انه لما قبض النبي (ص) امتنع بلال من الأذان وقال لا أؤذن بعد رسول الله ، فقالت فاطمة ذات يوم : انـي اشتهي ان اسمع صوت مؤذن ابي بلال فبلغ ذلك بلالا فأخذ في الأذان فلما قال الله أكبر ذكرت اباها وأيامه ولم تتمالك من البكاء ، فلما قال أشهد ان محمدا رسول الله شهقت وسقطت لوجهها وغشي عليها ، فقال الناس : امسك عن الأذان يا بلال فان ابنة الرسول قد فارقت الدنيا ، فلما افاقت من غشوتها سألته ان يتم الاذان فلم يفعل وقال لها : يـا سيدة النساء اني اخشى عليك مما تنزلينه بنفسك اذا سمعت صوتـي فأعفته من ذلك .

وجاء عن علي (ع) انه قال : لقد غسلت النبي فـي قميصه فكانت فاطمة تقول لي : أرني القميص يا ابا الحسن فاذا أريتها اياه اخذتـه وشمته وبكت حتى يغشى عليها ، فلما رأيت منها ذلك غيبته عنها .

وقال ابن شهراشوب في مناقبه : انها ما زالت بعد ابيها معصبة الرأس ناحلة الجسم منهدة الركن باكية العين محترقة القلب يغشى عليها

ساعة بعد ساعة ، وتقول لولديها : اين ابوكما الذي كان يكرمكما ويحملكما ، اين ابوكما الذي كان من اشد الناس حبا لكما وشفقة عليكما ولا تزال تعدد معاملته لهما ومواقفه منهما حتى يغشى عليها .

وجاء في بعض المرويات ان عليا (ع) بنى لها بيتا في البقيع كانت تأوي اليه في ساعات من الليل والنهار تبكي اباها فيه سمي بيت الاحزان .

ويروي توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت ان بيت الاحزان هو الموضع المعروف بمسجد فاطمة في جهة قبة مشهد الحسن والعباس ، ومضى يقول : وإليه اشار ابن جبير بقوله ويلي القبة العباسية بيت فاطمة الزهراء بنت الرسول ويعرف ببيت الاحزان ، ويقال انه هو البيت الذي أوت اليه والتزمت الحزن فيه منذ وفاة ابيها الى ان لحقت به .

وروى الصدوق في اماليه ان الامام الصادق (ع) قال : البكاؤون خمسة آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد (ص) وعلي بن الحسين زين العابدين ، فأما آدم فانه بكى خوفا من ربه لما خرج من الجنة ، وأما يعقوب فانه بكى على ولده يوسف حتى ذهب بصره ، وقيل له : تا الله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا او تكون من الهالكين ، وأما يوسف فانه بكى على يعقوب حتى تأذى منه من كان معه في السجن ، وأما فاطمة بنت محمد فقد بكت على ابيها حتى تأذى منها اهل المدينة ، وقالوا لها : لقد آذيتنا بكثرة بكائك فكانت تخرج الى المقابر فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تعود الى بيتها .

وأما علي بن الحسين فقد بكى على ابيه عشرين عاما وقيل اربعين عاما وما قدم له طعام وشراب الا اشتد بكاؤه فيقال له : ألا تأكل فيقول كيف آكل وأبو عبد الله مات جائعا ، وكيف اشرب وأبو عبد الله مات عطشان . الى غير ذلك من الاحاديث التي تحدثت عن حزنها وألمها لفقد ابيها وتضاعف حزنها بعد ان وجدت من القوم جفوة وتجاهلا لحقوقها

ولوصايا ابيها فيها وفي بعلها وبنيها وكأنهم كانوا ينتظرون الساعة حتى يفارقهم فيها ليقفوا منها ومن بعلها هذا الموقف الذي أقل ما يقال فيه : انه ليس عفويا ولا بريئا بل هو نتيجة لتخطيط سابق متفق عليه للاستيلاء على السلطة مهما كلفهم ذلك من تجاوزات وهفوات ونكران للجميل الذي قدمه محمد بن عبد الله لهذه الامة ، ولم يطلب عليه اجرا الا المودة في القربى .

موقفها من الخلافة والميراث

لقد كانت الزهراء (ع) كغيرها من عامة المسلمين ترى ان عليا (ع) أحق الناس بالخلافة بعد ابيها لانها سمعت اباها كما سمعه غيرها ينص عليه بصراحة لا تقبل التأويل . ولم تكن هي ولا بقية بني هاشم والغالبية العظمى من المسلمين ينتظرون ما حدث من المفاجأة ، والنبي لا يزال جثة هامدة لم يوارَ الثرى ، وأهله مشغولون عن كل شيء بتجهيزه الى مقره الاخير ، وكان مما لا بد منه وقد رأت هذا التحول الخطير ان تقف ذلك الموقف المتصلب من حق علي بالخلافة لانها ترى خلافته امتدادا لرسالة ابيها التي كان هو وأبوه من احرص الناس عليها وأكثرهم بذلا وتضحية في سبيلها . ولا اظن ان انتزاع فدك وسهم ذوي القربى من يدها كان داخلا في حساب القوم لولا موقفها الحازم من الخلافة ، ولكنهم بعد تعاطف عدد كبير من المسلمين واقتناعهم بحجتها ادركوا ان بقاء فدك في يدها يمدها بالقوة ويوفر لعلي قسطا من المال يعينه على المضي في موقفه المتصلب ، بعد ان ادركوا ذلك انتزعوها من يدها وأضافوها الى ميزانية الدولة ، وكما يبدو انها لم تكن ارضا قليلة الانتاج ، او مزرعة متواضعة ، بل كانت تشكل ثروة واسعة كما تؤيد ذلك بعض المصادر.

وحينما طالبت الصديقة الزهراء بفدك لم تطالب بتلك البقعة من ارض الحجاز ، بل كانت تلك البقعة من الارض ترمز الى السلطة التي كانت لأبيها في جميع الشؤون السياسية والمادية وغيرهما ، ولم يكن النزاع على امر مادي كما يحاول البعض ان يحصره في هذا النطاق ، او حول فدك بمعناها المحدود وواقعها الضيق .

ويمكن ان نستخلص ذلك من حديث للامام موسى بن جعفر مع المهدي العباسي وقد حدد له فيه نقطة الخلاف بين السيدة فاطمة الزهراء وأبي بكر في مطلع خلافته .

فقد جاء في رواية علي بن اسباط ان ابا الحسن موسى بن جعفر لما دخل على المهدي العباسي ورآه يرد المظالم لاهلها ، قال له : فما بال مظلمتنا لا ترد يا امير المؤمنين ، فقال له وما ذاك يا ابا الحسن . فقال ان الله تعالى لما فتح على نبيه فدكا وما والاها مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب : انزل الله على نبيه وآت ذا القربي حقه ، فلم يدرِ رسول الله (ص) من هم فراجع في ذلك جبرائيل ، وراجع جبرائيل ربه ، فأوصى الله اليه ادفع فدكا الى فاطمة ، فدعاها رسول الله وقال لها : يا فاطمة ان الله امرني ادفع اليك فدكا ، فقالت قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك ، فلم يزل وكلاؤها فيها طيلة ما بقي من حياة رسول الله فلما ولي ابو بكر الخلافة اخرجهم منها ، فأتته وسألته ان يرد ما عليها ، فقال لها ايتيني بأسود او أحمر يشهد لك بذلك فجاءته بأمير المؤمنين وأم أيمن فشهدا لها فكتب لها كتابا فخرجت والكتاب معها فلقيها عمر ابن الخطاب فقال : ما هذا الذي معك يا بنت رسول الله ، فقالت كتاب كتبه لي ابو بكر في فدك ، فانتزعه منها ونظر فيه ثم تفل فيه ومحاه وخرقه ، فقال له المهدي : يا ابا الحسن حدها لي فقال حدمنها جبل احد وحدمنها عريش مصر ، وحدمنها سيف البحر ، وحدمنها دومة الجندل ، فقال له المهدي العباسي : كل هذا يا ابا الحسن ، فقال نعم يا امير

المؤمنين : هذا كله مما لم يوجف عليه رسول الله بخيل ولا ركاب ، فقال كثير انظر فيه (١) .

لم ينته الامام موسى بن جعفر (ع) من تحديد فدك بهذه الحدود الواسعة التي تتسع لاكثر البلاد الاسلامية حتى ادرك المهدي العباسي على ما يبدو ان الصراع الذي كان بين الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء وأبي بكر وأنصاره في مطلع خلافته لم يكن على تلك البقعة الضيقة من ارض الحجاز ، بل كان يتخطاها الى عريش مصر وسيوف البحار ودومة الجندل وما الى ذلك من المناطق التي تزيد مساحتها على مساحة الحجاز بكامله اكثر من مرة .

ان فدكا ذات الحدود المترامية التي حدد بها الامام ظلامة اهل بيته ليردها عليهم المهدي العباسي تعني التخلي عن السلطة لاصحابها الشرعيين ، لذلك لم يكن جوابه الى الامام (ع) يتعدى تلك الكلمتين: ان ذلك كثير وسأنظر في الامر يا ابا الحسن ، والامام نفسه يعلم بأن ذلك لن يكون وان الذي دفع الأولين على التغيير والتبديل والانقلاب على أعقابهم واغتصاب فدك والخلافة من اصحابهما الشرعيين هو بعينه يدفع الآخرين .

ان فاطمة الزهراء لم تكن تطالب ببقعة من ارض او بإرث مادي ، بل كانت تطالب بالحق الذي جعله الله لعلي في خلافة رسول الله (ص) ولا بد لنا بالاضافة الى ما سبق من القاء نظرة على خطابها الذي القته في المسجد بحضور ابي بكر وحشد كبير من المسلمين للتأكد من هذه الحقيقة ، وقد كان محور حديثها عن علي ومواقفه الخالدة في الاسلام، والتنديد بالمسلمين في اختيارهم المرتجل وانقلابهم على أعقابهم في

---

١ ــ انظر الكافي للكليني جـ١ .

اسنادهم الامر الى غير اهله ، ومخالفتهم الصريحة لكتاب الله ، وهكذا كانت في جميع مواقفها تركز على هذه الناحية وتوليها كل اهتمامها وعنايتها وكأنه لا يعنيها امر فدك وغير فدك من شؤونها الخاصة .

ولقد قالت في خطاب لها بحضور حشد من نساء المهاجرين والانصار قد توافدوا عليها خلال الوعكة التي المت بها : لقد زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ومهبط الروح الامين والطبين بأمر الدنيا والدين الا ذلك هو الخسران المبين ، ومضت تقول : وما الذي نقموا من ابي الحسن نقموا منه والله نكير سيفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله واستطردت في حديثها تقول : الا هلم فاسمع وما عشت اراك الدهر عجبا وان تعجب فقد اعجبك الحادث ، ليت شعري الى اي لجأ استندوا وبأي عروة تمسكوا لبئس المولى وبئس العشير ولبئس للظالمين بدلا ، استبدلوا والله الذنابى بالقوادم والعجز بالكامل فرغما لمعاطس قوم يحسبون انهم يحسنون صنعا الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، ويحهم افمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع امن لا يهدي الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون .

الى غير ذلك من مواقفها التي كانت تركز فيها على الخلافة والتنديد بمؤتمر السقيفة الذي تمخض عن استيلاء ابي بكر على السلطة ، بعد جدال بين فئة من المهاجرين كان قوامها ثلاثة من أعيانهم ابو بكر وعمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وبين فريق كبير من الانصار كانوا يرون زعيمهم سعد بن عبادة أحق بها من ابي بكر وأمثاله ممن لم تسجل لهم الاحداث التي مرت بها الرسالة منذ مطلعها الى اليوم الاخير من حياة الرسول شيئا بجانب مواقف الانصار .

ومن غير البعيد ان الانصار لم يقفوا هذا الموقف الا بعد ان ادركوا المؤامرة التي دبرت لانتزاعها من علي بن ابي طالب (ع) ، كما تشير الى ذلك رواية الزبير بن بكار عن زيد بن ارقم احد وجوه الانصار ، وقد

جاء فيها ان القوم لو اختاروا عليا للخلافة لم ينازعه فيها احد من الانصار .

ويدعي بعض الرواة ان عليا (ع) كان يحملها على دابة ويخرج بها ليلا يطوف بيوت الانصار فتذكرهم بمواقف علي (ع) وتضحياته في سبيل الاسلام وأبيها وبالنصوص التي نص بها على استخلافه من بعده وتستجديهم النصرة على تحصيل حقه وارجاع الامر اليه ، ويضيف هؤلاء الرواة ان اكثرهم كانوا يقولون لها : لقد مضت بيعتنا لابي بكر، ولو ان زوجك سبق الينا لما عدلنا به احدا وان عليا (ع) كان يرد عليهم بقوله : أفكنت ادع رسول الله في بيته مسجى بين اهله ونسائه بدون تغسيل ودفن وأخرج لانازع القوم سلطانه .

وقد اخذ بهذه الرواية بعض الشيعة بالرغم من ضعف سندها ومن غير تدبر وادراك لما يهدف اليه واضعو هذا النوع من المرويات الذين ارادوا ان يقولوا : ان عليا وفاطمة لما عجزا عن اقناع القوم بالحجة والمنطق راحا يعملان سرا ويستجديان الانصار لاعلان العصيان الذي قد يؤدي الى الثورة على النظام الجديد ، وفي الوقت ذاته فلم تجد من الانصار قبولا لفكرة النص التي عرضتها لهم . هذا بالاضافة الى ما في هذا الموقف من الهوان الذي تأباه نفس علي وفاطمة (ع) .

والذي لا شك فيه ان الزهراء (ع) قد اجتمعت بفريق من اعيان المهاجرين والانصار وذكرتهم بمواقف علي (ع) في سبيل الاسلام منذ بزغ فجره وتضحياته في سبيله ، وأعادت الى اذهانهم اقوال الرسول فيه ونصوصه على استخلافه واعداده لتحمل المسؤولية من بعده ، وأنبتهم على موقفهم المتخاذل منه وانحرافهم مع الطامعين والمنقلبين على أعقابهم الذين كانوا يخططون للاستيلاء على السلطة والنبي (ص) لا يزال حيا ، وقد تأثر بموقفها جماعة من علماء المسلمين وأدهشهم ان تجري الامور في غير مجراها الطبيعي وساءهم غضبها وقد

سمعوا اباها اكثر من مرة يقول لها : ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك ، وسمعوه يقول : فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله . لقد ادهشهم غضبها وموقفها الذي يعرّضهم لغضب الله ان هم تخاذلوا عن نصرتها ، ولكن الذي أحسوا بذلك ومسهم الخوف كانوا بالقياس الى الجمهور الاعظم وذوي الاطماع والاحقاد قلة لا تغني شيئا .

اما ان عليا (ع) قد اركبها دابة وقادها الى بيوت الانصار ليلا يطرقها عليهم ويستجديهم النصر كما تنص على ذلك الرواية المذكورة فلا ارى ما يوجب ذلك ما دام موقفها واضحا لدى الجميع وقد اعلنته في المسجد وغيره بلهجة كانت أشد من الصواعق ، ولم يكن ما يدعوها الى التكتم حتى تقوم سرا وفي جوف الليل تستحث الانصار على نصرتها كما تزعم الرواية المذكورة . هذا بالاضافة الى ان عليا (ع) لم يفكر في الثورة المسلحة على الوضع الجديد لاسيما وقد اتسعت حركة الردة وأصبحت تهدد الاسلام في خارج المدينة ، ومصلحة الاسلام كانت في حسابه وحساب الصديقة لا يعادلها شيء .

ولم تكن ثورة الزهراء وعلي (ع) الا لتسجيل عدوانهم وانحرافهم عن الخط الذي وضعه الرسول فيما يعود لخليفته الشرعي منذ بداية الدعوة حتى النفس الاخير من حياته ، وما كانت قصة فدك والعوالي وسهم ذوي القربى الا كرد من جانب ابي بكر وأنصاره على ثورة الزهراء ومواقفها من خلافة ابي بكر خلال تلك الفترة القصيرة من حياتها بعد ابيها .

حديث فدك

ونعود بعد هذه الدراسة الموجزة لموقفها من خلافة ابي بكر الى الحديث عن فدك التي استأثرت بقسط كبير من الاخذ والرد عند السنة والشيعة وكان ولا يزال الحديث عنها مسرحا للجدل العنيف بين الفريقين ، واقترن تاريخها بتاريخ الصراع على السلطة بعد وفاة الرسول (ص) الذي تمخض عن اقصاء علي عنها .

وهي قرية من قرى الحجاز بينها وبين المدينة مسيرة يومين او ثلاثة ايام على ابعد التقادير ، وتقع الى جوار خيبر التي كانت من اكبر القرى اليهودية وأمنعها حصونا ، وبعد ان تغلب المسلمون على خيبر بعد تلك المعارك الضارية بينهم وبين يهودها واستولى عليها المسلمون تركهم النبي (ص) يعملون في الارض بنصف ناتجها والنصف الآخر للفاتحين، ولما انتهى النبي منها ضاق الامر بسكان فدك وأيقنوا ان النبي سوف يتجه اليهم فاستولى عليهم الخوف وأرسلوا اليه انهم على استعداد لان يسلموه الارض وجميع ما يملكون على ان يتركهم يعملون فيها بنصف الناتج كما صنع مع يهود خيبر فوافق على ذلك فصالحهم على نصف

ناتجها وبذلك كانت خيبر ملكا للمسلمين لانهم استولوا عليها بالحرب وفدك ملكا للنبي (ص) لانه لم يوجف عليها بخيل او ركاب ، وقد وهبها النبي (ص) لفاطمة الزهراء وتركتها في يد النبي يتصرف بناتجها كما تريد وتأخذ منه ما يكفيها وولدها كما تجمع على ذلك المصادر الشيعية وبعض المصادر السنية .

وجاء في الدر المنثور للسيوطي عن البزاز وأبي يعلى وابن حاتم وابن مردويه عن سعيد الخدري انه قال : لما نزلت الآية وآت ذا القربى حقه ، دعا رسول الله فاطمة الزهراء وأعطاها فدكا ، كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس وغيره .

كما جاء في شرح النهج عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله (ص) بعد ان استولى على فدك وهبها لفاطمة وظلت في يدها الى ان توفي وبعد وفاته انتزعها ابو بكر وضمها الى اموال الدولة ، ولما طالبته بها اجاب بأنه سمع رسول الله يقول : نحن معاشر الانبياء لا نورث .

وفي رواية ثانية ، قال لها : ان اباك لم يترك درهما ولا دينارا وقد قال : نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، وانني والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها الذي كانت عليه .

وقال ابن ابي الحديد في المجلد الرابع من شرح النهج : ان ابا بكر قال لها يا ابنة رسول الله والله ما ورث ابوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الانبياء لا يورثون ، فقالت انه وهبها لي بعد ان استولى عليها ، فطلب منها من يشهد لها بذلك فأحضرت عليا وأم ايمن فشهدا بأن رسول الله قد وهبها اياها ، كما شهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف بأن رسول الله كان يقسمها بين المسلمين فقال لها: صدقت يا بنت رسول الله وصدق علي وأم ايمن كما صدق عمر وعبد الرحمن ان مالك لأبيك وقد كان يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي بين المسلمين، فما تصنعين بها ؟ قالت : اصنع بها كما كان يصنع ابي . فقال لها لك

الله : ان اصنع انا كما كان يصنع ابوك فوافقته على ذلك كما تزعم هذه الرواية .

وتنصب بعض المرويات على انه قد كتب لها كتابا في فدك وأشهد عليه ولكن عمر بن الخطاب قد انتزعه منها وخرقه ، وأكثر الروايات تنص على انه قد رد شهادة علي (ع) بحجة انه يجر المنفعة لنفسه ورد شهادة ام ايمن لانه لا بد في مثل ذلك من شهادة رجلين او رجل وامرأتين .

وفي رواية سليم بن قيس ان ابا بكر قد اراد ان يكتب لها كتابا في فدك ولكن عمر بن الخطاب قد حال بينه وبين ما يريد وقال له : ان عليا يجر النار لقرصه وأم ايمن امرأة اعجمية لا تفصح عما تريد ، ولما عرضت عليه شهادة الحسنين قال له: انهما صغيران لا تجوز شهادتهما. هذا هو مجمل ما جاء حول قضاء ابي بكر في دعوى الزهراء (ع) .

ومع ان في النفس شيئا من جميع هذه المرويات ولكني سأتابع الحديث عنها كما رواها المحدثون وانطلاقا من هذا الواقع لا بد من تسجيل بعض الملاحظات على موقف ابي بكر وعمر من هذه الحادثة ، فلقد خالفا حكم الاسلام في ردهما لشهادة علي (ع) ذلك لان القرابة وحدها لا تمنع من قبول الشهادة كما خالفا رسول الله في اتهامه بالتحيز للزهراء (ع) وقد سمعاه اكثر من مرة وفي اكثر من مناسبة يقول : علي مع القرآن والقرآن مع علي ، وعلي مع الحق والحق مع علي وغير ذلك من الآيات والروايات التي تؤكد بأنه فوق الشبهات . هذا بالاضافة الى ان حكم الاسلام في هذا النوع من الدعاوى القضاء بها بشهادتي عدلين ، او شاهد ويمين المدعي ، وكان على ابي بكر ان يحلفها اليمين الشرعية مع شهادة علي (ع) ويحكم لها كما تقتضيه أصول القضاء ، ولا اظنهما يجهلان ذلك فلقد كان النبي (ص) يحاكم ويقضي بين الناس على هذا النحو بحضورهما .

والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام هو انه اذا كان النبي (ص) قد اعطاها فدكا كما ادعت وهي الصادقة في دعواها بلا شك في ذلك وكانت تستغل منها ما يكفيها وتترك الباقي يتصرف به النبي (ص) فمن غير المتصور ان يخفى ذلك على المسلمين وبخاصة اولئك الذين كانوا على اتصال دائم به ، فلماذا والحال هذه لم يتقدم للشهادة غير علي وأم ايمن والحسنين كما في بعض الروايات .

والجواب عن ذلك ان فاطمة الزهراء (ع) لم تستعص عليها الشهود ولم تكن مضطرة الى اشهاد ام ايمن او ولديها الحسن والحسين وهما طفلان صغيران يوم ذاك ، بل كان لديها من الشهود ما لا يستطيع احد ان يطعن بشهادتهم في مثل هذه المواضيع كأبي ذر وعمار والمقداد والعباس وأولاده وسلمان وأبي سعيد الخدري وغيرهم ممن يشهدون بصدقها فيما تدعيه ولو تعرضوا لأشد انواع العقاب والعذاب ، ولكن اذا صح انها وقفت هذا الموقف فيبدو ان موضوع فدك لم يكن يهمها ولا هو من اهدافها ، واذا صح انها قد احضرت عليا والحسنين للشهادة فذاك لكي تسجل على القوم ردا صريحا لنصوص الرسول فيه وفي ولديه ، على انها لو احضرت عشرين شاهدا من خيرة الصحابة لم يكن مستعدا للقضاء لها بما تطلب ، بل كان على ما يبدو من سير الاحداث مستعدا لان يعارض شهادتهم بعشرات الشهود كما عارض شهادة علي وأم ايمن بشهادة عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف كما نصت على ذلك رواية شرح النهج السابقة وعارض ارثها من ابيها بحديث نحن معاشر الانبياء لا نورث ، وفي رواية ثانية لا نورث ما تركنا صدقة ، هذا الحديث الذي اجمع المؤرخون والمحدثون على انه المصدر الوحيد له ، ولم يدّع احد من الصحابة انه سمعه من رسول الله غير ابي هريرة ، وكل من رواه من بعده فقد اسنده اليه .

وجاء في دلائل الصدق عن جماعة من المحدثين عن عائشة انها

قالت : لما توفي رسول الله اشرأب النفاق وارتدت العـــرب وانحازت الانصار ، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها فما اختلفوا في نقطة الا طار ابي بفنائها وفصلها • لقد قالوا اين يدفن رسول الله فما وجدنا عند احد من ذلك علما ، فقال ابو بكر : سمعت رسول اللـه يقول : ما من نبي يقبض الا دفن تحت مضجعه الذي مات فيه، واختلفوا في ميراثه ، فما وجدنا عند احد في ذلك علما ، فقال ابو بكر سمعت رسول الله يقول : انا معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة •

ومضى المظفري في دلائله يقول : ويدل على تفرد ابي بكر بهـــذا الحديث ما رواه احمد في ص ١٣ من المجلد الاول من مسنده عن عمر ابن الخطاب انه قال حدثني ابو بكر وانه لصادق انـه سمع النبي (ص) يقول : ان النبي لا يورث وانما ميراثه في المساكين وفقراء المسلمين • ومضى يقول ان ابن ابي الحديد قال في صفحة ٨٥ من المجلد الرابع ان اكثر الروايات تدل على انه لم يرو هذا الحديث غير ابي بكر وحده كما ذكر ذلك معظم المحدثين، حتى ان الفقهاء اطبقوا على ذلكفي احتجاجهم بهذا الخبر على الاكتفاء برواية الصحابي الواحد (١) •

وتذهب بعض الروايات الى ان فدكا وغيرها مما كان لرسول الله قد اصبح لابي بكر من بعده كما ذهب الى ذلك السيوطي فـــي تاريخ الخلفاء •

وروى ابو داود في سننه في باب صفايا رسول الله من كتـــاب الخراج عن ابي الطفيل انه قال : جاءت فاطمة الى ابي بكر تطلب ميراثها من النبي (ص) فقال ابو بكر : سمعت رسول الله يقول : ان الله اذا اطعم نبيه طعمة فهي للذي يقوم بعده •

---

١ ــ انظر جـ٣ ص ٣٢ من دلائل الصدق للمظفري .

كما روي ذلك عن ابي بكر في كنز العمال عن احمد وأبي داود وابن حريز والبيهقي وقال الشيخ المظفر في دلائل الصدق : بل الظاهر ان خيبر مختصة بهما وصارت طعمة لهما لما سيق عن البخاري ومسلم وأحمد ان عمر بن الخطاب امسك خيبر وفدكاً وقال هما صدقة رسول الله كانتا لحقوقه التي تعروه وأمرهما من ولي الامر من بعده وأضاف الى ذلك فانه دال على ان عمر وأبا بكر قد اتخذا فدكاً وخيبرا لحقوقهما ونوائبهما طعمة لهما [1] .

ولكن احتجاج ابي بكر بالحديث الاول الذي ادعاه هو الاشهر بين المحدثين ، ومع ذلك فليس ما يمنع ان يكون قد رد طلب الزهراء فيما يعود الى سهم النبي في خيبر وغيرها من الغنائم بالحديثين المذكورين ، وقد تبين مما ذكرنا ان ابا بكر وحده قد تفرد بروايتهما عن النبي (ص).

والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام ، هو انه هل يجوز على النبي ان يشرع حكما يخالف نصوص القرآن التي تنص على ميراث الابناء للآباء ويخفي هذا التشريع عن جميع المسلمين حتى الذين كانوا الصق به من جميع الناس كعلي وأمثاله من ذويه وقرابته وهو يسهم مباشرة ولا يبلغه الا لابي بكر وحده ، مع العلم بأنه كان فيما يعود للتشريع عند نزول الوحي عليه يجمع المسلمين ويبلغهم لان التشريع يعم الجميع ولو كان المخاطب به النبي . وهل يجوز عليه ان يخفيه عن ابنته وابن عمه باب مدينة العلم ومن عنده علم الكتاب ، وهو يعلم ان ذلك يعرضها للخلاف مع من يلي امور المسلمين ، ويؤدي الى اختلاف المسلمين انفسهم ، بل ويعرضها الى المطالبة بما لا تستحق ويؤدي بالتالي الى ايذائها وغضبها ، وقد قال اكثر من مرة : ان الله يغضب

---

١ ـ صفحة ٣٠ من المجلد ٣ .

لغضبها ويرضى لرضاها . وقال انها بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها .

ولا اظن احدا يؤمن بالله ورسوله ويعرف الاسلوب الذي كان يتبعه في تبليغ الاحكام ومكانة الزهراء وعلي من نفسه يتردد في كذب الحديثين المنسوبين الى ابي بكر .

وعلى اي الاحوال فلقد طالبت الزهراء (ع) في غلتها وارثها من ابيها بلا شك في ذلك وان ابا بكر قد تجاوز الحد في معاملته لها ، والذي كان يعنيها اكثر من اي شيء سواه هو امتداد سلطة ابيها وانتشار رسالته كما يبدو ذلك في جميع مواقفها وكانت فدك والميراث من جملة المظالم التي ارادت ان تسجلها على القوم ، وما تصنع بفدك وغيرها وهي تعلم بأنها سوف تلحق بأبيها بعد ايام معدودات كما اخبرها هو بذلك في الايام الاخيرة من مرضه وهو يصارع الموت كما اشتهرت الرواية بذلك .

خطبة الزهراء في المسجد

لقد وقفت الزهراء (ع) موقفا حازما من الخلافة ومن ارثها وحقها في فدك كما ذكرنا ، ولما رأت اصرارهم على موقفهم ارادت ان تعلن رأيها وظلامتها على اكبر جمهور من المسلمين حتى لا تترك عذرا لمعتذر، واستغلت اجتماع المسلمين في مسجد ابيها في يوم من ايام الجمعة فلاثت خمارها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله حتى دخلت على ابي بكر وعنده حشد كبير من المهاجرين والانصار في المسجد وقيل في بيته كما جاء في رواية اخرى .

وقد وصف حفيدها عبد الله بن الحسين بن الحسن السبط موقفها هذا فقال : لما دخلت عليهم ضرب ابو بكر بينهم وبينها ربطة بيضاء او قبطية ، ثم أنّت أنة أجهش لها القوم بالبكاء ، فأمهلتهم طويلا حتى سكتوا ، ثم قالت ابتدىء بحمد من هو اولى بالحمد والطول والمجد . الحمد لله على ما أنعم به وله الشكر بما الهم ومضت تعدد نعم الله على عباده ومواقف ابيها وتضحياته في سبيل الدعوة حتى انقذهم من الضلال وعبادة الاوثان والاصنام ، ثم توجهت الى ذلك الحشد وقالت : انتم

عباد الله نصب امره ونهيه وحملة دينه ووحيه وأمناء الله على انفسكم، وبلغاؤه الى الامم ، وزعيم حق له فيكم وعهد قدمه اليكم وبقيـــة استخلفها عليكم ، كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع بينة بصائره منكشفة سرائره متجلية ظواهره قائد الى الرضوان اتباعه مؤد الى النجاة استماعه به تنال حجج الله المنـــورة وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة وبيناته الجالية • ومضت في خطبتها تقول : لقد جعل الله الايمان تطهيرا لكم من الشرك والصلاة تنزيها لكم من الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام تثبيتـــا للاخلاص والحج تشييدا للدين • وظلت تتحدث عن الفوائد التي يجنيها المسلم من فروع الاسلام وأصوله حتى خلصت الى القول : لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تعزوه وتعرفوه تجدوه ابي دون نسائكم وأخا ابن عمـــي دون رجالكم ولنعم المعزي اليه فبلغ الرسالة صادعا بالنذارة مائلا عـن مدرجة المشركين ضاربا ثبجهم آخذا بكظمهم داعيا الى سبيل ربـــه بالحكمة والموعظة الحسنة يكسر الاصنام وينكث الهام حتى انهـــزم الجمع وولوا الدبر وتعزى الليل من صبحه وأسفر الحق عن محضه ونطق زعيم الدين وخرست شقائق الشياطين وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقدة الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الاخلاص ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة للشارب ونهزة الطامع وقيسة العجلان وموطىء الاقدام تشربـون الطرق وتقتاتون القد ، اذلة خاسئين تخافون ان يتخطفكم الناس مـن حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد بعد اللتيا والتي وبعد ان مني ببهـــم الرجال وذؤبان العرب ومردة اهل الكتاب كلما أوقدوا نارا للحـــرب اطفأها الله ، او نجم قرن للشيطان وفغرت فاغرة من المشركين قذف اخاه في لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ خماصها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفـه مكدودا في ذات الله مجتهدا في امر الله قريبا من رسول الله سيد أولياء

الله مشمرا ناجحا كادحا وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الاخبار وتنكصون عند النزال وتفرون عند القتال • فلما اختار الله لنبيه دار انبيائه ومأوى أصفيائه ظهرت فيكم حسكة النفاق ، وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ، ونبغ خامل الافكين وهدر فنيق المبطلين فخطر في عرجاتكم ، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم ، فألفاكم بدعوته مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين ، ثم استنهضكم فوجدكم خفافا واهشكم فألفاكم غضابا فوسمتم غير ابلكم وأوردتم غير مشربكم هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر ، ابتدارا زعمتم خوف الفتنة الا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين •

ومضت في خطبتها التي كانت اشد على القوم من وقع الصواعق ، وفي كل منها اكثر من دليل على انحراف القوم عن خط الرسالة ونهج القرآن ومفاهيمه البينة الواضحة حيث تابعت حديثها تقول : لقد خلفتم القرآن وراء ظهوركم ارغبة عنه تريدون ام بغيره تحكمون بئس للظالمين بدلا ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، أفحكم الجاهلية تبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون •

ثم التفتت الى ابي بكر وقالت : أغلب عن ارثه يا بن ابي قحافة أفي كتاب الله ان ترث اباك ولا ارث ابي • لقد جئت شيئا فريا ، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم ، اذ يقول :

«وورث سليمان داود» ويقول : **فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا «رب هب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب»** ويقول : **«وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب»** ويقول : **«يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين»** •

وقال : ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على

المتقين ، وزعمتم ان لا حظوة لي ولا ارث من ابي ولا رحم بيننا أفخصكم الله بآية اخرج منها ابي، ام هل تقولون اهل ملتين لا يتوارثان. أولست انا وأبي من اهل ملة واحدة ، ام انتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من ابي وابن عمي ، فدونكها مخطومة مرحولة للقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلـــون ولا ينفعكم اذ تندمون ولكل بناء مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عـذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم .

وجاء في شرح النهج انها التفتت الى قبر ابيها وتمثلت بقول هنـد بنت اثاثه :

قـــد كان بعدك أنبـاء وهينثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما قضيت وحالت دونك الخطب
تهجمتنا رجـال واستخف بنـــا ... اذ غبت عنا فنحن اليوم نغتصب

ولم ير الناس اكثر باك ولا باكية منهم يومئذ . ثم اتجهت تخاطب الانصار وقالت : يا معشر البقية وأعضاد الملة وحصنة الاسلام ما هـذه الفترة عن نصرتي والسنة عن ظلامتي والغميزة في حقي ، اما كـــان رسول الله يقول : المرء يحفظ في ولده سرعان ما احدثتم وعجلان مـا اتيتم ، الان مات رسول الله ، ها ان موته لعمري خطب جلل استوسع وهنه واستبهم فتقه وفقد راتقه وأظلمت الارض له وخشعت الجبـــال وأكدت الامال ، وأضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة ، وتلك نازلة اعلن عنها كتاب الله قبل موته وأنبأكم بها قبل وفاته فقال :

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتـــل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين .

ايها بني قيلة اهتضم ثرات ابي وأنتم بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة ويشملكم الصوت وفيكم العدة والعدد والاداة والقوة وأنتم نخبة الله

التي انتخب وخيرته التي اختار باديتم العرب وبادهتم الامور وكافحتم البهم حتى دارت بكم رحى الاسلام ودر حلبه وخبت نيرات الحرب ، وسكنت قوة الشرك وهدأت دعوة الهرج واستوثق نظام الدين، فتأخرتم بعد الإقدام ونكصتم بعد الشدة وجبنتم بعد الشجاعة عن قـــوم نكفوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون .

الا وانكم قد اخلدتم الى الخفض وركنتم الى الدعة فجحدتم الذي وعيتم ودعستم الذي سوغتم ، وان تكفروا انتم ومن في الارض جميعا فان الله لغني حميد .

ومضت تقول : ألا وقد قلت ما قلت لكم على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم وخور القناة وضعف اليقين ، فدونكموها فاحتووهـــا مدبرة الظهر ناقبة الخف باقبة العار موسومة الشعار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ، فبعين الله ما تعملون وسيعلم الذيـن ظلموا اي منقلب ينقلبون .

ويبدو ان خطابها هذا في المسجد ، وحديثها مع الانصار قد احدثا جوا مشحونا بالقلق ، وظهرت على الكثير من المسلمين بوادر النـــدم وأخذوا يتحدثون بظلامتها وموقفهم المتخاذل منها ومن حق علي فـي الخلافة . فصعد على اثر هذه الاجواء ابو بكر المنبر وقال كما جاء في رواية شرح النهج : ايها الناس ما هذه الرعة الى كل قالة لئن كانت هذه الاماني في عهد رسول الله ، الا ومن سمع فليقل ومن شهد فليتكلم ، انما هو ثعالة شهيده ذنبه مرب لكل فتنة، هو الذي يقول : كروها جذعة بعد ما هرمت يستعينون بالضعة ويستنصرون بالنساء كأم طحال أحب اليها البغي الا واني لو اشاء ان اقول لقلت ، ولو قلت لبحت اني ساكت ما تركت .

ثم التفت الى الانصار وقال : لقد بلغني يا معشر الانصار مقالـــة

سفهائكم وأحق من لزم عهد رسول الله (ص) انتم فقد جاءكم فآويتم ونصرتم ، الاواني لست باسطا يدا او لسانا على من لم يستحق ذلك منكم .

وقال في شرح النهج لقد قرأت هذا الكلام على النقيب ابي يحيى جعفر بن يحيى بن ابي زيد البصري وقلت له بمن يعرض : فقال بل يصرح ، قلت لو صرح لم اسألك . فضحك وقال بعلي بن ابي طالب (ع) قلت هذا الكلام كله لعلي (ع) بقوله قال نعم انه الملك يا بني قلت فما مقالة الانصار ؟ قال لقد هتفوا بعلي (ع) فخاف من اضطراب الامر فنهاهم ، وأضاف الى ذلك ابن ابي الحديد لقد سألت عن غريبه ، فقال اما الرعة بالتخفيف فهي الاستماع والإصغاء والقالة هي القول ، وثعالة اسم للثعلب علم غير معروف مثل ذؤالة للذئب ، وشهيده ذنبه اي لا شاهد له على ما يدعي الا بعضه وجزء منه ، وأصل ذلك مثل معروف يتحدث به العرب ، فلقد قالوا ان الثعلب اراد ان يغري الاسد بالذئب، فقال له ان الذئب لقد اكل الشاة التي كنت قد اعددتها لنفسك ، وكنت حاضرا ، فقال ومن يشهد لك بذلك ، فرفع ذنبه وعليه من دمها ، وكان الاسد قد افتقد الشاة ، فقبل شهادته وقتل الذئب .

وكروها جذعة اي اعيدوها الى الحال الاولى يعني الفتنة والهرج ، وأم طحال امرأة بغي عاشت في الجاهلية وكان يضرب بها المثل فيقال : أزنى من ام طحال .

وعلى اي حال فان صح انها وقفت هذا الموقف في مسجد النبي(ص) وخاطبت الانصار والمهاجرين بتلك اللهجة القاسية التي لا بديل عنها فلا بد وأن يكون لكلامها اثره وقد نصت الرواية على ان فريقا من الانصار قد هتفوا بعلي (ع) ، ولكنه أمرهم بالخلود والسكينة خوفا من اضطراب الامر مما يدل على ان القوم فهموا ما تعنيه وترمز اليه من تقريعها لهم ووصفهم بالارتداد والنفاق ، وكذلك هتفوا بعلي وخاف ابو بكر أن

ينتقض الامر عليه فوقف يهدد ويتوعد ويحذر من اي تحرك جديد ضد الوضع القائم .

ومما يؤكد ان الخلافة وحدها كانت تعنيها في جميع تحركاتها ان حديثها مع نساء المهاجرين والانصار الذي نقلنا شطرا منه في الصفحات السابقة كان يدور حول الخلافة وحدها وموقف رجالهن المتخاذل منها ، ولم تتعرض لفدك ولا لغيرها من سهام ذوي القربى والارث ، وحسبما اعتقد انها لم تتحدث عن الارث في خطابها في المسجد الا لتسجل عليهم تجاوزا صريحا لما انزل الله سبحانه في كتابه بالاضافة الى استيلائهم على الخلافة الذي تجرعت مرارتـه وكان اشد ايلاما لنفسها مـن جميع الاحداث التي تلت وفاة ابيها .

ومما لا شك فيه بأن حرصها البالغ اقصى حدوده على هذا الامر لم يكن الا لانها كانت ترى ان مصلحة الاسلام العليا تقتضي ذلك واستيلاء علي عليها سيكون امتدادا لسلطة النبي التي كانت لخير الاسلام ونشره، ومما يدل على ان مصلحة الاسلام كانت في نظرها فوق جميع الاعتبارات ما جاء في رواية شرح النهج وغيره من المرويات الشيعية انها قد رجعت من المسجد بعد خطابها وبيدها كتاب كتبه لها ابو بكـر في فدك ، فانتزعه منها عمر بن الخطاب وخرقه فقالت له : بقر الله بطنك كما بقرت صحيفتي هذه. وتضيف الروايات الشيعية الى ذلك انها رجعت الى البيت بعد موقف عمر بن الخطاب منها مكسورة مهضومة فتحدثت مع علي(ع) بكلام تبدو عليه الشدة والقسوة وفيما هي تحدثه واذا بالمؤذن يقول : أشهد ان محمدا رسول الله فقام عند ذلك الى السيـف ، وقال لها : أتريدين الخلافة والإرث ، ام تريدين رسالة ابيك وبقاءها فتعلقت بـه وقال حسبي ذلك الى غير ذلك مما يرويه الرواة حول هذا الموضوع .

ومهما كان الحال فالحديث عن فدك وميراث الزهراء من ابيهـا ومواقفها من ذلك ومن الخلافة طويل وكثير ، وبلا شك فان الاصحاب

والاعداء قد وضعوا القسم الاكبر مما هو بين أيدي الرواة ولا يثبت بعد التمحيص والتدقيق في تلك المرويات الا القليل القليل ، ومع ذلك فالشيء المتيقن انها وقفت موقفا صلبا وحازما من حق علي في الخلافة وحقها في الميراث وأحرجت اخصامها ووضعت المهاجرين والانصار في حدود مسؤولياتهم حتى هتف عدد كبير منهم بعلي (ع) ولكن تباشير الردة التي اتسع نطاقها خارج المدينة وأصبحت تهدد المدينة بالذات قضت على علي (ع) ان يتدارك الامو ويتجاهل كل ما بدر منهم وأضاف بذلك تضحية كبرى الى تضحياته الجسام في سبيل الاسلام ، وبقيت فدك في ايدي القوم يستغلونها لصالحهم ، كما في بعض الروايات ولصالح المسلمين كما في بعضها الآخر .

وكان عليهم ان يراعوا وصية رسول الله (ص) فيها ويتجنبوا غضبها الذي يغضب له الله كما اخبرهم بذلك ابوها الذي لا ينطق عن الهوى ، وان لا يؤذوا رسول الله فيها وقد سمعوه اكثر من مرة يقول من آذى فاطمة فقد آذاني كان من المفروض عليهم ذلك حتى ولو افترض محالا بأنها قد ادعت ما ليس لها ، ولا احسب ان احدا من المسلمين يعارضه او ينكر عليه فيما لو ترك لها فدكا وسهم ذوي القربى ولكن الامر كان ابعد من ذلك كما ذكرنا .

وكما ذكرنا لقد بقيت في ايديهم يتصرفون بها كما يشاؤون ولما انتقلت الخلافة لعلي (ع) تصرف بها لصالح المسلمين كما كان يتصرف في امواله الخاصة في هذا السبيل ، وفي عهد معاوية وزعها اثلاثا ثلثا لمروان بن الحكم وثلثا لعمرو بن عثمان وثلثا ليزيد بن معاوية وخلصت اخيرا لمروان بن الحكم فوهبها لولده عبد العزيز بن مروان ووهبها عبد العزيز لولده عمر بن عبد العزيز ولما انتهت اليه الخلافة كانت اول ظلامة ردها على العلويين فقد استدعى الحسن بن الحسن وسلمها له ، وفي اكثر الروايات انه سلمها لعلي بن الحسين (ع) وبقيت في يده

يوزع ناتجها على العلويين . وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز انتزعها يزيد ابن عبد الملك من العلويين وأضافها الى امواله وظلت في يد المروانيين طيلة حكمهم ، ولما اراح الله منهم العباد والبلاد ، واستولى ابو العباس المعروف بالسفاح على الدولة الاسلامية أرجعها الى العلويين ، واستلمها منه عبد الله بن الحسن بن الحسن كما في رواية شرح النهج ، وبعد ثورة الحسنيين على الدولة العباسية انتزعها منهم ابو جعفر المنصور ، وردها عليهم المهدي العباسي ، ولما انتقلت الخلافة الى موسى الهادي انتزعها من العلويين وظلت في ايديهم الى ان جاء عهد المأمون ، فكان اول عمل قام به ان جلس يراقب المظالم التي ارتكبها اسلافه فكانت اول رقعة وقعت في يده فنظر فيها وبكى ، وقال للذي على رأسه ناد اين وكيل فاطمة بنت محمد فقام شيخ فجعل المأمون يناظره والشيخ يرد عليه ثم امر المأمون بردها عليهم فأنشد دعبل الخزاعي قصيدته التي يقول فيها :

اصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فدكا

فلم تزل في ايدي العلويين يستغلونها ويتقاسمون ناتجها الى ان جاء عهد المتوكل فانتزعها من ايديهم وأقطعها عبد الله بن عمر بن البازيار وكان فيها احد عشر نخلة غرسها رسول الله بيده الكريمة فكان الفاطميون عندما كانت في ايديهم يأخذون ثمرها ويحتفظون به لموسم الحاج فاذا وفد الحجاج على المدينة اهدوا اليهم من ذلك التمر طمعا في صلاتهم ، فلما استولى عليها البازيار ارسل بشير بن ابي أمية الثقفي وأمره بقطع النخيلات التي غرسها النبي (ص) فأصابه الفالج بعد ذلك مباشرة [1] .

وعلى اي الاحوال فمما لا شك فيه بأن فدكا وغيرها مما تركه

---

١ ـ انظر شرح النهج ص ٨٠ و٨١ .

الرسول لم يكن المقصود بالذات للزهراء ولا لعلي (ع) كما ذكرنا من قبل ، وكانت الدنيا بكاملها في حسابهما اوهى وأهون من عفصة مقرة اي مرة كما جاء في كتاب علي لسهل بن حنيف .

وجاء في الكتاب المذكور يوم كانت خيرات الدولة الاسلامية على سعتها تحت قدميه ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ولا ادخرت من غنائمها وفرا ولا اعددت لبالي ثوبي طمرا ولا خزنت من ارضها شبرا ولا اخذت منه الا كقوت اثان دبرة ولهي في عيني اوهى وأهون من عفصة مقرة ، بل كانت في ايدينا فدك من كل ما اخلته السماء فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم إلله وما اصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها .

وكما كان علي كانت الزهراء والدنيا بكاملها احقر من ان تنازع او تخاصم احدا لاجلها لاسيما وهي تعلم علم اليقين بأن حياتها بعد ابيها لا تتجاوز اياما معدودات ، وقد امضت حياتها القصيرة في ظل اب لم يشبع مرة واحدة من طعامه وزوج كان اكثر ادامه الخل والزيت . نعم لقد خاصمت القوم ووقفت وقفة الابطال من اجل الخلافة كما ذكرنا ولكن بدون جدوى فعادت ولازمت بيتها تتعثر بأذيالها من الخيبة منهارة الركن باكية ايام ابيها تتمثل بهذه الابيات :

صبت على مصائب لو انها ... صبت على الايام عدن لياليا
قد كنت أرتع تحت ظل محمد ... لا أختشى ضيما وكان جماليا
واليوم أخضع للذليل وأتقي ... ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا

لقد ظلت الزهراء بعد ابيها في الاشهر الثلاثة او الستة في جهاد مستمر ونضال شاق مع اخصامها الجدد الذين استطاعوا السيطرة على امور المسلمين بعد تخطيط مدبر ومدروس ، فوقفت لهم بالمرصاد وناضلتهم بالحجة والمنطق ، وظل القوم جادون في امرهم لم يراعوا لها

حرمة ولا حفظوا لرسول الله وصية فيها وفي آله وراحوا يلاحقون عليا ويطلبون بيعته ، وكان قد ابى عليهم واعتصم هو وجماعة من خيرة الصحابة في بيته ، فأرسل ابو بكر عمر بن الخطاب على رأس جماعة من أنصاره لمداهمة الدار والاتيان بمن فيه الى المسجد مهما كانت النتائج، وأقبل ابن الخطاب بمن معه يحملون الحطب لاحراق البيت على اهله اذا تعسر عليهم اخراج من فيه بقوة السلاح ، وصاح ابن الخطاب بأعلى صوته يدعوهم الى الخروج منها طائعين قبل ان يخرجوا منها مكرهين. ومضى يقول : والذي نفس ابن الخطاب بيده لتخرجن من الدار او لاحرقنها عليكم .

وجاء في تاريخ اليعقوبي ص ١٠٥ من المجلد الثاني انه بلغ ابا بكر ان جماعة من المهاجرين والانصار قد اجتمعوا مع ابن ابي طالب في منزل فاطمة الزهراء فأتوا في جماعة حتى هجموا على الدار وخرج علي ومعه السيف فلقيه عمر بن الخطاب فكسر سيفه ودخلوا الدار فخرجت فاطمة وقالت لتخرجن او لاكشفن شعري وأعجن الى الله فخرجوا وخرج من في الدار [1] .

وقال ابو الفداء في صفحة ٦٤ من المجلد الثاني من تاريخه : ان عمر ابن الخطاب اقبل ومعه النار ليحرق عليهم البيت فخرجت فاطمة وقالت له : الى اين يا ابن الخطاب جئت لتحرق دارنا قال : نعم ، اوتدخلوا فيما دخل فيه المسلمون .

وأيد ذلك المسعودي في مروجه وابن قتيبة في الامامة والسياسة

---

١ ـ الذي يكاد ان يكون متفقا عليه بين المؤرخين والمحدثين ان الذي خرج لمقابلة القوم الزبير بن العوام وقد عثر ووقع سيفه من يده فسبق اليه ابن الخطاب وضرب به الحائط ورواية اليعقوبي هذه لعلها غلط منه او من الناسخ .

والطبري وابن ابي الحديد في شرح النهج ، وغير هؤلاء من المؤرخين والمحدثين .

وتنص بعض المرويات ان بعض الصحابة لفت نظره الى ان في الدار فاطمة وولدها في معرض الإنكار عليه ، فرد عليه بقوله وان كانت فيها ووقفت الزهراء تستغيث بأبيها وتقول ماذا لقينا من ابي بكر وابن الخطاب من بعدك يا رسول الله ، وتنص بعض المرويات انهم اخرجوا عليا من الدار وانطلقوا به الى المسجد وطلبوا منه البيعة وهددوه بالقتل ان لم يبايع فقال اذا تقتلون عبد الله وأخا رسوله ، واندفع ابن الخطاب نحوه يقول : اما عبد الله فنعم ، ولكنا لا نعترف لك بأكثر من ذلك . وتضيف الى ذلك تلك المرويات ان ابا بكر أحس بأن الاكثرية من المسلمين لا يستسيغون هذا الاسلوب الفج المتغطرس مع رجل كعلي ابن ابي طالب لاسيما وقد رأوا فاطمة بنت نبيهم تتململ بين يديه تستغيث بأبيها تارة وبالمسلمين اخرى ، فخاف ان يستفزهم هذا الموقف المؤلم وينقلبوا عليه ، فتركه ورجع الامام (ع) فاتجه نحو قبر النبي شاكيا ما يلقاه من قومه يقول : يا رسول الله ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلوني .

وفي رواية اخرى انهم لما ارادوا الدخول الى بيتها واخراج علي منه ارادت ان تحول بينهم وبين ذلك ضربها قنفذ على وجهها وأصاب عينها، وفي رواية ثانية ان عمر بن الخطاب ضربها بالسوط فأثر ذلك في عضدها كالدملج على حد تعبير الراوي .

وفي رواية ثالثة انها وقفت خلف الباب لتمنعهم من دخوله فاندفعوا نحو الباب ودفعوه نحوها وكانت حاملا فأسقطت ولدا كان رسول الله قد سماه محسنا .

وفي رواية الكافي عن عبد الله بن محمد الجعفي عن ابي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق ان فاطمة الزهراء لما كان من امر القوم

معها ما كان اخذت بتلابيب عمر بن الخطاب فجذبته اليها ثم قالت : اما والله يا ابن الخطاب لولا اني اكره ان يصيب البلاء من لا ذنب له لقلت اني اذا اقسمت على الله اجده سريع الاجابه .

وفي بعض المرويات انها خرجت خلف علي (ع) ومعها نسوة من مخدرات بني هاشم وأقبلت نحو المسجد وقالت لهم خلوا عن ابن عمي والذي بعث محمدا بالحق ان لم تخلوا عنه لانشرن شعري ولاضعن قميص رسول الله على رأسي فما ناقة صالح بأكرم على الله مني ولا فصيلها بأكرم عليه من ولدي ، وكان سلمان الفارسي قريبا منها وهي تخاطب القوم كما يزعم الراوي ، فقال : لقد رأيت حيطان المسجد تعلقت من أسفلها حتى لو اراد الرجل ان يخرج من تحتها اخرج ، فجئت اليها وقلت لها يا بنت رسول الله : لقد بعث ابوك رحمة فلا تكوني انت السبب في هلاك هذه الامة ، ولما رأى القوم ما حل بهم تركوه ورجع معها الى بيته .

الى كثير من المرويات التي لا تثبت أسانيدها في مقابل النقد العلمي ، ومع ذلك فليس ببعيد على الله ان يستجيب لها لو سألته ان يأخذ لها بحقها منهم ، ولكنها وأباها وأبناءها الكرام على كثرة ما مر عليهم من ظلم واضطهاد وترويع من اعدائهم لم يسألوا الله سبحانه ان ينتقم لهم في الدنيا وقابلوا كل انواع البلاء بالصبر الجميل والرضا بقضائه لينعموا بما أعده الله للصابرين في الدار الاخرى وقدموا بذلك اروع الامثلة في الجهاد والتضحية في سبيل الله والعمل لخير الناس اجمعين .

مرض الزهراء

لقد اطبقت على الزهراء الهموم وحطمتها الاحزان وأحاطت بها سحب قاتمة ، فمن موت ابيها الى اغتصاب الخلافة من ابن عمها الى انتزاع فدك من يدها وحرمانها من ارثها الى غير ذلك من الكوارث والمصائب التي احاطت بها خلال ايام معدودات فلم يعد جسمها النحيل يقوى على تحمل تلك الاحداث فلازمت الفراش وبدا عليها الجهد والاعياء ، وشاع ذلك بين المهاجرين والانصار ، وندم القوم على سوء صنيعهم معها فأقبل ابو بكر وعمر بن الخطاب الى بيتها نادمين على ما صنعا معها فأبت ان تأذن لهما وأصرت على موقفها فاستجارا بأمير المؤمنين ورغبا اليه ان يدخلا عليها عائدين فعرض عليها طلبهما فلم ترد طلبه فدخلا وسلما عليها فلم ترد عليهما وأشاحت بوجهها عنهما ولم تسمح لهما بالحديث معها ، وبعد ان ألحا في طلبهما سمحت لهما بذلك فقال ابو بكر :

يا حبيبة رسول الله والله ان قرابة رسول الله أحب الي من قرابتي وانك لأحب الي من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات ابوك اني مت قبله .

ومضى يقول :

أقر اني اعرفك وأعرف فضلك وشرفك وما أمنعك حقك وميراثك من رسول الله الا لاني سمعت رسول الله (ص) يقول : نحن معشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

ولكنها تجاهلت ارثها وحديثه الذي نسبه لابيها بعد ان فندت جميع مزاعمه في خطابها الذي القته على المسلمين في مسجد ابيها قبل ايام معدودات ، والتفتت اليهما وقالت :

نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاي وسخطها من سخطي ، ومن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ومن أسخطها فقد أسخطني .

فقالا أجل لقد سمعناه يقول ذلك .

فرفعت عند ذلك كفيها نحو السماء وقالت اني أشهد الله وملائكته ورسله انكما اسخطتماني ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما اليه .

والتفتت الى ابي بكر وقالت له :

لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها ما دمت بين الأحياء .

وكانت كلماتها هذه اشد وقعا عليهما من الصواعق وأحسا كأن الارض مادت بهما وغادرا دارها يتعثران بالخيبة وقد سمعا رسول الله اكثر من مرة يقول لها :

ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك (١) .

وبادرت نساء المسلمين لعيادتها وقد اشتد بها المرض فقلن لها كيف اصبحت يا بنت رسول الله فرمقتهن بطرفها وقالت اجدني كارهة لدنياكن مسرورة بفراقكن وسأشكو الى الله ورسوله ما لقيت من بعده فما حفظ لي حق ، ولا رعيت لي ذمة ولا قبلت الوصية ولا عرفت الحرمة.

ولما أحست بدنو أجلها استدعت امير المؤمنين فأوصته وصيتها

---

١ ــ كما جاء في مستدرك الحاكم واسد الغابة وميزان الاعتدال وذخائر العقبي ومقتل الخوارزمي وغير ذلك من مجاميع الحديث والتاريخ.

وألحت عليه ان يواري جثمانها في غسق الليل وأن لا يحضر جنازتها احد من الذين ظلموها وجحدوا حقها وان يعفى موضع قبرها ، كما اوصته ان تتزوج بابنة اختها امامة لتقوم برعاية ولدها ، وضمن لها الإمام (ع) ان ينفذ كل وصيتها كما تريد .

وجاء في رواية ابن سعد في طبقاته وغيره انها احبت ان يضع لها نعشا يواري جثمانها لان الناس كانوا يوم ذاك يضعون الميت على سرير مكشوف لا يستر الميت فكرهت ذلك وأحبت ان لا ينظر جثمانها احد وهي محمولة على اكتاف الرجال فاستدعت اسماء بنت عميس وأخبرتها بما تحب فصنعت لها اسماء سريرا كانت قد شاهدته في الحبشة يحقق رغبتها فلما نظرت اليه تبسمت وكانت كما يدعي بعض الرواة اول ابتسامة لها بعد وفاة ابيها .

وفي اليوم الاخير من حياتها كان يبدو عليها الارتياح فقامت من فراشها وغسلت ولدها وأمرتهم بالخروج لزيارة قبر جدهم رسول الله والتفتت الى سلمى بنت عميس ، وقيل الى اختها اسما وكانت تتولى خدمتها وتمريضها وطلبت منها ان تهيء لها ماء لتغتسل فبادرت الى تلبية طلبها ، فاغتسلت ولبست احسن ثيابها وبدا عليها وكأنها تتماثل للشفاء فارتاحت لذلك اسما ، ولكن سرعان ما عاودها القلق عندما امرتها بأن تنقل لها فراشها الى وسط البيت فقامت وهي تتعثر بأذيالها فوضعت لها الفراش في وسط البيت فاضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، والتفتت الى اسما وقالت : اني مقبوضة الان وخرجت سلمى من البيت مدهوشة لهذا الحدث الجلل قد أذهلها الخطب وضاقت بها الدنيا واستبد بها القلق فلم تلبث في خارجه سوى دقائق معدودات حتى عادت اليه وفي نفسها بقية من الامل بحياة الزهراء ، ولكن كل شيء قد تبدد عندما وجدتها جثة هامدة فصاحت وصاح من في البيت وأسرع الحسنان عندما سمعا البكاء والعويل مدهوشين فوجدا امهما قد فارقت الدنيا ،

واجتمع الناس حول الدار ما بين باك وباكية وقد اشتد بهم الحـــزن والاسى لانها كانت تذكرهم بأبيها ، وأمر الامام (ع) سلمان الفارسي ان يصرف الناس فخرج وأمرهم بالانصراف .

وأقبلت عائشة تريد الدخول الى البيت الذي فيه الجثمان الطاهـر فمنعتها اسما ، وقالت لها : لقد عهدت الي الزهراء ان لا يدخل عليهـا احد كما جاء في رواية اسد الغابة وكنز العمال .

وانصرف الامام (ع) الى تجهيزها وجاء الناس يتدفقـون ليحضروا تشييعها والصلاة عليها ، ولكن عليا (ع) عملا بوصيتها اظهر لهم انـه يريد تأخيرها ، ولما مضى من الليل الشطر الاكبر والناس نيام أخرجها مع جماعة من خلص اصحابه ودفنها ليلا في البقيع كما روى ذلك اكثر المحدثين .

وفي رواية البحار عن ابن بابويه انه دفنها في بيتها ، وجاء عـــن الطوسي انها دفنت اما في بيتها او في الروضة . ولما دفنها هاج بـــه الحزن ووقف على شفير القبر وقلبه مفعم بالالم والحسرة وقال : السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ورقى عنها تجلدي ، الاوان في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، انا لله وإنا اليـــه راجعون . لقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة ، اما حزني فسرمـد وأما ليلي فمسهد الى ان يختار لي الله دارك التي انت فيهـــا مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فاصفها السؤال واستخبرها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر والسلام عليكما ســلام مودع لا قال ولا سئم فان انصرف فلا عن ملالة وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

وأرى ان اختم حديثي عن الزهراء وأرجو ان يكون وافيا ولـــو ببعض حقها ارى ان اختمه بكلمة للعقاد وهو يمهد للحديث عن وفاتها ،

فقد قال : ان في كل دين صورة للانوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله من ذكر وانثى ، فاذا تقدست في المسيحية صورة مريم العذراء ففي الاسلام لا جرم ان تتقدس صورة فاطمة البتول .

لقد اخذت الزهراء مكانها الرفيع بين اعلام النساء في التاريخ واقترن اسمها بمئات الشهداء ، وظل اسم المنتسبين اليها يقض مضاجع الحكام وطغاة العصور مئات السنين ، وكان لاكبر دولة اسلامية شرف الانتساب اليها خلال ثلاثة قرون او تزيد ، بل كان الانتساب اليها من اقوى الدعائم لانها بنت نبي وزوجة امام وأم لآلاف الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الضعفاء والمحرومين والمعذبين فحسب بل لانها رافقت دعوة ابيها منذ بدايتها وتأصلت في نفسها حتى اصبحت وكأنها جزء من كيانها وطبيعتها تمدها بالثبات على الحق والدفاع عن المظلومين مهما كان الثمن غاليا .

ولم يرو الرواة بأسانيدهم الصحاح ان الصادق الامين أباها قال : ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك لغيرها من النساء ، ووقفت ذلك الموقف الحازم بعد ابيها في سبيل احقاق الحق ودفع الظلم الذي احيط بها وبزوجها علي (ع) ، وظلت تكافح وتناضل الى ان فارقت الدنيا تاركة صورة للانوثة الكاملة المقدسة يقدسها مئات الملايين من البشر وكأنها من اقدس آيات الله التي خلقها فيما خلق من بني الإنسان منذ بداية الخليقة وحتى نهايتها .

واختلفت الروايات في تاريخ وفاتها . ففي الطبقات انها توفيت بعد ابيها بثلاثة اشهر عن عشرين عاما وفي المستدرك للحاكم انها عاشت بعد ابيها ثمانية اشهر ، وقيل انها توفيت بعده بشهرين وكان عمرها احدى وعشرين عاما وقيل انها عاشت بعده خمسا وسبعين يوما وقيل ستة اشهر وتوفيت في اليوم الثالث من رمضان وقيل غير ذلك .

الامام علي بن أبي طالب

الذي قال فيه النبي : يا علي لولا اني اخشى ان تقول فيك فئة من الناس ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك مقالة ، الا تمر على احد من الناس الا واخذوا التراب من تحت قدميك

ما عساني بعد ذلك ان اكتب عن علي وأن اقول فيه وقد قال فيه استاذه الاعظم ورفيقه في الجهاد كما جاء في بعض المرويات هذه المقالة، وكتب عنه المغرمون بتاريخ الأبطال وعباقرة العصور والمشرعين والقديسين عشرات الكتب ، ولم يحدث لإنسان غيره ما حدث له ، فقد وضعه من لا يؤمنون به ايمان شيعته ومحبيه في طليعة قادة الفكر وعباقرة العصور ووضعه المعتدلون من محبيه الى جانب الانبياء والمرسلين، والمغالون منهم في مستوى الآلهة .

ما عساني ان اقول فيه وقد كان ولا يزال حديث الابطال وعشاق البطولات وقدوة المجاهدين المخلصين في سبيل المبدأ والعقيدة والمرجع الاول في التشريع والفلسفة والاخلاق والتربية والسياسة الحكيمة التي توفر للناس في مختلف العصور العدالة والامن والسعادة في الدنيا والفوز بنعيم الآخرة .

ولكني ومع اعترافي بالعجز والقصور عن الإحاطة بواقعه سأكتب وأقول عساي ان احيط ولو ببعض الجوانب من حياته مستمدا من الله سبحانه العون والتوفيق .

لقد كان علي بن ابي طالب (ع) حدثا تاريخيا غريبا عن طباع الناس وعاداتهم منذ ولادته وحتى النفس الاخير من حياته ، فقد أطل على هذه الدنيا من الكعبة وقد جاءتها امه فاطمة بنت اسد مستجيرة بالله فلاذت الى بعض جوانبها وقد خشيت ان تراها عيون اولئك الذين اعتادوا الاجتماع في أمسياتهم الى اروقة البيت وفي داخله ، فانحازت ناحية وتوارت عن عيونهم خلف أستار الكعبة واهنة قد علا وجهها الشحوب ومشت في أوصالها رجفة من شدة الطلق فيسر الله ولادة مولودها وهي متعلقة باستاد الكعبة ، فكانت ولادته في ذلك المكان حدثا تاريخيا لم يكن لاحد قبله ولم يحدث لاحد من بعده ، وكما دخل الى هذه الدنيا من بيت الله فقد خرج منها حين أقبل عليه الموت من بيت الله . وهو اول مولود ولد من فرعي هاشم ، فاطمة بنت اسد بن هاشم ابن عبد مناف ، وأبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وشاع على لسان المحدثين انه اول هاشمي ولد من هاشميين ، مع العلم انه ولد لابي طالب من فاطمة قبله طالب وجعفر وعقيل .

وروى محمد بن عبد الله بن مسكان عن ابيه عن ابي عبد الله الصادق (ع) انه قال : ان فاطمة بنت اسد جاءت الى ابي طالب تبشره بمولد النبي (ص) فقال لها اصبري سبتا ابشرك بمثله الا النبوة وأضاف الى ذلك ان السبت ثلاثون سنة وكان بين مولد النبي وبين مولد علي ثلاثون سنة وقيل خمس وعشرون [1] .

---

١ ــ الكافي جـ١ ص ٤٥٢ والسبت هو البرهة من الزمان واستعمل في الحديث على تقدير صحته بثلاثين سنة او بخمس وعشرين .

وذكر الرواة عن امه فاطمة بنت اسد انها لما وضعته امتنع عن ثديها ثلاثة ايام ، وكان محمد بن عبد الله يغذيه فيها من ريقه يلقمه لسانه فلا يزال يمتص منه وهو في فمه حتى يرتوي ويشبع .

ويمكن ان نستخلص من هذه الرواية على تقدير صحتها كما هو ليس ببعيد ان الله سبحانه اراد ان يعده اعدادا صالحا على يدي رسوله الامين للمسؤولية التي حملها في حياة الرسول وبعد مماته ، فكان اول شيء قد دخل فمه وامتص منه لم يكن من النوع الذي اعتاده الاطفال من قبله هو لسان الرسول الذي لم يتحرك بغير الحق والصدق منذ صباه الى ان اختاره الله اليه حتى غلبت عليه صفتا الصدق والامانة وهو في مطلع شبابه وأصبح يعرف بهما اكثر مما يعرف باسمه ونسبه.

لقد اراد الرسول (ص) ان يربط بين اللسانين كما ربط الله بين القلبين ويتعاهده منذ اليوم الاول الذي أطل به على هذه الدنيا فأدخل لسانه في فمه الذي لم ينطق الا بالحق والحكمة ليطبع الحكمة على لسانه وليكون مفطورا على الحق والصدق وحربا ضارية على الباطل والعدوان ، وبعد ذلك اصبح غذاؤه من لبن ام طيبة طاهرة قد سجل لها التاريخ مواقف كريمة في تاريخ محمد بن عبد الله الذي فقد اباه وأمه وجده وهو طفل صغير فحضنه عمه ابو طالب وضمه الى اولاده فكانت تفضله عليهم وتسهر على راحته وحياته ولم يشعر وهو في بيتها بمرارة اليتم وفقد الكفيل ، ولم يكن ينتظر لو ان امه لا تزال بين الأحياء ان تعامله وترعاه بأفضل مما كانت تعامله وترعاه فاطمة بنت اسد .

وبقي علي (ع) في رعاية امه الى ان بلغ الثامنة من عمره وكان محمد بن عبد الله قد تزوج من خديجة وأنجبت له بنين وبنات فاتفق ان اصابت قريشا ازمة شحت فيها موارد العيش وكان وقعها شديدا على ابي طالب لانه كان كثير العيال وفي قلة من المال لا يفي بنفقة رجل مثله ، فقال محمد لعميه الحمزة والعباس : ألا نحمل ثقل ابي طالب في

هذا المحل ، فجاؤوا اليه وسألوه ان يسلمهم ولده ليكفوه امرهم ، فقال دعوا لي عقيلا وخذوا من شئتم ، فأخذ العباس طالبا وحمزة جعفرا ومحمد عليا ، وجاء عنه انه قال : لقد اخترت من اختاره الله لي عليكم، وكان علي يوم ذاك في الثامنة او السادسة من عمره . وظل معه وفي رعايته يرعاه وينفق عليه ويتعاهده بالتعليم والتوجيه ويبث في روحه من دقائق الحكمة وأسرار الكون والمعرفة حتى ادرك من الحقائق ما لم يدركه بعد رسول الله احد غيره ، ولم تكن فيه صفة الا وهي مشدودة الى صفة من صفات النبي (ص) ، وما من شيء أنكره قلب رسول الله من أحوال الجاهلية وسيئاتها قبل مبعثه الا وأنكره قلب علي فأدرك ما يحيط بهذا الكون من حقائق وجوده ونواميس بقائه وأصبح المثل الاعلى في جميع صفاته ومواهبه وهو القائل لقد عبدت الله قبل ان يعبده احد من هذه الامة بسبع سنين وقد اجمع محبوه وشانئوه على السواء على انه أعلم المسلمين وأقضاهم وأشجعهم وأكثرهم عبادة وزهدا وأوفرهم ادراكا وعقلا وأعظمهم بلاء وجهادا وأحرصهم على اقامة العدل وانتشاره بين الناس وإنصاف المظلومين وأقربهم الى الله وأدناهم من معرفته .

وقيل لابن عمه عبد الله بن العباس وهو حبر الامة :

اين علمك من علم ابن عمك علي بن ابي طالب فقال كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط .

لقد التحق علي (ع) بالنبي (ص) وهو في مطلع صباه وطفولته وكان يثب الى النمو وثبا ويسبق الزمن الى مرحلة التكامل ، وقفز من مرحلة الطفولة الى اكتمال الرجولة وتكامل المواهب وهو لا يزال في سن الصبا في الثالثة عشرة من عمره او اكثر من ذلك بقليل ، وهو في هذا السن المبكر كانت الدعوة التي صدع لها ابن عمه محمد بن عبد الله ، فاستقبلها بشوق ولهفة وكأنها كانت امنيته الضائعة وأمله المنشود ،

واحتضنها بايمان راسخ وقلب مفتوح لكل تعاليمها وأصولها وأحكامها.

وظل الى جانب الرسول في ليله ونهاره لا يفوته شيء من أخبار السماء الا ما كان من مختصات النبوة حتى بلغ القمة في جميع أطواره ومواهبه وصفاته .

ولا اجدني مغاليا بل ولا اظن احدا يتهمني بالغلو اذا قلت : ان الاسلام بروحه ومعناه كان من ابرز سماته وصفاته لانه تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الاسلامية وكان ينفعل بصاحبها في تأملاته وتفكيره الموصول بالليل والنهار في الكون وأسراره وفي الحياة وتقلباتها وفي شؤون الناس وأحوال الجماعات الغارقة في الضلال والسفه والمجون ، فابتعد عن اساطيرهم وخرافاتهم وضلالهم ، وكانت مواقف محمد قبل الدعوة هي التي تشده اليه اكثر مما كانت تشده قرابة النسب ولم يتسع قلبه لغير محمد وتأملاته ومواهبه ودعوته ، ولم يعرف الدين الجديد أصدق اسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه ولا رجلا وهب حياته ووجوده وكل طاقاته الفكرية والجسدية غيره كما اتفق على ذلك جميع المؤرخين والمحدثين بل وحتى اعدائه الألداء . وكان وسيبقى المثل الاعلى للمسلم الذي يجسد تعاليم القرآن وسيرة الرسول العظيم وخلقه الكريم في جميع اقواله وأفعاله وجميع تصرفاته بنظر جميع الباحثين والمؤلفين على اختلاف نزعاتهم وأهوائهم ومذاهبهم ، وحتى عشاق الاساطير والاعاجيب ، فقد بلغ من تعظيمهم له ان نسبوا اليه من الخوارق ما لا تتحمله العقول ومن الأنداد والمناجزين له في الحروب ما لم يخلقهم الله ، وغالى فيه اقوام حتى رفعوه الى مرتبة الآلهة فعبدوه من دون الله وأصروا على غلوهم فيه وهو يسوقهم الى نار اضرمها ليحرقهم فيها ، وهذا ما لم يتفق لأحد سواه ، واجتهد الامويون طيلة حكمهم بكل الاساليب ليقنعوا احدا من الناس ولو بعيب مفتعل يلصقونه به فارتدّوا على أعقابهم خاسرين مدحورين حتى

قال القائل : ما اقول فيمن احجم شيعته عن التحدث بفضائله خوفا من القتل والتشريد ، وكتم اعداؤه فضله حسدا وبغيا وظهر من بين ذا وذا ما ملأ الخافقين .

وحتى غلاة الخوارج الذين سبوه وكفروه كما سبه الامويون لم يستطيعوا ان ينسبوا اليه سوى الخطأ في التحكيم عندما رفع اعداؤه المصاحف على رؤوس الرماح طالبين وقف القتال والرجوع الى حكم القرآن ليستروا بذلك ضلالهم وجحودهم للقرآن وأصول الاسلام .

وسلام الله على رسوله الامين الذي اخبر بأكثر مما جرى عليه من محبيه وشانئيه حيث قال له :

يا علي هلك فيك اثنان محب غالٍ ومبغض قال .

وقد اشار الى هذين الفريقين بقوله : يحبني اقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني آخرون فيدخلوا النار في بغضي .

وقال العقاد في عبقريته وهو يتحدث عنه وعن اختلاف الناس فيه : ان هذا الميدان من الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه في تاريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء يقول اناس انه إله وأناس انه كافر مطرود من رحمة الله .

صفاته

لقد اتفق واصفوه على انه اول هاشمي ولد من ابوين هاشميين ، فهو ابن عبد مناف المعروف بأبي طالب بن عبد المطلب ، وأمه فاطمة بنت اسد بن هاشم ، وقد اجتمعت فيه خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الاسرة كالنبل والشجاعة والقوة والمروءة والذكاء عدا ما اختصه الله به من المواهب والنواحي الروحية التي لم تتوفر في احد سواه .

وجاء في الاصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر في صفاته الجسدية انه كان ربعة أميل الى القصر اسمر شديد السمرة أصلع الرأس ثقيل العينين في دعج وسعة حسن الوجه واضح البشاشة أغيد كانما عنقه ابريق فضة عريض المنكبين له مشاش كمشاش السبع [1] الضاري لا يتبين عضده من ساعده قد ادمجت ادماجا كبير البطن يميل الى السمنة من غير افراط ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع شثن الكفين يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية الرسول (ص) مقدام في الحرب يقدم مهرولا لا يلوي على شيء [2] .

---

١ ــ المشاش راس العظم .
٢ ــ الاصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر .

اسلام علي (ع)

لقد بعث النبي (ص) وهو في الاربعين من عمره ، وقيل في الثالثة والاربعين وكانت خديجة اول من أسلم ولم تتردد في الايمان برسالته لحظة واحدة ومضت تراقب تحركات قريش وتسهر على راحة زوجها بمالها وجميع طاقاتها .

وجاء في تاريخ اليعقوبي انه حينما افترض الله على رسوله الصلاة اتاه جبرائيل فأراه الوضوء فتوضأ رسول الله كما توضأ جبرائيل ثم صلى ليريه كيف يصلي ، وأضاف الى ذلك ان اول صلاة صلاها رسول الله هي صلاة الظهر وكان ذلك في يوم الجمعة فأتى خديجة بنت خويلد وأخبرها فتوضأت وصلت كما نص على ذلك ابن خلدون في تاريخه وغيره ممن كتبوا في سيرة الرسول (ص) وتاريخ دعوته فكانت السيدة الكبرى خديجة بنت خويلد اول من اسلم وآمن بدعوة الرسول وجاهد في سبيلها بكل ما تملك من مال وقوة وجاه .

واتفق جميع المؤرخين والمحدثين على ان عليا (ع) هو اول من اسلم من الرجال ، وبعده بدأ الاسلام يشق طريقه الى النفوس والقلوب ، واختلفوا في عمره يوم اسلامه فقيل ولعله الارجح انه كان في الخامسة

عشرة من عمره كما جاء في رواية الحسن البصري ورجح ذلك جماعة من المؤرخين والمحدثين .

ويظهر من رواية الكليني في الكافي ان عمره يوم اسلم كان يتراوح بين العاشرة والثالثة عشرة، وجاء في روايتي حذيفة بن اليمان وابن ابي شيبة انه اسلم وهو ابن اربعة عشر عاما .

وذهب الجاحظ الى انه اسلم وهو ابن سبع سنين ، واعتمد الجاحظ في ذلك على اختلاف الروايات وتضاربها حول اسلامه واعتبره قولا وسطا على حد زعم بعض المؤلفين ، في حين ان الروايات التي تحدثت عن اسلامه لا تشير الى ذلك من قريب او بعيد ، ولم يذهب اليه احد غير الجاحظ ، وقد تعرض لهجوم عنيف من بعض المؤرخين والمحدثين ووصفوه بالجهل ومعاندة الحق على حد تعبير ابي جعفر الاسكافي كما جاء في شرح النهج [1] . ومضى الاسكافي في رده على الجاحظية يقول : وقد علم الصغير والكبير والعالم والجاهل ان عليا لم يولد في دار الاسلام واستضافه رسول الله (ص) الى نفسه سنة القحط والمجاعة وعمره يوم ذاك ثمان سنوات فمكث معه سبع سنين ولم يكن حينذاك دعوة ولا نبوة وانما كان رسول الله يتعبد على ملة ابراهيم ودين الحنيفية ويتحنث ويجانب الناس ، وكان علي يتابعه ، فلما بلغ الحلم وبعث النبي (ص) دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة لا عن تقليد كما يصنع الصبيان ابناء السبع او التسع .

وجاء في بعض المرويات ان النبي (ص) بعث يوم الاثنين وصلى معه علي يوم الثلاثاء الى غير ذلك مما قيل حول اسلامه، ويبدو من الجاحظية وأتباعهم الذين ذهبوا الى انه اسلم وهو صبي بين السابعة والعاشرة ،

---

١ ــ انظر ص ٢٦٤ وص ٢٦٥ من المجلد الثالث .

يبدو انهم يريدون من ذلك ان ينتقصوا من اسلامه وانه اسلم عن تقليد ومحاكاة كما هو الشأن في اكثر تصرفات الصبيان ، اما غيره كأبي بكر فقد اسلم وهو كامل العقل والادراك عن قناعة واطمئنان .

ومهما كان الحال فلقد حاول اعداء اهل البيت ان ينالوا منه ولو بهذه الاساليب الملتوية بعد ان يئسوا من وجود عيب يخدش تاريخه الحافل بالجهاد والتضحيات والبطولات ، ولو افترضنا انه اسلم وهو في مطلع الصبا كما يدعون ، فلم يتردد احد حتى من اعدائه في انه قد رافق الدعوة منذ ان بزغ فجرها ، وحماها هو ووالده من كيد الاعداء وجبابرة قريش الاشداء الذين تألبوا عليها منذ مطلعها وعاش عمره بكامله للاسلام والحق والخير لجميع الناس كما عاش والده بقية عمره لحماية محمد ودعوته من طغاة العرب ووضع جميع امكانياته وطاقاته في سبيل رسالة محمد وانتشارها وخرج من هذه الدنيا مؤمنا بها صادقا في ايمانه لم يتردد في ذلك طرفة عين ابدا كما اثبتنا ذلك بالادلة القاطعة في كتابنا سيرة المصطفى .

وقال العقاد في كتابه عبقرية الإمام صفحة ٣٨ : ولد علي في داخل الكعبة وكرم الله وجهه عن السجود لاصنامها فكأنما كان ميلاده ثمة ايذانا بعهد جديد للكعبة والعبادة فيها ، بل قد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح لانه فتح عينيه على الاسلام وعرف العبادة في صلاة محمد وزوجه الطاهرة قبل ان يعرفها من صلاة ابيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة اوثق من محبة القرابة فكان ابن عم محمد وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره ، وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم فلا جرم ان يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ويجمعه به بيت، ويجمعه به جميل معروف وهو جميل ابي طالب يؤديه محمد ويحسه ابن ابي طالب ويأوي اليه ، ومضى يقول : لقد ملأ الدين الجديد قلبا لم

ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه فبحق ما يقال : ان عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى وان الدين الجديد لم يعرف قط احدا أصدق اسلاما ولا أعمق نفاذا منه ، ورجح ان اسلامه كان في العاشرة من عمره لانه كان يناهزها عند اعلان الدعوة على حد تعبيره • ومهما كان الحال فلم يتردد احد في سبقه الى الاسلام والايمان برسالة محمد بن عبد الله الا بعض من اعمى التعصب قلوبهم، فقالوا بأنه كان اصغرهم سنا في حساب الاعوام والشهور •

ومع ان الروايات لم تتفق على سنه يوم اسلامه وظهرت فيها نزعات مختلفة ، ولكن من مجموعها يستطيع الباحث ان يجزم بأنه كان في مطلع شبابه •

وجاء في صحيح ابن ماجة انه كان يقول : انا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصديق الاكبر لا يقولها بعدي الا كذاب صليت قبل الناس سبع سنين ورواها الحاكم في مستدركه والطبري في تاريخه •

وفي مسند احمد عن علي (ع) انه قال : ظهر علينا ابو طالب وأنا مع رسول الله ونحن نصلي ببطن نخلة ، فقال ماذا تصنعان يا ابن اخي؟ فأخبره رسول الله ودعاه الى الاسلام ، فقال ما بالذي تصنعان من بأس ، وأضاف الى ذلك الراوي ان عليا (ع) قال : اللهم لا اعرف ان عبدا لك من هذه الامة عبدك قبلي غير نبيك لقد صليت قبل ان يصلي الناس سبعا ، وأكد مضمون هذه الرواية كل من النسائي وصاحب كنز العمال في المجلد السادس من كنزه •

وأضاف الى ذلك ان ابن مسعود كان يقول : اول شيء علمته من امر رسول الله (ص) اني قدمت مكة مع عمومة لي فأرشدنا الى العباس ابن عبد المطلب فاتتهينا اليه وهو جالس الى زمزم فجلسنا الى جانبه فبينا نحن عنده اذ اقبل رجل من باب الصفا ابيض تعلوه حمرة له وفرة جعدة

الى انصاف اذنيه اقنى الانف براق الثنايا ادعج العينين كث اللحيـــة دقيق المسربة شثن الكفين والقدمين عليه ثوبان ابيضان كأنه القمر ليلة البدر يمشي على يمينه غلام امرد حسن الوجه مراهق او محتلم تقفوه امرأة قد سترت محاسنها فقصد الحجر واستلمه الغلام والمرأة وطافا معه، قلنا يا ابا الفضل : ما هذا الذي لم نكن نعرفه فيكم اوشـــيء حدث ؟ قال : هذا ابن اخي محمد بن عبد الله والغلام الذي معه علي بن ابـــي طالب والمرأة هي زوجته خديجة بنت خويلد ، اما والله ما على وجـــه الارض من احد نعلمه يعبد الله بهذا الدين الا هؤلاء الثلاثة .

وأضاف الى ذلك الهيثمي في مجمع الزوائد انهم بعد ان استلموا الركن وقف الرجل والغلام عن يمينه والمرأة خلفهما فكبر الرجل والغلام ورفعت المرأة يديها وكبرت وأطال الرجل القيام وهما يتابعانه ثم ركـــع وركعا معه وسجد وسجدا معه وكانا يصنعان مثلما يصنع حتى فرغ من صلاته ، فقال العباس : والله ما على وجه الارض احد يعبد الله بهـــذا الدين الا هؤلاء الثلاثة .

وقد اطال الحديث ابو جعفر الاسكافي مع الذيـــن حاولوا انتقاص اسلامه بحجة انه كان في سن مبكر لا يتعدى سن الطفولة ، وادعى بأنه كان في مصاف الرجال ، وأيد ذلك بما شاع بين الرواة من ان النبي(ص) في مطلع الدعوة قد امره الله بأن يدعو آله وعشيرته الى الاسلام فدعاهم النبي وصنع لهم طعاما ، فلما اجتمعوا وأكلوا دعاهم الى الاسلام وقال أيكم يؤازرني على هذا الامر ويكون اخي ووصي وخليفتي من بعدي فأحجموا كلهم ولم يستجب احد لطلبه غير علي (ع) وكرر النبي دعوته لهم وفي كل مرة لم يستجب لطلبه غير علي ، وكان علي (ع) يتولـــى تحضير الطعام وادارة الاجتماع ، وفي المرة الثالثـــة قال له النبي بحضورهم انت اخي ووصي ووارثي وخليفتي من بعدي . فقاموا من مجلسه يسخرون ويضحكون . ومضى الاسكافي يقول : فهل يكلف

عمل الطعام ودعوة القوم صغير غير مميز في حدود السابعة او العاشرة كما يدعون وهل يؤتمن على سر النبوة غلام في مثل هذه السن ، ثم يكلف بدعوة الشيوخ والكهول لعمل من هذا النوع ، وهل يضع النبي (ص) يده في يده ويجعله اخاه ووصيه وخليفته من بعده الا اذا كان اهلا لتحمل المسؤولية ، ومسؤولا عن تعهداته والتزاماته ، والنبي (ص) يعرف بأن عليا اذا لم يكن كامل الرجولة والادراك كما يزعمون ويحس احساسا كاملا بالمسؤولية سيتعرض للنقد والسخرية حتى من ذويه وآله الاقربين الى غير ذلك مما رد به الاسكافي رحمه الله على الجاحظ وأبي بكر بن الأصم وغيرهما ممن حاولوا ان ينتقصوا من اسلام علي (ع) وتفضيل اسلام ابي بكر عليه .

وبلا شك بأن هؤلاء لو وجدوا سبيلا ولو اوهى من بيت العنكبوت للقول بأن ابا بكر قد سبقه الاسلام لم يترددوا في عرضه وتأييده بكل ما يملكون من المغالطات واللف والدوران كما هي عادتهم عندما يجدون مجالا لذلك ولكن تواتر الروايات واجماع المحدثين على انه كان المسلم الاول من الرجال حال بينهم وبين ما يشتهون ، ولم يبق لديهم الا محاولة انتقاص اسلامه بهذا الاسلوب .

وجاء في خطبة للامام علي (ع) في شرح النهج يصف فيها اسلامه وصلته بالرسول منذ طفولته قال فيها : وقد علمتم موقعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني الى صدره ويكتنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ، ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به سبل المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره ، وكنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه

غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما ، ارى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة ، ولقد سمعت رنة الشيطان فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة ؟ فقال هذا الشيطان قد يئس من عبادته انك تسمع ما اسمع وترى ما ارى الا انك لست بنبي ولكنك الوزير وأنك لعلى خير .

وجاء في رواية المجلسي في البحار عن علي بن ابراهيم ان جعفر ابن ابي طالب اسلم بعد اخيه علي (ع) وبعدهما اسلم زيد بن حارثة ، وأسلم ابو بكر بعدهم ، ومضى الراوي يقول : ان ابا طالب دخل البيت الذي فيه رسول الله وكان معه ولده جعفر فوجد النبي يصلي وعلي وخديجة يصليان خلفه فقال لولده جعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك فانضم اليهما جعفر ووقف يصلي معهما الى الجانب الآخر .

وروي في شرح النهج ان ابا طالب فقد النبي في بعض الايام فذهب في طلبه فوجده يصلي في بعض شباب مكة وعلي عن يمينه وكان معه ولده جعفر فقال له : تقدم وصل جناح ابن عمك فتقدم ووقف الى يسار النبي (ص) فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله وتأخر علي وجعفر فبكى ابو طالب وقال :

ان عليا وجعفرا ثقتي ... عند ملم الخطوب والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما ... اخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا اخذل النبي ولا ... يخذله من بني ذو حسب

وجاء في بعض المرويات ان المسلم الثاني بعد علي هو ابو بكر ، وفي بعضها الآخر انه زيد بن حارثة ، وأكثر الروايات تنص على ان اسلام زيد وجعفر كان قبل اسلام ابي بكر ، ومن المتيقن ان هؤلاء الثلاثة كانوا من السابقين للاسلام ، وقد دخلوا فيه في وقت مبكر من تاريخ الدعوة وفي ازمنة متقاربة .

ويدعي جماعة من المؤرخين والمؤلفين في سيرة الرسول ان ابا بكر

لم يكن من السابقين الى الاسلام فحسب بل كان من الدعاة اليه وقد اسلم بواسطته عدد كبير منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وطلحة بن عبيد وعبيدة بن الجراح وغيرهم من الصحابة الاوائل كما يرى ذلك صاحب السيرة الحلبية وغيره اعتمادا على رواية اسماء بنت ابي بكر ، وجاء فيها انها قالت : ما عرفت ابي الا وهو يدين بهذا الدين ولقد رجع الينا يوم اسلم فدعانا الى الاسلام فأسلمنا وأسلم اكثر جلسائه ومنهم خمسة من اهل الشورى كلهم يصلح للخلافة وهم أكفاء علي ، وانطلق هؤلاء من هذه الرواية الى ان اسلامه وان كان متأخرا عن اسلام علي وزيد وجعفر الا انه كان اكثر نفعا وفائدة للاسلام من غيره على حد تعبيرهم .

وقد فند هذه المزاعم جماعة من المتكلمين والمحدثين واستعرضوا احوال ابي بكر يوم اسلم وصلاته بهؤلاء الاشخاص وغيرهم استعراضا دقيقا ، وكيف استطاع ان يؤثر على هؤلاء ويهيمن عليهم مع انهم ليسوا من جلسائه ولا من اصحابه ولم يستطع ان يؤثر على ابيه وابنه عبد الرحمن وزوجته نملة بنت عبد العزيز وغيرهم من جلسائه الذين ظلوا على شركهم الى السنة الثامنة من هجرة النبي (ص) .

هذا بالاضافة الى ان اسماء بنت ابي بكر التي نسبت لابيها هذه الجهود كان لها من العمر اربع سنوات على ابعد التقادير ، وبنت السنتين او الاربعة لا تعقل شيئا من هذه الامور ولا تكلف بشيء مما يرجح ان الرواية موضوعة على لسانها وقد تحدثنا عن هذه النواحي مفصلا في كتابنا سيرة المصطفى وعرضنا فيه ما قيل وما يمكن ان يقال في تفنيد مزاعم هؤلاء [1] .

---

١ ــ انظر كتابنا سيرة المصطفى عن المجلد الثالث من شرح النهج لابن ابي الحديد .

النص عليه في بداية الدعوة يوم الدار

لقد كان النبي (ص) في فجر الدعوة يضع في حسابه ان دعوته ستقابل بالرفض والتحدي بكل الاساليب وكان يتمنى لآله وعشيرته وكل من يتصل به بنسب او سبب ان يدخلوا فيما دخل فيه اولئك الذين كانوا يتسترون في اسلامهم خوفا من قريش وأحلافها الاشداء ، كان يتمنى ذلك لان آله وعشيرته يشكلون قوة في مكة ولهم مكانتهم في الداخل والخارج ، فاذا دخلوا في الاسلام وناصروه يصبح مرهوب الجانب وفي منعة من اعدائه ولكنه مع ما كان يرجوه ويتمناه لهم كان يخشى أن يرفضوا دعوته اذا دعاهم الى الاسلام وينضموا الى غيرهم من المكذبين له والمستهزئين به ويتخذ المشركون من موقفهم السلبي من دعوته ذريعة لاغراء العامة والسفهاء به ، وبعد ان انزل الله عليه الآية :

وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون .

لم يجد بدا من دعوتهم الى الاسلام ، فصعد الصفا كما جاء في بعض المرويات وصاح يا بني عبد المطلب ويا بني عبد مناف فاجتمعوا اليه وقالوا مالك يا محمد قال : ارأيتم لو اخبرتكم ان خيلا تخرج من

سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ، قالوا بلى انت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا ، فقال : اني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال له عمه ابو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا فأنزل الله عليه : تبت يدا ابي لهب وتب ما اغنى عنه ماله وما كسب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد .

والذي اتفق عليه اكثر المؤرخين والمحدثين انه لما امره الله ان ينذر عشيرته الأقربين دعا عليا وقال له : اصنع لي صاعا من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن واجمع لي بني عبد المطلب حتى اكلمهم وأبلغهم ما امرت به ، ففعل علي (ع) ما امره به ثم دعاهم وهم اربعون رجلا يزيدون رجلا او ينقصون رجلا على حد تعبير الراوي ، وفيهم اعمامه ابو طالب والحمزة والعباس وأبو لهب وغيرهم من اعمامه وبني عمومته ، فاحضر علي لهم الطعام ووضعه بين ايديهم وكان بامكان الرجل الواحد ان يأكله بكامله ، فتهامسوا وتبادلوا النظرات الساخرة من تلك المائدة التي لا تقوم حسب العادة لاكثر من رجلين او ثلاثة رجال ، ثم مدوا ايديهم اليها وجعلوا يأكلون ولا يبدو عليها النقص حتى شبعوا وبقي من الطعام ما يكفي لغيرهم وتبادلوا النظرات كالمدهوشين ، ثم شربوا من ذلك اللبن وبقي ما يكفي غيرهم ، ولم يستطع عمه ابو لهب ان يكتم ما بنفسه من الحقد والكراهية لمحمد ، وكان النبي (ص) قد استعد للحديث معهم عن الاسلام ، فسبقه ابو لهب والتفت الى اخوته وبني عمه وهم لا يزالون في حيرة من امر ذلك الطعام القليل وقال لقد سحركم محمد بما ترون .

وقال الاستاذ عبد الفتاح وهو يتحدث عن هذا الموقف من مواقف ابي لهب ، قال : فلم يلق اليه النبي بالا ، انه ليعلم مآتي حقده على كل حال لان النساء وحي الازواج ، وما كان ابو لهب ليتخذ غير موقفه هذا وزوجته ام جميل بنت حرب بن أمية ، وما كان لتبقى له هاشميته وقد

نام مع سليلة الأضغان في فراش واحد [1] .

وتنص اكثر الروايات ان القوم انصرفوا قبل ان يكلمهم النبي بشيء عن الاسلام ، وبعد ايام قال لعلي(ع) : يا علي قد رأيت كيف سبقني هذا الرجل الى الكلام ، فاصنع لنا طعاما في غد واجمعهم كما جمعتهم اولا ، فبادر علي الى تنفيذ امر النبي ودعاهم الى الطعام كما فعل في المـــرة الاولى ، فلما اكلوا وشربوا قال لهم النبي (ص) :

ما اعلم انسانا من العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم ، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد امرني ربي ان ادعوكم الى الاسلام .

ثم عرض عليهم أصول الاسلام وقال :

أيكم يؤازرني على هذا الامر على ان يكون اخي ووصي وخليفتي فيكم من بعدي .

فسكتوا ولم يتكلم منهم احد فقام علي وكان احدثهم سنا وأرمضهم عينا وأحمشهم ساقا وقال :

انا يا رسول الله .

فأعاد عليهم الحديث ثانيا وثالثا وفي كل مرة لا يجيبه غير علي (ع)، فلما رأى إحجامهم اخذ برقبة علي وقال :

ان هذا اخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا .

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد امرك محمد ان تسمع لابنك وتطيع [2] .

وقد روي حديث دعوة النبي لعشيرته وقوله لعلي بهذه المناسبة انت اخي ووصي وخليفتي فيكم من بعدي في كنز العمال ، والبيهقي فـــي الدلائل وابن جرير الطبري جـ٢ ص ٦٢ ، والامام احمد في مسنده [3].

---

١ ــ انظر ص ٤٥ من المجلد الاول منشورات مكتبة العرفان .
٢ ــ تاريخ ابي الفداء جـ١ ــ جـ٢ ص ١٤ و١٥ .
٣ ــ فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ١ ص ٣٣٥ .

وجاء في تاريخ الطبري انهم بعد ان اكلوا وشربوا قال لهم النبي **ايكم يؤازرني على ان يكون اخي ووصي وخليفتي من بعدي .**
فأحجم القوم جميعا فقال علي :
انا يا رسول الله .
فأخذ برقبته وقال :
هذا اخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا .
فقاموا يضحكون ويقولون لابي طالب قد امرك ان تسمع لابنك وتطيع [1] .

وروى هذا الحديث بالنص الذي رواه الطبري ابن الاثير في الجزء الثالث من الكامل الطبعة القديمة ومحمد حسين هيكل في الطبعة الاولى من كتابه حياة محمد ومحمد عبد الله عنان في كتابه تاريخ الجمعيات . ولكن هيكل في الطبعة الثانية وما بعدها قد مسخ الحديث وحذف منه كلمة خليفتي من بعدي في مقابل خمسماية جنيه اخذها ثمنا لهذا التحريف ، ويدعي المعلق على المجلد الثاني من أعيان الشيعة ان هيكل رفض التحريف اولا ، وبعد ان ساوموه على شراء الف نسخة من الكتاب وافق على ذلك ورواه في الطبعة الثانية وما بعدها بدون كلمة خليفتي من بعدي .

وجاء في تفسير الكاشف وهو يتحدث عن تفسير الآية ان من الذين رووا نص النبي على علي (ع) بحضور تلك المجموعة من ذويه وعشيرته كل من النسائي والثعلبي في تفسيره والسيوطي والبغوي وصاحب السيرة الحلبية في سيرته .

ومجمل القول ان حديث النبي مع عشيرته بالنص الذي ذكرناه قد

---

١ ــ انظر ص ١١٧ من المجلد الثاني طبعة دار القاموس .

رواه بالاضافة الى جميع محدثي الشيعة جماعة من مشاهير محدثي السنّة واشتهر عند جميع المحدثين بالصيغة التي ذكرناها ، وقد حاول بعض علمائهم كابن تيمية وغيره من حشوية السنّة والمتعصبين ، التشكيك في الصيغة التي ذكرناها ، محتجين لذلك بأن بعض الأسانيد التي روي بها الحديث المذكور قد اشتمل على اشخاص يميلون للتشيع لانهم يروون بعض الفضائل لعلي وبنيه ، في حين ان هذا الشخص الذي يروي من فضائل علي (ع) لو روى فضيلة لغيره من كبار الصحابة وحتى لمعاوية بن هند يفتحون لها صدورهم كما يبدو ذلك بعد التتبع في مجاميع الحديث السنية .

ويجد المتتبع في مؤلفات السنّة في الرجال وعلم الدراية عشرات الرواة من رجالهم يقفون من مروياتهم موقفا يتسم بالحذر والتشكيك لا لشيء الا لانهم يفضلون عليا على معاوية ويردون له بعض الفضائل والمواقف التي تخدم مصلحة الإعلام ، في حين انهم لا يتهمون احدا بالكذب ممن يروي الغرائب لغير اهل البيت وحتى المستحيلات والخوارق .

وعندما يتحدثون عن احوال الرواة في مؤلفاتهم المخصصة لذلك يصنفون الشيعة الى الاصناف الاربعة التالية :

شيعي اذا روى من فضائل علي وبنيه ومغالٍ في التشيع اذا فضله على معاوية وغيره من اعيان الصحابة ، ورفضي اذا كان من القائلين بأنه أحق بالخلافة بعد رسول الله وقد نص عليه الرسول بذلك ، ومغالٍ في الرفض اذا كان ممن يتهم كبار الصحابة بتجاوز الحدود التي وضعها رسول الله . ومهما كان الحال فلقد مضى علي (ع) في الاعوام التي قضاها النبي (ص) في مكة مع النبي مقتديا به في الاحوال كلها بحيث لو اراد الكاتب المعتدل ان يكتب عن النبي (ص) يرى الحديث عن علي (ع) مفروضا عليه لانه رافق جميع الاحداث التي مرت بها الدعوة

وتحمل من اعبائها ، فكان اول معتنقيها بعد خديجة سيدة المسلمات الاوائل وصحبها وهو فتى بادي العنفوان وقد اوشكت على الانتشار بالرغم مما احيط بتلك الحفنة القليلة التي تألفت منها اولى كتائب المسلمين من التعذيب والتنكيل ، وشهد علي من اساليب التعذيب مشاهد كان يتحرق من هولها ويتمنى لو يسمح له النبي بأن يشفي غليله من اولئك الطغاة وينتقم منهم لأولئك المعذبين .

لقد مر ببطحاء مكة فرأى بلال الحبشي على الرمضاء في حر الظهيرة وقد وضع أمية بن خلف صخرة على صدره وهو يقول : لا واللات والعزى لا تزال هكذا حتى تكفر برب محمد وتعود الى الهتنا ، وبلال لا يزيد في جوابه على كلمة احد احد ، ومر يوما مع النبي (ص) على عمار بن ياسر بين ابويه وقد اجتمع عليهم بنو مخزوم يلهبون ظهورهم بالسياط ليكفروا بآلهة محمد فجعل النبي يقول صبرا يا ابا اليقظان اللهم لا تعذب احدا من آل عمار . واشتد عليهم التعذيب حتى ماتت امه بطعنة من ابي جهل برمحه تركتها على الرمال جثة هامدة ، ومات ابوه من الم السياط وعلي يتلوى لان النبي لم يسمح له بأن ينتقم لهما، ورأى ما كان يصنعه طغاة قريش مع غيرهم من المستضعفين من الرجال والنساء كصهيب وخباب وغيرهما من المسلمين الاوائل من العسف والجور ، فلا يمكث الا ان يعصر قلبه ويراود نفسه على الصبر مخافة ان يخرج بها الغضب لهؤلاء وغيرهم عما رسمه النبي (ص) في تبليغ رسالة ربه من اتهاج طريق السلم والحكمة والصبر ومقابلة العدوان والقسوة بالرحمة واللين . ويمضي كاظما غيظه ينتظر الزمان الذي يسمح له بالاقتصاص من اولئك الطغاة وقريش تتمادى في غيها كلما تمادى محمد في أسلوبه الهادف الى مقابلة العدوان بالتسامح والشدة باللين والجفاء بالتودد وهو يقول اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

علي في شعب ابي طالب

لقد فشلت قريش وأحلافها في جميع الاساليب التي استعملتها مع محمد وأتباعه من المسلمين الاوائل ولم تجدهم نفعا جميع وسائل الاغراء والارهاب والتعذيب ، وأيقنت ان جميع ما قامت به من جهود لارغام محمد على التخلي عن دعوته وارغام اصحابه على التفرق عنه وارجاعهم الى دين الآباء والاجداد قد باءت بالفشل ورأت ان محمدا وأتباعه يزدادون صلابة وقوة يوما بعد يوم وأكثر بني هاشم حتى من بقي منهم يتظاهر بتقديس الاصنام مجاراة لقريش لن يسلموا محمدا ، وقدرت ان ليس بامكانها ان تستأصل محمدا وأصحابه وفيهم علي والحمزة الا بحرب شاملة ستتحمل قريش وأحلافها القسط الاكبر من نتائجها السيئة المريرة .

لقد رأت قريش انها بعد جهادها محمدا وأصحابه خلال سبع سنوات تقريبا وكأنها تدفع به وبدعوته الى الامام ، فما من بيت الا وفيه من آمن بمحمد ودعوته وامتد خطرها الى خارج مكة وحتى الى خارج الحجاز في الحبشة حيث يقيم فيها عدد من المسلمين في جوار ملك رحيم بهم قد فتح لهم قلبه وصدره وأتاح لهم بيسر وسهولة ان يمارسوا

دينهم الجديد ويحدثوا عنه في الاندية وفي كل مكان ، والحبشة احدى متاجر المكيين وفيها يروحون ويغدون . وبالاضافة الى ذلك لقد تسامع القريب والبعيد بدين محمد ومحاسنه التي لم تعرفها الاديان على اختلافها . وكانت الخصومات المحلية والخلافات الجانبية بين بني هاشم وغيرهم تشد اصحاب النفوذ والجاه من قريش وغيرها على تصعيد المعارضة لمحمد ودينه كما يبدو ذلك من جواب الحكم بن هشام احد القادة في مكة الى الأخنس بن شريف ، وقد استمع ذات يوم في خلوة من الناس ومعه ابو سفيان الى حديث محمد وآيات كان يرتلها من القرآن ، وقد اعجبا وأدهشا بكل ما سمعاه ولم يجدا له نظيرا من احاديث الكهان ولا من اراجيز العرب وأشعارهم وخطبهم ، وقد سأل الأخنس بعد هذا الموقف ابا سفيان فقال له وهو لا يستطيع ان يخفي اعجابه ، والله لقد سمعت اشياء عرفت ما يراد منها وسمعت اشياء ولم اعرف معناها ولا ما يراد منها ، وتركه الأخنس وعاد الى الحكم بن هشام ليسأله عن موقفه من محمد بعد ان سمع منه وأعجب بكل ما سمع، فقال له الأخنس : وأنت ما رأيك فيما سمعت ؟ فلوى الرجل شفتيه باستياء وموجدة وأبى عليه حقده الا ان يقول : ماذا سمعت لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به ابدا ولا نصدقه في شيء مما يدعو اليه .

بهذه الروح اللئيمة كانت قريش ومخزوم وغيرهما من قبائل مكة ينظرون الى محمد ودعوته ويعملون بكل ما لديهم من وسائل العنف للقضاء عليها قبل ان يستفحل خطرها ولا يعود لهم طاقة بها .

وبعد ان فشلت كل الاساليب التي استعملوها من قبل اتفقوا بعد تفكير طويل على مقاطعة بني هاشم وأتباعهم وحصرهم في مكان واحد

وقطع جميع وسائل العيش عنهم الى ان يتراجع محمد وأتباعه او يموتوا جوعا وعطشا . وتم الاتفاق بين الجميع على ذلك وكتبوا بذلك كتابا تعاقدوا فيه على ان لا يتبادلوا الزواج ولا البيع والشراء ولا الاجتماع على امر من الامور ، ولا يمكنوهم من شراء المأكـــولات مهما كانت النتائج ووقعه اربعون من زعماء مكة ووضعوه في الكعبة وحصروهم في شعب ابي طالب وذلك في اول المحرم من السنة السابعـــة لمبعث النبي (ص) واستمر الحصار نحوا من سنتين او ثلاث على حد تعبير بعض المؤرخين ، وبدأت الضائقة تحيط بالهاشميين بعد اشهر قليلات مـــن الحصار حيث نفدت خلالها اكثر المواد التي كانت معهم واشتد اثرها على الاطفال والنساء وتعالى صراخهم من الجوع في اكثر الاحيان ، ولـم يصل اليهم الا القليل النادر مما كان يحمله اليهم هشام بن عمر بن ربيعة وغيره في جوف الليل ، ولم تترك قريش طعاما في مكة الا واشترته من اهله بأغلى الاثمان مخافة ان يتسرب منه شيء الى الهاشميين ، وما كان يتسرب اليهم في جنح الظلام لم يكن ليسد حاجة الاطفـــال والنساء ، واشتدت الضائقة عليهم حتى اضطرتهم الى اكـــــل الاعشاب وورق الاشجار ، ومع كل ذلك فلم يضع ابو طالب وولده علي وأخوه الحمزة شيئا في حسابهم غير محمد ورعايته حتى لا يتسلل احد من المكيين ليلا لاغتياله ، وكانت هذه الخاطرة لا تفارق ابا طالب في الليل والنهار .

وجاء في تاريخ ابن كثير ان ابا طالب قد بلغ من حرصه على حياة محمد (ص) انه كان اذا اخذ الناس مضاجعهم في جوف الليل يأمر النبي ان يضطجع على فراشه مع النيام فاذا غلبهم النوم أمر احد بنيه او اخوته فاضطجعهم على فراش الرسول وأمر الرسول ان يضطجع على فراشهم حرصا منه عليه ، حتى لو قدر لاحد ان يتسلل الى الشعب ليلا لاغتياله يكون ولده فداء لابن اخيه .

وفي رواية شرح النهج جـ٣ ص ٣١٠ انه قرأ في امالي ابي جعفر

محمد بن حبيب ان ابا طالب كان اذا رأى رسول الله (ص) احيانا يبكي ويقول : اذا رأيته ذكرت اخي عبد الله وكان عبد الله اخاه لأمه وأبيه ، وأضاف الى ذلك انه كثيرا ما كان يخاف عليه البيات ليلا فكان يقيمه ليلا من فراشه ويضجع ابنه عليا مكانه ومضى على ذلك ايام الحصار وغيرها ، وأحس علي (ع) بالخطر على حياته ، ولكنه كان طيب النفس بالموت في سبيل محمد (ص) .

وقال لأبيه يوما : يا ابت اني مقتول فأوصاه بالصبر وأنشد :

اصبرن يا بني فالصبر احجى	كل حي مصيره لشعوب
قد امرنا بالصبر وهو شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
ان تصبك المنون فالنبل تبرى	فمصيب منها وغير مصيب
كل شيء وان تحلى بعمر	آخذ من فداتها بنصيب

وأجابه علي (ع) على ابياته هذه التي تؤكد ايمانه العميق برسالة محمد والاستهانة حتى بولده في سبيلها . لقد اجابه عليها بالابيات التي يرويها شارح النهج عنه لانه يحمل نفس الروح التي كان يحملها ابوه ويرى ان وجوده وحياته متممان لحياة محمد ورسالته ، لذلك لم يكن غريبا عليه ان يغامر ويبذل حتى نفسه ليسلم محمد لرسالته ، تلك المغامرة التي لم يعرف التاريخ اروع وأجل منها . ليس بغريب عليه ان يرد على ابيه الذي حاول ان يبعث في نفسه العزيمة والصبر على التضحية بالابيات التي يرويها عنه شارح نهج البلاغة او بمضمونها ان لم تصح عنه الابيات التالية :

أتأمرني بالصبر في نصر احمد	ووالله ما قلت الذي قلت جازعا
ولكنني احببت ان ترى نصرتي	وتعلم اني لم ازل لك طائعا
سأسعى لوجه الله في نصر احمد	نبي الهدى المحمود طفلا ويافعا

مبيته على فراش الرسول ليلة الهجرة

لقد ضاق بمحمد (ص) امره وتراكمت عليه الاحداث واشتـــدت قريش في تحديه وايذائه بعد وفاة عمه ابي طالب ، ولم يعد في مكة من تهابه قريش وترعى له حرمة ، ولم يجد من القبائل التـــي عرض عليها دعوته تجاوبا واقبالا ، ففي الطائف رفضت ثقيف ان تسمع له او تقبل منه شيئا وأغرت به الصبيان والخدم والعبيد فرشقوه بالحجارة حتـى اصيب في اكثر من موضع بجسده ، كما أصيب علي وقد كان هو وزيد ابن حارثة معه في تلك الرحلة وهي اول رحلة يقوم بها لخارج مكة في الدعوة الى الاسلام ، وعلي يتلقى بصدره ويديه الأحجار والضرب حتى أصيب بجروح في رأسه وبدنه ، ومع ذلك فقد أصيب النبي وسالت الدماء من ساقيه كما يروي ذلك اكثر المؤرخين .

ورجع النبي الى مكة يائسا من ثقيف وأحلافها ومن جميع القبائـل الذين استضافهم في طريقه ، ولم يستطع دخول مكة الا بعد ان اجاره المطعم بن عدي ومنع عنه قريشا وأحلافها ، وبقي في مكة ينتظر امر الله ويجتمع بالوافدين اليها عندما تمكنه الظروف من ذلك وكان عمه عبد العزى المعروف بأبي لهب كان يراقب تحركاته ويقول لمن يجتمع بهـــم

النبي : ان ابن اخي ساحر لا يغرنكم بسحره ونحن اهله وأخبر الناس به ومع ما لاقاه من القريب والبعيد فان امله بالنصر لم يضعف وثقته بالله كانت اقوى من قريش ومؤامراتها وقد عرفت فيه قريش ذلك وتجسدت لديها الاخطار التي ستنجلي عنها السنون المقبلة اذا تسنى لمحمد ان يلحق بأصحابه ويتخذ من يثرب عاصمة لنشر دعوته بعد ان تسلل اكثر اصحابه اليها وبعد المعاهدة التي ابرمها مع الأوس والخزرج في العقبة الثانية وفي جوف الليل .

وأدركت قريش بأنه اذا استطاع ان يفلت منهم ويلحق بأصحابه وأنصاره الجدد ، سيصبح اقوى منهم ، فأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه قبل فوات الاوان على شرط ان لا يتحمل مسؤولية قتله فرد بخصومه ولا قبيلة وحدها ، فاجتمعوا في دار الندوة ليتخذوا القرار المناسب بحقه كما نص على ذلك المؤرخون .

وجاء عن اكثر الرواة انهم اجتمعوا لهذه الغاية وتبادلوا الرأي وأبدى كل واحد بما عنده وكان الرأي الاخير لابي جهل بن هشام كما ترويه المؤلفات في السير والتاريخ وتحدثنا عنه في كتابنا سيرة المصطفى.

ولما انتخب المشركون الفتية من جميع قبائل مكة اتفقوا على الليلة التي يهاجمون محمدا فيها وهو في فراشه جاءه الوحي ليخبره بما تم الاتفاق عليه بين قبائل مكة وأحلافها كما تشير الى ذلك الآية :

واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

ومكر الله في الآية يعني انه سبحانه قد فوت عليهم مكرهم وتخطيطهم بما اخبر به نبيه وبما امره به من الخروج في تلك الليلة ومبيت علي على فراشه ليفوت عليهم تدبيرهم الذي اجمعوا عليه .

ولقد اخبر الرسول عليا بما اتفقت عليه قريش من تخطيطها لاغتياله ليلا وهو على فراشه فبكى علي (ع) ولما امره بالمبيت على فراشه رحب

بذلك وقال له كما يروي الرواة : أوتسلم انت يا رسول الله ان فديتك بنفسي ، قال له النبي (ص) نعم بذلك وعدني ربي فرحب علي بالامر وتبدد ما كان يساوره من خوف وقلق على النبي (ص) وتقدم الى فراش الرسول في تلك الليلة مطمئن النفس رابط الجأش ثابت الفؤاد واتشح ببرده الحضرمي الذي اعتاد ان يتشح به .

وهنا تبدأ قصة من اروع ما عرفه تاريخ الفداء والتضحيات ، فالشجعان يثبتون في المعارك وينازلون الأبطال والجيوش وهم يدافعون بما لديهم من سلاح وعتاد ويعتمدون في الغالب على من يحميهم في حالات الشدة والضيق وقد تضطرهم المعارك الى ان يثبتوا في مقابل العدو منفردين ، اما ان يخرج الانسان الى الموت طائعا مطمئنا بدون سلاح ولا عتاد وكأنه يخرج ليعانق غادة حسناء وينام على فراشه اعزل من كل شيء الا من ايمانه وثقته بسلامة من يفدي نفسه في سبيله كما حدث لعلي فهذا ما لم يحدث في تاريخ البطولات وما لم يعرف عن احد في تاريخ المغامرات في سبيل الحق والعقيدة .

وتنص المرويات ان القوم احاطوا بالدار وهم من خيرة فتيان قريش الأشداء وجعلوا ينظرون من فرجة الى المكان الذي اعتاد النبي ان ينام فيه فرأوا رجلا ينام على فراشه قد التحف ببردته فأيقنوا بوجوده فلما كان الثلث الاخير من الليل خرج النبي من الدار وكان قد اختبأ في مكان منها وانطلق جنوبا الى غار ثور وكمن فيه .

وجاء في رواية ابن هشام من سيرته والطبري في تاريخه وابن سعد في طبقاته ان رسول الله خرج من باب الدار وانسل من بينهم وهم وقوف ينتظرون ظلمة الليل لينفذوا خطتهم وكان يقرأ :

وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون.

وأخذ حفنة من التراب وجعل ينثرها على رؤوسهم وهم لا يشعرون.

ولما حان الوقت الذي عينوه لهجومهم على الدار هجموا عليها

فوثب علي (ع) من فراشه ففروا بين يديه حين عرفوه . وفي بعض الروايات انهم قبل هجومهم عليه جعلوا يقذفونه بالحجارة وهو ساكن لا يتحرك ولا يبالي بما يصيبه من الأذى ، ثم هجموا عليه بسيوفهم وخالد بن الوليد في مقدمتهم فوثب علي من فراشه وهمز بيده ففر خالد واستطاع علي ان يأخذ السيف منه فشد عليهم وانهزموا امامه الى الخارج وسألوه عن محمد فقال لا ادري الى اين ذهب .

وقال اليعقوبي في تاريخه : ان الله اوحى الى ملكين من ملائكته المقربين في تلك الليلة التي بات فيها علي (ع) على فراش الرسول اني قد قضيت على احدكما بالموت فأيكما يفدي صاحبه فاختار كل منهما الحياة ، فأوحى الله اليهما هلا كنتما كعلي بن ابي طالب ومحمد بن عبد الله لقد آخيت بينهما وجعلت عمر احدهما اكثر من الآخر فاختار علي الموت وآثر محمدا بالبقاء ونام في مضجعه ، اهبطا الى الارض واحفظاه من عدوه ، فهبطا يحرسانه وجبريل يقول : بخ بخ لك يا ابن ابي طالب من مثلك يباهي به الله ملائكته فوق سبع سموات [1] .

وعلى اي الاحوال فان مبيته على فراش الرسول ليقيه بنفسه ويفديه بروحه وان كان من اروع ما عرفه التاريخ من التضحية في سبيل المبدأ والعقيدة ، ولكن المتتبع لتاريخ ابي طالب وولده علي (ع) خلال ثلاثة عشر عاما خلت من تاريخ الدعوة الى اليوم الذي بات فيه على فراشه وفي الفترة التي اعقبت الهجرة الى اليوم الذي فارق فيه محمد دنيا الناس لا يرى امثال هذه المواقف غريبة على ابي طالب وولده

---

١ ــ انظر ص ٢٩ من المجلد الثاني تاريخ اليعقوبي ، واسد الغابة لابن الاثير جـ٤ ص ٢٥ والشبلنجي في الأبصار ص ٧٧ ، والمنادي في كنوز الحقائق ص ٣١ ، والغزالي في احياء العلوم ، كما جاء في فضائل الخمسة جـ٢ ص ٣١٠ .

علي (ع) ، فلقد كان ابو طالب الزعيم الاول لقريش والآمر الناهي فيها ومع ذلك فقد ضحى بكل شيء ووقف وحده في وجه اولئك الطغـــاة وعرض نفسه للجوع والاذى خلال أعوام الحصار مع اخوته وبنـــي عمومته يقتاتون في اكثر الاحيان ما يجدونه من نبات الارض وأعشابها كما عرض نفسه وأولاده اكثر من مرة للموت في سبيله وهـــو يخاطب الرسول ويقول :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى اوسد في التراب دفينا

ان من يستعرض تاريخ ابي طالب وولده علي ومواقفهما الحازمة في نصرة الاسلام لا يستطيع ان يفضل موقفا على موقف ، فكل مواقفهما تأتي في القمة بين مواقف الابطال والمناضلين في سبيل الله وخـــــير الانسانية .

والذي يدعو الى الدهشة هو ان الذين كتبوا في التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية وأحصوا الحوادث التي رافقت مسيرتها لم يهملوا شيئا من مواقف ابي طالب ، ومع ذلك فقد كانت نتيجة جهوده وجهاده عند القدامى والمحدثين من الكتّاب الذين يزعمون انهـــم يكتبون بروح بعيدة عن التعصب والهوى انه مات مشركا ، ولا ذنب لابي طالب عند الذين وضعوا التاريخ ودونوا المرويات باشراف الامويين والعباسيين الا انه والد الامام علي ، ولولا ذلك لاعطوه صفات القديسين الأبـــرار والمصطفين الاخيار .

ولقد عقب الاستاذ عبد الكريم للخطيب في كتابه ، علي بن ابـــي طالب على تضحية علي (ع) ومبيته على فراش الرسول ليلة تآمـــرت قريش على قتله بقوله :

وهذا الذي كان من علي ليلة الهجرة اذا نظر اليه في مجـــرى الاحداث التي عرضت للامام علي في حياته بعد تلك الليلة فانه يرفع لعيني الناظر امارات واضحة واشارات دالة على ان هذا التدبير الذي

كان في تلك الليلة لم يكن امرا عارضا بالاضافة الى علي (ع) بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقباتها فلنا ان نسأل :

أكان لإلباس الرسول (ص) شخصيته لعلي تلك الليلة ما يوحي بأن هناك جامعه تجمع بين الرسول وعلي اكثر من جامعة القرابة القريبة التي بينهما ؟ وهل لنا ان نستشف من ذلك انه اذا غاب شخص الرسول كان علي (ع) هو الشخصية المهيأة لان تخلفه وتمثل شخصه وتقوم مقامه .

ومضى يقول : وأحسب ان احدا قبلنا لم ينظر الى هذا الحديث نظرتنا هذه اليه ، ولم يقف عنده وقفتنا تلك ، حتى شيعة علي والمبالغين في التشيع له ، فإنا نراهم لا يلتفتون كثيرا الى هذه الواقعة ولا يقيمون منها شاهدا يشهد لعلي انه اولى الناس برسول الله والقيام معه على حين نراهم يتعلقون بكل شيء يرفع عليا الى تلك المنزلة .

وأحسب كذلك اننا لم نتعسف كثيرا حين نظرنا الى علي (ع) وهو في برد الرسول وفي مثوى منامه الذي اعتاد ان ينام فيه وقلنا هذا خلف رسول الله والقائم مقامه .

وأضاف الى ذلك : ان هذا الذي كان من علي ليلة الهجرة في تحديه لقريش هذا التحدي السافر وفي استخفافه بها وقيامه بينها ثلاثة ايام يغدو ويروح ، ان ذلك لا تنساه قريش لعلي (ع) ابدا ولولا انها وجدت في قتله يومئذ اثارة فتنة تمزق وحدتها وتشتت شملها دون ان يكون في ذلك ما يبلغ بها غايتها في محمد (ص) لقتلته وشفت ما بصدرها منه ولكنها تركته وانتظرت الايام لتسوي حسابها معه .

ألا يبدو لنا من هذه الموافقات ما نستشف منه ان لعلي بن ابي طالب شأنا في رسالة الرسول ودورا في دعوة الاسلام ليس لأحد غيره من صحابة الرسول .

ولقد حاول بعضهم ان يجعلوا من صحبة ابي بكر للنبي الى يثرب

والتجائهما الى الغار فضيلة لا تقل عن مبيت علي على فراشه وإقدامه على الموت مختارا في سبيله ، في حين انه كان مع النبي في الغار وهو في اسوأ حالةمن الهلع والجزع كادت تقضي على حياته لولا ان النبي(ص) كان يحاول ان يعيد الى نفسه الاطمئنان والسكينة .

وجاء في تفسير الرازي ان الله انزل على نبيه بمناسبة مبيت علي على فراشه ليسلم وتنتشر دعوته في الجزيرة وما وراءها من انحاء العالم انزل عليه الآية : ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الليه .

وأضاف الى ذلك الرازي ان جبريل كان يقول له : بخ بخ من مثلك يباهي الله به ملائكته .

وقال الاستاذ جرداق وهو يصف موقف علي (ع) ليلة هجرة النبي من مكة في جوف الليل الى الغار : لقد اسر النبي الى ابن عمه علي بن ابي طالب ان ينام على فراشه ويلتحف ببرده اليماني وأمره ان يتخلف بعده بمكة ليؤدي الودائع التي كانت عنده لاهلها ، وامتثل علي الامر والغبطة تملأ نفسه كما هي حاله ابدا امام كل تضحية يقوم بها في سبيل الرسول. ومضى يقول : وأحاط هؤلاء الرجال من قريش بدار محمد وأوثقوا حولها الحصار حتى ليستحيل على الهواء ان يخرج منها دون ان يمر بسيوفهم المشرعة ، ثم جعلوا يوصوصون من فرجة الى فراش محمد فيرون في الفراش رجلا فتطمئن خواطرهم الى ان محمدا لم يفر ، وأضاف الى ذلك لقد كان علي بمغامرته هذه استمرارا لمحمد وكانت تضحيته من روح المقاومة التي عرف بها ابن عمه العظيم ، وكان مبيته على فراش النبي تزكية للدعوة وحافزا على الجهاد الطويل .

ثم ان في هذه المغامرة ما يوجز الحقيقة عن الامام وطباعه ومزاجه ، فاذا هي صادرة عنه كما تصدر الاشياء عن معادنها دون تكلف ودون اجهاد ففيها نموه الذهني المبكر الذي جعله يدرك الدعوة التي يدق فهمها فهما صحيحا على من كان في مثل سنه ، وفيها زهده في الحياة

اذا لم تكن عمرا لمكارم الاخلاق ، وفيها صدقه الحر واخلاصه العجيب وفيها عدله بين نفسه وبين سواه من اهل الجهاد وما يتوخاه بذلك من نصرة المظلومين والمستضعفين اذا قتل هو ونجحت الرسالة على يدي صاحب الهجرة وفيها مواجهته للامور بسماحة وبساطة لا يعرف معهما الى الكلفة سبيلا ، وفيها المروءة والوفاء والطيبة والشجاعة وسائر صفات الفروسية التي يمثلها علي بن ابي طالب ، بل هي شيء من استشهاده المقبل .

وتستمر صلات المودة والاخاء بين محمد وعلي ويستمر بينهما تعاطي الخير على انجاح الرسالة هذا التعاطي الذي يتماسك في اعماقه ويتخذ منذ ان عرف محمد ابا طالب ، ومنذ ان عرف محمد عليا ومنذ ان اجتمع الثلاثة في بيت واحد قام على مزايا الشهامة ، وما كانت خصائص البيت الطالبي الا حافزا لابي طالب وولده علي على فهم عبقرية محمد يتمثل لدى الاول شعورا وتضحية ولدى الثاني فكرا جبارا وشعورا عميقا شاملا وتضحية اشبه بصنع المعجزات .

ويدرك الرسول هذه الحقيقة فيه فيحبه الحب الذي يأخذ مصدره من حبه للرسالة ذاتها ، ولا يكتفي بأن يحبه وحده فتراه يحببه الى الناس في كل ظرف ومناسبة ليمهد له سبيل الخلافة في زمن يأتي بوصفه استمرارا للرسول لا لكونه ابن البيت الهاشمي وابن عم الرسول ، فان الرسول قد اتقى هذه العصبية ، بل حاربها جاهدا وحطم مفاهيمها تحطيما .

علي والفواطم في طريقهم الى المدينة

لقد تابع ركب النبي (ص) طريقهم الى يثرب يقطعون السهـــــول والجبال والأودية حتى اصبحوا في امان من خطر قريش وعلى مقربة من المدينة ، فقال النبي (ص) : من يدلنا على الطريق الى بني عمرو بن عوف؟ ولما بلغ منازلهم نزل ضيفا عليهم لاحدى عشرة او لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول ، وكان قد استقبله منهم نحو من خمسماية ، ثم كتب الـى علي (ع) مع ابي واقد الليثي يأمره بالمسير اليه بعد ان يؤدي الامانات لاهلها وكل ما اوصاه به . فلما اتاه كتاب النبي (ص) ابتاع ركائب لمن معه من النسوة وتهيأ للخروج وأمر من كان قد بقي من ضعفاء المؤمنين ان يتسللوا ليلا الى ذي طوى ، وخرج هو بالفواطـــم ، فاطمة بنت رسول الله وفاطمة بنت اسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة كما نص على ذلك معظم المؤرخين ومعهم ام ايمـن وأبو واقد الليثي فجعل ابو واقد يسوق الرواحل سوقا حثيثا ، فقال له علي (ع) : ارفق بالنسوة يا ابا واقد ثم جعل يسوق بهن ويقول :

ليس الا الله فارفع ضنكا يكفيك رب الخلق ما اهمكا

فلما قارب ضجنان ادركه الطلب وكانوا ثمانية فرسان ملثمين معهم

مولى لحرب بن أمية يدعى جناح ، فقال علي (ع) لايمن وأبي واقد أنيخا الابل واعقلاها وتقدم هو فأنزل النسوة واستقبل القوم بسيفه ، فقالوا : أظننت يا غدار انك ناج بالنسوة ارجع بهن لا ابالك . فقال فان لم افعل فقالوا لترجعن راغما ودنوا من المطايا فحال علي بينهم وبينها وأهوى له جناح بسيفه فراغ عن ضربته وضرب جناحا على عاتقه فقده نصفين حتى وصل السيف الى كتف فرسه ثم شد على اصحابه وهو على قدميه وأنشد :

خلوا سبيل الجاهد المجاهد آليت لا اعبد الا الواحد

فتفرق القوم عنه وقالوا احبس نفسك عنا يا ابن ابي طالب ، ثم قال لهم : اني منطلق الى اخي وابن عمي رسول الله (ص) فمن سره ان افري لحمه وأريق دمه فليدن مني ، ثم اقبل على ايمن وأبي واقد وقال لهما اطلقا مطاياكما ، وسار الركب حتى نزل ضنجان فلبث بها يوما وليلة حتى لحق به نفر من المستضعفين وبات بها ليلته تلك هو والفواطم يصلون ويذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم حتى طلع الفجر ، فلما بزغ الفجر سار بهم حتى قدموا المدينة .

وجاء في بعض المؤلفات في سيرة النبي وبعض التفاسير ان الله انزل على رسوله الآيات التي تصف حالهم وما أعده الله لهم من الثواب والأجر العظيم .

والذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ، فاستجاب لهم ربهم اني لا أضيع عمل عامل من ذكر وانثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .

وجاء في السيرة الحلبية ان عليا في سفره الى المدينة كان يكمن النهار ويسير الليل حتى تفطرت قدماه ، ولما رأى النبي (ص) ما به

اعتنقه وبكى رحمة لما به ثم تفل في يديه وأمرها على قدميه فلم يشكُ منهما بعد ذلك ، وأكد هذه الرواية في اسد الغابة .

وقال في مستدرك الصحيحين للحاكم : ان الامام زين العابدين قال : اول من سرى نفسه ابتغاء مرضاة الله علي بن ابي طالب وكان يقول :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول آله خاف ان يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الإله من المكر
وبات رسول الله في الغار امنا ... موقى وفي حفظ الإله وفي ستر
وبت اراعيهم ولم يتهمونني ... وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

وتشاء العناية الإلهية ان يسلم محمد من محاولات القريشيين لاغتياله وينتقل برسالته الى يثرب لتنطلق منها الى جميع انحاء الحجاز ، ثم الى ما وراء الحجاز من البلاد التي كانت تحكمها اعتى دول العالم وأكثرها عددا وعتادا ، ويسلم علي (ع) من سيوف اولئك الذين احاطوا بفراشه ليلة هجرة الرسول ، والذين لحقوا به وهو في طريقه الى يثرب مع الفواطم والمستضعفين ليبقى فيه شبح الموت الذي ظل يلاحقهم في بدر وأحد والاحزاب وفي كل غزوة ومعركة من معارك الاسلام .

حديث المؤاخاة

لقد آخى النبي (ص) بين المهاجرين في مكة قبل ان يهاجروا منها الى يثرب كما جاء ذلك في بعض المؤلفات في السيرة ومجاميع الحديث ، فآخى بين ابي بكر وعمر بن الخطاب ، وبين الحمزة بن عبد المطلب وزيد ابن حارثة ، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير ابن العوام وعبد الله بن مسعود وهكذا حتى لم يبق غير علي (ع) ، فاستغرب المسلمون ان يترك النبي عليا ولم يؤاخ بينه وبين احد من المسلمين ، ثم قال النبي لعلي :

اما ترضى يا علي ان اكون اخاك .

فتهلل وجهه وقال :

بلى يا رسول الله .

فقال النبي :

انت اخي في الدنيا والآخرة .

وأنكر بعضهم هذه المؤاخاة لاسيما مؤاخاة النبي (ص) لعلي (ع) بالرغم من كثرة الرواة لها ، ولعل السبب في انكارهم لها يعود الى ان النبي (ص) قد اختار عليا لنفسه وخصه في هذه المنزلة التي كان يتمناها

جميع الصحابة ، في حين ان ترك وجوههم وواساهم لسائر الناس .

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها ان النبي (ص) آخى بين المسلمين بعد هجرتهم الى المدينة ، وفي هذه المرة كان يؤاخي بين مهاجر وانصاري والهدف منها ان يشد بعضهم الى بعض برباط الاسلام والايمان بدلا من رابطة العرق والدم والتحالف الذي كان قائما بين قبائل العرب وكان يتحكم بمصيرهم ويجرهم الى الدمار والخراب .

لقد اراد النبي (ص) بتلك الأخوة ان ينظم صفوفهم ويؤكد وحدتهم تحت لواء الاسلام ويجعلهم اخوة في الله يغضبون ويرضون ويحبون ويكرهون لله وحده ويتناسون ما بينهم من أحقاد وثارات، وان دل هذا التدبير الحكيم من النبي (ص) على شيء فانما يدل اولا وقبل كل شيء على بعد نظره وعمق تفكيره فلقد ادرك ان الاسلام مقبل على تحرك واسع وجهود شاقة لا بد للتغلب عليها من وحدة الهدف والغاية والتغاضي عما كان يحدث بين القبائل العربية من حروب وغارات وبخاصة الأوس والخزرج وبينهم وبين غيرهم من القبائل الضاربة بالقرب من المدينة ، تلك الخصومات التي كانت ذكرياتها تثير الاحقاد وتجرهم الى المعارك الدامية لابسط الاسباب .

هذا بالاضافة الى ان الوافدين الى المدينة من المهاجرين كان اكثرهم لا يملك قوة يومه ، فكانوا في أمس الحاجة الى المساعدة والعمل لتوفير قوتهم وضرورات عيشهم ، وبالفعل لقد كان لذلك الترابط الذي اوجده النبي (ص) فيما بينهم اثره الطيب في نفوس الانصار فآثروهم على انفسهم ويسروا لهم سبل الحياة والعمل حتى اصبح الكثير منهم في بضع سنوات معدودات من الأثرياء .

ومضى ابن هشام في سيرته يقول : لقد آخى بين ابي بكر وخارجة ابن زهير وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك من بني سالم بن عوف وبين عامر بن عبد الله المعروف بأبي عبيدة بن الجراح وبين سعد بن

معاذ ، وبين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع من الخزرج ، وبين الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة من بني عبد الاشهل وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت من بني النجار ، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب ابن مالك من بني النجار ، وهكذا حتى لم يبق من المهاجرين احد الا وآخى بينه وبين انصاري ، وأصبح كل مسلم انصاري يحس بواجب عليه نحو اخيه الجديد من المهاجرين ويواسيه بنفسه وقوته ، وأصبحت الوثائق والروابط التي تشد الناس بعضهم الى بعض تتضاءل على مرور الايام حتى ذابت وحلت مكانها تلك الاخوة اخوة الاسلام والهدف والمصير ، ولعل هذه الناحية كانت من الاسباب التي حققت للمسلمين الانتصارات ودفعت بالمسلمين اشواطا بعيدة الى الامام في بضع سنوات معدودات ولما بدأت هذه الروح تتقلص وتضعف بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الاسلامية حتى انتهى المسلمون الى ما هم عليه اليوم من الانهيار وأصبحوا عبيدا لغيرهم بعد ان كانوا السادة الاعزاء .

وجاء في الرياض النضرة ان رسول الله ترك عليا ولم يؤاخ بينه وبين احد ، فقال له يا رسول الله :

اخيت بين الناس وتركتني .

قال :

انما تركتك لنفسي انت اخي وانا اخوك .

فان ذكرك احد فقل :

انا عبد الله واخو رسول الله لا يدعيها بعدي غيرك الا كذاب .

وأضاف الى ذلك القزويني في المجلد الاول من فضائل الخمسة وقد اخرجه احمد في المناقب والمتقي في كنز العمال وابن عدي في الكامل .

وفي رواية الطبراني في الرياض النضرة من المجلد الاول ان النبي قال له :

والذي بعثني بالحق ما اخرتك الا لنفسي انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي وانت اخي ووارثي .

قـــال :

وما ارث منك يا رسول الله .

قـــال :

ما ورث الانبياء من قبلي .

قـــال :

وما ورث الانبياء قبلك ؟

قـــال :

كتاب ربهم وسنّة نبيهم وانت معي في قصري في الجنة مع فاطمـــة ابنتي ، ثم تلا رسول الله اخوانا على سرر متقابلين .

علي ابو تراب

لقد جاء في سبب تسميته بهذا الاسم ، ان النبي (ص) خرج في غزوة تعرف بغزوة العشيرة في السنة الثانية من هجرته ولواؤه مع الحمزة بن عبد المطلب ، ومعه جماعة من المسلمين منهم عمار بن ياسر وعلي وغيرهما حتى نزل العشيرة من بطن ينبع ، ولم يلق فيها احدا غير انه وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم .

وحدث ابن اسحاق عن عمار بن ياسر انه قال : كنت انا وعلي بن ابي طالب رفيقين في غزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله وأقام بها رأينا ناسا من بني مدلج يعملون في عين لهم فقال لي علي (ع) : يا ابا اليقظان هل لك في ان نأتي هؤلاء القوم لننظر كيف يعملون ، قلت ان شئت فجئناهم ونظرنا الى عملهم ساعة ثم غشينا النوم فانطلقت انا وعلي واضطجعنا في صور من النخل على التراب اللين ونمنا ، والله ما ايقظنا الا رسول الله (ص) يحركنا برجله وقد تترينا من تلك البقعة التي نمنا فيها ، ففي ذلك اليوم قال الرسول لعلي (ع) : مالك يا ابا تراب ، ثم قال: ألا أحدثكما بأشقى الناس قلنا بلى يا رسول الله . قال اشقى الناس رجلان : احيمر ثمود الذي عقر ناقة صالح والذي يضربك يا علي على هذه

ووضع يده على قرنه حتى يبل هذه وأخذ بلحيته الكريمة بيده .

وروى هذه الرواية ابن جرير الطبري في تاريخه ، ثم قال : وقيل غير ذلك وتتلخص الرواية الثانية في ان عبد العزيز بن ابي حازم روى عن ابيه انه قال قيل لسهل بن سعد الساعدي : ان بعض امراء المدينة يريد ان يبعث اليك لتسب علي بن ابي طالب على المنبر وتقول له يا ابا تراب . قال والله ما سماه بذلك الا رسول الله ، قلت وكيف ذاك قال دخل علي (ع) على فاطمة الزهراء ثم خرج من الدار وذهب الى المسجد واضطجع في فيئه ، ثم دخل رسول الله على فاطمة وسألها عن علي (ع) فقالت له : هو ذاك مضطجع في المسجد فجاءه رسول الله فوجده وقد سقط رداءه عن ظهره فقال له : اجلس أبا تراب ، فوالله ما سماه بذلك الا رسول الله ، وكان آحب اسمائه اليه .

ولا منافاة بين الرواتين لجواز ان يكون اول ما سماه بذلك في غزوة ذي العشيرة كما جاء في رواية عمار بن ياسر وقال فيها كلمته المشهورة : اشقى الناس من يخضب لحيتك بدم رأسك ، وهذا من دلائل نبوته ، وناداه بهذا الاسم حينما رآه نائما على تراب المسجد وقد سقط عنه ردائه وعلق التراب على ظهره .

ولكن ابن هشام روى عن ابن اسحاق ان جماعة من اهله حدثوه بأن النبي (ص) انما سمى عليا ابا تراب ، لان عليا كان اذا حصل خلاف بينه وبين فاطمة او حصل منها ما لا يرتضيه من قول او فعل لم يكلمها ولم يقل لها ما تكره غير انه كان اذا استولى عليه الغضب منها يأخذ التراب ويضعه على رأسه ، فكان رسول الله اذا رأى عليا عليه التراب عرف انه عاتب على فاطمة فيقول له مالك يا ابا تراب .

وبلا شك فان هذه الرواية من الموضوعات ، ومن الجائز ان يكون ابن اسحاق قد اخذها من مرويات عروة بن الزبير الذي روى عنه في سيرته كثيرا ، واعتمد فيها على اكثر مروياته ، ومن المعلوم ان عروة

كان يتعمد الكذب على علي (ع) وأحيانا كان يروي ما يسيء اليه والى آله ويسند مروياته في الغالب الى خالته عائشة ، وموقف السيدة عائشة من علي وفاطمة لا يجهله احد ولا اظن احدا يبرئها من الحقد عليه وعلى بضعة النبي الزهراء في حياة النبي وبعدها ففي حياة النبي كانت تمني نفسها ان تملك وحدها اكثر اوقات النبي خلال فراغه وتستأثر به على غيرها من زوجاته وذويه ، لانه تزوج بها وهي غريرة صغيرة ، فاذا بها ليست تملك من وقته الا القليل القليل ويخص عليا وفاطمة بالنصيب الاكبر منه ، وكانت تغار منهما اكثر مما تغار من نسائه الأخريات ، وكلما مر الوقت كانت تتضاعف الالفة والمحبة بينهما وبين النبي ، وقد اجابت هي من سألها عن أحب الناس الى النبي فقالت: من الرجال علي بن ابي طالب ومن النساء فاطمة الزهراء . وكان وفاء النبي لخديجة ام الزهراء يزعزع كيانها احيانا ولا تستطيع ان تصبر عليه كما ذكرنا من قبل . هذا بالاضافة الى انها قد رأت في علي وزوجته المنافس الوحيد لابيها بعد وفاة النبي ، ولما بايعه المسلمون بالخلافة فقدت وعيها وتوازنها فقادت جيشا لحربه وتجاهلت جميع نصوص القرآن التي امرت نساء النبي (ص) ان يقرن في بيوتهن ووصية رسول الله التي حذرها فيها من الخروج عليه ، والسيدة الزهراء أرفع شأنا من ان تسيء لعلي او تغضبه في قول او فعل كما تؤكد ذلك النصوص التي وردت عن النبي في فضلها وسيرتها الكريمة .

علي في بدر الكبرى

لقد كانت هجرة النبي (ص) الى يثرب بداية عهد جديد في تاريخ الدعوة ، ، فقد التقى بأنصاره الذين بايعوه في العقبة الثانية وعاهدوه على ان ينصروه بأنفسهم وأموالهم ويمنعوه مما يمنعون منه انفسهم وذراريهم ، وكانت حفاوتهم به بالغة اقصى حدودها واقبالهم عليه يتزايد يوما بعد يوم ، وفي السنين الاولى لدخوله المدينة أصّر جماعة من سكانها على شركهم وأعلن بعضهم الاسلام وأصروا النفاق ، وكان الى جانب هؤلاء في المدينة وجوارها من اليهود ما لا يقل عن عرب يثرب وحين دخول النبي اليها هادنوه على امل ان يستغلوه لصالحهم في مقابل عرب المدينة ونصارى نجران الذين استحكم العداء بينهم وبين اليهود لأمور تتعلق بعقيدتهم في السيد المسيح وأمه العذراء ، هؤلاء بعد اشهر من دخوله المدينة انقلبوا عليه وفتحوا صفحة جديدة مع المشركين والمنافقين ، ولكن النبي (ص) كان يعالج الامور بالحكمة ويتغاضى عن كثير من تصرفاتهم تفاديا للخصومات التي قد تؤدي الى حرب اهلية في مقره الجديد وقد تكون تتائجها لغير صالحه في نهاية الامر ، وبالرغم من كل ذلك فقد اسفروا عن واقعهم وبدأوا يخططون

ويتصلون بالقبائل العربية خارج المدينة وبالمكيين كما بدأت قريش من جانبها بالتحرك السريع لإرهاب المسلمين والحد من نشاطهم ومحاصرتهم من الداخل والخارج وترسل السرية تلو السرية ، وبلغت بعض سرايا الأعراب بتحريض من قريش حدود يثرب بقيادة كرز بن جابر الفهري فاستولى على بعض مواشي المدينة وابلها ، فخرج النبي (ص) بنفسه مع جماعة من المسلمين لانقاذ المواشي من ايدي الغزاة ومضى في اثر الغزاة الى ان قطع مسافة بعيدة .

وكان من الطبيعي ان لا يقف النبي من تلك المؤامرات والتحرشات والتحديات موقف المتخاذل الضعيف فجعل يرسل السرايا لمطاردتهم حينا ، ويقطع الطريق على تجارتهم حينا آخر لتفهم قريش ومن يساندها من اليهود والأعراب والمنافقين انه لهم بالمرصاد ، ولن يتراجع عن دعوته مهما كانت النتائج لاسيما وقد اصبح لديه من الانصار والأتباع ما يستطيع ان يرد به كيد المعتدين والمنافقين .

وظل يعالج الموقف على هذا النحو الى ان امره الله بقتال المشركين ورد عدوانهم فقد جاء في الآية من سورة التوبة : فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأسا وأشد تنكيلا .

وتوالت سراياه لرد العدوان وتثبيت دعائم الاسلام الى ان كانت معركة بدر الكبرى او الثانية على حد تعبير بعض المؤرخين والمؤلفين في سيرة الرسول ، فكانت الكبرى لان تحرك النبي لمطاردة كرز بن جابر الفهري حتى بلغ صفوان تعرف عند المؤرخين ببدر الصغرى وكانت الثانية كبرى لانها حققت للمسلمين نصراً لم يكن في حساب قريش ولا غيرها من الأعراب واليهود ولم تحققه غزوة قبلها .

ومهما كانت اسباب تسميتها بهذا الاسم ، فلقد محت معركة بدر أسطورة تفوق قريش على المسلمين وقدرتها على استئصالهم وتبين

لقريش وأنصارها ان الانتصارات في المعارك ليست وقفا على العدد والعتاد ، وان الايمان بالمبدأ والعقيدة والتضحية في سبيلهما اشد فتكا وأعظم اثرا من كل انواع الاسلحة وصدق الله حيث يقول : كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله .

لقد كانت معركة بدر منطلقا للانتصارات التي حققها المسلمون بقيادة النبي (ص) في جميع المعارك التي خاضوها لرد كيد الطغاة والمفسدين في الارض وقضت على كبرياء قريش وخيلائها ، وباء المشركون الذين افلتوا من سيف علي والحمزة والصفوة الطيبة من صحابة النبي بالخزي والعار بعد تلك الهزيمة المنكرة التي تركت في كل بيت من بيوت قريش نائحة وفي كل حي نوادب ، وكان لهذا النصر أبلغ الاثر في نفوس القبائل العربية واليهود الذين كانوا ينتظرون ما ستنجم عنه من نتائج كانوا يرجونها لصالح قريش .

لقد ثبت الله قدم نبيه بعد تلك المعركة وعزز موقفه وحقق فيها رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وتهاوت قريش من عليائها فلم يبق بيت من بيوت جبابرتها وطغاتها الا ودخله الذل والخزي والعار . ولقد تحدثنا عن رؤيا عاتكة وما اعقبها من قيل وقال وأخذ ورد بين بني عبد المطلب وقريش في كتابنا سيرة المصطفى فلا ارى ما يوجب الاعادة .

لقد خرج النبي من المدينة في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من المسلمين ليقطع الطريق على تجارة قريش التي كانت بقيادة ابي سفيان ردا على تحديات قريش وتحرشاتها التي كانت تقوم بها بين الحين والآخر ، وشاءت التقادير ان يعرف ابو سفيان بالامر فاستنجد بقريش فخرجت بكل قوتها لانقاذ العير وقتال محمد وأصحابه ومضت في طريقها باتجاه بدر وقد حشدت اكثر من الف مقاتل من اشدائها ، وبلغت النبي أخبار قريش واستعدادها الكامل للقتال وهو في مكان قريب من بدر، فاستشار اصحابه في الامر وأحب ان يكونوا على بصيرة من موقف

قريش ، فوقف عمر بن الخطاب يحذره من قريش وخيلائهـــا ويقول : والله انها ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت ، والله لا تسلـــم عزها ابدا ولتقاتلنك فاتهب لذلك اهبته واعد له عدته .

ووقف بعده المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لامر الله فنحن معك ، ولا نقول لك كما قالت بنو اسرائيـــل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ، بل نقول لك اذهب انت وربك فقاتلا انا معكم مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك العماد لسرنا معك فدعا له رسول الله [1] .

وقام بعدها سعد بن معاذ فقال : كأنك تريد ان تعرف رأينا يا رسول الله فقال اجل فرد عليه سعد بقوله لقد آمنا بك يا رسول الله وصدقناك وشهدنا ان ما جئتنا به هو الحق وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة فامض يا نبي الله لما اردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد وخذ مـــن اموالنا ما اردت فما اخذته احب الينا مما تتركه وعند اللقاء سيريـــك منا ما تقر به عينك [2] .

ومضى رسول الله في طريقه الى بدر ونزلها ليلة الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان فبعث عليا والزبير وسعد بن ابي وقاص وبسبس ابن عمرو يتجسسون له الاخبار وقال ارجو ان تجدوا الخبر عند القليب

---

١ ــ برك العماد مكان يبعد عن مكـــــة مسيرة خمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر .

٢ ــ ما ابعد هذا الموقف النابع عن ايمان سعد بعقيدته وثقته بربـــه والاستهانة بالحياة في سبيل الله ما ابعده عن موقف ابي حفص المتخاذل الذي صوّر به قريشا وكأنها قوة لا تغلب ولا تقهر وحذر فيه النبي من لقائها قبل ان يعد العدة لذلك .

التي تلي هذا الضريب ، فاندفعوا باتجاهه فوجدوا على القليب روايا قريش فأسروا ثلاثة منهم ، واستطاع الفرار رجل يدعى عجير فأخبر قريشا بخبر النبي وأصحابه ونادى يا آل غالب هذا ابن ابي كبشة وأصحابه قد اسروا سقاءكم ، وكان الاسرى غلاماً لسعيد بن العاص ويدعى يساراً والثاني لمنبه بن الحجاج ويدعى اسلم ، والثالث لأمية بن خلف ويدعى ابا رافع وظنهم المسلمون من أتباع قافلة ابي سفيان فلما اخبروهم عن قريش شدد عليهم المسلمون وكان النبي (ص) يصلي فلما فرغ سألهم اجابوه بأنهم غلمان لقريش وأخبروه بمكانها ، فسألهم عن عدد المقاتلين من قريش ، فقالوا له : انهم جمع كبير ولا علم لنا بعددهم ولكنهم ينحرون يوما عشرة اباعر ويوما تسعة ، فقال النبي القوم ما بين الف وتسعمائة . ولما التقى الطرفان وعبأ النبي اصحابه ووقف النبي بين الصفين يخاطب قريشا بأسلوب يلهب المشاعر ويناشدهم بالجوار والرحم القريبة التي تشد الناس بعضهم الى بعض ، وقال لهم : لان يلي هذا مني غيركم احب الي من ان تلوه انتم ، فأصاب كلامه مكانا في نفس عتبة ابن ربيعة احد قادتهم وأبطالهم فقال لقريش: ما رد هذا قوم قط وأفلحوا ثم ركب جمله وجعل ينهى الناس عن القتال ويقول لهم : اطيعوني اليوم واعصوني الدهر ان محمدا له آل وذمة وهو ابن عمكم فخلوه للعرب.

ولكن ابا جهل وقد استحوذ عليه الغرور اخذ يحرض المشركين على القتال ويندد بموقف عتبة ويتهمه بالجبن والخوف ، وظل يلاحقه حتى استفزه ، فبرز عتبة بين اخيه شيبة وولده الوليد بن عتبة ، ودعا المسلمين الى البراز ، فبرز اليه ثلاثة من فتيان الانصار وهم بنو عفراء معاذ ومعوذ وعوف ، فلما وقفوا في مقابل عتبة وأخيه وولده وانتسبوا لهم ترفعوا عن مقاتلتهم ، وطلب عتبة من النبي ان يرسل له الاكفاء من قريش ، فالتفت رسول الله الى بني عمه وكأنه احب ان يكونوا اول من يباشر الحرب ويفتح المعركة ويتحمل اعباءها وقال :

قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن ابي طالب.

فقاموا مسرعين فرحين وكأنه دعاهم الى اعز ما يصبون اليه واتجهوا نحو القوم بقلوب عامرة بالايمان ونفوس طيبة بلقاء الله تسترخص كل شيء في سبيل سلامة محمد ودعوته .

وان المتتبع لتاريخ الدعوة الاسلامية لا بد وآن ينتهي ان الدعوة منذ فجرها لولا الهاشميون والطالبيون منهم لم تكن ولم يكتب لها البقاء .

فأبو طالب منذ اليوم الاول وقف الى جانب النبي يشد ازره ويمنع عنه قريشا وكيدها ، ومضى هو وولده علي (ع) وأخوه الحمزة يدافعون عنه بكل طاقاتهم وامكانياتهم ، وبالتالي تقدم علي ونام على فراشه موطنا نفسه على الموت ليسلم محمد لرسالته ، وفي معركة بدر اول من برز الى جبابرة قريش علي وعمه الحمزة وابن عمه عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب ، فكانت الضربة الاولى التي قضت على معنويات ذلك الجيش الذي كان يعتز بعدده وعتاده وأطاحت برؤوس اولئك الطغاة وبعثت في نفوس العرب والمشركين الخوف والذعر والجزع من الهاشميين وحدهم لا من اولئك الذين كانوا يرون قريشا لا تقهر ولا تغلب ويحذرون النبي منها .

وعلى اي الاحوال فلما تقدموا من القوم وانتسبوا اليهم طابت نفس عتبة ومن معه بمبارزتهم فبرز عبيدة بن الحارث الى عتبة بن ربيعة وكان اكبر الثلاثة سنا وبرز الحمزة الى شيبة بن ربيعة وبرز علي الى الوليد بن عتبة وكانا متقاربين في السن .

وجاء في بعض المرويات ان عليا كان يوم ذاك بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره على اختلاف الروايات في ذلك .

وقال اكثر المؤرخين ان الحمزة لم يمهل شيبة وقضى عليه في الضربة الاولى وكذلك فعل علي (ع) مع الوليد واختلف عبيدة وعتبة في ضربتين كلاهما ضرب صاحبه وأصابه بجروح بليغة وكر الحمزة

وعلي (ع) على عتبة وأجهزا عليه ، وقيل ان الحمزة بارز عتبة فصاح المسلمون : يا علي اما ترى الكلب قد بهر عمك وكانا قد اعتنقا بعد ان تكسر سيفاهما ، فأقبل عليهما وكان الحمزة اطول من عتبة فقال له طأطىء رأسك يا عم ، فلوى رأسه فضرب علي عتبة فقده نصفين وكر علي والحمزة بعد ذلك على شيبة فقتلاه وحملا عبيدة وكانت قد قطعت ساقه فألقياه بين يدي رسول الله (ص) فاستعبر وقال الست شهيدا يا رسول الله قال بلى . ثم قال عبيدة : لو كان ابو طالب حيا لعلم اني أحق بمقالته حيث كان يقول :

كذبتم وبيت الله نخلي محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

وكانت نهايته في بدر وهو اول شهيد من المسلمين في تلك المعركة وبرز بعدهما حنظلة بن ابي سفيان الى علي (ع) ، فلما دنا منه ضربه علي بالسيف فسالت عيناه وسقط قتيلا على رمال بدر ، وأقبل بعده العاص بن سعيد بن العاص يطلب البراز فبرز اليه علي وقتله .

وجاء في الارشاد للمفيد عن ابي بكر الهذلي عن الزهري ان ابنه سعيد بن العاص دخل على عمر بن الخطاب في خلافته وجلس ناحية ، قال سعيد فنظر الي عمر بن الخطاب وقال اراك وكأن في نفسك عليّ شيئا أتظن اني قتلت اباك يوم بدر ، والله لوددت اني قتلته ولو كنت قتلته لم اعتذر من قتل كافر ، ولكني مررت به يوم بدر فرأيته يبحث للقتال كما يبحث الثور بقرنيه فهبته ورغت عنه ، فقال اليّ يا ابن الخطاب ، فصمد له علي وتناوله ، فوالله ما رمت مكاني حتى قتله، وكان علي في مجلس عمر بن الخطاب وهو يتحدث مع سعيد بهذا الحديث ، فأدرك علي (ع) الغاية من حديث ابن الخطاب فقال : اللهم غفرا ذهب الشرك بما فيه ومحا الاسلام ما تقدم ، مالك يا ابن الخطاب تهيج عليّ

الناس فسكت عمر ولم يتكلم ، فقال سعيد بن العاص : اما انه ما كان ليسرني ان يكون قاتل ابي غير ابن عمه .

والعاص بن سعيد المقتول في بدر هو جد عمرو بن سعيد الملقب بالاشدق ، وكان عاملا على المدينة ليزيد بن معاوية يوم قتل الحسين ولما سمع العويل والصراخ من دور بني هاشم اتجه نحو قبر النبي وقال يوم بيوم بدر وواعية بواعية عثمان يا رسول الله .

ولما رأت مخزوم كثرة القتلى من المشركين احاطوا بأبي جهل خوفا عليه وألبسوا لامة حربه عبد الله بن المنذر فصمد له علي وقتله ، ثم البسوها الناكه بن المغيرة فقتله الحمزة وهو يظنه ابا جهل ، وألبسوها بعدهما حرملة بن عمرو فقتله علي ايضا ، وأبى ان يلبسها احد بعدما رأوا صنيع علي والحمزة بأولئك الذين كانوا يلبسون لامته ، وأخيرا قتله معاذ بن عمرو بن الجموح وقيل غيره ، وقتل علي (ع) فيمن قتله يوم ذاك نوفل بن خويلد وكان النبي (ص) قد قال: اللهم اكفني ابن العدوية.

وجاء في سيرة ابن هشام ان عليا قتل طعيمة بن عدي ، ومضى المسلمون يشتدون على قريش وعلي والحمزة في طليعتهم فتساقطت الرؤوس وتهاوت الاجسام وخرج النبي من العريش ولم يبق فيه غير ابي بكر ولم يرد له ولعمر بن الخطاب ذكر مع من اشتركوا في القتال وقتلوا احدا من المشركين واشترك النبي مع المسلمين ووصاح وكبرياء قريش تتهاوى تحت الاقدام. شاهت الوجوه، اللهم ارعب قلوبهم ثم اخذ كفا من الحصى ورمى به الى جهة المشركين فانهزموا تاركين امتعتهم وأسلحتهم وأنزل الله على النبي بهذه المناسبة كما جاء في اكثر التفاسير :

اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق وأضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب .

وغاص علي والحمزة وأبطال المسلمين في وسط قريش ونسي كل واحد منهم نفسه وكثرة عدوه فتطايرت الرؤوس عن الاجساد وأمد الله المسلمين بالقوة والعزيمة والثبات وأسر المسلمون كل من عجز عن الفرار ، حتى بلغ عدد الاسرى سبعين رجلا وعدد القتلى اثنين وسبعين رجلا .

وتنص اكثر المرويات ان عليا (ع) قتل النصف واشترك مع المسلمين في النصف الآخر كما جاء في رواية المفيد وغيره وأحصى الواقدي من قتلى المشركين اثنين وخمسين من خيرة أبطالهم احصاهم بأسمائهم وأسماء قاتليهم ، وحسب احصائه ان الذين قتلهم علي بسيفه اربعة وعشرون ، وثمانية وعشرون اشترك في قتلهم جميع المسلمين .

ويبدو من احصاء الواقدي ان القتلى بسيف علي (ع) كانوا وجوه القوم وأبطالهم ، وبين الاسرى النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي قد اسره المقداد بن الاسود فنظر اليه النبي وأمعن في نظره ، فقال لرجل كان الى جانبه : ان محمدا والله قاتلي لقد نظر الي بعينين فيهما الموت فقال له الرجل : ما هذا منك الا الخوف والرعب . ولما بلغوا في طريقهم الى المدينةموضعا يقالله الاثيل نزلوا فيه فالتفت النبيالى عليوقال له: قم يا علي واضرب عنق النضر فصاح المقداد وقال: اسيري يا رسول الله وكان يطمعفي فدائه فرد عليهالنبي بقوله: اللهم أغن المقداد منفضلك فقام علي وضرب عنقه ، ولما بلغ اخته خبر مقتله رثته بأبيات تعبر عن حزنها ولوعتها على اخيها وتتمنى لو ان النبي منّ عليه وتركه مع من ترك من الاسرى وفيها تخاطب النبي :

أمحمد ولانت نجل نجيبة في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

ولما بلغته ابياتها رق لها النبي وقال : والله لو بلغني شعرها قبل قتلة لما قتلته ، وفي عرق الضبية امر بقتل عقبة بن ابي معيط ، ولما اقبل

عليه علي بالسيف صاح من للصبية يـا محمد فقال لهم النار ثم ضربـه علي ضربة واحدة كانت بها نهايته .

وقال الاستاذ عبد الفتاح وهو يتحدث عن معركة بدر ومواقف علي فيها وعن نتائجها ، قال : لقد كانت بدر نصرا كلها وان افلتت الدائـرة ابا سفيان بن حرب وغيره الذين من اجلهم نزحت جنود المسلمين الـى ساحة القتال ، ولكن ابا سفيان لم يكن كل قريش ، ولم يكن أشد من اولئك الذين حصدتهم رحى السيوف ، لقد خسر في المعركة زيادا ابنه اسيرا وحنظلة قتيلا لحق شرف مصرعه بسيف علي كما لحـق به شرف جز رقاب سواه من بني عبد شمس وأصهارهم من بني عبـد الدار ، ومضى يقول : وان الذي يأخذ نفسه باحصاء من جندلهم علي بن ابي طالب في بدر وما تلاها من وقائع ليعجب اشد العجب ، ويتساءل اكانت الصدفة وحدها هي السبب في ان يكون اكثرهم من هذا البيت الذي اشتهر بامتلاء قلوب آله بالحقد على بني هاشم وسلالته ، ام ترى انه كان ينتقي عامدا غرماءه من بينهم ، ثم يعمل في رقابهم نصاله ، كان عجيبا غاية العجب ان يتفق له في بدر قتل حنظلة بن ابي سفيان والعاص بن سعيد بن أمية والوليد بن عتبة اخا هند ، ثم عقبة بن ابي معيط اخـي عثمان لأمه ، ثم بعدهم غيرهم من أحلافهم ومن لاذ بهم بسبب او نسب، ولعلهم ندموا لانهم ليلة الهجرة خلوا بين علي وبين الحياة ولم يقتلوه في فراش الرسول ، ولكنه ندم ليس بنافعهم اليوم قتيلا ولا يدافع عنهم ضره في كلا جاهليتهم واسلامهم ، لانهم رضعوا من ثدي امهاتهم مقته ومقت آله صغارا ، فاصطفوا يناجزونه كبارا ولم يتحروا اذا فعلوا ان يكونوا له المناجزين الاكفاء .

وجاء في الدر المنثور في ذيل تفسير الآية: ام نجعل الذين آمنـوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ، ان ابن عساكر اخرج عن ابن عباس في تفسيرها ان المراد من الذين آمنوا وعملوا الصالحات علـي

والحمزة وعبيدة بن الحارث ، والمراد من المفسدين في الارض عتبة وشيبة والوليد بن عتبة .

وفي حلية الأولياء لابي نعيم بسنده عن محمد بن ادريس الشافعي انه قال : دخل رجل من بني كنانة على معاوية بن ابي سفيان فقال له هل شهدت بدرا ؟ قال : نعم . قال مثل من كنت ؟ قال : غلام أمرد مثل عطباء الجلمود . قال : فحدثني ما رأيت وحضرت . قال : ما كنا شهودا الا كغياب ، وما رأينا ظفرا كان اوشك منه ، قال : فصف ما رأيت . قال : رأيت علي بن ابي طالب غلاما شابا ليثا عبقريا يفري الفري لا يثبت له احد الا قتله ولا يضرب شيئا الا هتكه ، ولم ار احدا من الناس يحمل حملته ويلتفت التفاته ، وكان له عينان في قفاه وكأن وثوبه وثوب وحش .

وجاء في ذخائر العقبى والرياض النضرة كما نص على ذلك القزويني في كتابه فضائل الخمسة عن ابي جعفر الباقر (ع) انه قال : نادى ملك من السماء يوم بدر يقال رضوان ان لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي .

وروي في فضائل الخمسة عن الطبري ان علي بن ابي طالب لما قتل اصحاب الألوية في بدر كان كلما تكتل جماعة من مشركي قريش يقول له النبي (ص) : احمل عليهم يا علي فيحمل عليهم ويقتل منهم فنزل جبرائيل على النبي وقال له : ان هذه المواساة يا رسول الله فقال له رسول الله : انه مني وأنا منه فقال جبرائيل وأنا منكما وسمعوا صوتا يقول : لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي .

ومجمل القول ان المؤرخين والمحدثين قد تحدثوا عن مواقف علي في بدر وعن جميع من قتلهم بسيفه وأبرزوه فيها على واقعه ، غير ان الاستاذ هيكل في كتابه حياة محمد تحدث عن معركة بدر واعتمد في حديثه عنها على المصادر التي ذكرت مواقف علي (ع) وبطولاته الرائعة

التي لم يحدث بها التاريخ عن احد من الناس وكلها نصت على ان عليا وحده قتل نصف قتلى المشركين او ما يقرب من النصف واشترك مع المسلمين في النصف الآخر ، بالرغم من انه اعتمد على تلك المصادر لم يتحدث عنه بشيء ، ولم يزد في حديثه على قوله : بأن عليا والحمزة وأبطال المسلمين خاضوا المعركة ونسي كل منهم نفسه، ومع ان الخليفتين عمر وأبا بكر لم يشتركا مع المسلمين في قتل احد كما تؤكد ذلك المصادر الموثوقة ، ومع ذلك فقد ابئ ان يمر على تلك المعركة بدون ان يذكر لابي بكر وعمر ميزة على غيرهما ، فذكر ان النبي قال لابي بكر ان مثلك في الملائكة كمثل ميكائيل ، وفي الانبياء كعيسى وابراهيم ، وقال لعمر بن الخطاب : انك في الملائكة كجبرائيل وفي الانبياء كنوح وعيسى ، وذلك عندما اشار عليه ابو بكر بالعفو عن الاسرى ، وأشار عليه عمر بن الخطاب بقتلهم ، وان يبادر هو الى قتل عمه العباس بن عبد المطلب ، ويتولى علي قتل اخيل عقيل بن ابي طالب ، والحمزة قتل ابن اخيه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، حيث كانوا ثلاثتهم مع الاسرى ، في حين ان عمر بن الخطاب نفسه يعلم بأن هؤلاء الثلاثة كانوا يدافعون عن النبي في مكة ومع المحاصرين في شعب ابي طالب ، وانهم قد خرجوا مع المشركين مكرهين ونفوسهم منطوية على الاسلام والايمان بكل ما جاء به محمد بن عبد الله ، والله سبحانه أعلم بما انطوت عليه نيته ان صحت عنه هذه المقالة .

علي في معركة احد

لقد تركت نتائج معركة بدر جرحـــا بليغا في نفـوس القرشيين والمنافقين واليهود ومن على شاكلتهم من الأعراب الذيـــن كانوا لا يزالون على شركهم ، هذا الجرح تركهم لا يفكرون ولا يعملون لغـــير الثأر لانفسهم واستعادة هيبتهم التي فقدوها في تلك المعركة ، وعادوا يبكون قتلاهم بعد ان منعوا النساء من البكاء والعويل قرابة اشهـــر معدودات ، لقد عادوا الى البكاء لانه يلهب النفوس ويثير المشاعر ، فكانوا يأتون براحلة الرجل او فرسه ويجمعون النساء حولها للنياحـة ويرددون أحداث بدر وما جرى فيها .

ومضت قريش على ذلك لا هم لها الا الاستعداد للجولة الثانية مع محمد وأتباعه وتعبئة النفوس ، ولكن هندا بالرغم من انهـــا أصيبت بأبيها وعمها وأخيها قد ابت ان تبكي وتظهر بمظهر الحزيـــن الجازع مخافة ان يشمت بها محمد وأتباعه على حد تعبيرها ووزعت قريش رسلها خارج مكة للتنديد بمحمد وشحن النفوس عليه وعلى أتباعه . ولكن ذلك وغيره لم يكن ليرهب محمد بن عبد الله ولا المسلمين من أتباعه لاسيما وقد امدتهم معركة بدر بالقوة والثقة بأنفسهم فقبل ان يستعيدوا

راحتهم ويعوضوا عما بذلوه من جهد وعناء وقبل ان تتم دورة الاسبوع على رجوعهم الى المدينة يزفون الى من بقي فيها من الرجال والنساء اخبار بدر وتنائجها ، امرهم بغزو بني سليم وكانوا قد تجمعوا لغزو المدينة وقاد الحملة بنفسه وأعطى لواءه لعلي (ع) كما نص على ذلك مؤلف السيرة الحلبية في سيرته ، ولما بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر اقام عليه ثلاثة ايام فلم يجد احدا منهم ثم رجع الى المدينة وكانت هذه الغزوة في الرابع والعشرين من شهر رمضان بعد معركة بدر بأيام قليلة كما ذكرنا .

وفي النصف من شوال وبعد معركة بدر بشهر واحد تقريبا غزا النبي بني قينقاع احدى قبائل اليهود في المدينة ، وكان قد عاهدهم حين دخوله اليها وعاهدوه على ان لا يغدروا به ولا يتعاونوا مع احد عليه ، ولكنهم بتحريض من قريش نقضوا العهد وتآمروا على قتله وحاولوا تنفيذ مخططهم وهو في حيهم يجلس الى جنب حائط من دورهم ، وقبل ان يحين موعد التنفيذ اخبره الوحي بذلك فقام من ساعته وانسحب الى داخل المدينة وأنزل عليه بهذه المناسبة الآية كما يدعي المؤلفون في تفسير القرآن :

وإما تخافن من دقوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين .

فسار اليهم في اصحابه وكان لوائه مع الحمزة وعلي يقود الحملة ويتقدم المسلمين فاستولى الخوف على اليهود والتجأوا الى معاقلهم وحصونهم فحاصرهم النبي خمس عشرة ليلة وكانوا اربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، ولما اشتد عليهم الحصار واستولى عليهم الخوف نزلوا على حكم رسول الله ونزحوا الى اذرعات من بلاد الشام مع اطفالهم ونسائهم وتركوا اموالهم غنيمة للمسلمين الا ما حملوه معهم حسبما تم الاتفاق بينهم وبين النبي (ص) وقيل في سبب هذه الغزوة غير

ذلك ومن اراد التفاصيل فعليه ان يرجع الى سيرة المصطفى حيث تعرضنا لهذه المواضيع وبحثناها من جميع جوانبها .

وفي النصف من شهر المحرم بعد معركة بدر بأربعة اشهر تقريبا بلغه ان جماعة من بني سليم وغطفان قد تجمعوا في ارض لبني سليم يقال لها قرقرة الكدر يريدون غزو المدينة فسار اليهم في نحو مايتي رجل من المهاجرين والانصار وأعطى لواءه لعلي (ع) وقبل ان يصل اليهم فروا من مكانهم وتفرقوا في بطون الاودية ومرتفعات الجبال ولم يجد احدا منهم غير الرعاة فاستولى على المواشي التي كانت معهم وهي خمسمائة بعير فأخرج خمسها ووزع ما بقي منها على اصحابه . وهكذا كان الأعراب يحتشدون بين الحين والآخر في مختلف الاماكن ويخططون لغزو المدينة ، ولكن النبي كان يفوت عليهم تدابيرهم فيخرج اليهم يقود المسلمين احيانا او يرسل اليهم السرايا ، وفي الغالب يكون لواؤه مع علي (ع) فلا يرجع حتى يشتت جمعهم ويستولي على مواشيهم ، واستمر الحال على ذلك الى ان جاء شوال من السنة الثالثة للهجرة وبعد ان مضى على هجرة النبي الى المدينة نحو من اثنين وثلاثين شهرا فكانت معركة أحد التي اصيب فيها المسلمون بصدمة قاسية كانت نتيجة لعدم تقيدهم بأوامر الرسول واستخفافهم بالتخطيط الذي وضعه للمعركة منذ بدايتها .

علي في معركة احد

لم تهدأ قريش منذ ان أصيبت في بدر بتلك النكبة التي لم تكن تدور في حسابها وظلت تستعد للثأر من محمد وأصحابه خلال سنة او تزيد كما ذكرنا ، فلما استدار العام كانت قريش قد استكملت عدتها واجتمع اليها أحلافها من المشركين واليهود وانضم اليها كل حاقد وناقم على الدين الجديد من اصحاب الامتيازات وذوي الجاه والمال ، وكان العباس بن عبد المطلب يشترك احيانا في الرأي ليكون على صلة بكل تصرفاتهم وتحركاتهم ، ولما أجمعوا على غزو المدينة كتب الى النبي(ص) كتابا وصف له حالهم واجتماع كلمتهم وعددهم وعدتهم وأرسل الكتاب مع رجل من غفار وأوصاه بالكتمان والاسراع في السير حسب استطاعته . فمضى الغفاري في طريقه الى المدينة يجدّ السير حتى دخلها بعد ثلاثة ايام او اربعة ، فدفع الكتاب للنبي (ص) فأعطاه الى ابي بن كعب ليقرأه له وأوصاه بأن يكتم الخبر ولا يحدث احدا بما فيه، وقصد دار سعد بن الربيع وقص عليه محتويات الكتاب وأوصاه بالكتمان وقال اني لأرجو ان يكون في ذلك الخير .

وبدأ النبي (ص) من ساعته يستعد لملاقاة قريش ويعد العدة لذلك،

ومضت قريش مع أحلافها لغزو المدينة وخرج جيشها من مكة في ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم خمس عشرة امرأة وبينهن هند بنت عتبة زوجة ابي سفيان بن حرب وذلك في اوائل شوال من السنة الثالثة لهجرة النبي ، ولما بلغت الابواء وفيها قبر امنة بنت وهب ام النبي دفع الحقد الطائش بعض القرشيين الى نبش قبرها واخراج رفاتها منه وحرقها تجاوبا مع رغبة هند زوجة ابي سفيان ، وقد الحت على ذلك وبركت الى جانب القبر وأقسمت بالأزلام ان لا تبرح مكانها حتى تنبش القبر وتخرج الرفاة منه ، ولكن بعض زعماء قريش حالوا بينها وبين ما تريد، وقدروا ان ذلك لو تم ربما يصبح عادة عند العرب ، وقالوا اذا فعلتم ذلك فما يمنع خزاعة وبني بكر ان تنبش قبور قريش واستطاعوا بعد حوار طويل التغلب على هند ومن يرى رأيها . وتابعت قريش مسيرتها حتى بلغت العقيق وحطت رحالها في سفح جبل على بعد خمسة اميال من المدينة ، وانتقلوا منه الى ذي الحليفة في جوار المدينة وتركوا خيلهم وابلهم ترعى في بساتين المدينة .

وما ان اتصل خبرهم بالنبي (ص) حتى جمع المسلمين واستشارهم في الموقف الذي يجب ان يتخذوه في مثل هذه الظروف الحرجة واختلفت آراء المسلمين في ذلك فبين من رأى ان يتحصن النبي في المدينة ويتخذ في داخلها جميع الاحتياطات لمقابلتهم في شوارعها ، وبين من رجح الخروج منها ومقابلتهم في خارجها وقد بحثنا هذه النواحي بحثا وافيا في سيرة المصطفى ، ولا يهمنا منها الان الا ما يتعلق بمواقف علي امير المؤمنين في تلك المعركة .

وتنص المصادر التاريخية على ان النبي (ص) بعد ان استطلع رأي اكثر المسلمين حول الموقف جمعهم وخطب فيهم وحثهم على الصبر والجهاد والثبات ووعدهم بالنصر والأجر اذا صبروا وأخلصوا في جهاد عدوهم وتجهز للخروج بمن معه وكانوا الفا او يزيدون قليلا ودفع لواءه

لعلي بن ابي طالب (ع) ووزع الرايات على وجوه المهاجرين والانصار وخرج من المدينة لقتال الغزاة ، ولما بلغ الشوط وهو مكان الى جوار المدينة رجع عبد الله بن ابي وجماعته وكانوا نحـــوا من ثلث الجيش الذي خرج مع النبي (ص) .

وجاء في رواية ثانية ان النبي (ص) لما بلغه ان حلفاء عبد الله بـــن ابي من اليهود خرجوا معه امـــر بارجاعهم وقال : لا نستعين بالشرك على اهل الشرك ، فرجع عبد الله وأحلافه وكانوا نحوا من ثلاثمائة او يزيدون ، وبقي النبي في سبعمائة من المسلمين ومضى حتى بلغ أحدا، فأعد اصحابه للقتال ووضع تخطيطا سليما للمعركة فأمر خمسين رجلا من الرماة ان يكونوا من وراء المسلمين الى جانب الجبل وأكد عليهم ان يلزموا اماكنهم ولا يتركوها حتى ولو قتل المسلمون عن آخرهم ، كما اوصاهم ان يرشقوا الخيل بالنبال اذا ارادت قريش ان تهاجـــم المسلمين من تلك الناحية ، ونظم صفوف المسلمين تنظيما دقيقا يضمن لهم النصر بإذن الله .

وتأهب المشركون للحرب وأعطوا لواءهم لبني عبد الدار وأول من استلمه منهم طلحة بن ابي طلحة ، ولما علم النبي بأن لواء المشركين مع بني عبد الدار اخذ اللواء من علي (ع) وسلمه الى مصعب بن عمير ، وكان من بني عبد الدار وبقي معه الى ان قتل ، فلما قتل رده النبي الى علي (ع) ، ولما التحمت المعركة بين الفريقين تقدم طلحة بن ابـــي طلحة وطلب البراز فخرج اليه علي (ع) وبـــرزا بين الصفين ورسول الله (ص) جالس في عريش أعد له يشرف على المعركة ويراقب سيرها ، فضرب علي طلحة على رأسه ضربة فلق فيها هامته ووقع يخور في دمه كالثور على حد تعبير الراوي ، فكبّر رسول الله والمسلمون ، ولما قتل حامل لواء المشركين تقدم اخوه عثمان بن ابي طلحة وأنشد :

ان على رب اللواء حقا ان يخضب الصعدة او يندقا

فأخذ اللواء وتقدم به والنسوة خلفه يضربن بالدفوف وينشدن :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق مشي القطا البوارق

المسك في المفارق ان تقبلوا نعانق او تدبروا نفارق

فحمل عليه الحمزة بن عبد المطلب فضربه بسيفه ضربة كانت بهـا نهايته ورجع عنه يقول : انا ابن ساقي الحجيج .

وأخذ اللواء بعدهما اخوهما ابو سعيد بن ابي طلحة فحمل عليـه علي فقتله ، ثم اخذ اللواء ارطاة بن شرحبيل فقتله علي ايضا ، وأخذ اللواء بعدّ ذلك غلام لبني عبد الدار فقتله علي بن ابي طالب. وتعاقب على اللواء تسعة من بني عبد الدار فقتلوا بسيف علي وعمه الحمزة ، وكان علي (ع) اشد فتكا بحملة اللواء وأبطال المشركين من جميـع المسلمين كما تنص على ذلك المؤلفات في سيرة الرسول (ص) .

وجاء في تاريخ ابن الاثير ان عليا (ع) قتل حملة اللواء وأشارت الى ذلك رواية المفيد في ارشاده والطبري في تاريخه ، وروى الحسن بـن محبوب عن الامام ابي عبد الله الصادق (ع) انه قال : كان اصحـاب اللواء يوم احد تسعة من أبطال قريش وبني عبد الدار قتلهم علي بن ابي طالب عن آخرهم .

وروى علي بن ابراهيم في تفسيره انه بعد ان قتل علي بن ابي طالب حملة اللواء تقدم غلام لبني عبد الدار يدعى صواب فحمل عليه علـي وقتله وسقط اللواء في المعركة ولم يجسر احد ان يتقدم ويأخـذه ، فتقدمت اليه امرأة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية وفيها يقول الشاعر :

ولولا لواء الحارثية اصبحوا يباعون في الاسواق بيع الجلائب

وفي رواية علي بن ابراهيم ان طلحة بن ابي طلحة حينما برز اليـه علي (ع) قال له : لقد علمت يا قضيم انه لا يجسر عليّ احد غيرك . ومضى الراوي يقول : لقد سئل الامام الصادق (ع) عن معنى قـول طلحة لعلي يا قضيم ، فقال الامام الصادق : ان رسول الله يوم كان في

مكة لم يجسر عليه احد لمكان ابي طالب ، فكانوا يعرون به الصبيان اذا خرج يرمونه بالحجارة والتراب فشكا ذلك لعلي (ع) فقال له بأبي انت وأمي يا رسول الله اذا خرجت فاخرجني معك ، فخرج معه في اليوم الثاني فتعرض له الصبيان على عادتهم فحمل عليهم علي (ع) فكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم فيرجع الصبيان الى اهلهم باكين يقولون قد قضمنا علي بن ابي طالب فصار يعرف بين صبيان مكة بالقضيم .

وتؤكد اكثر المرويات انه بعد ان قتل اصحاب الألوية والتحم الجيشان لم يتقدم احد من علي الا بعجه بسيفه او ضربه على رأسه ففلق هامته وأرداه قتيلا ، وانكشف المشركون لا يلوون على شيء حتى احاط المسلمون بنسائهم ودب الرعب في قلوبهم ولو اراد المسلمون ان يأسروا هندا ومن معها ما وجدوا من يمنعهم من ذلك .

وجاء في رواية شرح النهج عن الواقدي انه قال : ان النصر الذي تهيأ للنبي (ص) في احد لم يتهيأ له في موطن قط ، وظل النصر الى جانب المسلمين حتى عصوا الرسول وانصرفوا الى الغنائم ، وأضاف الى ذلك ان الذين حضروا المعركة من المسلمين كانوا يقولون : والله لقد كنا ننظر الى هند ومن معها من النساء والجواري منهزمات ما دون اخذهن شيء لمن ارادهن ، ولكن لا مرد لقضاء الله ، فلقد أصيب المسلمون من قبل الرماة الذين وضعهم النبي (ص) من ورائه ليحموا ظهورهم بالنبال ان هوجموا من جهة الجبل ، ولما انهزم المشركون وانصرف المسلمون الى الغنائم ترك اكثرهم المكان الذي وضعهم فيه رسول الله ، ولم يبق سوى قائدهم عبد الله بن جبير في نفر لا يتجاوزون التسعة او العشرة ، فنظر خالد بن الوليد الى الجبل فوجده خاليا الا من اولئك النفر ، فاستغل الموقف وهاجمهم فثبتوا له ولخيله وكانت اكثر من مائتين ، ولما نفدت نبالهم دافعوا بسيوفهم حتى

النفس الاخير ، وخلال تلك الفترة من الكفاح البطولي الذي قام بـه عبد الله بن جبير ومن معه نظر المنهزمون الى خيلهم التي وجدت منفذا للغارة على المسلمين وهم آمنون مطمئنون بما حققوه من النصر وقد الهتهم الغنائم حتى عن التفكير بالنبي (ص) ، فرجعوا وأحاطوا بالمسلمين من جميع جهاتهم ، فما احس المسلمون الا والعدو قد احاط بهـم واختلط بينهم ، وأصبحوا كالمدهوشين يتعرضون لضرب السيوف وطعن الرماح من كل جانب ، واشتد عليهم الامر حتى قتل بعضهم بعضا من حيث لا يقصدون . ولم يكن علي (ع) يفكر في تلك اللحظات الحاسمة الا بالرسول وسلامته لاسيما وقد رأى المشركين يتجهون نحوه وأصبح هدفهم الاول بعد ان اصبحت المعركة لصالحهم ، فأحاط به هو وجماعة من المسلمين يدافعون عنه ويجالدون بين يديه والحمزة يهد الناس بسيفه هدا على حد تعبير المؤرخين ، وقد تفرق عن النبي اكثر اصحابه وحمل عليه المشركون من كل جانب حتى اصيب ببعض الجراحات وأغمي عليه.

وقال المفيد في ارشاده بسنده الى ابن مسعود : ان الذين ثبتـوا مع رسول الله علي وأبو دجانة وسهل بن حنيف ، وقد وقفوا حولـه يدفعون عنه غارات قريش والنبي مغمي عليه ، فلما افاق قال لعلي : ما فعل الناس قال : لقد نقضوا العهد وولوا الدبر . وفيما هو الى جانبه واذا بكتيبة من المشركين تتجه نحو النبي ، فقال يا علي : اكفني هؤلاء، فانقض عليهم كالصقر فانهزموا بين يديه حتى اجلاهم وقتل جماعة منهم، وفيما هو يدافع ويصد الهجمات المتتالية على رسول الله ، واذا بكتيبة تنقض على النبي حتى لتكاد تبلغ منه غايتها لولا ان عليا قد انقض عليها وفرقها عنه .

وجاء في شرح النهج عن محمد بن حبيب في اماليه ان رسول الله لما فر عنه معظم اصحابه يوم احد اتجهت اليه كتائب المشركين فقصدته كتيبة من بني كنانة ، ثم من بني عبد مناة من كنانة وفيها اكثر مـن

خمسين فارسا ، فقال : يا علي اكفني هذه الكتيبة وكان راجلا وهم على متون خيولهم ، فما زال يضربهم بسيفه حتى فرقهم عنه ، ثم جاءته كتيبة اخرى ففعل فيها ما فعل بغيرها ، ومضى يقول : انهم تجمعوا عليه مرارا وعلي يصدهم عنه حتى قتل عشرة من بني سفيان بن عوف ، فنزل جبرائيل على رسول الله (ص) وقال له يا محمد : ان هذه المواساة لقد عجبت منها الملائكة ، فقال وما يمنعه من ذلك وهو مني وأنا منه ، فقال جبرائيل وأنا منكما وسمع في ذلك اليوم نداء من السماء لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي ، فسئل رسول الله عن ذلك فقال هذا جبرائيل .

وقد روى هذا الحديث جماعة من المحدثين وهو من الاخبار المشهورة ، وأضاف الى ذلك في شرح النهج قوله : وقد وقفت عليه في بعض نسخ مغازي ابن اسحاق ، وسألت عنه شيخي عبد الوهاب بن سكينة ، فقال هو من الاخبار الصحيحة ، فقلت له : فما بال الصحاح لم تشتمل عليه ، فقال أوكلما كان صحيحا تشتمل عليه الصحاح : لقد اهمل جامعو الصحاح كثيرا من الاخبار الصحيحة [1] .

وممن روى حديث لا سيف الا ذو الفقار صاحب الرياض النضرة في المجلد الثاني من رياضه ، وعلي بن سلطان في مرقاته ، وأخرجه أحمد في مناقبه والهيثمي في مجمع الزوائد والطبري وغيره [2] .

وقد اتفق المؤلفون في سيرة الرسول ان عليا (ع) قد وقف في ذلك اليوم موقفا لم يحدث بمثله التاريخ لاحد من الناس فقد نسي نفسه وكل شيء يتعلق بحياته ليسلم الرسول ، ولقد كانت الدماء على كتفيه كأكباد

---

١ ـ انظر شرح النهج لابن ابي الحديد جـ١ ص ٣٧٢ معركة احد وقد روى حديث لاسيف الا ذو الفقار الطبري في تاريخه ايضا .

٢ ـ انظر فضائل الخمسة جـ١ ص ٣٤٣ .

الابل وسيفه في يده كالإعصار لا يدنو منه فارس الا مزقه ولا كتيبة الا فرقها وجندل أبطالها .

وكان الحمزة في وسط المشركين كالمارد يهد الناس بسيفه هدا وهم يفرون من بين يديه كما جاء في رواية ابن كثير في البداية والنهاية .

وفي رواية الطبري انه قد تفرق عن رسول الله اصحابه من المهاجرين والانصار ، وكان ممن تفرق عنه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وأضاف الاستاذ هيكل في كتابه حياة محمد أبا بكر ايضا .

وحدث الطبري في تاريخه عن محمد بن اسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع ان انس بن النضر قال لعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والانصار وقد القوا بأيديهم ناحية : مـــا يجلسكم هنا فقالوا لقد قتل محمد رسول الله . فقال ومـــا تصنعون بالحياة من بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله فلـــم يتحركوا ، ثم تركهم واستقبل القوم فقاتل حتى قتل .

وأضاف الى ذلك الطبري في ص ٣٠ من الجزء الثالث من تاريخه انه فشا في الناس ان محمدا قد قتل فقال بعض من فر عنه والتجأ الـى الصخرة فوق الجبل وفيهم عمر بن الخطاب وأبو بكر : ليت لنا رسولا الى عبد الله بن ابي ليأخذ لنا أمانـا من ابي سفيان يا قوم ان محمدا قد قتل فارجعوا الى قومكم قبل ان يأتوكم ويقتلوكم ، فقال لهم إنس ابن النضر : يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، ثم تركهم وقاتل حتى قتـــل بعد ان اصيب بسبعين ضربة وتبضع بدنه ، ولولا ان اخته عرفته لم يعرفه احد مـن المسلمين ، وبهذه المناسبة نزلت الآية كما يدعي بعض المفسرين : ومـا محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل فان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا .

هذا وان رواية الطبري لا تنص على ان ابا بكر كان من الفارين

والمنهزمين في تلك المعركة ، كما وانه لم يرد له ذكـــــر مع المقاتلين والمدافعين عن النبي في الطبري وغيره من المجاميع غير ان ابن ابي الحديد في المجلد الثالث من شرح النهج روى انه خلال الجولة الاولى مـــع المشركين برز عبد الرحمن بن ابي بكر وطلب البراز ، وكان ابو بكر الى جانب النبي (ص) فقال انا له يا رسول الله . فالتفت اليه وقال له : اجلس ومتعنا بحياتك يا ابا بكر .

اما عثمان فقد روى الطبري وغيره انه فر هو ورجلان من الانصار وهاموا على وجوههم من الخوف ، ولما رجعوا الى المدينة بعد رجوع النبي اليها ، قال لهم لقد ذهبتم بها عريضة .

ومما يدل على ان ابا بكر كان مع الفارين عن الرسول ما جاء فـي شرح النهج المجلد الثالث قال حضرت عند محمد بن معد العلـــــوي الموسوي الفقيه في داره بدرب الدواب في بغداد سنة ثمان وستمائة وقارىء يقرأ عنده مغازي الواقدي فقرأ حديث الواقدي الذي يقول فيه محمد بن سلمة : سمعت اذناي ورأت عيناي رسول الله يوم احد وقد انكشف عنه الناس الى الجبل وهو يدعوهم وهم لا يلوون على شيء سمعته يقول : الي يا فلان الي يا فلان انا رسول الله فما عرج عليـه احد منهما ومضيا مع من مضى من الناس ، فأشار ابن معد الي وقال اسمع . فقلت وما في هذه قال هذه كناية عنهما ، قلت ويجوز ان لا يكون عنهما : ولعله عن غيرهما ، فقال : ليس في الصحابة من يحتشم ويستحيا من ذكره بالفرار وما شابهه من العيب فيضطر القائل الـــى الكناية عنه الا هما ، قلت هذا وهم . فقال دعنا من جدلك ومنعك . ثم حلف بالله ان الواقدي ما عنى غيرهما ، ولو كان غيرهما لذكـــره صريحا ، وبان في وجهه التنكر من مخالفتي .

وعلى اي الاحوال فقد نص اكثر المؤرخين والمحدثين على انه لـم يثبت مع النبي في أحرج ساعات المحنة الا علي والحمزة ونفر قليل من

المهاجرين والانصار ، واستطاع ومن معه ان يفرقوا تلك الجموع التي تدفقت على النبي (ص) ولم يكن لها حاجة بغيره ، ورسول الله يدعو الناس ويقول الي عباد الله يكرر النداء تلو النـــداء ، فلم يستجب اليه احد .

وقال الاستاذ هيكل ، وكان اكبر هم كل مسلم ان ينجو بنفسه الا من عصم الله امثال علي بن ابي طالب .

وجاء في شرح النهج عن الواقدي انه روى كثير من المحدثين ان النبي حين سقط ثم اقيم قال لعلي (ع) اكفني هؤلاء الجماعة فحمـــل عليهم وقتل منهم عبد الله بن حميد من بني اسد بن عبد العزى ، ثـم حملت على النبي كتيبة اخرى فقال لعلي : اكفنيهم فحمل عليهم وفرقهم وقتل منهم أمية بن ابي حذيفة بن المغيرة المخزومي ، وظل علي ومـــن معه يدافعون ويجالدون القوم حتى فرقوهم عن النبي ونجا بنفســـه فاتجه الى صخرة في اعلى الجبل كان قد فر اليها جمع كبير من المسلمين واعتصموا بها ، وهم على يقين من ان النبي قد قتل وأصبحـــوا لا يفكرون الا في استجداء عطف ابي سفيان وقريش كما ذكرنا ، وحينما رأوه متجها نحوهم ظنوه احد القرشيين قد اقبل يتتبع فلولهم ، فوضع رجل سهما في قوسه وأراد ان يرميه ، ولكنه فوجيء بصوت الرسول يرن في اذنيه ويحك انا رسول الله فكانت مفاجأة سارة للجميع حيث تبينوا ان رسول الله لا يزال على قيد الحياة كما يدعي المؤرخون .

وفقد النبي (ص) في الجولة الثانية التي استعاد المشركون فيهـــا نشاطهم ومعنوياتهم عددا كبيرا من ابطال المسلمين كان من ابرزهـــم الحمزة بن عبد المطلب الذي كان يصفه المؤرخون اذا برز الى الحرب لا تكاد العين تدرك ذوأبة سيفه وهو ينقض من كفه علـــى الرؤوس والهامات كالبرق الخاطف يهد الناس هدا ، وفيما هو يصول ويجول يقد الرجال ويمزق الأوصال لا يثبت له احد الا أرداه صريعا ممـــزق

الاوصال ، واذا بالعبد الاسود الذي بذلت له هند ام معاوية كل شيء وأغرته بالاموال ليقتل لها الثلاثة محمدا وعليا والحمزة او احدهم اذا لم يستطع قتل الجميع لتشفي حقدها على هذا البيت ولتدرك ثأرهـــا بأبيها وأخيها وعمها وولدها حنظلة وغيرهم من بني أمية وعبد شمس الذين تركهم علي والحمزة صرعى على رمال بدر تنهشهم سباع البـــر ووحوش الفلاة ، ولكن العبد الاسود كان يدرك مدى الصعوبات التي تحيط بقتل محمد وعلي لان محمدا كان محاطا بأصحابه ، وعليا كان في ساحة الحرب في منتهى الحذر واليقظة حتى لكأنه يبصر من كل جهاته، ومناها بقتل الحمزةوظلتتنتظر ساعةالتنفيذ بعد انأغدقتعليهالعطاء، ولم يكن للعبد مهمة سوى قتل الحمزة ان اتاحت له الظروف ذلك فكمن له من وراء صخرة ، فمر الحمزة كعادته يطارد أبطال قريش وفرسانهـــا فحانت للعبد فرصة فهز حربته ورماه بها فأصابت منه مقتلا ، فاستدار الحمزة بوجهه ينظر من اين اتته الطعنة الغادرة ، وجسده يكاد يضيق بآلامه ولكنه تحامل على قدميه وأكرههما على المسير صوب قاتلـــــه فارتعدت فرائص القاتل حين رآه يتحرك نحوه ، ولكن قدمي الحمزة نبت عن المسير ولم يعد يطيق حراكا وفارق الحياة .

وقال الاستاذ عبد الفتاح وهو يتحدث عن موقف ابيسفيان وزوجته هند بنت عتبة بن عبد المطلب : قال وقد ورث الاحفاد مع الاحقاد صناعة الاجداد لانا لا نلبث ان نرى بعد هذا الموقف بنصف قرن او اكثر من الزمان الحفيد يزيد بن معاوية يستعيض عن رمح جده بقضيب يضرب به في شدق الحسين الذبيح ويتلهى بنثر ثناياه كأنما المثلة كانت لاسرته صناعة وكأنما فيها الامعان كان لهم ملهاة اي ملهـــاة . ومضى يقول : ولعل شيخ بني أمية لو ترك وحيدا وشأنه اذ ذاك لكان انحنى علـــى الارض فنفض التراب عن الكبد الملقاة ثم رمى بها في فمه لانيابه عساه يستسيغ بعض ما لفظت زوجته .

وقد تحدثنا في سيرة المصطفى عن مقتل الحمزة وما تلاه من أحداث وعن موقف النبي من ذلك بما يغنينا عن اعادته في هذا الكتاب .

وجاء في سيرة ابن هشام ان رسول الله لما انتهى الى فم الشعب خرج علي بن ابي طالب حتى ملأ ذرقته من المهراس وجاء بها الى رسول الله وغسل وجهه ورأسه من الدماء التي نزفت من جروحه .

وروى ابن الاثير ان عليا جعل ينقل الماء ويغسل جروح النبي (ص) فلم ينقطع الدم فأتت فاطمة الزهراء فعانقته وبكت وعالجت له جرحه حتى انقطع الدم .

ويدعي الواقدي كما جاء في شرح النهج ان فاطمة الزهراء خرجت من المدينة مع بعض نساء المسلمين ومعهن محمد بن سلمة وكن اربع عشرة امرأة ، ولكن رواية المفيد تنص على انه لما رجع النبي الى المدينة استقبلته فاطمة ومعها اناء فيه ماء فغسل النبي وجهه ، وظاهر هذه الرواية يدل على انها لم تخرج مع من خرج من النساء الى احد ، والرواية الاولى اقرب الى الاعتبار لان خبر هزيمة المسلمين قد بلغ المدينة. وشاع نبأ مقتل النبي في المدينة وقد سمعته فاطمة بلا شك في ذلك لانها كانت تتتبع اخبار المعركة ، ومن المستبعد ان تسمع بمقتل ابيها وعمها الحمزة ولا تخرج مع النساء لتنظر ما جرى على ابيها وبعلها وبقية المسلمين والامر في ذلك سهل ما دام لكلا الامرين وجه معقول ومقبول.

ومهما كان الحال فقد قتل علي (ع) وحده من فرسانهم وأبطالهم الاشداء الذين كانوا يبرزون اليه اثني عشر رجلا كما جاء في شرح النهج عن الواقدي عدا من قتل من غيرهم .

ولما رجع النبي (ص) بعد دفن القتلى ومعه علي (ع) وقد خضب الدم يده الى كتفه فتناولت منه فاطمة ذا الفقار فقال لها اغسليه فقد صدقني اليوم وفي بعض المرويات انه انشأ يقول :

افاطم هاك السيف غير ذميـــم فلست برعديـد ولا بلئيـــم
لعمري لقد اعذرتفي نصر احمد وطاعـــة رب بالعباد عليـــم
اميطي دماء القـوم عنه فانـــه سقى آل عبد الدار كأس حميم

وقد عرض الاستاذ الشيخ محمد الغزالي في كتابه فقه السيرة معركة احد وتجاهل فيها علي بن ابي طالب (ع) الذي لولاه لم يبق للاسلام اسم ولا رسم كما يستفاد من المجاميع التي تحدثت عن معركة احد وما جرى فيها من احداث وذكر رواية مسلم في صحيحه التي يقول فيها : انه لم يبق مع النبي الا سبعة من الانصار ورجلين من قريش ، ومضى يقول : ان الانصار السبعة قاتلوا حتى قتلوا ، ولم يصرح باسم الرجلين من قريش مع ان جميع المصادر التي لا بد لكل كاتب ان يعتمد عليها تنص على ان عليا (ع) قد جاهد جهادا لم يشهد له التاريخ مثيلا وتعدد مواقفه وتضحياته في تلك المعركة ، ولكن الغزالي لم يصرح في كتابه باسمه حتى لا تكون له ميزة على غيره من وجوه المهاجرين الذين فروا عن الرسول واعتصموا بالجبال ولم يبق لديهم الا ان يتوسلوا بالمنافق ابن ابي سلول ليأخذ لهم امانا من ابي سفيان ، وكان عليه ان يكون مع الواقع ولو لم يكن لمصلحة من يحب ويهوى .

علي في غزوة الاحزاب

لقد كانت غزوة الاحزاب في اواخر السنة الخامسة لهجرة النبي (ص) بعد غزوة احد بسنتين تقريبا وبين الغزوتين غزوات وأحداث ولواء النبي في الغالب بيد علي (ع) ، ولم تتعرض الدعوة او رجالها لأزمة من الازمات الا كان علي في طليعة العاملين على كشف غمها وكربها عن النفوس والقلوب ، وما من موقف يحتاج الى البطولات والتضحيات حين تملأ الخشية والرهبة نفوس الشجعان والابطال الا تجلى في مواقف علي وغزواته وحروبه .

لقد اجتمعت قريش وأحابيشها وأحلافها من عرب الحجاز ويهود يثرب لغزو محمد في دار هجرته حتى لا تقوم للاسلام بعد ذلك قائمة وكان من امرهم كما جاء في المؤلفات في السيرة والتاريخ ان جماعة من زعماء بني النضير الذين اجلاهم النبي عن المدينة وصادر ممتلكاتهم كسلام بن ابي الحقيق وحي بن اخطب وهوذة بن قيس وغيرهم وفدوا على قريش في مكة ، واتفقوا بعد حوار طويل على غزو المسلمين بعد ان

يجمعوا لهذه الغاية اكبر عدد ممكن ، فاستثيرت قريش بهذا التكتل الجديد ، وظنت ان هذا التكتل الجديد سيحقق لها ما لم تستطع تحقيقه في بدر وأحد .

وخرج جماعة من اليهود والقرشيين يتجولون بين أحياء العرب يحذرونهم من محمد اذا استتب له الامر فاستجاب لهم عدد من الأعراب ، وخرجت قريش من مكة بقيادة ابي سفيان في اربعة آلاف مقاتل بينهم ثلاثمائة فارس وعقدوا لواءهم في دار الندوة ، وخرج من سليم سبعمائة بقيادة سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية ، وخرج بنو اسد وفزارة في الف مقاتل بقيادة عيينة بن حصن كما خرج من اشجع وبني مرة بن عوف عدد كبير حتى بلغ مجموعهم عشرة الاف مقاتل ، ولما بلغ خبرهم النبي (ص) عن طريق جماعة من خزاعة وفدوا عليه وأخبروه بما اجتمعت عليه قريش وأحلافها جمع المسلمين وحثهم على الجهاد والصبر والاستعداد لمقابلة الغزاة ، واستشارهم بما يجب اتخاذه من التدابير حتى لا تتعرض المدينة للاحتلال ، وكان الرأي الاخير الذي ابداه سلمان الفارسي قد نال استحسان الجميع ، لان عملا من هذا النوع لا بد وأن يعرقل تقدم الغزاة ويخفف من اخطار المجابهة بين الفريقين .

وجاء في المرويات عن هذه الغزوة ان المسلمين قد اعجبوا بسلمان وأكبروه على هذا التدبير وتقرب اليه المهاجرون والانصار ، فقال المهاجرون : سلمان منا ، وقال الانصار سلمان منا ، وبدا عليهم الحماس في تلك اللحظات الحاسمة لتكريم سلمان وتعظيمه فأعجب النبي بذلك واشترك معهم في هذا التكريم فقال كلمته المشهورة : سلمان منا اهل البيت ، وفي مناسبة ثانية قال مخاطبا المسلمين : لا تقولوا سلمان الفارسي ولكن قولوا سلمان المحمدي .

ولعله اراد بذلك ان يفهم المسلمين ان الانساب والاحساب لا

ترفع من شأن الانسان ، انما الذي يرفع من شأنه هـو العمل الطيب والجهد المخلص ، ولولا اخلاص سلمان وايمانه العميـق بالاسلام وتعاليمه وتفانيه في سبيله لكان كغيره من الناس .

وأقبل المسلمون جميعا ومعهم النبي (ص) يعملون برأي سلمـان يحفرون خندقا يحيط بالمدينة ويحول بين الغزاة وبين دخولها بتلـك السرعة .

وفي تاريخ الطبري وغيره ان النبي قد حدد لكل عشرة من المسلمين اربعين ذراعا وكان هو كأحدهم يحفر بنفسه ويجهد نفسه في العمل ، وانسل جماعة من المنافقين الى بيوتهم ، وبعضهم جاء يطلب الاذن من النبي ويتذرع بأسباب لا تمت الى الواقع بصلة فأنزل الله فيهم بعض الآيات كما جاء في المؤلفات في السيرة النبوية .

وأقبلت قريش في جموعها المتدفقة التي تفوق عدد المسلمين بأكثر من ثلاث مرات وعدتها التي لا يملك المسلمون مثلها يملأهـا الغرور والخيلاء وهي تحسب ان محمدا وصحبه لا يثبتون لها ساعات قلائل واذا بها تجد بينها وبين المسلمين حاجزا لا يمكن اجتيازه الا بعـد جهود شاقة لاسيما وان أبطال المسلمين قد وقفوا بالمرصاد لكل مـن تحدثه نفسه باجتياز ذلك الحاجز ، فوقفوا امامه مذهولين بكل جموعهم وفرسانهم ، فأخذوا يتراشقون بالنبال والسهام ولا يجرأون على العبور الى ما وراءه ، وأفلح ابو سفيان بن حرب في استجلاب بني قريظة الى جانب قريش بعد حوار طويل وأخذ ورد واشتد الامر على النبي بعـد انضمام اليهود الى الغزاة وخاف المسلمون على ذراريهم ونسائهم وجعل المنافقون يعيثون ويبثون الخوف والذعر في المدينة ، وقد وصف الله سبحانه موقف المسلمين والمشركين في ذلك اليوم بقوله : واذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلـزالا شديدا ،

واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا .

واستطاع النبي بحكمته وسلامة تدبيره ان يفرق بين الغزاة وبين قريظة بواسطة نعيم بن مسعود في حديث طويل لا يعنينا ذكره في هذا الكتاب .

وضاق بقريش امرها وخشي قادتها من تفكك تلك الجموع لو بقي الموقف عند هذا الحد من المناوشات التي لا تغنيهم شيئا فأقبل عمرو ابن ود العامري وكان يعادل الفا من الابطال كما يصفه بعض المؤرخين، وكان قد اشترك في معركة بدر الكبرى وأصيب بجروح بالغة منعته من الاشتراك في معركة احد كما يدعي الطبري وغيره .

وأقبل يوم الخندق هو وعكرمة بن ابي جهل وهبيرة بن ابي وهب ونوفل بن عبد الله ، وضرار بن الخطاب بن مرداس اقبلوا على خيولهم يستنفرون جيشهم للحرب واتجهوا نحو الخندق ليعبروا منه الى الجانب الآخر حيث يرابط المسلمون ، وكان علي (ع) وجماعة من المسلمين يرابطون على الخندق في جهتهم ، وظل القوم يداعبون خيولهم ويروضونها على العبور لفترة من الزمن حتى اذا وجدوا مكانا يمكن للخيل ان تجتازه حركوها وعبروا الى الجهة الثانية ، فأقبل علي ورابط في ذلك المكان حتى لا يقتحمه احد غيرهم ، وأقبل عمرو بن ود يدعو المسلمين الى البراز ، وكأنما كلماته كانت نداء الى الموت فلم يجبه احد ، ولما سمعه علي ينادي ويتحدى المسلمين ترك مكانه وأقبل مسرعا نحو النبي وهو يقول : انا له يا رسول الله ، فقال له النبي (ص) معرضا عنه : انه عمرو يا علي ، وعاد الرجل يهتف بالمسلمين وهم سكوت لا يجيبون ، فتقدم علي يلتمس الاذن من النبي بمبارزته ، فأمره بالجلوس فأطاع وبوده لو يجد سبيلا لانتزاع الاذن من النبي ، ومضى عمرو بن ود يكرر النداء والتحدي للمسلمين ، ويقول : اين جنتكم

التي تزعمون ان من قتل منكم دخلها ، أفلا يحب احد منكم ان يذهب اليها .

هذا والنبي ينظر في وجوه المسلمين ويحثهم على مبارزته وهم يرتعدون من الخوف ، وعاد ابن ود الى هتافه وجعل ينشد كما في رواية الحلبي في سيرته والمفيد في ارشاده :

ولقد بححت من النداء بجمعهم هل من مبارز
اني كذلك لم ازل متسرعا نحو الهزاهز
ان الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

وأبى النبي ان يأذن لعلي وتمنى على المسلمين ان يبارزه احد منهم وقال : من يبرز له وأنا الضامن على الله له الجنة فلم يرتفع لاحد منهم صوت ، فأذن عند ذلك لعلي (ع) وأعطاه سيفه وألبسه درعه وعمامته ورفع كلتا يديه وقال : اللهم انك اخذت عبيدة يوم بدر وحمزة يوم احد وهذا علي اخي وابن عمي فلا تدعني فردا وأنت خير الوارثين ، فبرز اليه علي (ع) وهو يقول :

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجي كل فائز
اني لأرجو ان اقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى صيتها بعد الهزاهز

ووقف له عمرو بن ود بجبروته وكبريائه معتزا ببطولاته في المعارك والحروب تياها بصيته الذاهب بين أحياء العرب يرويه رواتهم في كل مكان .

وقف امام علي مستهينا به ينظره بعين ساخرة وفي نظرته غرور وتيه وكبرياء ويقول له بعد ان انتسب اليه : ليبرز الي غيرك يا ابن اخي من اعمامك من هو اشد منك ، فاني اكره ان اقتلك لان اباك كان لي صديقا وكنت له نديما ، وأضاف الى ذلك الرواة ان عليا قال له : يا

عمرو انك تقول : ما دعاني احد الى خلال ثلاث الا وأجبته ولو الى واحد منها ، وأنا ادعوك الى الاسلام فضحك منه وقال دع عنك ذلك فاني لا اترك دين الآباء والأجداد ، فقال : ادعوك لان ترجع بهذا الجيش الذي معك ، فقال لا ادع العرب تتحدث بفراري ، فعندها قال له امير المؤمنين (ع) : اما اذا ابيت الاسلام والرجوع بمن معك فاني ادعوك الى النزال والحرب ، فقال له : يا ابن اخي ليبرز الي من هو أسن منك فإني لا احب ان اقتلك ، فقال له علي ولكني احب ان اقتلك . فاستشاط غضبا ونزل عن فرسه وعقره وحمل على علي وضربه على رأسه فاستقبلها بالدرقة فقدها السيف ونفذ منها الى رأسه فشجه وبقي محتفظا بثباته وتوالت عليه الضربات وهو يحيد عنها ، ثم كر عليه علي (ع) فضربه على حبل عاتقه ضربة كان دويها كالصاعقة ارتج له العسكران ، فسقط يخور بدمه كالثور وارتفعت غبرة حالت بينهما وبين الجيشين .

وجاء في بعض المؤلفات في سيرة النبي عن جابر بن عبد الله الانصاري انه قال : كنت تبعت عليا حينما برز لعمرو بن ود لانظر ما يكون من امرهما ، فلما ضربه علي (ع) ثارت غبرة شديدة حالت بيني وبينهما غير اني سمعت تكبيرا فكبّر المسلمون عند ذلك وعلمت ان عليا قد قتله ولما قتل انهزم الذين كانوا معه واقتحمت خيلهم الخندق ، فتورطت بنوفل بن عبد بن المغيرة فرسه في الخندق فرماه المسلمون بالحجارة ، فقال يا معشر العرب قتلة اجمل من هذه فنزل اليه علي فقتله كما جاء في رواية الطبري .

وروى ابن هشام في سيرته عن الزهري انه كان مع عمرو بن ود ولده سحل فقتله علي بن ابي طالب ، ولحق بهبيرة بن ابي وهب وهو راجل وهبيرة فارس ، فضربه بالسيف فأصاب قربوس سرجه فسقطت درعه ، وانهزم عكرمة بن ابي جهل وضرار بن الخطاب ، وأصيب منبه بن

عثمان بن عبيد الله بسهم فمات منه بمكة كما روى ذلك الطبري ايضاً.

وقال المفيد في الارشاد : انه لما قتل علي عمرو بن ود أقبل نحو رسول الله ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب هلا سلبته درعه فانه ليس في العرب مثلها ، فقال اني استحييت ان اكشف سوأته .

وجاء في المجلد الثاني من فضائل الخمسة من الصحاح الستة عن المجلد الثاني من مستدرك الصحيحين عن سفيان الثوري بسنده عن النبي (ص) انه قال : لمبارزة علي لعمرو بن ود يوم الخندق افضل من اعمال امتي الى يوم القيامة .

وروى ذلك الخطيب البغدادي في المجلد الثالث عشر من تاريخه كما ذكره بنصه الرازي في تفسير سورة القدر ، وفي الدر المنثور للسيوطي في تفسير قوله تعالى : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال عن ابي حاتم وابن مردويه وابن عساكر ان الله كفى المؤمنين القتال بعلي [1] .

وروى المفيد في ارشاده عن قيس بن الربيع عن ابي هارون السعدي انه قال : اتيت حذيفة بن اليمان فقلت له : يا ابا عبد الله انا لنتحدث عن علي ومناقبه فيقول لنا اهل البصرة: انكم تفرطون في علي فهل انت محدثي بحديث فيه ، فقال حذيفة : يا ابا هرون وما تسألني عن علي فوالذي نفسي بيده لو وضعت جميع اعمال اصحاب محمد في كفة الميزان منذ بعث محمد الى يوم القيامة ووضع عمل علي في الكفة الاخرى لرجح عمل علي على جميع اعمالهم ، فقال هذا الذي لا يقام له ولا يقعد ولا يحمل ، فقال حذيفة : يا لكع وكيف لا يحمل وأين كان فلان وفلان وحذيفة وجميع اصحاب محمد يوم عمرو بن ود العامري ، وقد دعا الى

---

١ ــ انظر فضائل الخمسة جـ٢ ص ٣٢٣ .

البراز فأحجم الناس كلهم ما خلا عليا ، فانه برز اليه وقتله الله على يده، والذي نفسي بيده لعمله ذاك اعظم اجرا من اعمال اصحاب محمد الى يوم القيامة .

وكل باحث يراقب موقف المسلمين وتخاذلهم ، والنبي يستنجد بهم ويحثهم على البراز وهم يرتعشون من الخوف ويراقب موقف المشركين واعتدادهم ببطلهم الذي طبق صيته الجزيرة بكاملها ، وكانوا على ثقة في ان هذا الشاب الذي دعل الاعاجيب في بدر وأحد سيلاقي مصيره المحتوم على يد فارسهم [عمرو بن ود العامري]، وحتى المسلمين انفسهم قد غلبهم اليأس وأيقن الكثير منهم بأن عليا سيكون ضحية جديدة في عداد الضحايا الذين سبقوه على يد فارس قريش والعرب جمعاء وستكثر الضحايا منهم من بعده .

ولكن الله سبحانه بدد حدسهم وخيب آمال المشركين وأمانيهم ووجد الجميع انفسهم تجاه حدث لم يكن بالحسبان وتغيرت بعده المقاييس فأحس المسلمون بالانفراج وعاد الامل بالنصر الى نفوسهم من جديد ، كما انهارت معنويات الغزاة بقتله وتضاءلت آمالهم بالانتصار على محمد وأصحابه ، كل من راقب الموقفين من ناحية ما يترتب عليهما من الآثار والنتائج لا يكون بعيدا عن الواقع اذا وصف موقف علي (ع) في ذلك اليوم بما وصفه به حذيفة وأمثاله .

ولما نعي عمرو بن ود الى أخته عمرة قالت : من قتله ومن الذي اجترأ عليه ؟ فقيل لها : قتله علي بن ابي طالب . فقالت : لقد قتل الابطال وبارز الأقران وكانت ميتته على يد كفء كريم من قومه وأنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكنت ابكي عليه دائم الأبد
لكن قاتله من لا يعاب به ... قد كان يدعى ابوه بيضة البلد
من هاشم في ذراها وهي صاعدة ... الى السماء تميت الناس بالحسد
قوم ابا الله الا ان تكون لهم ... كرامة الدين والدنيا بلا لدد

يا ام كلثوم ابكيه ولا تدعي بكاء معولة حرى على ولد

وانطوت بقتله أسطورة بطل طوى علي ذكره مع ما طواه من الشجعان والابطال ، كما انطوت النفوس على الحسد لهذا الشاب الذي لم يعد له مثيل بين أبطال العرب ، وقد رأوه في بدر يسبق جميع المسلمين الى رؤوس كبار قريش وأبطالها ، وفي احد ثبت كالجبل الراسخ امام ذلك السيل الذي تدفق للقضاء على محمد بن عبد الله وقد فر عنه كبار الصحابة وتركوه في متناول تلك الحشود لولا علي الذي وقف في وجهها وردها تتعثر بالخيبة والفشل ، وفي الخندق وحده الذي ادخل الرعب على الاحزاب وبدد آمالهم وأحلامهم بتلك الضربة التي اطاحت بفارس العرب ، وكان النصر حليفه في جميع مواقفه وغزواته ، والنبي (ص) مع ذلك يكثر من الحديث عن فضله ومكانته عند الله حتى لقد حسده اكثر الصحابة وكانوا يتصيدون له الهنات ليلصقوها به ، فلقد خرج النبي في بعض الايام ومعه الزبير يسيران ، فالتقيا بعلي في طريقهما فضحك له النبي وتبسم له علي ومضى لشأنه فثقل على الزبير ان يرى لعلي هذه المكانة في نفس الرسول (ص) فقال لرسول الله : لا يدع ابن ابي طالب زهوه ، ولم يخف على النبي ما انطوت عليه نفس الزبير من وراء هذه الكلمات ، فرد عليه بقوله : انه ليس بزهو ولتقاتلنه وأنت ظالم له .

ومضت الايام والاعوام الطوال ومرت أحداث وأحداث شهدها الزبير ولم يغب عنها علي (ع) ولا وقف الزبير في غير الاتجاه الذي اختاره لنفسه علي (ع) وظلت نبوءة الرسول في طي الغيب الى ان كانت المعركة التي قادها طلحة والزبير وعائشة عندما لاذ الناس بأمير المؤمنين وولوه مقاليد السلطة هناك استدعاه علي (ع) والمعركة في أشد مراحلها وذكره بمقالة النبي (ص) فعاد شبحها الى ذهنه واهتز لها

كيانه وكاد ان يتراجع عن الحرب لولا ان ولده عبد الله قد استحوذ عليه واختار له المصير السيء الذي انتهى اليه .

ومهما كان الحال وبالرغم من ان المشركين بعد مقتل عمرو بن ود ورفاقه قد اصيبوا بنكسة قاسية لم تكن في حسابهم من قبل وانهارت معنوياتهم الا انهم ظلوا يصطنعون التجلد والثبات ، ويفكرون بمهاجمة المدينة مهما كانت النتائج ولكن الله سبحانه كان لهم بالمرصاد فأرسل عليهم الصواعق والرياح العاتية فاقتلعت خيامهم وأكفأت قدورهم وبددت جميعهم فاستبد بهم الخوف والقلق واستعدوا للرحيل تاركين اكثر امتعتهم في الصحراء لا يطمعون بغير النجاة وأنزل على رسوله الآية : يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا .

علي في الحديبية

بعد ست سنوات من هجرة الرسول من مكة الى المدينة ، وفي مطلع ذي القعدة من السنة السادسة كما يدعي المؤرخون وبعد أحداث وحروب دامية مع قريش واليهود حقق فيها النبي (ص) تلك الانتصارات التي دفعت بالدعوة اشواطا بعيدة الى الامام وأصبح المسلمون فيها من اعظم القوى الضاربة في الجزيرة واتجه اكثر عرب الحجاز الى الدين الجديد . هذا والمسلمون يتحرقون لزيارة الكعبة ويتذكرونها كلما وقفوا في صلاتهم متجهين نحوها ، في ظل هذه الظروف بالذات عزم النبي (ص) على اداء فريضة الحج بأمر من الله سبحانه ، وسرى نبأ هذه الرحلة في انحاء المدينة وجوارها كالبرق الخاطف ، واتخذ النبي تدابير تتسم بالعمق وبعد المدى ، فدعا جماعة من غير المسلمين ليكونوا معه في تلك الرحلة وأرسل رسله الى العرب من مختلف القبائل ليظهر لهم ان الذين يحاربونه من قريش لا يحاربونه لاجل هبل واللات والعزى بل لانه يحارب الاستغلال والتسلط على الضعفاء والفقراء ويدعو الى المساواة في جميع الحقوق والواجبات .

وكان يتمنى ان يدخل مكة معتمرا في الاشهر الحرم بأكبر عدد

ممكن من المسلمين وغيرهم ، ولكن المؤلفين في سيرة الرسول يؤكدون بأن العرب الذين كانوا لا يزالون على شركهم لم يتجاوبوا معه ، وخرج بمن معه من المسلمين وكانوا الفا وأربعمائة او اكثر من ذلك بقليل ومعهم السيوف في اغمادها وأعلن في اكثر انحاء الجزيرة بأنه لا يريد حربا ولا قتالا .

وجاء في رواية المفيد في الارشاد انه اعطى لواءه لعلي (ع) كما كان يعطيه اياه في اكثر غزواته وحروبه وساق معه من الهدي سبعين بدنة وخرج من المدينة يتقدمهم على ناقته الغضوب ومعهم السيوف في اغمادها ومضى في طريقه باتجاه مكة ، ولما بلغ خبره قريشا اجتمعت كلمتهم على منعه من دخول مكة مهما كلفهم ذلك من جهد وتضحيات وأرسلوا خالد بن الوليد على رأس جماعة من فرسانهم ليقطع عليه الطريق ، ولما بلغه موقفهم قال : يا ويح قريش لقد اكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب فان هم اصابوني كان الذي ارادوه وان اظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين فما تظن قريش فوالله لا ازال اجاهد على الذي بعثني الله به او تنفرد هذه السالفة [1] .

وجاء في رواية ابن اسحاق ان قريشا اضطرته ان يعدل عن الطريق المؤدي الى مكة وانحرف به رجل من اسلم الى طريق وعرة المسالك خرجوا منها الى ثنية المراد مهبط الحديبية ، ورجعت قريش بعد ذلك الى مكة لتدافع عنها فيما لو اراد محمد الدخول اليها من تلك الجهة ، وحاولت اكثر من مرة التحرش بالمسلمين ومهاجمتهم بقيادة خالد بن الوليد ، ولكن عليا وجماعة من المسلمين الاشداء كانوا يصدون تلك الغارات ويفوتون على قريش جميع محاولاتها .

---

١ ـ السالفة صفحة العنق . ويعني بذلك انه لا يزال يجاهد حتى الموت .

ويدعي ابن اسحاق بروايته عن ابن عباس انها ارسلت خمسين رجلا من ابطالها الاشداء ليصيبوا جماعة من اصحاب النبي (ص) فأسرهم المسلمون وجاؤوا بهم الى النبي فأطلق سراحهم .

وظل النبي مصرا على دخول مكة كما أصرت قريش على منعه وبعد ان رأت ان اصحابه مصممون على القتال فيما لو اضطرتهم قريش لذلك وكلهم يفدون محمدا بالمهج والارواح ادركت انها لا تستطيع القضاء على محمد الا بعد القضاء على من معه من المسلمين ، وذلك يكلفها ما لا تطيق حمله ، لاسيما وقد بلغها ان المسلمين قد بايعوا النبي (ص) في ذلك الوادي تحت الشجرة على الموت فيما لو ارادت قريش القتال ، والى تلك البيعة تشير الآية التالية كما رجح ذلك جماعة من المفسرين :

لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا .

واضطرت قريش بعد ذلك الموقف الحازم من محمد وأصحابه وكان آخر من ارسلتهم الى النبي في الحديبية سهيل بن عمرو وحويطب من بني عبد العزى وجرت محاولات كثيرة بين الطرفين كان سهيل يراجع قريشا خلالها فيما يدور بينه وبين النبي من عروض واقتراحات ، ثم يعود اليه .

ويبدو مما جاء في صحيح الترمذي وكنز العمال وخصائص النسائي وتاريخ بغداد ان المفاوضة لم تكن بخصوص دخول النبي لمكة في ذلك العام او خلافه بل تناولت امورا اخرى لصالح المسلمين كما طالبت قريش بأمور لصالحها . ففي صحيح الترمذي بسنده الى ربعي بن خراش ان علي بن ابي طالب قال : لما كان يوم الحديبية خرج الينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو فقالوا :

يا محمد خرج اليك ناس من ابنائنا واخواننا وارقائنا وليس لهم فقه في الدين وانما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا فارددهم الينا .

فقال : اذا لم يكن لهم فقه في الدين كما تزعمون سنفقههم فيه . وأضاف الى ذلك يا معشر قريش لتنتهن او ليبعثن الله عليكم من يضرب

رقابكم بالسيف قد امتحن الله قلبه بالايمان ، فقال له ابو بكر وعمر والمشركون : من هو ذلك الرجل يا رسول الله؟ فقال هو خاصف النعل، وكان قد اعطى نعله لعلي يخصفها له وروى هذا الحديث بنصه النسائي في خصائصه والحاكم في مستدركه ، ولكن رواية النسائي والحاكم تنص على ان النبي حينما طلب منه المشركون ارجاع من فروا اليه من غلمانهم وأبنائهم التفت الى ابي بكر وعمر وقال لهما ما تقولان . فقالا صدق الرجل يعنون سهيل بن عمرو. فتغير وجه النبي والتفت الى الوفد وقال لن تنتهوا يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالايمان يضرب رقابكم ، فقال ابو بكر : انا هو يا رسول الله وقال عمر انا هو يا رسول الله ، فقال لا : ولكنه خاصف النعل فالتفتا واذا بعلي بيده نعل لرسول الله يخصفها له .

ويدعي الفيروزبادي في كتابه فضائل الخمسة من الصحاح الستة ان هذا الحوار رواه الكثيرون من المؤرخين والمحدثين ، وأشار الى مصادره في مجاميع الحديث السنية [1] .

وبعد ان تم الاتفاق بين الطرفين على بنود الصلح امر النبي (ص) عليا ان يدونها في كتاب خاص وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فاعترضه سهيل بن عمرو وقال نحن لا نعرف من هو الرحمن الرحيم واكتب مكانها باسمك اللهم ، فوافق النبي على ذلك وقال له : اكتب هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو ، فاعترضه سهيل وقال : لو كنا نعرف بأنك رسول الله لما قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فأمره النبي ان يمحو كلمة رسول الله ، فقال له علي : والله لا امحوها فأخذ الكتاب منه ومحاها بيده .

---

١ ـ انظر فضائل الخمسة ص ٣٣٧ و٣٣٨ من الجزء الثاني .

كما جاء في رواية البخاري ، وأضاف الى ذلك النسائي في خصائصه ان النبي قال لعلي : اما ان لك مثلها وستأتيها وأنت مضطر لذلك كما روى ذلك ابن ابي الحديد في شرح النهج .

وكانت هذه الكلمة منه من جملة الادلة التي لا تحصى على نبوته ، ووقع ما اخبر به بعد خمسة وثلاثين عاما او تزيد حينما تم الاتفاق على الهدنة بينه وبين معاوية في صفين ولما شرع الكاتب في تسجيل بنود الاتفاق قال له امير المؤمنين اكتب هذا ما اتفق عليه امير المؤمنين ومعاوية، فقال له وفد معاوية لو كنا نعلم بأنك امير المؤمنين لما قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فأمره علي (ع) بمحوها فامتنع عبد الله بن العباس من ذلك فأخذ الكتاب منه ومحاها بيده ، ثم قال لقد اخبرني بذلك رسول الله في صلح الحديبية وأنا اكتب كتاب الصلح بينه وبين قريش .

ومهما كان الحال فقد رجع النبي من الحديبية على ان يعود الى مكة في العام القادم هو وأصحابه وتخليها له قريش ثلاثة ايام ، ونزلت عليه الآية انا فتحنا لك فتحا مبينا وهو في طريقه الى المدينة .

وجاء في سيرة ابن هشام عن الزهري انه قال : ما فتح في الاسلام فتح قبله كان اعظم منه ، فلقد آمن الناس بعضهم بعضا ، ولم يكلم احد في الاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين في الاسلام اكثر ممن دخل فيه منذ بعث رسول الله ، واعترفت قريش بالاسلام كدين بين الاديان التي كانت منتشرة في الجزيرة وقوة بين القوى لم يعد لها من سبيل لابادتها ومكافحتها بعد ان كانت ترى محمدا خارجا على دين الآباء والاجداد وعلى عاداتهم وأعرافهم ولا يستحق البقاء والحياة في هذه الدنيا .

علي في خيبر

لقد اطمأن النبي (ص) على مصير الدعوة من ناحية قريش والعرب الذين كانوا لا يزالون على الشرك بعد صلح الحديبية الى حـــد ما ، وكانت نتائج ذلك الصلح لصالح المسلمين كما ذكرنا ، فلقد اقبل علـى الاسلام خلق كثير على حد تعبير بعض الرواة ، وكأن العرب قد ادركوا ان قريشا على عتوها وقوتها لقد فشلت في استعمال القوة معه ، ولـم يكن صلح الحديبية ببنوده وشروطه الا استسلاما للامر الواقع ، ومن غير البعيد ان تكون هذه الظاهرة من ابرز الاسباب لاقبال العرب علـى الاسلام في ذلك العام .

وبالرغم من اطمئنان النبي (ص) على مصير الدعوة وارتياحه لسيرها، فلقد ظل يراقب اليهود الذين كانوا خارج المدينة ويخشى غدرهم ويضع في حسابه جميع الاحتمالات ، ولم يستبعد ان تحركهم الدول المتاخمـة لحدود الحجاز على الغدر وتمدهم بالقوة ليثأروا لاخوانهم بني قريظـة والنضير وقينقاع ، وهم مفطورون على الغدر ونقض العهود كما يؤكد ذلك تاريخهم الطويل .

وتنص اكثر المصادر على انه لم يلبث بالمدينة بعد رجوعه مـــن

الحديبية اكثر من شهر حتى امر اصحابه ان يتجهزوا لغزو خيبر في اسرع وقت ممكن ، وخلال ايام معدودات اتم المسلمون استعدادهم فخرج من المدينة في الف وستماية مقاتل وأعطى رايته لعلي امير المؤمنين (ع) ومضى يجد السير باتجاه خيبر ، وكانت من المدن الكبرى ذات الحصون والقلاع المنيعة فدخل مشارفها في جوف الليل ونزل بأصحابه ينتظر الصباح وفي الصباح جمعهم وخطب فيهم وأوصاهم بالصبر والاخلاص ، وخرج اليهود في فجر ذلك اليوم الى نخيلهم ومزارعهم فوجدوا المسلمين على ابواب مدينتهم، فولوا راجعين يحملون لاهلها الخبر وجعلوا يعدون العدة لمقابلة محمد وأصحابه .

ويبدو من بعض المؤلفات في السيرة ان اليهود كانوا يتوقعون غزو محمد لهم وقد تعاقدوا مع غطفان لتنجدهم اذا حصل شيء من هذا النوع ، فاتصلوا بها على الفور وهبت هي لنصرتهم ، ولكن المفارز التي وضعها النبي (ص) حول خيبر حالت بينهم وبين ما يريدون .

وفي رواية ثانية ان غطفان بعد ان خرجت لنجدة اليهود سمعوا الصياح في احيائهم فرجعوا مخافة ان يكون جيش النبي (ص) قد داهم منازلهم وأحياءهم .

ومهما كان الحال فلقد كان يهود خيبر من اكثر يهود الحجاز عددا وأمنعهم حصونا وفيهم من الابطال والشجعان ما ذاع صيته في انحاء الجزيرة بكاملها ، لذا فان قريشا كانت تتطلع الى نتائج هذه المعركة والامل يراودها في ان تكون الدائرة على المسلمين فيها ، وكما ذكرنا فما ان سمع اليهود بأخبار المسلمين حتى وقفوا صفا واحدا وأدخلوا نساءهم وذراريهم وأموالهم الحصون المنيعة التي كانوا قد اعدوها لمثل هذه الحالات ونشبت المعارك الضارية بينهم وبين المسلمين حول الحصون واستبسل الفريقان وبقي القتال اياما على اشده بين الفريقين وقتل فيها محمد بن مسلمة برحى القاها عليه احد اليهود من اعلى الحصن.

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها ان النبي (ص) كان يولي في كل يوم رجلا من المسلمين قيادة المعركة ويرجع خائبا .

ومضى يروي عن ابن اسحاق بسنده الى ابي سلمة بن عمرو الاكوع ان النبي بعث برايته ابا بكر الى بعض حصون خيبر فرجع ولم يصنع شيئا ، وفي اليوم الثاني بعث بها عمر بن الخطاب فرجع خائبا كصاحبه.

وروى الطبري عن بريدة الاسلمي انه لما خرج عمر بن الخطاب بالراية ونهض معه الناس انكشف هو وأصحابه ورجعوا الى رسول الله وكل منهم يتهم الآخر بالجبن واستمر الحال على ذلك كلما اعطى الراية لاحد رجع بدون ان يصنع شيئا ، ولما بلغ الجهد بالمسلمين ونفد اكثر زادهم قال النبي بصوت رفيع يسمعه اكثر المسلمين :

والله لاعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

فتطاولت لذلك الاعناق ورجا كل واحد ان يكون هو صاحبها .

وجاء في رواية عن عمر بن الخطاب انه قال : اني ما احببت الامارة الا ذلك اليوم وتمنيت ان اعطى الراية بعد ان سمعت ذلك من النبي كما نص على ذلك ابن كثير في البداية والنهاية .

وقال العلامة الحلي في كتابه نهج الحق : جاء في مسند احمد وصحيحي مسلم والبخاري من طرق متعددة وفي الجمع بين الصحاح الستة عن عبد الله بن بريدة وذكر الحديث بتمامه وعقب الفضل بن روزبهان على قول العلامة الحلي بقوله : ان حديثه من الصحاح وهذا من الفضائل الخاصة بعلي لا يكاد يشاركه فيها احد وكم له من فضائل مثل هذه .

وكان علي (ع) قد اصيب برمد قيل انه تخلف في المدينة من شدة الالم ، ولما استمر به الرمد ركب ناقته والتحق بالنبي ووصل خيبر في تلك الساعات الحرجة ، وقيل وهو الاصح وعليه اكثر المؤرخين انه خرج مع النبي ومعه الراية وبعد خروجه اصيب بالرمد .

ومهما كان الحال فلما فشل المسلمون في معاركهم مع اليهود التي استمرت اياما استدعى النبي عليا وكان ارمد العين فمسح على عينيه بيده ودعا له فبرئت عيناه من ساعته وقال له خذ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك وقاتلهم حتى يقولوا لا إله الا الله محمد رسول الله ، فاذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم ، قال سلمة بن الاكوع فانطلق علي يهرول هرولة ونحن خلفه نتبع اثره حتى ركز الراية بين حجارة مجتمعة تحت الحصن، فأطل عليها يهودي من رأس الحصن وقال من انت: قال انا علي بن ابي طالب . فقال اليهودي علوتم وما انزل على موسى وخرج اليهود من حصونهم يتقدمهم أبطالهم الاشداء وفيهم الحارث اخو مرحب وهو من شجعانهم المعروفين فحمل بمن معه على المسلمين فوثب عليه علي وضربه بسيفه فخر صريعا ، ثم حمل بمن معه على اليهود فتفرقوا بين يديه وانخذلوا بعد مقتل الحارث وجماعة منهم وفروا الى داخل الحصن فعز على قائدهم مرحب مصرع اخيه وهزيمة من كان معه وأخذه الحماس فخرج من الحصن مزهوا بشجاعته وبطولاته وعليه درعان وقد تقلد بسيفين ومعه رمحه وهو يقول :

قد علمت خيبر اني مرحب ... شاك السلاح بطل مجرب
اذا السيوف اقبلت تلتهب ... اطعن احيانا وحينا اضرب

فبرز اليه علي وهو يقول :

انا الذي سمتني امي حيدرة ... كليث غابات شديد قسورة
أكيلكم بالسيف كيل السندره

فاختلف هو وعلي ضربتين ، فضربه علي بسيفه فقد الحجر الذي كان قد ثقبه ووضعه على رأسه مكان البيضة وقد المغفر وشق رأسه نصفين حتى وصل السيف الى اضراسه ، وكان لضربته كما تصفها اكثر المصادر التاريخية دوي كالصاعقة ، ولما ابصر اليهود ما حل بفارسهم

مرحب ولوا منهزمين واستولى المسلمون على الحصن بما فيه .

وجاء في سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق بسنده الى ابي رافع مولى رسول الله انه قال : خرجنا مع علي بن ابي طالب حين بعثه رسول الله برايته ، فلما دنا من الحصن خرج اليه اهله فقاتلهم وضربه رجل من اليهود بالسيف فاتقاه بترسه فوقع الترس من يده ، فتناول بابا كان عند الحصن وأخذه بيده مكان الترس ، وظل بيده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم القاه من يده حين فرغ ، ومضى الراوي يقول : وقد رأيتني في نفر سبعة انا ثامنهم نجهد ان نقلب ذلك الباب فلم نستطع ، وأضاف الى ذلك هيكل في كتابه حياة محمد ، ان عليا بعد ان اخذ الباب بيده مكان الترس ظل يقاتل حتى انهزم اليهود وكانوا قد حفروا خندقا حول الحصن ، فجعل الباب الذي بيده قنطرة على الخندق واجتاز المسلمون عليه الى داخل ابنية الحصن وذلك بعد ان قتل قائدهم .

وقد روى حديث قتل علي لمرحب وتترسه بالباب كل من ابن دحلان والطبري وابن سعد وصاحب السيرة الحلبية وابن عبد البر في الاستيعاب وابن كثير في بدايته واليعقوبي في تاريخه وعده اكثرهم من نوع الحديث المتواتر الذي لا يقبل المراجعة والتشكيك .

وروى اكثر المؤرخين ان الباب الذي تترس به كان طول ثمانين شبرا ، وانه اقتلع باب الحصن بيده وكان صخرة طولها اربعة اذرع في عرض ذراعين وسمك ذراع كما روي حديث الراية وما تنتج عن اعطائها لعلي الفيروزبادي في فضائل الخمسة عن صحيحي مسلم والبخاري والترمذي وابن ماجة والنسائي وغيرهم .

ويبدو للمتتبع في مجاميع الحديث والتاريخ بأن حديث الراية ومواقف علي في خيبر مع مرحب وغيره وقلعه الباب كل ذلك من المتفق عليه بين المؤرخين ، لم يخالف بشيء منه سوى ان هشاما في سيرته حيث نسب قتل مرحب الى محمد بن مسلمة ، اعتمادا على سيرة ابن

اسحاق ومغازي الواقدي ، واعتمد هذان على رواية موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤٥ عن الزهري وعلى رواية عبد الله بن سهل التي نسبها لجابر بن عبد الله .

وجاء في تهذيب التهذيب ان عبد الله بن سهل اكثر مروياته عن عائشة وهي مصدره الوحيد تقريبا كما نص على ذلك ابن حجر في المجلد الثاني عشر من تهذيبه، وقد اخذ الرواية من عائشة ونسبها الى جابر ابن عبد الله لتكون اقرب الى التصديق ، ومواقف السيدة عائشة من علي لا يجهلها احد .

وأما موسى بن عقبة فقد اسندها للزهري والزهري كان عميلا مقربا للامويين ومنحرفا عن علي كما اثبتنا ذلك في كتابنا الموضوعات ، على ان الذين ترجموا محمد بن شهاب كابن حجر وغيره ذكروا ان اكثر مروياته من نوع المراسيل ، هذا بالاضافة الى ان الاسماعيلي في كتاب العتق نص على ان موسى بن عقبة لم يسمع من الزهري [1] .

ومهما كان الحال فيكفي هذه الرواية عيبا معارضتها الروايات التي وصفها اكثر المؤرخين والمحدثين بالتواتر ، ولم اجد من اخذ برواية موسى بن عقبة من المؤلفين المحدثين سوى هيكل في كتابه حياة محمد فلقد بنى عليها وتجاهل غيرها ، وليس ذلك بغريب عليه وعلى امثاله ممن يحاولون التقليل من خطر مواقف علي (ع) .

وقد وصف الاستاذ عبد الرحمن بدوي في كتابه محمد رسول الحرية مواقف علي في خيبر وبطولاته وصفا دقيقا ، فقال ان النبي (ص) اعطى الراية لابي بكر وعمر على التوالي ولكنهما فشلا في اقتحام الحصن ورجعا خائبين ، فدعا رسول الله عليا وأعطاه الراية فخلع علي

---

١ ـ انظر المجلد العاشر والثاني عشر من تهذيب التهذيب .

درعه ليكون خفيف الحركة وأمره بأن يدعوهم الى الاسلام ، فان لم يجيبوا اليه قاتلهم ومضى يقول له : فوالله لان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس .

وتقدم علي فدعاهم الى الاسلام فسخروا منه وخرج اليه الحارث احد شجعانهم فصرعه علي ثم خرج اليه آخر فألقاه صريعا على وجه الرمال ، وتعالت من المسلمين صيحات السخرية من اولئك الشجعان الذين كان اليهود يعتزون ببطولاتهم ، فخرج اليه مرحب سيد فرسانهم ببطء وكبرياء وثقة مطمئنة مهيبا ضخما بيده حربة مخيفة ذات ثلاثة رؤوس ، وكل جسده الفارع الشاهق في الزرد والحديد ، وليس في كل بدنه ثغرة ينفذ منها سيف او رمح .

وتقدم اليه علي بقامته المعتدلة بلا درع ولا رمح وفي يده السيف وحده فتوقع المسلمون واليهود جميعا انها نهاية علي ، ولكنه استطاع ان يحسن الاستفادة من تخففه من الدروع والزرد وترك مرحبا يتقدم منه بدرعه وزرده وحربته فقفز في الهواء متفاديا حربة مرحب ، ثم اقتحم وأهوى بكل قوته على رأس مرحب بالسيف فانفلق الحديد وسقط سيفه على الجمجمة فقدها نصفين وسقط مرحب وسط ذعر اليهود وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسكين بالهتاف والتكبير .

واندفع هو ومن معه الى باب يدكونه بكل طاقاتهم حتى اقتحموه ، واليهود الذين اذهلهم قتل مرحب يفرون من بين يديه من حصن الى حصن ، ولم تدم المقاومة طويلا حتى استسلم اليهود وترك النبي لهم حياتهم بالشروط التي ذكرناها في كتابنا سيرة المصطفى (ص) .

وفي طريق النبي الى المدينة سلك الطريق المؤدية الى وادي القرى وهي قرية يسكنها جماعة من اليهود ولكنهم لم يكونوا يملكون العدد والعتاد الذي يملكه يهود خيبر ، ومع ذلك فلم يستسلموا للمسلمين وتجهزوا لقتالهم فعبأ رسول الله اصحابه كما جاء في رواية الواقدي

وأعطى لواءه لسعد بن عبادة الانصاري ودعاهم الى الاسلام وحذرهم من المصير الذي انتهى اليه يهود خيبر ، ولكنهم رفضوا الدخول في الاسلام وأصروا على المقاومة وبرز منهم رجل جعل يتحدى المسلمين فبرز اليه الزبير بن العوام وقتله ، ثم برز احد أبطالهم الاشداء فقتله علي (ع) وجعل يبرز منهم الواحد تلو الاخر ويقتله علي حتى قتل منهم احد عشر رجلا وكلما قتل منهم رجلا يدعوهم الى الاسلام وهم يرفضون واستمر القتال بينهم طيلة ذلك اليوم وبدخول اليوم الثاني استسلموا فاستولى النبي (ص) على اموالهم وأمتعتهم التي استخدموها في المعركة وترك لهم الارض والنخيل يعملون فيها بنصف ناتجها كما فعل مع يهود خيبر .

وانتهت معارك النبي (ص) مع اليهود بتلك الانتصارات والمكاسب المادية والمعنوية كغيرها من المعارك التي انتصر فيها الاسلام على الشرك والحق على الباطل وكان الفضل الاول للنبي (ص) في وضع الخطط الحكيمة التي كان يعدها في تلك المعارك ومن بعده لعلي (ع) الذي كان ينقض على ابطالهم وجنودهم كالاعاصير التي لا يثبت لها شيء .

دور علي في فتح مكة

لقد تحدثنا عن الدور الذي كان لعلي في صلح الحديبية وانه هو الذي كتب بنود الاتفاق بخطه في نسختين كانت احدهما مع قريش والثانية مع النبي ، وقد التزم النبي من جانبه بكل بنود الاتفاق غير ان قريشا كانت تود على ما يبدو نقض معاهدة الحديبية وقد وجدت في انسحاب المسلمين من معركة مؤتة منهزمين منفذا لها فاستخفت بقوتهم وجرها هذا الاستخفاف الى تحريض بني الدؤل من بني بكر حلفائها على خزاعة حليفة النبي (ص) وكان عهد الموادعة قد نص على دخول خزاعة في حلف النبي(ص) واستطاع بني الدؤل ان يتغلبوا على خزاعة بمساندة قريش فقتلوا منهم وشددوا عليهم الحصار فذهب وفد منهم الى النبي لابلاغه بما جرى ، ولما بلغه ما جرى عليهم ، قال كلمته المشهورة : لانصرت ان لم انصر خزاعة وهي الكلمة التي تحدد موقف الاسلام من الظلم والظالمين ومن العهود والموائيق التي تكون لخير الناس .

وعزم النبي (ص) بعد ان استخفت به قريش ونقضت من جانبها بنود الاتفاق وجعل يستعد لذلك وهو يحرص ان لا يذاع هذا الامر

وتسرب الخبر الى حاطب بن بلتعة فأرسل كتابا الى قريش مع امرأة من مزينة يخبرها فيه بما عزم عليه النبي وأوصاها بالكتمان، فأخذت الكتاب ووضعته في رأسها ولفته بشعرها . وقبل خروجها من ضواحي المدينة نزل الوحي على النبي وأخبره بأمرها ، فأرسل من ساعته عليا والزبير وأمرهما بأن يجدّا السير في طلبها قبل ان تفوتهما فخرجا مسرعين وأدركاها على اميال من المدينة . فأسرع الزبير وسألها عن الكتاب فأنكرته وبكت فرق لها الزبير ورجع عنها ليخبر عليا ببراءتها وقال له ارجع لنخبر الرسول بذلك . ولكن عليا يعلم بأن رسول الله لا ينطق عن الهوى فقال للزبير ان رسول الله يخبرنا بأنها تحمل كتابا الى اهل مكة ، وتقول انت بأنها لا تحمل شيئا . ثم اخترط سيفه وأقبل عليها وقال : والله ان لم تخرجي الكتاب لاكشفنك ، فلما رأت منه العزم والتصميم اخرجت الكتاب من عقيصتها ودفعته اليه فرجع به الى النبي، واستدعى النبي كاتب الكتاب بعد ان جمع المسلمين ، فدخل عليه وهو يرتعش من الخوف فأنبه وحذره من العودة لمثل ذلك ، وأنزل الله بهذه المناسبة الآية :

يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق .

ولما اتم النبي (ص) تجهيز جيشه خرج من المدينة في عشرة آلاف مقاتل وأعطى لواءه لعلي (ع) ووزع الرايات على زعماء القبائل ومضى يقطع الطريق باتجاه مكة وفي مر الظهران جمع الطريق ابا سفيان والعباس ابن عبد المطلب ، وكان ابو سفيان قد خرج من مكة يتجسس أخبار المسلمين فتشفع العباس به عند النبي فعفا عنه وتجاهل جميع سيئاته وجرائمه وحتى موقفه من عمه الحمزة ، ودعاه الى الاسلام ، وقال ويحك يا ابا سفيان ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله فقال بأبي وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك : اما هذه فوالله ان في النفس منها

شيئا ، فقال له العباس ويحك قل لا اله الا الله محمد رسول الله قبل ان تقتل كما جاء في رواية الطبري وأكثر المؤرخين ، فقالها بعد ان ادرك سوء مصيره ان هو ظل مصرا على موقفه . وان المتتبع لتاريخه يخرج وهو على يقين بأن اشياء وأشياء بقيت في نفسه من نبوة محمد بن عبد الله الى ان لفظ النفس الاخير من حياته ، وكانت تبدر منه بين الحين والحين فلتات تؤكد ذلك .

ودخل رسول الله مكة بذلك الجيش الذي لم تعرف له مكة نظيرا في تاريخها الطويل ولواؤه بيد علي بن ابي طالب وأعلن العفو العام وهو على ابواب مكة الا عن احد عشر سبعة من الرجال وأربع من النساء فمضى علي (ع) يجدّ في طلب اولئك الذين اهدر النبي دماءهم فقتل منهم جماعة والتجأ عبد الله بن ابي ربيعة والحرث بن هشام الى بيت اخته ام هاني بنت ابي طالب فاستجارا بها ، ودخل علي في طلبهما وهو مدجج بالحديد فلم تعرفه ، فقالت له : انا بنت عم رسول الله وأخت علي بن ابي طالب فأسفر لها عن وجهه فاعتنقته والدموع تنهمر من عينيها ، ولما نظر اليها شهر عليهما سلاحه فحالت بينه وبينهما وقالت له انت اخي وتصنع معي ذلك اني قد اجرتهما اذا اردت قتلهما فاقتلني معهما وسأشكوك الى رسول الله ولما رأى ما بها تركها وخرج .

وجاء في رواية الواقدي ان ام هاني اغلقت عليهما الباب وقالت لهما لا تخافا وذهبت الى رسول الله في البطحاء فلم تجده في المكان الذي اعد له ووجدت الزهراء وبعض نسائه فقالت لها ما لقيت من ابن امي علي لقد اجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ومضى الراوي يقول : لقد كانت الزهراء اشد عليها من زوجها وبينما هي في حوار معها واذا برسول الله قد اقبل فلما رآها رحب بها وأجلسها الى جانبه فقالت له يا رسول الله ماذا لقيت من اخي علي : لقد اجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ، فقال ما كان ذلك له : قد اجرنا

من اجرت وأمنا ممن امنت وشكر لعلي سعيه وقد اجرت من اجارت ام هاني لمكانها من علي بن ابي طالب .

وعفا رسول الله عن اهل مكة وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء ولم يترك لهم صنما داخل الكعبة وخارجها الا وحطمه تحت قدميه وهم ينظرون .

وجاء في الكشاف للزمخشري في تفسير قوله تعالى : قل جاء الحق وزهق الباطل ، ان جبريل قال له خذ مخصرتك والقها يعني الاصنام فجعل رسول الله (ص) يومي اليها بمخصرته وهي تتهاوى من على سطح الكعبة ، وبقي صنم لخزاعة كان من قوارير ، فقال لعلي ارم به فحمله النبي حتى صعد على سطح الكعبة فرمى به علي من على سطحها وكسره فجعل اهل مكة يعجبون ويقولون ما رأينا أسحر من محمد .

مع بني جذيمة

وبعد الفتح بأيام والنبي لا يزال في مكة ارسل خالد بن الوليد على رأس سرية من المسلمين تبلغ نحوا من ثلاثمائة وخمسين مقاتلا من المهاجرين والانصار وفيهم عبد الرحمن بن عوف وسار خالد بن الوليد بمن معه من المسلمين حتى انتهى الى ماء لبني جذيمة فنزل عليه ، وكان بنو جذيمة قبل مبعث النبي قد اصابوا نسوة من بني المغيرة وقتلوا عوفا والد عبد الرحمن والفاكه بن المغيرة وكانا قد اقبلا في تجارة لهما من اليمن ونزلا ضيوفا على بني جذيمة فقتلوهما، ومع عوف ابنه عبد الرحمن فقتل قاتل ابيه ، ولما ارسل لهم رسول الله تلك السرية استقبلوها بأسلحتهم ، فقال لهم خالد بن الوليد ضعوا السلاح ، فان الناس قد اسلموا فوضعوا سلاحهم ، ووقف جحدم احد بني جذيمة موقف المتصلب وقال لهم : ويلكم انه خالد بن الوليد والله ما بعد وضع السلاح الا الاسر وما بعد الاسر الا ضرب الرقاب ، والله لا اضع سلاحي ابدا ، فآخذه رجال من قومه ولاموه على هذا الموقف ، وما زالوا به حتى انضم اليهم وأعلنوا الطاعة ، فلما وضعوا السلاح غدر بهم خالد بن الوليد وقتل منهم جماعة ، ولما انتهى خبرهم الى النبي (ص) رفع يديه

وقال : اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا عليا كما جاء في رواية ابن اسحاق وغيره وقال له : اخرج الى هؤلاء القوم وانظر في امرهم واجعل امر الجاهلية تحت قدميك . ثم زوده بمقدار كبير من المال ليستعين به على اصلاح ما افسده خالد بن الوليد ، ولما وصل بني جذيمة انكر تصرفات خالد ودفع لهم دية القتلى وما اصيب من اموالهم، وقال لهم : هل بقي لكم شيء من مال او دم فقالوا لا . فأعطاهم ما بقي معه من الاموال لتطيب نفوسهم ، ورجع الى رسول الله (ص) وأخبره بما صنع ، فقال له : احسنت وأصبت ، ثم قام رسول الله واستقبل القبلة ورفع كفّيه يديه وقال : اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد وكرر ذلك ثلاثا .

علي في حنين

لقد تحركت هوازن والنبي لا يزال في مكة وأزعجها انتصاره على قريش والتفافها حوله وكان اشد ما تخشاه ان يفاجئها بجيوشه التي خضعت لها قريش على جبروتها وقوتها ولو فعل ذلك لا تقوم لها بعده قائمة ، وقد تجنبت الصراع الذي كان بين محمد وحماة الاصنام خلال تلك المدة لظنها ان محمدا لن يظهر على قريش ويحقق ما يريد .

لقد تجهزت هوازن وثقيف وأحلافهما من مشركي العرب وأعدوا العدة للقتال وتحركوا لغزو محمد في جيش يفوق عدد جيشه بثلاث مرات ، ولما علم محمد (ص) بذلك خرج من مكة باثني عشر الفا وخرج معه من المكيين ممن لم يخالط الاسلام قلوبهم ، وممن اسروا الشرك وأظهروا الاسلام كأبي سفيان وأمثاله وكان هؤلاء بين طامع في المغانم والاسلاب وبين من دفعتهم الرغبة في الظهور معه بمظهر المناصر بعد ان اصبح قويا مرهوب الجانب .

وتحرك جيش النبي من مكة وفي مقدمته الفرسان والابل تحمل الذخيرة والمؤن ولواء المهاجرين مع علي بن ابي طالب ، ووزع الرايات على قادة الجيش وزعماء القبائل ، ولما علمت هوازن بأن النبي قد

تحرك بجيشه وخرج من مكة لقتالها اعدت خطة للغدر بالمسلمين على حين غفلة منهم فكمنوا لهم في شعاب واد من اودية تهامة حيث لا مفر لهم من المرور فيه .

ويروي الرواة والمؤرخون عن جابر بن عبد الله الانصاري انه قال: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من اودية تهامة في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا اليه فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه ، فما راعنا ونحن نسير الى القوم لنأخذهم على غرة قبل ان يأخذوا حذرهم فما راعنا ونحن نسير الا وكتائب هوازن ومن معهم من العرب قد شدوا على المسلمين شدة رجل واحد من كل جانب فأمعنوا فينا ضربا وطعنا واختلط الناس بعضهم ببعض ، فاستولى الخوف على المسلمين ودب فيهم الذعر، فانهزموا عن النبي (ص) لا يلوون على شيء ، وثبت رسول الله في مكانه ومعه علي والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد .

وجاء في رواية المفيد في ارشاده انه لم يبق مع النبي الا عشرة اشخاص تسعة من بني هاشم وأيسن ابن ام ايمن فقتل ايمن وثبت التسعة وانهزم الباقون والنبي يناديهم ايها الناس انا رسول اللهمحمد بن عبد الله فلم يجبه احد .

وقد اكد اليعقوبي في المجلد الثاني من تاريخه رواية المفيد ، غير ان الحلبي في سيرته قال : لما فر الناس عن رسول الله (ص) في حنين لم يثبت معه سوى اربعة ثلاثة من بني هاشم علي بن ابي طالب ، والعباس ابن عبد المطلب وكانا بين يديه يدافعان عنه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اخذ بعنان بغلته ، وابن مسعود عن جانبه الايسر ، وأنزل الله عليه الآية :

ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم

الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .

ويدعي المفيد في ارشاده ان الآية تعني بالمؤمنين عليا ومن ثبت معه من بني هاشم في ذلك الموقف الذي لم يمر على النبي احرج منه وأشد خطرا .

وعلى اي الاحوال فلقد اتفق المؤرخون على ان عليا وأكثر بني هاشم ثبتوا مع الرسول في تلك الازمة ، وان عليا كان كالمارد يضرب بسيفه عن يمينه وشماله فلم يدن احد من النبي الا جندله بسيفه ، كما اتفقوا على ان جماعة ممن تظاهروا بالاسلام في مكة كأبي سفيان بن حرب وشيبة بن ابي طلحة وغيرهما قد اظهروا الشماتة ، ولم يستطع ابو سفيان ان يكتم ما انطوت عليه نفسه من الشرك والاصرار على عبادة الاصنام ، فقال والذي يحلف به ابو سفيان لا تنتهي هزيمته دون البحر وبدت على شفتيه بسمة منكرة تجأر بالشماتة وأظهر ما كان يحمله من الأزلام والاصنام ، وابتسم له كلدة بن الحنبل ، وقيل جبلة بن الجنيد ، وقال الان بطل سحر محمد . وقال شيبة بن ابي طلحة : وقد كرمه النبي بالامس ورد على اخيه عثمان مفاتيح الكعبة ومنحهم بذلك شرفا على جميع المكيين ، فلقد قال : لما رأى المسلمين تفرقوا عن النبي (ص) وبقي وحيدا في نفر قليل من بني هاشم ، اليوم ادرك ثاري من محمد ، وظهرت بوادر الفرح والارتياح على كثير ممن اظهروا الاسلام بالامس القريب من القرشيين في مكة .

ومع ان صفوان بن أمية كان لا يزال على شركه ولم يظهر الاسلام كأبي سفيان وشيبة وجبلة بن الجنيد فلم يمنعه شركه من ان يغضب لتلك النكسة التي اصيب فيها محمد وأصحابه ، وقال لجبلة بن الجنيد : اسكت فض الله فاك ، والتفت الى ابي سفيان الشيخ الحقود الساخر :

يا ابا حنظلة لان يملكني رجل من قريش احب الي من ان يملكني رجل من هوازن .

ولقد كبا بأبي سفيان حقده وسبقت شماتته النهاية المرجوة من المعركة ، فلم يتخل الله عن المسلمين ولم تطل بهم الهزيمة ، ولا بلغت البحر كما كان يترقب لها الشامتون والحاقدون اعداء دين الله بعد ان ثبت النبي وعلي ومن كان معهما من الهاشميين ، وأخذ مع تباشير الصباح يتبدل الموقف لصالح المسلمين ، وصاح العباس بأمر من النبي يا اهل بيعة الشجرة يا اهل بيعة الرضوان الى اين تفرون عن الله ورسوله ، فأخذوا يتراجعون الى ان اجتمع اليه منهم نحو من مائة فاستقبلوا بسيوفهم ورماحهم جموع هوازن المتدفقة كالسيل وأخذ نطاق المعركة يتسع بين الطرفين بعد ان كانت سيوفهم ورماحهم مشرعة نحو النبي .

ثم برز جرول حامل رايتهم وكان يصنع ما يصنع على حد تعبير الطبري فتحاماه الناس ، فبرز اليه علي (ع) وقتله فدب الذعر في نفوسهم ، كما دب الحماس في نفوس المسلمين لاسيما وقد رأوا النبي (ص) يتقدم ببغلته نحو المشركين ويضربهم بسيفه ويقول :

(انا النبي لاكذب انا ابن عبد المطلب)

ولما التحم الجيشان قال : الان حمي الوطيس هذا وعلي (ع) يشد على القوم عن يمين النبي وشماله يحصد الرؤوس ويصرع الابطال حتى قتل اربعين من ابطالهم كما جاء في رواية المفيد وغيره ، وعاد اكثر المسلمين الى المعركة وبعضهم لم يرجع الا بعد ان اطمأن على ان المعركة تتجه اتجاها صحيحا لصالح المسلمين .

ولم تتضح معالم الصباح حتى كانت ارض المعركة تهتز من شدة القتال ، فأخذ النبي (ص) حفنة من التراب اعطاه اياها علي بن ابي طالب كما روى ذلك الهيثمي في جامعه والخطيب البغدادي في تاريخه وألقاها

في وجه المشركين وهو يقول : شاهت الوجوه ، وتقدم نحو القوم ومعه المسلمون وبين يديه علي ومن حوله بنو هاشم الذين ثبتوا معه من الساعات الاولى في ظلمة الليل ، ولولاهم لانتهت المعركة بنتيجة لم يكن الشرك ليحلم بها ، وخلال ساعات معدودات انتهت المعركة بهزيمة هوازن وحلفائها تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم تحت رحمة المسلمين ، وأتم الله النصر الذي وعد به نبيه وخرج من المعركة منتصرا عزيزا بعد ان زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وظن ضعاف الايمان بالله الظنون، وخابت آمال ابي سفيان وأمانيه بهزيمة هوازن الى حدود البحر بعد ان تمناها وتوقعها للنبي وأصحابه الكرام .

علي وغزوة تبوك

في شهر رجب بالذات من السنة التاسعة للهجرة بلغ النبي ان الروم المتاخمين لحدود الحجاز يعدون جيشا قويا لغزو العرب في ديارهم ، وعندما اتصل به هذا النبأ لم يتردد في مواجهة تلك الجيوش بنفسه على رأس جيش قوي يستطيع صد عدوان الغزاة ، فأرسل الى القبائل العربية المنتشرة في انحاء الحجاز يدعوهم للمساهمة في صد العدوان ويستحثهم على السير معه الى الحدود المتاخمة لحدود الرومان وبذل المزيد من المؤن والمعدات لهذه الغاية ، فاستجاب بعضهم لطلبه بقلوب عامرة بالايمان ونفوس مطمئنة بما وعد الله به المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم تاركين نساءهم وأبناءهم في فصل القيظ من تلك السنة التي سماها المؤرخون سنة العسرة ، وبذلوا نساء ورجالا ما امكنهم بذله من الاموال لتغطية نفقات الجيش ، واستطاع بحكمته ان يضع حدا لجميع المناورات والدسائس التي قام بها المنافقون وضعاف الايمان ، وأنزل الله عليه بهذه المناسبة سورة التوبة كما يدعي جماعة من المفسرين ، التي تحث على الجهاد وتفضح المنافقين والمتخاذلين وتنذرهم بالعذاب وسوء المصير . ولم يجد بدا من الوقوف في وجه اولئك الذين

كانوا يتآمرون ويخذلون الناس عنه بحزم وشدة حتى اضطروه ان يحرق على اناس منهم بيتا كانوا قد التجأوا اليه يضعون الخطط لتخذيل الناس عنه وتفتيت معنوياتهم ، وبعد جهود شاقة استطاع ان يؤلف جيشا من ثلاثين الف مقاتل .

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد وسيرة ابن هشام ان عبد الله ابن ابي خرج مع المسلمين من المدينة بمن معه من احلافه وعسكروا خارج المدينة ، ولم يكن عسكره بأقل العسكرين على حد تعبير المؤرخين، ولكنه لما تحرك (ص) بمن معه تخلف ابن ابي هو وجماعته ورجعوا الى المدينة . واستخلف النبي عليا (ع) عليها في هذه الغزوة ، وهي الغزوة الوحيدة من الغزوات لم يشترك فيها علي بن ابي طالب ، وعندما نلاحظ الظروف التي رافقت هذه الغزوة والموقف المتخاذل الذي ظهر من بعض المتظاهرين بالاسلام والمؤامرات التي كانت تحاك لتخاذل المسلمين وموقف ابن ابي وجماعته الذين لا يقلون عن جيش النبي (ص) كما جاء في الطبقات وسيرة ابن هشام عند تقييم هذه الملابسات يدرك الباحث ان بقاء علي (ع) في المدينة في هذه الغزوة كانت تفرضه مصلحة الاسلام ، بعد ان ظهر للنبي من المنافقين وحتى من بعض المسلمين ما ظهر وبلا شك فان بقاءهم بالمدينة يشكل خطرا على الدعوة اذا لم يستخلف عليها النبي (ص) شخصا قويا يحاذرون منه ويخشون بطشه وسطوته . ولم تتوفر هذه النواحي في غير علي (ع) .

ولما تحرك النبي في طريقه الى تبوك ثقل عليهم وجود علي على رأس السلطة المحلية في عاصمة الدعوة ، وأدركوا انهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئا بوجوده ، فراحوا يرددون في المجالس والاندية ان النبي لم يستخلفه في المدينة الا كرها به وشاعت مقالتهم في انحاء المدينة ، ولما بلغت مقالتهم هذه عليا (ع) اخذ سيفه وسلاحه ولحق بالنبي وهو

نازل في الجرف، فقال يا رسول الله: لقد زعم المنافقون بأنك انما خلفتني لانك استثقلتني وأردت ان تتخفف مني ، فقال (ص) كما جاء في رواية الطبري وابن هشام وأبي الفداء واليعقوبي وغيرهم : انما خلفتك لما ورائي ، ان المدينة لا تصلح الا بي او بك فأنت خليفتي في اهل بيتي ودار هجرتي وقومي ، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي .

والظاهر اتفاق المؤرخين والمحدثين على ان النبي قال لعلي هذه المقالة ، وأضاف الى ذلك احمد في مسنده انه قال له :

لا ينبغي ان اذهب الا وانت خليفتي .

وجاء في فضائل الخمسة من الصحاح الستة ان الحديث مروي بالصيغة التي رواها احمد ، في خصائص النسائي ، والموافقات للحافظ الدمشقي ، ومجمع الزوائد للهيثمي وغيرهم [1] .

وبلا شك لقد قال النبي لعلي (ع) هذه المقالة وقد استخلفه في المدينة للسبب الذي ذكرناه وغير بعيد ان يكون علي (ع) قد عز عليه ان تفوته معركة من معارك الاسلام لاسيما وانه يتجه الى عدو يفوق المسلمين بعدده وعتاده عشرات المرات فكان يتمنى ان يبقى الى جانبه يفديه بنفسه وروحه كما كان يصنع في بقية المعارك ، وعندما اشعر النبي (ص) ذلك اجابه بتلك الكلمات التي اتفق عليها المؤرخون والمحدثون ، بل وبالصيغة التي رواها احمد والنسائي والهيثمي والحافظ الدمشقي ومحدثو الشيعة عن الائمة من اهل البيت ، وجاءت منه بهذه الصيغة ليفهم المسلمون على انه الخليفة من بعده حتى في حال غيابه عن هذه الدنيا .

---

١ ـ انظر فضائل الخمسة ص ٢٩٩ وما بعدها .

اما ان تحرشات المشركين بتلك الكلمات العابرة قد استفزته فأخذ سلاحه ولحق بالنبي يشكو اليه ما سمع ويطلب منه اعفاءه من تلـــك المهمة فاني اشك في ذلك ، وعلي بن ابي طالب ارفع شأنا من ان يهتـــم ويراجع الرسول في مهمة كهذه لكلمة يسمعها من منافق او مشرك .

غزوة ذات السلاسل

لقد خبا نجم الكفر والشرك بعد تلك المعارك والانتصارات التي حققها الاسلام في شبه الجزيرة ، وكاد ان يصيبه الافول ، لولا فلول من الشرك بقيت هنا وهناك ، كأنها ارادت لعلي بن ابي طالب ان يقدم للتاريخ صفحة جديدة من صفحات جهاده وبطولاته .

لقد ذكر جماعة من المؤرخين ان عددا كبيرا من الاعراب قد اجتمعوا في مكان يدعى وادي الرمل واتفقوا على غزو المدينة على حين غفلة من اهلها ، فوفد اعرابي على النبي (ص) وأخبره بما اجتمعوا عليه كما جاء في رواية المفيد في ارشاده ، فأرسل لهم النبي (ص) ابا بكر في جماعة من المسلمين ، ومضى معه حتى اقترب من ارضهم وكانت وعرة المسالك كثيرة الاحجار، وقد اعتصم القوم ببطن الوادي وسفوح الجبال، فانقضوا على المسلمين وقتلوا جماعة منهم ، فانهزم ابو بكر بمن بقي معه ورجعوا الى المدينة ، فأرسل النبي (ص) عمر بن الخطاب ، وكان نصيبه الفشل والفرار كسابقه وتدعي الرواية انه ارسل بعدهما عمرو بن العاص فمثلوا معه نفس الدور الذي مثلوه بهما ، ولم يجد النبي (ص) بعد الفشل الذي لحق بالقادة الثلاثة بدا من ارسال علي (ع) فأرسله في

جماعة فيهم ابو بكر وعمرو بن العاص وضم اليهم جماعة من المهاجرين والانصار ، وشيعه النبي الى خارج المدينة ثم ودعه ودعـــا له بالنصر والظفر .

وسار علي بمن معه نحو القوم يكمن النهار ويسير الليل حتـــى اقترب من القوم ، ولم يشك ابن العاص كما يدعي الرواة ان الفتح سيتم على يد علي (ع) فجاء الى ابي بكر يقول له : انا اعلم بهذه الارض من علي بن ابي طالب ، انها ارض مسبعة وفيها من الووحش الضارية مـا هو اشد علينا من بني سليم وغيرهم من الاعراب فكلم عليا لعله يتركنا نعلو الوادي ، فجاءه ابو بكر وعرض عليه الطلب فلم يلتفت اليه ، ثم اتبعه عمر بن الخطاب فلم يلتفت ، وظل مرابطا في مكانه حتى الفجر ، ومع تباشير الصباح انقض بمن معه على القوم على حين غفلة منهـــم وأمعنوا بهم قتلا وأسرا حتى استسلموا له وتم الفتح على يده ونزلت على النبي (ص) سورة العاديات بهذه المناسبة كما جاء في بعض المرويات، فبشر النبي (ص) بالفتح وأمر المسلمين ان يستقبلوا عليا ومن معه حين قدومه ، وبعد ايام خرجوا لاستقباله ومعهم النبي (ص) ولما رآه علـــي مقبلا ترجل عن فرسه ، قال له النبي اركب فان الله ورسوله عنـــك راضيان ، فاستبشر امير المؤمنين وتساقطت الدموع من عينيه ، ثم قال له النبي (ص) لولا اني اشفق ان تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك مقالة لا تمر على ملأ مـــن الناس الا اخذوا التراب من تحت قدميك .

وجاء في مجمع البيان للطبرسي عن ابي عبد الله الصـــادق (ع) ان سورة العاديات نزلت على رسول الله لما بعث عليا الى ذات السلاســـل وتغلب على من كان قد اجتمع من الاعراب لغزو المدينة ، ولما نزلت عليه خرج الى الناس يصلي الغداة فقرأها في صلاته ، فلما فرغ من الصلاة قال المسلمون :

ان هذه السورة لم تقرأها ، فقال ان عليا ظفر بأعداء الله وبشرني جبرائيل في هذه الليلة .

وفي هذه الغزوة يدعي الرواة ان السيد الحميري مدح عليا في قصيدة جاء فيها :

وفي ذات السلاسل من سليم غداة اتاهم الموت المبير
وقد هزموا ابا حفص وعمروا وصاحبه مرارا فاستطيروا
وقد قتلوا من الانصار رهطا فحل النذر او وجبت نذور

وقد ذكر له بعض المؤرخين والرواة غزوة الى بلاد طي وكانت قبيلة طي قد أصرت على الشرك واعتصمت في حصونها تعبد صنما في مكان يقال له الفلس ، فأرسله النبي اليها مع جماعة من المسلمين ولما قارب بعض الاحياء الموالية لطي استقبله القوم فشن عليهم بمن معه هجوما عنيفا استمر ساعات من النهار فقتل منهم جماعة وفر الباقون فاستولى على مواشيهم وأمتعتهم وأسر من وجدوه في الاحياء من نسائهم وكان بين الاسرى سفانة بنت حاتم الطائي وفر اخوها عدي الى خارج الحجاز، ورجع علي بالغنائم والسبي الى المدينة .

كما ذكر ابن سعد في طبقاته ان النبي ارسله غازيا الى اليمن مرتين الاولى كانت في السنة الثامنة للهجرة الى همدان بعد ان ارسل خالد بن الوليد قبله ورجع بدون ان يحقق شيئا ، ولما ارسل اليهم عليا (ع) وتحدث معهم عن الاسلام ودعاهم اليه اسلموا بكاملهم وطابت له نفوسهم فكتب الى النبي يخبره بذلك .

والثانية كانت في رمضان من السنة العاشرة ارسله الى مذحج في جيش لا يزيد على ثلاثمائة مقاتل كما جاء في رواية ابن سعد ، وأضاف الى ذلك انها اول سرية دخلت بلاد مذحج فصف اصحابه واستقبل بها تلك الجموع التي خرجت لحربه فكر عليهم في اصحابه فأوقف هجماتهم،

ثم كر عليهم ثانية فشتتهم ، ولم تحل بينهم وبين الهزيمة كثرة الجموع التي تدفقت لنجدتهم ، وما زال يطاردهم حتى قتل منهم اكثر من عشرين فارسا من ابطالهم فآثروا السلامة عند ذلك بالتسليم والدخول في الاسلام وقالوا له : هذه صدقاتنا فخذ منها حق الله ، ثم انه جمع الغنائم وأخرج منها الخمس وقسم الباقي بين اصحابه ورجع الى المدينة وقيل الى مكة حيث كان النبي (ص) قد خرج لاداء فريضة الحج ، وروى له بعض الرواة مواقف وغزوات اخرى لم يتفق عليها المؤرخون وأكثر اخبارها من نوع المراسيل التي لا توفر القناعة لمن يريد ان يتحرى الحقائق ، هذا مع العلم ان كل ما يقال عن علي (ع) لا اظن احدا يستغربه عليه اذا لم يتجاوز حدود العقل والعلم .

سورة براءة

لقد ظلت سرايا المسلمين بقيادة علي وغيره تطارد فلول الشرك حتى جاءت السنة التاسعة للهجرة وبدخولها اصبح جهاد الرسول بالسيف في الجزيرة قد اشرف على نهايته ، ولم تكد السنة التاسعة تشرف على نهايتها بدخول ذي الحجة حتى انزل الله على رسوله بعض التشريعات التي تحدد موقفه من المشركين والعهود التي كان قد ابرمها معهم كما يبدو ذلك من الآيات الاولى من سورة براءة فأرسل النبي ابا بكر يحج بالناس ، وكان من بقي على الشرك يجتمع مع المسلمين في موسم الحج، وأمره ان يتلو على الناس الآيات الاولى من سورة براءة فمضى ابو بكر بمن معه من المسلمين يشرف على الحج في ذلك العام ، ولما انتهى الى ذي الحليفة وهو المكان المعروف اليوم بمسجد الشجرة ، وفيما هو يسير في طريقه ، واذا بالوحي ينزل على النبي ويأمره بأن يرسل مكانه علي بن ابي طالب ، وقال له : لا يؤديها الا انت او رجل منك ، فأرسل النبي عليا وأمره بأن يأخذ الآيات من ابي بكر ويبلغها بنفسه ، فمضى علي (ع) حتى لحق بأبي بكر وهو بذي الحليفة فأخذها منه ، ورجع ابو بكر الى المدينة خائفا ان يكون قد نزل فيه من الله شيء ، فقال يا رسول الله :

انزل في شيء ، فقال النبي ولكني امرت ان ابلغها انا او رجل مني .

وانطلق علي في طريقه حتى بلغ مكة وعندما اجتمع الناس لاداء مناسكهم قرأ عليهم الآيات الاولى من السورة كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير ، ونادى في الناس لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده الى مدته .

وفي رواية ثانية انه تلا عليهم من سورة براءة حتى بلغ قوله تعالى : انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم.

ثم اعاد عليهم القول : لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول عهد موقوت فأجله الى مدته .

وأصغى المشركون الى هذا القرار بقلوب ترتعد من الخوف والحقد ووجدوا انفسهم تجاه امر لا مفر منه بعد ان اسلمت قريش وأذعنت للنبي مرغمة صاغرة كما اسلم اكثر العرب وكادت الجزيرة بكاملها تخضع لسلطة الاسلام ، فما عليهم الا ان يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فأسلم اكثرهم خلال اشهر معدودات .

ويبدو من مجاميع الحديث والتاريخ ان ارسال علي في سورة براءة بعد ابي بكر ورجوع ابي بكر الى النبي ، وقوله لا يؤديها الا انا او رجل مني وأنا منه كل ذلك متفق عليه بين المحدثين والمؤرخين ولا خلاف بينهم في شيء من ذلك ، انما الخلاف في ان ابا بكر هل ذهب في تلك السنة لاداء مهمة كلفه بها النبي بعد ان انتزع منه الآيات من سورة براءة، ام انه لم يذهب وترك تبليغ الآيات والاشراف على الحج لعلي (ع) ، فأكثر محدثي السنّة على ان ابا بكر حج بالناس وكانت مهمة علي تلاوة الآيات وتبليغ المواد التي ذكرناها .

علي في حجة الوداع

في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة تحرك موكب النبي من المدينة باتجاه بيت الله تحف به تلك الالوف التي قدرها بعض المؤرخين بتسعين الفا، والبعض الآخر بما يزيد على مائةالف مغتبطين بهذا اللقاء الذي لم يشهد تاريخ العرب نظيرا له من قبل لانه لقاء بين عرب الجزيرة من جميع جهاتها تحت راية واحدة وبهدف واحد يرددون كلمات الرسالة :

لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك الحمد والنعمة والملك لك لبيك .

وجاء في الارشاد للمفيد ان النبي (ص) قبل خروجه من المدينة بأيام كتب الى علي وكان قد وجهه الى اليمن او نجران ، وأمره ان يوافيه لمكة حاجا ، وخرج علي بمن معه قاصدا مكة ليحج معه في عامه هذا ومعه الغنائم التي اصابها في غزوته ، والتقى بالنبي وقد اشرف على دخول مكة فاستبشر بلقائه وقال له بم اهللت ؟ فقال له يا رسول الله : انك لم تكتب الي باهلالك ولا عرفته فعقدت نيتي بنيتك ، وقلت اهلالا كإهلال نبيك وسقت معي من البدن اربعا وثلاثين ، فقال له رسول الله : الله أكبر وأنا قد سقت معي ستا وستين فأنت شريكي في حجي ومناسكي

وهديي فأقم على احرامك وعد الى جيشك وعجل به حتى نجتمع بمكة ، وكان قد سبق الجيش حينما بلغ مشارفها .

وفي هذه السنة امر النبي من لم يسق معه الهدي ممن كان فرضه القرآن ان يحل احرامه ويجعلها عمرة ، ثم بعد ذلك عندما يريد الصعود الى عرفات ان يحرم للحج ومن ساق معه الهدي يبقى على احرامه الى ان يتم مناسك الحج ، وجرى لغط بين المسلمين حول هذا التشريع الذي اعتبروه مفاجأة لهم ، فقال رسول الله : لولا اني سقت الهدي لاحللت وجعلتها عمرة مفردة ، وهذه هي احدى المتعتين التي نهى عنها عمر بن الخطاب وأباحها رسول الله بقوله : متعتان كانتا على عهد رسول الله انا أحرمهما وأعاقب عليهما .

وفي هذه السنة خطب رسول الله اصحابه اكثر من مرة وبيّن لهم أحكام الاسلام في الحج وغيره ، وأشار الى مصيره المحتوم مما اثار في نفوسهم كوامن الخوف على حياته لاسيما وقد سمعوه مرة يقول لعلي : لا القاكم بعد عامي هذا ، ومرة يقول في مستهل خطابه على تلك الجموع : ايها الناس يوشك ان ادعى فأجيب ، وتوالى منه التلميح بنهاية أجله فقال لهم مرة : ان جبرائيل كان يعرض علي القرآن في كل عام مرة ، وفي هذه السنة عرضه علي مرتين ، واني يوشك ان ادعى فأجيب ، وأنزل الله عليه :

«اليوم أكملت لكم دينكم» .

وكان شديد الحرص على تبليغ الاحكام ، فوقف بين تلك الجموع في مكة اكثر من مرة وفي عرفات ومنى وفي كل مناسبة كان يلوح بالمصير الذي لا ينجو منه احد ويؤكد عليهم بالتزام الاحكام والعمل والسير على الخطوات التي رسمها لهم ، وفي طريقه من مكة الى المدينة ومعه تلك الحشود التي لم تشهدها مكة من قبل وقبل ان يتفرق الناس كل الى جهته نزل في مكان قريب من الجحفة على غير ماء وكلأ فاستغرب

المسلمون نزوله في ذلك المكان الذي لم يكن منزلا لاحد من قبله ، ولم يكن هو ينزل فيه لولا ان الوحي قد خاطبه بلهجة لم يعهدها من قبل :

يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس .

فلم يجد بدا من تنفيذ ما امره الله به لاسيما وقد ضمن له ان يكفيه شر الحاقدين والحاسدين من الناس .

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير عن زيد بن ارقم ان النبي (ص) لما رجع من حجة الوداع ونزل في غدير خم امر بدوحات فقممن ثم وقف بين تلك الجموع ، وقال ايها الناس كأني قد دعيت فأجبت :

اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

ثم قال :

ان الله مولاي وانا ولي كل مؤمن ومؤمنة .

وأخذ بيد علي (ع) وقال :

من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وأضاف الى ذلك ان الراوي قال لزيد بن ارقم : انت سمعته من رسول الله فقال ما كان في الدوحات احد الا رآه بعينيه وسمعه بأذنيه.

وقد رواه ابن كثير ايضا عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب ، وجاء في رواية البراء ان عمر بن الخطاب لقي عليا بعد ان فرغ رسول الله من خطابه وقال له : هنيئا لك لقد اصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة كما رواه ابن كثير عن جماعة آخرين من الصحابة .

ومضى ابن كثير يقول : ان صدر الحديث متواتر يعني بذلك قول النبي لعلي من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، وأما بقيته وهي اللهم وال من والاه وغير ذلك مما ورد في اكثر الروايات فقوية الاسناد وعلى حد تعبيره ، ومضى يقول : ان رباح بن الحارث قال : جاء رهط الى علي بالكوفة فقالوا السلام عليك يا مولانا . فقال لهم : وكيف اكون مولاكم،

وأنتم قوم عرب ، فقالوا سمعنا رسول الله يوم غدير خم يقول : من كنت مولاه فهذا علي مولاه . قال رباح بن الحارث فلما مضوا تبعتهم وسألت عنهم فقيل لي انهم نفر من الانصار فيهم ابو ايوب الانصاري .

كما روى عن ابي هريرة انه دخل المسجد فاجتمع عليه الناس فقام اليه شاب وقال : انشدك الله أسمعت رسول الله يقول لعلي يـــوم غدير خم :

من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

فقال اللهم نعم .

وفي رواية ثانية رواها عن ابي هريرة في بدايته ان الآية :

اليوم اكملت لكمدينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلامدينا.

نزلت على النبي بهذه المناسبة .

وقال ابن كثير في بدايته بعد ان اطال الحديث عن موقف النبي في غدير خم ، قال :ان علي بن ابي طالب جمع الناس في الرحبة وفيهم جماعة من الصحابة كانوا قد حجوا مع النبي في السنة العاشرة من هجرته ، فقام سبعة عشر رجلا ممن حضروا معركة بدر فشهـدوا ان النبي (ص) اخذ بيد علي وقال :

ألست اولى بالمؤمنين من انفسهم قالوا بلى يا رسول الله . فقال من كنت مولاه فعلي مولاه وال من والاه وعاد من عاداه .

ومضى ابن كثير يقول : ان الطبري قد ألف في حديث الغديـــر مجلدين جمع فيهما اسانيده وألفاظه ، وبعد ان وصف بعضها بالضعف لم يجد بدا من الاعتراف بأن الحديث متواتر ولا سبيل لانكاره ، ولكنه لا يفيد الشيعة على حد تعبيره .

وعلى اي الاحوال فقد روى حديث الغدير بالنص الذي ذكرنـــاه جميع المحدثين والمؤرخين ، كما رواه كل من الامام احمد في مسنده ، والرازي في تفسيره ، والبغدادي في تاريخه ، والطبراني في ذخائـــره وصاحبي الرياض النضرة وفيض الغدير في هذين الكتابين ، لقد أكد كل

هؤلاء ان عمر بن الخطاب بعد ان انتهى النبي من خطابه هنا عليا وقال له : اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، كما نص جماعة من المؤرخين ان ابا بكر قال له ذلك ، وان الآية اليوم اكملت لكم دينكم نزلت على النبي بهذه المناسبة .

وقال المفيد في ارشاده : ان النبي أفرد لعلي خيمة وأمر المسلمين ان يدخلوا عليه فوجا فوجا ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين ففعل ذلك كلهم حتى من كان معه من ازواجه ونساء المسلمين .

وجاء في الكافي للكليني عن علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن ابي عمير عن عمرو بن اذينة عن زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن اعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية عن ابي جعفر الباقر انه قال : امر الله عز وجل رسوله بولاية علي وأنزل عليه :

انما وليكم الله ورسوله الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .

فلم يدروا ما هي الآية فأمر الله محمدا ان يفسرها لهم كما فسر لهم الصلاة والزكاة والصيام والحج ، فلما اتاه ذلك من الله ضاق به ذرعا وتخوف ان يرتدوا عن دينهم ويكذبوه فضاق صدره وراجع ربه ، فأوحى اليه :

يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس .

فصدع بأمر الله وقام بولاية علي يوم غدير خم فأنزل الله عليه :

اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا .

وقال ابن الجوزي في تذكرته : لقد اتفق علماء السيرة على ان قصة الغدير كانت بعد رجوع النبي (ص) من حجة الوداع في الثامن عشر من ذي الحجة ، ومعه من الصحابة مائة وعشرون الفا وقد سمعوا منه مقالته في علي (ع) بصريح العبارة دون التلويح والاشارة ومضى يقول : ان ابا اسحاق الثعلبي في تفسيره ذكر باسناده ان النبي (ص) لما قال ذلك

طار في الاقطار وشاع في البلاد والامصار ، فبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري فأتاه على ناقته وأناخها على باب المسجد وقال يا محمد: انك امرتنا ان نشهد ان لا إله الا الله وانك رسول الله فقبلنا منك ذلك وأمرتنا بأن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة ونصوم شهر رمضان ونحج البيت ونزكي اموالنا فقبلنا منك ذلك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته على الناس وقلت من كنت مولاه فهذا علي مولاه فهذا شيء منك او من الله ؟

فقال رسول الله : وقد احمرت عيناه : والله الذي لا إله الا هو : انه من الله وليس مني وكرر ذلك ثلاثا ، فقام الحرث وهو يقول : اللهم ان كان ما يقول محمد حقا فارسل علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ، فوالله ما بلغ ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على هامته وخرج من دبره فمات من ساعته ، فأنزل الله :

سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع .

ثم قال : فأما قوله من كنت مولاه ، فان علماء العربية ذكروا ان المولى يرد على وجوه احدها المالك ومنه قوله تعالى : ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه ، اي على مالكه ، والثاني بمعنى المعتق بالكسر ، والثالث بمعنى المعتق بالفتح ، والرابع بمعنى الناصر ، ومنه قوله تعالى ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم ، اي لا ناصر لهم ، والخامس بمعنى ابن العم ومن ذلك قول القائل :

مهلا بني عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

والسادس الحليف وفي ذلك قال بعضهم :

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطينا يسألون الأتاويا

والسابع المتولي لضمان الجريرة وحيازة الميراث وكان ذلك في

الجاهلية ثم نسخ بآية المواريث ، والثامن الجار ، وانما سمي بالمولى لما له من الحقوق بالمجاورة ، التاسع السيد المطاع وهو المولى المطلق . وقال في الصحاح كل من ولي امر احد فهو وليه، والعاشر بمعنى الأَوْلى، قال الله تعالى : فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم اي أولى بكم .

ومضى يقول : فاذا ثبت ذلك لم يجز حمل لفظ المولى في الحديث على مالك الرق ، لان النبي لم يكن مالكا لرق علي ، ولا على المولى المعتق بالكسر ، لانه لم يكن معتقا لعلي (ع) ولا على المعتق بالفتح ، لان عليا كان حرا ، ولا على الناصر ، لانه (ع) كان ينصر من ينصر رسول الله ويخذل من يخذله ولا على ابن العم ، لانه كان ابن عمه ، ولا على الحليف لان الحلف بين الغرماء للتعاضد والتناحر ، وهذا المعنى موجود فيه ، ولا على المتولي لضمان الجريرة ، لما قلنا من ان ذلك نسخ بآية (المواريث) ولا على الجار ، لانه يكون لغوا من الكلام ، ولا على السيد المطاع ، لانه كان مطيعا له يقيه بنفسه ويجاهد بين يديه بكل ما يملك ، فتعين الوجه العاشر وهو الاولى ، ومعناه من كنت اولى به من نفسه فعلي اولى به من نفسه ، وأضاف الى ذلك ان الحافظ ابا الفرج يحيى بن سعيد الثقفي الاصبهاني صرح بذلك في كتابه مرج البحرين ، ويدل على ذلك قول النبي في مطلع الحديث ألست أولى بالمؤمنين من انفسهم ، واستطرد يقول : وهذا نص صريح في اثبات ولايته وقبول طاعته .

مع النبي في ساعة الوداع

لم يكن موقف النبي في غدير خم آخر المواقف التي وقفها من اختيار علي للخلافة من بعده بل تلاها موقف آخر في الايام الاخيرة من حياته لا يقل في معناه ومضمونه عن مواقفه السابقة يوم الدار وفي غزوة تبوك وغدير خم وغير ذلك من المواقف التي كان يعده فيها للخلافة تصريحا وتلميحا وغير ذلك . فلقد اتفق المحدثون والمؤرخون انه في الايام الاخيرة من حياته لم يكن يعنيه شيء اكثر من ارسال جيش يضم اكبر عدد من المسلمين بما في ذلك ابو بكر وعمر ووجوه المهاجرين والانصار الى حدود الحجاز الشمالية بقيادة اسامة بن زيد وهو شاب لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، وفي المسلمين من هو اشد صلابة منه وأكثر مرونة في المعارك والحروب مما دعا الى دهشة كبار الصحابة وتثاقلهم من الانضواء تحت قيادته وارتفعت الاصوات من هنا وهناك تطالبه ان يولي عليهم غيره ، فخرج اليهم وكان قد اسرع اليه المرض فخطبهم وحثهم على الخروج بقيادته وقد بدا عليه الانفعال والتصلب ، فقال لهم : لعمري لئن قلتم في امارته اليوم فلقد قلتم في امارة ابيه من قبله وانه لخليق بها كما كان ابوه خليقا بها من قبل ، وظل يلح عليهم في انفاذ الجيش

والخروج معه وهم يماطلون ويسوفون وقال لهم : انفذوا جيش اسامة لعن الله من تخلف عن جيش اسامة .

وجاء في سيرة ابن هشام ان رسول الله (ص) استبطأ الناس في بعث اسامة وأخذ الوجع يشتد به فخرج عاصبا رأسه وجعل يحثهم على الخروج بالجيش ثم قال :

ايها الناس اني اوشك ان ادعى فأجيب واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي ، وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

وأضاف الى ذلك الشيخ المفيد في ارشاده انه قال : ايها الناس لالفينكم ترجعون بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فتلقوني في كتيبة كمجر السيل الجرار ، الا وان علي بن ابي طالب اخي ووصي يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله الى غير ذلك من أمثال هذه المواقف التي لا يستعصي فهم مقصوده منها على احد ، ولم يكن اصراره على تسريح الجيش وانضمام الطامعين في الخلافة اليه مع علمه بمصيره العاجل الا ليخلو الجو لعلي (ع)[1] ومن ذلك موقفه الاخير وقد اجتمع حوله جماعة من وجوه المسلمين لعيادته وهو على ثقة بأنه قد اصبح على وشك الرحيل فأراد ان يسجل استخلاف علي (ع) في كتاب خاص لا يستطيع احد تحويره ولا انكاره بالاضافة الى تلك النصوص التي تواترت عنه وملأت القلوب والاسماع ، ولكنهم على ما يبدو كانوا يخشون منه ذلك ويعدون للقضاء على محاولة من هذا النوع وغيره تمهد لوصول علي الى الخلافة . وقد اتفق الرواة على انه قد طلب منهم دواة وكتفا ليكتب لهم كتابا لن يضلوا بعده ابدا على حد تعبير الرواة ، فقام

---

١ ـ انظر المجلد الثالث من شرح النهج ص ١٧٢ .

بعضهم يلتمس له ما اراد ، فأرجعه ابن الخطاب ، ولم يكتف بذلك ، بل قال انه يهجر ، يعني بذلك لا يعي ما يقول .

وجاء في رواية البخاري من كتاب المرض والطب انه اجتمع عند رسول الله رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال لهم النبي (ص) هلموا اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ابدا ، فقال عمر بن الخطاب : ان النبي غلبه الوجع وعندنا القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف الحاضرون واختصموا فأمرهم النبي بالانصراف .

وفي رواية ثانية انهم بعد موقفهم المعارض لكتابة الكتاب قالوا له: لا نأتيك بالدواة والكتف يا رسول الله ، فقال لا . ابعد الذي قلتم، ولكني اوصيكم بأهل بيتي خيرا .

وتكاد الروايات التي وصفت مرض النبي وما جرى فيه من أحداث ومحاورات وتحدثت عن رغبته الملحة في كتابة شيء يجمعهم على الحق والهدى ، تكاد تلك الروايات تتفق على ان عمر بن الخطاب لقد حال بين النبي وما يريد ووصفه بالهذيان ، او ما يلزمه ذلك .

ولولا انه ادرك ان الكتاب له صلة مباشرة بمصير المسلمين بعد وفاة نبيهم وبمن استخلفه من بعده لم يقف هذا الموقف ، ولعل النبي بعد ان رأى منهم ذلك وسمع عمر بن الخطاب يصفه بالهذيان او بما يؤدي هذا المعنى اعرض عن كتابة الكتاب لانه ليس لدى القوم ما يمنعهم من ترويج هذه المقالة بعد وفاته لابطال مفعول الكتاب ، او تأويل مضامينه بما يتفق مع مصالحهم وقد يذهبون الى ابعد من ذلك ، ولذا فانهم لما عرضوا عليه ان يكتب ما يريد بعد مقالة ابن الخطاب ، قال لهم: ابعد الذي قلتم .

وجاء عن ابن عباس انه كان اذا تذكر ذلك اليوم يتحسر ويتأسف وأحيانا يبكي لفوات تلك الفرصة التي لو تمت حسبما يرى ابن عباس لا يتخلف عن علي اثنان .

وحسب تقديري إن هذا الحديث من الموضوعات لان عبد الله بن عباس لم يكن لتخفى عليه نوايا القوم ومخططاتهم لاقصاء علي عن الخلافة واستيلائهم عليها ولو بأغلى الاثمان .

وكما ذكرنا فلقد انكشف للنبي كما يبدو من قوله : أبعد الذي قلتم، انه لو كتب لهم عشرين كتابا سوف يحورونها ويتأولون مضامينها كما انكروا بقية النصوص وتأولوا بعضها ، واذا لم يجدوا سبيلا لذلك ليس لديهم ما يمنع من القول انه كان فاقد الوعي حين كتابتها من شدة الوجع ، وبذلك يفتحون ابوابا للتشكيك فيما بلغه عن الله سبحانه بعد ان جوزوا عليه ان يتكلم ويبلغ وهو بحالة اللاوعي والرشد كما توحيه كلمة عمر بن الخطاب . ولذلك حينما تطوع بعض الحاضرين وجاءه بالدواة والكتف وطلب منه ان يكتب ما يريد قال لهم : أبعد الذي قلتم واكتفى بأن يوصيهم بثلاثة امور: اخراج المشركين من جزيرة العرب وأن يجيزوا الوفود التي كانت تأتيه كما كان يصنع ونسي الرواة وصيته الثالثة ، غير ان المرويات عن الائمة الاطهار تؤكد انها تتعلق بأمر الخلافة من بعده .

وجاء في المجلد الثالث من صحيح البخاري باب مرض النبي (ص) بسنده الى سعيد بن جبير ان ابن عباس كان يقول : لقد اشتد الوجع برسول الله يوم الخميس فقال ائتوني اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده ابدا فتنازعوا وما ينبغي عند نبي نزاع ، فقالوا ما شأنه اهجر استفهموه فذهبوا يرددون عليه فقال دعوني فالذي انا فيه خير مما تدعوني اليه وأوصاهم بثلاث: اخراج المشركين من جزيرة العرب وان يجيزوا الوفود التي كانت تأتيه بمثل ما كان يجيزهم وسكت الراوي عن الثالثة او قال اني نسيتها على حد تعبير البخاري في صحيحه .

وروى هذه الرواية بنصها ابن سعد في طبقاته والطبري في تاريخه، وابن كثير في بدايته ، ومسلم في صحيحه ودونها اكثر المؤلفين في

الحديث في مجاميعهم على هذا النحو ولم يذكروا من وصاياه الا وصيتين وسكتوا عن الثالثة او تناسوها مجاراة للحاكمين الذين تقمصوا الخلافة بعد الرسول ، في حين انه لم يسبق من احد الرواة لاحاديثه ان فاتهم شيء من اقواله وأفعاله وأحصوا عليه حتى أنفاسه فكيف نسي الحاضرون على كثرتهم وصيته الثالثة وهو في حالة الوداع لهم ، ولولا انها تأكيد لنصوصه السابقة على خلافة علي (ع) لم ينسها او يتناسها احد .

ومهما كان الحال فلقد ظل النبي اياما يعاني من وطأة المرض وفي الوقت ذاته يلح عليهم بالسفر مع اسامة ويؤكد على اسامة بأن يخرج بالجيش بالرغم من انه جاء يطلب منه ان يمهله ولو اياما قلائل ليطمئن على سلامته فلم يسمح له بذلك .

قبيل وفاته بساعات قليلة خفت عنه وطأة المرض فخرج يتوكأ على الفضل بن العباس وعلي ، فظن المسلمون انه بدأ يتماثل للشفاء فخرج منهم جماعة لشؤونهم ، وما هي الا فترة قصيرة حتى عاوده الضعف والالم ، فسمع وهو يقول : بل الرفيق الاعلى ، وكان علي (ع) قد احتضنه حينما رآه يصارع الموت ففاضت نفسه الشريفة وهو على صدره وكان ذلك لليلتين بقيتا من صفر كما رجح ذلك اكثر المحدثين .

لقد اختار الرفيق الاعلى على الخلود في هذه الدنيا بعد جهاد استمر اكثر من عشرين عاما لم يذق خلالها طعم الراحة لإرساء تلك القيم التي دعا اليها في نفوس اصحابه لتصبح من بعده ارثا للاجيال في كل زمان ومكان ، وناشدهم وهو في مرضه على فراش الموت يعاني آلامه وأهواله ان يحفظوه في كتاب الله وعترته من اهل بيته وأن يكتب لهم كتابا لن يضلوا من بعده ابدا اذا اخذوا بتعاليم الكتاب واتبعوا سيرة العترة فوصفوه بالهذيان فيئس منهم واختار الرفيق الاعلى مع اخوانه النبيين والمرسلين ، وأطل في تلك اللحظات على مستقبلهم القريب فرآهم وقد

ارتدوا على أعقابهم ولم ينج منهم الا مثل همل النعم كما يروي البخاري وغيره من المحدثين .

واتفق المؤرخون على ان ابا بكر كان خارج المدينة حين وفاته ولم يكن حوله غير علي وبني هاشم وقد علم الناس بوفاته من الضجيج وعويل النساء فأسرعوا وتجمعوا في المسجد وخارجه وهم بين واجم مدهوش وصائح ونائح ، وفيما الناس على هذه الحالة من الحزن والالم واذا بعمر بن الخطاب يدخل على رسول الله وثورة الغضب بادية على قسمات وجهه ، فكشف عن وجه النبي (ص) ورجع يهرول الى الوراء بين الجماهير المحتشدة وبيده السيف يهزه ويقول : ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات ، انه والله ما مات ولكنه قد ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، والله ليرجعن ويقطع ايدي اناس وأرجلهم ، وجعل كما تصفه الروايات لا يمر بأحد يقول ان رسول الله قد مات الا خبطه بسيفه وتوعده بالنكال والعقاب ، واستمر على ذلك مدة من الزمن يروح ويغدو بين الجماهير المحتشدة في المسجد وخارجه يزبد ويرعد ويقول انه سيرجع بعد اربعين ليلة كما رجع موسى بن عمران كما جاء في روايتي ابن سعد وابن كثير وغيرهما .

فاستطاب السذج من المسلمين منه هذا الموقف وعاودهم الامل بعودة النبي ، كما استغربه فريق آخر ودهشوا لهذا الموقف من رجل كعمر بن الخطاب ومن حماسه لترويج هذه الاسطورة لعلمهم بأنه لم يكن في مستوى من يتعللون بالاوهام ويجهلون قضية الموت التي لا ينجو منها احد من الناس .

وظل عمر بن الخطاب على موقفه هذا الى ان رجع ابو بكر ، فانطلقا معا الى حيث جثمان النبي (ص) فوقف عليه ابو بكر وكشف عن وجهه الكريم وخرج الى الناس مسرعا وقال :

ايها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت .

ثم تلا قوله تعالى :

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا .

فاستيقظ الجمهور لمقالة ابي بكر وتلقوها بالأذعان والقبول وراحوا يرددون الآية وكأنهم لم يسمعوها من قبل على حد تعبير ابن هشام في سيرته وسكنت ثورة ابن الخطاب وكأنه لم يصنع شيئا ، وخرج هو وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح من البيت الذي فيه الجثمان وتركوه الى علي وأهله المفجوعين بوفاته وقد اذهلهم المصاب عن كل شيء وعن التفكير بالخلافة وشؤونها .

اما الى اين ذهبوا ولماذا كانوا يخططون فالتاريخ لم يتعرض لشيء من ذلك ، ولكن موقف عمر بن الخطاب من وفاته وحرصه البالغ على ان يعيد الى الاذهان فكرة حياته ورجوعه كما رجع موسى بن عمران وخروجه مع ابي بكر وأبي عبيدة وتراجعه عن موقفه بتلك السرعة الخاطفة كل ذلك بالاضافة الى مواقفه قبل وفاة الرسول من كتابة الكتاب واصراره مع ابي بكر على عدم الانضمام الى جيش اسامة بالرغم من موقف النبي المتصلب من هذا الامر بالذات والى غير ذلك من الشواهد والقرائن التي تلقي الضوء على ان القوم كانوا قد اعدوا مخططا للاستيلاء على السلطة واقصاء علي عنها، ولم يكن موقف عمر بن الخطاب من وفاة النبي الا حلقة من التدابير التي أعدوها لانجاح المؤامرة التي اتفقوا عليها من قبل .

وقد أدرك هذه الحقيقة جماعة من المستشرقين والكتّاب العرب المحدثين وألمح اليها بعض المؤلفين القدامى في هذا الموضوع ، وبهذه المناسبة قال المستشرق لانس في كتابه :

ان الحزب القرشي الذي يرأسه ابو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح لم يكن وليد مفاجأة وارتجال وانما كان وليد مؤامرة سرية مجرمة حيكت أصولها ورتبت أطرافها بكل احكام واتقان ، وان أبطال هذه المؤامرة ابو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ومن اعضاء هذا الحزب عائشة وحفصة .

السقيفة

لقد اتفق المؤرخون والمحدثون بأن موقف عمر بن الخطاب من وفاة الرسول قد انتهى بحضور ابي بكر وقراءته الآية على الناس وهدأت ثورة عمر بن الخطاب وخرجا معا من البيت وتركاه بين اهله المفجوعين بوفاته وكما ذكرنا ان الذي تؤكده القرائن والملابسات وسير الاحداث انهما انصرفا الى مكان ما كانوا قد أعدوه لاتخاذ التدابير اللازمة وحسب تقديري ان اكثر الانصار بما فيهم سعد بن عبادة لم يضعوا في حسابهم غير علي للخلافة بعد النبي (ص) كما كان الاعتقاد السائد بين عامة المسلمين انها لن تعدوه ، ولكن بعد ان تبين للانصار ان شيوخ المهاجرين قد تكتلوا لصرفها عنه والاستيلاء عليها وتجاهلوا نصوص الرسول عليه وانهم في هذا التحالف القرشي الجديد يرجعون الى احياء الروح الجاهلية والنزعات القبلية ، في حين انهم قد قدموا للدعوة وصاحبها وبذلوا له من انفسهم وأموالهم ما لم يقدمه ويبذله احد من المهاجرين الذين يخططون للاستيلاء على السلطة من بعده . بعد ان تبين لهم ذلك اجتمع فريق منهم تزعمه سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة للتداول بشأن الخلافة وهتف جماعة منهم باسم سعد بن عبادة كما تنص على

ذلك اكثر المرويات ، ولما اتصل الخبر بالمهاجرين عن طريق بعض الانصار الذين كانوا يناوئون سعدا ويعملون لغير صالحه تركوا مكانهم وأقبلوا مسرعين الى سقيفة بني ساعدة فوقف خطيبهم وأشاد بالانصار ومواقفهم وتضحياتهم في سبيل الاسلام وتمنى على المهاجرين ان لا يتجاهلوهم ويجعلوا لهم شيئا من الامر . وتحدث بعده ابو بكر فنوه بفضل قريش وأمجادها وعاد وأعاد الى الاذهان مواقف العرب قبل الاسلام وتفاخرهم بالاحساب والانساب .

وجاء في رواية العقد الفريد انه قال : نحن المهاجريـــن اول الناس اسلاما وأكرمهم أحسابا وأوسطهم دارا وأحسنهم وجوها وأمسهم برسول الله رحما ، ومضى يقول : إن العرب لا تدين الا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به فقد رضيت لكم احد هذين الرجلين وأشار الى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح .

واتنهز ابو بكر وهو يتحدث عن قريش وأمجادها وعن المهاجريـن بالذات صوت بشير بن سعد الخزرجي ، وقد ارتفع في ناحية من نواحي البيت وأخذه الحسد لابن عمه وهو يقول :

ايها الناس الا ان محمدا من قريش وان قومه أحق به وأولى ، وايم الله لا يراني الله أنازعهم في هذا الامر ابدا .

وأبى عليه الحباب بن المنذر الخزرجي ان يبرز بين الناس بهـــذا الاسلوب الذي يتسم بطابع الدجل والنفاق والحسد لابن عمه ، فقـال لقد عز على بشير بن سعد ان يتولى ابن عمه السلطة بعد النبي حسدا وبغضا فظهر بمظهر من لا يريد ان ينازع احدا حقا هو اولى به ، ثـم قال : ما احوجك الى ما صنعت يا بشير لقد نفست الامارة على ابن عمك سعد بن عبادة .

ولم ينته الجدل عند هذا الحد بل قام اسيد بن حضير احد زعماء الأوس يثير في النفوس أحقاد الجاهلية ويذكر بما بين الحيين الاوس

والخزرج من خلافات وأحقاد وعصبيات قد اطفأتها سماحة الاسلام .

ومضى يخاطب الاوس ويقول : يا بني الأوس والله لان وليتموها سعدا عليكم مرة لا يزال للخزرج بذلك عليكم الفضل ولاجعلوا لكم فيها نصيبا ابدا .

واستغل ابو بكر صوت بشير بن سعد الذي جر هذا الانقسام ، فأخذ عمر بن الخطاب بيد وأبا عبيدة بالاخرى ونادى ايها الناس ، هذا عمر وهذا ابو عبيدة فبايعوا أيهما شئتم ، وقام الحباب بن المنذر بعد هذا التدبير المدروس بين الثلاثة ، وقال : يا معشر الانصار املكوا على ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هـــذا الامر ، واستولى الغضب على ابن الخطاب فانبرى يقول :

منذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته الا مدلٍ بباطل او متجانف لاثم او متورط في هلكة .

ولما سمع الحباب بن المنذر تحدي عمر بن الخطاب وأسلوبه المتغطرس توجه الى الانصار وقال :

اما اذا ابوا عليكم ما سألتموهم فأجلوهم عن هذه البلاد فأنتم والله أحق بهذا الامر منهم ، بأسيافكم دان بهذا الدين من دان ، ثم انتضى سيفه يلوح به ويقول : انا جذيلها المحكك وغذيقها المرجب ، اما والله ان شئتم لنعيدنها جذعة ، وهنا عصف الغضب بجوانح عمر بن الخطاب وكاد ان يقع الشر بين الطرفين ، فوقف ابو عبيدة بن الجراح ليحول دون وقوع الفتنة ، فقال بصوت هادىء : يا معشر الانصار كنتم اول من نصر وآزر فلا تكونوا اول من غير وبدل ، ومضى يتحدث بلهجة فيهـــا توسل ورجاء فلم يلبثوا حتى هدأت نفوسهم وانقسم الانصار علـــى انفسهم وأسرع عمر بن الخطاب بعد هذا الحوار الى ابي بكر وقال :

ابسط يدك يا ابا بكر ، ما كان لاحد ان يؤخرك عن مقامك الذي اقامك الله فيه ، وقام بعده ابو عبيدة بن الجراح وقال له :

انك لأفضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، فبسط ابو بكر لكليهما كفه فبايعاه وأسرع بعدهما بشير بن سعد وجماعة من الخزرج فبايعوه وتبعهم اسيد بن حضير بمن معه من الأوس ، وخرجوا من سقيفة بني ساعدة يهتفون لابي بكر ولا يمرون على احد الا وأخذوا بيده وأمروها على يد ابي بكر ومن ابى ضربه عمر بن الخطاب بدرته وتكاثر عليه أتباعه حتى يرغموه على البيعة وتمت بيعة ابي بكر بهذا النحو الذي كان مفاجأة لاكثر الناس .

ومن مجموع ذلك يتبين ان التخطيط لاقصاء علي عن السلطة والاستيلاء عليها لم يكن وليد ساعته كما تؤكده الشواهد السابقة وان موقف الانصار بقيادة سعد بن عبادة كان ارتجاليا لم يحضر له من قبل كما يبدو ذلك من اختلافهم وتضارب آرائهم كما تبين ان القادة الثلاثة ابا بكر وعمر بن الخطاب وابن الجراح هم قادة الحزب القرشي المتآمر على الاستيلاء على السلطة واقصاء علي بن ابي طالب عنها وان اقوى ما لديهم من الادلة في مقابل الانصار لا يعدو الامرين التاليين اولهما ان المهاجرين اول الناس اسلاما ، والثاني انهم اقرب الناس الى رسول الله وأمسهم به رحما ، وقد ادان هؤلاء القادة انفسهم بهذه الحجة ، ذلك لان الخلافة اذا كانت بالسيف الى الاسلام والقرابة القريبة من رسول الله كما يدعون فهي لعلي وحده ، لانه اول الناس اسلاما وايمانا وتصديقا برسالة محمد بن عبد الله باتفاق جميع المسلمين ، وأخوه بمقتضى المؤاخاة التي عقدها النبي بينه وبينه يوم آخى بين المهاجرين في مكة ، وبينهم وبين الانصار في المدينة وابن عمه نسبا وأقرب الناس الى نفسه وقلبه بلا شك في ذلك عند احد من الناس .

لقد ناقض نفسه ابو بكر حينما احتج على الانصار بالقرابة والسبق الى الاسلام ورشح لها عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح لانهما اسبق الى الاسلام من الانصار وأمسهم بالنبي رحما وتجاهل علي بن

ابي طالب الذي بايعه مائة الف او يزيدون في غدير خم قبل مدة لا تتجاوز ثلاثة اشهر وقد سبق جميع الناس الى الاسلام . وكان ابن عم النبي نسبا وأخاه وحده في الله باجماع المؤرخين والمحدثين ، وبمواقفه وتضحياته وجهاده استقام الاسلام وانتصر على الشرك والوثنية وعلى قريش التي عادت سيرتها الاولى تحارب محمدا بشخص علي (ع) .

وما كان ابو بكر بالغبي الذي يعتقد سلامة هذا الاسلوب وكفايته حين رشح لها احد الرجلين ولكنه هو وحزبه كانوا قد خططوا لذلك واتفقوا مع بعض الانصار والمهاجرين على اقصاء علي عن الخلافة والاستيلاء عليها بكل الاساليب ، وكان يتكلم مع الفريق الثاني من الانصار الذين استفزهم موقف ابي بكر وأنصاره واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يتداولون في مصير الخلافة ، كان يتكلم معهم هو ورفيقاه بمنطق القوي الذي يريد ان يفرض على الغير وجوده ولو بهذا النحو من التمويه والتضليل .

ومما يدل على ذلك جواب عمر بن الخطاب له حينما اشار على الحضور ان يبايعوا احد الرجلين عمر بن الخطاب او ابي عبيدة ، فأجابه على الفور أيكون هذا وأنت حي ، ما كان لاحد ان يؤخرك عن مقامك الذي اقامك فيه رسول الله [1] .

هذا الجواب يشير الى تخطيط واتفاق بينهما على الاسلوب الذي تتم فيه بيعة ابي بكر ، وفي الوقت ذاته يحاول ابن الخطاب من خلاله تضليل الرأي العام وايهامه بأن رسول الله قد اختاره للخلافة كما يشير اليه قوله :

ما كان لأحد ان يؤخرك عن مقامك الذي اقامك فيه رسول الله ،

---

١ ــ انظر جـ١ من حياة الامام الحسن للقرشي ص ١٥٠ .

هذا مع العلم بأن المؤرخين لحياة الرسول (ص) من القدامى والمحدثين والثقاة الذين حفظوا حديثه ورووه للاجيال لم يدعوا بأن النبي قد لوح له ولو من بعيد بذلك المقام الذي يعمل من اجله ابن الخطاب وأنصاره ، بل ان مواقف النبي معه كانت على العكس من ذلك فلم يعهد اليه بأمر ولا وضعه في مكان يحقق له امتيازا عن غيره، وكان اذا ارسله على رأس سرية من السرايا كما حدث له في غزوة السلاسل ، او اعطاه الراية كما صادف ذلك في خيبر يرجع فاشلا مخذولا ، وفي الايام الاخيرة من حياته بعد ان علم بقرب اجله اراد ان يخرجه من المدينة كجندي من جنود المسلمين هو وعمر بن الخطاب بقيادة اسامة بن زيد وهو شاب لا يتجاوز العشرين من عمره على أبعد التقادير .

اما حديث صلاته بالناس في بعض الايام خلال مرض النبي الذي اشار اليه ابو عبيدة في حديثه مع الانصار فمع ان امامة المصلين كانت ولا تزال مألوفة يتعاطاها الكبير والصغير والفاضل والمفضول فهي على تقديرها لا توجب له فضلا على احد من الناس ، وليست من مختصات الانبياء والاولياء والقديسين ، ولقد دعته اليها ابنته عائشة حيث كان النبي في وضع لا يسمح له بترك فراشه ، ولما علم بالامر خرج يتوكأ على علي والعباس ونحاه عن محرابه ، وصلى بالناس وهو يعاني من وطأة المرض وآلامه .

والشيء الغريب الذي لا يقره العقل والمنطق ان يعتبرها جماعة من علماء السنّة ومحدثيهم فضيلة لابي بكر تؤهله للخلافة ، في حين انهم يعترفون بمواقف النبي (ص) من علي يوم الدار وفي احد والاحزاب والحديبية وخيبر وحنين وتبوك وفي غدير خم ومؤاخاته له في مكة والمدينة ولا يرون في جميع ذلك دليلا على اختياره لمنصب الخلافة من بعده بل ولا تلميحا على اختياره ، ويرون في صلاة ابي بكر ركعتين

بالمسلمين دليلا واضحا على اعداده لقيادة الامة من بعده واعطائه الصلاحيات التي كانت له .

ومما يدل على ان حركة الانصار واجتماعهم في السقيفة كانت ردا على التخطيط الذي وضعه المهاجرون للاستيلاء على السلطة ما جاء في رواية الزبير بن بكار حيث قال :

لما بايع الجماعة ابا بكر أقبلوا به على المسجد يزفونه زفا ، فلما كان آخر النهار اجتمع قوم من الانصار وقوم من المهاجرين وتعاقبوا فيما بينهم على الكلام ، فقال عبد الرحمن بن عوف :

يا معشر الانصار انكم وان كنتم اولي فضل ونصر وسابقة ولكن ليس فيكم مثل ابي بكر ولا عمر ولا علي ولا ابي عبيدة .

فقال زيد بن ارقم : انا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن ، وان منا لسيد الانصار سعد بن عبادة ومن امر الله رسوله ان يقرأه السلام وان يأخذ عنه القرآن ابي بن كعب ومن يجيء يوم القيامة امام العلماء معاذ بن جبل ، ومن امضى رسول الله شهادته بشهادة رجلين وهو خزيمة ابن ثابت ، وانا لنعلم ان بين من ذكرت من قريش من لو طلب الخلافة لم ينازعه فيها احد وهو علي بن ابي طالب .

وجاء في تاريخ الطبري أن ابا بكر لما اقترح احد الرجلين ابا عبيدة او عمر بن الخطاب وانسحبا هما لابي بكر قال الانصار لا نبايع الا علي ابن ابي طالب [1] .

هاتان الروايتان رواية شرح النهج عن ابن بكار ورواية الطبري صريحتان ان الانصار لم يعارضوا في علي بن ابي طالب لو انه كان مرشح المهاجرين لها ، وهذا يعني ان موقفهم المعارض لابي بكر في

---

١ ــ انظر الجزء الثالث من تاريخ الطبري ص ١٩٨ .

السقيفة كان ردا على التخطيط الذي وضعته قريش للاستيلاء على السلطة وانتزاعها من اصحابها الشرعيين .

وقال الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت :

ولا يبعد ان يكون سعد بن عبادة لما رأى تصميم المهاجرين على عدم اعطاء الحق لاهله طلبه لنفسه .

ومهما كان الحال فلقد كانت مواقف النبي من علي (ع) وتصريحاته المتتالية فيه في مختلف المناسبات تجعله بحكم المتعين لها بنظر الجمهور الاعظم من المسلمين حتى ان عليا نفسه كان واثقا بأن الامر لا يعدوه .

وجاء في شرح النهج لابن ابي الحديد ان عليا (ع) كان لا يشك في ان الامر له وانه لا ينازعه فيه احد من الناس ومضى يقول :

وقد قال له عمه العباس : امدد يدك ابايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان ، فقال يا عم : وهل يطمع فيها طامع غيري ، قال ستعلم، فقال اني لا احب هذا الامر من وراء رتاج.

وبالطبع لقد دهش هو ومن معه لهذا الحدث العظيم حينما سمع به ورأى الناس يزفون ابا بكر الى المسجد كما تزف العروس والنبي (ص) لا يزال مسجى بين اهله وزوجاته ينتظرون ان يتم تجهيزه لمقره الاخير، وحينما بلغه ان ابا بكر قد احتج على معارضيه من الانصار بقرابته من رسول الله وسبقه الى الاسلام كان لزاما عليه ان يلزمهم بما الزموا به غيرهم ولو كان لا يؤمن بصحة هذه الحجة ولا بجدواها ، وباستطاعته ان يقدم لهم عشرات الادلة التي لا تقبل الجدل والمراجعة لو كانوا يصغون الى المنطق وتردعهم الحجة عما هم جادون فيه ، ومع ذلك فقد احتج عليهم بالحجة التي تغلبوا فيها على الانصار وبأقوال الرسول ونصوحه عليه وبماضيه وجهاده وأخوته لرسول الله وظل متمسكا بحقه والى جانبه زوجته سيدة النساء تطالب بنحلتها وحق زوجها في الخلافة حتى

اثارت النفوس وألهبت المشاعر وندم الكثير من المسلمين على استجابتهم لتلك البيعة المرتجلة وموقفهم المتخاذل منها ومن ابن عمها وأخـــذوا يتسللون الى دار علي (ع) ويتكتلون ضد الحكم القائم ويتداولون فيما يجب ان يكون ، فأحس ابو بكر وأنصاره بالخطر ، فاتفقوا على مهاجمة الدار ومقابلة الموقف الذي كاد ان يتفجر بالشدة والصرامة واستعمال كل الوسائل ولو باحراق البيت على من فيه ، فأصدر ابو بكر اوامره الى جماعته بمهاجمة الدار ، فذهب عمر بن الخطاب ومعه انصاره وحملـوا معهم الحطب لاحراق الدار اذا لم يستجب من فيها لمطالبهم ، فهاجموها وعمر بن الخطاب ينادي والذي نفس عمر بيده لتخرجن من الدار الى البيعة او لاحرقنها على من فيها وبدا عليه الاصرار والتصميم على ذلك ، فقال له بعض من معه كما يحدث الرواة : ان في الدار فاطمة بنت رسول الله • فقال : وان كانت فيها • فخرج اليهم الزبير بن العوام بسيفـــه فتعثر ووقع السيف من يده ، فصاح ابن الخطاب بمن معه ويلكم تناولوا السيف فأخذوه وضربوا به الحائط كما جاء في رواية الطبري وغيره ، وحاول القوم ان يدخلوا الدار فوقفت فاطمة الزهراء وراء الباب تحاول منعهم من دخولها فلم يراعوا حرمتها ومقامها من رسول الله • وقيل انها اسقطت حملا كان رسول الله قد سماه محسنا بسبب موقفهم منهـا ، وسواء صحت هذه المرويات او لم تصح فمما لا شك فيه ان موقفهم منها كان في منتهى الجفاء والقسوة والتحدي لمقامها الرفيـــع من رسول الله (ص) في حين انهم سمعوا رسول الله اكثر من مرة يقول لها : ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك ، كما سمعوه يقول مرارا فاطمـــة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن أغضبها فقد أغضبني كما روى ذلك محدثو السنّة في صحاحهم ومجاميعهم ، وقد وصف موقفهم منهـــا شاعر النيل حافظ ابراهيم بقوله :

وقولة نعلـــي قالها عمـــر اكـرم بسامعهـا انعم بملقيها
حرقت دارك لا ابقي عليك بها ان لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير ابي حفص يفوه بها امام فارس عدنان وحاميهـــا

وقد تحدثنا عن مواقف الزهراء في الخلافة وإرثها من ابيها خـلال حديثنا عنها في الفصول السابقة بما فيه الكفاية .

وذهب اكثر الرواة الى ان ابا سفيان وقف موقف المتحمس لعلـي وأخذ يهدد ويتوعد ويقول : والله لأملأنها عليهم خيلا ورجالا ، ولـم يكن ليخفى على علي (ع) ان ذلك منه كان بقصد الوقيعة بين المسلمين واشعال الفتنة ليتاح له ولامثاله ممن اسروا الشرك والنفاق ان يصلوا لاهدافهم المعادية للاسلام وحماته الذين حاربهم ابو سفيان عشرين عاما، وبالتالي كان اسلامه واسلام زوجته هند آكلة الاكباد عام الفتح أعسر اسلام عرف بين المسلمين ، لانه كان اسلام مغلوب اعيته جميع الوسائل فاضطر اخيرا الى الدخول مع المسلمين وفي نفسيهما آلام وأحقاد كانت تظهر بين الحين والآخر .

ويروي الرواة ان ابا سفيان نظر الى النبي (ص) يوما بعد دخوله في الاسلام وهو في المسجد وحوله اصحابه نظرة تنم عن الحقد والالـم المرير فجالت في نفسه كلمات لم تخرج من شفتيه ، ليت شعري بأي شيء غلبني هذا الرجل ، وبالرغم من انها لم تخرج من شفتيه فقد ادركهـا النبي (ص) ولم يتركها له ، فأقبل عليه وضرب بيده بين كتفيه وقال له : بالله غلبتك يا ابا سفيان .

وجاء في رواية الطبري وابن الاثير في الكامل ان امير المؤمنين زجر ابا سفيان بن حرب وقال له : والله ما اردت الا الفتنة ، وانك والله طالما بغيت للاسلام شرا لا حاجة لنا في نصرتك ، وأضاف الى ذلك الطبري انه لما استولى ابو بكر على الخلافة قال ابو سفيان : مالنا ولابي فضيل

انما هي لبني عبد مناف ، فقيل له انه قد ولى ابنك فقال : وصلتـــــه رحم [1] .

وقال في شرح النهج ان النبي (ص) قبل وفاته بعث ابا سفيان ساعيا فرجع من سعايته وقد مات رسول الله (ص) فلقيه قوم فقال من تولى بعد رسول الله ؟ قيل له : ابو بكر ، فقال ابو فضيل وبلغت مقالته عمر ابن الخطاب ، فقال لابي بكر : انا لا نأمن شر ابي سفيان فترك له ما في يده من الصدقات التي جباها فسكت ورضي بذلك [2] .

وتنص اكثر المرويات على ان ابا سفيان لم يسكت الا بعد ان يئس من علي بن ابي طالب وظل فترة من الوقت يسعى جاهـــدا لاذكاء روح المنافسة والصراع على الخلافة وهو يأمل ان يؤدي ذلك الى قتال مرير ينتج عنه رجوع العرب عن الاسلام وتنكرهم لمحمد ورسالته فدخل على علي (ع) وعنده عمه العباس بن عبد المطلب وجعل يثيرهما على ابي بكر وعمر ويلتفت مرة الى علي وأخرى الى العباس ويقول :

ما بال هذا الامر يصبح في أذل بيت في قريش وأقلها عودا ، والله لو شئت لاملأنها عليه خيلا ورجالا وأخذتها عليه من اقطارها ، وكمـــا ذكرنا فان عليا (ع) لم يكن لتخفى عليه نوايا ابي سفيان وأنه لم يغضب لاجل بني هاشم ، ولو كانت الخلافة فيهم لضاق به امره وحاول مـــع زمرته ان يثيروا الدنيا على الهاشميين لذلك فقد نظر اليه بثقة وهدوء وقال : والله ما زلت تكيد للاسلام يا ابا سفيان وتعمل على اثارة الفتن، وأضاف الى ذلك ان المؤمنين يا ابا سفيان ينصح بعضهم بعضا ويعملون

---

١ ــ انظر الجزء الثاني من تاريخ الطبري ص٣٠٣ و٢٠٢ ، والكامل لابن الاثير ص ١٥٧ من الجزء الثاني .

٢ ــ انظر المجلد الاول من شرح النهج ص ١٣٠ .

بكل اخلاص للمصلحة ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض وان قربت ديارهم وأبدانهم ، فانطوى على نفسه بعد هذه الصفعة القاسية له ولاتباعه وأسرته من المنافقين ، ومضى يتمنى لو يتاح له من طريق آخر ان يثيرها حربا اهلية بين جماعة الرسول ليحقق ولو بعض ما يتمناه ، ولكن الخيبة قد رافقته مرة ثانية ، فرجع يتملق الى الحاكمين ووجد عندهم بعض امانيه كما نصت على ذلك رواية الطبري وابن الاثير ورواية شرح النهج ، فأخلد للسكينة لانه ينظر الى الاسلام من الزاوية التي ينظر فيها الى الوثنية وبما كانت تدر عليه من فوائد وتبسط له ولطبقته من نفوذ وتسلط ، وخلال سنة او اكثر بقليل تيسر له ان تكون بلاد الشام تحت سلطة ولديه يزيد بن ابي سفيان ومعاوية اخيه على التعاقب فشعر بالانفراج ودبت في نفسه روح التفاؤل ، وحين انتهت الخلافة الى عثمان تفتحت لديه كل ابواب الامل على سعتها ومشى يقوده الحقد الدفين الى قبر الحمزة بن عبد المطلب شهيد الاسلام فركله برجله وقال: انهض يا ابا عمارة فقد صار الينا الملك الذي حاربتنا عليه ، قال ذلك في نزوة جاهلية لا تعرف النزوات اولغ منها بالحقد والتشفي .

ويرى الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت ان من جملة الاسباب التي منعت قريشا من اختيار علي (ع) للخلافة ، انها كانت تحقد عليه لانه برز في حروب النبي لقريش وقتل عددا كبيرا من جلة بيوتهم وفي الوقت ذاته لم تكن نفوسهم قد طهرت وخلصت من العصبيات التي كانت تثير التنافس الحاد بين بيوتاتها وبين بني هاشم ، وزادهم حقدا عليه انهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم الكفار ، وانتهى به القول الى ان علي بن ابي طالب لقد علم هذا من قريش عندما يئس من مودتها وابتلي بالصريح والدخيل من كيدها فقال :

مالي ولقريش اما والله لقد قتلتهم كافرين ولاقتلنهم مفتونين ، والله

لابقرن بطن الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته فقل لقريش فلتضج ضجيجها [1] .

وعلى اي الاحوال فان الذين وقفوا موقفا سلبيا من خلافة ابي بكر كانوا من اعيان المهاجرين والانصار وخيارهم وممن اشاد النبي بفضلهم وانهم مع الحق لا ينحرفون عنه ويدورون في فلكه كيفما تحرك ودار ، كعلي والعباس بن عبد المطلب وعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي ، والمقداد بن الاسود وخزيمة ذي الشهادتين وعبادة بن الصامت وحذيفة بن اليمان ، وأبي الهيثم بن التيهان وسهل وعثمان ابني حنيف وأبي ايوب الانصاري وعتبة بن ابي لهب وغيرهم من كبار الصحابة وأعيانهم الذين لم تسيطر عليهم الغوغاء ولم ترهبهم درة عمر بن الخطاب [2] بل وقفوا الى جانب علي بحزم وصلابة ، ولم يبايعوا الا بعد ان بايع علي (ع) حرصا على مصلحة الاسلام العليا التي تعرضت لاشد الاخطار بسبب اتساع حركة الردة عن الاسلام ، التي كان من اعظم اسبابها عند بعض القبائل العربية انحراف المسلمين عن المخطط الذي وضعه رسول الله (ص) في غدير خم وغيره من المواقف فيما يعود الى الخلافة كما يبدو ذلك من مواقف بعض القبائل التي وصفوها بالارتداد.

وجاء في تاريخ الطبري ان جماعة ممن وصفوهم بالارتداد كانوا يقيمون الصلاة ولكنهم امتنعوا عن تسليم الزكاة ، وقالت عشائر اسد وفزارة والله لا نبايع ابا الفضيل ابدا [3] يعنون أبا بكر مما يؤكد بأن الكثير ممن اسموهم بالمرتدين لم يتراجعوا عن الاسلام ، بل رفضوا خلافة ابي بكر وأنكروا هذا التحول السريع الذي ظهر منهم بمجرد ان

---

١ ــ انظر صفحة ٢٤٢ من كتاب اهل البيت لتوفيق ابي علم .
٢ ــ صفحة ٢٦٥ المجلد الاول من حياة الحسن للقرشي .
٣ ــ ص ٢٢٩ من المجلد الثالث تاريخ الطبري .

غاب رسول الله عن هذه الدنيا .

هؤلاء الذين ظلوا الى جانب علي (ع) كانوا يحتجون على الحاكمين بكل ما يملكون من جرأة وبيان فلقد وقف سهل بن حنيف بين المهاجرين وفيهم ابو بكر وعمر وقال يا معشر قريش : اشهد لقد رأيت رسول الله في مسجده وقد اخذ بيد علي (ع) وقال :

ايها الناس هذا علي إمامكم بعدي ووصي في حياتي وبعد وفاتي وقاضي ديني ومنجز وعدي وأول من يصافحني على حوضي فطوبى لمن اتبعه ونصره ، والويل لمن تخلف عنه وخذله .

وقال لهم ابو ايوب الانصاري : اتقوا الله عباد الله في اهل بيت نبيكم وردوا اليهم حقهم الذي جعله الله لهم ، فقد سمعتم مثل ما سمع اخوانكم في مقام بعد مقام ومجلس بعد مجلس النبي (ص) يقول : اهل بيتي ائمتكم بعدي ويومي الى علي ويقول هذا امير البررة وقاتل الكفرة مخذول من خذله ومنصور من نصره .

فتوبوا الى الله من عملكم ان الله تواب رحيم .

ووقف ابو الهيثم بن التيهان يحتج على المهاجرين ويقول : وأنا اشهد على رسول الله انه اقام عليا يوم غدير خم ، فقالت الانصار ما اقامه الا للخلافة ، وقال بعضهم : ما اقامه الا ليعلم الناس انه مولى من كان رسول الله مولاه . وكثر الخوض في ذلك فبعثنا رجالا منا الى رسول الله فسألوه عن ذلك ، فقال هو ولي المؤمنين بعدي وأنصح الناس لأمتي ، وأنا اشهد بما حضرني فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ان يوم الفصل كان ميقاتا .

واحتج عليهم سلمان الفارسي وأبو ذر وعمار والمقداد وغيرهم من وجوه الصحابة بنفس الاسلوب بكل جرأة وثبات . وظل علي معتصما ببيته ستة شهور او أقل من ذلك ممتنعا عن البيعة ومعه عدد من وجهاء الصحابة كما ذكرنا ، ولم يعمل للثورة على الحكم الجديد كما

لم يفسح المجال لاحد ان يعمل لذلك ، لان مصلحة الاسلام عنده اغلى وأعز من الدنيا بما فيها ، واذا كان يطالب بحقه في الخلافة فليس الا لاتمام المسيرة بالاسلام في الطريق الصحيح الذي اراده له النبي (ص) لاسيما وقد استغل المنافقون هذا التحول الذي لولاه لادى الى حرب في داخل العاصمة ، ومع انه كان يحرص على بقاء المعارضة في داخل العاصمة في حدود الحوار والجدل والمقاطعة ولكن انباء هذا الخلاف لم تلبث ان تسربت الى خارج المدينة فظهرت بوادر العصيان والتمرد وخرج مسيلمة بمن معه من بني حنيفة في اليمامة وطليحة بن خويلد بمن اجتمع معه من غطفان واسد وطي وكنانة وغيرهم من العرب الضاربة خارجها ، وأصبح المسلمون في داخل المدينة على ما بينهم من خلاف على الخلافة بازاء امر واقع لا تنفع فيه الملاحاة ولا يغني عنه الجدل ولا ضير اذن اذا بقيت النفوس منطوية على ما فيها وانصرف الجميع لاقرار الامن والدفاع عن الاسلام الذي اصبحت تهدده عصابات المرتدين والمنافقين هنا وهناك ، وكان علي (ع) اسرع الجميع الى التضحية والتنازل عن اعز ما لديه في سبيل الاسلام ، وهو القائل والله لإسالمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة ، وقد وصف موقفه من الاسلام والخلافة في مقام آخر بقوله :

وَالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي ان العرب تزعج هذا الامر من بعده عن اهل بيته ولا انهم منحوه عني من بعده، فما راعني الا انثيال الناس الى ابي بكر يبايعونه فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد فخشيت ان لم انصر الاسلام وأهله ان ارى فيه ثلما او هدما تكون المصيبة به اعظم من قوت ولايتكم التي هي متاع ايام فلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب او كما يتقشع السحاب فنهضت في تلك الاحداث حتى راح الباطل واطمأن الدين وتنهنه .

لم يكن علي بن ابي طالب يفكر في غير الاسلام ويخشى غير محق الدين ، فلما رأى راجعة الناس ترجع عـن الاسلام نسي ذاته ، وداس كل اعتباراتها ، ولم يكن قد بايع لابي بكر ولا أقر بحكومته ، ووقف الى جانبه في الدفاع عن المدينة مع اصحابه الذين ظلوا الى جانبه خلال الاشهر الاولى من خلافة ابي بكر ، ووقف المسلمون كلهم صفا واحدا متراصا في وجه المترددين والعابثين ، وسيف علي على رأس تلـــك الحشود كما عهدوه بالامس في معارك الاسلام مع الشرك عاصفا لا تقف له السرايا ولا تصمد بوجهه الابطال والجيوش ، ووضع يده في يـــد ابي بكر بعد ان صارحه بما في نفسه بلا مواربة ، او محاباة وقال له : لم يمنعنا عن مبايعتك اننا ننافسك على خير ساقه الله اليك ، ولكنا نرى ان هذا الامر هو حقنا وقد استبددتم به علينا وحلتم بيننا وبينه .

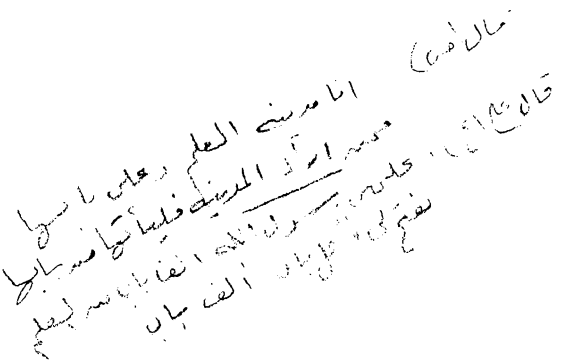
لقد صارحه بذلك ليعلم هو ومن حوله انه اذا كان يطالب بالخلافة فذلك لمصلحة الاسلام واذا تغاضى عن حقه فيها فذلك لمصلحة الاسلام وعليهم ان يتحملوا مسؤولية ما جنته ايديهم عند الله .

وقال الاستاذ توفيق ابو علم وهو يحدد خصائص الامام في حديث طويل انتهى منه الى القول وللامام واجبات كثيرة منها حفظ الديـــن وحراسة الاسلام وصيانته من المستهترين بالقيم والاخلاق وتنفيـــذ احكامه وحماية البلاد الاسلامية وانصاف المظلوم والجهاد وغير ذلك ، وهناك شروط لا بد وان تتوفر في الامام كالعلم والعدالة والشجاعـــة والنجدة والعصمة ، وهي لطف من الله يفيضها على اكمـــل عباده وبها يمتنع من ارتكاب الجرائم والموبقات عمدا وسهوا ، وخلص من ذلك الى القول : بأن هذه الصفات لم تتوفر الا في أئمة اهل البيت حصنة الاسلام والادلاء على مرضاة الله وطاعته ومضى يقول وقد وصفهم الشاعـــر بقولـــه :

القريبين من ندى والبعيدين عن الجور في عرى الاحكام
والمصيبين ان اخطأ الناس ومرسي قواعد الاسلام
والحماة الكفاة في الحرب ان لف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين ان امحل الناس ومأوى حواضن الايتام
راجحي الوزن كاملي العدل في السيرة طيبين بالامور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية الناس سواء ورعية الانعام [1]

---

١ ــ كتاب اهل البيت لابي علم ص ٢٠٥ .



علي بعد البيعة

لقد انصرف امير المؤمنين عن دنيا الخلافة ما دام الاسلام يوشك ان يتعرض للخطر اذا هو ظل على موقفه المتصلب منها يجمع القرآن كما أنزله الله على رسوله ويشرح لهم غوامضه وأسراره وأقبل على مدرسته، والتف الناس من حوله بعد ان وجدوه مشعلا من أنوار محمد (ص) يضيء لهم انحاء حياتهم الروحية والاجتماعية ويحل لهم ما تشعب من مشاكلهم او اصابه تعقيد .

واذا تجاهل المسلمون احاديث الوصاية والخلافة لمصالح سياسية طغت عليهم ، فليس بوسعهم ان يتجاهلوا قول الرسول فيه انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد المدينة فليأتها من بابها ، ولا بوسعهم ان ينكروا صلته الوثيقة بالرسول التي يسرت له ان يأخذ منه ما لم يتيسر لاحد سواه ، وهو القائل علمني رسول الله الف باب من العلم يفتح لي في كل باب الف باب ، ولقد سمعوا الرسول يقول له : يوم نزلت الآية وتعيها اذن داعية . لقد سألت ربي ان تكون اذنك يا علي فأعطاني ذلك ، وسمعوا عليا (ع) يقول بعد ذلك والله ما ترددت بشيء سمعته من رسول الله ولا نسيت منه شيئا .

لذلك لم يكن لهم بديل عن الرجوع اليه كلما تعقدت لديهم الامور وتراكمت الحوادث التي كان يفرضها الزمان وما يتجدد فيه من أحداث وتقلبات ، ولم يكن هو لديه ما يشغله عن تفقيه الناس وتعليم الاحكام ونشر رسالة الاسلام وتدوين الحديث والفقه .

وتؤكد المرويات الصحيحة انه جمع القرآن وفسر غوامضه وبيّن مجملاته ومتشابهاته بعد ان كان مبعثرا في الالواح وصدور الحفاظ طيلة حياة الرسول (ص) .

وحدث السيوطي في الاتقان عن ابن حجر انه قال : وقد ورد عن علي (ع) انه جمع القرآن على تريب نزوله بعد وفاة الرسول ، وأضاف الى ذلك ان محمد بن سيرين كان يقول : لو اصبت ذلك الكتاب كان فيه العلم ، ويبدو من ذلك ان عليا (ع) لم يقتصر على نصوص القرآن وآياته بل ضم اليها تفسير غوامضه وأسباب نزوله .

وجاء في مناقب ابن شهراشوب ان عليا آلى على نفسه ان يجمع القرآن ولا يضع رداءه على عاتقه الا للصلاة .

وفي اعيان الشيعة عن الشيرازي امام اهل السنة في الحديث والتفسير وأبي يوسف يعقوب في تفسيره عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه انه قال : ان الله طمّن محمدا ان يجمع القرآن بعده علي بن ابي طالب فجمع الله القرآن في قلب علي وجمعه علي بعد موت رسول الله بستة اشهر ، وأضاف الى ذلك عن ابي رافع ان النبي (ص) قال في مرضه الذي توفي فيه لعلي : يا علي هذا كتاب الله خذه اليك فجمعه علي في ثوب الى منزله ، فلما قبض رسول الله جلس علي في بيته فألفه كما انزل الله وكان به عالما .

وروى جماعة من المحدثين ان عليا (ع) جمع القرآن مرتبا حسب النزول وأشار الى عامه وخاصه ومطلقه ومقيده ومحكمه ومتشابهه

وناسخه ومنسوخه وعزائمه ورخصه وسننه وآدابه ، كما نبه على اسباب النزول في آياته البينات ، وأملى ستين نوعا من انواع علـــوم القرآن وذكر لكل نوع مثالا يخصه .

وجاء في بعض المرويات التي تحدثت عن هذا الموضوع ان عليا لما سئل عن الناسخ والمنسوخ قال : ان الله سبحانه بعث رسوله بالرأفـة والرحمة ، فكان من رأفته ورحمته انه لم ينقل قومه في الفترة الاولى من نبوته عن عاداتهم حتى استحكم الاسلام في قلوبهم وحلت الشريعة في صدورهم ، وكانت شريعتهم في الجاهلية ان المرأة اذا زنت حبست في بيت وحدها حتى يأتيها الموت ، واذا زنى الرجل نفوه عن مجالسهـــم وشتموه وآذوه وعروه ، وجاءت الآية الكريمة تقر ما كانوا عليه فـــي جاهليتهم .

واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاشهدوا عليهن اربعة منكم فـــان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعـــل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا واصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما .

فلما كثر المسلمون وقوي الاسلام واستوحشوا امور الجاهليـــة أنزل الله :

الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، فكانت هـذه الآية ناسخة للآية الاولى ، وقد ورد هذا الحديث في البحار واشتمـل على امثلة اخرى من موارد النسخ وعلى الانواع الستين وأمثلتها من علوم القرآن .

وفي تاريخ اليعقوبي ان علي بن ابي طالب جمع القرآن بعد وفـاة الرسول وأتى به يحمله على جمل وقال لابي بكر ومن حوله هذا القرآن قد جمعته لكم ، وكان قد جزأه سبعة أجزاء كما يروي اليعقوبي كـــل جزء ثمانمائة وست وثمانون آية ما بين ستة عشر سورة وخمسة عشر

سورة ، وعدد من الجزء الاول البقرة وسورة يونس والعنكبوت والروم ولقمان وضم السجدة والذاريات وهل اتى على الانسان ومضى يعد الاجزاء السبعة والسور التي يحويها كل جزء منها مما يشير الى ان عليا قد جمعه ورتبه حسب نزوله على النبي (ص) .

ونسب اليعقوبي الى علي (ع) انه قال : انزل القرآن على اربعة ارباع ربع فينا وربع في عدونا وربع امثال وربع محكم ومتشابه، ورواية ينابيع المودي التي تؤيدها رواية ابي بصير عن الباقر ، تنص على انه نزل اربعة أرباع فيهم وفي عدوهم ربعان ، والثالث سنن وأمثال ، والرابع فرائض وأحكام .

وقد تكرر توزيع القرآن بهذا النحو في المرويات عن الائمة (ع) كما جاء في الكافي وغيره ، وعلى تقدير صحة هذه المرويات وللشك في صحتها مجال واسع ، فعلى تقدير صحتها فالمراد من الربع الذي نزل فيهم هو الآيات التي تعرضت لمن آمن وجاهد وأخلص في اعماله وعمل الصالحات والطاعات من السابقين واللاحقين ، والآيات التي بهذه المضامين لا تقل عن ربع القرآن ، وانما صح نسبتها لهم ، لان كل من كان بهذه الصفات يتمثل مبادئهم سواء سبقهم او تأخر عنهم ، والآيات التي في عدوهم هي التي تعرضت للكفار والمنافقين والفاسقين والكاذبين والمرائين من الاولين والآخرين ، وبلا شك فان من كان بهذه الصفات من ألد اعدائهم وأخصامهم سواء سبقهم او تأخر عنهم ، لانهم دعاة حق وخير وعدالة ورحمة ، ومن لم يكن بهذه الصفات هو عدوهم .

وفي بعض المرويات انه نزل اثلاثا ، ودرس داوود بن فرقد عن ابي عبد الله الصادق بسند اقرب الى الصحة من اسانيد الروايات السابقة انه نزل ارباعا ربع في الحلال ، وربع في الحرام ، وربع في السنن والاحكام ، وربع عما كان قبلكم ونبأ ما يكون بعدكم .

ومهما كان الحال فالروايات التي تنص على انه نزل فيهم وفي

اعدائهم وفي السنن والاحكام والفرائض لا بد من تفسيرها بما ذكرنا، والى هذا التفسير تشير رواية محمد بن سلم عن الامام الباقر (ع) ، وقد جاء فيها ان القرآن نزل اثلاثا ثلث فينا وفي محبينا ، وثلث في اعدائنا وأعداء من كان قبلنا ، وثلث سنن وأمثال .

ومضى الامام يقول على حد زعم الراوي : ولو ان الآية اذا نزلت في قوم ثم مات اولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ، ولكن القرآن يجري اوله على اخره ما دامت السموات والارض ولكل قوم آية يتلونها هم منها في خير او شر الى غير ذلك من الروايات التي تشير الى ما ذكرنا .

والامر في هذه المرويات سهل بعد ان لم تكن من حيث سندها ومتنها في مستوى الصحيح .

اما الروايات التي تنص على ان عليا (ع) قد جمع القرآن حسب نزوله وترتيبه فهي شائعة بين الرواة ، وليس في متونها ما يدعو الى التشكيك بها والالتجاء الى التأويل والتحوير .

وجاء عن الامام الصادق (ع) ان امير المؤمنين (ع) بعد ان اتم جمعه اخرجه الى الناس وقال لهم : هذا كتاب الله عز وجل كما انزله الله على محمد (ص) وقد جمعته من الالواح فقالوا : عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه ، فقال :

اما والله ما ترونه بعد يومكم هذا ابدا انما علي ان أخبركم به لتقرؤوه .

ومجمل القول ان الامام (ع) بعد ان فرضت عليه مصلحة الاسلام العليا ان ينصرف عن الخلافة اتجه اولا الى جمع القرآن وتدوين الفقه فألف الجامعة وطولها سبعون ذراعا بخط يده واملاء رسول الله على حد تعبير الراوي ، وقد تحدثنا عن الجفر والجامعة وغيرهما مما ينسب

لعلي (ع) خلال حديثنا عن مصحف فاطمة في الفصول السابقة ، وكان له مع ذلك دور بارز في القضاء والفتيا لم يكن لاحد سواه من اقطاب الصحابة فكان قوله الفصل اذا تعقدت الامور ورأيه الاول والاخير اذا تباينت الآراء واختلفت الاتجاهات ولم يكن باستطاعة احد ان يصرف الانظار عنه الى غيره ولا ان يحول بين الناس وبين الرجوع اليه في مشاكلهم وأحكام دينهم ، وحتى من كانت السلطة بيدهم لم يجدوا بدا من الرجوع اليه والعمل برأيه في جميع المشاكل التي كانت تعترضهم ولم يجدوا لها حلا من كتاب او سنّة ، بالرغم من انه كان يهمهم تحويل الانظار عنه واضعاف مركزه في النفوس ، ولكنهم ادركوا ان ذلك لم يكن في مقدورهم ولا في مقدور اي سلطة كانت ، فانسجموا مع الواقع الذي يفرض نفسه ، وبلغ الحال بعمر بن الخطاب المدبر الاول لكل ما تلا وفاة الرسول من أحداث الى اقصائه عن الخلافة بلغ به الحال ان قال مخاطبا اولئك الذين كانوا يتصدرون للافتاء في مسجد الرسول ، لا يفتني احدكم في المسجد وعلي حاضر ، ولاكثر من مناسبة كان يقول :

لا بقيت لمعضلة ليس لها ابو الحسن ، ولولا علي لهلك عمر .

واذا استطاع اخصامه ان يصرفوا الخلافة عنه بذلك الاسلوب الذي اتبعوه لتحقيق اطماعهم ورغباتهم ، فلن يستطيعوا ان يصرفوا الانظار عن فقهه وعلمه وقضائه ، لاسيما وان اكثر المسلمين سمعوا رسول الله يقول :

علي باب مدينة العلم ، وعلي اقفاكم وهو مع الحق يدور معه كيفما دار وانى اتجه ، وانه لن يفترق عن كتاب الله . لا

وما الى ذلك في عشرات المناسبات كما ذكرنا .

لقد استقبل المسلمون حياة جديدة وأحداثا متنوعة وأمما لها اديانها ومعتقداتها وغير ذلك مما لم يعرف المسلمون نظيرا له من قبل ووجدوا انفسهم في هذا المنطلق الواسع احوج اليه من اي زمان مضى بعد ان

فقدوا رسول الله الذي كانوا اذا سألوه أجابهم واذا لم يسألوه ابتدأهم فلا تلم بأحد منهم شبهة الا كشفها ، ولا تنزل بهم غاشية الا جلاها ، ولا يطرق في صدر احدهم وسواس الا وجدوا عنده الدواء الشافي ، اما وقد رحل عن دنياهم وانقطع بموته النور الذي كان يصل الارض بالسماء ويكشف ما كان يدور في صدور المنافقين ، وما كان يتناجى به اهل المكر والسوء فيفضح امرهم وينبه المسلمين الى مواقع الخطر ومواطن السوء ، مما دعا اهل الضلال والنفاق الى ان يكونوا في حذر دائم من ان يفضح الله امرهم ، ويكشف للرسول والمؤمنين ما يبيتون وما يدبرون .

وقد حكى الله في الآية من سورة التوبة ما كان يدور في نفوسهم من الخوف والقلق فقال : يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون . وقد ارتفع كل ذلك بعد وفاة الرسول ، وترك لهم كتاب الله وسنته وأهل بيته الذين شبههم بسفينة نوح وقرنهم بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكلهم يعلمون ان احدا غير علي (ع) لم يزوده النبي بكل ما تحتاج اليه الامة في حاضرها وغدها ، وكان يقول وهو على ثقة من نفسه وملايين المسلمين لا ينكرون عليه ما يقول :

سلوني قبل ان تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها .

ثم يلتفت اليهم ثانية ويقول :

سلوني عن كتاب الله ، فوالله الذي لا إله غيره ما من آية الا وانا أعلم بليل نزلت ام بنهار ، ام بسهل ام جبل .

ويروي عنه ابن ابي الحديد انه كان يقول : لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين اهل التوراة بتوراتهم وبين اهل الانجيل بانجيلهم وبين اهل

الفرقان بفرقانهم .

وكما سمعوه يقول ذلك سمعوا الرسول ـصـ يقول فيه : كما جاء في رواية عبد الله بن العباس ، والله لقد اعطي علي بن ابي طالب تسعة أعشار العلم ، وايم الله لقد شاركهم في الجزء العاشر . ولو تجاهلنا هذه النصوص ، واستعرضنا حياة الامام علي (ع) نجد انه قد امضى اكثر من ثلاثين عاما الى جانب رسول الله كان لا يفارقه فيها الا في ضروراته ، وحتى لو افترضنا وباب الافتراض واسع لا حرج فيه على احد من الناس ، لو افترضنا انه لم يستخلفه من بعده بنص قاطع كما يزعم اهل السنّة ، بل كان يؤهله ويعده لها حسبما يدعون ، لو افترضنا ذلك لا بد وأنه كان يزوده بما لديه مما تحتاجه الامة في دينها ودنياها ليسير بها نحو الافضل وكما يريد الله . ومن غير المألوف والمعقول أن يستخلفه كما هو الواقع الذي لا ريب ، او يؤهله لها كما شاء لهم الهوى ان يزعموا ويتركه لمؤهلاته ومواهبه كغيره من بقية اصحابه في حين ان المؤهلات والمواهب التي كان يتمتع بها تكفي وحدها لان تجعله في القمة بين الافذاذ وعباقرة العصور .

هذا ولا احسب اني في هذه المحاولة قد كشفت عن ناحية من نواحي شخصية كانت غامضة على الباحثين او كشفت سرا لم يهتد اليه احد من الناس وأسجل على نفسي بأن صدري سوف لا يضيق اذا اتهمني احد بالفضول في هذه الدراسة ، ولكن البحث قد جرني اليها من حيث لا اريد .

ولا بد لي وأنا في معرض الحديث عن انصرافه الى خدمة الاسلام ونشر الاحكام ان اقدم بعض الامثلة من مواقفه في هذا السبيل ولو كان ذلك ليس بجديد ، ولكن الحديث عن سيرته يفرض على الباحث ان يشير ولو بصورة موجزة الى جميع نواحيها .

فقد جاء في تذكرة الخواص لابن الجوزي عن احمد بن حنبل في

فضائله بسنده الى ابي ظبيان ان عمر بن الخطاب اتى بامرأة قد زنت فأمر برجمها وفيما هم يعدون العدة لذلك واذا بعلي (ع) قد اقبل ولما اطلع على حالها امرهم باخلاء سبيلها ، وقال لعمر بن الخطاب : انها معتوهة آل فلان ، وقد قال رسول الله : رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق كما روى ذلك البخاري في صحيحه [1] .

وروى الرواة ان عمر بن الخطاب اتي بامرأة وضعت حملها لستة شهور من تاريخ زواجها فأمر برجمها فأنكر عليه امير المؤمنين حكمه وأرجعه الى كتاب الله الكريم ، فقال له عمر : وكيف ذلك يا ابا الحسن فقال :

والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة.

وفي اية ثانية .

وحمله وفصاله في عامين .

ومضى يقول : ومن هاتين الآيتين تبين ان اقل الحمل ستة اشهر بعد استثناء مدة الرضاع لمن اراد ان يتم الرضاعة كما جاء في الآية الاولى ، فقال عمر بن الخطاب : اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن ابي طالب .

وجاء في الارشاد للمفيد ، ان رجلا شرب الخمر في عهد ابي بكر ، ولما استدعاه ووقف بين يديه امر باقامة الحد عليه ، فادعى بأنه لا يعلم تجريمها لانه نشأ بين قوم يستحلونها فارتج على ابي بكر ولم يدر ما يصنع ، فأشار عليه جلساؤه ان يسأل عليا عن حكم هذه الحادثة ، ولما استدعاه وسأله عن ذلك قال : يطوف به رجلان من المسلمين على مجالس المهاجرين والانصار فان تبين ان احدا تلا عليه آية التحريم او

---

١ ــ انظر البخاري جـ٤ ص ١٧٧ .

اخبره تجريمها اقيم عليه حد الله ، وان لم يتبين ذلك فلا شيء عليه لان رسول الله قال الحدود تدرأ بالشبهات ، فلم يجد الخليفة بدا من الاخذ بقوله فأرسله مع رجلين من ثقاة المسلمين الى مجالس الانصار والمهاجرين فلم يشهد احد بأنه قد تلا عليه الآية او اخبره بحرمتها فأطلق سبيله .

وسئل ابو بكر عن الكلالة التي ورد ذكرها في آية المواريث ، فقال اقول فيها برأي فان اصبت فمن الله وان اخطأت فمن نفسي ومن الشيطان ، ولما بلغ عليا (ع) قوله قال : ما اغناه عن الرأي في هذا المكان اما علم ان الكلالة هم الاخوة والاخوات من قبل الاب وحده او الام وحدها ، ثم تلا الآية :

يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك .

وقال :

وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث .

وروى في الارشاد ان قدامة بن مظعون شرب الخمر وأراد عمر بن الخطاب ان ينفذ فيه عقوبة شربها فاحتج عليه قدامة بالآية :

ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات .

فتوقف عن اقامة الحد عليه بحجة ان الآية تنفي عنه الجناح اذا آمن وعمل الصالحات ، ولما بلغ ذلك عليا (ع) قال لعمر بن الخطاب : لِمَ تركت اقامة الحد عليه وقد شرب الخمر ، فقال لان الآية تنص على :

ان الذين اتقوا وعملوا الصالحات ليس عليهم جناح فيما طعموا .

فقال امير المؤمنين :

ان الذين اتقوا وعملوا الصالحات لا يستحلون ما حرم الله .

فأردد قدامة واستتبه فان تاب فأقم عليه الحد ، وان لم يتب فاقتله

لانه مستحل لما حرم الله في كتابه ، ولما ايقن قدامة ان الاسلام لا يعفيه من العقوبة اظهر التوبة وتعرض لعقوبة شرب الخمر ، وكان ابو بكر يرى انها اربعون جلدة فأخبره علي بأنها ثمانون جلدة فأخذ برأيه ومضت على ذلك .

واتهمت امرأة حامل بالزنا في عهد ابن الخطاب وشهد عليها الشهود بذلك فأمر برجمها ، فقال له علي (ع) هب ان لك سبيلا عليها ، فأي سبيل لك على ما في بطنها ، والله سبحانه يقول :

ولا تزر وازرة وزر اخرى .

فقال له عند ذلك : لا عشت لمعضلة ليس لها ابو حسن ، وأشار عليه ان يمهلها حتى تلد ما في بطنها فاذا وضعت حملها ووجدت لولدها من يكفله اقام عليها حد الله ، واذا لم تجد له كفيلا امهلها الى ان يستغني عنها ولدها .

وجاء عن سعيد بن المسيب ان رجلا من اهل الشام وجد مع امرأته رجلا فقتلهما وجيء به الى معاوية فأشكل عليه القضاء في ذلك ، فكتب الى ابي موسى الاشعري ليسأل له علي بن ابي طالب عن القضاء في مثل ذلك ، ولما سأله الاشعري عن ذلك ، قال له : عزمت عليك ان تخبرني عن مصدر هذه الحادثة فقال له ابو موسى : ان معاوية كتب الي ان اسألك عن القضاء في مثل ذلك فقال له : ان لم يأت بأربعة شهود فليعط برمته [1] .

وسئل عمر بن الخطاب عن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها فأجابهم بأنها تنتهي بوضع الحمل يقول تعالى : واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن . ولما سئل علي عن ذلك اجاب بأن عدتها لا تنتهي الا بأبعد الاجلين من وضع الحمل ومضى اربعة اشهر وعشرا بمعنى انها اذا

---

١ ـ موطأ مالك ص ٢١٢ .

وضعت حملها قبل مضي اربعة اشهر وعشرا من تاريخ الوفاة تبقى في العدة الى ان يتم لها اربعة اشهر وعشرة ايام ، واذا لم تضع حملها خلال اربعة اشهر وعشرا تبقى في العدة الى ان تضع حملها ولا تحل للازواج قبل ذلك ، اما اللواتي تنتهي عدتهن بوضع الحمل فهن المطلقات الحوامل.

ولما سئل عن مصدر هذا الحكم قرأ الآية :

والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا (١) .

وكان يرى ان الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلاقا واحدا ولا يمنع من تراجع الزوجين عملا بالآية الكريمة التي تنص على ان الطلاق مرتان:

فامساك بمعروف او تسريح باحسان .

بضميمة الآية :

فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة .

وكان ابن الخطاب يمضيه ثلاثا ويراه موجبا للتحريم حتى تنكح زوجا غيره مع اعترافه بأن رسول الله لا يرى هذا النوع من الطلاق موجبا لتحريم الزوجة على مطلقها ، وظل عمر بن الخطاب على اصراره الزاما للمطلق بما الزم به نفسه كما ينسب له اهل السنّة ، ولا يزال اكثر السنّة في فقههم يعملون برأي عمر بن الخطاب في هذه المسألة اعتمادا على اجتهاده فيها مع مخالفة اجتهاده لحكم الكتاب (٢) .

ويروي الرواة ان يعلى بن أمية وكان واليا لعمر بن الخطاب على

---

١ ــ وبعد ضم هذه الآية الى الآية الاولى التي تنص على ان اولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن وملاحظة النسبة بينهما ينتج ما ذكره امير المؤمنين (ع) وهو في منتهى الدقة .

٢ ــ وقد قالوا ان فتوى الصحابي تخصص الكتاب وتقيد مطلقاته ، ولا مصدر لهذه الاحكام الا تصحيح فتاوي بعض الصحابة المخالفة لكتاب الله .

اليمن سئل عن امرأة قتلت هي وخليلها ولدا لزوجها ، فهل القصاص على الاثنين او على احدهما ، فتوقف في الجواب ، ورجع الى امير المؤمنين فيه ، فقال له : ارأيت لو ان نفرا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا اكنت قاطعهم ؟ قال نعم . فقال له امير المؤمنين: وكذلك الحال هنا ، فكتب ابن الخطاب لعامله اقتلهما معا ، فلو اشترك اهل صنعاء في قتله استحقوا القتل .

وقد ابتلي عمر بن الخطاب في توزيع ميراث رجل مات وترك امرأة وابنتين وأبوين ولم يهتد الى المخرج من ذلك ، لانه لو اعطى الزوجة ثمنها والبنتين الثلثين والابوين الثلث زادته السهام على التركة بثمن الزوجة ، وبعد ان تداول الامر مع بعض الصحابة استقر الرأي على الحاق هذا الفرض وأمثاله من الفروض التي تزيد فيها السهام على التركة واستقر على الحاقه بما لو مات شخص وعليه ديون لا تفي بها التركة فالحل في مثل ذلك هو ادخال النقص على الجميع كل بحسبه ، فأفتاهم في فروع الميراث بادخال النقص على جميع الورات بما في ذلك الابوين والزوجة ، فأعطى الزوجة ثلاثة من سبع وعشرين وأعطى البنتين ستة عشر سهما والابوين ثمانية لكل واحد اربعة اسهم ، فصار ثمن الزوجة تسعا .

بينما كان علي (ع) يرى في مثل ذلك ان الزوجة تأخذ سهما كاملا، ويأخذ كل من الابوين سدسه ويدخل النقص على البنتين لا غير ، لان الزائد من التركة عن السهام في بعض الفروض يرد عليهما ، وقيل انه ادخل النقص على البنتين والاب لا غير ، وهو الذي عليه الشيعة في فقههم [1] .

---

١ ــ هذا الفرع من فروع مسألة العول التي وقف فيها الشيعة الى جانب والسنّة الى آخر، وكان الخلاف قد وقع فيها بين الصحابة انفسهم =

ويدعي ابن الجوزي في تذكرته ان عليا (ع) كان يخطب في ايام خلافته ، وفيما هو يتحدث عن الصفات التي يجب ان تتوفر في الحاكم قام اليه رجل وقال : ما تقول يا امير المؤمنين في رجل مات وترك امرأة وابنتين وأبوين ، فقال لكل واحد من الابوين السدس ، وللابنتين الثلثان ، فقال له السائل : والمرأة ؟ فأجابه على الفور : صار ثمنها تسعا ، وأضاف الى ذلك ابن الجوزي ان هذا الجواب من ابلغ الاجوبة .

ولو صح ذلك فلقد اجابهم على مذهب القائلين بالعول ، وفي الوقت ذاته فانه اراد بقوله صار ثمنها تسعا الزامهم بمخالفة القرآن في ذلك حيث انه حصر ارث الزوجة في الربع والثمن ، وهذا الحصر دليل واضح على ان سهامها لا تنقص عن ذلك ولا تزيد ، والذين يجوز ادخال النقص عليهم اولئك الذين يأخذون الزيادة فيما لو زادت التركة عن سهامهم ، كما لو ترك الميت زوجة وبنتا او ابوين وبنتا ، فان البنت في الفرض الاول تأخذ الزائد بكامله ، وفي الفرض الثاني تأخذه هي والاب كل بحسب نصيبه ، فيكون جوابه من ابلغ الاجوبة حيث اجابهم على مذهبهم وأشار بنفس الجواب الى مخالفتهم لكتاب الله .

ومن الفروض التي خفي فيها حكم الله على حكام عصره وكان لهم فيها رأي مخالف لرأيه، ما لو ترك الميت زوجة وبنتين مثلا او بنتا وأبوين او اختين مثلا ، فقد افتاهم بأن ما زاد عن سهام البنتين او الاختين يرد عليهما ، بينما افتاهم ابن الخطاب بأن الزائد يعود الى اخوة الميت او أعمامه اذا لم يكن له اخوة ، ومضى اهل السنّة في فقههم على ذلك مع الاختلاف الشديد بين ائمة مذاهبهم وفقهائهم في بعض فروض التعصيب كما يبدو ذلك من مجاميعهم الفقهية .

= فقد اخذ بعضهم بقول علي(ع) واخذ البعض الآخر بقول عمر بن الخطاب ولا يزال السنّة في فقههم على ذلك .

وجاء عن عبد الله بن العباس انه كان يقول : ليس على وجه الارض أعلم بالفرائض من علي بن ابي طالب ، ومع تبحر ابن عباس في الفقه والحديث والتفسير واللغة وغير ذلك من الفنون ، فقد اجاب من سأله عن نسبة علمه الى علم علي بن ابي طالب ، اجاب كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط .

وقد اجمع المسلمون على اختلاف نزعاتهم ونحلهم وغيرهم من الباحثين والمستشرقين على انه كان قطب الاسلام وموسوعة كبرى لجميع العلوم الاسلامية كالفقه والقضاء والفلسفة والعربية وما يتفرع عنها ، ولم يقف علمه بالفقه عند علمه بنصوصه وأحكامه ومداركه ، بل تجاوزه الى العلم بأدوات الفقه وكل ما يتوقف عليه من العلوم كعلم الحساب، فلقد كانت معرفته بالغة حد الاعجاب من معاصريه ومن جاء بعدهم من العلماء وأئمة المذاهب ، بل ان اكثر المتأخرين عنه ينتهي علمهم اليه .

ويجمع الرواة على ان النبي (ص) قال للمسلمين : أقضاكم علي ، فقد كان اقضى اهل زمانه لانه كان اعلمهم بالفقه والشريعة وهما المصدر الاول للقضاء ، ولقد اوتي مع ذلك من قوة العقل ما يكشف له عن الوجه الاقرب الى الصواب والمنطق ، وأوتي من صفاء الوجدان وسرعة الانتباه ما سهل له استخدام علمه في حل الخصومات وكان اسبق القضاة الى اقرار ما يسمى بالحق العام مراعاة لفكرة العدل بين الناس بدون نظر الى موقف الجانبين المتخاصمين ، وفي ذلك ما فيه من الاحترام للنظام العام وتأكيد العدالة بين الناس وواجبات الافراد نحو المجتمع الذي يعيشون فيه وقد سبق بذلك زمانه في مراعاة هذا الحق بعشرات السنين .

لقد سمع في احدى الليالي صوت مستغيث يدعو من يجيره فهرع اليه بنفسه مسرعا يقول قد اتاك الغوث والفرج ، وما لبث ان رأى رجلا يمسك برجل امساكا شديدا ، ولما اقبل عليه امير المؤمنين خلاه ، وقال

يا امير المؤمنين : لقد بعت هذا الرجل ثوبا بتسعة دراهم فأعطاني دراهم على غير الشرط ، ولما طلبت منه غيرها شتمني ولطمني لطما موجعا . فقال علي (ع) للمشتري : ابدلها له ، وطلب من المدعي بينة على اللطمة، فجاءه بها فقال للمضروب اقتص منه . فقال : لقد عفوت عنه . فقال لك ذلك ، ولكن بقي عليه الحق العام ومقتضاه ان يعاقب وينال جزاءه ليكون عبرة لكل من يفكر في الاعتداء على الناس ويعبث بحقوقهم وكرامتهم ولا يحترم النظام ، وبما انه هو المسؤول عن حماية المجتمع من الفوضى والفساد فقد امسك بالضارب على مشهد من المضروب ولطمه بيده تسع مرات وقال هذا حق السلطان .

وكما ذكرنا لقد كان المصدر الاول لجميع العلوم التي ظهرت بعد زمانه فقد امعن النظر في القرآن وفي الدين واعتبرهما من المواضيع التي يجب فيها التفكير والتأمل ومنه اخذ الناس علم الكلام او ما يسمى بالفلسفة الاسلامية ووجد المتصوفة بذور التصوف في نماذج شتى من نهج البلاغة ومن حياته وزهده فنسبوا التصوف اليه واتخذ امام للمتصوفين .

وقال في شرح النهج : وهو يتحدث عن علي وفضائله ، ما اقول في رجل تعزى اليه كل فضيلة وتنتهي اليه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضمارها ومجلي حلبتها، كل من بزغ فيها فمنه اخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى ، وقد عرفت ان اشرف العلوم هو العلم الالهي لان شرف العلم بشرف المعلوم والمعلوم اشرف الموجودات ، ومن كلامه اقتبس وعنه نقل واليه انتهى ومنه ابتدأ، لان المعتزلة الذين هم اهل التوحيد والعدل وأرباب النظر ومنهم تعلم الناس هذا الفن هم تلامذته وأصحابه فكبيرهم واصل بن عطاء تلميذ ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ محمد بن الحنفية ، ومحمد هذا تلميذ ابيه علي بن ابي طالب .

وأما الاشعرية فهم ينتمون الى ابي الحسن علي بن ابي الحسن بن ابي بشير الاشعري ، وهو تلميذ ابي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي احد مشايخ المعتزلة ، فالاشاغرة حسب هذا التسلسل الذي ذكرناه ينتهون الى استاذ المعتزلة ومعلمهم علي بن ابي طالب ، ومضى يقول : وكما ان علم الكلام او الفلسفة الاسلامية تنتهي اليه وقد وضع اصولها قبل ان يتحدث بها احد من الناس ، كذلك الفقه الاسلامي الذي حمل لواءه أئمة المذاهب فهو اساسه وكل فقه في الاسلام عيال عليه ، اما اصحاب ابي حنيفة كمحمد بن الحسن وأبي يوسف وغيرهما فقد اخذوا عن ابي حنيفة ، وقد قرأ الشافعي على محمد بن الحسن الشيباني تلميذ ابي حنيفة فيرجع الشافعي بهذه الواسطة الى ابي حنيفة .

وقرأ احمد بن حنبل على الشافعي فيرجع في فقهه الى ابي حنيفة ، وأبو حنيفة تتلمذ على الامام جعفر بن محمد وجعفر بن محمد ينتهي في علمه وفقهه الى جده علي بن ابي طالب .

وأما مالك فقد قرأ على ربيعة الرائي ، وربيعة اخذ عن عكرمة ، وعكرمة اخذ عن عبد الله بن العباس ، وعبد الله مصدره الامام علي بن ابي طالب ، ومضى يقول : وان شئت رددت اليه علم الشافعي من حيث انه كان من تلامذة مالك ، ومالك من تلامذة ربيعة ، وربيعة ينتهي في علمه الى علي (ع) كما ذكرنا .

وقد اراد الله لعلي بن ابي طالب (ع) ان يكون ركن العربية في علومها كما كان ركن الاسلام في علومه وساعده على ذلك تبحره فيها ومنطقه السليم وقواه الذهنية الخارقة ، فهو بحق واضع الاساس فيها وممهد طريقها لكل من اتى بعده ، ومما اثبته التاريخ ان ابا الاسود الدؤلي دخل على امير المؤمنين يوما فرآه مطرقا مفكرا فقال له :

فيم تفكر يا امير المؤمنين ؟ فقال اني سمعت في بلدكم هذه لحنا ،

فأردت ان اضع كتابا في أصول العربية ، ثم القى اليه صحيفة فيها الكلام اسم وفعل وحرف .

وفي رواية ثانية قال له اكتب يا ابا الاسود ما امليه عليك فتناول ابو الاسود قلما وصحيفة فأملى عليه كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما انبأ عن المسمى والفعل ما انبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، وان الاشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، يعني بذلك اسم الاشارة ، ثم قال : انح هذا النحو يا ابا الاسود فعرف ذلك العلم بعلم النحو من ذلك اليوم .

وأضاف الى ذلك ابن ابي الحديد في شرح النهج ان كبار الصحابة وغيرهم كانوا يرجعون اليه ولا يجدون له بديلا ويقفون عند رأيه واثقين بأنهم قد اخذوا بحكم الله ومن المعدن الذي اخذ عنه استاذه ومعلمه الاكبر محمد بن عبد الله .

لقد استطاع علي (ع) بعد الرسول (ص) ان يجد منفذا لطاقاته العلمية في مجتمع تراكمت فيه المشاكل والتبست الامور ووجد المسلمون انفسهم امام واقع جديد وأحداث جديدة لا عهد لهم بها من قبل ، في هذه الفترة من حياته لم يكن جهاده في سبيل الاسلام بأقل اثرا من جهاده في عصره الاول وان اختلف الشكل والمظهر ، ومع ذلك فقد كان يتمنى وقد رأى الدعوة بدأت تشق طريقها لتدك عروش القياصرة والاكاسرة وتحقق نبوءة ابن عمه الرسول الامين يوم كان المسلمون يحفرون الخندق حول مدينتهم ليتقوا به من شر ابي سفيان وزمرته طغاة قريش والاحزاب .

لقد سخروا منه يوم ذاك حين اخبرهم ان لضربته في الخندق بريقا سطع نوره وانتشر في الفضاء حتى بلغ قصور الرومان والاكاسرة في بلاد فارس ، وقالوا : بأن محمدا يعدنا بقصور الفرس والرومان ونحن

اليوم لا نأمن على نفوسنا ان نخرج لقضاء حاجتنا ، ولكن المؤمنين بأن محمدا لا ينطق عن الهوى ظلت كلماته تلك ماثلة في اذهانهم وظل فيها شبح ذلك البريق الذي سطع من ضربة محمد بن عبد الله في الخندق واتتشر في فضاء المدينة وما حولها .

لقد كان علي (ع) يتمنى ان يكون ولو جنديا مع اولئك الغزاة الى ما وراء الحدود وما داموا يحملون الى تلك البلاد رسالة محمد (ص) التي كان يفنى في سبيلها ولا يفكر بغيرها ، ولا يضره اذا تحققت اهدافه ان يكون اميرا او مأمورا ، واذا طالب بالخلافة بالامس فذاك ليتسع الاسلام وينتشر في انحاء المعمورة ، وطالما كان يرمي بنظراته تلك الجموع المدججة بالسلاح تودع المدينة في طريقها لخارج الحجاز ويتمنى لو يتاح له ان يكون معهم حيث يريدون ولكن ذلك كان محظورا عليه وعلى غيره من كبار الصحابة فيعود طاويا قلبه على هم جديد فوق ما طواه عليه من هموم وأحزان .

لقد اتخذ ابو بكر قرارا بأن لا يخرج من المدينة علي(ع) وغيره من كبار الصحابة ممن يطمحون لمعالي الامور وللاستيلاء على السلطةوفرض عليهم الاقامة بها حتى لا تتسع صلاتهم بالناس ، فوقف هو وغيره حيث اراد لهم الخليفة لا يبرحون منها الا باذن ولاجل محدود ، وأوصى خليفته بذلك من بعده .

وجاء في وصيته كما يدعي الرواة احذر هذلاء النفر من اصحاب رسول الله الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم ، وطبق خليفته ابن الخطاب هذه الوصية بمنتهى الدقة ، فكان يأتيه الرجل منهم يستأذنه في الخروج الى الجهاد ، فلا يأذن له ويقول :

لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ويكفيك وخير لك من الغزو اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك .

ورضي امير المؤمنين بذلك وقنع من دنياه بتفقيه الناس في دين الله

وتشريع الاحكام لا يوغر صدره ان يرى حقه مسلوبا منه يرتع به غيره ما دام الاسلام في طريقه يسير بخطا واسعة يدك العروش ويهز الجبابرة والطغاة ، وظل طيلة حياته يهب لهم العون والنصح ويعمل بكل ما لديه من جهد وطاقات لتسير الامور في طريقها الصحيح ويسود العدل والامن والسلام وشعاره والله لأسالمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة .

ولم يقف علم علي الواسع على المحسوسات وما يمكن ان يتوصل اليه الانسان ، بل تعدى ذلك لما يسمى بالغيبيات التي اتصلت اليه من النبي (ص) عن طريق الوحي كما صرح بذلك في كلام له بعد ان هزم اصحاب الجمل في البصرة عندما وقف يحدث جماعة من اصحابه عما ستعانيه البصرة من الزنج وغيرهم ، بعد عشرات السنين ، فقال له بعض اصحابه : لقد اعطيت علم الغيب يا امير المؤمنين . فضحك وقال للرجل كما جاء في نهج البلاغة في الخطبة رقم ١٤٦ :

وليس هو بعلم غيب وانما هو تعلم من ذي علم ، وانما علم الغيب علم الساعة وما عدد الله سبحانه بقوله ان الله عنده علم الساعة الآية، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه احد الا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله لنبيه وعلمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي ، وكان يقول لاهل الكوفة :

ايها الناس لا يجرمنكم شقاقي ولا يستهوينكم عصياني ، ولا تتراموا بالابصار عندما تسمعونه مني ، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ان الذي اخبركم به عن النبي الامي ما كذب المبلغ ولا جهل السامع .

ومن امثلة ما تحدث عنه وأخبر به مما وقع بعضه بعد وفاته بعشرات السنين وبعضه بمئات السنين ، فقد جاء في حديثه عن البصرة : وايم الله لتفرقن بلدتكم حتى كأني انظر الى مسجدها كجؤجؤ سفينة او

نعامة جاثمة [1] وقد تحققت هذه النبوءة مرتين الاولى في عهد القادر بالله احمد بن اسحاق بن المقتدر ، الذي بويع بالخلافة سنة ٣٨١ ، ومرة في عهد عبد الله بن القادر الملقب بالقائم بأمر الله ، الذي بويع سنة ٤٢٢ ، وفي المرتين غمرتها المياه وغرق كل ما كان فيها وهلك خلق كثير من اهلها [2] .

كما اخبر عن خراب البصرة وهلاك جمع كبير من اهلها بواسطة الزنج في حديث له يصف الغزاة وما يصنعونه في البصرة وجهاتها ، وكان يوجه كلامه الى الاحنف بن قيس احد زعمائها الكبار ، يا احنف كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم ولا حمحمة خيل يثيرون الارض بأقدامهم كأنها أقدام النعام ، ويل لسككم العامرة والدور المزخرفة التي لها اجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة من اولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفتقد غائبهم [3] .

وتحققت هذه النبوءة باجماع المؤرخين في سنة ٢٥٥ من عهد العباسيين في خلافة المهتدي وكان الامام العسكري يوم ذاك معتقلا في سامراء وقد ادعى صاحب الزنج انه علوي النسب ، فطلب المهتدي من الإمام (ع) ان يبدي رأيه فيه ، فقال كما جاء فيه : ان صاحب الزنج ليس بعلوي ، وقد تحدثنا عنه في سيرة الامام العسكري .

كما تحدث عن خراب البصرة بواسطة التتر كما جاء في خطبته رقم ١٢٦ ، وقد اجتاح التتر اكثر البلاد الاسلامية ويبدو انهم اصطدموا

---

١ ــ نهج البلاغة رقم الخطبة ١٣ .

٢ ــ شرح النهج ، ج١ ص ٨٤ .

٣ ــ الخطبة رقم ١٢٦ وجاء ذلك في مجلد ٢ ص ٣١٠ و٣٦١ من شرح النهج ، وقد عنى بقوله لا يندب قتيلهم ، ان الغزاة كانوا من العبيد وليس لهم من يبكي عليهم ويندبهم .

في البصرة بمقاومة شديدة حتى فتكوا فيها وبأهلها ذلك الفتك الذريع كما يصف ذلك ابن ابي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج حيث وقع ذلك في عصره وقد وصفهم الامام (ع) بقوله : كأني اراهم قوما كان وجوههم المجان المطرقة ، يلبسون السرق والديباج ويتعقبون الخيل العتاق ، ويكون هناك استحرار [1] قتل حتى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت اقل من المأسور .

وتحدث عن الكوفة وما سيحل بها من الخراب والدمار وجور الولاة كالحجاج بن يوسف الثقفي وغيره فقال كما جاء في خطبته رقم ٤٧ من نهج البلاغة : كأني بك يا كوفان تمدين مد الأديم العكاظي تعركين بالنوازل وتركبين بالزلازل ، واني لاعلم انه ما اراد الله بك جبار سوء الا ابتلاه الله بشاغل ورماه بقاتل .

وقد تحدث ابن ابي الحديد في شرح النهج بما جرى عليها من ولاة الجور الذين حكموها على جماجم الصلحاء والابرياء كالثقفيين وزياد بن ابيه وعبيد الله بن زياد وخالد القسري وغيرهم من الطغاة وأعوان الظالمين [2] وتنبأ بخلافة مروان بن الحكم ومن تعاقب على الحكم من بعده ، وما سيحل بالمسلمين من جورهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات ، فقال : اما ان له امرة كعلقة الكلب انفه ، وهو ابو الاكبش الاربعة وستلقى الامة منه ومن ولده يوما احمر ، وأضاف الى ذلك في وصف ما تعانيه الامة منهم : والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرما الا استحلوه ولا عقدا الا حلوه ، وحتى لا يبقى بيت مدر او وبر الا دخله ظلمهم ، وحتى يقوم الباكيان يبكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه،

---

١ ــ الاستحرار هو الاشتداد .
٢ ــ انظر ص ٢٨٦ و٢٨٧ .

ومضى في وصفهم حتى انتهى الى القول : فأقسم بالله يا بني أمية عما قليل لتعرفنها في ايدي غيركم وفي دار عدوكم .

وفيما قاله لاهل الكوفة : وستليكم من بعدي ولاة يعذبونكم بالسياط والحديد، ويأتيكم غلاما ثقيف اخفش وجعبوب يقتلان ويظلمان وقليل ما يمكثان [1] ، وأخبر فيما أخبر به عمن ظهر من العلويين في بعض جهات ايران كالناصر والداعي وغيرهما فقال : وان لآل محمد في الطالقان لكنزا سيظهره الله اذا شاء دعاؤه حق حتى يقوم باذن الله ويدعو الى دين الله ، وأخبر عن محمد بن عبد الله الحسين المعروف بالنفس الزكية وأخيه ابراهيم الذي قتل بباخمرا ، وعن المملكة المغربية التي اسسها ابو عبد الله الداعي [2] وعن بني بويه الى غير ذلك من التنبؤات الكثيرة التي وقعت كما اخبر بها ، وبلا شك فان اكثر ما ينسب اليه في هذا الباب ان لم يكن كله قد صدر منه وهو من نوع الغيب الخارج عن حدود طاقة الانسان ولا بد وان يكون قد تلقاه من النبي(ص) كما اخبر هو بذلك ، وهو من دلائل نبوته التي لا تحصى .

---

١ ــ الاخفش هو الحجاج وكان ضعيف البصر ، وقد وصفه الحسن البصري بذلك ايضا والجعبوب هو القصير ويعني به يوسف بن عمرو وكان قصيرا .

٢ ــ حيث قال ثم يظهر صاحب القيروان الفض النض ذو النسب المحض .

شجاعته

لقد ذكرنا لمحات عن مواقفه مع النبي في مكة وبدر وأحد والاحزاب وغيرها من الغزوات والمعارك التي دارت بين الاسلام والشرك في الفصول السابقة وهو في ريعان شبابه ، وقد ظل ذلك السيف الذي اطاح برؤوس المشركين في تلك المعارك في غمده الى ان جاءت الايام التي دعاه بها رسول الله (ص) بقوله ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين ، ولو لم يكن له الا مواقفه الاخيرة في البصرة وصفين والنهروان لكفاه دليلا على ان تاريخ البشرية لم يعرف اثبت منه في الحروب ، ولقد كان الابطال والشجعان يفتخرون ويتباهون بوقوفهم في مقابله في الحروب والمعارك ولو لحظات معدودات ولا يجدون وهنا عليهم اذا فروا منه في ساحة القتال ، وهان على قتيلة قتل اخيها النضر بن الحارث لانه كان على يده .

ونظر اليه بعض من كان معه في معركة البصرة وهو يخفق من النعاس وقد بدت المعركة لغير صالحه ، فقال له : والله ما رأيت مثل اليوم ان بازائنا مائة الف سيف وأنت على هذه الحالة وقد هزمت ميمنتك وميسرتك يا ابا الحسن ، فانتبه ورفع يديه وقال : اللهم انك تعلم اني

ما كتبت في عثمان سوادا في بياض ، وان الزبير وطلحة البا وأجلبا علي الناس ، ثم تقدم من المعركة فوجد اصحابه يهزمون ويقتلون ، فلما رأى ذلك صاح بابنه محمد بن الحنفية ومعه الراية وأمره ان يتقدم بها ، ولما ابطأ محمد عن مهاجمة القوم اتاه علي (ع) من خلفه وضربه بين كتفيه وأخذ الراية منه واقتحم عسكرهم وشقه نصفين يضرب فيهم بسيفه وهم يفرون بين يديه كما يفر قطيع المعزي من الذئاب الضارية ، ثم خرج من بينهم وطلب الماء ، فأتاه رجل باناء فيه عسل فحسا منه حسوة وقال : ان عسلك هذا لطائفي يا ابن اخي ، فقال له الرجل العجب منك يا ابا الحسن لمعرفتك بالطائفي من غيره في مثل هذا الموقف الرهيب وقد بلغت القلوب الحناجر ، فقال له امير المؤمنين : والله يا ابن اخي ما ملأ صدر عمك شيء قط ، ولا هابه لشيء ابدا ، وكان يخلع اشد الفرسان صولة وأرهبهم جانبا من صهواتهم ويرفعهم بيده في الهواء ويجلد بهم الارض جلدا لا جاهدا ولا متعبا على حد تعبير الراوي .

ولست ادري وأنا اريد ان اتحدث ولو قليلا عن هذه الناحية من نواحي عظمته التي لا تزال وستبقى حديث الاجيال وبها تضرب الامثال، وكلما استعرضت موقفا من مواقفه المدهشة ينتقل ذهني من حيث لا اريد الى ما هو أدهش وأغرب ، وقد اكد هذه الحقيقة كل من كتب عنه واستعرض مواقفه في شبابه وشيخوخته ، لست ادري بأي حادثة أتمثل وأستشهد وكل مواقفه تدهش وتحير اما وقد تملكتني الحيرة فأترك الحديث لغيري وأرويه عنه .

قال ابن ابي الحديد وهو يتحدث عن هذه الناحية من نواحي عظمته: لقد انسى الناس ذكر من كان قبله ومحا اسم من يتأتى بعده ، ومقاماته في الحروب مشهورة تضرب بها الامثال الى يوم القيامة فهو الشجاع الذي ما فر في موقف قط ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز احدا الا قتله ولا ضرب ضربة واحتاج الى الثانية فكانت ضرباته وترا .

ولما دعا معاوية الى البراز ليريح الناس من الحرب ، قال له ابن العاص : لقد انصفك الرجل .

فقال له معاوية : ما غششتني منذ نصحتني الا اليوم ، اتأمرني بمبارزة ابي الحسن وأنت تعلم انه الشجاع المطرق اراك طمعت في امارة الشام بعدي .

ومضى يقول : لقد انتبه معاوية يوما فرأى عبد الله بن الزبير جالسا تحت رجليه على سريره، فقال له عبد الله وهو يداعبه: يا امير المؤمنين لو شئت ان افتك بك لفعلت ، فقال له معاوية : لقد شجعت بعدنا يا ابا بكر ، فرد عليه بقوله : وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف ازاء علي ابن ابي طالب (ع) ، فقال له معاوية : لا جرم انه قتلك وأباك بيسرى يديه وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها . بعد ان استعرض شارح النهج بعض خصائصه التي امتاز عن جميع الناس والتي لا تزال حديث الاجيال ، قال ما اقول في رجل تحبه اهل الذمة على تكذيبهم بالنبوة وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لاهل الملة ، وتصور ملوك الافرنج والروم صوره في بيعها وبيوت عباداتها حاملا سيفه مشمر الحربة ، وتصور ملوك الترك والديلم صورته على اسيافها ، فلقد كان على سيف عضد الدولة بن بويه وسيف ابيه ركن الدولة صورته ، وكان على سيف الب ارسلان وابنه ملكشاه صورته يتفاءلون بذلك بالنصر والظفر ، وأضاف الى ذلك يقول : وما اقول في رجل احب كل احد ان يتكثر به ويتجمل ويتحسن بالانتساب اليه .

ومجمل القول ان عليا كان يمثل الفروسية والبطولات بأروع معانيهما وبكل ما ينطويان عليه من المروءة والشهامة والإباء والترفع عن الدنايا ، فكان من أبغض الاشياء اليه ان ينال احدا من الناس بالاذى حتى ولو آذاه ، وان يبادل مخلوقا بالعقوبة حتى ولو تحقق لديه انه يحاول قتله والإباء والترفع هما اللذان منعاه من مقابلة معاوية بالسباب

يوم جعلوا يرشقونه به لان العظيم لا يرضى لنفسه ان ينال ممن ناصبوه العداء بالسباب ولو سبوه ، ولم يكتف بذلك بل منع اصحابه ان ينالوا من اخصامه بالشتيمة المقذعة ، وما كاد يسمعهم يسبون اهل الشام لانهم سايروا الغدر ومارسوا الخداع والكذب ، حتى قال لهم :

اني اكره لكم ان تكونوا سبابين .

ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم كان اصوب في القول وأبلغ في العذر، ولو قلتم مكان سبكم اياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به .

كما وان المروءة التي تلازم الفروسية في سيرته اكثر من ان تحصى، لقد كان يأبى على جنده وهم في اشد حالات الغضب والنقمة ان يتعقبوا عدوا تراجع او جريحا وقع في ساحة المعركة وبه رمق من الحياة او يأسروه، او يكشفوا سترا لامرأة وان شتمتهم وسبت امراءهم .

ويقول لهم : لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا مدبرا ولا تصيبوا معورا ، ولا تروعوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن امراءكم.

وحين ظفر بألد اعدائه الذين كانوا يتحينون الفرص للتخلص منه بكل وسائل الغدر والنفاق كعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد ابن العاص في البصرة عفا عنهم وأحسن اليهم وأبى على انصاره ان يتعقبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون .

وحينما ظفر بعمرو بن العاص وهو لا يقل خطرا عليه من معاوية اعرض عنه وتركه ينجو بحياته مع علمه بأنه سيستمر في مؤامرته ومساندة معاوية ، لقد تركه وأعرض عنه لانه انهار امامه انهيار الذليل الخسيس ، ولم يجد وسيلة تنجيه من ذي الفقار الذي ارتفع فوق هامته الا ذلك الاسلوب الذي لا يزال مضرب الامثال وسخرية الاجيال، وبلا شك فانه لو قضى عليه حينما القى بنفسه بين يديه شاغرا رجليه

كاشفا عن سوأته لكان قضى على الغدر والمكر ، بل على جيش معاوية بكامله ، لانه هو المدبر الاول لكل ما كان معاوية يعده ويأمر به وأي مقاتل يظفر بخصم من نوع ابن العاص لا يمكن ان يعف عنه ولو ابدى له اكثر من سوأته وابن العاص يعلم ان غير علي لو ظفر به لا يعف عنه، ولكن عليا تأبى عليه مروءته ان يهوي بالسيف المسلط فوق هامته وهو بتلك الحالة من الذل والهوان والاستجداء .

وما اكثر مواقفه التي تمثل الفروسية والمروءة والعفو عن اخصامه عندما كانوا ينهارون بين يديه ، لقد حاول معاوية في صفين عندما استولى على الماء ان يمنع عنه اهل العراق ، وحال جيشه بينهم وبين الماء حتى اضر بهم العطش ، ولكن عليا (ع) حمل بجيشه على الماء حتى اجلاهم عنه وبدلا من ان يعاملهم بالمثل اتاح لهم ان يشربوا منه كما شرب جنده ، ولو فعل لانتصر عليهم واضطرهم الى التسليم بدون قتال ولكن مروءته تأبى عليه ان يمنع الانسان عن الماء وقد اباحه الله لجميع مخلوقاته وجعله كالهواء لا يملكه احد من الناس .

لقد مات معاوية بن ابي سفيان وفي نفسه حسرة وغصة لانه لم يستطع ان يقضي على علي وجيشه عطشا ، ولكن ولده يزيد بن معاوية قد حقق له امنيته في الحسين بن علي وأطفاله ونسائه ، فلما ظفر جيشه بهم في كربلاء اذاقهم مرارة العطش وكادوا ان يموتوا منها لولا ان تعجل لهم الموت بضرب السيوف وطعن الرماح .

وموقف آخر من مواقف علي وبطولاته يمثل اسمى مراتب المروءة والعفو والكرامة وهو موقفه في البصرة مع عائشة وأنصارها ، وذلك حينما انتصر في تلك المعركة وسمع بعض انصاره ينال من السيدة عائشة فأمر بجلده ولم يكتف بذلك بل كرمها وعرض عليها الرجوع لبيتها وودعها اكرم وداع وسار معها اميالا حتى اجتازت حدود البصرة ومعها عدد من النساء ، كان قد ارسلهن معها لخدمتها وألبسهن ثياب الرجال ،

وفي الطريق كانت تنال منه وتقول لقد هتك ستري برجاله ، وفي حين انها وقفت بين عشرات الالوف من المقاتلين في تلك المعركة تحرضهم على قتله وبيدها بدرة من الدنانير وهي تصيح أيكم يأتيني برأس الاصلع وله هذه البدرة ، الى كثير من مواقفه وبطولاته التي تتمثل فيها معاني الإباء والشهامة والمروءة والترفع عن الدنايا .

زهده في الدنيا

يتصل الحديث عن زهد امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) في الدنيا بالحديث عن بطولاته وفروسيته وما يتبعهما ، لان الشجاعة والبطولات وما الى ذلك من الصفات لا يتصف بها الا من يتغلب على اعدائه وأخصامه في المعارك وساحات القتال ، والزهد في الدنيا لا يعني غير التغلب على ألد اعداء الانسان كالشيطان او الهوى او الغرائز التي تتحكم فيه لتستوفي نصيبها من متع هذه الدنيا وملذاتها لاسيما عندما يكون في مقدوره ذلك ، ولم يعرف التاريخ انسانا توفرت لديه اسباب السلطان والثروة وكل مقومات الحياة الطيبة وكان منها جميعا في شقاء وحسرة دائمين كما حدث عن علي بن ابي طالب .

وهل عرف تاريخ البشرية حاكما قد حرم على نفسه ان يأكل خبزا يابسا ويشبع منه ما دام في بعض اطراف مملكته من لا عهد له بالشبع ولا طمع له بالقرص ، وحرمها من لبس ثوب ناعم وفي الدنيا انسان يتعسر عليه حتى ما خشن ورث من اللباس .

وهل عرف التاريخ حاكما يطحن لنفسه الشعير ويأكل منه خبزا يابسا يستعين على كسره بركبتيه ويرقع خفه بيديه ولا يكنز من الدنيا قليلا

ولا كثيرا ما دام على وجه الارض بطون غرثى وأكباد حرى . وظل الى ان انتقل عن هذه الدنيا يقول : أأقنع من نفسي ان يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر وخشونة العيش ، وكان اقل ما في هذه الدنيا شأنا خير عنده من الخلافة اذا لم يحق حقا ويبطل باطلا .

وكان يقاضي اعوانه وولاته من اجل رغيف يأكلونه في رشوة او من صدقة ، ثم يهدد ويتوعد ويقول في رسائله التي كان يوزعها على الولاة: أقسم بالله صادقا انك ان خنتني بشيء مما تحت يدك صغيرا كان او كبيرا لاشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الامر . وخاطب شخصا آخر من ولاته بقوله : بلغني انك جردت الارض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك فارفع الي حسابك .

وتوعد شخصا آخر ممن يرتشون ويحاولون الاثراء على حساب المستضعفين ، فقال له : اتق الله واردد الى هؤلاء القوم اموالهم ، فانك ان لم تفعل ، ثم امكنني الله منك لاعذرت الى الله فيك ولاضربنك بسيفي هذا الذي ما ضربت به احدا الا دخل النار . وهل عرف التاريخ حاكما غير علي (ع) كانت تجبى اليه الاموال من هنا وهناك والطيبات على اختلاف انواعها تحت يده ، وأمور المسلمين في مختلف اقطارهم بيده وقد خرج من الدنيا لا يملك من حطامها دينارا او درهما ، لان في الناس فقراء لا يملكون دينارا ولا درهما ، ولا دخل جوفه من طيباتها شيء ، بل كان الغالب على قوته خبز الشعير والخل يضعهما في جراب مختوم مخافة ان يدخل فيه بعض ولده شيئا من الطيبات .

فقد حدث جماعة من الرواة بسند ينتهي الى الاحنف بن قيس انه قال : دخلت على معاوية بعد ان استتبت له الامور واستولى على الحكم، فقدم الي من الحلو والحامض ما كثر تعجبي منه ، فقلت ما هذا ؟ فقال: مصارين البط محشوة بالمخ ودهن الفستق وقد ذر عليه السكر ، فبكى الاحنف عند ذلك ، فقال له معاوية : ما يبكيك ؟ فقال : لله در ابن ابي

طالب لقد وقف من نفسه موقفا لم تقفه انت ولا احد غيرك ، فقال له معاوية وكيف ذاك ؟ فقال دخلت عليه ليلة عند افطاره فقال لي قم وتعش مع الحسن والحسين ، ثم قام الى الصلاة فلما فرغ منها دعا بجراب مختوم بخاتمه فأخرج منه شعيرا مطحونا ثم ختمه ، فقلت يا امير المؤمنين لم اعهدك بخيلا ، فكيف ختمت على هذا الشعير ؟ فقال لم اختمه بخلا ، ولكني خفت ان يبسه الحسن والحسين بسمن او زيت [1] ، فقلت يا امير المؤمنين أحرام هو ، فقال : لا ولكن على أئمة الحق ان يتأسوا بأضعف رعيتهم حالا في الاكل واللباس ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو عليه ، ويراهم الغني فيزداد شكرا وتواضعا .

وأضاف الى ذلك الاحنف بن قيس ان الربيع بن زياد الحارثي جاء الى علي (ع) وقال يا امير المؤمنين ان اخي عاصم بن زياد لبس العبا وتنسك وهجر اهله ، فقال له علي (ع) عليّ به فجاءه وقد ائتزر بعباءة وارتدى بأخرى اشعث أغبر ، فقال له: ويحك يا عاصم أما تستحي من اهلك ، اما ترحم ولدك ، الم تسمع قوله تعالى : ويحل لهم الطيبات ، اترى ان الله أباحها لك ولامثالك وهو يكره ان تنال منها ، اما سمعت قول رسول الله (ص) : ان لنفسك عليك حقا ولولدك عليك حقا ولربك عليك حقا ، فقال له عاصم : فما بالك يا امير المؤمنين في خشونة ملبسك وخشونة مطعمك ، واني أتزيا بزيك ، فقال له: ويحك ان الله فرض على أئمة الحق ان يتصفوا بأوصاف افقر رعيتهم لئلا يزدرى الفقير بفقره وليحمد الله الغني على غناه .

وجاء عن سويد بن غفلة انه قال : دخلت على علي امير المؤمنين في

---

١ ــ البس هو لت السويق او الدقيق بالسمن او الزيت .

قصر الامارة بالكوفة وبين يديه رغيف من شعير وقدح من لبن والرغيف يابس تارة يكسره بيديه وأخرى بركبتيه ، فشق علي ذلك ، فقلت لجارية له يقال لها فقة : ألا ترحمين هذا الشيخ وتنخلين له هذا الشعير ، اما ترين نشارته على وجهه وما يعاني منه ، فقالت : ايؤجر هو ونأثم نحن، انه عهد الينا ان لا ننخل له طعاما قط ، قال سويد : فالتفت الي امير المؤمنين (ع) وقال ما تقول لها يا ابن غفلة ، فأخبرته وقلت ارفق بنفسك يا امير المؤمنين . فقال : ويحك يا سويد ما شبع رسول الله (ص) من خبز ثلاثا تباعا حتى لقي الله ولا نخل له طعام قط ، ولقد جعت مرة في المدينة جوعا شديدا فخرجت اطلب العمل واذا بامرأة قد جمعت مدرا تريد ان تبله فقاطعتها على كل دلو بتمرة فمددت ستة عشر دلوا حتى مجلت يداي ، ثم اخذت التمر وأتيت به رسول الله (ص) فأكل منه .

وفي رواية ثانية تنتهي بسندها الى سويد بن غفلة رواها احمد في فضائله وغيره عن سويد بن غفلة انه قال : دخلت على علي (ع) يوما وليس في داره سوى حصير رث وهو جالس عليه فقلت يا امير المؤمنين انت ملك المسلمين والحاكم عليهم وعلى بيت المال وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير ، فبكى وقال : يا سويد ان البيت لا يتأثث في دار النقلة وأمامنا دار المقامة وقد نقلنا اليها متاعنا ونحن منقلبون اليها عن قريب ، فأبكاني والله كلامه . ونقل الرواة عن ضرار بن حمزة انه دخل على معاوية يوما ، فقال له يا ضرار صف لي عليا . فقال له : اعفني يا معاوية ، فقال له لا اعفيك ، فقال له ضرار : اما اذا كان لا بد من ذلك ، فقد كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فعلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة على لسانه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة كثير الفكرة يقلب كفه ويستوحش نفسه يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويبتدئنا اذا اتيناه

ويأتينا اذا دعوناه ، ونحن والله مع قربه منا ودنوه الينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم اهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه ليلة وقد ارخى الليل سدوله وغابت نجومه وقد مثل قائما في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ، وكأني اسمعه وهو يقول : اليك عني يا دنيا غري غيري ابي تعرضت ام الي تشوفت هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثا لارجعت لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

قال الراوي فذرفت عينا معاوية بالدموع وسالت على لحيته ولم يملك ردها واختنق من حوله بالبكاء ، ثم قال : رحم الله ابا حسن فقد كان والله كذلك ، ثم التفت الى ضرار وقال كيف حزنك عليه يا ضرار فقال حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترق عبرتها ولا يسكن حزنها .

وطالما اقسم بالله وهو الصادق الامين والعامل بكل ما يقول قبل ان يقول ، وما كان ليقول شيئا قبل ان يعمل به ، بل ينبع قوله : من طبيعة العمل الذي يعمل والشعور الذي كان يحس والحياة التي كان يحيا ، ولطالما قال وأقسم بالله على ما يقول : والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت ، وان دنياكم لاهون عندي من ورقة في فم جرادة .

ولو لم تكن دنيا الناس اهون عنده من ورقة في فم جرادة لانتظمت له الامور ووجد الناس يتململون بين يديه ويتسابقون الى طاعته ولا يجدون عنه بديلا . وقد أجمع الرواة على ان لباسه في ايام خلافته وقبلها لم يكن غير ثلاثة اثواب ، قميص وأزرار ومدرعة من صوف ، لا يزيد ثمنها على دينار واحد .

وقال اكثر من مرة : لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ، وقال لي قائل : ألا تنبذها ؟ فقلت له : اغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السراح ، وكان راقع المدرعة ولده الحسن (ع) يرقعها بجلد تارة وليف اخرى ، وقال له رجل يوما : بدل ثيابك هذه يا امير المؤمنين ، فقال له : وأي ثياب استر منها للعورة ، ومرة اخرى اجاب شخصا آخر قد طلب منه ذلك ، فأجابه بأنها أبعد لي عن الكبير وأجدر ان يقتدي بي المسلمون .

وقال الغزالي في احياء العلوم : ان علي بن ابي طالب كان لا يأخذ شيئا من بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له الا قميص واحد لا يجد غيره في وقت الغسل .

وقال مرة : من يشتري سيفي هذا فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لطالما كشفت به الكروب عن وجه رسول الله ، فوالله لو كان عندي ثمن ازار ما بعته ، وقال لاهل البصرة يوما : ماذا تنقمون مني وهذا من غزل اهلي وأشار الى قميصه .

وجاء عن الامام محمد الباقر (ع) ان امير المؤمنين ذهب مع قنبر الى سوق البزازين وطلب من رجل يبيع الملابس ان يبيعه ثوبين فقال له : يا امير المؤمنين ان عندي حاجتك ، ولما ايقن الامام ان الرجل يعرفه تركه ومضى خشية ان يتساهل معه في الثمن ، ومضى حتى وقف على غلام واشترى منه ثوبين احدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين وبعد ان انصرف امير المؤمنين جاء والد الغلام فقص عليه ما جرى له مع المشتري ووصفه بصفاته فأخذ درهمين ولحقه بهما وهو يقول : ان ولدي ربح منك درهمين فخذ احدهما او خذهما ، فقال له الامام (ع) اذهب بدرهميك فانه بايعني على رضاي ثم اعطى الامام الثوب الذي اشتراه بثلاثة دراهم الى قنبر وأبقى لنفسه الثوب الثاني ، فقال له قنبر : انت

اولى به مني يا امير المؤمنين لانك تصعد المنبر وتخطب الناس ، فقال له امير المؤمنين :

وأنت شاب لك شره الشباب ، وأنا استحي من ربي ان أتفضل عليك ، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول :

البسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تاكلون .

وحينما تحدث جميع واصفيه عن طعامه ولباسه باختصار ، قالوا : كان يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب ، هذا وخراج الدولة الاسلامية يوم ذاك على سعتها تحت قدميه ، ومع ذلك فلباسه لا يرضاه لنفسه احد من رعيته ، وطعامه من شعير غير منخول يستعين احيانا بكلتا يديه على كسره مع الخل والملح ، واذا استطاع احد دلوه ادخال شيء عليه رفضه ، لان في الحجاز او اليمامة من لا عهد له بالشبع ولا طمع له بالفرص ، وفي الوقت ذاته كان يجمع اليتامى ويطعمهم العسل وأطايب الطعام ، حتى قال له بعض اصحابه : وددت اني كنت يتيما يا ابا الحسن ، كما جاء ذلك عن ابي الطفيل وقد اوقف جميع ما كان يملكه في الحجاز على الفقراء . وروى الرازي في تفسيره ان الآية من سورة البقرة :

والذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية .

نزلت في علي بن ابي طالب كما نقل ذلك المظفري في دلائل الصدق عن الواحدي في كتابه اسباب النزول .

كما نزلت فيه وفي زوجته الزهراء وولديه الحسن والحسين الآية ، **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا** (١) .

وكان علي بزهده في الدنيا واعراضه عن طيباتها ومفاتنها يتأسى

---

١ ــ كما جاء ذلك في تفسير البيضاوي والنيسابوري والبغوي والثعلبي والدر المنثور وتفسير الرازي عن الواحدي في اسباب النزول .

برسل الله المقربين وأنبيائه المرسلين الذين كانوا يتسابقون الى مرضاة الله وثوابه .

لقد تأسى امير المؤمنين بالانبياء والمرسلين في طعامه ولباسه كما جاء في بعض خطبه التي يقول فيها : لقد كان لي برسول الله اسوة اذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره اكنافها ، وان شئت ثنيت بموسى كليم الله اذ يقول : ربي اني لما انزلت الي من خير فقير ، والله ما سألـه الا خبزا يأكله ، وان شئت ثلثت بداوود صاحب المزامير ، وقارىء اهـل الجنة فقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه : أيكـم يكفيني بيعها ويأكل قرص شعير من ثمنها ، وان شئت قلت في عيسى ابن مريم (ع) فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل العشب ، وكان ادامه الجوع وسراجه الليل والقمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الارض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما تنبت الارض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مطمع يذله دابته رجلاه وخادمه يداه .

لقد تأسى امير المؤمنين كما جاء في خطبته هذه في طعامه ولباسه بمحمد (ص) وموسى وعيسى وجميع الانبياء وآثر المدرعة المرقعة وخبز الشعير والخل على ملذات الدنيا وطيباتها وكانت كلها تحت قدميه ، وقال: والله لو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسيج هذا القز ، ولكنها نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الفزع الاكبر ، ما لعلي ونعيم يفنى ولذة لا تبقى .

وترك الدنيا ومتاعها لمن بايع وتابع وشايع الشيطان وحزب الشيطان تركها لعثمان وزمرته ومعاوية وحزبه اعداء الحق والانسانية والاسلام ، وكانت عنده احقر من حذائه ومن ورقة في فم جرادة .

وقال العقاد في كتابه عبقرية الامام : اما معيشة علي (ع) في بيته بين زوجاته وأبنائه فمعيشة الزهد والكفاف وأوجز ما يقال فيها انه كان يتفق ان يطحن لنفسه وأن يأكل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبتيه

ويلبس الرداء الذي يرعد فيه من البرد ، وان احدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين .

وكان يقول لاهل الكوفة : اذا انا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فأنا خائن ، وقد قال الامام ابو محمد الحسن في صبيحة اليوم الذي توفي فيه امير المؤمنين : ايها الناس ان هذه الليلة التي توفي فيها ابي هي ليلة القدر ، وقد نزل بها القرآن وقتل يوشع بن نون، والله انه لأفضل الاوصياء الذين كانوا قبله ويأتون بعده وما ترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم فضلت من عطائه كان يجمعها ليشتري بها خادما لاهله .

علي وبيت المال

لقد جاء في الاستيعاب لابن عبد البر ان عليا (ع) كان يقسم ما في بيت المال بين المسلمين ، ثم يأمر بكنسه فيكنس ويصلي فيه رجاء ان يشهد له يوم القيامة وأتاه مال من اصبهان فقسمه سبعة اسباع ووجد فيه رغيفا فقسمه سبع كسر وجعل على كل قسم كسرة .

وفي حلية الاولياء لابي نعيم ان ابن النباح قال له : يا امير المؤمنين لقد امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء اتت من الخارج ، فقال : الله أكبر ، علي بالناس فنودي بهم ولما اجتمعوا فرق جميع ما في بيت المال وهو يقول :

يا صفراء ويا بيضاء غري غيري .

وكان اذا وصلت الاموال في المساء يقول لمن حضر اقتسموها ، فيقولون له لقد امسينا يا امير المؤمنين اخرها الى غد ، فيقول من يضمن بقائي الى الغد .

وحدث الحسن بن علي النمري عن عمرو بن يحي عن ابيه انه قال : اهدي الى علي بن ابي طالب زقاق من عسل وسمن فرآها قد نقصت فسأل عنها فقيل له لقد بعثت ام كلثوم فأخذت منها في قعب ، فبعث

اليها وأنبها ثم قوم ما نقص من العسل بخمس دراهم فأخذها منها وقال هذه للمسلمين .

وجاء في تذكرة الخواص لابن الجوزي عن عمر بن يحي عن قنبر انه قال وردت الى بيت المال زقاق من العسل ، فقال لي الحسن بن علي (ع) : يا قنبر اذهب وأتني من الزقاق بمقدار نصيبي من بيت المال فقد نزل بي ضيوف وما عندي ما اطعمهم ، واذا وزع امير المؤمنين العسل فخذ نصيبي ورده الى بيت المال ، فجاء قنبر الى زق منها وأخذ منه مقدار رطل ، ولما عرف امير المؤمنين سأله عن النقصان فأخذ يتعلل ، فألح عليه ان يخبره فلما اخبره غضب ودعا ولده الحسن فجاء ووقع على قدميه وقال له بحق عمي جعفر الا ما عفوت ، وكان اذا أقسم عليه احد بأخيه جعفر يسكن غضبه .

ثم قال له ما حملك على ان تأخذ من عسل المسلمين قبل قسمته ، فقال له الحسن : أليس لي فيه حق كغيري من المسلمين ، فقال له : بلى ولكن ليس لك ان تنتفع به قبلهم ، اما والله لولا اني رأيت رسول الله يقبل ثناياك لاوجعتك ضربا ، قم فاشتر عوضه ورده الى الزق الذي اخذت منه ، ففعل الحسن (ع) ما امره به ، ثم قسمه الامام (ع) بين المسلمين وبكى ، وقال : اللهم اغفر للحسن لقد كنا مع رسول الله نقاتل اخواننا وآباءنا وأعمامنا وأهلنا لا نريد بذلك الا وجه الله ، وكان الرجل منا يختار رسول الله على نفسه فلما رأى الله صدقنا انزل بعدونا الكبت والذل وأنزل علينا النصر حتى استقر الاسلام ملقيا جرانه مبوئا وطأته ، والله لو اتينا ما تأتون لما قام للدين عمد ولا اخضر للايمان عود.

ومن مظاهر عدل الامام وحرصه على الرعية وصاياه المتكررة التي كان يوجهها بين الحين والآخر لعماله وموظفي الدولة في جميع الميادين :

انصفوا الناس من انفسكم واصبروا لحوائجهم ولا تبيعن للناس في

الخراج كسوة شتاء او صيف ، ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن احدا سوطا لمكان درهم .

وفي عهده الى الاشتر يقول :

ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم ، فانهم صنفان اما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق اعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب ان يعطيك الله من عفوه وصفحه ولا تندمن على عفو او تتبجحن بعقوبة .

وأرسل رجلا يدعى سعد الى زياد ابن ابيه يأمره ان يحمل الى بيت المال ما عنده منه وكان قد بلغه ان زيادا يتقلب في النعيم ويستأثر بـه على الضعيف والفقير والارملة واليتيم وانه يتظاهر بالفضيلة وهو عنها بعيد ، فلما طالبه الرسول وألح عليه تجبر زياد وتكبر ونهره ، فرجـع وأخبر عليا (ع) فكتب اليه امير المؤمنين يقول :

ان سعدا ذكر لي انك شتمته ظالما وجبهته تجبرا وتكبرا وقد قال رسول الله (ص) الكبرياء والعظمة لله فمن تكبر سخط الله عليه ، وأخبر انك تستكثر من الوان الطعام وانك تدهن كل يوم فماذا عليك لو صمت لله اياما وتصدقت ببعض ما عندك محتسبا وأكلت طعامك في مرة مرارا او اطعمته فقيرا ، أتطمع وأنت متقلب في النعيم تستأثر به على الجـار المسكين والضعيف الفقير والارملة واليتيم ان يجب لك اجر الصالحين المتصدقين ، واخبرني انك تتكلم كلام الابرار وتعمل عمـل الخاطئين ، فان كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت وعملك احبطت . ومضى يندد بـه ويتوعده بالعقوبة اذا هو استأثر بما في يده من اموال الفقـراء والمساكين .

وموقفه من اخيه رحمه الله معروف ومشهـور بين اكثر المؤرخين والمحدثين ، وقد شد الرحال اليه من الحجاز بعد ان احوجته ظروفـه المادية الى طلب المعونة منه ، فأبى عليه الامام ان يعطيه من مال الشعب اكثر من حقه ، ولما ألح عليه في الطلب احمى له الحديدة كما جاء فـي بعض خطبه التي يصف بها هذا الموقف ، فهدده عقيل بالذهاب الى معاوية

حيث سيجد عنده حاجته فلم يمانع من ذلك ، وظل مصرا على ان لا ينفذ له طلبا ما دام ذلك يتعارض مع حقوق الناس ، وهنا يدعي جماعة من المؤرخين ان عقيل بن ابي طالب ترك اخاه ووفد على معاوية فأغدق عليه من بيت المال الذي سخره لشراء الانصار والأتباع وعباد الشهوات كابن النابغة وأمثاله من المنافقين والنفعيين ، وظل يغدق على عقيل من اموال المسلمين كما يزعمون ليسمع منه ولو كلمة ثناء منه يتباهى بها عند حاشيته وأتباعه من اهل الشام فلم يجد سبيلا لذلك ، وأراد ان يحرجه في بعض مجالسه المحتشدة بوجوه اهل الشام عله يداهنه ولو بكلمة واحدة ، فقال له : انا خير لك ام اخوك علي بن ابي طالب يا عقيل ؟ وظن معاوية ان عقيلا سيقول له : انت خير لي من اخي وعندها يستطيع ان يقول لانصاره ان عقيلا شهد بأني خير له من اخيه في دينه ودنياه ، ولكن عقيلا قد ادرك غاية معاوية وعرف اساليبه في التضليل والمكر والخداع ، فأجابه على الفور اخي خير لي في ديني وأنت يا معاوية خير لي في دنياي فصمت معاوية وانطوى على نفسه ، على اني اكاد اقطع لاكثر من سبب واحد ان عقيل بن ابي طالب لم يدخل الشام في حياة علي (ع) ولم يتعرف على معاوية في حياة اخيه ، ولا أستبعد ان يكون حديث التحاق عقيل بمعاوية من موضوعات الامويين بقصد الطعن على عقيل بن ابي طالب بعد مناصرة العقيليين للحق والعدالة في كربلا وغيرها من المواقف ، ومن الجائز ان يكون الحوار المنسوب الى عقيل مع معاوية بعد وفاة امير المؤمنين (ع) . ومهما كان الحال فالاموال التي كان يبذلها معاوية كانت اشد فتكا من جميع الاسلحة التي استعملها ضد الامام علي (ع) وقد ادرك بعض انصار امير المؤمنين هذه الحقيقة فجاؤوا الى علي (ع) يطلبون منه التساهل في موقفه من توزيع الاموال.

فقد روى علي بن يوسف المدائني ان طائفة من اصحاب علي (ع) مشوا اليه وقالوا : يا امير المؤمنين اعط هذه الاموال وفضل الاشراف

من العرب وقريش على الموالي والعجم واستمل من تخاف من خلافه وفراره الى معاوية بن ابي سفيان ، فقال لهم : اتأمرونني ان اطلب النصر بالجور ، لا والله لا افعل ذلك ما طلعت الشمس وما لاح في السماء نجم ، والله لو كان المال لي لواسيت بينهم فكيف وانما هي اموالهم ، ثم سكت طويلا وقال : الامر اسرع من ذلك [1] .

وفي رواية ثابتة للمدائني عن فضيل بن الجعد انه قال : آكد الاسباب في تقاعد العرب عن امير المؤمنين (ع) امر المال ، فانه لم يكن يفضل احدا في العطاء ولا يصانع الرؤساء وآمراء القبائل كما كان يصنع معاوية في اموال المسلمين ، فترك الناس عليا والتحقوا به ، وأضاف الى ذلك ان عليا شكا للاشتر تخاذل الناس عنه فكان جواب الاشتر من وحي الواقع الذي عاشه الناس في ذلك العصر ، فقال له : يا امير المؤمنين انك تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق وتنصف الضعيف من القوي والوضيع من الشريف فضجت طائفة ممن معك من الحق والعدل ورأوا صنائع معاوية عند الرؤساء والاشراف فتاقت نفوسهم الى الدنيا وقل من ليس للدنيا بصاحب في حديث طويل جاء فيه فان تبذل الاموال تمل اليك أعناق الرجال وتصف لك نصيحتهم ويخلص لك ودهم .

فأجابه الامام (ع) بقوله : ان ما ذكرته من عملنا بالعدل وحرصنا على الحق فالله يقول : من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، وأنا مع ذلك اخاف ان اكون مقصرا في شيء من حقوق عباده ، ومن ثقل عليه الحق والعدل وفارقنا فالله يعلم بأنه لم يفارقنا من جور ولا لجأ اذ فارقنا الى عدل ، ولم يلتمس الا دنيا زائلة ولا بد وأن يسأل يوم القيامة عما كسب ، واما بذل المال وشراء الرجال

---

١ ـ انظر شرح النهج جـ١ ص ١٨٣ .

به فلا يسعنا ان نؤتي امرأ من الفيء اكثر من حقه ، والله سبحانه يقول: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، ولقد بعث الله محمدا وحده فكثره بعد القلة وأعز فئته بعد الذلة [1] .

بهذا الاسلوب حكم الناس امير المؤمنين (ع) يوم صارت اليه الخلافة وأبى ان يصانع احدا على حساب دينه وأن يطلب النصر بالجور ويشتري الضمائر والانصار بأموال المسلمين ، وكاد ان يقطع يد ابنته ام كلثوم لانها استعارت عقدا من بيت المال لتلبسه في عيد من الاعياد ساعات ثم ترده الى مكانه فانتزعه منها بعد ان هدد وكيله على بيت المال بالعقوبة الصارمة اذا عاد لمثلها او سمح لاحد ان يتصرف ولو بدرهم واحد ، وقال لابنته : لا تذهبي بنفسك عن الحق اكل نساء المهاجرين والانصار يتزين في هذا العيد بمثل هذا .

وقد روى ابو اسحاق الهمداني ان امرأتين اتيا عليا(ع) احداهما من العرب والاخرى من الموالي فسألتاه فدفع اليهما دراهم وطعاما بالسواء، فقالت احداهما اني امرأة من العرب ، وهذه من العجم ، فقال : اني والله لا اجد لبني اسماعيل في هذا الفيء فضلا على بني اسحاق.

بعد ما شاهد الطامعون والمستغلون منه ذلك وسمعوه يقول : والله لو كان المال لي لقسمته بالسوية فكيف وهو مال المسلمين ، وسمعوه يقول : اني لاعرف ما يصلحكم ولكني لا اصلحكم بفساد ديني ولا اشتري النصر بالجور ، بعد ان سمعوا منه ذلك وأيقنوا بأنه غير مستعد لان يعاملهم بما اعتادوه وألفوه في عهد من سبقه ، وقد وجدوا ابن هند يفتح لهم صدره ويوفر لهم جميع ما يشتهون ويريدون ، بعد ذلك كله كان من الطبيعي ان يقفوا منه هذا الموقف وأن يعيش ايامه الاخيرة في الم وحسرة ويتمنى فراقهم بالموت او القتل .

---

١ ـ شرح النهج جـ١ ص ١٨٠ .

لقد كان الامام (ع) يرى ان النظام السليم لا يقوم الا على اساس العدل في الرعية ، ولا يمكن ان تتحقق العدالة الا بالغاء التفاوت بين الطبقات والعمل حسب الظروف والاوضاع لمصلحة المعوزين والفئات الفقيرة ، وكان يعلم ان ذلك سيكلفه الكثير من المتاعب وسيجلب له الاخصام والاعداء وسيمد معاوية وأمثاله بالقوة ، ولكن ذلك لم يكن ليثنيه عن رأيه ، ففي الايام الاولى من خلافته وزع الاموال على الجميع بالسوية في حين ان التفاوت في توزيع الاموال كان بالغا اقصى حدوده في عهد من سبقوه ، ففي عهد الخليفتين ابي بكر وعمر كان التوزيع من اثني عشر الفا الى خمسة آلاف وأربعة وثلاثة وألفين لعامة الناس وفقرائهم ، وفي عهد الثالث لم يكن للتفاوت حدود وحواجز وعادت الروح الجاهلية التي حارب من اجلها ابو سفيان وأمثاله الى اقبح صورها وأشكالها ، فالاقربون اليه من اسرته قد رفعهم على رؤوس الناس وحصر القيادة والسلطة بهم ، وهم الذين كانوا يتولون من قبل قيادة المشركين لحرب الاسلام ، وغيرهم من المؤيدين والمناصرين يأخذون ما يريدون بدون حسيب او رقيب ولم تمكنه الظروف القاسية التي احاطت به خلال الفترة القصيرة من حكمه ان يقضي على مخلفات العهد السابق ولا ان يمد يده الى الاموال التي استولى عليها انصار الحاكمين الاوائل وبخاصة انصار الحكم العثماني الذين كانوا يعتبرون المال ملكا لهم والقائمين عليه خزانا لعثمان وأعوانه لا للمسلمين والمحاربين في حين ان امير المؤمنين كان يراه ملكا للشعب وللجميع بالسوية ، وينظر الى الفقراء والايتام وكأنهم عياله يؤثرهم على نفسه ويواسيهم في مأكله وملبسه ومسكنه ، ويقول : ان على الحاكمين ان يواسوا انفسهم بأضعف رعاياهم ليتأسى بهم الفقير ولا يتيه الغني بغناه .

وحدث الشعبي عنه فقال : دخلت الرحبة بالكوفة وأنا غلام في غلمان معي فاذا انا بعلي (ع) قائم على جرتين من ذهب وفضة ومعه مخفقة

يطرد الناس بها ، ثم يرجع الى المال فيقسمه بين الناس حتى لم يبق منه شيء ، ثم انصرف ولم يحمل الى بيته قليلا ولا كثيرا ، فرجعت الى ابي وقلت له : لقد رأيت اليوم خير الناس او احمق الناس ، قال من هو يا بني ؟ قال : رأيت علي بن ابي طالب وقصصت عليه ما رأيته منه فبكى وقال : بل رأيت خير الناس يا بني .

ولو انه تولى الخلافة بعد الرسول مباشرة واستمر فيها الى نهاية حياته وانتقلت من بعده الى ايد امينة طاهرة وقادة ابرار ورثوا كل صفاته كالائمة الهداة (ع) لظهر الاسلام للعالم بوجهه الصحيح الذي يساير الحياة والعلم والعقل في مختلف الميادين .

ومع ان خلافته كانت لفترة قصيرة وجاءت بعد عهد كان من ابرز سماته التفاوت الطبقي واستغلال الضعفاء وتسخير موارد الدولة لخدمة الخليفة وحاشيته ، وقد احتوشتها بالاضافة الى ذلك الحوادث من جميع الجوانب بقيادة اولئك الذين كانوا ينعمون بالامتيازات التي منحتها لهم العهود الماضية ويعبثون بالاموال التي كانت تتدفق عليهم من هنا وهناك، وتلت تلك الفترة من خلافته عهود ودول وامارات في الشرق والغرب كان الحاكم فيها يحمل لقب امير المؤمنين ويحكم باسم الاسلام والدين ولكنه يمثل اقبح انواع الظلم والاستهتار بالقيم والاسراف والبذخ في اموال الشعوب ومقدراتها . لقد كان لكل واحد من اولئك الامراء في العهدين الاموي والعباسي وفي الاندلس والمغرب العربي آلاف الجواري والمحظيات والمغنيات والمقاصير والعبيد وما الى ذلك من وسائل النعيم واللهو والترف مما لا يدخل في حدود القصور ولا يزال الحاكمون في بعض بلاد العرب وغيرهم باسم الاسلام يمثلون اقبح الادوار التي كان يمثلها اولئك باسم امراء المؤمنين .

وبلا شك فان سيرة اولئك الحكام وتاريخهم الحافل بالمخازي والمنكرات تركا صورا قبيحة للاسلام في اذهان اولئك الذين لا يعرفونه

الا من خلال قادته وحكامه والمنتسبين اليه، وكانت سلاح هدم وتخريب بيد الاعداء من مبشرين ومستشرقين وغيرهم ممن يكيدون للاسلام .

ومع ان خلافة امير المؤمنين كانت لفترة قصيرة وقد احيطت بتلك العواصف الهوجاء التي استغرقت جميع اوقاته ولم تترك له فسحة تمكنه من الاصلاح الشامل وبناء الدولة الاسلامية كما يريدها الاسلام ومع ذلك فقد تركت بالرغم مما تركه اولئك الحكام من الصور المخزية صورا غنية بالبراهين على سماحة الاسلام ويسره وعدالة انظمته التي تحل مشاكل البشرية وتوفر للانسان وسائل العيش والحياة الحرة الكريمة .

وعلى اي الاحوال فالحديث عن حياة علي وسيرته وما كان يتمتع به من المزايا والخصائص لا يستوعبه كتاب واحد ولا كاتب مثلي ، وقد كتب عنه مئات الكتّاب الذين ينتمون الى مختلف الديانات والاتجاهات، ولا اظن ان كاتبا من اولئك الكتّاب قد خرج وهو مقتنع بأنه قد وفاه حقه . وقد حاول اعداؤه وأعداء الاسلام ان يجدوا ولو ثغرة في تاريخه الطويل منذ دخل الى هذه الدنيا من بيت الله وخرج منها من بيت الله فلم يجدوا سبيلا لذلك فعادوا يسبونه على منابرهم وهم يعتقدون بأن ذلك لا يضع من شأنه ولا يشفي لهم غليلا ، واتهمه بعضهم بضعف السياسة لانه لم يكن يمكر ويغدر ويشتري الانصار والضمائر بأموال العباد وخيرات البلاد كما كان يفعل معاوية وغيره من الحكام .

لقد قلنا ان عليا (ع) كان يحاول الاصلاح الشامل لجميع ادارات الدولة ليحقق العدالة التي تضمن لكل انسان حقه ، وكان يراقب الولاة وأجهزتهم ويلح على اختيار الاكفاء في جميع المراكز، وبذل العون للقضاة حتى لا تضطرهم الظروف للانحراف عن الحق ، وللمزارعين والصناعيين وتوفير وسائل الانتاج ليتاح للدولة استيفاء الرسوم والضرائب ولسائر

الناس ان يجدوا ما يسد حاجاتهم وضرورات معاشهم ، كما يبدو ذلك من وصاياه ورسائله لعماله، وقد اكد هذه المبادىء في عهده لمالك الاشتر حينما ولاه على مصر بعد ان تغلب عليها ابن العاص وقتل عاملها محمد ابن ابي بكر ، وقد جاء في اختيار الولاة .

وتوخ منهم اهل التجربة والحياء من اهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام المتقدمة فانهم اكرم اخلاقا وأصح اعراضا وأقل في المطامع اسرافا وأبلغ في عواقب الامور نظرا ، ثم انظر في امور عمالك فولهم اختبارا ولا تولهم محاباة واثرة فانهما جماع من شعب الجور والخيانة، ثم تفقد اعمالهم وابعث العيون من اهل الصدق والامانة عليهم فان تعاهدك في السر لامورهم حدوة لهم على استعمال الامانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الاعوان ، فان احد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت بها عليه أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما اصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة .

وجاء فيه فيما يعود الى اختيار القضاة : ثم اختر للقضاء بين الناس افضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة ، ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون اقصاه ، وأوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصوم وأصبرهم على تكشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء ، ثم اكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه الى الناس حاجته ، واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك وانظر في ذلك نظرا بليغا فان هذا الدين قد كان اسيرا في ايدي الاشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا .

وجاء فيه فيما يعود إلى اختيار اجهزة الدولة : ان شر وزرائك من كان قبلك للاشرار وزيرا ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فانهم اعوان الاثمة واخوان الظلمة ولا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك فان الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس ذلك من النصيحة والامانة في شيء ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لاحسنهم كان في العامة اثرا ، واجعل لرأس كل امر من امورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ، ومهما كان في كتابك من عيب وتغابيت عنه الزمته.

وقال فيما يعود الى المزارعين والصناعيين : وتفقد امر الخراج بما يصلح اهله فان في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم ، لان الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بلا عمارة اخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقدم امر الا قليلا ، فان شكوا ثقلا او علة ، او انقطاع شرب او بالّة [1] او احالة ارض اعتمرها غرق او اجحف عطش ، خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤنة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم [2] والثقة منهم بما

---

١ ــ ثقلا فيما لو كانت شكواهم من ثقل الضريبة عليهم ، وعلة ، فيما لو شكوا من مرض زراعي يتلف محاصيلهم ، والشرب هو ماء الري فيما لو كانت الارض تعتمد الانهار ، والبالّة ، هي ماء المطر في المناطق التي تعتمد على الامطار .

٢ ــ الاجمام الترفيه والتوسعة .

غودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم ، فربما حدث من الامـــور ما اذا عولت فيه عليهم احتملوه طيبة نفوسهم ، فان العمران محتمل ما حملته ، وانما يؤتي خراب الارض من اعواز اهلها .

وقال (ع) فيما يعود الى التجار وأصحاب المصانـــع : واستوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه [1] فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤون عليها وتفقد امورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك ان في كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع الاحتكار فان رسول الله منع منه ، وليكن البيع سمحـــا بأسعار لا تجحف بالبائع والمبتاع . ومضى يوصيه بالفقراء والايتام والمرضـــى والشيوخ الذين لا يستطيعون العمل بأن يجعل لهم ما يكفيهم مـــن خزينة الدولة الى غير ذلك مما لم تتوصل اليه ارقى الدول في عصرنـــا الحاضر .

ومجمل القول ان ما ظهر للناس من سيرته يوم كان محكوما وحاكما يغنيه بالفضائل والقيم ويجعله في صفوف الانبياء والمرسلين ، وبالاضافة الى ما جاء فيه عن الرسول من الاحاديث الصحيحة التي اعترف بصحتها محدثو السنّة ، والى ما نزل فيه من الآيات كما جاء في مجاميـــع السنة والشيعة وقد ألف الشيعة وبعض محدثي السنة فيما ورد فيه من الاحاديث وما نزل فيه من الآيات عشرات الكتب حتـــى ان حديث رد

---

١ ــ المترفق ببدنه ، العامل بيده ، والمرافق الادوات والآلات التـــي يستعملها صاحب المصنع .

الشمس له قد رواه اكثر محدثي السنّة وصححه جماعة منهم كما جاء في صواعق ابن حجر وغيرها [1] .

ويدعي الامين في غديره ان حديث رد الشمس اخرجه جمع من الحفاظ الاثبات بأسانيد صحح جماعة من مهرة الفن بعضها على حد تعبيره ، ومضى يقول ان بعضهم شدد النكير على من غمز في صحة اسانيده وهم الابناء الاربعة ، ابن حزم وابن الجوزي وابن كثير وابن تيمية واستطرد يقول : وقد جاء آخرون من الأعلام فعز عليهم انكار هذه المأثرة لعلي (ع) فألفوا فيها كتبا مستقلة وعد منهم الحاكم ابن الحداد الحسكاني ، ومحمد بن الحسين الازدي ، والحسين بن علي البصري ، وأخطب خوارزم ابو المؤيد موفق بن احمد ، ومحمد بن اسعد بن علي النقيب ، ومحمد بن يوسف الدمشقي الصالحي له جزء اسماه مزيل اللبس عن حديث رد الشمس ، وجلال الدين السيوطي ، له رسالة ايضا بهذا الاسم [2] .

والذي اريده من ذلك ان المحدثين من سنيين وشيعيين قد نسبوا اليه من الفضائل حتى ما لا تدركه العقول كرد الشمس وحرب الجن ونحو ذلك ، ولا ارى ان ذلك من المستحيلات عليه ويمكن ان يقع بارادة الله القدير على كل شيء ، ولكن لنا من سيرته وتاريخه الغني بالشواهد والادلة على ان سيرته لا تشبهها سيرة احد من عباقرة العصور وتلتقي في شخصيته جميع المواهب التي لم يتفق ان التقت في احد قبله وبعده ، لنا من ذلك ما يغنينا عن احاديث رد الشمس وإحياء الموتى

---

١ ـ انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ١ ص ٢٧٣ و٢٧٤ ودلائل الصدق للمظفري وغيرهما .

٢ ـ انظر الغدير جـ٣ ص ١٣٧ وما بعدها .

ونحو ذلك من المرويات التي امتلأت بها مجاميـــــع الحديث السنية والشيعية .

وقد قال الحسن البصري فيه من قبل يوم كان الحديث عن فضلـه جريمة لا تعادلها جريمة .

لقد قال في جواب من سأله عما يحدث الناس عنه : ما اقول فـي رجل كتم محبوه فضله خوفا من القتل والتشريد ، وكتم مبغضوه فضله حقدا وحسدا وظهر مع ذلك له من الفضائل ما ملأ الخافقين ، وقـــال الحصري وهو يعتذر عن عدم مدحه في قصائده :

واذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

الامام علي مع الخلفاء الثلاثة

لقد وقف امير المؤمنين (ع) من خلافة ابي بكر خلال الاشهر الثلاثة او الستة بعد وفاة النبي (ص) هو وجماعة من المهاجرين والانصار موقفا يتسم بالشدة والصلابة ، وظل متمسكا بحقه الى ان توفيت الصديقة فاطمة الزهراء كما ذكرنا من قبل ، واحتج عليهم اولا بالمنطق الذي احتجوا به على الانصار ، وذكرهم بالنصوص التي لا يجهلها احد منهم وفند جميع مزاعمهم ، واستطاع بمواقفه الحكيمة ان يستميل الى جانبه عددا كبيرا من المسلمين قد اقتنعوا بفساد بيعتهم لابي بكر وأرادوه على المقاومة ، ولكن بوادر العصيان المسلح الذي ظهر بين الأعراب ، وارتداد بعضهم عن الدين بقيادة المتنبئين قد اضطراه الى التغاضي عن حقه ، لان خطر الردة قد يجتاح رسالة محمد من اساسها ان هو بقي مصرا على موقفه ، ولم يعد لديه ما يمنع من مسايرة القوم ليبقى الاسلام في طريقه ويبقى محمد رسول الله عقيدة في القلوب وترانيم على الالسن ترددها الملايين في اوقات الصلاة صباحا ومساء في كل زمان ومكان ، وهل كان له مأرب من وراء الخلافة التي كان يطالب بها

الا ان يحمل الناس على الخير ويحمل لهم الخير ويرأب صدعا ويهـــز سيفا في سبيل مجد الاسلام وانتشاره .

في تلك الفترة القاسية من تاريخ الدعوة رأى امـير المؤمنين ان مصلحة الاسلام تفرض عليه ان يتجاهل كل ما مضى وأن ينصرف لدين الله واعلاء شأنه فأرسل الى ابي بكر يدعوه اليه ، فأقبل الشيخ مسرعا وتم اللقاء بينهما بروح يسودها التسامح والتساهل منه الى حد نكران الذات ، ولكن لم يفته في تلك اللحظات وهو ينفض يديه من الخلافة وينهي ما كان حولها من جدل وخلاف في سبيل مصلحة الاسلام ، لم تفته الصراحة ولم تخنه الشجاعة وأبى ان يدع بقلبه الكبير جانبا لـم يكشفه لخصمه الذي شاءت الظروف ان يضع يده بيده تاركا كل شيء لله وفي سبيل الله . وما ان انتهى حديث العاطفة والمجاملة بينهما حتى اتجه اليه امير المؤمنين بقوله : لم يمنعنا ان نبايعك انكار لفضلك ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك ، ولكنا نرى ان لنا حقا في هذا الامر فاستبددتم به علينا ودفعتمونا عنه . وما ان أتم حديثـــه حتى انبرى ابو بكر يجيبه : والذي نفسي بيده يا ابا الحسن لقرابة رسول الله أحب الي من قرابتي وأما الذي شجر بيني وبينكم في هذه الاموال فاني لم آل فيها عن الخير ولم اترك امرا صنعه رسول الله الا صنعته .

ويبدو من جواب ابي بكر انه لا يريد ان يثير موضوع الخلافة وحق علي فيها وانصرف الى قضية النزاع على فدك وما كان منه ، لانه اعتقد بأن عليا قد انهى مسألة الخلافة ، في حين ان حديثه كان عنها وقد ادانه بالاستبداد والاغتصاب ، وهكذا انتهى الحوار بينهما واطمأن القوم ان خصمهم الذي كان يهددهم بالامس قد انصرف عن كل شيء ، وظـــل خلال حروب الردة الناصح الامين للخليفة والمعين له في الشدائـــد والمعضلات ، وقنع من الدنيا بتفقيه الناس والقضاء بينهم بحكم الله ، فاذا احس بخطر غزو الأعراب والمرتدين للمدينة يحمل سيفه على عاتقه

ويخرج الى ضواحي المدينة في جوف الليل ليصد عنها الغزاة ، كما كان يحمله في عهد رسول الله متجاهلا كل ما سلف وما حدث من اولئك الذين تآمروا عليه وأقصوه عن حقه وأساؤوا الى زوجته بضعة الرسول، واتسع صدره الى ما لم يتسع له صدر انسان غيره ورمى الماضي وراء ظهره لله وللاسلام كما ذكرنا . ولم يكن يترقب من الخليفة في الايام القليلة القادمة التي سيختم بها حياته غير ما كان منه في سقيفة بني ساعدة حين تجاهله وكأنه لم يسمع من الرسول شيئا فيه واتجه الى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة يوم ذاك وقال لهما انتما اولى بالبيعة فأيكما اراد بايعته ، لم يكن يترقب منه غير ما كان وأن يعود عمر بن الخطاب ويتدارك ما سبق منه معه من تحدٍ وحيف ، وكان يعلم علم اليقين بأنه سيتركها لعمر بن الخطاب ويتحمل مسؤوليتها حيا وميتا ، بالرغم من انه قال على ملأ من الناس : اقيلوني فلست بخيركم ، وفي رواية ثانية اقيلوني فلست بخيركم وعلي فيكم .

لقد شهد كل ذلك وأغمض عينيه عما شهد وسمع ، وترفع عما جبلت عليه نفس الانسان وسد اذنيه عن صوت ابي بكر يوم جمع الناس ليعهد بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ،وكأن خلافة المسلمين ملك له يورثه لمن يشاء ويهبه لمن يشاء ، وبالامس القريب انكر هو وأصحابه حديث الوصاية لعلي ، مدعيا بأن الحق للمسلمين يولون من يجتمع امرهم عليه ، وها هو اليوم يوصي بها لعمر بن الخطاب وكأنها من متروكات ابي قحافة ويتجاهل المسلمين ويقول : ايها الناس اني والله ما آلوت من جهد في الرأي ولا وليت ذا قرابة ، واني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا .

وفي رواية ثانية انه جمعهم وخطبهم بعد ان أحس بأنه على ابواب الموت ولم يخبرهم بما اجمع عليه امره ، وكان اكثر الناس يترقبون ان يوليها لعمر بن الخطاب ، وبعد ان انهى خطابه كتب عهدا لعمر وقال له :

خذ هذا الكتاب واخرج به الى الناس فخرج عمر وأعلمهم بما فيه فقالوا سمعنا وأطعنا ، وقال له رجل: ما في الكتاب يا ابا حفص؟ قال : لا ادري ولكني اول من سمع وأطاع ، فقال له الرجل : ولكني ادري ما فيه امرته عام اول وأمرك هذا العام ، وكثر اللغط والحديث بين المسلمين ، وضج اكثرهم مما عزم عليه ابو بكر واتهموه بالتواطؤ على ان تسير الخلافة منه الى عمر بن الخطاب والى ابي عبيدة بن الجراح من بعده ، وبعض المسلمين كان يحتج على ابي بكر بشدة ابن الخطاب وفظاظته .

وكان طلحة اكثرهم كلاما وتحركا ، لانه كان يطمع بها بعد قربه ابي بكر وذهب اليه يعاتبه وهو يعاني من آلامه ، ولكنه انتهره وحقره وأخرجه من البيت ولم يترك له املا فيها فاستسلم وأطاع كغيره من الناس .

اما علي (ع) فكما ذكرنا كان يعلم بكل ما جرى ويعلم ان المعارضة لا تجدي ولا تزيد الامور الا تعقيدا ، ولم تجده المعارضة بالامس وكانوا أضعف منهم اليوم ، فكيف وقد تخلصوا من المرتدين واتجهوا الى ما وراء الحجاز بكل قوتهم وذاقوا حلاوة الانتصارات المتتالية فمن غير المعقول ان يتجاهل حقه بالامس لمصلحة الاسلام ويتمسك به اليوم وقد عبر عما كان يختلج في نفسه ذلك اليوم بعد عشرين عاما او تزيد يوم اصبح خليفة واحتوشت خلافته الاحداث وهبت في وجهها العواصف من كل جانب فقال في خطبته المعروفة بالشقشقية ((اما والله لقد تقمصها ابن ابي قحافة وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى الي الطير فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا، وطفقت ارتأي بين ان اصول بيد جذاء او اصبر على طخية عمياء فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا ارى تراثي نهبا ومالي غصبا حتى اذا مضى الاول لسبيله فأدلى بها الى ابن الخطاب من بعده، فواعجبا بينا هو يستقبلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطر ضرعيها

فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن حسها الى آخر الخطبة التي يصور فيها موقفهم من الخلافة وكيف تداولوها واحدا بعد الآخر وما جرى معه حينما انتهت اليه .

وقال الاستاذ عبد الفتاح مقصود في كتابه علي بن ابي طالب وهو يتحدث عن موقفه منها بعد ان اوصى بها ابو بكر لعمر بن الخطاب من بعده ، قال : وكان هذا حريا بأن يفصم الغضب قلب علي(ع) لانه اصرار على الحيف بعد الحيف ، ولكنه كظم وصبر ولم يضره ان يأخذ مقعده في ذيل الناس ما دام اصحاب الرسول قد بيتوا الامر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته ، ولم يكن هذا بمستغرب من قريش ، ولكنه كان عجبا غاية العجب من الشيخ بعد ان استوت بينه وبين علي الامور ، ولم تعد خافية على ابي بكر مكانة الشاب واثره في حياة الجماعة الاسلامية من تضحيات وبذل عند ولادة الدين ومن حكمة وفضل ودولة الاسلام تشق طريقها الى الاكتمال .

ومضى عبد الفتاح يقول ولكن الاسلوب الذي انتهجه عند الاختيار كان اسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والاخطاء ، وبدا وكأنه اضمر التبييت لأمر وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول ووقع بهذا في الخطأ الذي وقع فيه عمر بن الخطاب من قبل عند وفاة النبي (ص) اذ خرج بصاحبه الى سقيفة بني ساعدة ولم يدع واحدا من آل هاشم الى الخروج ، وأضاف الى ذلك : وقد اسقط ابو بكر من حسابه عليا الذي كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه ، وشاور غيره من صحبه قبل ان يقدم على اختيار من يخلفه ، وان لم تكن المشورة فيما يبدو بقادرة على ان تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، وأي الناس في العرب كان يفضل ابن عم الرسول أو يقوم مقامه حتى يغض ابو بكر عن دعوته ليشاوره في الامر .

ان العجب كل العجب ان يلتمس الخليفة الصواب عند علي كلما

اختلفت الآراء في مصير فرد واحد من رعاياه ، ثم لا يشاوره اذا اراد البت في مصير دولة جمعت كل رعاياه .

كان هذا عجبا من رجل استخلف وهو على غير يقين اكان هو صاحب الامر بعد رسول الله ، ام كان الاولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف : لودت اني كنت سألت رسول الله عن هذا الامر فلا انازعه احدا ، ومع ذلك فقد شاور صحبه قبل ان يدلي بهذا الامر لعمر بن الخطاب ولم يشاور اولاهم بالمشورة وبسط الرأي .

لقد عهد ابو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ، وبلا شك ان ذلك كان عن سابق اتفاق بينهما ، وقد افصح بعض انصاره عن هذا التصميم بقوله : لقد امرك عام اول وأمرته هذا العام ، وكان عثمان بن عفان من اكثر انصاره حماسا لتولية عمر بن الخطاب .

فقد جاء في مجاميع التاريخ ان ابا بكر دعا اليه عثمان بن عفان وقال له : يا ابا عبد الرحمن اخبرني عن عمر بن الخطاب ، فقال له انت اخبر به يا خليفة رسول الله . ولما ألح عليه ابو بكر ان يتكلم قال : اللهم علمي به ان سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله، فتفرجت اسارير ابي بكر، وقال : رحمك الله يا عبد الله ، والله لو تركت عمر بن الخطاب ما عدوتك ، وأوصاه ان يكتم ما دار بينهما من حوار وطلب منه ان يكتب له عهدا بخلافة عمر من بعده ، وراح يملي عليه ، فكتب: هذا ما عهد به عبد الله بن عثمان الى المسلمين ، وعند هذا الحد ثقل عليه الكلام وغاب عن الدنيا فرفع يده عثمان عن الصحيفة والتفت الى ابي بكر فوجده قد اغمي عليه فخاف ان يفارق الحياة قبل اتمام الكتاب ، فأتمه هو وكتب فيه ، اني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . ولما افاق من غشيته وعرض عليه ما كتب أقره على ما كتب وأوصاه ان يدفع له الكتاب بعد ان ختمه بخاتم الخلافة .

هكذا تمت الخلافة لابن الخطاب بعد جدال بينه وبين طلحة متجاهلا

علي بن ابي طالب مما يؤكد ان عمله هذا لم يكن الا تنفيذا لما ابرم بينهما من قبل ، ومن الجائز ان يكون ابن عفان طرفا في ذلك الاتفاق ، كما يشير الى ذلك قول ابي بكر : والله لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك يا ابا عبد الرحمن ، ويشير اليه سكوت ابي سفيان وقد كان من اشد المعارضين لابي بكر ، ويصف بيته بأنه أرذل بيت في قريش ، وفجأة سكت ومشى مع القوم وبلا شك فلقد كان لسكوته ثمن يرضيه ويرضي اسرته وأغلى مما يدعيه بعض المؤرخين من انهم تركوا له ما جباه من الصدقات ونحو ذلك ، ولا شيء يرضيه الا ان يجعلوا لبيته نصيبا في السلطة ، وها هو ابو بكر يولي ولده على الشام بعد ان تم جلاء القوات الرومانية عنها ، ويقول لعثمان : والله لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك ويجيء عمر بن الخطاب بعد عشر سنوات ليفي لاسرة ابي سفيان بما عاهدها هو ورفيقه عليه ، فيجعلها لعثمان بأسلوب جديد حتى لا تكون لخلافته تلك الصبغة التي كانت لخلافة عمر بن الخطاب وسنوضح هذه الفكرة عند الحديث عن الشورى التي جعلها عمر بن الخطاب في ستة من المهاجرين .

ومهما كان الحال ، فان موقف ابي بكر من خلافة عمر بن الخطاب وترشيحه لعثمان بن عفان لها يتناقض مع قوله : اقيلوني منها فلست بخيركم وعلي فيكم ، ومع قوله قبيل وفاته كما روى عنه المؤرخون : لا آسى الا على ثلاث خصال صنعتها ليتني لم اكن صنعتها ، وثلاث ليتني كنت سألت رسول الله عنها ، وثلاث ليتني كنت فعلتها ، وعد من الثلاث التي كان يتمنى لو انه سأل رسول الله عنها ، مصير الخلافة من بعده ، وهل للانصار حق فيه حتى لا ينازع احدا حقه [1] .

---

١ ــ انظر اليعقوبي طبع النجف جـ٢ ص ١١٦ .

غريب امر هذا الشيخ ما دام وهو على فراش الموت شاكا في امره وخائفا من ان تكون الخلافة لغيره وقد اغتصبها من اصحابها ، ويتحسر لماذا لم يسأل الرسول عن هذا الامر ، فلماذا تحمل مسؤوليتها وجعلها لعمر بن الخطاب بدون تردد ولامبالاة بمن اعترضه على هذا التصرف ، ولماذا يرشح لها عثمان ويقسم بالله بأنه لولا ابن الخطاب ما تعداه ، واذا كان خائفا كما يدعي ويحتمل ان يكون النبي قد جعلها لاحد قبل وفاته ، أفلا يدور في خلده ان يكون علي بن ابي طالب احد من جعلها له ، ولماذا تجاهله وكأنه لم يكن شيئا مذكورا ووضع في حسابه عثمان بن عفان ، ولم يمنعه عن توليته الا وجود عمر بن الخطاب على قيد الحياة .

وحسبما اظن ان ابا بكر لم يقل بأني كنت اتمنى ان اسأل رسول الله لمن الامر من بعده وهل للانصار حق فيه لم يقل ذلك ولم يظهر بهذا المظهر الا ليلقي ضبابا على فكرة النص على علي بن ابي طالب (ع) التي كان يتحدث بها الناس نتيجة لمواقف الرسول في غدير خم وغيره من المواقف .

وعلى اي الاحوال ، فلقد وقف عبد الفتاح مقصود عند قوله لعثمان : لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك وقفة لها دلالتها ، قال لقد اصاب في اختياره حد التوفيق ، واستطاع ان يمد في أجل الخلافة الروحية بضعة اعوام ، وكلنا نراه حتى في هذا الصواب قد افتات حق علي (ع) الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق به عمر بن الخطاب لو سار كلاهما في هذا الطريق ، وافتات ثالثة حق علي بمنطق اللسان حين سمعناه يقدم عليه ابن عفان ويقول له : لو تركت عمر بن الخطاب ما عدوتك ، فمن في الزاهدين كان عثمان وأي ميزة تفرد بها دون ابن ابي طالب واستحق معها هذا التقديم ، وبأي لسان نطق ابو بكر هذا البيان ، أكان حديثه يا ترى مجاملة بلسان المجامل الرفيق ، ام بلسان محقق التزم في حكمه قواعد الحساب الدقيق ، هذه خواطر لعلها لم

تغب عن ذهن الشيخ اذ ذاك ، وان جاء جوابها من لدنه على غير ما كان يجدر ان يجيء عليه الجواب وللاحداث من بعد ذلك الحكم وفصل الخطاب .

ومضى يقول : ان المبدأ الذي التزمته قريش في اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائما على اهل رسول الله ونزعها حقهم من ايديهم هذه حقيقة ايدتها دائما وقائع الحال كانت في البدء يحجبها في حلوق اصحابها ستار وان بدت في الافعال ، ثم اخذت على الايام تخرج من نطاق الاسرار الى المجاهرة والكلام ، ولم تتحرج قريش عند وفاة محمد واتساق الامر لابي بكر من بعده ان تقول لبني هاشم في أصرح بيان وبأعلى صوت : كرهنا ان تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت .

وقد أكد عداء قريش لال الرسول واتفاقهم على ان لا تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت جماعة من الكتّاب القدامى والمحدثين ، فقد قال في شرح النهج وهو يتحدث عن موقف قريش من علي بن ابي طالب ، ولست الوم العرب لاسيما قريشا وبغضها له وانحرافها عنه فانه وترها وسفك دماءها وكشف القناع في منابذتها ، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم ، وليس الاسلام بمانع من بقاء الاحقاد في النفوس كما نشاهد اليوم عيانا والناس كالناس الاول والطبائع واحدة ، وكل دم اراقه رسول الله بسيف علي او بسيف غيره فان العرب بعد وفاته عصبت تلك الدماء بعلي وحده ، لانه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعهم وسنتهم وعادتهم ان تعصب تلك الدماء به غير علي بن ابي طالب [1] .

وقد صدق شارح النهج فيما قال وفاته ان يذكر سببا آخر لعله لا يقل في اهميته عن السبب الاول ، وهو ان الذين وقفوا في وجه

---

١ ــ انظر المجلد الثالث طبع مصر من شرح النهج .

الدعوة كأبي سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن ابي جهل وغير هؤلاء من جبابرة قريش وطغاتها بصلابة وقوة ، وظلوا على مواقفهم الى ان ارغموا على الاستسلام لم يقفوا منها هذا الموقف الا لان الاسلام يتعارض مع مصالحهم وامتيازاتهم ويساوي بينهم وبين العبيد والفقراء والمستضعفين ، هؤلاء وأمثالهم يعلمون بأن استيلاء علي على السلطة سيكون امتدادا لسيرة الرسول ، واذا تساهل النبي (ص) معهم بعد ان فتح مكة لاسباب تعود على الاسلام بالمصلحة فسوف لا يجدون من علي تساهلا ولا مهادنة لاحد على حساب الاسلام، وغير الحق والعدل الذي يساوي بينهم وبين اضعف الناس .

وسيجدون في ظل غيره ما يرضيهم ويحقق لهم بعض ما يريدون ، ولذلك فقد رحب هؤلاء بخلافة ابي بكر وغيره وتداعوا الى قتال الفئة التي كانت تلهج بذكر علي من الانصار وغيرهم ، فقد جاء في بعض المجاميع ان سهيل بن عمرو هاله ما بدا من حب الانصار لعلي وحرصهم على رجوع الخلافة اليه فوقف يحف به اعيان قريش يخطب فيهم ويقول: يا معشر قريش ان هؤلاء الناس قد دعوا الى انفسهم والى علي بن ابي طالب وعلي في بيته لو شاء لردهم ، الا فادعوهم الى صاحبكم والى تجديد بيعته فان اجابوكم والا فاقتلوهم ، فوالله اني لارجو ان ينصركم عليهم كما نصرتم بهم .

وتكلم بعده الحارث بن هشام ، فقال : ايها الناس ان يكن الانصار قد تبوأوا الدار والايمان من قبل ونقلوا الرسول الى دورهم من دورنا فآووا وانصروا فانهم قد لهجوا بأمر ان ثبتوا عليه فقد خرجوا مما وسموا به وليس بيننا وبينهم معاتبة الا السيف .

وقال عكرمة بن ابي جهل : لولا قول رسول الله الائمة من قريش ما انكرنا على الانصار اعذروا اليهم فان ابوا فاقتلوهم ، كما تكلم غيره وحرض على الانصار الذين كانوا يرددون اسم علي ، ولم يقفوا منهم

هذا الموقف الا لانهم كانوا يطالبون بحق علي (ع) كما صرح بذلك سهيل بن عمرو ولوح به الحرث بن هشام .

هؤلاء الذين يبدو عليهم الحماس لخلافة ابي بكر كانوا الى الامس القريب هم وآباؤهم من ألد اعداء الاسلام ، ولقد اثار موقفهم هذا جماعة من الانصار ولكن ثابت بن قيس الانصاري راح يهدئهم ويخفف من ثورة نفوسهم ، ورد عليهم بكلمات قصار كانت ابلغ من الف بيان وبيان ، يا معشر الانصار انما كان يكبر عليكم قول هؤلاء : لو كانوا من اهل الدين من قريش .

فهدأت ثورة الانصار بعد هذه الكلمة القصيرة وراحوا يستعيدون تاريخ هؤلاء وآبائهم ومن كان على شاكلتهم ومواقفهم العدائية للنبي والاسلام وكيفية اسلامهم المزيف .

وتشير بعض المرويات الى ان الخليفة وأركان حزبه كما تخلصوا من سعد بن عبادة الانصاري بواسطة خالد بن الوليد وادعوا ان الجن قتلته ووضعوا شعرا نسبوه للجن ، كانوا يفكرون بالتخلص من علي (ع) وهو في صلاته ، ولكن ابا بكر تراجع عن التنفيذ في آخر لحظة وبدلا من ان يختم صلاته بالتسليم كما هو المفروض ختمها بقوله لا تفعل يا خالد ، وأصبح فعله هذا دليلا على جواز الخروج من الصلاة بغير التسليم عند فقهاء بعض المذاهب بحجة ان عمل الصحابي كبقية الادلة على الاحكام .

وجاء في المجلد الثالث من شرح النهج وهو يتحدث عن الاسباب التي منعت من قتل علي (ع) بعد وفاة الرسول في حين ان العرب لا يصبرون على الثأر وأمير المؤمنين وترهم في آبائهم وعشائرهم في جميع المعارك التي خاضها في سبيل الاسلام ، جاء في المجلد المذكور بعد ان عرض ابو جعفر الاسكافي بعض الاسباب حسبما انتهى الى تفكيره ، انه قال لابي جعفر : أحق ما يقال في حديث خالد ومؤامرتهم

على قتله في الصلاة ، فقال ان قوما من العلوية يذكرون ذلك ، ومضى يقول : ان رجلا جاء الى زفر بن الهذيل صاحب ابي حنيفة فسأله عما يقول ابو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم كالكلام والفعل الكثير او الحدث ونحو ذلك ، فقال انه جائز : قد قال ابو بكر في تشهده ما قال ، فقال الرجل : وما قال ابو بكر ؟ فقال : لا عليك ، فأعاد عليه السؤال ثانية وثالثة فلم يجب ، وقال اخرجوه قد احدث انه من اصحاب ابي الخطاب .

وهنا قال ابن ابي الحديد لابي جعفر: فما الذي تقوله انت؟ فقال: انا استبعد ذلك وان روته الامامية ، وأضاف الى ذلك ابو جعفر : اما خالد ابن الوليد فلا أستبعد الاقدام عليه لشجاعته في نفسه وبغضه له ، ولكني أستبعد ذلك من ابي بكر ، انه لم يكن ليجمع بين اخذ الخلافة وفدك واغتصاب فاطمة وقتل علي بن ابي طالب حاش لله من ذلك ، فقلت له : اكان خالد بن الوليد يقدر على قتله ؟ قال : نعم ، ولم لا يقدر على ذلك والسيف في عنقه وعلي أعزل غافل عما يراد به ، لقد قتله ابن ملجم غيلة وخالد بن الوليد اشجع من ابن ملجم ، قال فسألته عما ترويه الامامية في ذلك كيف ألفاظه ؟ فضحك وقال : كم عالم بالشيء وهو يسائل ، ثم قال دعنا من هذا ما الذي تحفظ من الشعر في هذا المعنى ؟ قلت احفظ أبياتا لابي الطيب المتنبي :

نحن ادرى وقد سألنا بنجد ... أطويل طريقنا ام يطول
وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من رده تقليل [1]

ويبدو من جواب زفر بن الهذيل صاحب ابي حنيفة ان في الامر شيئا من هذا النوع ، لانه ابى ان يفصح للسائل عما قاله ابو بكر لخالد

---

١ ــ انظر ص ٢٨٤ من شرح النهج المجلد الثالث طبع مصر

في تشهده بالرغم من الحاح السائل عليه وبالتالي امر باخراجه من مجلسه ونسبه الى الخطابية ولو كان ما قاله ابو بكر بعيدا عما يدعيه الامامية لم يكن موجب لامتناع ابن الهذيل عن الجواب ، ولا لاخراج السائل من المجلس قهرا بذلك الاسلوب ، كما وان ابن ابي الحديد وأبا جعفر قد اخرجا حديثهما حول هذا الموضوع مخرج التشكيك والمداورة والتخرج من تصويب امر من هذا النوع يدين الخليفة بجريمة لا نظير لها في الاسلام . ومما يدل على مداورة ابي جعفر في جوابه انه لم يجزم بكذب ما ترويه الامامية ، بل استبعد على ابي بكر ان يجمع بين الخلافة وفدك واغتصاب فاطمة حقها وقتل علي بن ابي طالب ، ولم يذكر سببا غير ذلك ومن المعلوم ان مجرد الاستبعاد وحده لا يكفي لتكذيب ما ترويه الامامية بعد ان فعل القوم نظيره مع سعد بن عبادة واغضاب فاطمة كما جاء في جواب ابي جعفر ، ونظائر ذلك في التاريخ لا تحصى في سبيل الملك .

وان من يراقب سير الاحداث التي جرت في ذلك اليوم وموقف المهاجرين من علي والصديقة بضعة الرسول (ص) كما اشرنا الى بعض جوانبها لا يستبعد ذلك وأكثر منه ، ولكن مجرد ذلك لا يكفي لادانة القوم بعمل من هذا النوع ما لم تتوفر النصوص التاريخية الصحيحة عليه ، ولست الان بصدد البحث عن تصويب تلك النصوص او تجريحها، ولم يكن من قصدي التعرض لمثل هذا الموضوع لولا ان الحديث قد جرني اليه من حيث لا اريد .

علي في عهد عمر بن الخطاب

فواعجبا بينا هو يستقبلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطر ضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها .

لقد استشار ابو بكر طلحة وعبد الرحمن وغيرهما في استخلاف عمر بن الخطاب ، وان لم تكن المشورة بقادرة على ان تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، وكان اكثرهم كارها لخلافته ووصفوه بالفظاظة والفلظة، وبعدما شاع استخلافه دخلوا على ابي بكر وقالوا له : ما انت قائل لربك وقد وليت علينا فظا غليظا ، وقال بعضهم لابن الخطاب وليته العام وولاك هذا العام ، وبدا عثمان اطيبهم نفسا بخلافة عمر بن الخطاب كما ذكرنا .

وتمت الخلافة لعمر بن الخطاب وانقاد له الناس كما انقادوا لسلفه وحققت قريش بذلك بعض ما كانت تخطط له وظلت السنين القادمة تنتظر جديدا ولا بد وأن يتحقق ما دامت قريش تأبى ان تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد ، وها هو عمر بن الخطاب بعد اشهر قليلة من ولايته يؤكد ذلك لشاب من شباب بني عبد المطلب كان مقربا من ابن الخطاب ، ويأنس الى حديثه وحواره ، فقال له: أتدري ما منع الناس

منكم يا عبد الله ؟ فقال لا يا امير المؤمنين ، قال : لقد كرهت قريش ان تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفا فنظرت لنفسهـــا واختارت فوفقت وأصابت .

لقد التزمت قريش ذلك في اختيار الخلفاء، وانقادت لعمر بن الخطاب كما انقادت لسلفه من قبل ، ومضى هو في سياسته وسيرته على خـــط صاحبه مع كبار الصحابة ، ولم ينس ابدا كلماته التي ودعه بها : احذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله الذين انتفخت أوداجهـم وطمحت أبصارهم . على واصحابه .

لقد كان ابو بكر على ما يبدو من وصيته هذه حريصا على استتباب الامر واستقراره الى سلفه ، وكان يخشاهم ان انتشروا في الامصار ان يستميلوا الناس اليهم فيطمحون للمعارضة وينقضون على الخليفة ، او يستقلون في بعض اطراف البلاد ، واشتد عمر بن الخطاب في تنفيذ هذه المادة من وصايا ابي بكر اليه ، وحبسهم في المدينة حتى ان الرجل منهم كما يروي المؤرخون كان يأتيه ملتمسا ان يسمح له بالخروج الى الثغور ليقاتل الى جانب المقاتلين، فلا يسمح له ويأمره بأن يلتزم بيته ومسجده، ثم يقول له : لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يكفيك ، وخير لك من الغزو اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك فوقفوا حيث اراد لهم لا يبرحون من مكانهم الا باذن ولاجل محدود يتطلعون الى البلاد التـــي خضعت لحكم الاسلام وخيراتها بألم وحسرة .

وأدرك ابن الخطاب مدى الضيق الذي ألم بهم من هذا الحصـــار ومدى محاولاتهم للتفلت منه ، وما يضمرونه من السخط والكراهيـــة لهذا الاسلوب من الحكم ، فقال : ان قريشا يريدون ان يتخذوا مـــال الله معونات دون عبادة الله ، فأما وابن الخطاب حي فلا ، ومرة اخرى يقف موقف المشفق عليهم الحريص على آخرتهم ويحاول ان يبرر الحصار المضروب عليهم بانقاذهم من سخط الله ، فيقول اني قائم دون شعب

الحرة اخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار .

اما امير المؤمنين (ع) فلم ينقل احد من المؤرخين انه وقف موقف المعارض لخلافة ابن الخطاب ، او بدا منه ما يسيء الى صلاته به بل رضي لنفسه ان يكون كغيره من الناس ، لا يذكر لمن مضى ولمن جاء من بعده الا المحاسن ، ولا ينطق الا بلسان البررة الاطهار يمنحه النصيحة ويزوده برأيه كلما اشكل عليه امر من الامور ، او طرأ حادث جديد لم يسبق له نظير في حياتهم من قبل تسيره مصلحة الاسلام وحدها ولا ينظر الى الحكم والحاكمين الا من هذه الزاوية ، وما دام الاسلام يسير بتلك السرعة في ما وراء حدود الحجاز ، وعروش اولئك الحكام تتهاوى تحت أقدام الفاتحين ، وأصوات المؤذنين تنطلق من الاعالي والسهول ومن على سطوح الكنائس ومن كل مكان ، ما دام الاسلام يسير بتلك السرعة والمسلمون بخير لا يهمه من تولى الحكم وكيف تولاه ، وطالما كان يردد على مسامع الناس ويلقي عليهم من دروسه الرائعة ، والله لاسالمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن جور الا عليّ خاصة .

لقد ساهم امير المؤمنين في الحياة العامة ما وسعه ، وأدى ما عليه للجمهور من تعليم وتفقيه وقضاء على مدى اوسع مما اداه في عهد ابي بكر حيث اقتضت الظروف ذلك .

ويحدث التاريخ عن عمر بن الخطاب بأنه كان يحترم قوله ويقف عند رأيه حتى في غير التشريع ، ويقول : لا ابقاني الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن ، وتنص المرويات على ان امير المؤمنين هو الذي وضع للمسلمين تاريخهم الذي ارخوا به ولا يزال حتى اليوم .

ولقد جاء في ذلك ان رجلا جاء الى ابن الخطاب يخاصم آخر بدين له عليه ومعه صك مكتوب فيه استحقاق اصل المال وانه يستحق في شعبان ، فلما القى بصره عليه ادرك مواضع النقص وتوجه الى الدائن

يسأله اي شعبان هذا ؟ أشعبان هذه السنة او التي بعدها . وأجابه الطرف الآخر ، ولكنه لم يكن ليطمئن لقوله ما دام كل منهما يدعي امرا والكتابة لم تنص بصراحة على تاريخ الاداء ، والناس يوم ذاك لم يكن لديهم تاريخ خاص فكان بعضهم يؤرخ بعام الفيل ، وآخرون يعتمدون تاريخ الدولة المجاورة لهم ، فأجمع رأي ابن الخطاب على ان يضع للمسلمين تاريخا يعتمدونه في امورهم ، فجمع الصحابة ليقف على رأيهم في هذا الموضوع واختلفت آراؤهم في ذلك اشد الاختلاف وكادوا ان يتفرقوا بدون ان ينتهوا الى نتيجة حاسمة لولا ان عليا (ع) قد اقبل عليهم بالمعهود من رأيه السديد ، واتجه اليه ابن الخطاب يسأله، فقال(ع) تؤرخ بهجرة الرسول من مكة الى المدينة ، فأعجب عمر بن الخطاب برأيه وهتف يقول : لا زلت موفقا يا ابا الحسن .

واقترن رأيه هذا باعجاب الحضور ايضا لان هجرة الرسول كانت البداية لانتصار الاسلام على الشرك وحدثا تاريخيا لعله من ابرز الاحداث في تاريخ الدعوة من حيث نتائجه يذكرنا بالتضحيات الجسام التي قدمها علي بن ابي طالب ليسلم محمد لرسالته وينتشر الاسلام في شرق الارض وغربها .

وجاء في شرح النهج عن الحسن بن محمد السبتي انه قرأ في كتاب ان عمر بن الخطاب نزلت به نازلة فقام لها وقعد وقال لمن عنده من الحضور : يا معشر من حضر ما تقولون في هذا الامر ، فقالوا يا امير المؤمنين : انت المفزع ، فغضب وقال : يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا اما والله اني واياكم لنعلم ابن بجدتها والخبير بها ، فقالوا : كأنك اردت علي بن ابي طالب ، فقال : وانى يعدل بي عنه وهل طفحت حرة بمثله ؟ قالوا فلو دعوته يا امير المؤمنين ، فقال هيهات ان هناك شمخا من هاشم واثرة من علم ولحمة من رسول الله ، ان عليا يؤتى ولا يأتي فامضوا بنا اليه فمضوا نحوه فألفوه في حائط له عليه

ثيان وهو يركل على مسحاته ويقرأ أيحسب الانسان ان يترك سدى ودموعه تنهمل على خديه فأجهش الناس لبكائه فسأله ابن الخطاب عن تلك الواقعة ، فأصدر جوابها ، فقال عمر بن الخطاب : اما والله لقد ارادك الحق ، ولكن ابى قومك ، فقال يا ابا حفص خفض عليك : من هنا ومن هنا ان يوم الفصل كان ميقاتا فوضع عمر بن الخطاب احدى يديه على الاخرى وأطرق الى الارض ومضى كأنما ينظر في رماد على حد تعبير الراوي ، الى كثير من الحوادث الطارئة التي كان حلها يستعصي على الخليفة وسائر الصحابة ويضطرهم الحال الى الرجوع اليه والاخذ برأيه في مختلف المواضيع .

وكان عمر بن الخطاب على ما فيه من جفاء وفظاظة كما وصفه القريب والبعيد وعلى ما بدر منه من القسوة والخروج عن المألوف مع الصديقة الزهراء (ع) لا يدع مناسبة الا ويذكر فيها عليا وحاجة المسلمين الى علمه ورأيه ، وأحيانا يبلغ به الاعجاب الى الاعتراف له بحقه في الخلافة من حيث لا يريد تصريحا تارة كما في رواية السبتي السابقة ، وتلميحا اخر ربما بلغ في بعض الاحيان حدود الصراحة ، ولكنه كان يعود وهو في حديثه ليضع مسؤولية تنحيه عن الخلافة على غيره ، او يتعلل لذلك بأسباب لا تمت الى الواقع بصلة من الصلات .

وأكثر احاديثه حول هذا الموضوع كانت مع عبد الله بن العباس وهو يوم ذاك في مطلع شبابه وكان ابن الخطاب يألفه ويطمئن الى رأيه وذكائه ، ولم تكن هيبة الخليفة وفظاظته لتمنعاه عن احراج الخليفة احيانا وتفنيد مزاعمه ومصارحته بالتجني على ابن عمه وانتزاع حقه . فقد روى المؤرخون ان عمر بن الخطاب كان في حوار مع الشاب الهاشمي وجرهما الحديث الى اعتراف الخليفة بظلامة علي بن ابي طالب ، فقال له ما ارى يا ابن عباس صاحبك الا مظلوما ، فقال له ابن عباس : فأردد عليه ظلامته يا امير المؤمنين ، فوقف ابن الخطاب قليلا

يختار الجواب المقبول بعد اعترافه هذا ، ثم قال : ما اظن ان القوم منعهم عنه الا انه كان شابا حدثا فاستصغرت العرب سنه وقد كمل الان ، ومضى يقول : ألم تعلم يا ابن عباس ان الله لم يبعث نبيا الا بعد الاربعين ، وكان جواب ابن عباس هذه المرة لا يخلو من التحدي والتعريض بالخليفة نفسه ، فقال له يا امير المؤمنين : اما اهل الحجى فانهم ما زالوا يعدونه كاملا منذ رفع الله منار الاسلام ، ولكنهم يعدونه محروما مجدودا ، وقد جعل الرسول اسامة بن زيد اميرا قبيل وفاته على جميع المسلمين بما فيهم مشيخة قريش وكان شابا لم يتجاوز العشرين من العمر .

ومرة اخرى كان علي (ع) جالسا بفناء داره ومعه ابن عمه عبد الله فمر بهما عمر بن الخطاب وسلم عليهما ولما هم بالانصراف سأله علي (ع) عن غايته فقال اريد البقيع ، فقال له أفلا نصل جناحك فرحب بهما فأشار امير المؤمنين الى ابن عمه ان يذهب مع الخليفة فأسرع ابن عباس لذلك ومشى الرجلان في جوف الليل وجرهما الحديث الى الخلافة وموقف المسلمين من علي بعد وفاة النبي (ص) فقال عمر بن الخطاب : والله ان صاحبك لاولى الناس بالامر بعد رسول الله ، الا اننا خفناه على اثنتين خفناه لحداثة سنه ولحبه لبني عبد المطلب .

وفي رواية ثالثة رواها ابن ابي الحديد في شرح النهج عن ابي بكر الانباري في اماليه ان عليا جلس الى عمر بن الخطاب يوما في المسجد فلما قام من مجلسه عرض بعض الحضور بعلي (ع) ونسبه الى التيه والعجب ، فقال له ابن الخطاب : وحق لمثله ان يتيه ، والله لولا سيفه لما قام عمود الاسلام وهو بعد اقضى الامة وذو سابقتها وشرفها ، فقال له الرجل : ما دام كذلك فما منعكم عنه ؟ قال : كرهناه لحداثة سنه وحبه لبني عبد المطلب .

وقد تكرر هذا التخلص من عمر بن الخطاب في المرويات التي تتحدث عن الحوار بينه وبين ابن عباس تارة وبينه وبين غيره ممن كانوا يطرقون موضوع الخلافة احيانا اخرى .

ولا اظن ان ابن الخطاب كان جادا في تبرير موقف المهاجرين من الخلافة بهذين السببين فان عليا (ع) لم يكن صغير السن كما يدعي ابن الخطاب ، بل كان فوق الثلاثين من عمره ولم يتفق لاحد من المسلمين إن عارك الامور وتعرض للاحداث وللصراع مع الإبطال والشجعان في المعارك كما اتفق له ، كما وان ابن الخطاب وجميع المسلمين يعلمون بأنه لا يحابي احدا على حساب قريبا كان او بعيدا مهما كانت الظروف .

والشيء الغريب من ابي حفص ان يخاف عليا لحبه بني عبد المطلب ويمتنع عن بيعته بعد الرسول (ص) لهذا السبب كما يدعي ، ولا يخاف من حب عثمان بن عفان لاسرته وقد مهد له الخلافة وأصبح بحكم المتعين لها ، وضم اليه اولئك النفر في الشورى لتغطية الاتفاق السابق بينهما كما سنثبت ذلك خلال حديثنا عن الشورى ونتائجها ، في حين انه كان يقول لو تولاها عثمان لحمل بني ابيه على رقاب الناس .

وتحدث عبد الله بن العباس عن حوار آخر جرى بينه وبين ابن الخطاب بشأن الخلافة ، فقال : كنت عند عمر بن الخطاب فتنفس نفسا ظننت ان أضلاعه قد انفرجت ، فقلت له : ما اخرج هذا النفس منك يا امير المؤمنين الا هم شديد . فقال : اي والله يا ابن عباس : اني فكرت فيمن اجعل هذا الامر من بعدي ، ثم قال : لعلك ترى صاحبك لها اهلا ، قلت وما يمنعه من ذلك مع جهاده وقرابته وسابقته وعلمه قال صدقت ولكنه امرؤ فيه دعابة .

ويبدو من اجوبة ابن الخطاب ان صحت انه كان يفتش عن سبب يبرر موقفهم من علي (ع) ، فمرة يعتذر منه ، بأن قريشا لا تريد ان

تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد ، وأخرى بحداثة سنه وحبه لبني عبد المطلب ، وثالثة بأن فيه دعابة الى غير ذلك مما يرويه الرواة عنه، في حين انه لاكثر من مناسبة كان يقول :

اما والله لو وليها علي بن ابي طالب لحملهم على المحجة البيضاء والحق الواضح .

ومع ذلك فقد اتخذ له صفة الدعابة وعدها سببا كافيا لاقصائه عن الخلافة ، هذا مع العلم ان ابن الخطاب كان معروفا بين جميع المسلمين بالفظاظة والغلظة وخشونة المعشر وأكثر الذين استشارهم ابو بكر بشأنه وصفوه بذلك وهي من الصفات القبيحة التي تنفر وتفرق كما نصت على ذلك الآية الكريمة التي وصف الله بها اخلاق النبي بقوله : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ومع ذلك فقد أصر ابو بكر على استخلافه وتم له ذلك ومع ذلك فهو يرى ان ابتسامة علي (ع) للفقراء والضعفاء ومواساته لهم وانسهم اليه بالاضافة الى جميع الصفات الفاضلة المتوفرة لديه يرى ذلك سببا كافيا لعدم استخلافه من بعده.

وقد وصفه ابن العاص بهذه الصفة وكان يردد كلمة ابن الخطاب في مجالس معاوية بقصد انتقاصه وحينما بلغ امير المؤمنين ذلك قال كما جاء في نهج البلاغة :

عجبا لابن النابغة يزعم لاهل الشام ان فيّ دعابة واني امرؤ تلهاية اعافس وأمارس ، لقد قال باطلا ونطق آثما ، اما وشر القول الكذب ، انه يقول فيكذب ويعد فيخلف ويسأل فيلحف ويسأل فيبخل ويخون العهد ويقطع الآل ، فاذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها فاذا كان ذلك كان اكبر مكيدته ان يتيح القرم سبته ، اما والله انه ليمنعني من اللعب ذكر الموت ، وانه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة ، وانه لم يبايع معاوية حتى شرط له ان يؤتيه اتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة .

وكان معاوية كما جاء في شرح النهج يذكر احيانا دعابة علي بقصد انتقاصه ايضا فلقد قال يوما بعد ان استتب له الامر لقيس بن سعد بن عبادة رحمه الله : رحم الله ابا حسن لقد كان هشا بشـــا ذا فكاهة ، فأدرك قيس قصده وقال له : لقد كان رسول الله (ص) يمزح ويبتسم لاصحابه وأراك تسرح في ارتفاء ، اما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة اهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى، تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك اهل الشام ، وقد بقي هذا الخلق متوازنا متناقلا في محبيه وأوليائه الى الان كما بقي الجفاء والخشونة والوعـــورة في الجانب الآخر [1].

وفي هذا الحوار الذي دار بين الشاب الهاشمي عبد الله بن العباس وبين الخليفة كما يروي ابن ابي الحديد وغيره من المؤرخين يبدو عمر ابن الخطاب وكأنه مال الى التراجع عن رأيه وقارن بين دعابة علي (ع) وبين تصلبه في الحق وحرصه على اتباع نهج القرآن وسنّة رسول الله فرأى في صلابته في الحق وحرصه على التمسك بالكتاب والسنّة مـا يغطي دعابته المزعومة ويجعله جديرا بالخلافة ، فبعد ان وصفه بالدعابة قال له عبد الله كما جاء في الرواية : فأين انت من طلحة فازدراه وقال ذو الباء وباصبعه المقطوعة ، فعرض عليه ابن عباس الزبير بن العـوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وعثمان بن عفان فوصف كل واحد بما فيه من العيوب بصراحة كاملة وتنبأ لعثمان بما صار اليه من سوء السلوك والنهاية السيئة ، ومضى يخاطب ابن عباس ويقول : انه لا يصلح لهذا الامر الا خصيف العقدة قليل العزة لا تأخذه في الله لومة لائم ، يكون شديدا من غير عنف لينا من غير ضعف مستحيا من غـــير سرف ممسكا من غير وكف .

---

١ ــ انظر المجلد الاول طبع مصر ص ٨ .

قال ابن عباس : ثم اقبل علي بعد ان سكت هنيهة وقال اجرؤهم والله ان وليها ان يحملهم على كتاب ربهم وسنّة نبيهم لصاحبك ، اما انه ان ولي امرهم حملهم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم .

وفي حوار آخر جرى بين عبد الله وعمر بن الخطاب يرويه المؤرخون عن عبد الله بن عمر جاء فيما روي عنه انه قال : كنت عند ابي يوما وعنده نفر من الناس فجرى في مجلسه ذكر الشعر ، فقال ابي من أشعر العرب . فقال بعضهم: فلان أشعر العرب ، وقال البعض الآخر : فلان أشعر . وكثر الجدال والاخذ والرد حول هذا الموضوع . وفيما هم يعرضون اسماء الشعراء اذ طلع عليهم عبد الله بن العباس ، فقال ابي : لقد جاءكم الخبير وتوجه اليه يسأله عن اشعر الناس ، فقال ابن عباس: أشعرهم يا امير المؤمنين زهير بن ابي سلمى ، وأنشده ابياتا من قصيدة له مدح بها بني سنان احد فروع غطفان يقول فيها :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم او مجدهم قعدوا
قوم سنان ابوهم حين تنسبهم طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا
انس اذا امنوا جن اذا فزعوا مرزؤون بهاليل اذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر بن الخطاب : لقد احسن والله ، وما ارى هذا المدح يصلح الا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ، فقال ابن عباس : وفقك الله يا امير المؤمنين ولم تزل موفقا .

ثم قال عمر بن الخطاب : يا ابن عباس أتدري ما منع الناس منكم ، قال : لا يا امير المؤمنين ، فقال : ولكني ادري ، لقد كرهت قريش ان تجمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفا ، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت وأصابت ، فقال له ابن عباس : أيميط عني امير المؤمنين غضبه ويسمع ، فقال له : قل ما تشاء ، قال : يا امير المؤمنين،

ان كانت قريش كرهت ، فقد قال الله لقوم : ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم .

وأما قولك انا كنا نجحف فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ، ولكنا قوم اخلاقنا مشتقة من اخلاق رسول الله الذي قال الله فيه : وانك لعلى خلق عظيم ، وقال له واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين .

وأما قولك ان قريشا اختارت ، فان الله يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، وقد علمت يا امير المؤمنين ان الله اختار من خلقه لذلك من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر لها الله لوفقت وأصابت .

ويبدو ان كلمة عبد الله : ولقد علمت بأن الله اختار لذلك من خلقه من اختار ، هذه الفقرة قد احرجت الخليفة لانها توحي بالنص على امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) وتدين الخليفة مباشرة لانه كان العقل المدبر لمصير الخلافة على النحو الذي صارت عليه ، فراح يتلمس الهروب مما اوقعه فيه ابن عباس ، فرد عليه بقوله : على رسلك يا عبد الله ابت قلوبكم يا بني هاشم الا غشا في امر قريش لا يزول وحقدا عليها لا يحول، وهنا انبرى له ابن عباس بالحجة الواقعة وقال له : لا تنسب قلوب بني هاشم الى الغش ، فانها من قلب رسول الله الذي طهره الله وزكاه وأنزل فيه وفي آله :

انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا .

وأما وصفك لقلوبهم بالحقد على قريش ، فكيف لا يحقد من غصب شيئه ويراه في يد غيره . فغضب عمر بن الخطاب لهذه الصراحة التي لم يعتد عليها من ابن عباس خلال احاديثهما عن الخلافة من قبل ، واعتبرها تحديا سافرا له ولسلفه الراحل فراح يطالبه بأمر كان قد بلغه عنه وكتمه عليه لتبقى مودته ، اما وقد بلغ به الحال الى هذا الحد من الصراحة فلم يعد ما يوجب السكوت عنه . فقال يا ابن عباس بلغني

عنك كلام اكره ان اخبرك به فتزول منزلتك عندي ، فقال : وما هو يا امير المؤمنين ؟ اخبرني عنه فان يكن باطلا فمثلي اماط الباطل عن نفسه. وان يكن حقا فان منزلتي منك لا تزول به ، فقال : بلغني عنك انك لا تزال تقول : اخذ هذا الامر منا حسدا وظلما ، فلم ينكص ابن عباس عن جوابه ولم يتراجع عن موقفه وأجابه على الفور : نعم لقد اخذ حسدا وظلما وقد حسد ابليس آدم فأخرجه الله من الجنة ونحن بنو آدم المحسود ، وقد اخذ ظلما وأنت يا امير المؤمنين تعلم من هو صاحب الحق . ومضى يقول : لقد احتج العرب على العجم بحق رسول الله واحتجت قريش على العرب بحقه ونحن أحق برسول الله من قريش وغيرها .

ويبدو ان عمر بن الخطاب قد ضاق صدره بهذه الصراحة ولم يجد ما يرد عليه فأراد ان يقطع الحوار ، فقال له : قم واذهب الى منزلك يا عبد الله ، فأدرك غايته وترك المجلس لاهله وانصرف ، وأدرك ابن الخطاب بأنه كان فظا في اسلوبه وخشي ان يكون قد اساء اليه وهو يأمره بالانصراف وترك المجلس ، وقبل ان يغيب عنه ، قال له : ايها المنصرف اني على ما كان منك لراع حقك .

فالتفت اليه وهو غير متهيب لمقامه ولا مأخوذ بلين أسلوبه الاخير وقال : ان لي عليك وعلى كل مسلم حقا برسول الله فمن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن اضاعه فحق نفسه اضاع ومضى في طريقه وهو مرتاح النفس والضمير لكلمة الحق التي نطق بها في هذا المجلس غير متهيب سلطان خصمه ولا فظاظته وكثرة انصاره .

وجاء في الرواية التي وصفت هذا الحوار ان عمر بن الخطاب لم يمتنع عن تقريظه والثناء عليه بالرغم من انه قد تحداه وأدانه ولم يحترم سلطانه ، فقال : واها لابن عباس ما رأيته لاحى احدا قط الا خصمه الى غير ذلك مما يرويه المؤرخون عما كان يدور بين الخليفة وعبد الله بن

العباس من حوار وجدل حول الخلافة ونصيب علي (ع) منها ، ولم يكن ابن الخطاب مع ما عرف عنه من الفظاظة والغلظة عنيفا مع ابن عباس الذي كان يعبر في مواقفه هذه عن رأي الهاشميين وكثير من الصحابة، وكان الخليفة يصرح احيانا بأن عليا كان ولا يزال اولى المسلمين بالخلافة ويضع تبعة اقصائه عنها على قريش لانها ابت ان تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد على حد تعبيره ، وظل عمر بن الخطاب ينوه باسم علي بن ابي طالب ويردد اسمه عندما يجري حديث الخلافة وكأنه المتعين لها من بعده حتى ظن اكثر المسلمين انها لن تعدوه ، ولن يقع اختيار ابن الخطاب على غيره لاسيما وقد صاهره وتزوج من ابنته ام كلثوم كما يدعي المؤرخون ولا ارى في ذلك ما يدعو الى استبعاد هذا الامر وان استبعده بعض محدثي الشيعة وعلمائهم .

وفاة عمر بن الخطاب

لا بد لنا ونحن بصدد الحديث عن مصير الخلافة بعد تلك المواقف التي كان ابن الخطاب يلوح فيها بعودة الحق لاصحابه ويقول : لقد اجمعت ان اولي عليكم احراكم ان يحملكم على الحق وظل يلوح ويصرح احيانا حتى جاءت الايام الاخيرة من حياته واذا به يجعلها لواحد من ستة اختارهم من اصحاب رسول الله ، ولم يختر احدا منهم بصراحة ولكنه رسم حدود الاختيار وأوصى الى الرجل المختار من اولئك الستة كما يومىء اليه عهد مكتوب سنتعرض لذلك خلال حديثنا عن الشورى وتنائجها ، لا بد لنا من المرور بحادثة اغتياله كما يرويها المؤرخون والمحدثون لنتمكن من تكوين فكرة صحيحة عنها .

لقد اجمع المؤرخون على انه قتل بخنجر ابي لؤلؤة بعد عشر سنوات ونيف من ولايته عن ثلاثة وستين عاما وقيل اكثر من ذلك ، وأبو لؤلؤة كما يدعون غلام فارسي للمغيرة بن شعبة قد اذن له عمر بن الخطاب بدخول المدينة في حين انه كان قد منع من دخول الموالي اليها ، ولكن المغيرة بن شعبة اراده على ادخاله وكتب له انه يحسن اكثر من صنعة والمدينة في حاجة لامثاله ، فاستجاب لطلبه وأذن له فأقام على عمله ،

وكان المغيرة قد فرض عليه مائة درهم في كل شهر كما جاء في احاديث بعض المؤرخين ، فثقل عليه وشكاه الى الخليفة وبعد ان حدثه بما يحسن من الاعمال رفض ان يتوسط له مع المغيرة او يخفف عنه شيئا، ومر عليه بعد ايام وقال له : بلغني انك تقول : لو شئت لصنعت رحا تطحن بالريح ، فالتفت اليه ساخطا وقال : لاصنعن لك رحا تتحدث بها الناس ، فأدرك غايته والتفت إلى من كان معه وقال : ألا تسمعون الى العبد ما اظنه الا يتوعدني ولم تمض سوى ايام قلائل حتى ترصده في فجر يوم من الايام وكمن له في زاوية من زوايا المسجد فلما خرج الى الصلاة حمل عليه بخنجر ذي رأسين وطعنه ثلاث طعنات في بطنه فخر الى الارض يتخبط بدمه ، ومضى يطعن كل من دنا منه حتى اصاب ثلاثة عشر رجلا مات منهم جماعة وسلم الباقون ، وحينما عجز عن الفرار وأحيط به من كل جانب طعن نفسه ومات من ساعته ، وكان عمر بن الخطاب قد اغشي عليه ، فلما افاق من غشوته أمر ابن عباس ان يأتيه بخبر من اغتاله فخرج من المسجد ورجع اليه فأخبره عن الجاني ومصيره.

وجاءه الطبيب في تلك الساعة وهو يعاني من الالم ، فلما عاين جرحه اشار عليه ان يعهد بالخلافة لمن يقوم بها من بعده ، ودخل عليه ولده عبد الله وقال : ان الناس يقولون : لو ان راعي ابل او غنم تركها وجاءك أولست كنت تراه مضيعا مفرطا لانه تركها بدون من يكفلها ويرعاها فكيف تذهب وتترك الامة بدون خليفة يدير شؤونها ، فقال له: اذا تركتها بدون خليفة فلقد تركها قبلي رسول الله ، وان استخلفت احدا فلي اسوة بأبي بكر من قبلي. فأيقن الناس على حد تعبير الراوي بأنه سيترك الامر للمسلمين يختارون لانفسهم من يريدون ، وقبيل وفاته اختار ستة من الصحابة وجعلها لاحدهم كما سنتعرض لذلك في حديثنا عن الشورى .

وجاء في رواية ابن ابي الحديد في شرح النهج وتاريخ الخميس ان

عبد الرحمن بن ابي بكر رأى الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة غلام سعد ابن ابي وقاص في مكان يتشاورون وبينهم خنجر له رأسان مقبضه في وسطه فقتل عمر بن الخطاب في صبيحة تلك الليلة التي رآهم يتشاورون فيها ، ولما اخبر بذلك بعد مقتل عمر بن الخطاب ، اقدم عبيد الله بن عمر على قتل الهرمزان الفارسي وجفينة وطفلة لابي لؤلؤة .

وكان الهرمزان اميرا على الاهواز من قبل الفرس ، ولما اسره المسلمون قدموا به على عمر بن الخطاب وكان نائما في المسجد وليس معه احد ، فسأل عنه الهرمزان فقيل له : هو ذاك النائم ، فقال وأين حجابه وحراسه ، قالوا: لا حارس له ولا حاجب . فقال : ينبغي ان يكون نبيا ، وقد فرض له عمر بن الخطاب الفين كغيره من عامة الناس وأبقاه في المدينة .

ويدعي المؤرخون ان كعب الاحبار جاء الى عمر بن الخطاب قبل ان يقتل بثلاثة ايام وقال له اعهد عهدك يا امير المؤمنين ، فانك مقتول بعد ثلاثة ايام ، فقال له : وما يدريك ؟ فقال : اجده في كتاب الله التوراة ، فقال له : انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ، فقال : اللهم لا ، ولكني اجد صفتك وحليتك ، فقال عمر: رضينا بقضاء الله وقدره، فلما اصيب تذكر قول كعب الاحبار ، فلما كان من الغد جاءه وقال : لقد ذهب يوم وبقي يومان ، وفي غداة اليوم الثاني جاءه وقال : بقي لك يوم واحد ونهاية اليوم الثالث كانت وفاته وتحققت نبوءة كعب الاحبار بتلك السرعة التي قلما تحقق مثلها لمن سبقه من الانبياء .

بهذا النحو يروي المؤرخون القدامى والمحدثون قصة وفاة عمر بن الخطاب ، ولا يقفون عند اسبابها وملابساتها بينما يحاول بعض المتأخرين من الكتّاب ان يضعوا حولها اكثر من علامة استفهام ولكن بتحفظ لعدم توفر الادلة المادية على التآمر والتخطيط لاغتياله ، وعندما يعود الباحث للاسباب التي ادت الى هذا الحادث لا يجد عند المؤرخين سببا

سوى ما يدعونه من ان الخليفة لم يتجاوب مع ابي لؤلؤة في تخفيض الضريبة عنه بعد ان عرف منه انه يتقن اكثر من صنعة ، وهذا السبب ينظري بعيد للغاية ، واذا كان للضريبة من تأثير على حياة العبد من الناحية الاقتصادية فمن اللازم ان يحقد على مولاه وينتقم لنفسه منه ، لان الضريبة تعود لصالح المغيرة مولاه ولا شأن للخليفة بها ولا هي تعود الى بيت المال ليكون الامر منها الى الخليفة نفسه ، لذلك فاني ارجح ان تكون اسباب الجريمة ابعد من ذلك ، ومن غير المستبعد ان تكون داخلية ومن صنع اولئك الذين ضيق عليهم عمر بن الخطاب ولم تتسع صدورهم لحزمه وصلابته ورقابته الدائمة لجميع تصرفاتهم ، وكان يتظاهر في الشطر الاخير من حياته بالتقشف والعطف على الفقراء والصراحة في محاسبة ولاته على ما كان يبدر منهم من التصرفات مما اتيح لمحبيه ان يطروه بالعدل ويضربوا الامثال بعدله ، وبلغ من السطوة والهيبة حدا دانت له رقاع واسعة من الامصار كان من في اقصاها يخاف درته وهو في الحجاز ، ولقد قال عمرو بن العاص يوما : لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر بن الخطاب ، والله لقد رأيته وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز ركبتيه وعلى عنقه حزمة حطب ، ورأيت العاص بن وائل في مؤرارة الديباج، كما كان المغيرة يحقد عليه ايضا لانه عزله عن البصرة بعد اتهامه بالزنا وشهود الثلاثة عليه ، وقد درأ الحد عنه لان الشاهد الرابع زياد بن عبيد لم يكن صريحا في شهادته ، وكان كلما رآه بعد ذلك يقول له : كلما رأيتك خفت ان يرجمني الله بحجارة من السماء .

ولاكثر من مناسبة كان عمر بن الخطاب يقول له : والله لا اظن ابا بكرة قد كذب عليك ، وأبو بكرة هذا هو الذي رآه على الرقطاء في البصرة وأشهد عليه الشهود الثلاثة ، وكان معروفا بين المسلمين بالزنا والفحشاء ، فقد جاء في المجلد الثالث من شرح النهج ان المغيرة بن شعبة

وجرير بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس كانوا قد اجتمعوا بالكناسة يوما فطلع عليهم اعرابي لا يعرفهم ولا يعرفونه ، فقال لهم المغيرة : دعوني احركه ، فقالوا : لا تفعل فان للأعراب جوابا يؤثر ، فأصر على التحرش به وقال : يا اعرابي ، أتعرف المغيرة بن شعبة ، قال : نعم اعور زانـي يرجم ويجلد ، ثم سأله عن الاشعث وجرير فوصف كلا منهما بما هو فيه [1] .

كما جاء في رواية شرح النهج وغيره انه كان بين عمر بن الخطاب وطلحة ايضا عداء مستحكم ، وكان عمر بن الخطاب له مبغضا ، وقال له يوما : لقد مات رسول الله وهو ساخط عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب ، وكان طلحة يوم ذاك قال : ما يغنيه حجابهـن وسيموت غدا وننكحهن من بعده .

على ان رواية عبد الرحمن بن ابي بكر تدل على اشتراك جفينة غلام سعد بن ابي وقاص في الجريمة ، وسعد بن ابي وقاص لم يكن على صلة حسنة بابن الخطاب هذا بالاضافة الى نبوءة كعب الاحبار بالجريمة قبل وقوعها ، وكعب هذا كان على صلة متينة بالمغيرة بن شعبة وجميع المنافقين الذين لا يهمهم الا الهدم والتخريب كأبي سفيان وأمثاله . وما كان لعبد مملوك في تلك الفترة من تاريخ المسلمين ان يقدم على جريمة من هذا النوع تهز الدولة التي دانت لها رقاع واسعة من الامصار لمجرد انه لم يتوسط له مع مولاه بتخفيض الضريبة عنه كما يدعي المؤرخون، ولم يكن ذلك الا نتيجة لعمل مدروس ومتفق عليه بين هؤلاء الذين ثقل عليهم وجود الخليفة وكانوا يضمرون له العداء والكراهية وكان هو بدوره يفاجئهم بما يسيء اليهم .

---

١ ـ شرح النهج جـ٣ ص ١٦٣ .

ولا بد لنا ان نأخذ بعين الاعتبار اشتراك جفينة مملوك سعد بن ابي وقاص في الاغتيال ، فان سعدا ينتمي الى الامويين من قبل امه حمنة اخت ابي سفيان وأبو سفيان كان يحلم باستيلاء البيت الاموي على السلطة ، ومن الجائز كما ذكرنا من قبل ان يكون قد اخذ وعدا من ابي بكر وعمر بن الخطاب بأن تسير الخلافة الاسلامية على النحو الذي سارت عليه حينما انضم الى الحاكمين ، ولكنه استطال حياة عمر بن الخطاب وخاف ان تتطور الامور لغير صالحهم لاسيما بعد المصاهرة التي تمت بين علي (ع) وعمر بن الخطاب وبعد التصريحات التي كان يعلنها ابن الخطاب في مجالسه وفي محاوراته بحق علي بن ابي طالب كما ذكرنا بعضها ، وقوله كما في رواية ابي بكر الانباري : وحق لمثله ان يتيه والله لولا سيفه لما قام عمود الاسلام ، وهو اقضى الامة وذو سابقتها وشرفها ، وقوله : ان وليها حملهم على كتاب الله وسنّة رسوله ، وقوله لامير المؤمنين : اما والله لقد ارادك الحق ولكن ابى قومك ، الى غير ذلك من تصريحاته التي تركت عامة الناس يظنون انها لن تعدوه ، هذا بالاضافة الى نبوءة كعب الاحبار التي سبقت حادثة الاغتيال بأيام قلائل ، تلك النبوءة التي تستوقف الباحث وتشده الى التماس ما تومي اليه من ندابير وأحداث كان هو احد ابطالها او من العالمين بها على ابعد التقادير ، وقد حاول بنبوءته على تقدير صحتها وان كنت اشك في ذلك ان يلبس ثوب العالم بالغيب النافذ البصيرة الى ما ينطوي عليه المجهول من أحداث لينفذ الى بعض النفوس ويكون له من وراء ذلك سلطان على ما يريد ، وكما ذكرنا ان كعب الاحبار هذا كان يعمل لصالح كل من يريد هدم الاسلام ، وبلا شك فان الحزب الاموي كان من ابرز العاملين لهذا الاتجاه ولذلك بلغ كعب الاحبار مكان الصدارة عند الخليفة الجديد ، وكان لا ينساه في مشورة ، ولم يجرؤ احد ان يمسه بسوء ، وظل مع الامويين الى آخر لحظة من

حياته يجدون به خير ناصر ومعين على الدس والكذب والافتراء على الاسلام وحماته المخلصين ، كل ذلك مما يؤكد بأن اغتيال عمر بن الخطاب بيد ابي لؤلؤة وبمساندة جفينة والهرمزان كان نتيجة لمؤامرة مدروسة من الصحابة انفسهم وهؤلاء كانوا اداة تنفيذ لا غير ، ومن ابطالها المغيرة بن شعبة وسعد بن ابي وقاص الاموي من قبل امه وعمر ابن العاص والحزب الاموي بقيادة ابي سفيان ، واذا صح ما يرويه المؤرخون عن كعب الاحبار ، يكون شريكا لهم او على علم بالمؤامرة ، وقد اخبر بها ابن الخطاب بتلك الصورة التي لا تشير الى اتهام احد ، ليتخذ لنفسه مكانا عنده . وقد تم لهم ما ارادوا وانطوى كل شيء ووصل الحزب الاموي الى السلطة بواسطة الشورى التي ارتآها الخليفة الراحل ، وليس ببعيد على هؤلاء المخططين ان يدفعوا عبيد الله بن عمر ابن الخطاب على قتل جفينة والهرمزان وابنة ابي لؤلؤة بتلك السرعة حتى لا تتضح ملابسات الجريمة وأبعادها بعد التحقيق مع الهرمزان وجفينة غلام سعد بن ابي وقاص ، ولذلك فقد حماه عثمان بن عفان من القضاء وأغدق عليه العطاء . كما يجوز ان يكون موقف امير المؤمنين علي بن ابي طالب المتصلب من جريمة عبيد الله بن عمر بن الخطاب بالاضافة الى حرصه على تنفيذ احكام الله في المجرمين وقد قتل عبيد الله طفلة ابي لؤلؤة ومن لم يشتركوا بها مباشرة ، يجوز ان يكون مع ذلك قد أحس بأن وراء الجريمة مؤامرة واسعة الاطراف لا يجوز ان يتحمل مسؤوليتها هؤلاء وحدهم ، وكان من الواجب التريث والتحقيق مع الهرمزان وجفينة والطفلة لتحديد المسؤول عن هذه الجريمة ، ولكن عثمان بن عفان ومستشاريه قد اقفلوا الباب وأنهوا الحوار والحديث حول الحادث وملابساته وأعفوا عبيد الله من العقوبة كما ذكرنا .

الشورى

حتى اذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم اني احدهم فيا للـــه وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر .

لقد اتفق المؤرخون على ان عمر بن الخطاب مات ، على اثر طعنة ابي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، وقد ابديت رأيي في الحادث وملابساته ، وقد حمل بن الخطاب ودماؤه تنزف من جراحاته وهو واهن القوى لكثرة الدماء التي سالت منه ووقف الناس من حوله ما بين باك وباكيـــة ومدهوش ، وقيل له وهو مهيض قد انهكته جراحاته لو استخلفت على الناس يا امير المؤمنين ، فتفكر مليا ثم قال : ان استخلف فلقد استخلف من هو خير مني ، وان اترك فقد ترك من هو خير مني ، يشير بذلك الى النبي وأبي بكر ، فلقد استخلفه ابو بكر ، وترك النبي (ص) الامـــر للمسلمين يختارون لانفسهم من يريدون على حد زعمه .

ثم التفت الى من كان حوله من الصحابة والاسف يقطع انفاســـه وقال : لو كان ابو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربي لو سألني ، لقـد سمعت نبيك يقول : انه امين هذه الامة ، ولو كان سالم مولى ابـي

حذيفة حيا لاستخلفته ، وقلت لربي لو سألني : لقد سمعت نبيك يقول: ان سالما شديد الحب لله .

ان امر هذا الرجل يبدو لي منتهى الغرابة يجمع بين المتناقضات، ويقول الشيء على ملأ من الناس ويعمل بخلافه . لقد احتج هو وأبو بكر على الانصار يوم السقيفة بما رواه عن النبي (ص) انه قال : الخلافة في قريش ، ومع ذلك يقول : لو كان سالم مولى ابي حذيفة حيا لوليته ، لان النبي قال انه كان شديد الحب لله ، ونسي ما قاله النبي لعلي في عشرات المناسبات مما لم يقله في احد من الناس ، بل نسي ما قاله هو نفسه لابن عباس وغيره ، لو وليها علي لحملهم على المحجة البيضاء وعلى كتاب الله وسنّة رسول الله .

وعندما وصل الكاتب الكبير المنصف عبد الفتاح عبد المقصود الى قوله لو كان ابو عبيدة حيا ولو كان سالم مولى ابي حذيفة لوليتهما لم يدع الفرصة تفوته ليبدي ما في نفسه من التآمر المخطط والمدروس على اقصاء علي عن الخلافة بكل الوسائل ، فقال بلهجته الهادئة التي اعتاد ان يخاطب بها الحزب القرشي المتآمر على آل الرسول ، فقال : فهلا ذكر اذن في هذا المقام قليلا من الكثير الذي قيل في علي بن ابي طالب على لسان رسول الله (ص) ، ومضى يقول : انه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل ، ثم ذكر الى جانب هذا وذاك قدر علي (ع) لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه ، بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذي يعلو به على الآخرين ، ولكنه ايضا ذكر السياسة العليا التي استنتها لنفسها قريش ، وكان اما ترسمها برغبته اذ يراها الصواب ، واما دفع مستكرها الى ترسمها فعداه في كلا الحالين التوفيق ولم يلتزم النهج الاقوم .

ومهما كان الحال فما ان اتم بن الخطاب كلامه حتى تقدم اليه المغيرة ابن شعبة يستأذنه ان يدلي برأيه ولما اذن له قال : اجعلها يا امير المؤمنين

لولدك عبد الله ، فرماه بنظرة كالشهاب وصاح فيه : قاتلك الله ، والله ما اردت بهذا الا الشر ، اتشير على ان اجعلها لرجل يعجز عن طلاق زوجته ، وأردف ذلك بقوله : لا يليها رجلان من ولد الخطاب حسب عمر ما حمل ، والله لا اتحملها حيا وميتا .

ثم قال : ان رسول الله مات وهو راض عن هؤلاء الستة من قريش علي وعثمان وطلحة وسعد بن ابي وقاص والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وقد رأيت ان اجعلها شورى بينهم ليختاروا لانفسهم ، ثم قال: ادعوهم لي فدعوهم ودخلوا عليه وهو ملقى على فراشه يجود بنفسه من الالم ، فنظر اليهم وقال : أكلكم يطمع في الخلافة بعدي ، فلم يردوا له الجواب ، ولما كرر عليهم القول اجابه الزبير وقال كما في رواية شرح النهج : وما الذي يبعدنا منها وقد وليتها انت ولسنا دونك في قريش لا في السابقة ولا في الاسلام ، فقال : أفلا اخبركم عن انفسكم ، قالوا: قل فإنا لو استعفيناك لم تعفنا ، فقال : اما انت يا زبير فوعق لقس مؤمن الرضا كافر الغضب يوما انسان ويوما شيطان ، ولعلها لو افضت اليك ظلت يومك تلاطم في البطحاء على مد من شعير ، افرأيت ان افضت اليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطانا ويوم تغضب ، وما كان الله ليجمع لك امر هذه الامة وأنت على هذه الصفة .

ثم التفت الى طلحة وكان له مبغضا على حد تعبير ابن ابي الحديد في شرح النهج ، فقد قال لابي بكر يوم وفاته ما قال في عمر [1] ، التفت اليه وقال : اقول ام اسكت ، فقال له طلحة : قل فانك لا تقول من الخير شيئا ، قال : اما اني اعرفك منذ اصيبت اصبعك يوم احد والبا بالذي

---

١ ــ لقد كان يطمع يوم ذاك ان يتولاها بعد قريبه فقال له : حينما احس برغبته في عمر ماذا تقول لربك وقد وليت علينا فظا غليظا .

حدث لك ، ولقد مات رسول الله ساخطا عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب [1] .

لقد ناقض نفسه عمر بن الخطاب وهو لا يزال في الحديث عن الستة الذين اختارهم للخلافة ففي صدر حديثه عنهم قال : ان رسول الله مات وهو راض عنهم ، وها هو يقول لطلحة : لقد مات رسول الله ساخطا عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب ، على ان الصفات التي وصف بها الزبير لو صح انها كانت فيه لا يعقل ان يموت رسول الله وهو راض عنه مع وجود تلك الصفات فيه التي لا ترضي احدا من الناس ، ان الباحث لا يكاد ينتهي من فصل من فصول متناقضاته حتى يقع على فصل آخر ، لقد امر صهيبا ان يصلي بالناس في مرضه لان امامة المصلين لا ترتبط بالخلافة ولا ملازمة بينهما . وبالامس يوم كان يناضل من اجل استيلاء ابي بكر على الخلافة كانت صلاته المزعومة بالناس في مرض النبي الدليل الاول على اهليته للخلافة واستحقاقه لها ، وقال ان رسول الله مات وهو راض عن الستة ويقول عن الزبير بأنه يوما انسان ويوما شيطان ، ويلاطم في البطحاء على مد من الشعير ويقول ان رسول الله مات ساخطا على طلحة ويصف عثمان وسعد بن ابي وقاص بأقبح الصفات ومع ذلك فرسول الله مات وهو راض عنهم على حد زعمه .

ثم اقبل على سعد بن ابي وقاص، وقال له : انما انت صاحب مقنب في هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس وأسهم وما زهرة والخلافة وأمور الناس .

وقال لعبد الرحمن بن عوف : وأما انت يا عبد الرحمن فلو وزن نصف ايمان المسلمين بايمانك لرجح ايمانك به ولكن ليس يصلح هذا

---

١ ــ وكان قد قال : ماذا يغنيه حجابهن اليوم وسيموت غدا فننكحهن من بعده .

الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما زهرة وهذا الامر .

وقال لعلي (ع) : لله انت لولا دعابة فيك ، اما والله لو وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

وقال لعثمان : هبها اليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الامر لحبها اياك فحملت بني امية وبني ابي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا ، والله لئن فعلوا لتفعلن ، ولئن فعلت ليفعلن بك ، ثم اخذ بناصيته وقال : فاذا كان ذلك فاذكر قولي .

هذه الصورة التي اعطاها عمر بن الخطاب عن الستة يرويها اكثر المؤرخين عندما يتحدثون عن موقفه من الخلافة في المرحلة الاخيرة من حياته ، واذا صح بأنه كان على ثقة بأن عثمان سيحمل بني أمية على رقاب الناس وسيسلطهم على خيرات البلاد وأموال العباد ، فلا ادري كيف رشحه لها واختاره بذلك الاسلوب الذي لا يختلف عن التعيين الا بالصورة وكيف تحملها حيا وميتا ، وقبل ساعات ، قال لمن اشار عليه ان يستخلف ولده عبد الله : لا اتحملها حيا وميتا .

لقد وصف عثمان بن عفان بأقبح الصفات ونسب اليه ما لم ينسبه لاحد من الستة ومع ذلك فقد اختاره للخلافة باسم الشورى ووصف عليا بأنه لو تولاها لحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ومع ذلك فقد وضع في طريقه العراقيل والصعاب ، ومهدها لعثمان ، في حين ان القلوب التي كانت تهفو الى علي (ع) ولا ترى لها غيره وقد وصفه هو بالصفات التي لا تؤهل سواه لها كما ذكرنا ، واذا كان يخاف قريشا ان تنقض عليه وتأباه فيما لو قلده الامر من بعده ، فلقد اوصى اليه ابو بكر بالخلافة ، وكانت قريش كارهة له ، وتشكو فظاظة اخلاقه ومع ذلك فلم تنتفض عليه ، وتحملته اكثر من عشر سنوات .

لقد وضع ابن الخطاب الخلافة بين اولئك الستة واستدعى اليه ابا

طلحة الانصاري وقال له : يا ابا طلحة اذا عدتم من حفرتي فكن في خمسين رجلا من الانصار حاملي سيوفكم وخذ هؤلاء النفر بامضاء الامر وتعجيله واجمعهم في بيت واحد وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحدا منهم فان اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه ، وان اتفق اربعة وأبى اثنان فاضرب عنقيهما ، وان اتفق ثلاثة فانظر الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وارجع الى ما اتفقوا عليه ، فان اصر الثلاثة على خلافهم فاضرب اعناقهم ، وان مضى الستة ولم يتفقوا على امر فاضرب أعناق الستة ودع المسلمين يختاروا لانفسهم .

وتمت وصية عمر بن الخطاب على هذا النحو وخرج علي والجماعة من البيت بانتظار الموعد المعين وقد ادرك ان الامر لا يعدو عثمان بن عفان ومضى صامتا في زحمة الناس وكان الله باديا في عينيه وغضبه نم عنه عرق في وجهه كاد ينبجس منه الدم ، وما لبث ان جاءه عمه العباس ابن عبد المطلب يسأله عما جرى ، فقال له : جعلها في جماعة زعم اني احدهم ومضى يقص عليه انباء الشورى وتفاصيلها ، فملكته الدهشة وهو يستمع اليه يقول : ان اجتمع ثلاثة وخالف ثلاثة فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف لعلمه ان عبد الرحمن صهر لعثمان على اخته ام كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط لأمه ، فهز العباس رأسه ، وقال : يا ابن اخي : لا تدخل معهم وترفع عنهم ، ولم يغب عن علي (ع) صواب هذا الرأي ولا ساوره شك في ان الخلافة صائرة لغيره ولا حظ له فيها ما دام بين اصحاب الشورى طلحة بن عبيد وهو الحقود الحسود لبيت هاشم ، واليه اشار بقوله في الشقشقية ، فصغا رجل منهم لضغنه ، وفيهم سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وسعد لا يفارق ابن عمه وتشده الى البيت الاموي اواصر القربى القريبة ، وعبد الرحمن بن عوف صهر لعثمان .

وفيما كان العباس يحاوله الخروج منها واذا بولده عبد الله يؤيد

رأي ابيه ويقول : ان عمر بن الخطاب يريد الامر لعثمان ، فقال لهما امير المؤمنين : وأنا اعلم ذلك ولكني ادخل معهم في الشورى لان عمر ابن الخطاب اهلني الان للخلافة وكان قبل ذلك يقول : ان رسول الله (ص) قال : ان الخلافة والنبوة لا يجتمعان في بيت واحد وأنا ادخل معهم لاظهر للناس منافقة فعله لروايته .

وجاء في رواية ابن قتيبة في الامامة والسياسة ان عمر بن الخطاب بعد ان اختار للخلافة واحدا من الستة وحدد لهم شروط الانتخاب كما ذكرنا قال له بعضهم : قل فينا يا امير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدي به ، فقال : والله ما يمنعني ان استخلفك يا سعد الا شدتك غلظتك مع انك رجل حرب ، وما يمنعني منك يا عبد الرحمن الا انك فرعون هذه الامة ، وما يمنعني منك يا زبير الا انك مؤمن الرضا كافر الغضب ، وما يمنعني من طلحة الا نخوته وكبره ، ولو وليها وضع خاتمه في اصبع امرأته ، وما يمنعني منك يا عثمان الا عصبيتك وحبك قومك وأهلك ، وما يمنعني منك يا علي الا حرصك عليها وانك احرى القوم ان وليتها ان تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم [1] .

ولما مات عمر بن الخطاب وفرغوا من دفنه جمع ابو طلحة الستة ، وأقبل المقداد بن الاسود في خمسين من المسلمين ومعهم سيوفهم للاشراف على الانتخاب حسب المخطط الذي وضعه الخليفة الراحل ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وجلسا على باب البيت الذي اجتمع فيه الستة ، فتنبه سعد بن ابي وقاص لهما فحصبهما وأقامهما ، وقال انما جلستما في هذا المكان لتقولا للناس لقد حضرنا مجلس الشورى وكنا معهم كما جاء في رواية شرح النهج وغيره .

---

١ ـ انظر جـ١ من الامامة والسياسة ص ٢٣ .

واتفق المؤرخون ان المؤتمرين لم ينتهوا الى نتيجة حاسمة خـــلال يومين كاملين من التشاور فيما بينهم وكان كل منهم يرجوها لنفسه ، وفي اليوم الثالث ذكرهم ابو طلحة بنهاية الموعد وهددهم بما سينجم عن تباين آرائهم واختلافهم من النتائج السيئة التي لا يرجوها لهم ، وأدرك طلحة ان الصراع الحقيقي يدور بين اثنين لا ثالث لهما ، وهما علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ، ولعبت الاحقاد القديمة بين تيم وعلي بن ابي طالب ، والتي كانت عائشة لا تزال تغذيها دورها في هذا الصراع ، كما وان الميزة التي كان يتمتع بها ابن ابي طالب ، وهي الصرامة فـــي الحق والسير بالخلافة على الطريق الصحيح يأباها طلحة وأمثاله من اهل الثراء الواسع والطامعين والنفعيين كل الاباء ، هذه الميزة كان لها دورها في اقصاء علي واتجاه الطامعين من القرشيين وغيرهم الى عثمان كمـا اكدت ذلك الاحداث التي رافقت خلافته منذ الايام الاولى .

ما افرزته الشورى

ومهما يكن الحال فقد جاء في شرح النهج وغيره ان اول عمل قام به طلحة ان اخرج نفسه منها ووهب حقه فيها لعثمان بن عفان ، بعد ان ايقن انه سيكون صفر اليدين في هذا المؤتمر ، وان الناس لا يبدلونه بأحد الرجلين فأراد ان يدعم جانب عثمان في الصراع الحالي كرها منه بعلي بن ابي طالب على حد تعبير المؤرخين ، وأدرك الزبير في الحال ان طلحة لم يقدم على هذا التصرف الا بوحي من عصبيته وأحقاده فثارت في نفسه نزعة القرابة القريبة التي تشده الى علي (ع) في الوقت الذي يعلم فيه ان الامر سوف ينتهي الى غيره فوقف وقال : وأنا اشهدكم على نفسي اني قد وهبت حقي في الخلافة لعلي بن ابي طالب ، وبقي الصراع فيها بين اربعة من اهل الشورى، فوقف سعد بن ابي وقاص وقال: لقد وهبت حقي لعبد الرحمن بن عوف وكلاهما من بني زهرة ، وبقي في الساحة ثلاثة كل واحد منهم يمثل اثنين ، فقال عبد الرحمن لعثمان وعلي : أيكما يخرج منها للآخر ؟ فلم يجبيا على حد تعبير الراوي ، فأخرج نفسه منها على ان يجعلها في افضلهما ، والتفت الى علي وعثمان قبل ان يبت بالامر لاحدهما وعرض على كل منهما ان يتولاها شريطة ان يؤثر الحق

ولا يتبع الهوى ولا يخص ذا رحم ولا يألو الامة نصحا وردد مقالته هذه عليهما فوافق كل منهما على هذه الشروط .

ويبدو ان عليا (ع) قد احرجه بموافقته على شروطه ، ومن غير المعقول ان يتنازل عن صهره عثمان ويسلمها لعلي بن ابي طالب ، كما وان سعدا لا يتنازل عن اخواله الامويين مهما كانت الظروف ، فاختاره عبد الرحمن بسعد بن ابي وقاص مرة وبالمسور بن مخرمة الزهري اخرى ، وأدرك علي (ع) ان خلوة سعد بعبد الرحمن للبحث عن مخرج يسهل لعبد الرحمن اعطاءها لعثمان ، فقال له : يا سعد اتقوا الله الذي تسألون به والارحام ، اسألك برحم النبي هذا من رسول الله ورحم عمي الحمزة منك ان لا تكون ظهيرا لعبد الرحمن [1] .

ويبدو ان عبد الرحمن في خلوته مع سعد وابن اخته المسور بن مخرمة الزهري قد خرج بشرط جديد قد اتفق عليه الثلاثة يحرج عليا ولا يسكن ان يقبل به ، وكانت الاصوات قد ارتفعت من خارج الدار فالزهاد والفقراء والمحرومون وبنو هاشم وأنصارهم الذين يمثلون الجمهور كانوا يهتفون باسم علي (ع) ، والمترفون وأصحاب الامتيازات والاطماع والامويون يهتفون لعثمان ، وعمار بن ياسر والمقداد كادا ان يشتبكا مع ابن ابي سرح وعبد الله بن ربيعة المخزومي ، فقال سعد لعبد الرحمن : افرغ امرك يا عبد الرحمن قبل ان يقتتل الناس ، فعندها عرض على علي (ع) بالاضافة الى الشروط السابقة العمل بسيرة الشيخين ابي بكر وعمر فرفض علي (ع) وقال : اعمل بكتاب الله وسنّة نبيه وبرأيي فيما

---

١ ــ ويتصل حمزة بسعد بن ابي وقاص بامه هالة بنت اهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهالة هذه هي عمة سعد ، وقد اولدت لعبد المطلب بالاضافة الى الحمزة ام المقدم والمغيرة والعوام وسعد بن ابي وقاص هو ابن خال الحمزة بن عبد المطلب .

لا نص فيه من كتاب او سنّة ، فالتفت عبد الرحمن وعرض شروطه على ابن عفان فوافق عليها بلهفة ورغبة ، وكرر عبد الرحمن شروطه على امير المؤمنين لعلمه بأنه لا يقبل الشرط الاخير منها مهما كانت الظروف، فعرضها على عثمان فتقبلها فتمت لعثمان حسب التخطيط الذي اراده ابن الخطاب لها .

ولم ير امير المؤمنين وهنا عليه في ذلك ما دام يؤثر حرية رأيه وما يراه حقا على الدنيا وما فيها ولقد كان ابن عوف يعلم منه ذلك ولذلك عرض عليه الشرط الاخير بعد ان اتفق عليه مع سعد وابن مخرمة الزهري . لقد كان على بن ابي طالب المرجع الاول والاخير لابن ابي قحافة وابن الخطاب في كل ما يستعصي عليهما من مشكلات الامور ما يتعلق منها بأمور الدين والدنيا ، وقد اختلفا في سيرتهما وسياستهما وخالفا من سبقهما فبأي السيرتين اراد ابن عوف ان يلزم عليا ليدلي له بالبيعة ، وبأيهما كان عليه ان يقتدي والامور لديهما كانت تختلف حسب مصالحهما وحسب نظرتهما الى الامور والاحداث التي توالت عليهما في تلك الفترات من تاريخ الاسلام ، اقول ذلك وأنا على يقين بأن عليا لو وافقهما على الشرط الاخير لوضعا له شرطا آخر وهكذا حتى ينسحب منها وتتم لابن عفان بلا منازع .

ومضى علي (ع) بعد انتهاء تلك المسرحية ولم يعارض كعادته مع الخليفة الراحل ولكنه قال كما جاء في بعض المرويات :

نحن اهل بيت النبوة ومعدن الحكمة أمان لاهل الارض ونجاة لمن طلب، ان لنا حقا ان نعطه اخذناه وان نمنعه نركب اعجاز الابل (١) .

والتفت الى ابن عوف وقال : ليس هذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليته الامر الا ليرده

---

١ ــ اي نكون تبعا لغيرنا .

عليك ، وفي رواية ثانية: لقد رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه[1] وأضاف الى ذلك : دق الله بينكما عطر منشم .

ولقد قال ابو هلال العسكري في كتابه الاوائل : ان الله استجاب دعاء علي (ع) في عبد الرحمن وعثمان بن عفان ، فما ماتا الا متهاجرين متباعدين ، وأرسل اليه عبد الرحمن يعاتبه على سوء تصرفاته وما احدثه من البدع والمنكرات فازداد الامر بينهما بعدا وسوءاً .

وجاء في شرح النهج ان عثمان بن عفان لما بنى قصره طمار الزهراء وضع طعاما كثيرا ودعا الناس إليه كان فيهم عبد الرحمن بن عوف ، فلما نظر الى البناء والطعام قال: يا ابن عفان لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك اني استعيذ بالله من بيعتك ، فغضب عثمان وقال لغلمانه : اخرجوه فأخرجوه وأمر الناس ان لا يجالسوه ، فلم يكن يأتيه احد الا ابن عباس فأخرجوه وأمر الناس ان لا يجالسوه ، فلم يكن يأتيه احد الا ابن عباس كان يأتيه فيتعلم منه الفرائض والقرآن ، ولما مرض عبد الرحمن مرضه الاخير عاده عثمان فلم يكلمه حتى مات كما يدعي الرواة [2] .

وانتهت قبيل مساء اليوم الثالث من الايام الثلاثة تلك المسرحية التي وضعها وخطط لها ابن الخطاب ومثلها ابن عوف ومن جمعتهم وايـــاه الاضغان والانساب والمصاهرة على هدف واحد وفاز سليل امية بالمجد الذي كان يحلم به اجداده قبل عشرات السنين وحاربوا من اجله الاسلام وظلوا يحاربونه بضراوة وحقد حتى ارغموا على الاستسلام له فأظهروه على ألسنتهم ينتظرون الظروف والمناسبات ، ولما تم لهم ذلك بمشيئة ابن الخطاب التفوا حول ابن عفان كالسوار وانطلقوا به يزفونه خفافـا وكأنهم يسيرون على الهواء العاصف ، وطغت عليهم نشوة الفرح بعد

---

١ ــ يشير بذلك الى بيعة عمر يوم السقيفة لابي بكر فلقد بايعه ليكون الامر له من بعده .

٢ ــ جـ١ ص ٦٦ .

الهزائم المريرة التي مني بها هذا البيت من عهد هاشم وتوالت في معارك الاسلام التي سالت فيها دماؤهم بيد واترهم بأشياخهم علي بن ابي طالب. وحين دخلوا به المسجد اقبل زعيمهم ابو سفيان يتلمس طريقه بعد ان شاخ وفقد ناظريه ليعبر عن مشاعره التي سيطرت عليه وأفقدته وعيه ، وتوجه نحو بني أمية منفرج الفم عن بسمة الشامت الحقود التي لم ينفرج عن مثلها شدقه الا يوم وقف على جسد الحمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد الاسلام وزوجته هند تعبث بأحشائه وجوارحه بأسوأ مما تعبث الوحوش الضارية في فريستها ، فانفرج شدقه يوم ذاك عن مثل تلك البسمة ووضع الرمح في الجسد الطهور واتكأ عليه وهو يقول : ذق عقق ذق عقق ، ثم قال لقومه الذين سيطر عليهم الفرح وأعماهم حتى عن الناس الذين كانوا يراقبون كل تصرفاتهم : أفيكم احد من غيركم ؟ قالوا : كلا ، فنصب قامته التي كان قد طواها عمره الطويل واستعاد احلام شبابه وطموح اسلافه ، ونسي انه كان قد أقر بلسانه يوم ارغم على الاسلام بنبوة محمد وبكل ما جاء به ﷺ فقال تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة فوالذي يحلف به ابو سفيان ما من جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب ، ولقد كنت ارجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة ، ولم يقف عند هذا الحد بل قام من مجلس الخليفة الجديد يقوده غلامه وهو يتمايل عن تيه وخيلاء وأمر غلامه ان يسير به الى خارج المدينة والغلام لا يعلم الغاية من ذلك ، ومضى به الغلام باتجاه جبال احد حتى انتهى الى مقبرة المسلمين ﷺ فقال الغلامه دلني على قبر الحمزة بن عبد المطلب وانفرج فمه عن اخبث بسمة تستطيع ان تصوغها شفتاه ثم قال : يا ابا عمارة ان الذي اجتلدنا عليه بالسيف امسى بيد غلماننا يتلعبون به ، وركل القبر برجله ومضى وهو يحسب انه قد اصاب ثاره وثارات اسلافه الاولين من هاشم وبنيه هذا اليوم .

وانطوى علي (ع) على نفسه كما فعل من قبل وآثر هو ومن معه من

المؤمنين بالله وبمحمد بن عبد الله وبما جاء به من عند الله الذين وهبوا حياتهم للحق والعمل لخير الناس لا يخشون بطش الظالمين ولا سيوفهم المسلولة على من ينكر عليهم سوء صنيعهم واستئثارهم بخيرات البلاد وأموال الفقراء والمساكين .

لقد وقف علي (ع) بين تلك الجماهير التي احتشدت في ذلك اليوم يخاطبهم بالمنطق السليم الذي اعتاد ان يخاطب به الناس ، ليكشف لهم الخط الذي سيمضي عليه في هذا العهد الجديد ، فقال : ايها الناس لقد علمتم اني أحق الناس بهذا الامر من غيري ، اما وقد انتهى الامر الى ما ترون فوالله لاسالمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة التماسا لاجر ذلك وفضله وزهدا فيما تنافستموه من زخرفة .

وهكذا سالم امير المؤمنين (ع) وبايع لعثمان كما بايعه الناس ومضى في السبيل الذي اختاره لنفسه يعمل ما وسعه العمل في سبيل الصالح العام لا يبخل عليهم بآرائه ولا بكل امكانياته اذا ارادوها في سبيل الاسلام وانتشاره كما سالم وساير ونصح من كان من قبله .

ولكن الخليفة الجديد ابى هو وطغمته المحدقون به من بني أمية ان يسيروا حتى بسيرة من تقدمهم ومهد لهم الطريق ، فاستأثروا بالاموال والمراكز وجميع خيرات البلاد وكأنها ارث لهم من أمية وعبد شمس يكضمون مال الله كضم الابل نبتة الربيع كما وصفهم امير المؤمنين (ع) في اخريات ايامه حيث قال في خطبته المعروفة بالشقشقية ، الى ان قام ثالث القوم نافجا حضنيه مفترشا ذراعيه بين نثيله ومقلفه ، وقام معه بنو ابيه يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع الى ان انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته .

لقد اوجز امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) مصير الخلافة الى ابن عفان وكيف تعثرت سياسته حتى انتهى الامر الى اسرته وبقي هو

مسلوب الارادة لا يملك منها الا ان يأكل ويشرب وهم يعبثون ويفسدون ويخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع الى ان انتفضت عليه الامة وسارت الامور الى النهاية التي لقي فيها مصرعه .

وحسبما يروي المؤرخون لقد حذره ابن الخطاب من سياسته تلك قبل ان يصل اليها ، وقال له : كأني بك وقد قلدتك قريش هذا الامر فحملت بني أمية وبني ابي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك .

وقد اوجز بعض المؤرخين ابرز ما ارتكبه هو وبنو امية من الاعمال والمنكرات ، فقال : لقد اوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع ، وافتتحت ارمينية في زمانه فأخذ الخمس كله ووهبه لمروان فقال عبد الرحمن بن جنيد الجمحي :

احلف بالله رب الانام ... ما ترك الله شيئا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلي بك او تبتلى
وأعطيت مروان خمس البلاد ... فهيهات سعيك فيمن سعى

وطلب منه عبد الله بن خالد بن اسيد حلة فأعطاه اربعمائة الف درهم ، وكان اشد مما وجه الانظار اليه وأثار غضب المهاجرين والانصار ان افتتح خلافته بارجاع الحكم بن ابي العاص وبنيه وأسرته الى المدينة بعد ان طردهم رسول الله منها ولم يقبل بهم شفاعة احد ابدا ، كما رفض الشيخان ابا بكر وعمر ارجاعهم اليها وشفاعة المتشفعين بهم .

وكان الحكم مؤذيا لرسول الله يشتمه ويسمعه ما يؤذيه ، وفيما كان رسول الله يمشي ذات يوم والحكم يمشي من خلفه يغمز به ويحكيه في حركاته ومشيته مستهزئا ويخلج بأنفه وفمه ، واذا صلى قام خلفه مشيرا اليه بأصابعه ، فالتفت اليه يوما فوجده يخلج بأنفه وفمه فقال : كن كذلك ، فبقي على حالته تلك كالمخبول .

وقد اظهر الاسلام هو وولده يوم الفتح وقدم المدينة بعده وكان

مطعونا في دينه ، واطلع على رسول الله يوما وهو في بعض حجـــر نسائه ، فخرج اليه بعنزة وقال : من عذيري من هذه الوزغة اللعين لو ادركته لفقأت عينيه ، والله لا يساكنني وولده في بلد واحد ، وأخرجهم جميعا الى الطائف في موضع يقال له (بطن وج) كما جاء في انســاب الاشراف للبلاذري ، وأضاف الى ذلك انه لم يزل خارج المدينة الى ان استخلف عثمان فرده وولده وكان ذلك مما أنكره المسلمون ، ولما مات في خلافة عثمان ضرب عليه فسطاطا فقال عبد الرحمن بن حسان بـن ثابت لمروان :

ان اللعين اباك فارم عظامـــه ان ترم ترم مخلجا مجنونـــا
يضحي خميص البطن من عمل التقى ويظل من عمل الخبيث بطينـا

وقال الاستاذ الخطيب في كتابه علي بن ابي طالب : لما رده عثمان الى المدينة انكر عليه المسلمون ذلك ثم ولاه صدقات قضاعـــة فبلغت ثلاثمائة الف درهم فوهبها له ، ومضى يقول : ان رسول الله كان يوم فتح مكة قد اهدر دمه وعفا عنه بشفاعة عثمان ، ولكنه هاجر الى المدينة ليكيد لرسول الله (ص) وأخرجه من المدينة بعد ان ظهر من حاله مـا ذكرنا وقال : والله لا يساكنني ولا ولده ، وبالرغم من ان عثمان قـد توسط له عند ابي بكر وعمر فلم يقبلا وساطته وقال كل منهما : ما كنت لآوي طريد رسول الله .

وقال ابن ابي الحديد في شرح النهج : ان رسول الله تصدق بموضع سوق في المدينة يعرف بنهرون على المسلمين فأقطعه ابن عفان الى الحرث ابن الحكم شقيق مروان ، واقطع مروان فدكا وكانت لفاطمة الزهراء ، وقد اخذت منها بعد وفاة ابيها وطلبتها فردوا طلبها ودفعت عنها ، وحمي المراعي حول المدينة كلها ومنع عنها مواشي المسلمين ، وأباحها لمواشي بني أمية ، وأعطى عبد الله بن سرح وهو اخوه من الرضاعة جميع ما افاء

الله عليه من فتح افريقيا بالمغرب وهي من طرابلس الغرب الى طنجة من غير ان يشركه فيه احد من المسلمين على حد تعبير ابن ابي الحديد وغيره من المؤرخين .

وعبد الله بن سرح كان قد اسلم قبل الفتح وهاجر الى المدينة فكتب الى رسول الله برهة من الزمن ، ثم ارتد مشركا وعاد الى مكة يحدث قريشا الكذب على رسول الله ويقول لهم : اني كنت اصرف محمدا حيث اريد وكان يملي عليّ من قرآنه عزيز حكيم ، فأقول عليم حكيم فيقول: نعم كله صواب ، ويملي عليّ لعنة الله على الكافرين فأكتبها على الظالمين ، فأنا اقول كما يقول محمد وآتي بمثل ما يأتي به ، فأنزل الله فيه كما جاء في انساب الاشراف ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، او قال اوحي الي ولم يوح اليه شيء ، ومن قال : سأنزل مثل ما انزل الله ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .

ولما كان عام الفتح اهدر رسول الله دمه فيمن اهدر دماءهم من المشركين والمنافقين وقال من دخل دار ابي سفيان فهو آمن غير عدو الله عبد الله بن سرح ، فتشفع فيه عثمان وكان اخاه من الرضاعة وألح على رسول الله في طلبه فسكت رسول الله ، فانطلق به عثمان الى النبي فصرف وجهه عنه ثلاث مرات وعثمان يلح في طلبه ، وأخيرا لم يزد رسول الله على قوله نعم فانصرف به عثمان ، فقال النبي لمن حوله من المسلمين : اما كان فيكم من يقوم الى هذا الكلب ويقتله ، واني ما سكت الا ليقوم احدكم اليه فيقتله قبل ان أؤمنه ، فقال له احدهم : لو اومأت الينا قتلناه ، فقال : اني لا اقتل بالاشارة ، وان الانبياء لا يكون لهم خائنة الأعين .

ولما تولى ابن عفان الخلافة ولاه على مصر سنة خمس وعشرين من

الهجرة وبقي عليها الى سنة اربع وثلاثين حيث ثار عليه محمد بن ابي حذيفة بن عتبة فذهب ابن ابي سرح الى عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان . ويذهب بعض الرواة الى انه مات بافريقية .

لقد وصفه النبي (ص) بعداوته لله ورسوله وأمر بقتله ولو وجد متعلقا بأستار الكعبة ولائذا بها ، وفي ذلك دلالة على انه لن يكون من المؤمنين ابدا ولو تزيى بزي المسلمين ولبس لباس القديسين وظل حتى النفس الاخير من ألد الاعداء لله ورسوله كما اخبر عنه الصادق الامين [1] .

ومضى ابن ابي الحديد في شرحه لفقرات الشقشقية يقول : وأعطى ابا سفيان بن حرب مائتي الف من بيت المال في اليوم الذي امر فيه لمروان بمائة الف ، وكان قد زوجه ابنته ام ابان ، فجاءه زيد بن ارقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى ، فقال له : أتبكي ان وصلت رحمي ، فقال : لا ولكني ابكي لاني ظننت انك اخذت هذا المال عوضا عما كنت تنفقه في حياة رسول الله ، والله لو اعطيت مروان مائة درهم لكان كثيرا عليه ، فقال له : الق المفاتيح يا ابن ارقم فإنا سنجد غيرك .

وأتاه ابو موسى بأموال كثيرة من العراق فوزعها كلها على بني أمية، وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة وأعطاه مائة الف من بيت المال بعد ان صرف عنه زيد بن ارقم ، وهكذا اصبحت مقدرات الامة بيد شيوخ الامويين وغلمانهم يتلاعبون بها بلا حسيب ورقيب ، فمروان ابن الحكم في المدينة وأبوه واخوته بيدهم ادارة الامور ومنهم تصدر

---

١ ــ انظر المجلد الاول من انساب الاشراف ص ٣٥٣ وعلي بن ابي طالب لعبد الكريم الخطيب .

المراسيم للداخل والخارج ، ومعاوية على بلاد الشام وابن ابـي سرح الذي انزل الله فيه ومن اظلم ممن افترى علي كذبا على مصر طيلة ثماني سنوات او تزيد ، والوليد بن عقبة على الكوفة ، وقد تعاقب عليهـا منذ تأسيسها وتمصيرها جماعة من اجلاء الصحابة كعمار بن ياسر وابن مسعود وسلمان الفارسي وابن ابي وقاص وغيرهم الى ان جاء دور عثمان فولاها للوليد بن عقبة ، وكان يعرف هو واخوته بصبية النار ، وقـد ذكرنا مصدر هذه التسمية في كتابنا سيرة المصطفى .

وعقبة بن ابي معيط كان جده ابن ابي عمرو عبدا لامية بن عبـد شمس ثم تبناه وتزوج من اروى بنت كريز فأولدها الوليد وخالد وعمارة وأم كلثوم ، وبعده تزوجها عفان فأولدها عثمان ، وكان عقبة جـارا لرسول الله في مكة ويكثر مجالسته ومعشره وأسلم في السنين الاولى لبعثة النبي ، وجاء في سبب اسلامه انه صنع طعاما ودعا اليه رسـول الله (ص) فأبى ان يأكل منه الا اذا نطق عقبة بالشهادتين ، فنطق بهما ، فأكل رسول الله (ص) ولما بلغ قريشا ان عقبة قد اسلم قالت : لقـد صبا عقبة ، وكان له صاحب غائب عن مكة فلما عاد اليها وأخبر باسلامه أعرض عنه وقاطعه ، فأتاه عقبة بن ابي معيط وسلم عليه فلم يرد عليـه فألح عليه ابن ابي معيط ، فقال له لا ارد عليك تحيتك وقد صبوت ، فقال افعلتها قريش فما يبرىء صدورهم اذن ، قال تأتيه وتبزق في وجهه وتشتمه بأقبح ما تعلم من الشتم ، ففعل عقبة مع النبي (ص) ذلك ، فلم يزد رسول الله على ان مسح وجهه ، ثم التفت اليه وقال : ان وجدتك خارجا من مكة سأضرب عنقك .

ومضى عقبة في جحوده وموقفه المتصلب من الاسلام وايذائه للنبي وبلغ من امره انه كان يأتي بالفرث والنفايات فيطرحها على باب رسول الله وفيه نزلت الآية :

يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ،

يا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا .

وروى البلاذري في الانساب : ان النبي (ص) لما هاجر الى المدينة قال عقبة يخاطب النبي :

يا صاحب الناقة القصواء هاجرنا عما قليل ترانـي راكب الفرس
اعلى رمحي فيكم بعد تهلتـه والسيف يأخذ منكم كل ملتمس

وقد خرج مع المشركين الى بدر ووقع اسيرا بيد المسلمين فلما امر بقتله قال من للصبية يا رسول الله ؟ قال: النار، فلذلك سمي صبية بني ابي معيط صبية النار .

وجاء في انساب الاشراف عن عامر الشعبي ان رسول الله قال لعقبة بعد ان وقع اسيرا في ايدي المسلمين : والله لاقتلنك ، فقيل له اتقتله من بين الاسرى من قريش ؟ فقال : نعم ، لقد بلغ به العداء لله انه وطيء على عنقي وأنا ساجد فما رفع رجله حتى ظننت ان عيني قد سقطتا ، وجاء يوما بسلا شاة وأنا ساجد فألقاه على رأسي .

وابنه الوليد شقيق عثمان لأمه قد نشأ في أحضانه ومن بعده في أحضان الامويين وتأثر بتلك الروح التي لم تكن تعرف الروح العربية ألأم وأخبث منها ، وهو من الطلقاء الذين اسلموا مع من اسلم من هذا البيت يوم الفتح مكرها كأبي سفيان وغيره ، وبالرغم من ان النبي (ص) كان يتألفهم ويحسن اليهم ويعهد اليهم في بعض الاعمال على امل ان يخففوا مما يضمرونه للاسلام من حقد وكراهية ، فقد كانوا يتحينون الفرص والمناسبات لاظهار ما تنطوي عليه نفوسهم من كراهية للاسلام .

فقد روى ابن الاثير عن عبد الله بن الزبير انه قال : كنت باليرموك وأنا شاب لا اقاتل فلما اقتتل الناس نظرت الى ناس على تل لا يقاتلون فركبت وذهبت اليهم واذا ابو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من

مهاجرة الفتح فرأوني حدثا فلم يتقوني فجعلوا والله اذا مال المسلمون وركبتهم الروم يقولون إيه بني الاصفر ، فاذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا ويح بني الاصفر ، فلما هزم الله الروم اخبرت ابي فضحك وقال : قاتلهم الله ابوا الا ضغنا لنحن والله خير لهم من الروم [1] ولقد تولى الوليد بن عقبة جباية صدقات بني المصطلق للنبي (ص) ، فعاد الى المدينة وأخبر النبي بارتدادهم زورا وكذبا ، فأرسل النبي (ص) سرية من المسلمين لاستطلاع الحال ومساعدته على جباية الصدقات فلما وصلوا اليهم وجدوهم على الاسلام كما تركهم النبي لم يغيروا شيئا وبهذه المناسبة نزلت الآية كما يدعي المحدثون :

يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين .

وكما ذكرنا فلقد احاط الوليد وزمرته من الامويين بعثمان واستغلوا خلافته لصالحهم ، وكان الأمير على الكوفة خلال السنتين الاوائل من خلافته سعد بن ابي وقاص ، فطمع فيها الوليد بن عقبة الذي سماه الله بالفاسق كما في الآية الكريمة ، وظل يتلطف بأخيه عثمان حتى عزل عنها ابن ابي وقاص وولاه عليها .

وقال صاحب الاغاني انه لم يكن يجلس مع عثمان على سريره الا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب والحكم بن العاص طريد رسول الله والوليد بن عقبة ، فأقبل الوليد يوما فجلس ، ثم اقبل الحكم

---

١ ــ ما اشبه موقفه هذا بموقفه في معركة حنين يوم كانت الجولة الاولى لصالح هوازن وأحلافها وقد تفرق المسلمون عن النبي (ص) ولم يبق معه سوى علي ونفر من بني هاشم فانفرج شدقه عن بسمة الشامت واخرج صنمه من جيبه وقال واللات : لا تنتهي بهم الهزيمة دون البحر كما روى ذلك اكثر المؤرخين .

فلما رآه عثمان تنحى له وأجلسه في محله ، فلما قام الحكم قال الوليد لأخيه عثمان : يا امير المؤمنين لقد تلجلج في صدري بيتان قلتهما حين رأيتك آثرت عمك على ابن امك ، فقال له عثمان : انه شيخ قريش فما هما البيتان اللذان قلتهما ؟ قال لقد قلت :

رأيت لعم المرء زلفى قرابـــة ... دوين اخيه حادثا لم يكن قدما
فأملت عمرا ان يشب وخالـدا ... لكي يدعواني يوم مرحمة عمـا

وعمرو وخالد ولدان لعثمان بن عفان فما مضت ايام حتى ارسله واليا على الكوفة وعزل عنها سعدا ، ويدعي الرواة ان الوليد حين بلغ الكوفة واليا عليها لاخيه عثمان ودخل على سعد بن ابي وقاص قال له : والله لا ادري اكست بعدنا ام حمقنا بعدك ، قال له ذلك لان الوليد كان معروفا لدى عامة المسلمين بالاستخفاف والاستهتار بالدين وكانـوا يسمونه الفاسق ، فقال له الوليد : لا تجزعن يا ابا اسحاق انه الملـك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون ، ورأى المسلمون استبدال سعد بن ابـي وقاص وهو من الصحابة البارزين بالوليد بن عقبة الفاسـق الفاجر ، الذي يبقى تائها من السكر في اكثر اوقاته ، حدثا من الاحـداث الخطيرة التي لا يجوز السكوت عليها لاسيما وقد ظهر امره في الكوفة واشتهر في فسقه وفجوره بين اهلها .

وروى اليعقوبي في تاريخه ان الوليد صلى بالناس الصبح اربـع ركعات ثم تهوع في المحراب ، والتفت الى من كان خلفه مـن المصلين وقال : ازيدكم ان شئتم ، وجلس يوما في المسجد ومعه ساحر يستعمل الشعوذة ويفعل الاعاجيب فاجتمع الناس عليه حتى كاد ان يفسد علـى الناس عقائدهم فقام اليه رجل من الازد يقال له جندب بن كعب ، وأخذ سيفا وتستر بالناس حتى دنا منه وضرب عنقه وقال له : احي نفسك ان كان ما تفعله حقا ، فأغضب ذلك الوليد، وأراد ان يقتل الازدي بالساحر لولا ان قبيلته حالت بينه وبين ذلك فوضعه في حبسه ، ولما رآه آمر

السجن منصرفا الى العبادة في ليله ونهاره اطلقه من سجنه ، فذهب الى المدينة وأخبر اهلها باستهتار الوالي وبما جرى له ، فأخذ الوليد آمر السجن وضربه مائتي سوط لانه اطلق العبد الصالح من سجنه ، فضج اهل الكوفة من كثرة منكراته وسوء تصرفاته ، فكتبوا الى عثمان بن عفان في امره فأبى ان يعزله وأخيرا لما توالت عليه الوفود وشاع امره في بقية المقاطعات الاسلامية عزله عنها وولاها امويا آخر هو سعيد بن العاص ، وولى الوليد صدقات كلب وبلقين كما نص على ذلك اليعقوبي في تاريخه [1] .

وكان معاوية واليا له على الشام تولاها لابن الخطاب بعد اخيه يزيد ابن ابي سفيان ، ولعله كان اسوأ منهم جميعا من حيث نواياه السيئة التي كان يضمرها للاسلام ، في حين انه لم يكن في اكثر حالاته عنيفا في سياسته مع الناس ، فقد دله ذكاؤه ان يصطنع الحلم والرفق والجود وسعة الصدر احيانا لان هذا الاسلوب كان يقربه من الناس ويهيء له ما يريد من ملك وسلطان ، واذا عوتب على تبذير الاموال وشراء الضمائر والانصار بها يقول : ان الارض لله ونحن خلفاء الله في ارضه فما اخذناه من الاموال فهو لنا وما تركناه فهو جائز لنا .

وقد ورث معاوية من ابيه ابي سفيان وأمه هند بنت عتبة التي لم يعرف تاريخ المرأة نظيرا لها في شراستها وأنانيتها وقسوتها اكثر مزاياهما وخصائصهما بالاضافة الى ما في نفسه من مزايا قومه وآبائه الاولين وأظهرها حب الرياسة عن اي طريق كانت ، وكما ذكرنا لقد وجد في خلافة عثمان مجالا للعمل لنفسه ولاهل بيته واستطاع ان يحقق في ظل خلافته الكثير لصالح تلك الاسرة التي استقبلت فجرا جديدا من احلامها

---

١ ــ انظر ص ١٤٢ من المجلد الثاني طبع النجف .

في تلك الفترة من تاريخ الاسلام ، هذا والمسلمون والصفوة المختارة من الصحابة يراقبون ما يحدث من ابن عفان وولاته بمرارة وألم ، ويتعرضون للضرب والشتم والطرد منه ومن طغمته الفاسدة كلما استنكروا امرا او حاولوا الحد من تصرفاتهم ، فلقد روى اليعقوبي وغيره من المؤرخين ان عثمان بن عفان لما كلف زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث بجمع القرآن وكتابته بلغة قريش وأكملوا عملهم ارسله الى جميع المناطق التي كانت تخضع لحكم الاسلام وأمر ولاته ان يجمعوا المصاحف التي كانت في ايدي الناس ويحرقوها ، فباشر ولاته ذلك فور وصول الصورة التي جمعها الاربعة بلغة قريش على حد زعم الرواة ، فامتنع عبد الله بن مسعود من تسليم النسخة التي كانت بيده ، فكتب عبد الله بن عامر الى عثمان يخبره بذلك ، فرد عليه بكتاب يأمره فيه بأن يرسل ابن مسعود الى المدينة وعد ذلك جرأة عليه ، وكان مروان بن الحكم ومن معه من اسرته يدفعونه الى استعمال الشدة والقسوة وخنق جميع التحركات والاصوات التي كانت ترتفع من هنا وهناك منكرة اعمالهم وتصرفاتهم .

ولما وصله كتاب الخليفة امره ابن عامر بالذهاب الى المدينة فشد الرحال اليها وبعد ان وصلها دخل على عثمان وهو يخطب الناس في مسجد رسول الله (ص) فالتفت الى الناس وقال : لقد قدمت عليكم دابة سوء، وتكلم مع ابن مسعود وهو على المنبر بكلام اغلظ له فيه ، ثم اشار الى غلمانه ان يجلدوه ويجروه برجله الى خارج المسجد ففعلوا ذلك وكسروا ضلعا من اضلاعه ، واتبع هذه العقوبة بقطع العطاء عنه ، فأنكر المسلمون منه هذا التصرف الجائر مع صحابي من أجلاء الصحابة، وحتى عائشة اغضبها ذلك وأطلقت لسانها في عثمان وزمرته .

ومضى ابن مسعود الى بيته يكابد الآلام والمتاعب التي ألمت بجسمه

النحيل الذي انهكته الشيخوخة وحطمته سياط العبيد ولكماتهم والكسور التي اصابت اضلاعه ، وظل يعاني من ذلك حتى اعتل وأنهكه المرض وانقطع الامل من ذويه بشفائه فخف عثمان لعيادته ، وجعل يعاتبه ويقول : لقد بلغني عنك كلام كثير . فرد عليه ابن مسعود بصوته الضعيف : لقد امرت غلمانك وعبيدك ففعلوا بي ما فعلوا وكسروا اضلاعي حتى لم اعد افرق بين صلاة الظهر وصلاة العصر ولا أعقل مواعيدها ، وانتهى حالي الى ما ترى .

فقال له وكأنه يريد ان يواسيه ويكفر عن سوء عمله : ما تشتكي يا ابا عبد الرحمن ، فرد عليه بصوت هادىء وحرف وجهه عنه : لا اشتكي غير ذنوبي ولا اشتهي غير رحمة ربي ، فقال له عثمان : ألا ادعو لك طبيبا ، فقال: الطبيب امرضني ، ومضى يحاول معه ان يتدارك ما سبق منه ، فقال له اني اقيدك من نفسي ، فافعل بي مثل ما فعلته بك ، فقال : اترك ذلك لمن هو اشد نقمة وأعظم نكالا ، وما كنت بالذي افتح باب القصاص على الخلفاء ، ثم قال له عثمان : أفلا امر الك بعطائك ؟ فرد عليه : لقد منعتنيه يوم كنت محتاجا اليه ، وتعطينيه اليوم وأنا مستغن عنه لا حاجة لي فيه ، فقال له : يكون لولدك من بعدك ، فأجابه بلغة الواثق المطمئن بما وعد الله عباده الصابرين المظلومين ، ان الذي خلق اولادي سيرزقهم ويغنيهم عنك وعن غيرك ، وعاد عثمان يسأله ان يكون في حل مما اصاب منه ، فأبى عليه ذلك وسأل الله ان يأخذ له بحقه منه، فانصرف عنه خائبا .

وظل ابن مسعود يعاني مما اصابه حتى لحق بربه فصلى عليه عمار بن ياسر ودفنه وعثمان غائب عن المدينة كما جاء في بعض المرويات ، وفي رواية اخرى انه اوصى ان لا يحضر جنازته عثمان بن عفان ، وتوفي بعده المقداد بن الاسود فصلى عليه عمار بن ياسر ايضا ، ولما بلغ عثمان خبر وفاتهما وعلم ان عمارا صلى عليهما اشتد غضبه عليه وقال : ويلي

على ابن السوداء ، اما لقد كنت به عليما ، ولما استدعاه وسأله عما منعه ان يخبره بموته اجابه : لقد عهد الي ان لا اخبرك بموته وأن لا تصلي عليه كما جاء في انساب الاشراف والمجلد الاول من شرح النهج.

ويرى بعض المؤرخين ان الذي اغضب عثمان بن عفان على ابن مسعود ، ان ابن مسعود كان على بيت مال الكوفة فأخذ الوليد من بيت المال مبلغا وأبى ان يرده ، فلما ألح عليه ابن مسعود في ارجاعه كتب الوليد الى عثمان بذلك فكتب اليه انما انت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما اخذ من بيت المال فطرح مفتاح بيت المال وقال : كنت اظن اني خازن للمسلمين ، فأما اذا كنت خازنا لكم فلا حاجة لي في ذلك فكتب اليه الوليد انه يعيبك ويطعن عليك ، فكتب اليه يأمره باشخاصه الى المدينة ، فخرج من الكوفة مشيعا من اهلها ، ولما دخل على عثمان فعل به ما ذكرنا فأنكر عليه علي (ع) وجماعة من الصحابة الاخيار وكانت نهايته بسبب ذلك وراح عثمان بعد وفاته يترحم عليه ويقول لمن كان حاضرا : لقد رفعتم والله ايديكم عن خير من بقي منكم وغادر مكانه فقال الزبير :

لالفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

وهكذا كان عثمان يفعل مع كل من يشكو اليه عاملا من عماله او احد اقربائه ، وحتى من كان يخصه بالنصيحة ويرشده الى محاسن الامور حسبما يوصي اليه مروان بن الحكم ، لانه يعلم ان استجابة عثمان لنصيحة الناصحين لا بد وان تؤدي الى اقصائه واقصاء من لف لفه من بني أميه ، ولو انه استطاع ان يقطع ألسنة الناس ليأمن سماع ما كانت تفيض به النفوس من الشكوى والقلوب من المرارة لم يقصر ، ولكنه بدلا من ان يقطع الالسن استطاع ان يتصرف بعثمان كما يريد ويوجهه حيث يرضى ويغضب مهما كان الثمن الذي يدفعه عثمان غاليا.

لقد وجد المسلمون في المدينة ان ولاة عثمان وبنى امية لا يرعون

حرمة لاحد والامور تسير من سيء الى اسوأ بعد ان وجدوا ذلك اجتمع فريق منهم واستعرضوا الوضع العام على ضوء ما تقوم به بطانة عثمان من استهتار بالقيم ومخالفات لكتاب الله وسنّة رسوله وبعد التداول فيما يجب اتخاذه اتفقوا على ان يرفعوا كتابا لعثمان يتضمن صورة عن الاوضاع معززة بالارقام التي لا تقبل المراجعة ، وأرسلوا الكتاب اليه مع عمار بن ياسر ، فلما اتاه بالكتاب وقرأ شطرا منه قال له : ايـــن اصحابك الذين وقعوا الكتاب ؟ فقال : لقد تفرقوا خوفا منك ، فقال علي تقدم من بينهم ، فقال : لاني انصحهم لك ، فرد عليه عثمان بقوله : كذبت يا ابن سمية ، فأجابه عمار بن ياسر : والله انا ابن سمية وأبـــي ياسر ، فغضب ابن عفان من جوابه ، وكان مروان بن الحكم حاضرا ، فقال له : ان هذا العبد الاسود قد جرأ عليك الناس ، ولو قتلته هابك من وراءه ، فأقره على رأيه وتناول عصا فضرب بها عمار بن ياسر ، وأمر غلمانه فطرحوه وقام عثمان فرفسه برجليه على مذاكيره فأصيب بفتـــق ورضوض في بدنه فغشي عليه ، ثم امر غلمانه فأخرجوه من الـــدار وألقوه على جانب الطريق وهو غائب عن الدنيا ، فحمله جماعة مـــن المسلمين وأدخلوه الى بيت ام سلمة زوجة النبي (ص) ، وفاتته صلاة ذلك اليوم لانه بقي مغشيا عليه حتى انتهى النهار فأنكرت ام سلمة على عثمان هذا التصرف ، وأخرجت عائشة شعرة من شعر رسول الله ونعلا من نعاله وثوبا من ثيابه وقالت : ان شعر رسول الله لم يبلَ وان ثيابه لم تبلَ وقد ابلى جثمان سنته .

وجاء في رواية ثانية ان السبب الذي حدا بعثمان ان يصنع بعمـــار ذلك ، هو انه كان في بيت المال في المدينة سفط فيه حلي وجواهر فأخذ منه عثمان السفط وأعطاه لنسائه فأنكر المسلمون عليه هـــذا التصرف الذي لم يعهدوه من احد قبله فخطب الناس وقال : انا سنأخذ حاجتنـــا من هذا المال وان رغمت به انوف اقوام ، وكان امير المؤمنين (ع) ممن

انكر عليه ذلك ، فقال له : اذن تمنع منه ويحال بينك وبينه ، وقال عمار ابن ياسر : ان انفي اول راغم من ذلك ، فقال عثمان: أعليّ يا ابن ياسر تجترىء وأمر غلمانه فأخذوه ودخل عليه ابن عفان وهو مطـروح بين ايديهم فضربه حتى غشي عليه وأصابه فتق في بطنه ، ولما افاق بعد ان مضى شطر من الليل حمد الله وتذكر ابا جهل وآبا سفيـــان وأبا لهب وغيرهم من جبابرة قريش الذين آذوه وعذبوه لانه آمن برسالة محمد بن عبد الله ، وها هو اليوم يتعرض لسياط عثمان وجلاوزته للسبب نفسه الذي كانت تنهال عليه سياط اولئك من اجله .

لقد تذكر كل ما كان يلاقيه من جبابرة قريش في تلك اللحظـــات وقال : ليس هذا اول يوم اوذينا في الله ، وقد أحدث عمل عثمان ضجة في اوساط المسلمين على اختلاف طبقاتهم وقد سمعوا رسول الله يقول: عمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، ومن ابغض عمار بن ياسر فقد ابغض الله ، ان عمارا قد ملىء ايمانا الى اخمص قدميه ، طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية وهو مع الحق يدور معه كيفما دار الى كثير ممـــا سمعوه منه في عمار بن ياسر وآل ياسر واعتبروا ذلك تحديا لله ولرسوله وللعدالة التي ينادي بها صحابة الرسول الاوفياء لرسالتـــه ولتعاليمها ، وبخاصة اولئك الذين رافقوها منذ البداية وتحملوا اشد انواع الاذى في سبيلها .

وتحركت العصبية في نفس هشام بن الوليد المغيرة الخزومي وكان عمار بن ياسر حليفا لبني مخزوم ، فاندفع نحو عثمان ثائرا لحليفـــــه القديم وهو يقول : اما عليا فقد اتقيته واجترأت علينا فضربت اخانا حتى اشفيت به على التلف ، اما والله لئن مات لاقتلن به رجلا من بني أمية عظيم الشأن ، فقال له عثمان : وانك ههنا يا ابن القسرية ، قال فانهما قسريتان ، وكانت ام هشام وجدته قسريتين من بجيلة [1] .

---

١ ــ انظر شرح النهج جـ١ ص ٢٣٩ .

وليس موقفه من عمار بالمرة الاولى ، بل اجترأ عليه مرة من قبلها في حياة النبي (ص) فلقد حدث الرواة ان النبي (ص) لما شرع في بناء مسجده كان عمار وجميع المسلمين يعملون وعلي يرتجز ويقول :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه عمار بن سر وجعل يرددها فظن ابن عفان انه يعرض به كما صرح بذلك المعلق على سيرة ابن هشام ، فقال له : لقد سمعت ما تقول يا ابن سمية ، والله اني سأعرض هذا العصا لانفك ، وكان في يده عصا يعبث فيها ، فلما سمع رسول الله ذلك من عثمان قال : ما لهم ولعمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ان عمارا جلدة ما بين عيني وأنفي .

لقد اضاف المسلمون هذا الحدث العظيم الذي ارتكبه الخليفة مع عمار بن ياسر الى أحداثه الكبار التي لم تكن خلافته لتخلو منها يوما من الايام بالرغم من نصح الناصحين الذين كانوا يحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة ، ويناشدونه الرجوع عن هذه السياسة التي ستفجر الجماهير عليه ان هو استمر عليها ، ولم يكن عمار بن ياسر وغيره ممن وهبوا انفسهم لله ونصرة الحق والعدالة لترهبهم سياط عثمان وغلمانه الجفاة الطغاة ، وما هي بأشد وأوجع من سياط ابي سفيان وأبي جهل التي كانت تنهال عليهم ليكفروا بمحمد ورسالته ، ولكنهم صبروا وانتصروا على ابي جهل وأبي سفيان وطواغيت قريش وانتصر محمد وانتصرت رسالته ، وسينتصرون اليوم كما انتصروا بالامس .

موقف ابي ذر الغفاري من عثمان وحاشيته

لا اظن ان احدا مهما حاول تصوير موقف ابي ذر من حكام زمانه وموقفهم منه يستطيع ان يأتي بصورة اكثر عطاء وأوجز من الصورة التي صوّر فيها الموقفين امير المؤمنين (ع) حينما خرج لوداعه في كلماته القصار التالية :

يا ابا ذر انك غضبت الله فأرج من غضبت له ، ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في ايديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما احوجهم الى ما منعتهم وما اغناك عما منعوك لا يؤنسنك الا الحق ولا يوحشنك الا الباطل فلو قبلت دنياهم لاحبوك ولو قرضت منها لامنوك .

لقد دخل ابو ذر في الاسلام في مطلع الدعوة ورافق جميع تطوراتها وتحمل من اعبائها بمقدار نصيبه منها فكان في الطليعة بين انصارها ومن المقربين الى صاحبها لاخلاصه وصدقه وتفانيه في سبيل الله ، وقال فيه رسول الله (ص) : ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء أصدق لهجة من ابي ذر ، وقال له في غزوة تبوك وقد تخلف به بعيره، ولحق بالنبي (ص) بعد يأس من بعيره ، وقد رآه يجدّ السير حاملا

متاعه على كتفه : يا ابا ذر تعيش وحدك وتحشر وحدك ويسعد بك قوم من اهل العراق يتولون غسلك ودفنك .

وظل بعد وفاة النبي (ص) وفيا للاسلام وحماته حريصا على تنفيذ تعاليمه لا يأنس الا بالحق وأهله ولا يستوحش الا من الباطل ودعاته يقتفي اثر علي (ع) في جميع اموره ويناصر المظلومين والمضطهدين لم ترهبه سطوة الجبابرة وسياطهم ولم يلن وينحن للعروض والمغريات على ضخامتها .

لقد سمع من خليفة المسلمين وهو يحكم مركزه الامين على اموال العباد وخيرات البلاد ليسلمها الى اهلها سمعه يقول لخازن بيت المال : انما المال مالنا والفيء فيؤنا فمن شئنا اعطيناه ومن شئنا منعناه ، ورأى الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وابن ابي سرح وأمثالهم من الطغاة يعيثون ويفسدون ويستهترون بالقيم والدين وبكل ما جاء به الاسلام لا يرعون حرمة لاحد ولا شرفا لعرض ، ويتمتعون بالحصانة التي تحميهم من غضبة الشعوب لانهم من الاسرة الحاكمة ، ورأى مع ذلك كله التفاوت الطبقي والروح القبلية والعنصرية الجاهلية التي حاربها الاسلام ، ولم يعد لاحد من المسلمين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم مكان بين الطبقة الحاكمة الا اذا كان بطانة او تابعا يسير في ركابهم ، ولم يعد فرق في عهد عثمان بين الدولة التي اسسها محمد بن عبد الله وشقت طريقها الى القلوب والنفوس بأنظمتها التي تحفظ لكل انسان حقه في الحياة كاملا غير منقوص وتحارب الاستغلال وجميع الامتيازات التي كانت تحمي الجبابرة والطغاة، ولا تفضل احدا على احد الا بالتقوى والعمل الذي ينفع وان اسود لون العامل وابيض لون الخامل المتكاسل، لم يعد فرق بين الدولة التي كان على رأسها عثمان ودولة ابي جهل وأبي سفيان والفرس والرومان .

كل ذلك قد كان في عهد عثمان وقد رآه ابو ذر كما رآه غيره ووقف

الى جانب غيره من الحريصين على مصلحة الاسلام يعملون بكل ما يملكون لتصحيح تلك الانحرافات فلم يجدوا من يصغي اليهم ولا من يسمع لهم فارتفع صوت ابي ذر مدويا عاليا في انحاء الدولة ، والله اني لأرى حقا يطفأ وباطلا يحيا وصادقا مكذبا واثرة بغير تقى وصالحا مستأثرا عليه ، فكان جزاؤه الضرب والشتم والتشريد .

ويروي المؤرخون ان من جملة الاسباب التي اثارت غضب عثمان على ابي ذر بالاضافة الى تصريحاته وثورته على الباطل وأهله ، ان عثمان بن عفان لما اعطى مروان بن الحكم وغيره من بني العاص وبني امية ما في بيت المال من الاموال وخص زيد بن ثابت بشيء منها ثار ابو ذر وجعل يقول كلما رأى جماعة من الناس :

بشر الكافرين بعذاب أليم .

ويتلو قوله تعالى :

والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم .

فأرسل اليه عفان مولى من مواليه وطلب منه ان يسكت ولا يعود لمثل ذلك ، فقال له ابو ذر رحمه الله أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك امر الله ، فوالله لان ارضي الله بسخط عثمان احب الي وخير لي من ان اسخط الله برضا عثمان وأصر على موقفه منه ومن اسرته ، فأغضب ذلك عثمان وراح يفكر ماذا يصنع به وقدر انه اذا قتله او حبسه ستتسع النقمة عليه ويتطور الامر بينه وبين الصحابة الى ما لم يعد بالامكان تلافيه ، وفي نفس الوقت لم يعد بامكانه ان يتركه بالمدينة لان بقاءه بها قد يفجر الوضع لغير صالحه ، فأرسل اليه وقال : لقد كثر اذاك لي ولاصحابي ، اخرج عني الى الشام فأخرجه اليها ليكون تحت رقابة معاوية وأوصاه بالشدة عليه ومراقبة جميع تصرفاته ، وفي الشام انكر على معاوية بذخه واسرافه ، فبعث اليه معاوية ثلاثمائة دينار ،

فقال لرسوله : اذا كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا اقبلهـا وان كانت صلة لا حاجة لي بها وردها عليه .

ويروي ابن الاثير انه ارسل اليه الف دينار فأنفقها ابو ذر علـى الفقراء في صبيحة الليلة التي قبضها فيها ، فلما صلى معاوية صـلاة الصبح دعا رسوله الذي ارسل معه الدنانير وقال له : اذهب الى ابي ذر وقل له انقذ جسدي من عذاب معاوية فانه ارسلني بالمبلغ الى غـيرك واني اخطأت بك ، ولما ذهب اليه ، قال له ابو ذر : اذهب اليه وقل له ما بقي عندنا من دنانيرك شيء ولكن اخرنا ثلاثة ايام حتى نجمعها لك ، فرجع اليه وأخبره بمقالة ابي ذر رحمة وظل ابو ذر على موقفه المتصلب من معاوية وبذخه واسرافه فكتب الى عثمان يخبره بمواقـف ابي ذر ويحذره من الاخطار التي ستنجم عن بقائه في الشام .

ولما بنى معاوية قصره الخضراء جاءه ابو ذر ، وقال له : يا معاوية ، ان كانت هذه من مال الله فهي الخيانة وان كانت من مالك فهـو الاسراف . ولم يزل على موقفه الذي كان عليه في المدينة . فقال حبيب ابن مسلمة الفهري لمعاوية : ان ابا ذر سيفسد عليك الشام فتدارك الامر ان كان لك فيه حاجة .

وجاء في شرح النهج عن الجاحظ عن رجل من بني غفار انه قال : كنت عاملا لمعاوية على قنسرين والعواصم فجئت يوما فسمعت صارخـا على باب داره يقول : اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له ، اللهـم العن الناهين عن المنكر الفاعلين له فاربد معاوية وتغير لونه وقال : يـا جلام ، أتعرف هذا الصارخ قلت اللهم لا ، قال من عذيري من جندب بن جنادة يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت ، ثم قال ادخلوه علي فجيء به بين قوم يقودونه حتى وقف بين يديه . فقال له معاوية : يا عدو الله وعدو رسوله تأتينا كل يوم فتصنع ما تصنع ، اما اني لـو كنت قاتل رجل من اصحاب محمد بغير اذن امير المؤمنين لقتلتك، ولكني

استأذنه فيك .

قال جلام الغفاري : وكنت احب ان ارى أبا ذر لانه من قومي ، فالتفت اليه واذا هو رجل اسمر ضرب من الرجال خفيف العارضين محني الظهر . فأقبل على معاوية وقال ما انا عدو لله ولرسوله ، بل انت وأبوك عدوان لله ولرسوله اظهرتما الاسلام وأبطنتما الشرك ولقد لعنك رسول الله (ص) ودعا عليك مرات ان لا تشبع ، وسمعته يقول : اذا ولي الامة الاعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الامة حذرها منه . فقال معاوية : ما انا ذاك الرجل ، فقال ابو ذر : بل انت هو اخبرني بذلك رسول الله وسمعته يقول : وقد مررت به اللهم العنه ولا تشبعه الا بالتراب ، وسمعته يقول : است معاوية في النار . فضحك معاوية وأمر بحبسه وكتب الى عثمان يخبره بحاله ، فكتب اليه عثمان احمل جندب بن جنادة الي على اغلظ مركب واوعره ، فحمله معاوية على اسوأ حال وأمر من معه ان يسيروا به الليل والنهار حتى قدم المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد . ولما دخل على عثمان قال له : لا انعم الله بك عينا يا جنيدب ، فقال ابو ذر : انا جندب وقال سماني رسول الله عبد الله فاخترت اسم رسول الله الذي سماني به على اسمي ، فقال له عثمان : انت الذي تزعم انا نقول يد الله مغلولة وان الله فقير ونحن اغنياء ، فقال ابو ذر : لو كنتم لا تقولون ذلك لانفقتم مال الله على عباده ، وأنا اشهد اني سمعت رسول الله (ص) يقول : اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلا جعلوا مال الله دولا وعباده خولا ودينه دخلا ، فقال عثمان لمن كان حاضرا : اسمعتم ذلك من رسول الله ؟ فأنكروا سماعه ، فاستدعى عثمان عليا وسأله عما قال ابو ذر ، فقال امير المؤمنين (ع) اني لم اسمع ذلك من رسول الله ، ولكن ابا ذر صادق فيما يقول ، لاني سمعت رسول الله يقول فيه :

ما أظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر .

فقال كل من حضر :

اما هذا فقد سمعناه من رسول الله .

وروى الواقدي ان الحوار قد اشتد بين عثمان وأبي ذر الغفاري وحاول عثمان اسكاته بكل الوسائل ، وأبو ذر يزداد تصلبا في موقفه من عثمان وحاشيته الذين عاثوا في الارض فسادا ، ورأى عثمان نفسه بين امرين لا ثالث لهما : اما قتله او اخراجه من المدينة ، ورأى ان القتل يجر عليه غضب الجماهير في الحجاز وخارجها وكلهم يقدرون لابي ذر مكانته في الاسلام وصلابته في الحق ، ويؤيدون موقفه من الحاكمين ، وقد سرى الى اسماعهم ثناء رسول الله عليه وتقريظه له في مختلف المناسبات ، فلا بد اذن من نفيه الى خارج المدينة والى اين يا ترى ؟ الى المدن والعواصم وحيث يجتمع الناس ، ان ذلك لا يحل المشكلة لانه سيمثل الدور الذي مثله في الشام ، فلم يبق غير الربذة حتى لا يتصل بالناس ولا يتصل به احد من الناس ، فأمره بالرحيل اليها باشراف مروان ابن الحكم ، وهدد وتوعد كل من يخرج لوداعه من صحابة رسول الله .

ولما اخرجه مروان بن الحكم اليها عز ذلك على الناس ان يروا طريد رسول الله يطرد من مدينته صحابيا ممن اجتباهم رسول الله وفضلهم على كثير ممن صحبوه وتابعوه ، ولكنهم تحاموا عن وداعه خوفا من عثمان وحاشيته ولم يخرج لوداعه غير علي وأخيه عقيل والحسن والحسين وعمار بن ياسر ، وتقدم الحسن بن علي لوداع ابي ذر فقال له مروان بن الحكم : ألا تعلم بأن الامير قد نهى عن كلام هذا الرجل ، فتقدم اليه امير المؤمنين (ع) وضرب بسبوطه رأس راحلته وقال له : تنح نحاك الله الى النار ، فرجع شاكيا فتلظى عليه عثمان غضبا على حد تعبير المؤرخين . وقال له امير المؤمنين : يا ابا ذر ان القوم قد منعوك دنياهم ومنعتهم دينك فما اغناك عما منعوك ، وما احوجهم الى ما منعت، وقال له عمار بن ياسر :

والله لو اردت دنياهم لامنوك ، ولو رضيت اعمالهم لاحبوك ، وما منع الناس ان يقولوا بقولك الا الرضا بالدنيا والجزع من الموت .

وتكلم كل واحد منهم بكلام يتناسب مع المقام ، وبكى ابو ذر عند وداعهم وقال : لقد ثقلت على عثمان بالحجاز وعلى معاوية بالشام وكره ان اجاور اخاه وابن خاله بالمصرين فأفسد الناس عليهم فصيرني الى بلد ليس لي فيه ناصر ولا دافع الا الله ، والله لا اريد الا الله صاحبا .

وعاش ابو ذر رحمه الله في الربذة ما بقي من حياته غريبا بعيدا عن الناس في ارض مقفرة من السكان وحتى من الطير والوحوش الى ان وافته منيته فيها ويسر الله له وفدا من اهل العراق كانوا في طريقهم لحج بيت الله الحرام ، فلوحت لهم زوجته فمالوا اليها ، وأصيبوا بالذهول والدهشة حينما علموا ان الميت هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان رسول الله يجله ويفضله على الكثير من اصحابه فتولوا تغسيله ودفنه وحملوا زوجته وابنته الى المدينة وصدق فيه قول رسول الله (ص) :

يا ابا ذر تعيش وحدك وتدفن وحدك وتحشر وحدك ويسعد فيك ناس من اهل العراق يتولون غسلك ومواراتك في قبرك (١) .

---

١ ـ الربذة تقع على ثلاثة اميال من المدينة قريبة من ذات عرق .

الثورة على عثمان ونهاية أمره

وعندما تسامع الناس بنهاية ذلك الشيخ الجليل على النحو الذي تمت عليه تجسدت لهم أخطار ذلك النظام الفاسد الذي اصبح الحكم ابن ابي العاص وأولاده اسياد الناس يأمرون وينهون ويتنعمون ويعبثون بخيرات البلاد ، وأولئك الذين كانوا من اقرب الناس وأخلصهم لله ورسوله يعذبون ويطردون من بلده وحرمه عندما تسامعوا بذلك ورأوا ان القوم جادون في الذي اختاروه وأمعنوا في ضلالهم وغيهم والتنكيل بكل من يأمرهم بمعروف وينهاهم عن منكر هبوا من جميع الامصار لانقاذ الامة من تلك الطغمة الحاكمة فأحاطوا بالمدينة من اطرافها ، هذا وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وآخرون ومعهم السيدة عائشة كانوا من اكثر الناس تحريضا على قتله .

فلقد اتفق الرواة على ان طلحة والزبير كانا من اشد الناس عليه ، وعثمان بن عفان يقول : ويلي على ابن الحضرمية يعني بذلك طلحة ، لقد اعطيته كذا وكذا ذهبا وهو اليوم يروم دمي اللهم لا تمتعه بذلك ، ولما

---

٢ ـ انظر جـ٢ من شرح النهج ص ٤٠٤ .

اشتد الحصار على عثمان كان طلحة مقنعا بثوب قد استتر به عن أعين الناس ويرمي دار عثمان بالسهام ، كما روى المؤرخون انه لما تعسر على المحاصرين الدخول عليه من باب الدار اخذ بهم طلحة الى دار لبعض الانصار فأصعدهم سطحها وتسوروا منها على دار عثمان ونزلوا اليها وقتلوه ، وأضاف الرواة الى ذلك ان الزبير كان يقول للثوار اقتلوه فقد بدل سنتكم ، فقيل له : ان ابنك يحامي عنه بالباب ، فقال : ما اكره ان يقتل عثمان ولو بدىء بابني ان عثمان لجيفة على الصراط غدا .

وكانت عائشة تقول: اقتلوا نعثلا فقد كفر، ونعثل اسم لرجل من بقايا يهود المدينة كان قذرا مفسدا قد استعارته لعثمان بن عفان ، ولما اشتد عليه الحصار وأيقنت ان امره قد انتهى وأهل الامصار لا يرجعون الا بقتله او تنحيته عن الخلافة تجهزت للخروج من المدينة الى مكة فاستجار بها عثمان وأرسل اليها مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتاب بن اسيد فقالا لها : لو اقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل فقالت لهما قد قرنت ركابي وأوجبت علي الحج ووالله لا افعل فنهض مروان وصاحبه وهو يقول :

وحرق قيس عليّ البلاد فلما ان اضطرمت احجما

ثم قالت عائشة : يا مروان اني في شك من صاحبك ووالله لوددت انه في غرارة من غرائري هذه واني اطيق حمله حتى القيه في البحر ، والتقت بعبد الله بن العباس وهي في طريقها الى مكة فقالت له : يا ابن عباس اياك ان ترد عن هذه الطاغية وان تشكك الناس في امره فقد بانت لهم بصائرهم وتحلبوا من البلدان لأمر قدحم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت المال والخزائن مفاتيح فان يلها يسر بسيرة ابن عمه ابي بكر .

وحينما سألت عن مصير عثمان بعد مصرعه وأخبرها الناس بقتله لم تملك نفسها وأظهرت كل ما كان يراودها من امان وأحلام وهي لا تشك

في ان الامر بعده سيكون الى قريبها طلحة فقالت على الفور بعدا لنعثل ايه يا صاحب الاصبع ، ايه يا ابا شبل ، ايه يا ابن عم ، ومضت تقول : وقد اخذتها الفرحة . لكأني انظر الى اصبعه وهو يبايع له حثو الابل ، ودهش الناس لحالها في تلك اللحظات التي عرفت فيها مصرع عثمان وكيف استبد بها الفرح لانها كانت على يقين من ان الناس لا يعدلون بقريبها احد ، ونظرت بعد ان هدأ روعها الى من حولها واذا بها تجد الشفاه تنم عن بسمات ساخرة من موقفها ، فأيقنت ان وراء ذلك شيئا لا ينسجم مع رغبتها ، فقالت : ما فعل الناس من بعده ؟فقالوا : بايعوا لعلي ابن ابي طالب ، فناقضت نفسها على الفور ، وقالت : لقد قتل عثمان مظلوما لانهم استتابوه ثم قتلوه ، وبدون ان تشعر ان وراءها اناسا يحصون عليها جميع تصرفاتها وأقوالها قالت : ليت هذه اطبقت علىهذه.

بهذا النوع من الصلابة يحدثنا التاريخ عن موقف طلحة والزبير وعائشة من عثمان وأنصاره في ساعات المحنة التي الت به ، وعادوا بعد قليل يطالبون بدمه من علي بن ابي طالب وأعلنوها حربا ضارية عليه كان من نتائجها معركة البصرة التي انتهت بفشل عائشة وقتل طلحة والزبير وعشرات الالوف ممن غررت بهم عائشة وطلحة والزبير ، في حين ان التاريخ يؤكد ان عليا (ع) مع انه لم يكن من المرضيين عند الخليفة وأتباعه ، وان مروان بن الحكم كان يعد الخطط للتخلص منه ويشحن ابن عفان عليه وعلى كل من كانوا يراقبون تصرفات الامويين وأعوانهم، مع ان حاله من عثمان وأعوانه كان كذلك فقد وقف موقفا يتناسب مع ما فطر عليه من التسامحوالمحبة والاصلاح حتى لا ينتهي الحال الى اراقة الدماء والفوضى ، وقد بلغه ان طلحة منع عنه الماء ومنع من ادخاله عليه، فأنكر عليه ذلك وأرسل اليه وكان في ارض له على ميل من المدينة ، ارسل اليه ان دع الرجل يشرب من مائه ومن بئره ولا تمنعوا عنه الماء فأصر طلحة على موقفه فأوصل اليه الماء كما جاء في رواية انساب

الاشراف للبلاذري ، وقد منع عنه الغزاة مرارا وأخذلهم مثلما دعـــوا باصلاح كل ما افسده ولاته على الامصار وأعوانه وعزلهم وتعيين غيرهم وكان موقفه هذا يحز في نفس طلحة والزبير وعائشة فيعملون لافساد ما اصلحه امير المؤمنين لكي تزداد الامور تعقيدا وتأزما في حين ان مروان ابن الحكم كان يعارض في كل محاولة تجري بواسطة علي (ع) مـن هذا النوع [1] .

وحدث الطبري ان الثوار كتبوا الى عثمان يدعونه الى التوبـــة وأقسموا له بالله انهم لا يرجعون عنه ابدا وغير تاركيه حتى يعطيهم مـا يلزمهم من حق الله ، وأحس عثمان ان القوم جادون في طلبهم وسوف لا يتراجعون عنه الا بقتله اذا لم يلب طلباتهم ، فأرسل الى علـي (ع) فلما جاءه قال له : يا ابا الحسن انه قد كان من الناس ما رأيت وكـان من مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فان لهم الله ان اعفيهم من كل ما يكرهون وان اعطيهم من نفسي ومن غيري مـا يريدون وان كان في ذلك سفك دمي .

فقال له امير المؤمنين (ع) ان الناس الى عدلك احوج منهم الى قتلك واني لارى القوم لا يرضون الا بالرضا وقد كنت اعطيتهم في المـرة الاولى عهد الله لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ، ولم تف لهم بشيء من ذلك فلا تغرنني هذه المرة من شيء فاني معطيهم عليك الحق ، قال نعم فاعطهم الان فوالله لأفين لهم بكل ما تريد ، فخرج علي (ع) الى الناس وقال : ايها الناس انكم انما طلبتم الحق وقد اعطيتموه ان عثمان زعم انه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن كل ما تكرهون فاقبلوا منه ووكدوا عليه .

---

١ ــ انظر ص ١٣٩ من المجلد الرابع تاريخ الطبري .

فقال الناس : قد قبلنا فاستوثق لنا منه فانا والله لا نرضى بقول دون فعل ، فقال لهم: ذلك لكم ، ثم دخل عليه وأخبره بما يقولونه فقال عثمان : اضرب بيني وبينهم موعدا يكون لي فيه مهلة فاني لا اقدر على رد ما يكرهون في يوم واحد ، فقال له علي (ع) اما من حضر من الناس في المدينة فلا اجل فيه وما غاب فأجله وصول امرك ، فقال نعم أجلي في ما بالمدينة ثلاثة ايام فوافق امير المؤمنين على ذلك وخرج الى الناس وأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتابا اجله فيه ثلاثة ايام على ان يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه وأخذ عليه في الكتاب اعظم ما اخذ الله على احد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناسا من المهاجرين والانصار فكف المسلمون عنه ورجعوا على ان يفي لهم بما اعطاهم من نفسه .

وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جندا عظيما من رقيق الخميس على حد تعبير الخطيب في كتابه علي بن ابي طالب .

فلما مضت الايام الثلاثة والوضع على حاله لم يغير منه شيئا مما كرهوه ولم يعزل عاملا من عماله ثار به الناس وخرج عمرو بن حزم الانصاري حتى اتى المصريين وهم بذي خشب فأخبرهم الخبر وسار معهم حتى قدموا المدينة فأرسلوا الى عثمان من يقول له : ألم نفارقك على انك تائب من احداثك وراجع عما كرهنا وأعطينا على ذلك عهدا لله وميثاقه ، قال بلى انا على ذلك ، قالوا فما هذا الكتاب الذي وجدناه مع رسولك وكانوا قد قبضوا على رسول عثمان الى عامله في مصر ومعه كتاب يأمره فيه ان يضرب رقاب عدد من رؤساء المصريين كما قبضوا مع رسوله في الجولة الاولى التي هادنهم فيها كتابا يأمر عامله في مصر ان يضرب عنق محمد بن ابي بكر ، وكان قد هادنهم ايضا على ان يعطيهم ما يريدون بواسطة امير المؤمنين ايضا ، كما حدث بذلك المؤرخون .

فقال ما فعلت ولا لي علم بما تقولون ، قالوا بريدك على جملك

وكتاب كاتبك عليه خاتمك ، فقال لهم : اما الجمل فمسروق والخطوط تتشابه ، وأما الخاتم فقد نقش عليه ، فقالوا انا لا نعجل عليك وان كنا قد اتهمناك ، اعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا ، فقال ما اراني اذن في شيء من ذلك ان كنت استعمل عليكم من هويتم وأعزل من كرهتم فالامـــــر اذن يكون لكم .

فقالوا : والله لتفعلن او لتعزلن او لتقتلن فانظر لنفسك او دع فأبى عليهم وقال لم اكن لاخلع سربالا سربلني الله كما جاء فـــي روايـــة الطبري [1] .

وتعقدت الامور بين الثائرين والخليفة وضاعت فرص التسوية بين الطرفين وبات الثوار وهم على يقين من ان الخليفة حتى لو اراد التسوية وانهاء الازمة فان المتسلطين عليه من الامويين لا يريدون تسوية الامور، ولا يتمكن هو من ابرام امر لم يكن مروان من شهـــوده وواضعي بنوده .

ومع ان امير المؤمنين كان من اوثق الناس عندهم وعند عامـــة المسلمين وأكثرهم حرصا على حل الصراع القائـــم بين الطرفين بما يحفظ لكل منهما حقه ويعود على الامة بالخير فلم يعد لحديثه مـــع الثائرين من اثر ورأى من واجبه ان يعتزل الطرفين بعد ان جرب مرتين وفي كل منهما يأخذ على عثمان العهود والمواثيق على الالتزام ببنـــود الاتفاق الذي يحفظ للدولة هيبتها وللامة حقها ، ولم ينفذ عثمان شيئا مما يتم عليه الاتفاق ، ولقد قال لعبد الله بن عباس وغيره : والله لقد دافعت عن عثمان حتى خشيت ان اكون اثما ، ولم يكتف عثمان بعد

---

١ ــ ص ١١٢ من المجلد الخامس .

التزامه بما عاهد الله عليه ، بل كتب بعد كل من الاتفاقين كتابا الى عماله ان يقتلوا قادة الثوار بعد رجوعهم اليهم لانهم يطالبون بحقهم في الحياة كما فرضه لهم الاسلام .

واشتد الحصار على عثمان في الايام الاخيرة بعد ان اعتزل علي (ع) وفشلت جميع محاولات التهدئة والاصلاح بين الطرفين ويئست تلك الوفود من تلبية مطالبها العادلة وراحت تضيق على عثمان ، وهو مرة يحاورهم ومرة يعدهم ان يعطيهم ما يريدون ليستفيد من الوقت لانه كان يأمل ان تأتيه النجدة من الشام بعد ان طلب من معاوية ان يمده بالرجال بالسرعة القصوى ، تثاقل معاوية وتباطأ على امل ان ينتهي الامر بقتله ليكون ولي الثأر من بعده ، وبالتالي خرج من الشام في جيش مؤلف من اثني عشر الف مقاتل وقبل ان يصل الى المدينة تركهم في مكان بعيد عنها ينتظرون صدور اوامره اليهم وسار بنفسه الى المدينة ، ولما دخل على عثمان بن عفان سأله عن النجدة ، فقال : لقد تركتهما ورائي وجئت اليك لاعرف رأيك وأعود اليهم فأجيئك بهم ، فقال له ابن عفان: لا والله ولكنك اردت ان اقتل فتقول انت انا ولي الثأر ارجع فجئني بالناس حالا فرجع ولم يعد حتى قتل عثمان كما جاء في رواية اليعقوبي.

وقد اكد هذه الحقيقة جماعة من المؤرخين والباحثين كما تؤكدها الظروف التي كانت تحيط بتلك الاحداث ، فان الوفود التي امت المدينة تطالب بالاصلاح ظلت اشهرا تروح وتغدو وتفاوض قبل ان تشدد الحصار عليه وكان خلال ذلك على اتصال دائم بعماله وذويه وقد اتخذوا قرارا باستعمال الشدة وكان اعتمادهم على معاوية وجيش الشام، وكانت اخبار تلك الاحداث تصله بين الحين والآخر بمنتهى السرعة واتفق الطرفان كما ذكرنا بعد ان اظهر ابن عفان رغبته الاكيدة في الاصلاح ، ولكنه كان يتراجع بعد ان توافق الوفود وتستعد للرحيل والرجوع الى امصارها ، ولم يكن ذلك منه على ما يبدو الا كسب

الوقت الذي يتيح لجنود الشام ان تقطع المسافة بين البلدين حسبما كان يمنيه معاوية بذلك ، وظل يماطله ويمنيه الى آخر لحظة ، ولـــو كان صادقا وعازما على انقاذه من محنته لكان باستطاعته ان يحقق ذلك خلال ايام معدودات ، وعلى ما يبدو ان ذلك لم يغب عن عثمان وقد صارحه به كما ذكرنا ، ومع ذلك فقد امره ان يرجع الى الجيش ويسرع فـــي العودة به بعد ان انبه على تباطئه واهماله .

ويدعي اكثر المؤرخين بأن عليا (ع) في الايام الاخيرة التي اشتد فيها الحصار على عثمان بن عفان ارسل ولديـه الحسن والحسين (ع) ليدفعا الناس عنه كما ارسل طلحة والزبير ولديهما محمد بن طلحـــة وعبد الله بن الزبير فلزموا مدخل الدار ومنعوا الثوار من الوصول اليه وأصيب بعضهم بجروح وهم يدافعون الثائرين عن اقتحامه ، وبالتالي دخلوها من ناحية ثانية باشارة من طلحة . ويضيف المؤرخون الى ذلك ان علي بن ابي طالب (ع) لما علم بقتل عثمان اقبل على داره مسرعا وقد اشتد غضبه فضرب الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير واتهمهم بالتساهل والتقصير في الدفاع عن الخليفة .

ولكن المتتبع لسير الاحداث منذ بدأ المسلمون يتحسسون الاخطار التي احدقت بهم من تصرفات عثمان وأسرته ومواقف امير المؤمنين من الثائرين ومدى ما بذله من جهد لاصلاح الحال بما يضمن للخليفـــة هيبته وللامة حقها المفروض لها وكان عثمان يعطيه من نفسه ما يريد ، ثم يعود فينقض كل ما بناه علي (ع) كما يشير عليه مروان وبنو امية ، وأخيرا ولما يئس منه ورآه مسيرا لحاشيته اعتزل المدينة وذهب الى ارض له خارجها ليكون بعيدا عن كل ما يحدث بعد ان فشلت جميع مساعيه خلال شهرين تقريبا ، فان المتتبع لسير هذه الاحداث يطمئن الى انه لم يرسل ولديه للدفاع عنه ولم يبالِ بكل ما يحدث بعد تلك الجهود التي بذلها في سبيله للخروج من تلك الازمة بما يحفظ لجميـــع الاطراف

حقوقها وبعد ان ايقن ان عثمان وزمرته مصرون على السياسة التي اختطوها لانفسهم مهما كانت التضحيات ، التزم بيته تاركا لاصحاب الحق ان يتصرفوا كما يريدون ما داموا يطالبون بالعدالة والحقوق المشروعة ، ومن المستبعد ان يزج بريحانتي رسول الله (ص) في تلك المعركة للدفاع عن الظالمين وهو الذي وهب نفسه وكل حياته للحق والعدالة وانصاف المظلومين .

ومهما كان الحال فقد انتهى الحصار الطويل والحوار الذي دام ثلاثة اشهر تقريبا كما يذهب الى ذلك الرواة بقتل عثمان بواسطة جماعة ممن تسلقوا عليه الجدران بتخطيط من طلحة ، ويدعي المؤرخون لهذا الحادث ان محمد بن ابي بكر كان احد الذين استطاعوا الدخول عليه ولكنه لم يباشر القتل .

ويبدو ان الثوار ظلوا الى آخر لحظة يتهيبون قتله ويأملون ان يتراجع فيعتزل الناس او يعطيهم ما سألوه ، فلما قتل مروان بن الحكم رجلا منهم انقطعت جميع آمالهم ولم يعد لهم سبيل الا بالتخلص منه . فلقد جاء في رواية شرح النهج عن عبد الله بن عباس ان ابا ربيعة المخزومي قال : دخلت على عثمان فأخذ بيدي وأسمعني كلام من على بابه من الناس فمنهم من كان يقول: ما تنتظرون به ومنهم من يقول : لا تعجلوا عليه فعساه ينزع ويتراجع . فبينا نحن كذلك اذ مر طلحة فقام اليه ابن عديس البلوي فناجاه ، ورجع ابن عديس فقال لاصحابه : لا تتركوا احدا يدخل على عثمان او يخرج من عنده ، فقال لي عثمان : هذا ما امر به طلحة اللهم اكفني طلحة فانه حمل هؤلاء القوم وألبهم علي والله لارجو ان يكون منها صفر اليدين وان يسفك دمه ، ثم اردت ان اخرج فمنعوني حتى امرهم محمد بن ابي بكر فتركوني اخرج .

ومضى يقول الراوي : ولما طال الامر قام رجل من الانصار يدعى ابن عياض وكان صحابيا ، فنادى عثمان وأمره ان يخلع نفسه فبينما هو

يناشده ويدعوه الى خلع نفسه اذ رماه كثير بن الصلت الكندي وكان من اصحاب عثمان بسهم فقتله فاشتد المصريون عند ذلك وطلبوا القاتل ليقتصوا منه فرفض عثمان تسليمه وقال : لم اكن لادفع لكم رجلا نصرني فهاجموه من كل جانب حتى دخلوا عليه واشترك في قتله جماعة من الثوار والانصار ، وأضاف الى ذلك في شرح النهج ان عليا (ع) لما رأى شدة طلحة قال له : انشدك الله الا كففت عن عثمان ، فقال له لا والله حتى يعطي بنو امية الحق من انفسهم ، فكان امير المؤمنين يقول بعد ذلك : لحا الله بن الصعبة اعطاه عثمان ما اعطاه وفعل به ما فعل [1].

لقد كان لقتل عثمان وقع حسن في اكثر الاوساط الاسلامية في المدينة وخارجها من الذين كانوا يؤلبون الناس عليه تلبية لرغباتهم الخاصة كطلحة والزبير وعائشة وسعد بن ابي وقاص ومعاوية ومن الذين كرهوه لتصرفاته وتسليطه مروان بن الحكم وبني امية على رقاب الناس وموارد البلاد ، هؤلاء وهؤلاء كان لمقتله وقع حسن في نفوسهم وان اختلفت الغايات وتباينت الاتجاهات ، اما علي (ع) فلقد كان له من ذلك الحدث موقف قد اختص به وحده ، فلقد كان يتمنى ويعمل بكل جهده لكي تسير الامور في غير الاتجاه الذي صارت اليه ، وحاول اكثر من مرة مع الخليفة والثوار ونصحهم بالاعتدال واستعمال الحكمة وان لا يسيئوا استعمال حقهم ويفسحوا المجال للغوغائيين والمخربين ان ينفذوا من خلال تلك الاحداث لاغراضهم الدنيئة ، ونصح الخليفة بتطبيق العدالة وانصاف المظلومين واقصاء العابثين بمقدرات الامة ومقدساتها عن مراكزهم وتسليمها لغيرهم من ذوي الكفاءات في الادارة والاستقامة في الدين ، وظل يعمل في ضمن هذه الحدود ويروح ويجيء

---

١ ــ انظر شرح النهج ص ١٦٧ من المجلد الاول .

بين الثوار والحاكمين واستطاع ان يضع حدا للثوار ومطالبهم ، ولكنه لم يستطع ان يغير من موقف الخليفة وحاشيته ، ولما يئس منهم جلس في بيته وأغلق عليه بابه ينتظر حكم القضاء في الظالم والمظلوم ، وكان يتمنى ان تنتهي الامور على غير ما انتهت اليه وأن تسير في الطريق الصحيح ، وقد وصف الموقف بكلمات قصار أبلغ من كتاب كامل فقال: وأنا جامع لكم امره ، لقد استأثر فأساء الاثرة وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع .

علي (ع) والخلافة

فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب مجتمعين حولي كربيضة الغنم حتى لقد وطيء الحسنان وشق عطفاي ، فلما قمت بالامر نكثت طائفة ومرقت اخرى وقسط آخرون .

لقد كان عامة المسلمين ينظرون ويتطلعون بلهفة الى ما وراء تلك الاحداث ومن سيخلف عثمان عندما تتمخض الاحداث عن قتله ، او اعتزاله ، ولقد كان الطامعون فيها اكثر من واحد ومن بين اولئك من عمق مجرى الاحداث ووسع دائرتها وأمد النار المتأججة بالوقود كطلحة والزبير وعائشة ، وكان من اكثر الناس لهفة عليها طلحة وبلغ به الحال ان سبق نتائج تلك الاحداث وأخذ لنفسه المكان الذي قدر ان الايام ستضعه فيه ، فاستولى على بيت المال وأقام الصلاة بالناس وعثمان محصور في داره لا يزال على قيد الحياة .

وبلا شك فان الاربعة الباقين من الستة اصحاب الشورى كانوا اوفر من سائر الناس حظا ، وكان نصيب علي (ع) اوفر من نصيب الجميع واليه تتجه الجماهير في المدينة وخارجها وحتى الثوار لم يعدلوا به احد، لانهم يعلمون بأنه سيحقق لهم الاهداف التي ثاروا من اجلها ، ويعلمون

في الوقت ذاته ان طلحة والزبير لم يغضبا للحق ولله وانهما لا يختلفان عن عثمان وبطانته وتأكد ذلك لهم من موقفهما من عثمان خلال الايام التي سبقت قتله . وحدث البلاذري في انساب الاشراف ان عليا (ع) لزم منزله بعد ان يئس من اصلاح الامر بين الفريقين فلما قتل عثمان وفرغ الناس من امره وأدركوا انه لا بد لهم من امام يجتمعون عليه ، جاء الناس كلهم الى علي يهرعون ، وهم يقولون : ان اميرنا علي بن ابي طالب حتى دخلوا عليه الدار وقالوا امدد يدك حتى نبايعك ، فقال ليس ذلك اليكم ، انما ذلك لاهل بدر فمن رضي به البدريون فهو الخليفة ، فلم يبق احد من اهل بدر الا اتى عليا (ع) فقالوا : ما نرى احدا أحق بها منك يا ابا الحسن .

وقال الطبري في الجزء الخامس من تاريخه : ان اصحاب رسول الله جاؤوه بعد مقتل عثمان فقالوا له : لا بد للناس من امام ولا نجد اليوم أحق بهذا الامر منك ، فقال لا تفعلوا فاني اكون وزيرا خير من ان اكون اميرا ، فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك وما زالوا به حتى قبل بيعتهم ، ولكنه ابى الا ان تكون في المسجد ويرضى جميع الناس .

وفي رواية ثالثة انه أصر على رفض البيعة بالرغم من الالحاح الشديد عليه ، فتوسلوا بالاشتر النخعي لاقناعه وكان على رأس وفد الكوفة ، فقال له ابسط يدك نبايعك فرفضها فألح عليه وخوفه الفتنة ان هو بقي على موقفه وما زال به حتى اقنعه ، فبايعه الوجوه ثم انثال عليه الناس من كل جانب ، وقام الزبير فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ايها الناس ان الله قد رضي لكم حكم الشورى فأذهب به الهوى وقد تشاورنا فرضينا عليا فبايعوه .

وجاء في الامامة والسياسة عن ابي ثور انه قال : لما كانت البيعة بعد مصرع عثمان خرجت في اثر علي (ع) والناس حوله يبايعونه فدخل حائطا من حيطان بني مازن فألجأه الى نخلة وحالوا بيني وبينه فنظرت

اليهم وقد اخذت ايدي الناس ذراعه تختلف ايديهم على يده ، ثم أقبلوا به الى المسجد الشريف فكان اول من صعد المنبر في المسجد طلحة وبايعه بيده ، وكانت اصابعه شلاء ، فتطير منها علي (ع) وقال : ما اخلفها ان تنكث ، ثم بايعه الزبير وأصحاب النبي وجميع من في المدينة من المسلمين .

وقد وصف هو سلام الله عليه موقف المسلمين منه واصرارهم على بيعته في خطبته المعروفة بالشقشقية حيث قال : فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب مجتمعين حولي كوبيضة الغنم حتى لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي ، فلما قمت الامر نكثت طائفة ومرقت اخرى وقسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ، ومضى في خطبته هذه يصف موقفه من الخلافة فقال: اما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما اخذ الله على العلماء ان لا يقادوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لالقيت حبلها على غاربها ولسقيت اخرى بكأس اولها ولالفيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفطة عنز .

لقد تمت البيعة لعلي (ع) بعد ما رأى ان لا مفر له منها في ذلك الجو المشحون بالفتن والمضاربات وذلك بعد وفاة عثمان بثلاثة ايام او خمسة ، وبايعه جميع المهاجرين والانصار وغيرهم ممن وفدوا على المدينة من الامصار الثلاثة ، ولم يتخلف عن بيعته من القرشيين سوى افراد قلائل كان من بينهم مروان بن الحكم وسعد بن ابي وقاص وعبد الله ابن عمر .

وليس بغريب على مروان بن الحكم والامويين اذا هم تخلفوا عن بيعة علي او كرهوها كما يبدو للمتتبع في تاريخ البيت الاموي مع الهاشميين وغيرهم من اصحاب الرسالات ، وأما سعد بن ابي وقاص ،

فلقد كان يتمناها لنفسه ، ولو وسعه العمل من اجلها لم يقصر ، ولعله قد بدأ يفكر فيها فقد جعله ابن الخطاب احد من تدور الخلافة في فلكهم وأعطاه اكثر مما يستحق ، ولا اظنه قبل ذلك كان يفكر فيها او يتصور ان المسلمين سيجعلونه الى جانب علي في يوم من الايام ، ولكنه بعد ان رأى انصراف الناس حتى عن طلحة والزبير وهما ابرز منه ولهما مكانهما بين صحابة الرسول وفي المصريين والكوفة والبصرة لذلك لم يتعرض لها واكتفى ان يعتزل ولا يبايع لعلي (ع) تضامنا مع الامويين الذين تربطه بهم القرابة من قبل امه حسنة كما ذكرنا من قبل ، وكان هواه معهم ، ولم يقف منهم موقفا معاديا حتى بعد ان عزله عثمان عن الكوفة وأعطاها لاخيه الوليد ، وأمير المؤمنين يعلم منه ذلك كما يعلم بموقف الامويين وبما سيؤول اليه امر طلحة والزبير وأكثر القرشيين ، وقد وصف موقفهم منه بعد البيعة بقوله :

اللهم اني استعديك على قريش فانهم قطعوا رحمي وأكفأوا انائي فنظرت فاذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا ساعد الا اهل بيتي ، وقال مرة اخرى : مالي ولقريش ، والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين ، واني لصاحبهم بالامس كما انا صاحبهم اليوم .

ومهما كان الحال فلما دعي سعد بن ابي وقاص الى البيعة تمنع منها تضامنا مع الامويين ، وقال لعلي : ما عليك من بأس ، فتركه امير المؤمنين ولم يسمح للثائرين ان يستعملوا معه العنف ، ولما دعي اليها عبد الله بن عمر بن الخطاب وامتنع منها طلب منه كفيلا بأن لا يشترك مع احد في عمل ضده ، ولما امتنع عن تقديم الكفيل تركه وقال للناس خلوه فأنا كفيله ، ثم التفت اليه وقال : اذهب فاني ما علمتك الا سيء الخلق صغيرا وكبيرا .

ولما تمت البيعة انصرف امير المؤمنين منذ اليوم الاول يجند كل امكانياته لاصلاح ما افسدته بطانة عثمان في جميع شؤون الدولة ، تلك

البطانة التي تركت جميع الاجهزة تنخر بالفساد والانحلال ، وكان يرى ان الواجب يدعوه لمعالجة الاهم فالاهم من المشاكل المستعجلة التي يتضجر منها الناس وتأتي في طليعتها مشكلة الولاة التي اثارت تلك الضجة على الخليفة الراحل وأودت بحياته ، حتى اذا فرغ منها اتجه الى غيرها من المشاكل التي يراها اكثر الحاحا وأعم نفعا ، ولم يكن ذلك ليمنعه من ان يبسط للناس السياسة التي سينتهجها في عهده الجديد ، وبعد ايام قلائل من خلافته وقف على المنبر ليعلن على الملأ المحتشد من حوله الغاء بعض الانظمة التي اتبعها اسلافه خلال عشرين عاما او تزيد، وكان على ثقة بأن عمر بن الخطاب حينما قسم الفيء حسب اقدار الناس وقدمهم في الاسلام قد استجاب لمصالحه وعواطفه اكثر مما استجاب لمبادىء الاسلام ، وان عثمان بن عفان حينما ترك اهله يعبثون به ويفسدون في الارض قد استجاب للعنصرية الجاهلية وللروح الاموية الحاقدة على الاسلام الذي لا يعطي احدا على حساب احد من الناس.

لقد وقف بين الجموع المحتشدة التي كانت تنتظر منه غير ما الفته من قبل ، فقال : ايها الناس انما انا رجل منكم لي ما لكم وعلي ما عليكم واني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما امرت به ، ومضى يعلن على ذلك الملأ الخطوط العريضة لسياسته ، فكان مما قال : الا ان كل قطيعة اقطعها عثمان بن عفان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت الله ، فان الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملكت به الاماء وفرق في البلدان لرددته فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق ، ايها الناس لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الانهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف اذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم على حقوقهم التي يعلمون ، حرمنا ابن ابي طالب حقوقنا ، الا وايما رجل من المهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله يرى ان الفضل له على

سواه بصحبته ، فان الفضل غدا عند الله وثوابه وأجره على الله ، الا وايما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لاحد على احد ، للمتقين عند الله احسن الجزاء ، فاذا كان الغد فاغدوا علينا ان شاء الله ولا يتخلفن احد منكم عربي او عجمي كان من اهل العطاء» فرسم لهم بهذا البيان سياسته التي ستقوم على العدالة والتي تتسع لجميع الناس ولا تعطي امتيـــازا لاحد على احد .

فعز على كثير من المهاجرين من قرشيين وغيرهم ان يكونوا كغيرهم من الموالي والعبيد وبخاصة طلحة والزبير اللذين وضعهما ابن الخطاب في مستوى علي وكانا يطمعان وقد فاتتهما الخلافة في ولاية المصريـــن البصرة والكوفة وها هو اليوم في بيانه التاريخي يضعهما في مستوى العبيد والموالي ويأبى لهما مع ذلك ان يتوليا اي عمل له ، وقد قـــال لهما برفق ولين حينما طلبا منه ذلك : احب ان تكونا معي أتجمل بكما واستأنس برأيكما ، فاني استوحش لفراقكما .

وأصر علي (ع) على موقفه ذلك لان اطماعهما لم تكن لتخفى عليه وقد عرفهما صغيرين وكبيرين ، ورآهما بالامس القريب يحرضان علـــى عثمان لا غضبا لله ولا حرصا على مصلحة الاسلام ، بل طمعا في السلطة من بعده ، اما وقد سمعا بيانه ورفض ان يجعل لهما ميزة على غيرهما وانهما في عهده الجديد لا ينالان منه غير العطاء الهزيل ، وسيستأنـــف سيرة ابن الخطاب في فرض الاقامة الجبرية عليهما ولا يمكن ان يحققا شيئا من أطماعهما في عهده ، بعد ان ادركا جميع ذلك سكتا على مضض وجعلا يعملان للثورة ضد الحكم الجديد وانضما الى الحزب الاموي ، واستغلا سخط عائشة على بيعة علي (ع) ومواقفها العدائية منه ، وكادت ان تموت غما منذ ان بلغها ان الناس قد بايعوا عليا ، واستقبلت نبـــأ

استخلافه بقولها : ليت هذه اطبقت على هذه ، ورجعت الى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوما وسأطالب بدمه ، فقال لها عبيدة بن ابي سلمة : والله ان اول من امال حرفه لأنت وقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر ، فردت عليه بقولها : انهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الاخير خير من قولي الاول .

ويروي الطبري ان عبيدة بن ابي سلمة حينما سمع من عائشة ما سمع رد عليها بالابيات التالية :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت امرت بقتل الامام وقلت لنا انه قد كفر
فهبنا اطعناك في قتله وقاتله عندنا من امر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر

لقد فرقت الأهواء والمصالح بين طلحة والزبير وعائشة وبين الامويين وحزبهم واستباح كل من الطرفين دماء الآخرين وكانت عائشة اشد من قريبها طلحة على عثمان بن عفان ، وقد سمعها اكثر المسلمين تقول : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، وها هي المصالح والاهواء تجمع بين اعداء الامس القريب فيقفون صفا واحدا في وجه الدولة الجديدة ويستنفرون كل الفئات التي كانت تتنعم على حساب الفقراء وتتمتع بكل الامتيازات للثورة على النظام الجديد الذي يضع كل انسان في مكانه ولا يسمح لاحد ان يتنعم على حساب غيره .

وكانت السيدة عائشة من اشد المعارضين لعلي (ع) وأكثرهم تحريضا عليه كما تصف مواقفها منه اكثر المرويات التي تعرضت للاحداث المتسلسلة منذ استيلائه على السلطة وخلال معارك البصرة وغيرها .

ويرى جماعة من المؤرخين ان موقفها العدائي منه يعود لاكثر من

سبب واحد يتصل اولها بحياة النبي (ص) يوم كان يدنيه اليه ويفضله على جميع المسلمين كما يدني بضعته الزهراء ويفضلها على جميع النساء وتستأثر مع ذلك بعطفه وحنانه ، وبلا شك فلقد كانت تتمنى لها ولأبيها هذه المنزلة من النبي (ص) ، هذا بالاضافة الى ان عليا زوج فاطمة ، بنت خديجة التي شغلت وجدانه بنبلها وسمو اخلاقها وتضحياتها في سبيل رسالته ، وما استطاعت طيلة حياتها مع النبي (ص) ان تكتم ما بنفسها على خديجة وغيرتها منها وبخاصة عندما كان يذكرها ويتلهف على ايامها ، وعلي (ع) مع ذلك لقد برأ مارية القبطية مما حاولت عائشة الصاقه بها ورجح للنبي طلاقها يوم لاكتها الالسن خلال رجوع النبي من غزوة بني المصطلق فيما يسمونه بحديث الافك وظلت تتراكم الاسباب حتى بلغ عداؤها لعلي(ع) حدا افقدها وعيها ورشدها ووقفت منه موقفها الاخير بعد مصرع الخليفة الراحل [1] .

ومهما كان الحال فلقد كانت عائشة من اكثر الناس تحريضا على عثمان وقد اتهمته بالكفر والارتداد عن الدين ، وحينما بلغها ما جرى عليه غلبتها الفرحة وأخرجتها عن حدود الاناة والصبر فهتفت باسم طلحة والمخبر لا يزال يتابع حديثه حتى اذا انتهى الى مصير الخلافة قالت : ليت هذه اطبقت على هذه قتل عثمان مظلوما ، وبلا شك لو ان احدا غير علي (ع) تولى الخلافة بعد مصرع عثمان لم تقف منه نفس الموقف ولم تشترك في معركة ضده ، اي ان معركتها مع امير المؤمنين (ع) لم

---

١ ــ لقد ذكرنا في كتابنا سيرة المصطفى عند غزوة بني المصطلق بأن قصة الافك من الموضوعات ولم تتهم السيدة عائشة بشيء مما يرويه المؤرخون ، والذي حصل انها قد اتهمت مارية القبطية بالسوء بعد ان اولدت للنبي ابراهيم وثبتت بعد ذلك براءتها بعد التحقيق الذي اجراه علي (ع) في تلك التهمة .

تكن لاجل قريبها طلحة بل لاكثر من سبب كما ذكرنا وقد اشار الى ذلك علي (ع) في بعض خطبه .

فقال وهو يتحدث عن الناكثين : اما عائشة فقد ادركها ضعف في النساء وضغن غلا في صدرها ولو دعيت لتنال من غيري ما اتت الي لم تفعل ، ولها مع ذلك حرمتها الاولى والحساب على الله [1] .

ولم تقتصر المشاكل التي اعترضت خلافة علي (ع) منذ بدايتها على ما كان من طلحة والزبير وعائشة وأنصارهم من الامويين وغيرهم ، بل واجهتها مشكلة اخرى هي من اكثر المشاكل تعقيدا وخطرا على مصير الخلافة ، تلك هي مشكلة معاوية اشد الطامعين في الحكم صلابة ، والذي كانت اطماعه امتدادا لاطماع اسلافه الذين ظلوا يحاربون الاسلام طيلة حياتهم من اجل السلطة ، ومنذ وطئت قدماه ارض الشام جعل يعد العدة لذلك ، وتيسر له في عهد قريبه عثمان ما لم يتيسر له من قبل فترك له الشام يتصرف بها كما يريد فنثر الاموال على انصاره واشترى بها الضمائر والرجال ، حتى استطاع ان يكوّن بها جيشا من المرتزقة وذوي الاطماع يصرفه لصالحه لا لصالح الدولة واستنجد به عثمان اكثر من مرة لاحباط حركة الثوار ، وظل يمنيه ويعده بالنجدة حتى فات الاوان كما ذكرنا من قبل .

وكان امير المؤمنين (ع) يعلم كل ذلك من معاوية ويعلم بأنه سيعلن العصيان المسلح ويتخذ دم عثمان وسيلة لتضليل الرأي العام ، ويعلم بأنه لا يستسلم له حتى ولو ولاه العراقين بالاضافة الى الشام ، ويعلم في الوقت ذاته بأنه لو وافق ابن عباس والمغيرة بن شعبة وأقره على

---

١ ــ وقد اشار في شرح النهج الى اسباب موقفها من علي (ع) في حديث طويل نسبه الى شيخه يوسف بن اسماعيل اللمعاني وقد ذكرنا خلاصته من قبل .

الشام كما اشارا عليه بذلك ولو لفترة قصيرة سيمده بالقوة ويطلق لسانه بالحجة ، ولا يمكن ان يصل معه الى النتيجة المرجوة ما دام جيش الشام أطوع اليه من بنانه .

هذا بالاضافة الى ان السياسة الحكيمة كانت تفرض عليه هذا الموقف المتصلب من معاوية وغيره من ولاة عثمان على الامصار ، لانه ظل حتى اللحظات الاخيرة من حياة عثمان يلح عليه بعزلهم وتولية الاكفاء من المسلمين ، وعرف منه ذلك القريب والبعيد والعدو والصديق ، فكيف ينكر عليه بقاءهم في الحكم بالامس ويطالبه مع الثائرين باقصائهم ويندد به من اجلهم مع عامة المسلمين ، ويقر معاوية اليوم على عمله وهو اخطرهم وأسوأهم حالا ، وماذا يقول للناقمين على سياسة عثمان وقد كان الى الامس القريب اشد منهم نقمة عليها .

ان عليا(ع) لم يكن طالب ملك ولم تكن السلطة بنظره الا وسيلة للحق والعدالة وانصاف المظلومين وهو يرى ان اقرار معاوية على عمله ولو يوما واحدا اقرار للباطل وتضليل للناس ومداهنة في الدين وتوسل بالباطل لبلوغ الهدف والغاية ، ومحال على امير المؤمنين (ع) ان ينحدر الى هذا المستوى الرخيص الشائع بين الساسة والسياسيين ، وقد اجاب اولئك المشيرين عليه بترك معاوية في مركزه بقوله : ما كنت لاتخذ المضلين عضدا .

وقال الاستاذ عبد الفتاح حول سياسة علي (ع) من انصار عثمان وولاته : ان الناظر الى سياسة علي (ع) حيال ولاة عثمان ليعلم مدى صوابه حين ابى الا خلعهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بمبادئه ومثله ويعلم ايضا انه كان نافذ البصيرة مؤمنا باستجابة البلاد كلها له ، لانه لم يعمل الا ما املاه عليه شعور اهل الامصار نحو اولئك الولاة ، وها هو الزمن قد اثبت فراسته فجاءته الطاعة من كل اقليم . اما الشام فلها وحدها شأن تنفرد به لانها في قبضة رجل مفتون بالسلطان اقراره عليها

وعدم اقراره سواء بسواء لن يسفر الا عن تمرد لانه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذي وقع في كف غريمه القديم .

ومضى يقول : ولعله لو اثبته الامام في حكم الشام لوسعه ان يبدو في انظار الجماهير اقوى منه في حالة العزل ، لانه يستطيع ان يقول للناس : انه يأبى البيعة لمن ولاه ولا يعتبرها الا ثمنا يشتري امير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان .

ومجمل القول ان امير المؤمنين قد واجه جميع تلك المشاكل التي اعترضت خلافته بمنتهى الحكمة والسياسة الرشيدة ، واذا لم يكتب له النجاح في خلافته فمرد ذلك يعود الى اسباب اخرى من اهمها انه تولى الخلافة بعد عثمان والمسلمون داخل المدينة مع انهم اشتركوا في التذمر من سياسته وساعد بعضهم على التخلص منه ، الا انهم لم يجتمعوا على هدف واحد وغاية واحدة ، بل تفرقت اهدافهم وغاياتهم اشد الاختلاف ولم يكن رائدهم الحق والاخلاص لرسالة الاسلام باستثناء افراد قلائل قد غضبوا لله وللحق ولعباده المظلومين والمستضعفين ، في هذا الجو المحموم ووسط تمرد وتحد وكره شديد له من اكثر القرشيين ومن الامويين بصورة خاصة وفي مناخ سادت فيه المصالح على جميع القيم واستعملت فيه الاموال لشراء الضمائر والانصار .

ولم يكن احد يتصور ان عليا (ع) يهادن احدا على حساب الاسلام، او يستعمل قرشا واحدا من بيت المال في غير موضعه ، وكان من الطبيعي ان تعترضه المشاكل من هنا وهناك وهو يحاول ان يحمل الناس على كتاب الله وسنّة رسوله وتأسيس خلافة جديدة لم يعهد المسلمون نظيرا لها من قبل .

ان عليا (ع) كان يرى ان اقل ما يطلب من خليفة رسول الله ان يحمي شريعة الله من التلاعب والارض من الفساد ويحتفظ بخيرات الارض لا لفئة من الحاكمين ولا لفريق دون فريق ، وقد عمل على

ترسيخ هذه المبادىء وتنفيذها بدون هوادة ولم ينحرف عن سيرة رسول الله (ص) كما انحرف غيره وسلك طريق الجبابرة والطغاة . لقد حاول اقصاء معاوية عن الشام فأرسل اليها سهل بن حنيف واليا مكانه ، ولما دخل حدودها اعترضته خيل لمعاوية ، ولما انبأهم بمهمته قالوا له : ارجع الى من ارسلك ، فرجع الى المدينة وأثار رجوعه قلق المسلمين ، وأيقنوا ان معاوية لن يتراجع وسيفتح جبهة في الشام ضد العهد الجديد ويجند لها كل الامكانيات التي تضافرت لديه خلال عشرين عاما مضت على ولايته فيها ، وكان الامر كذلك فقد اصر على العصيان وتذرع بدم عثمان الذي ساعد على قتله هو وأسرته بسوء تصرفاتهم ، وخذله في ساعات المحنة يوم كان في أمس الحاجة الى نجدته ، واستغل معاوية تمرد الحلف الثلاثي المؤلف من طلحة والزبير وعائشة ، وبذل الاموال الطائلة لتأييدهم واتساع جبهتهم ، ومضى يحثهم على المعارضة ويغريهم بكل انواع الدعم واتمام البيعة لهم بالشام ونواحيها .

وجاء في شرح النهج ان عليا (ع) كتب الى معاوية ان الناس قتلوا عثمان بدون مشورة مني وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع ، فاذا اتاك كتابي فبايع لي وأوفد لي أشراف الشام قبلك ، فلما قدم رسوله على معاوية وقرأ كتابه بعث رجلا من عميس ، ومعه كتاب الى الزبير بن العوام يقول فيه : لعبد الله امير المؤمنين ؛ الزبير بن العوام من معاوية ابن ابي سفيان سلام عليك اما بعد فاني قد بايعت لك اهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك اليهما ابن ابي طالب فانه لا شيء بعد هذين المصرين وقد بايعت لطلحة من بعدك فأظهرا الطلب بدم عثمان وادعوا الناس الى ذلك ، وليكن منكما الجد والتشمير اظفركما الله وخذل مناوئكما وخصمكما ، وأضاف الراوي الى ذلك انه لما وصل الكتاب الى الزبير سر به وأخبر طلحة وأطلعه عليه فلم يشكا في نصح معاوية لهما على حد تعبير الراوي .

وهنا يروي المؤرخون ان طلحة والزبير بعد ان يئسا من المشاركة في الحكم وأيقنا انهما لن يحققا شيئا من أطماعهما في ظل الحكومة الجديدة اضمرا الخلاف واعلان الثورة ، وكانت عائشة قد اختارت الاقامة في مكة ورجعت اليها بعد ان بلغها ان مصرع عثمان قد انتهى باستيلاء علي على السلطة كما ذكرنا وانضم اليها الحاقدون من بني امية وعبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة ، وجعلت تدعو الناس للخروج والثورة ، وكلما اجتمع عليها ملأ من الناس تقول :

ايها الناس ان هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا الى اخوانكم من اهل البصرة فانكروه ، فقد كفاكم اهل الشام ما عندهم ، ولعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين ثارهم .

وكان عبد الله بن عامر رجح لها الخروج الى البصرة وزعم ان له فيها انصارا يستجيبون لطلبه ويتداعون لنصرته ، فاستجابت لطلبه بعد ان اتصلت بالزبير وطلحة واتفقوا جميعا على ذلك ، وأرسلت الى نساء النبي (ص) تدعوهن الى نصرتها والخروج معها لحرب علي بن ابي طالب ، فوافقت على طلبها حفصة بنت عمر بن الخطاب كما يروي المؤرخون ، وما ان علم اخوها عبد الله بن عمر بذلك حتى جاءها وأقنعها بالعدول عن رأيها وتلا عليها الآية :

(وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى .)

وجاء في رواية شرح النهج ان عليا لما نزل بذي قار كتبت عائشة الى حفصة كتابا تقول فيه ان عليا قد نزل ذي قار وأقام بها مرعوبا خائفا لما بلغه من عدتنا وجماعتنا فأصبح بمنزلة الاشقر ان تقدم عقر وان تأخر نحر، فدعت حفصة جواريها يتغنين ويضربن بالدفوف وأمرتهن ان يقلن في غنائهن :

ما الخبر ما الخبر علي في السفر كالفرس الاشقر ان تقدم عقر وان تأخر نحر .

وجعلن بنات الطلقاء يدخلن على حفصة لسماع ذلك الغناء ، فبلغ

ام كلثوم بنت امير المؤمنين (ع) فلبست جلابيبها ودخلت عليهن في نسوة متنكرات ، ثم اسفرت عن وجهها ، فلما عرفتها حفصة خجلت واسترجعت ، فقالت لها ام كلثوم : لئن تظاهرتما عليه منذ اليوم فلقد تظاهرتما على اخيه من قبل فأنزل الله فيكن ما انزل ، فقالت لها حفصة: كفي رحمك الله وأمرت بكتاب عائشة فمزقته . وأما ام سلمة فقد حاولت ان تثنيها عن عزمها وناشدتها ان تعود الى عقلها ورشدها وذكرتها بكتاب الله الذي اسقط الجهاد عن النساء وفرض على نساء النبي (ص) ان يقرن في بيوتهن وذكرتها بحديث جرى لها مع رسول الله يوم كانت تغسل له رأسه وعائشة تصب لها الماء ، فقال لهما يوم ذاك : أيتكن صاحبة الجمل الأديب تنبحها كلاب الحوأب ومضت ام سلمة تقول : فقلت له أعوذ بالله من ذلك يا رسول الله ، فضرب على كتف عائشة وقال : اياك ان تكونيها يا حميراء .

وذهب المؤرخون انها كتبت اليها كتابا جاء فيه: من ام سلمة زوج النبي (ص) الى عائشة ام المؤمنين فاني احمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، ان رسول الله لو علم ان النساء يتحملن الجهاد لعهد اليك في ذلك ، اما علمت انه قد نهاك عن التفريط بالدين فان عمود الدين لا يثبت بالنساء ان مال ولا يرأب بهن ان انصدع ، ان جهاد النساء غض الاطراف وخم الذيول ، ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض الفلوات ناحة قعودا من بلد الى بلد ، وغدا تردين على رسول الله ، وأقسم بالله لو قيل لي : يا ام سلمة ادخلي الجنة لاستحييت من رسول الله ان ادخلها وأنا هاتكة حجابا ضربه علي .

ولكن عائشة ظلت في طريقها ولم تستجب لنصيحتها ومضت تستعد للثورة وتجمع حولها الموتورين من بني امية وغيرهم ممن اغراهم مروان ابن الحكم وعبد الله بن عامر ويعلى بن امية بالاموال والمراكز اذا نجحوا في معركتهم مع علي بن ابي طالب .

موكب عائشة في طريقها الى البصرة
وما جرى فيها من احداث

ويدعي المؤرخون انها قد استدعت طلحة والزبير الى مكة لكي ينطلقوا منها جميعا الى البصرة ، فجاءا الى علي (ع) وطلبا منه ان يأذن لهما بالذهاب الى مكة لاداء العمرة ، فقال لهما : والله ما اردتما العمرة بل اردتما الغدر ، وظلا يلحان عليه حتى اذن لهما فخرجا والتحقا بعائشة في مكة المكرمة حيث كان المناوئون لعلي (ع) قد تجمعوا بها ، ولما اتموا عدتهم وتكامل عددهم اتجهوا نحو البصرة بناء لرغبة عبد الله بن عامر وطلحة .

وقال ابن قتيبة : لما اجتمع طلحة والزبير وعائشة ومن معهم على الذهاب الى البصرة ، اتاهم سعيد بن العاص وقال لهم : ان عبد الله بن عامر قد دعاكم الى البصرة وقد فر منها فرار العبد الآبق وأهلها في طاعة عثمان بن عفان ، والآن يريد ان يقاتل بهم عليا وهم في طاعته وقد خرج من بينهم اميرا ويعود الان اليهم طريدا ، وقد وعدكم الرجال والاموال ، اما الاموال فعنده ما وعدكم به وأما الرجال فلا رجل عنده.

وقال مروان بن الحكم : ايها الشيخان ما يمنعكما ان تدعوا الناس

الى بيعة مثل بيعة علي بن ابي طالب ، فان اجابوكما عارضتماه ببيعة مثل بيعته ، وان لم يستجيبوا عرفتم ما لكما عند الناس ، فقال له طلحة : يمنعنا ان الناس بايعوا عليا بيعة عامة فبم ننقضها ، وقال الزبير : ويمنعنا مع ذلك تثاقلنا عن نصرة عثمان وخفتنا الى بيعة علي بن ابي طالب ، فقال له الوليد : ان كنتما اسأتما فلقد احسنتما ، وان كنتما اخطأتما فلقد اصبتما اليوم ، وأتتما اليوم خير منكما بالامس ، وقال مروان : اما انا فهواي الشام وهواكما البصرة وأنا معكما وان كانت الهلكة .

وأضاف الرواة الى ذلك انه لما اجتمعت كلمتهم على المسير حاولا اقناع عبد الله بن عمر بالمسير معهما وعرضا عليه الامر ، وقالا : يا ابا عبد الرحمن ، ان أمّنا عائشة قد خفت لهذا الامر رجاء الاصلاح بين الناس فاذهب معنا فان لك بها اسوة ، فان بايعنا الناس فأنت أحق بالامر ، فقال لهما اتريدان ان تخرجاني من بيتي وتلقياني بين مخالب ابن ابي طالب .

ويضيف الرواة الى ذلك انهما رجعا اليه في محاولة ثانية لاقناعه بالذهاب معهما ، فقال له طلحة : يا ابا عبد الرحمن انه والله لرب حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر الغدر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ ان عليا يرى نفاذ بيعته وان معاوية لا يرى ان يبايع له ، وانا نرى ان نردها شورى فان سرت معنا ومع ام المؤمنين صلحت الامور والا فهي الهلكة .

فرد عليهما بقوله : ان كان قولكما حقا ففضلا ضيعته وان يكن باطلا فشر نجوت منه واعلما ان بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة والذل خير لكما من السيف ولن يقاتل عليا الا من كان خيرا منه ، وأما الشورى فقد والله كانت فقدم وأخرتما ولن يردها الا اولئك الذين حكموا فيها فاكفياني انفسكما .

ولم تأت هذه النصيحة من عبد الله بن عمر بالثمرة المرجوة ، ولا

وجدت اذنا صاغية منهما ، لان الاطماع والاهواء كانت تدفعهما دفعا الى الطريق الذي اختاروه ، وجهزوا جيشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل كما يذهب الى ذلك بعض المؤرخين ، وكتبوا الى ثلاثة من زعماء البصرة يستجدونهم المساعدة على علي بن ابي طالب ، كعب بن المسور والاحنف بن قيس والمنذر بن ربيعة ، ولكنهما لم يجدا في اجوبة الثلاثة ما يشجعهما على المضي في طريقهما ، ومع ذلك فقد تحرك موكب الناكثين بقيادة طلحة والزبير وعائشة باتجاه البصرة يحف به الطامعون والحاقدون الذين تستروا بالثأر لعثمان لتحقيق اطماعهم وانتزاع السلطة من اصحابها الشرعيين كما تؤكد ذلك جميع مواقفهم .

وجاء في الكامل لابن الاثير ما يشير الى ذلك ايضا ، فقد قال ان مروان بن الحكم وقف على طلحة والزبير وقال : على أيكما اسلم بالامرة وأؤذن للصلاة ؟ فقال عبد الله بن الزبير : على ابي ، وقال محمد ابن طلحة : على ابي ، ولما سمعت عائشة ما دار بينهما ارسلت الى مروان وقالت له : مالك أتريد ان تفرق بينهما : ليصلي بالناس ابن اختي عبد الله فكان يصلي بهم حتى قدموا البصرة ، وقال معاد بن عبيد الله: والله لو ظفرنا وانتصرنا على علي بن ابي طالب في وجهنا هذا سنقتتل فيما بيننا لان الزبير لا يتركها لطلحة وطلحة لا يتركها للزبير .

وقال لهما شخص ممن كان معهما : اخبراني واصدقاني ان ظفرتما لمن تجعلان الامر قالا لا نجعله لاحدنا أينا اختاره الناس ، فقال لهما : يجب ان يكون لولد عثمان لانكم خرجتم تطلبون بدمه فقالا لا ندع شيوخ المهاجرين ونسجله لايتام عثمان .

وروى الطبري في تاريخه ، وابن قتيبة في الامامة والسياسة وغيرهما ان القوم بينما هم يسيرون في طريقهم الى البصرة واذا بكلاب على ماء تعترض جمل عائشة وتنبحه فسألت عائشة اي ماء هذا ؟ فقالوا لها : انه الحوأب ، فقالت انا لله وانا اليه راجعون اني لهيه وما اراني

الا راجعة الى المدينة ، فقالوا : ولم ذاك يا ام المؤمنين ، قالت سمعت رسول الله (ص) يقول لنسائه :

كاني باحداكن تنبحها كلاب الحواب .

والتفت الي وقال : اياك ان تكونيها يا حميراء ، فقال لها محمد بن طلحة : تقدمي رحمك الله ودعي هذا القول فأصرت على موقفها فأحضر جماعة من الأعراب فشهدوا لها زورا بأن هذا الماء ليس بالحوأب ، وجاءها عبد الله بن الزبير فحلف لها بأنهم قد اجتازوه من اول الليل .

كما روى ابن قتيبة ان القوم لما نزلوا باوطاس من ارض خيبر اقبل عليهم سعيد بن العاص ومعه المغيرة بن شعبة فنزل سعيد عن راحلته وأتى عائشة وقال لها : اين تريدين يا ام المؤمنين ، فقالت : اريد البصرة فقال لها : وما تصنعين بها ؟ قالت : اطلب بدم عثمان ، قال : هؤلاء قتلة عثمان معك ، والتفت الى مروان بن الحكم وأعاد عليه نفس السؤال الذي وجهه الى عائشة ، وقال له : ان قتلة عثمان معكم ، والله ما قتله الا طلحة والزبير وهما يريدان الامر لانفسهما .

والتفت المغيرة بن شعبة الى الناس وقال : ان كنتم خرجتم مع امكم فارجعوا بها خير لكم ، وان كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وان كنتم نقمتم على علي بن ابي طالب شيئا فبينوا ما نقمتم عليه .

ومضى يقول على حد زعم الراوي : انشدكم الله فتنتين في عام واحد فلم يسمع لهما احد ولحق سعيد بن العاص باليمن والمغيرة بالطائف ولم يشهدا حرب الجمل وصفين مع احد من الفريقين .

وعندي اكثر من الشك في هذه الرواية لان المغيرة بن شعبة لم يترك فتنة الا وكان من مثيريها او شريكا في اثارتها كما يبدو ذلك لمن تتبع مواقفه من الاحداث التي وقعت في عصره وكان شريكا لطلحة في التحريض على عثمان وبعيد عليه ان يصارح الجيش الزاحف بهذا

الاسلوب بحضور طلحة والزبير وأن يدافع عن علي (ع) بتلك الصراحة التي لا ترضي المنشقين عليه .

وقبل ان تصل عائشة ومن معها الى البصرة ارسل عثمان بن حنيف ابا الاسود الدؤلي وعمران بن حصين وأوصاهما ان يقابلا القوم قبل دخولهم البصرة عسى ان يكف الله شرهم ، وكان ابو الاسود المتكلم الاول مع طلحة فقال له : انكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا في قتله وبايعتم عليا غير مؤامرين لنا في بيعته فلم نغضب لعثمان اذ قتل ولم نغضب لعلي اذ بويع فأردتم خلع علي ونحن على الامر الاول فعليكم المخرج مما دخلتم فيه ، وتكلم بعده عمران بن حصين بما يشبه ذلك ، وكان جواب طلحة لهما كما يدعي المؤرخون ، ان صاحبكم لا يرى ان معه في هذا الامر غيره وليس على هذا بايعناه ، والله ليسفكن دمه ، فقال ابو الاسود لعمران : ان طلحة قد غضب للمُلْك ، ثم تكلما مع الزبير فقال لهما : ان طلحة واياي كروح واحدة في جسدين ، وأضاف الى ذلك : لقد كان لنا مع عثمان بن عفان فلتات احتجنا فيها الى المعاذير ولو استقبلنا من امرنا ما استدبرنا لنصرناه .

ثم اتيا عائشة فقالا لها : يا ام المؤمنين ما هذا المسير أمعك من رسول الله عهد بذلك ؟ فقالت : ان عثمان قتل مظلوما لقد غضبنا لكم من السوط والعصى أفلا نغضب لقتل عثمان ، فرد عليها ابو الاسود بقوله : وما انت من عصانا وسيفنا وسوطنا وأنت حبيس رسول الله امرك ان تقري في بيتك فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ، فقالت : وهل احد يقاتلني ؟ فقال : اي والله ، لتقاتلين قتالا اهونه الشديد . وقال لها جارية بن قدامة السعدي مرة اخرى : يا ام المؤمنين والله لقتل عثمان ابن عفان اهون من خروجك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح. لقد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك ، وان من رأى قتالك فقد رأى قتلك فان كنت قد اتيتنا طائعة فارجعي الى منزلك

وان كنت مستكرهة فاستعيني بالناس، الى كثير من المواقف التي وقفها جماعة من اهل البصرة وغيرهم مع طلحة والزبير وعائشة وباءت جهودهم بالفشل ، ومضى القوم على موقفهم المتصلب حتى دخلوا البصرة فانضم اليهم جماعة منها بين طامع وحاقد وبين من التبس عليهم الامر وغرهم موقف عائشة زوجة النبي وابنة الخليفة الاول .

وجاء في رواية الطبري انهم لما دخلوا البصرة جاءهم عثمان بن حنيف عامل امير المؤمنين عليها وقال لهم : ما الذي نقمتم على علي حتى خرجتم عليه تقاتلوه ، فقالوا : لانه ليس بأولى بالخلافة منا وقد صنع ما صنع ، فقال لهم : ان الرجل امرني ان اسألكم وأكتب اليه بجوابكم، وطلب منهم ان يصلي بالناس حتى يأتي جوابه فوافقوا على ذلك . ومضى الطبري يقول : انهم لم يلبثوا الا يومين حتى وثبوا عليه فقاتلوه وأخذوه اسيرا ولولا خوف الانصار لقتلوه ومع ذلك فقد مثلوا به ونتفوا شعر حاجبيه ولحيته وأشفار عينيه .

وقال ابن قتيبة : ان الغزاة اتفقوا مع عثمان بن حنيف وأنصاره بعد معارك حصلت بين الطرفين وتم الاتفاق بعدها على ان لعثمان بن حنيف دار الامارة والمسجد وبيت المال وان ينزل اصحابه حيث شاؤوا في البصرة ، وان لطلحة والزبير ومن معهما ان يقيما في البصرة الى ان يدخلها علي بن ابي طالب فاذا اجتمعت كلمتهم بعد دخوله واتفقوا كفاهم الله شر الفتنة ، وان لم تتفق لكل فريق ان يصنع ما يريد ، وانصرف عثمان بن حنيف الى عمله وتفرق انصاره في اعمالهم ومضت ايام قلائل عاد فيها الهدوء الى المدينة والتزم فيها الطرفان بالاتفاق ، ولكن الغزاة قد استغلوا انصراف انصار ابن حنيف الى اعمالهم والتزامهم ببنود الهدنة فهاجموا دار الوالي في ليلة مظلمة مسطرة فقتلوا الحرس المحيطين بالدار ومن هب لنجدتهم في سواد الليل حتى بلغ عدد القتلى اربعين

رجلا وقبضوا على الوالي فنتف مروان شعر وجهه ورأسه وتركـــوه اسيرا في ايديهم واستولوا على بيت المال بما فيه .

وأضاف الى ذلك اليعقوبي في تاريخه انه لما جاء وقت صلاة الفجر تنازع طلحة والزبير على الصلاة وجذب كل منهما الآخر من المصلـــى واستمر النزاع بينهما حتى كاد ان يفوت وقتها فصاح الناس الصـــلاة الصلاة يا اصحاب محمد فتدخلت عائشة بينهما واقترحت ان يصلـــي بالناس محمد بن طلحة يوما وعبد الله بن الزبير يوما وانتهى الخـــلاف بينهما على الصلاة عند هذا الحد .

وروى المسعودي في مروجه ان الغزاة قتلوا سبعين رجلا مـــن انصار عثمان بن حنيف منهم خمسون رجلا قتلوا بعد الاسر جرا وجرحوا عددا كبيرا من الناس حتى تم لهم الاستيلاء على السلطة بكاملها فـــي المدينة .

ومهما كان الحال فالنصوص التاريخية التي تحدثت عن طلحـــة والزبير وعائشة ومن معهم من المنشقين عن امير المؤمنين كلها متفقة على ان موجة من السخط كانت تتحدى اولئك الغزاة وتضطرهم الى التضليل والكذب والصاق التهم بالخليفة الشرعي لتبرير مواقفهم المعادية له وان عثمان بن حنيف بصفته المسؤول عن الامن والنظام وصاحب السلطة على البصرة وما يتبعها من المقاطعات كان حريصا في جداله معهم ومواقفـه منهم على ان يردهم لرشدهم قبل ان يورطوا الامة في صراع رهيب تراق فيه الدماء وتتلف فيه الاموال ويقطف ثماره معاوية وأمثاله من اعـــداء الاسلام ، ولكنهم اصروا على موقفهم وبالتالي غدروا به فأسروه وقتلوا جماعة من انصاره واستقرت السلطة في ايديهم لفترة قصيرة من الزمن، ووجدوا من بعض الفئات تجاوبا معهم ودعما لموقفهم كان وجود عائشة من بعض اسبابه لانها زوجة الرسول وابنة الخليفة الراحل وللمرأة اثرها

في اثارة الجماهير لاسيما اذا كانت تتمتع بمركز اجتماعي وشخصية قوية كمركز السيدة عائشة وشخصيتها .

وكان امير المؤمنين (ع) بعد ان احيط علما بمواقف طلحة والزبير وعائشة وبمسيرتهم الى البصرة واعلانهم العصيان المسلح عدل عما كان يخطط من اجله لاستدراج معاوية او قتاله اذا بقي مصرا على موقفه فاتجه نحو البصرة بجيش ضم وجوه المهاجرين والانصار ومن اشتركوا مع النبي (ص) في بدر وأحد والاحزاب واكثر مواقفه مع المشركين ، ومضى يجدّ السير باتجاه البصرة وهو يأمل ان يدرك الغزاة المتمردين قبل دخولهم اليها وفي نفسه بقية من الامل ان يتراجعوا عن غيهم وينضموا الى جماعة المسلمين واستقبله عامله ابن حنيف وقد مثل به القوم كما ذكرنا فكظم غيظه وواصل مسيرته حتى اذا اصبح قريبا منها توقف عن المسير وأرسل رسله الى القوم يحذرهم من عواقب هذا التمرد ومن الفتنة التي لو استمرت قد تمتد الى اقطار الدولة كلها فرفضوا الانصياع لنصائحه وأصروا على موقفهم ، وخلال تلك المدة التي كان يحاور فيها المتمردين ارسل رسله الى الكوفة ليستعين بها على تلك الفئة الباغية حتى تفيء الى امر الله ، وبعد جدال عنيف وحوار طويل بين الوالي عليها ابي موسى الاشعري وحاشيته من جهة وبين الحسن بن علي والاشتر وجماعة من اهل الكوفة من جهة ثانية تطوع عدد كبير من اهل الكوفة لمساعدة الامام (ع) على المتمردين وانضموا الى الجيش الزاحف معه من المدينة . ولما يئس من تراجع القوم وأيقن انهم مصممون على المضي في طريقهم مهما كانت التكاليف والنتائج زحف بمن معه من المسلمين الى البصرة .

وهنا يصف المسعودي في مروجه جيش علي (ع) وتنظيمه الدقيق وهو يتدفق كالسيل نحو البصرة في رواية اسندها الى المنذر بن الجارود جاء فيها ان عليا لما قدم البصرة دخلها منا يلي الطف وأتى الزاوية

فخرجت انظر اليه فوزد موكب من نحو الف فارس يتقدمهم فارس على فرس اشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلد سيفا معه راية وتيجان يغلب عليها البياض والصفرة مدججين بالحديد والسلاح ، فقلت من هذا ؟ فقيل لي انه ابو ايوب الانصاري صاحب رسول الله (ص) وهؤلاء الانصار وغيرهم ، ثم تلاه فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفا متنكب قوسا معه راية على فرس اشقر في نحو الف فارس، فقلت من هذا ؟ فقيل هذا خزيمة بن ثابت الانصاري ذو الشهادتين ، ثم مر بنا فارس آخر على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء ، وعليه قباء ابيض مصقول متقلد سيفا متنكب قوسا في نحو الف فارس فقلت من هذا فقيل لي ابو قتادة بن ربعي ، ثم مر بنا فارس على فرس اشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه ومن خلفه شديد الادمة عليه سكينة ووقار رافع صوته بقراءة القرآن ومعه راية بيضاء وألف من الناس مختلفو التيجان حوله مشيخة وكهول وشبان كانوا قد وقفوا للحساب قد اثر السجود في جباههم ، فقيل لي هذا عمار ابن ياسر في عدة من المهاجرين والانصار وأتباعهم ، ومر بنا فارس آخر على فرس اشقر تخط رجلاه في الارض في الف من الناس فقيل لي : هذا قيس بن سعد بن عبادة الانصاري في الانصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان، ومضى الراوي يصف المواكب التي مرت به وفرسانها حتى انتهى الى الموكب الذي فيه امير المؤمنين (ع) فقال ومر بنا موكب فيه خلق كثير من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات يتقدمهم رجل شديد الساعدين نظره الى الارض اكثر من نظره الى فوق كأنما على رؤوسهم الطير وفي ميسرتهم شاب حسن الوجه فقيل لي هذا علي ابن ابي طالب ، وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله ، وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى والذي خلفه عبد الله بن جعفر وولد عقيل وفتيان بني هاشم ، والشيوخ الذين معه اهل بدر من

المهاجرين والانصار ، فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية فصلى اربع ركعات ثم عفر خديه على التربة وقد خالط ذلك دموعه ، ورفع يديه وقال :

اللهم رب السموات وما اظلت والارض وما اقلت ورب العرش العظيم، هذه البصرة اسألك من خيرها واعوذ بك من شرها ، اللهم انزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين ، اللهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبغوا علي ونكثوا بيعتي ، اللهم احقن دماء المسلمين .

ثم بعث اليهم من اصحابه من يناشدهم الله في الدماء والاموال فلم يستجيبوا له وأصروا على القتال ، ولكن عليا (ع) ظل يحافظ على السلم ويؤكد على اصحابه ان يلتزموا الهدوء والصبر ولا يباشروا القتال ايثارا للعافية واتمام الحجة وأملا منه في اجتماع الكلمة ، هذا وعائشة تحرض الناس عليه وهي على جمل يحف بها انصارها وتقول : ايها الناس لقد غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه أفلا نغضب لعثمان من السيف ، الا ان خليفتكم قتل مظلوما لقد انكرنا عليه اشياء وعاتبناه بها فأعتب وتاب الى الله وما يطلب من المسلم ان اخطأ اكثر من ان يتوب الى ربه ويعتب الناس ، ولكن اعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا الحرمات الثلاث: حرمة الدم والشهر الحرام والبلد الحرام .

ولما يئس امير المؤمنين من التوصل الى السلم بالمناظرة والحجة امر احد رجاله ان يخرج بين الصفين وبيده مصحف يدعوهم الى الرجوع اليه ، وقد اخبره بأن الناكثين قد يرمونه بالنبل وهو يدعوهم الى الرجوع لحكم الكتاب ، فلم يتردد الفتى ومضى بيده المصحف حتى اذا كان بين الصفين رفعه بكلتا يديه ووقف باتجاه عائشة وجندها ودعاهم الى الرجوع الى حكمه ، فكان جوابهم ان رموه بسهامهم من كل جانب حتى وقع قتيلا فحملوه الى امير المؤمنين فاسترجع وترحم عليه ، وأمر اصحابه ان يدنوا من القوم فزحفوا نحوهم ، يتقدمهم عمار بن ياسر ووجوه المهاجرين والانصار ، فتوجه عمار بن ياسر اليهم وقال : ايها

الناس ما انصفتم نبيكم حيث ختم عقائلكم في خدورها وأبرزتم عقيلته للسيوف فرشقوه بالنبال فأصابت نبالهم اخا لعبد الله بن بديل فقتل بها فحمله اخوه الى امير المؤمنين ، كما اصيب آخر فقتل ايضا واحتدمت المعركة بين الفريقين وبلغت اشدها وبقي شيء في نفس امير المؤمنين اراد ان يذكرهم به عساهم يعودون عن غيهم وضلالهم ، فخرج بين الصفين واستدعى طلحة والزبير فخرجا اليه وتواقفا ثلاثتهم بين المعركتين ، فقال لهم : الم تبايعاني ، قالا بايعناك كارهين ولست احق بهذا الامر منا ، ثم التفت الى طلحة وقال له : احرزت عرسك وخرجت بعرس رسول الله تعرضها لما تتعرض له ، وقال للزبير : كنا نعدك من آل عبد المطلب حتى نشأ ابنك ابن السوء ففرق بيننا وبينك . ومضى يقول: أتذكر يوم قال لك رسوله ستقاتله وأنت ظالم له ، فقال الزبير : الان ذكرت ذلك ، ولو ذكرته قبل اليوم ما خرجت عليك .

وهنا تختلف الروايات في موقف الزبير بعد هذا الاجتماع وهذا الحوار ، فبعضها ينص على ان الزبير قد اعتزل القتال من ساعته ومضى حتى انتهى الى المكان الذي قتل فيه ، والبعض الآخر يذهب الى ان ابنه عبد الله رأى منه فتورا بعد اجتماعه الى علي (ع) فعيره بالجبن ، وقال له : رأيت رايات ابن ابي طالب وعلمت ان تحتها الموت فجبنت عن القتال وما زال به حتى اغضبه وأحرجه ، فقال له : ويلك ، اني حلفت ان لا اقاتله ، فقال له ولده : وما اكثر ما يكفر الناس عن ايمانهم فاعتق غلامك وامض لجهاد عدوك ، وكان الامر كما اشار عليه ولده فكفر عن يمينه ومضى يقاتل ويشد على عسكر علي (ع) والناس معه وظل على موقفه وصلابته مع المقاتلين حتى سقط الجمل وانهزم جيشهم فانهزم مع المنهزمين فأدركه بن حرموز وقتله على حين غفلة منه .

وهذه الرواية اقرب الى الصحة من الرواية الاولى ، ذلك لإن

الزبير ما كان ليغفل عن حديث رسول الله (ص) وهو يعلم بأنه ظالم لعلي في كل تحركاته ، وقد استحل دماء المسلمين في البصرة هو وزميله طلحة قبل دخول امير المؤمنين اليها ، وهما يعلمان بأن ذلك لا يحل لهما، ولكن شهوة الحكم قد طغت عليهما فاستباحا كل شيء في سبيله ، وما كانت تلك الكلمة التي قالها رسول الله (ص) قبل خمسة وعشرين عاما لترده عن غيه وضلاله ما دامت تلك الالوف المحتشدة من حوله بحماسها واندفاعها تمنيه الانتصار على علي بن ابي طالب ، وما دام معاوية يسميه امير المؤمنين ويكتب اليه من الشام ، من معاوية بن ابي سفيان الى امير المؤمنين الزبير بن العوام .

وأما طلحة فقد اصيب في المعركة وتحامل على نفسه ولما فر انصاره وجد مروان بن الحكم جوا مهيئا لان يثأر منه لعثمان فرماه بسهم اصاب عرقا في اكحله فقطعه فنزف دمه ومات منه .

وجاء في بعض المرويات ان عبد الملك بن مروان كان يقول : لولا ان ابي اخبرني بأنه قد قتل طلحة ما تركت تيميا الا قتلته بعثمان .

ومجمل القول ان الفريقين في تلك المعركة قد اقتتلا قتالا ضاريا لم يشهد تاريخ البصرة قتالا اشد ضراوة منه واستمر حتى اصبح اصحاب امير المؤمنين على ابواب النصر وعائشة في هودجها تحرض الناس على القتال وتتحدث مع من هم على يمينها وشمالها ومن تزاحموا على حطام الجمل بكلمات تلهب مشاعرهم بالحماس ، ثم تعود فتخرج يدها من الهودج تحمل بها بدرة من الدنانير وتصيح بأعلى صوتها : من يأتيني برأس الاصلع وله هذه البدرة ، وأصحابها يندفعون على الموت وهم يرتجزون :

يا امنا عائش لا تراعي كل بنيك بطل المصاع

وأصحاب امير المؤمنين يحملون على اولئك الذين استماتوا حولها وراجزهم يقول :

يا امنا اعف امنعلم والام تغذو ولدها وترحم اما ترين كم شجاع يكلم وتختلي منه يد ومعصم

واستمر الحال لفترة من الزمن لا يرى فيها الناس الا ايدي تتناثر وأرجل تقطع وأجساد تتهاوى هنا وهناك وأولئك وهؤلاء يتسابقون الى الموت وكان لا يأخذ بخطام الجمل احد الا قتل من دونه ، ولما رأى علي (ع) هذا الموقف الرهيب راعه ما رأى وعلم ان المعركة لن تنتهي ما دام الجمل واقفا على قوائمه فصاح بأصحابه : اعقروا الجمل فان في بقائه فناء العرب ، فأمر ولده محمد بن الحنفية ان يحمل بمن معه على تلك الجموع المحتشدة حول جمل عائشة وكانت الراية بيده فابطأ ابن الحنفية ليتقي سهام القوم ونبالهم التي اتجهت نحوه كالعواصف من كل جانب ، فأتاه علي (ع) وقال له : هل حملت على القوم ؟ فقال : لا اجد يا امير المؤمنين متقدما الا على سهم او سنان واني منتظر نفاد سهامهم، فحمل بمن معه نحوهم ثم توقف ، فأتاه امير المؤمنين وضربه بقائم سيفه وقال له : لقد اخذك عرق من امك كما جاء في رواية المسعودي وأخذ الراية منه وتقدم بها فحمل الناس معه ، فكان القوم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وتناوب بنو خبة على خطام الجمل حتى قتل منهم جماعة ، فأمرهم بأن يعقروا الجمل ، فلما عقروه هوى الى الارض وله ضجيج لم يسمع الناس بمثله على حد تعبير الراوي ، فتفرق من كان حوله كالجراد المنتشر وبقيت صاحبة الهودج وحدها في ميدان المعركة ، فقال لاخيها محمد بن ابي بكر ادرك اختك حتى لا تصاب بأذى ، فأقبل يشتد نحوها وأدخل يده في هودجها وقال لها : انا اخوك اقرب الناس منك وأبغضهم اليك ، يقول لك امير المؤمنين : هل اصابك شيء ؟ فلم تتكلم ، ثم جاءها امير المؤمنين فوقف على هودجها وضربه بقضيب كان في يده ، وقال : يا حميراء ، ألم يأمرك رسول الله ان تقري في بيتك ، والله ما انصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك ، وأمر اخاها فأنزلها في

دار صفية بنت الحرث بن ابي طلحة العبدي .

وانتهت المعركة بهزيمة المتمردين وسقوط طلحة والزبير قتيلين مع آلاف القتلى من الطرفين وحاول بعض انصاره قتل عائشة فأنكر عليهم ووضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يتعرض لها احد بسوء ، وأمر من ينادي في اصحابه : لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا هاربا ولا تطعنوا مدبرا ومن القى سلاحه فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن .

ووقف بين قتلاه وقتلى المتمردين عليه في حالة من القلق والتمزق ، وبين خصومه وأنصاره رجال من الذين ابلوا بلاء حسنا في الاسلام ، لقد حزن من اجل هؤلاء الذين قتلهم وأولئك الذين قاتل بهم ، ومن اجل الرسالة السامية التي تتعرض للفتنة في بداية عهد جديد تمنى فيه ان يتفرغ لاهدافه التي كان يطالب بالخلافة من اجلها .

لقد حزن من اجل هذا العمى الذي اصاب فريقا من المسلمين الذين قادتهم المطامع والاهواء الى هذا المصير السيء الذي لم يكن يتمناه لهم ولا لاحد من المسلمين ، وحزن من اجل نفسه وقد وقفت قريش له بالمرصاد كما وقفت لابن عمه من قبل وقد كتب عليه ان يقاتلها على تطبيق الرسالة كما قاتلها هو وابن عمه رسول الله على تنزيلها .

وكان يتمنى ان يقاتل بهم اعداء الاسلام لتبقى الرسالة وتتجه في طريقها الصحيح وعاد يتأمل القتلى من الجانبين وقلبه يتصدع لهذا المشهد الذي وجد فيه رفاقه في الجهاد مع رسول الله صرعى اطماعهم وأهوائهم ، وجعل يترحم على هؤلاء ثم صلى عليهم وأذن لذوي القتلى بدفن قتلاهم ، ولم يفسح المجال لاحد ممن وترهم طلحة والزبير باولادهم واخوانهم وعشائرهم ان يأخذوا من اموال المنهزمين الا ما وجدوه في المعركة من اسلحة وأمتعة كانوا يحاربون بها ، وأمرهم برد بقية الاموال لاصحابها ، وقال : ليس في هذه الحرب مغنم لمنتصر ، وأرسل من ينادي في البصرة من عرف شيئا له فليأخذه .

وجاء في بعض المرويات ان جماعة من اصحابه ارادوا الاستيلاء على جميع متروكات المتمردين وألحوا عليه ان يسمح لهم بذلك ، كما اعتادوه في حروبهم ومعاركهم فأجابهم بأن بين الاسرى امكم عائشة فمن يأخذها في سهمه .

وسواء صحت هذه الرواية او لم تصح فالمتيقن انه عفا عن الجميع ولم يسمح لاحد ان يأخذ من اموال المتمردين شيئا ، وبلا شك لو ان الغلبة كانت لعائشة وجيشها لمثلوا بجثث القتلى من انصاره وأباحوا لجيشهم جميع اموال المنهزمين وحتى نسائهم وأولادهم ولم يتركوا وسيلة من وسائل الارهاب والعنف والانتقام الا ارتكبوها .

ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب في جميع معاركه التي خاضها مع اخصامه الذين انشقوا عليه لم يحاربهم ليصنع انتصار جيش على جيش بالسلاح والعتاد كما كان يصنع اخصامه ، بل كان يحارب ليصنع جيشا من المسلمين يستعين به على احقاق الحق وعلى الظلم والظالمين والطغاة المستبدين وتركيز المبادىء الاسلامية في النفوس لتصبح وكأنها غريزة او فطرة ، ولذلك لما دخل البصرة لم يترك وسيلة من الوسائل الا واستعملها مع المتمردين رغبة في الصلح والسلام وجمع الكلمة ، ولما يئس منهم وانتهت المعركة التي فرضت عليه بهزيمتهم بكى وتصدع قلبه، ولم يدخل البصرة بعد انتهاء المعركة بزهو الفاتح المنتصر على اخصامه لانه لم يحقق الاهداف التي كان ينشدها ويحارب من اجلها .

ويرى بعض الكتّاب القدامى والمحدثين ان الامر كاد يلتئم قبل المعركة واتفق الطرفان على الصلح بواسطة القعقاع بن عمرو احد الصحابة، ولكن الذين تولوا امر الثورة على عثمان وعلى رأسهم عبد الله ابن سبأ احد اليهود الذين دخلوا في الاسلام للتخريب والفساد وكانوا الى جانب علي في البصرة وحين احسوا ان امر الناس صائر الى الصلح اشفقوا ان يكونوا الثمن لهذا الصلح ، فاتفقوا فيما بينهم على انه اذا

التقى الجمعان للمصالحة ان ينشبوا القتال ويفوتـــوا على الطرفين الفرصة .

ويمضي الدكتور محمد النجار الى ابعد من ذلك فيحمل امـــير المؤمنين عليا جزءا من تبعة هذه المعركة التي تركت على رمال البصرة وراءها عشرات الآلاف من القتلى والجرحى لانه استعان على حد زعم الكاتب بتلك الفرقة السبئية وتركها تأوي الى جنده وتعبث بـه حسب اهوائها وأهدافها [1] .

ولكن المتتبع لتلك الاحداث يخرج وهو على ثقة بأن هـذا الرأي بعيد عن الواقع ذلك لان المطالبين بدم عثمان في هذه المعركة كانوا من اشد الناس عليه وقد حركتهم الاطماع والاهواء على التحريض على قتله كما حركتهم لحرب امير المؤمنين (ع) والاستعانة بأهل البصرة ، ومـع ذلك فكيف يرضون بالصلح ويعودون الى صفوف المسلمين والبصرة في قبضتهم صفر اليدين من كل امانيهم وأطماعهم ، وقد حاول علـي (ع) بكل الوسائل معهم ان يعودوا الى رشدهم حقنا للدماء فلم يفلح فـي ذلك ، ومن الجائز ان يكون القعقاع بن عمرو قد سعى مع الساعين الى الصلح ، ولكن المصادر الموثوقة لا تؤيد نجاحه في هـــذا المسعى ، والذين يحملون امير المؤمنين جزءا من تبعة تلك المعركة ويزعمون بأنه قد استعان بالسبئية القتلة وتركهم يأوون الى جنده ، هؤلاء يروون فـــي الوقت ذاته ان قتلة عثمان كانوا من الامصار الثلاثة ، وان الثائرين من هذه الامصار لم يتحركوا من بلادهم الا بعد ان استشرى الفساد في جسم الدولة من تصرفات الامويين ، ولم يكن قتلـه واردا الا كسلاح اخير عندما تفشل جميع المحاولات ويضطرهم الموقف الى ذلك .

---

١ ــ في كتاب علي بن ابي طالب نظرة عصرية ص ٩٢ .

اما اسطورة ابن سبأ والسبئية فقد وضعها اخصام الشيعة بعد معركة البصرة بمائة عام تقريبا وانطلقوا منها الى امور ألصقوها بالتاريخ كما اكدت ذلك الدراسات الحديثة .

ولو افترضنا وجود شخص من هذا النوع بين انصار علي (ع) فهل كان امير المؤمنين وأصحابه مع رغبتهم الاكيدة في الصلح والتفاهم من الغفلة الى حد تنطلق الخيانة من معسكرهم ويدبرها عبد الله بن سبأ وهم غافلون عن كل ما يجري حولهم ، وهذا ما لا يستسيغه الا مرضى القلوب والنفوس الذين ارادوا للتاريخ ان يكون كما يريدون .

ومهما كان الحال فقد انتهت معركة البصرة بقتل اثنين من قادتها الناكثين وانتهى كل شيء بعد الهزيمة التي منيت بها عائشة وجندها المخدوع ولاذ الباقون على قيد الحياة من مدبري الفتنة بالفرار وأخذت الحياة الطبيعية تعود الى المدينة تدريجا ، ورجع الناس الى امير المؤمنين يجددون له ولاءهم وبيعتهم وبايعه من لم يكن قد بايعه من اهلها بالامس ، ولم يكن لدى امير المؤمنين ما هو اولى بالعناية من ارجاع عائشة الى بيتها في المدينة ، فأرسل اليها عبد الله بن العباس كما يروي صاحب العقد الفريد وغيره ، وقال له ائت هذه المرأة لترجع لبيتها الذي امرها الله ان تقر فيه ، فجاءها ابن عباس واستأذن عليها فأبت ان تأذن له ، فدخل عليها بلا اذن منها ومد يده الى وسادة وجلس عليها، فقالت له : لقد اخطأت السنّة مرتين ، دخلت بيتي بدون اذني وجلست على متاعي بدون امري ، فقال لها : نحن علمناك السنة يا عائشة ، والله ما هو بيتك الذي امرك الله ان تقري فيه ، ان امير المؤمنين يأمرك ان ترحلي الى بلدك الذي خرجت منه .

ولم تشأ ان تخفي حقدها على امير المؤمنين (ع) حتى وهي اسيرة في يديه ، وبالرغم من اعزازها وتكريمها فردت عليه بقولها : رحم الله امير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب ، فقال ابن عباس : نعم وهذا امير

المؤمنين علي بن ابي طالب ايضا ، قالت : أبيت أبيت ، قال : مـــا كان اباؤك الا فواق ناقة بكية ثم حرت لا تحلين ولا تمرين ولا تأمرين ولا تنهين ، قال ابن عباس : فبكت حتى علا نحيبها ، ثم قالت : نعـــم ارجع ، فان ابعض البلدان الي بلد انتم فيه ، فقال لها ابن عباس: والله ما كان ذلك جزاؤنا منك اذ جعلناك للمؤمنين اما وجعلنا أباك لهـــم صديقا ، فقالت : اتمن علي يا ابن عباس برسول الله (ص) ، فقال لها : نعم نمن عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننت به علينا .

ولما رجع ابن عباس الى امير المؤمنين وأخبره بما كان من عائشة معه وما اجابها به قبله وقال : بأبي انت ذرية بعضها مـــن بعض ، ثم جهزها وبعث معها نساء ورجالا لحراستها وخدمتها حتى دخلت المدينة .

اما الرواية الشائعة بين المؤرخين والتي تنص على انه قد ارسل معها اربعين امرأة من بني عبد القيس وأمرهن ان يلبسن زي الرجال ويلبين امرها وخدمتها ولا يخبرنها بحالهن الى ان تصل المدينة ، ويضيف الرواة لهذه الرواية انها كانت كلما نزلت منزلا في الطريق تســـيء القول في علي (ع) وتقول هتك ستري ونحو ذلك ، ولم تعلم بحالهن حتى دخلت المدينة فغيرن زيهن ودخلن عليها فندمت على ما كان منها في امير المؤمنين في طريقها ، هذه الرواية مع انها تكاد تكون متفقا عليها ، لا اساس لها من الصحة ، ومن غير المعقول ان يرسل معها هذا العدد الكبير مـــن النساء ويخفى حالهن عليها مع تلك المسافة الطويلة بين البصرة والمدينة في حين انها لم تكن غبية الى حد انها لا تفرق بين الرجال والنساء مع العلم بأن بين الجنسين فوارق لا تخفى على اغبى الناس في رحلة طويلة مهما حاول اولئك النسوة ان يكتمن امرهن عن الناس .

هذا بالاضافة الى ان عملا من هذا النوع لا يخدم الاسلام ولا احدا من الناس لا يقدم عليه امير المؤمنين (ع) .

والشيء المعقول بعد تلك المعركة وملابساتها انه لا بد وأن يرسل

معها بعض النسوة لخدمتها وعددا من الرجال لحراستها مخافة ان يقدم احد على قتلها او الاساءة اليها بعد ان تسببت بتلك المجزرة التي لم يعرف تاريخ المسلمين اسوأ منها . ويروي الرواة انها بعد ان استقرت بالمدينة وجاءها الناس للسلام عليها كانت تبكي حتى تبل خمارها وتقول ليتني مت قبل اليوم وأحيانا تقول : ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين عاما .

وبلا شك فان بكاءها ونحيبها لم يكونا بدافع التوبة والرجوع الى الله من تلك المواقف المشينة في تاريخ المرأة العربية والاسلام ، بل لانها فشلت في معركتها وفقدت قادة جيشها ولم تحقق غير الخزي والعار ، وخرج منها علي (ع) منتصرا وأقوى مما كان عليه قبل خروجها الى البصرة وهذا ما لا تطيقه السيدة عائشة غفر الله لها .

علي (ع) في طريقه الى الكوفة

لم اجد في ما بين المصادر ما يشير الى ان امير المؤمنين كان يفكر في ترك المدينة حين خروجه منها الى البصرة وانه كان يعـــزم على ان يتخذ الكوفة وغيرها من الامصار مقرا لحكومته بدلا من المدينة ، ولا اظن ان ذلك كان في حسابه او حساب احد من الناس ، ولكن التطورات التي حدثت بعد المعركة فرضت عليه ذلك ، فبعد ان تفرق المتمردون وأرجع السيدة عائشة الى بيتها الذي امرها الله ورسوله ان تقر فيـــه وجدد الناس بيعتهم له في البصرة واستتب فيها الامن ، ولاها ابن عمه عبد الله بن العباس وخرج منها بعد شهر او شهرين من انتهاء المعركة على ابعد التقديرات متجها نحو الكوفة ليتخذها مقرا له، وهنا يختلف المؤرخون في الدوافع التي فرضت عليه ذلك ، فبعضهم يرى ان الاشتر النخعي وغيره من زعماء الكوفة ارادوه على ذلك وألحوا عليه فنزل عند رغبتهم، ويرى آخرون بأن الثائرين الذين يسميهم الطبري وبعـــض المؤرخين بالسبئية تعجلوا الخروج من البصرة الى الكوفة فاضطروه ان يلحق بهم مخافة ان يفسدوا فيها ويخلقوا له فتنة كالتي كانت في البصرة .

وجاء في بعض المرويات ان عليا (ع) لما ولـــــى ابناء عمه العباس

الامصار الثلاثة وجعل على البصرة عبد الله وعلى اليمن عبيد الله ، وعلى الحجاز قثم بن العباس انكر عليه مالك بن الاشتر ذلك وقال له : علام قتلنا الشيخ بالامس وارتحل مسرعا الى الكوفة وفي نفسه شيء من هذا التصرف ، فاضطر امير المؤمنين الى ان يتخذها مقرا له مخافة ان يقوم ابن الاشتر او غيره بما يسيء الى الامن والنظام الجديد الى غير ذلك مما قيل في اسباب هجرته الى الكوفة ، والظاهر ان ذلك كله لا يمت الى الواقع بصلة من الصلات ذلك لان اسطورة السبئية على تقديرها قد انتهت مهمتها في البصرة وحققوا اهدافهم كما يزعم بعض الكتاب ، ولا مصلحة لهم في ايجاد فتنة في الكوفة بعد ما صارت الامور في البصرة الى ما يريدون كما يزعم بعض المؤرخين ، ولم يكن ابن سبأ بعيدا عن علي (ع) كما يدعون ليشاغب عليه في الكوفة .

وأما حديث غضب مالك بن الاشتر من تولية اولاد العباس بن عبد المطلب فهو من صنع الرواة ايضا لان مالك الاشتر ارفع شأنا من ان يكون من دعاة الفتنة او ممن يشاغبون على امير المؤمنين ، وقد صح عنه انه قال : كان لي مالك كما كنت لرسول الله ، وهو يعرف مكانتهم في الاسلام واخلاصهم للنظام الجديد وحرصهم على ان تسير الامور حسب التخطيط الذي يريده الامام (ع) .

وعندما نلاحظ الظروف الحرجة والاحداث القاسية التي واجهت خلافة علي (ع) يمكن ان نستخلص منها السبب الذي دعاه الى ترك المدينة عاصمة الخلافة الاسلامية واختيار الكوفة بديلا لها ، لانه قبل العصيان المسلح الذي قام به الحلف الثلاثي كان يعد العدة لارسال جيش قوي الى الشام يتولى قيادته بنفسه لاقصاء معاوية عنها ، ولما تمرد عليه طلحة والزبير واجتمع اليهما الطامعون والموتورون من الامويين وغيرهم وخرجوا من الحجاز يريدون البصرة ومعهم زوجة النبي عائشة ادرك ان تغاضيه عنهم يشكل خطرا على الامة لا يقل عن خطر معاوية

فأرجأ امر معاوية ريثما يسوي حسابه معهم ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها ، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعدادا كاملا ، ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز فرصة لانجاح خطته فانقاد اليه اهل الشام وأظهروا غضبهم لعثمان وحرصهم على الطلب بدمه من علي وأصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأنى ويتخذ التدابير الكافية لكل الاحتمالات ، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل الى زعمائها وقادة الجيوش من يمنيهم ويغريهم حتى انقاد اليه جماعة منهم ، كل ذلك لم يغب عن علي (ع) وقد وضعه في حسابه فآثر ان يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة نظرا لمركزها العسكري وقربها من الحدود التي تفصل بين البلدين .

ويرى جماعة من المؤرخين ان عليا (ع) دخل الكوفة في اواخر رجب من سنة ست وثلاثين للهجرة فاستقبله اهلها بحفاوة بالغة، وخلال الاشهر الباقية من تلك السنة كان يستعد لحرب معاوية ووجد حماسا وتجاوبا من اهل الكوفة يبعث على الامل والاطمئنان ، فالذين اشتركوا معه في حرب الناكثين يريدون ان يضيفوا نصرا الى نصر ، والذين تخلفوا عنه يريدون ان يعوضوا عن تخاذلهم عنه في معركته مع الناكثين في البصرة، وكلهم كانوا يلحون عليه ليغزو اهل الشام قبل انيتحرك معاوية لغزوهم، ومع ما وجده عندهم من الحماس والاستعداد الكامل فقد ابى ان يتحرك من الكوفة قبل ان يعيد الكرة على معاوية ويرسل السفراء والكتب يدعوه الى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون اتماما للحجة ولكي يكون من معه على بينة من الامر ، فلم يستجب لطلبه وأظهر الشدة والصلابة والصلف في رسائله ، وجاء في بعضها « لقد عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وابطائك عن الخلفاء وفي كل ذلك تقاد كما يقاد الفحل المحشوش ، ولم تكن لاحد منهم اشد حسدا منك لابن عمك عثمان ، وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك

لقرابته وفضله فقطعت رحمه وقبحت حسنه وأظهرت له العداوة وأبطنت له الغش وألبت الناس عليه حتى ضربت الاباط اليه من كل مكان ، وقد بلغني انك تنتفي من دم عثمان فان كنت صادقا فادفع الينا قتلته نقتلهم به. وكانت اكثر رسائله لا تتعدى هذا الاسلوب الجاف المليء بالتحدي والصلف والاستخفاف والاستفزاز .

وما كان معاوية ليجرؤ على موقفه هذا ويخاطب امير المؤمنين بهذا الاسلوب لولا حركة التمرد التي قام بها المتمردون في البصرة ولولا انه وجد بين زعماء العراق من يستجيبون له ويعملون في الخفاء لصالحه .

وكان لا بد لامير المؤمنين (ع) ان يرد على رسائل معاوية وتفنيد مزاعمه وأكاذيبه ولكن بالاسلوب الذي يتناسب مع خلقه الكريم ومثاليته التي ظهرت في كل اقواله وأفعاله .

فقد جاء في جوابه على رسائل معاوية التي اتهمه فيها بالحسد والبغي على الخلفاء والاشتراك بدم عثمان ، (وزعمت اني للخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت ، فان كان ذلك كذلك فليست الخيانة عليك ليكون العذر لك ، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، وقلت اني كنت اقاد كما يقاد الفحل المحشوش حتى ابايع ، فلعمر الله لقد اردت ان تذم فمدحت وأن تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة ان يكون مظلوما ما لم يكن شاكا في دينه ولا مرتابا في يقينه ، وهذه حجتي الى غيرك قصدها ولكن اطلقت لك منها بقدر ما سنح لي ذكرها ، وأما ما كان من امري وأمر عثمان ، فلك ان تجاب عن هذه لرحمك منه فأينا كان اعدى له وأهدى الى مقاتله ، أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى اتى قدره عليه ، وما كنت لاعتذر من اني كنت انقم عليه احداثا ، فان كان الذنب اليه ارشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له وقد يستفيد الظنة المتنصح ، وما اردت الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله .

وكان معاوية قد قال له في بعض رسائله مهددا ومتوعدا : ليس لك ولاصحابك الا السيف ، فرد عليه امير المؤمنين (ع) في رسالة ثانية بقوله : وأما ما ذكرت من انه ليس لي ولاصحابي الا السيف ، فلقد اضحك بعد استعبار ، متى الفيت بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين وبالسيوف مخوفين ، فالبث قليلا يلحق الهيجا حمل وسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد ، وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان شديد زمامهم ساطع قتامهم متسربلين سربال الموت احب اللقاء اليهم لقاء ربهم قد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها بأخيك وخالك وجدك وأهلك وما هي من الظالمين ببعيد .

ويدعي المؤرخون ان الرسائل توالت بين الامام علي ومعاوية بن هند ، هذا ومعاوية يحاول في رسائله تضليل الرأي العام فيكثر من ذكر عثمان وقتلته ، ويطلب اعتزال الامام واعادة الامر شورى بين المسلمين ليختاروا لانفسهم ونحو ذلك من المكر والخداع والمغالطات .

في حين انه اذا كان غضبه لعثمان كما يدعي فعليه ان يبايع اولا ثم يحاكم القتلة الى الخليفة الشرعي اذا فوضه اولياء الدم بذلك وبدون ذلك فليس له اي صفة تخوله المطالبة بدم عثمان حتى ولو كان قد قتل مظلوما ، كما جاء ذلك في بعض اجوبة الامام اليه .

ان اطماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على احد ، ولم يكن الجيش الذي أعده وهيأه الا ليحارب من يتولى الخلافة كائنا من كان ، ولو قدر لطلحة والزبير ان يربحا معركة البصرة ويتولى احدهما الامر لوقف منه نفس الموقف الذي وقفه من علي (ع) ، وفي الوقت ذاته كان يأتي الى علي (ع) يستنهضه عليهم لاثارة الفتنة كما جاء ابوه الى امير المؤمنين يوم بايع الناس ابا بكر . لقد كان يضلل الناس بدعوته الى اعادة الامر شورى بين المسلمين بعد ان يقتص من قتلة عثمان وبلا شك

فان الشورى التي يدعو اليها معاوية لا تعود الى المهاجرين والانصار من اهل الحجاز والعراق عنده لان الامر قد خرج من ايديهم على حد زعمه كما يبدو ذلك من بعض رسائله الى امير المؤمنين حيث جاء فيها وقد ابى الناس الا قتالك حتى تدفع لهم قتلة عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين وانما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس اهل الشام .

فأهل الشام وحدهم اذن يختارون الخليفة لانهم الحكام على الناس كما يزعم ابن ابي سفيان وبلا شك عندما يكون الاختيار لهم وحدهم لن يختاروا غير معاوية لاسيما وقد حشد حوله جميع الحاقدين والطامعين كبني امية وعمرو بن العاص بعد ان وعده بولاية مصر يتصرف بخيراتها كما يشاء اذا تمكن من الاستيلاء على السلطة ودفع له ثمنها دينه بكامله في حين ان كلا منهما كان يسيء الظن بالآخر ويحقد عليه كما كان يظهر من مجالستهما احيانا .

فقد جاء في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ان معاوية قال يوما لبعض جلسائه : ما اعجب الاشياء فأدلى كل من الجالسين برأيه وكان معهم عمرو بن العاص ، فقال : اعجب الاشياء ان يغلب المحق المبطل معرضا بالصراع الذي دار بين علي ومعاوية ، ففهم قصده معاوية وأدرك انه يعنيه وحده بذلك ، فرد عليه بقوله : اعجب الاشياء ان يعطى الانسان ما لا يستحق لأسيما اذا كان ممن لا يخاف منه .

وله موقف آخر يدل على انه لم يكن يرى معاوية على شيء وانه لم يتردد في حق علي وفضله لحظة واحدة من الزمن ولكن المصلحة كانت عنده فوق كل شيء .

فقد روى المؤرخون ان معاوية لما استولى على مصر اخذ يماطل ابن العاص في الوفاء بما عاهده عليه فبعث اليه ابن العاص بقصيدة يقول فيها :

معاويـــة الفضل لا تنس لي وعـن منهج الحـق لا تعـدل
نصرناك من جهلنا يا ابن هنـد على السيد الاعظم الافضـل
ومـا كان بينكما نسبـة فأيـن الحسام من المنجـل
وأين الثريا وأين الثـرى وأيـن معاوية مـن علـي

هذه الفلتات التي كانت تظهر منهما بين الحين والآخر تؤكد ان الطرفين لم تجمعهما المودة ولا مصلحة الامة ، بل جمعتهما الاطمـاع والمنافع ، ولذا فانهما على استعداد لان يتوسلا بكل شيء لتحقيـق الهدف الذي كان يشد كلا منهما الى الآخر ، في حين ان خصمهما لـم يكن هدفه الا الحق ، ولم يقاتل احدا لولاه ، ولا يمكـن ان يستعين عليه بالمظلمين والمبطلين ، وان يركب غير طريقه ، وسواء عليه بعد ذلك ادركه ام لم يدركه فحسبه انه جاهد من اجله ، وحتى لو قتل تحت رايته فذلك في نظره الفوز المبين ونصر للمثل التي تبقى منارة الاجيال مـا بقي الدهر .

ومجمل القول ان الرسائل والرسل التي دارت بين الفريقين لـم تنته الى ما كان يحاوله من اجتماع كلمة الامة ، ولـم يبق لديه الا السيف ليقول كلمته ، وجمع معاوية ما يزيد على مائة الف مقاتل مـن اهل الشام وقادهم يقطع الارض نحو العراق ، ولما بلغ امـير المؤمنين خبره جهز جيشه واتجه به لخارج الحدود العراقية ليقطع الطريق علـى معاوية وأنصاره قبل ان يدخلوا العراق ويعبثوا في ارضها وأهلها قتلا ونهبا وفسادا .

معركة صفين وما رافقها من احداث

ونزل معاوية بمن معه عند نهر الفرات في وادي صفين واستولى على الماء ، ونزل امير المؤمنين في ذلك الوادي الفسيح ايضا في مكان لا يبعد عنه كثيرا ، وحال معاوية بين اهل العراق والماء، ومنعهم ان يشربوا منه ولو قطرة واحدة فأضر بهم وبدوابهم العطش ، وأرسل اليهم امير المؤمنين (ع) انا لم نأت هذه الارض لنسيطر على الماء والكلأ ، ولو سبقناكم اليه لا نمنعكم منه .

ويدعي بعض الرواة ان ابن العاص حاول ان يقنع معاوية بأن يخلي بينهم وبين الماء ولكن معاوية أصر على موقفه وقال : هذا والله اول الظفر لا سقاني الله ان شربوا منه حتى يغلبوني عليه ، وصاح اصحابه من كل مكان : والله لا تذوقون منه ولا قطرة حتى تموتوا عطشا ، هذا وعلي (ع) على ما يبدو من اكثر المرويات التي وصفت تلك الاحداث كان كارها للحرب بهذه السرعة ويود ان يعود الى محاولاته السابقة التي تهدف الى جمع الكلمة واتمام الحجة ، ولكن موقف معاوية وأنصاره من الماء اضطره الى استعمال القوة لانقاذ عشرات الالوف ممن كانوا معه من الموت عطشا ، فأرسل الاشتر النخعي في كتيبة من

عسكره ، فاستبسلوا استبسالا لا نظير له واستعادوا الماء من اهل الشام في ساعات قليلة ، فوقف ابن العاص موقف الشامت في معاوية لانه لم يقبل نصيحته كما جاء في رواية ابن قتيبة ، وقال : ما ظنك يا معاوية لو منعك علي بن ابي طالب من الماء كما منعته انت ، اتراك ضاربهم كما ضربوك ، ومضى يقول : ان عليا لا يستحل منك ومن جيشك ما استحللتم منه .

ان ابن العاص ومعاوية يعرفان عليا جيدا ويعلمان بأنه لا يمكن ان يقدم على العقوبة وهو يجد للعفو محلا وليس من خلقه ان يمنع الماء وهو من المباحات العامة عن احد من المخلوقات ، ولا هو ممن يطلب النصر بالجور كما يطلبه ابن هند وأمثاله من الحاكمين ، لذلك كان ابن العاص ومعاوية على ثقة بأن عليا سيبيح لهم الماء ولو كان ذلك سببا لانتصارهم عليه .

لقد حاول بعض اصحابه اقناعه بأن يقابلهم بالمثل ويعاملهم كما عاملوه ولو لفترة من الزمن فأبى عليهم اشد الإباء ، وأتاح لاخصامه الذين هددوه قبل ساعات قليلة بالموت عطشا ورود الماء اسوة بأصحابه.

وهذه البادرة الكريمة وحدها تكفي اهل الشام لو كان عندهم شيء من الخلق الكريم ان يدركوا حقيقة كل من الرجلين ، وانهم بمناصرتهم لمعاوية يناصرون الشر على الخير والباطل على الحق والطغيان على العفو والتسامح والرحمة .

وبقي الجيشان على مواقفهما ينهلان من الماء على قدم المساواة ، وهو يواصل جهوده ومساعيه كعادته للسلام ويفتح لاهل الشام وقادتهم قلبه وصدره فلم يفلح في مسعاه ، هذا ومعاوية يأمرهم بسبه وشتمه ، ولما سمعهم اهل العراق سبوا معاوية وجعلوا يتراشقون بالسباب والشتائم ، فأمرهم امير المؤمنين بالكف عن ذلك وقال : اني اكره لكم ان تكونوا قوما سبابين ، ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم

كان اصوب في القول وأبلغ في العذر ، وأضاف الى ذلك : قولوا مكان سبكم :

اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق مَنْ جَهِلَهُ ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به.

ولما استبطأ اصحابه اذنه لهم بالقتال واتهمه بعضهم بالتردد في امر اهل الشام ، وبعض آخر بالجبن قال : فوالله ما ابالي ادخلت على الموت او خرج الموت الي ، وأما قولكم اشكا في اهل الشام : فوالله ما دفعت الحرب يوما الا وأنا اطمع ان تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو على ضوئي وذلك احب الي من ان اقاتلها على ضلالها وان كانت تبوء بآثامها .

ثم قال :

اللهم انك تعلم لو اني أعلم ان رضاك في ان اضع ظبة سيفي في بطني ثم انحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت ، اللهم اني لا اعلم عملا صالحا هذا اليوم هو ارضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، واو كنت اعلم عملا هو ارضى لك منه لفعلت .

ومضى يقول :

اللهم رب هذه الارض التي جعلتها قرارا للانام ومدرجا للهوام وما لا يحصى مما يرى وما لا يرى ، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للارض اوتادا وللخلق اعتمادا ان اظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا بالحق، وان أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة يا أرحم الراحمين.

وكان لا بد وأن يأذن لاصحابه بالقتال بعد ان استفزهم واستدرجهم اليه اهل الشام عشرات المرات وأوقعوا في صفوفهم عددا من القتلى فأذن لهم واحتدم القتال بين الطرفين بضراوة لم يشهد لها تاريخ المعارك مثيلا .

ولا اريد ان اخوض في تفاصيل تلك المعارك التي استمرت شهورا

وذهب ضحيتها اكثر من مائة الف من المسلمين غرر بهم ابن هند وابن النابغة حتى وردوا ذلك المورد السيء، لا اريد ان اخوض بالتفاصيل ففي مجاميع التاريخ التي تعد بالعشرات ما يريده القارىء من أخبارها الطوال التي اضاف اليها المحبون والمبغضون من الفريقين ما لم يكن ، وأكتفي بالقول : بأنه كان بين الفريقين قتال بلغ اقصى حدود العنف والضراوة . لقد تقدم امير المؤمنين ومعه من بقي حيا من المهاجرين والانصار يتقدمهم عمار بن ياسر وصحابة الرسول الابرار نحو اهل الشام وعمار ينادي بصوت يسمعه اهل الشام : والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا اننا على الحق وانهم على الباطل ، ومضى يستقبل الطعن والضرب بصدره ونحره ، ثم يقف بين الصفين ويرفع كلتا يديه ويقول : اللهم لا اعلم عملا ارضى اليك من جهاد هؤلاء القوم، ولو كنت اعلم عملا احب اليك من جهادهم لفعلته .

وقد تضعضع الكثيرون من أتباع معاوية لموقف عمار وعزيمته الصادقة على مواصلة الكفاح حتى النهاية ، لان مقالة الرسول لم تعد خافية على احد من وجوه المسلمين ، وقد تداولها الناس فيما بينهم وكأنها آية منزلة ، طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية ، عمار مع الحق يدور معه كيفما دار ، وها هو عمار الى جانب علي بن ابي طالب يقاتل بحزم وعناء ويقول : لا اعلم عملا ارضى اليك من جهاد معاوية وأنصاره فمعاوية ومن يساعده من البغاة بحكم رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ، والقرآن الكريم يأمر المسلمين بقتال الفئة الباغية حتى تفيء الى امر الله كما جاء في الآية .

وان طائفتان من المسلمين اقتتلا فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله .

فهو اذن يقاتلهم بحكم القرآن ، هذه الافكار قد اعترضت الكثيرين ممن غرر بهم معاوية وابن العاص واستبدت بهم الحيرة وها هو صوته

العالي يدوي في كل انحاء المعركة الرواح الى الجنة عباد الله تقدموا فداء لكم ابي وأمي لقد اخبرني حبيبي رسول الله ان شرابي من الدنيا ضياح من لبن وتقتلني الفئة الباغية ، وكاد ان يتضعضع جيش معاوية ويدب فيه التخاذل وبخاصة عندما رأوا ذا الكلاع الحميري بمن معه من عشيرته وأحلافها يحاولون ان يتجنبوا المعركة ما دام عمار بن ياسر الى جانب علي بن ابي طالب .

وبلغ معاوية ما يدور في اوساط جيشه من احاديث الرسول في عمار ، فاستدعى اليه وزيره ابن النابغة واستشاره في الخروج من تلك الازمة ، فاجتمع الى ذي الكلاع وغيره من قادة الجيش ، وأقسم لهم بأن عمار بن ياسر سيعود الى صفهم في النهاية وطلب منهم مواصلة القتال بانتظار الايام القادمة التي سيرون فيها ابن ياسر تحت راية معاوية، فسكنت لذلك نفوسهم على خوف ووجل وتوالت الايام والحرب تشتد يوما بعد آخر وأمير المؤمنين (ع) ينصب بمن معه على جيش الشام انصباب الموت الصاعق لا يضرب احدا الا اورده النار ولا يستقبله احد من مثيري الفتنة الاولى عنه جبانا يتقيه بسوأته اذا لم ينجه الفرار .

وانجلت المعركة في يوم من الايام عن عمار بن ياسر صريعا برمح ابي العادية الجهني وعن ذي الكلاع الحميري صريعا في نفس اليوم فأشرق لذلك وجه معاوية وقال : والله لو بقي ذو الكلاع حيا بعد مصرع عمار لمال بعامة العسكر الى علي بن ابي طالب .

وحدث بعض الرواة عن مولى لعمر بن الخطاب انه قال : كنت في المعارك الاولى بصفين مع معاوية بن ابي سفيان وكان اصحابه يقولون: لا والله لا نقتل عمار بن ياسر وان قتلناه فنحن كما يقولون ، فلما قتل جئت ابن العاص وقلت له: ما سمعت من رسول الله في عمار قال سمعته يقول : تقتله الفئة الباغية فقلت هوذا مقتول فلم يصدق حتى رآه بعينه.

فامتقع لونه ، ثم اعرض بوجهه وقال : لقد قتله من جاء به وعرضه للقتل، فأخذها منه معاوية وراح يرددها بين اصحابه .

وأحيانا يقول : اترى ان رسول الله لقد عنانا بالفئة الباغية أولسنا نحن الذين نبغي دم عثمان ونثأر له فاطمأن لقوله جماعة وبقي آخرون على ترددهم وحيرتهم ، الا ان العصبيات القبلية لعبت دورها في استمرار المعارك لفترة طويلة بين الطرفين وملها الفريقان حتى كانت المعركة الكبرى التي استمرت اكثر من اسبوع ليلا ونهارا واستبسل فيها اهل العراق فلم يبق لاهل الشام حق الا انهار ولا جمرة الا اطفئت، وبلغ عدد القتلى من الطرفين اكثر من ستين الفا كما يدعي بعض المؤرخين ، وأوشك جيش العراق ان يحتل مضارب معاوية ويقبض عليه حيا ، فدعا بفرسه لينجو عليه ، هذا وأمير المؤمنين في مقدمة اصحابه لا يستقبل جماعة الا تضعضعت اركانهم وولوا هاربين .

وحدث ابن قتيبة في الامامة والسياسة ان عليا (ع) نادى بالرحيل في جوف الليل فلما سمع معاوية رغاء الابل دعا اليه ابن العاص وقال له: ما ترى ههنا؟ قال اظن الرجل هاربا ، فلما اصبحوا واذا بعلي وأصحابه الى جانبهم قد خالطوهم ، فأشار على معاوية برفع المصاحف على رؤوس الرماح فرفعوها ودعوا الناس اليها طمعا في ايقاف القتال الذي اوشك ان يقضي على اهل الشام بكاملهم ، وارتفعت الاصوات من ناحية معاوية : يا اهل العراق هذا كتاب الله بيننا وبينكم فهلموا الى العمل به فمن لذراري اهل الشام وثغورهم بعد اهل الشام ، ومن لذراري اهل العراق وثغورهم بعد اهل العراق ومن لجهاد الروم والكفار وفي ذلك يقول النجاشي :

فأصبح اهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خير قرآن
ونادوا عليا يا ابن عم محمد ... اما تتقي ان تهلك الثقلان

وجاء في رواية انساب الاشراف ان عليا (ع) لما رأى المصاحف مشرعة على رؤوس الرماح قال : والله ما مم بأصحاب قرآن ولكنهم ارادوها مكيدة وخدعة ، بلغهم ما فعلت من رفع المصاحف لاصحاب الجمل ففعلوا مثله ولم يريدوا ما اردت ، فلا تنظروا الى فعلهم وامضوا على يقينكم ونياتكم .

وبعد ان اشرفت المعركة على الانتهاء لصالح امير المؤمنين واستعد معاوية للفرار لولا ان بعض العرب قد ناشده الصبر والتريث ، في تلك الفترة الرهيبة استعمل ابن العاص مكره وذكاءه وأمر برفع المصاحف والرجوع الى حكمها كما رفعها امير المؤمنين في البصرة ، ولكن ما ابعد ما بين الحالتين ، ان عليا (ع) قد رفع المصاحف بين الصفين في معركة البصرة بعد ان جادلهم وبذل كل ما في وسعه في سبيل الالفة واجتماع الكلمة حقنا للدماء ، ولما لم تجده كل تلك المحاولات دعاهم الى تحكيم الكتاب والعمل بما يفرضه عليهم ليتقي الحرب وتتائجها المريرة ، في حين انه كان واثقا من ان تتائجها ستكون لصالحه ولكنه لا يرى الانتصار بالعنف والقوة انتصارا .

ووقف مع اهل الشام منذ ان دخل الكوفة موقف من يتقي الحرب ويتحاشاها وظل مدة من الزمن يتصل بهم بالمراسلة والرسل ويحذرهم من تتائج القتال وما يتركه من الآثار السيئة على المسلمين ، وضرب لهم حينما استولى على الماء اروع الامثلة في العفو والتسامح وأباح الماء لهم ولاصحابه على السواء لانه صاحب رسالة يريد انتشارها وطالب حق يريد ان يطبع الناس عليه ، اما معاوية فكان يحارب للسلطة وحدها وبنفس الروح التي كان يحارب بها ابو سفيان وزوجته هند وأسرته الاموية رسالة محمد بن عبد الله ، ولذا فانه لم يدع الى الكتاب والرجوع اليه ولا رفعه على المصاحف الا بعد ان اكلته الحرب وقضت على آخر امل له في الانتصار ، ومع ذلك فلم يدع اليها ليرجع الى

حكمها بل ليستعيد انفاسه ويسعى لتمزيق جيش العراق بأسلوب جديد من مكره وخداعه بعد ان عجز عن تمزيقه بجيشه وعتاده ، وتم له ذلك فما ان شاعت دعوتهم الى حكم الكتاب بين اهل العراق حتى ارتفعت اصوات الخونة من هنا وهناك تعلن الموافقة على الهدنة والرجوع الى حكم الكتاب وكأنهم مع من رفعوا المصاحف على ميعاد وكان الاشعث ابن قيس من اشد اولئك المتحمسين للتحكيم ووقف القتال ومن المعروفين بميولهم المعادية وله تاريخ حافل بالفتن والتقلبات ، فلقد اسلم في حياة النبي (ص) وارتد بعد وفاته مع المرتدين وحارب المسلمين يوم ذاك ، وبعد هزيمة المرتدين عاد الى المدينة وأعلن فيها تدينه ورجوعه الى الاسلام ، وصاهره ابو بكر على اخته ام فروة ، وأهمله عمر بن الخطاب وعاد الى الظهور في عهد عثمان فولاه بعض المقاطعات ، وعزله علي (ع) عنها ، وبقي معه في الكوفة ولكنه كان يراقب تصرفاته بحذر، وله مواقف وأخبار يرويها المؤرخون عنه تؤكد ان امير المؤمنين لم يكن يطمئن اليه في شيء من اموره ، هذا بالاضافة الى غيره ممن كان معاوية يغريهم بالوعود ويمدهم بالاموال الطائلة مما اتاح لبادرته هذه ان تلقى تأييدا واسعا من قادة العراق وتضطره بعد حوار طويل وجدال عنيف احدث توترا في صفوف العراقيين الى النزول على حكمهم وقبول التحكيم وتؤكد النصوص التاريخية ان عددا كبيرا من جند العراق كان يمد بصره الى معاوية ويطمح في عطائه .

فقد جاء في شرح النهج انه لما اشترطت عك والاشعريون ما اشترطوا على معاوية من الفريضة والعطاء وأعطاهم ما يريدون لم يبق احد من اهل العراق في قلبه مرض الا طمع في معاوية وشخص ببصره اليه حتى فشا ذلك في الناس ، الى كثير من هذه الارقام التي يجدها الباحث هنا وهناك ، هذا بالاضافة الى ان جيش العراق كان خليطا من العراقيين والحجازيين والبصريين ، وفيهم من كان عثماني الرأي ، بل

كان بينهم جماعة من المنهزمين في معركة البصرة ، وهؤلاء لم يقاتلوا معه بدافع الايمان بحقه والرضى بحكومته ، بل كانوا واجدين عليه لانه وترهم باخوانهم وعشائرهم في البصرة وكان قادة هؤلاء على صلة بمعاوية بواسطة عملائه المنتشرين في العراق .

وجاء في بعض المرويات انهم خلال ايام السلم وفي شهر المحرم بالذات من تلك السنة كانوا يختلطون مع اهل الشام ويتعارفون ويتشاورون في امورهم وما انتهى اليه حالهم ، بل كان بعضهم يتصل مباشرة بمعاوية وابن العاص كما يدل على ذلك ما جاء في شرح النهج عن سفيان بن عاصم بن كليب الحرثي عن ابيه عن ابن عباس انه قال : حدثني معاوية انه في اليوم الذي كاد ان يقضي فيه اسيرا بيد الجيش العراقي وقد جيء له بفرس انثى بعيدة البطن عن الارض ليهرب عليها، وفيما هو يهم بذلك اذ اتاه آت من اهل العراق وقال له : اني تركت اصحاب علي (ع) في مثل ليلة الصدر من منى ، فأقمت عند ذلك وعدلت عن الفرار ، وامتنع معاوية ان يخبره بالرجل الذي وصف له حالة الجيش على حد تعبير الراوي .

ومن غير البعيد بعد هذه الملابسات ان لا تكون فكرة رفع المصاحف والدعوة الى التحكيم وليدة الهزيمة التي اوشك جيش معاوية ان يلتجيء اليها ، بل كانت نتيجة مؤامرة سابقة قد اتفق عليها معاوية وابن العاص والاشعث بن قيس ومن على شاكلته من الخونة والحاقدين والطامعين من اهل العراق خلال الايام الاولى من المعركة ، او خلال شهر المحرم الذي توادعا فيه عن القتال بقصد تقسيم الجيش وايقاع الفتنة فيه عندما يتعسر عليهم التغلب على جيش علي بقوة السلاح ، وقد تم لهم ذلك ، فما ان رفع اهل الشام مصاحفهم على رؤوس الرماح وتنادوا بالرجوع اليها حتى تعالت الاصوات من كل جانب تطلب وقف القتال والرجوع الى حكم الكتاب بالرغم من اصرار امير المؤمنين على مواصلة

الحرب وتحذيرهم مما تنطوي عليه تلك الخديعة من النتائج السيئة .
ومما يرجح انرفع المصاحفكان متفقا عليه ومدروسا معتلك الفئاتبقصد تقسيم الجيش عندما يعجز جيش الشام على التغلب عليه مما يرجح ذلك ان الذين تنادوا بالتحكيم من كل جانب وأجبروا عليا عليه رجعوا عنه بعد كتابة الصحيفة وشهروا سيوفهم في وجه امير المؤمنين وطالبـــوه برفضه بعد ابرامه، فقال لهم : ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع، أليس الله يقول : وأوفوا بعهد الله ويقول : وأوفوا بالعقود ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وكان الامر كما يريدون ومما يرجح ذلك ايضا انقسام الجيش بتلك السرعة واصرار اكثر قادته على وقف القتال وقبول التحكيم مع انهم على ابواب النصر .

فقد جاء في تاريخ اليعقوبي ان الاشعث بن قيس ومعه اليمانية قال لامير المؤمنين : والله لتجيبنهم الى ما دعوا اليه او لندفعنك اليهـــــم برمتك وكان معاوية قد استدناه اليه ودعاه الى نفسه فقال : ايها الناس انا احق من اجاب الى كتاب الله ، ولكن معاوية وابن العاص وابن ابـي معيط وابن سرح وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن اني اعرف بهم منكم صحبتهم صغارا ورجالا فكانوا شر صغار وشر رجال ، ويحكم انها كلمة حق اريد بها باطل ، انها المكيدة والخديعة اعيروني سواعدكم ساعة ، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق الا ان يقطع دابر الذين ظلموا .

وكان جوابهم ان احاط به نحو من عشريـــــن الف مقاتل مقنعين بالحديد وهم يقولون : اجب القوم والا قتلناك كما قتلنا ابن عفـان ، فوالله لنفعلنها ان لم تجبهم الى ما يريدون الى غير ذلـك من المرويات الكثيرة التي تشير الى ان الكثرة الغالبة من جيشه وقفت نفس الموقـف الذي وقفه ابن الاشعث وأصحابه ، ولم يبق معه ممن ينقادون اليه الا القليل من بني هاشم وخلص اصحابه وقد صرح هو بذلك ايضا فـــي جوابه للخوارج حينما قالوا لعبد الله بن عباس : لقد رجعنا عنه يـــوم

صفين ولم يضربنا بسيفه وحكم الحكمين ، فقال في جواب مقالتهم هذه كما جاء في تاريخ اليعقوبي : لقد كنتم عددا جما يوم ذاك وكنت انا وأهل بيتي في عدة يسيرة .

وكان امير المؤمنين في هذا الموقف امام خيارين لا ثالث لهما : اما المضي بالقتال ، ومعنى ذلك انه سيقاتل ثلاثة ارباع جيشه وأهل الشام، وستكون النتيجة التي يريدها ابن العاص ، وربما وليس ببعيد ان تنتهي المعركة بالقضاء عليه وعلى من معه من اهل بيته والصفوة المختارة من اصحابه .

وإما القبول بالتحكيم وهو اقل الشرين خطرا وضررا فاختار التحكيم بعد ان تكشفت له النتائج على واقعها ، وكان احب الى معاوية وابن العاص في ذلك الظرف بالذات ان يختار القتال لانه اشد ضررا عليه وعلى من معه من ذويه وبنيه وصفوة اصحابه .

فالقبول بالتحكيم اذن كان نتيجة حتمية لظروف قاهرة لا خيار لامير المؤمنين به بحال من الاحوال وقد اكثر الرواة حول ما دار فيه بين الفريقين من جدل ومناظرات لا يعنينا منها اكثر من الاشارة العابرة لنصل الى ما وراءه من احداث فقد استفاد منها معاوية وحققت له ما يريد .

لقد اتفق الطرفان على مبدأ التحكيم واتفق اهل الشام على ان يفاوض عنهم ابن العاص ، اما اهل العراق فقد اختلفوا اشد الاختلاف، ولم يكن واردا عند امير المؤمنين ابو موسى الاشعري بحال من الاحوال لانه كان منحرفا عنه ولم يشترك معه في المعارك التي انتهت الى هذه النتيجة ، واختار هو وجماعة من اصحابه احد الثلاثة عبد الله بن العباس او الاشتر او الاحنف بن قيس ، اما الكثرة الغالبة التي استجابت لفكرة التحكيم منذ ان طرحها معاوية فقد اقترحوا الاشعري وأصروا عليه بحزم وصلابة في حين ان خطره على امير المؤمنين لا يقل عن خطر

ابن العاص وغيره من المنافقين مما يرجح ان الذين وضعوا فكـــرة التحكيم قد اختاروه لتمثيل اهل العراق منذ البداية وانها بكل فصولها كانت نتيجة لمؤامرة تضم اكبر عدد من جيش العراق كما ذكرنا ، وبالتالي لقد اضطر امير المؤمنين على النزول على حكمهم في اختيار الاشعـري كما اضطروه الى قبول التحكيم ولم يجد بديلا عنه الا الحرب ، وبلا شك فان نتائجها لغير صالحه واجتمع الطرفان على تسجيل اتفاقهما في كتاب يتضمن اختيار الحكمين والرجوع الى كتاب الله وتحديد الزمان والمكان اللذين يتم فيهما اجتماع الحكمين وتوفير الامان لهما خـلال ممارستهما للمهمات الموكولة لهما .

وجاء عن ابي موسى الاشعري كما في الاستيعاب لابن عبد البر انه اسلم قبل هجرة النبي الى المدينة ورجع الى بلاده وأقام بها ، الى ان كانت معركة خيبر في السنة السابعة من الهجرة ، فالتحق بالنبي هـــو وجماعة من الاشعريين والنبي لا يزال في خيبر ، في الوقت الذي رجع فيه جعفر بن ابي طالب من الحبشة ، فظن قوم انه كان من المهاجريـن اليها على حد تعبير الراوي ، وقد ولاه عمر بن الخطاب البصرة لمـــا عزل المغيرة بن شعبة عنها ، فلم يزل بها الى ان عزله عثمان بن عفان عنها وولاها عبد الله بن عامر بن كرن ، فسكن ابو موسى في الكوفة فلما ثار اهلها على سعيد بن العاص وأخرجوه منها كتبوا الى عثمان ان يولي عليها ابا موسى فولاه الكوفة وعزله عنها امير المؤمنين (ع) بعد ان وقف منه موقفه المشهور ، فكان واجدا وحاقدا عليه وقال فيه قولا سيئا كما يذهب لذلك بعض المحدثين ، وأضاف الى ذلك انه كان ليلة العقبة مع الذين اعترضوا طريق رسول الله (ص) .

وجاء عن سويد بن غفلة انه قال : كنت مع ابي موسى الاشعري على شاطىء الفرات في خلافة عثمان فروى لي عن رسول الله (ص) انه قال: ان بني اسرائيل اختلفوا فلم يزل الخلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالين

ضلا وأضلا من اتبعهما ، ولا ينفك امر هذه الامة حتى يبعثوا حكمين ضالين ويضلان من اتبعهما ، فقلت له : احذر يا ابا موسى ان تكون احدهما فخلع قميصه وقال : ابرأ الى الله من ذلك كما ابرأ من قميصي هذا ، ومضى الراوي يقول : ولقد صدقت فيه نبوءة رسول الله (ص) فلقد كان حكما لاهل العراق فضل وأضل من اتبعه .

ومهما كان الحال فقد جاء في شرح النهج لابن ابي الحديد انهم حينما شرعوا في كتابة بنود الاتفاق كتب الكاتب هذا ما تقاضى عليه علي امير المؤمنين ومعاوية بن ابي سفيان فقال معاوية بئس الرجل انا ان اقررت انه امير المؤمنين ثم قاتلته وقال ابن العاص : بل تكتب اسمه واسم ابيه ، ولما أصر اهل العراق على ما كتب قال انه اميركم وليس بأميرنا ، فأعادوا الكتاب الى امير المؤمنين وأخبروه بذلك ، فأمر بمحوه، فقال له الاحنف لا تمح اسم امير المؤمنين عنك فاني اتخوف ان محوتها لا ترجع اليك ابدا ، فقال امير المؤمنين (ع) ما اشبه هذا اليوم بيوم الحديبية ، حين كتب الكاتب هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمر ، فقال له سهيل لو اعلم انك رسول الله لم اخالفك ، واني اذا لظالم لك ان منعتك ان تطوف في البيت الحرام وأنت رسوله، ولكن اكتب بدلا من ذلك محمد بن عبد الله ، فقال لي رسول الله : يا علي اني لرسول الله وأنا محمد بن عبد الله ولن تمحى عني الرسالة اذا كتبت لهم محمد بن عبد الله فامح ما اراد محوه ، اما ان لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد .

وفي رواية ثانية ان ابن العاص رجع بالكتاب الى معاوية وطلب من امير المؤمنين محو ما كتبه ، فقص عليه ما كان يوم الحديبية بين رسول الله وبين المشركين وقال : ان ذلك الكتاب انا كتبته بيننا وبين المشركين واليوم اكتبه الى ابنائهم كما كتبه رسول الله الى آبائهم شبها ومثلا ، فقال له ابن العاص : يا سبحان الله أتشبهنا بالمشركين ونحن مسلمون ،

فقال عليه السلام : يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا ، فقام عمرو بن العاص وهو يقول : والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم ، فقال امير المؤمنين : والله اني لارجو ان يظهرنا الله عليك .

وتم الكتاب بين الطرفين ووقعه من كل منهما عشرة من قادتهم ووجوههم ، ويتلخص مضمونه كما يصفه الرواة بأن يقفوا عند احكام الله ويرجعوا الى حكم الكتاب فيما يختلفون فيه ، والي سنّة رسول الله فيما لم يجدوا حكمه في الكتاب ، والتزام علي ومعاوية ومن يتبعهما من المؤمنين والمسلمين بما يحكم به الحكمان ، ويصلح الحكمان بين الامة ولا يرداها الى فرقة او حرب ، وان يجتمع الحكمان في مكان بين الشام والحجاز ، وان لا يحضر معهما الا من ارادوه وان يعمل الطرفان على توفير الجو المناسب لهما خلال اجتماعهما وفيما بعده ، وتكاد المرويات كلها تتفق على هذا المحتوى ما عدا بعض الاختلافات البسيطة التي لا تتنافى معه ، ولم يرد في الروايات ما يشير الى موضوع الصراع بين الطرفين بوضوح كامل في الصحيفة التي وقعها الطرّفان ، في حين ان اسباب الصراع واضحة للجميع لا لبس فيها ولا غموض ، لان معاوية كان قبل معركة الجمل يطالب بمحاكمة اولئك الذين قتلوا عثمان او بتسليمهم اليه ليتولى القصاص منهم ، وبعد تمرد عائشة وطلحة والزبير تعزز موقفه وأصبح يطالب باعادة الخلافة شورى بين المسلمين على ان يكون له ولاتباعه رأي في ذلك ، وقد رد امير المؤمنين على طلبه الاول بأن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ثم يحاكم القوم اليه ليقتص لعثمان من قاتليه اذا أدينوا بجريمة توجب القصاص ، ورد علي (ع) طلبه الثاني ، بأن خلافته قد تمت باجتماع اهل الحرمين الذين بايعوا الخلفاء الثلاثة من قبله وبايعه بالاضافة الى اهل الحرمين جميع اهل الامصار ما عدا الشام ، على ان بيعة المهاجرين والانصار وحدها تكفي لالزام

الشاهد والغائب ولم يتخلف منهم سوى ثلاثة او اربعة قد اعتزلوا الناس ولم يناصروا احدا عليه ، وبقي على اهل الشام ان يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، والا كانوا من البغاة بحكم الاسلام والقـــرآن الذي اوجب قتالهم حتى يفيئوا الى امر الله .

فمن المتعين في مثل هذه الحالات اخذ هذه الاسباب بعين الاعتبار وتدوينها ، ومن ثم معالجة المشكل على اساسها في حين ان الصحيفة قد اهملتها ولم تتعرض لشيء منها ولا طرقها الحكمان خلال حوارهما كما يبدو ذلك من الروايات التي تحدثت عما دار بينهما ، ويشير بعضها الى ان اقصاء امير المؤمنين عن الخلافة كان امرا مفروغا منه لـــدى الطرفين ، ولكن خلافهما كان على البديل فقد اقترح ابو موسى الاشعري عبد الله بن عمر بن الخطاب كما نصت على ذلك الروايات ، فرد عليـه ابن العاص بأن عثمان بن عفان قتل مظلوما ومعاوية وليه ، وتلا عليـــه الآية ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، هذا مع العلم بأن الولي الذي تشير اليه الآية هو وارث المقتول فان لم يكن له وارث فوليـــه الحاكم الشرعي ، وعلي (ع) هو الحاكم يوم ذاك ولا احسب احدا يجهل هذه الحقيقة في حين ان ابا موسى لم يبد اية ملاحظة حول هـــذه الناحية ، ومضى ابن العاص يغريه بالسلطة ان هو وافق معـــه على ان تكون لمعاوية كما جاء ذلك في المجلد الاول من شرح النهج ، وبعـد حوار طويل بين الطرفين استطاع ابن العاص ان يخدعه فأظهر له موافقته على اقصائهما معا وترك الامر للمسلمين يختارون لانفسهم من يريدون، وكان ما اراده ابن العاص فخلع ابو موسى عليا وأثبت ابن العاص معاوية وانتهت مهزلة التحكيم على هذا النحو كما يرويها المؤرخون .

ولا احسب ان امير المؤمنين (ع) كان في غفلة عن نتائج هـــذا التحكيم وانه سيعزز موقف معاوية لاسيما وان الحكمين ينظران اليـه بنظرة واحدة ونوايا ابن العاص نحوه ليست بأسوأ من نوايا ابي موسى

الاشعري ، ولكنه مع ما فيه من المخاطر فهو أقل ضررا وخطرا من رفض التحكيم واستمرار القتال الذي ستكون نتيجته الحتمية وقوع امير المؤمنين والقلة المخلصة من اصحابه بين عدوين من اشرس خلق الله معاوية وأنصاره من جهة وخونة جيش العراق من جهة ثانية. ولم تكن حركة بعض المتراجعين عن التحكيم بعد كتابة الصحيفة بالذات والتوقيع عليها الا لجره الى استئناف القتال في ذلك الجو المحفوف بالمخاطر ، ولذلك فقد ابى عليهم وجعل يرفق بهم ويهدئهم ويدعوهم الى اختيار ما فيه العافية ثم تعجل الخروج من صفين باتجاه العراق مخافة ان تتأزم الامور وتضطره الى ما لا يريد .

وقد نصت المرويات على انه اقام في صفين بعد اعلان الهدنة وكتابة بنود الاتفاق يومين او ثلاثة لا غير تفرغ فيها بعد ان اقنع المتراجعين عن التحكيم وهدأهم ، الى دفن القتلى من اصحابه . وخرج من صفين يريد الكوفة منطويا على نفسه يتجرع آلام الخيبة ومرارة تلك الاحداث التي لا يقوى على تحملها احد غيره من الناس .

المارقون

لقد انتهت معركة صفين بعد الانتصار الساحق الذي حققه امير المؤمنين بمؤامرة مدروسة واسعة الاطراف بتحكيم ابن العاص وأبي موسى الاشعري المعروفين بميولهما المعادية لعلي بن ابي طالب كما ذكرنا ، ولو كانت فكرة التحكيم واختيار الحكمين بريئة كما حاول التاريخ ان يسدل عليها هذا الثوب ، لكانت النتيجة التي انتهى اليها الحكمان وحدها كافية لاخماد الفتنة وعودة الامور الى نصابها والتفاف الجيش بكامله حول قائده العظيم الذي بلغ القمة في تفكيره وسياسته الرشيدة التي عالج بها ذلك الوضع المتأزم والمحفوف بأشد الاخطار ، ولكن المتآمرين ظلوا حتى بعد تلك النتائج التي لا يقرها عرف ولا دين ولا منطق يعيثون في الارض فسادا واتخذت حركتهم بعد ان تحرك موكب الامام من صفين شكلا جديدا ، فاعترفوا بخطئهم في قبول التحكيم وأعلنوا توبتهم الى الله ، وجاؤوا الى امير المؤمنين يطلبون منه ان يتراجع ويتوب كما تابوا ويعود بهم الى استئناف القتال في صفين ، وبالطبع لقد كانت منهم هذه الردة محاولة يائسة فلم يستجب لطلبهم لعلمه كما اعتقد بأخطارها وسوء نتائجها ، فانفصلوا عنه قبل ان يدخل

الكوفة في مكان يدعى حروراء ، ومن اجل ذلك سماهم المؤرخون بالحرورية .

ولما التجأوا اليها وأخذوا يعدون انفسهم للحرب بعث اليهم امير المؤمنين عبد الله بن العباس ليناظرهم عساهم يعودون عن ضلالهم ، فقال لهم : ما الذي نقمتم من امير المؤمنين ، قالوا : لقد كان للمؤمنين اميرا فلما حكم في دين الله خرج عن الايمان فليتب بعد اقراره بالكفر ، فرد عليهم ابن عباس بقوله : لا ينبغي لمؤمن لم يشب ايمانه بشك ان يحكم على نفسه بالكفر ، فقالوا : انه قد حكم في دين الله ، فقال: ان الله امرنا بالتحكيم في قتل الصيد بقوله : يحكم به ذوا عدل منكم، فقالوا انه قد حكم عليه فلم يرض ، فرد عليهم بأن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الامام وجبت معصيته وكذلك الحكمان لما خالفا حكم الله فسقا ونبذت اقوالهما ، فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فان هذا من القوم الذين قال الله فيهم: انهم قوم خصمون، وقال ايضا : وتنذر به قوما لدا وأحجموا عن مناظرته .

ورجع ابن عباس الى امير المؤمنين وأخبره بما جرى له معهم ، فمشى اليهم بنفسه ، وقال لصعصعة بن جوحان العبدي : ائت القوم ودلني على الرجل المقدم فيهم ، فقال له : هو يزيد بن قيس الارحبي، ولما انتهى امير المؤمنين الى حروراء جعل يتخلل مضاربهم حتى صار الى مضرب يزيد بن قيس فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج واتكأ على قوسه وأقبل على الناس وقال : هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة ، والتفت الى القوم وقال :

انشدكم الله أعلمتم احدا كان أكره للحكومة مني ؟

قالوا : اللهم لا ، قال : أتعلمون بأنكم اكرهتموني حتى قبلتها ، قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتموني ونابذتموني ، قالوا : انا اتينا ذنبا عظيما فتبنا الى الله ، فتب الى الله منه واستغفره نعد اليك ،

فقال الامام (ع) : اني أستغفر الله من كل ذنب ، فاستجابوا اليه ورجعوا معه الى الكوفة وكانوا بين الستة الاف والعشرة الاف حسب اختلاف المؤرخين ، واستقروا في الكوفة مع اخوانهم وأهلهم .

وخلال اقامتهم في الكوفة كانوا يحدثون بأن عليا قد رجع عن التحكيم وأصبح يراه ضلالا ، وينتظر ان يسمن الكراع وتجبى الاموال ليعود الى حرب معاوية وأتباعه ، وتعترك الاشعث وأمثاله من دعاة الفتنة والمؤامرة وخافوا ان تهدأ الامور وتعود الحياة طبيعية صافية بين اهل الكوفة والامام (ع) ، ويتفرغوا لحرب معاوية وأهل الشام بروح طيبة تحس بأن عليها ان تكفر عما كان منها، وعند ذلك لا تبقى لعملية التحكيم نتائجها المرجوة ، فجاء الى امير المؤمنين (ع) وهو في ملأ من اهل الكوفة وقال ان الناس قد تحدثوا بأنك رجعت عن الحكومة وأصبحت تراها ضلالا وترى الاقامة عليها كفرا ومضى يشدد على امير المؤمنين لينتزع منه تصريحا يستفز به اولئك الذين عادوا الى الكوفة وانسجموا مع جماعة الناس ، فأجابه كما يزعم المبرد في المجلد الاول من الكامل كما جاء في شرح النهج لابن ابي الحديد ، ان من زعم بأني رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالا فهو أضل ، ومضى ابو العباس في الكامل يقول ان القوم لما بلغتهم مقالة امير المؤمنين مضوا الى النهروان وأعلنوا العصيان والتمرد عليه وان كنت اشك في اصل هذا الحوار بين الاشعث وأمير المؤمنين وأستبعد ان يقول الامام كلمتهذه.

والشيء المتيقن هو انهم اعتزلوا جماعتهم بتحريض من الاشعث ومن يحمل روحه ليشغل اهل الكوفة عن التهيؤ والاستعداد لحرب معاوية ، وفي طريقهم وجدوا مسلما ونصرانيا فقتلوا المسلم لانه كان على خلاف ما يعتقدون واستوصوا بالنصراني خيرا ، وقال بعضهم لبعض احفظوا ذمة نبيكم .

ولقيهم عبد الله بن خباب وفي عنقه كتاب الله ومعه امرأته وهي

في الشهر الاخير من حملها ، فقالوا له : ان هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك ، فقال لهم احيوا ما احياه القرآن وأميتوا ما اماته ، وفيما هم يحاورونه واذا برجل منهم يتناول تمرة سقطت من نخلة ويضعها في فمه فصاحوا به فلفظها وعرض لرجل خنزير فقتله فقالوا هذا فساد في الارض وأنكروا عليه قتله ، ثم التفتوا الى ابن خباب وقالوا : حدثنا عن ابيك حديثا سمعه من رسول الله ، فقال : سمعت ابي يقول : ان رسول الله قال ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسي مؤمنا ويصبح كافرا فكن عند الله المقتول ولا تكن القاتل .

فقالوا : ما تقول في ابي بكر وعمر وعلي قبل التحكيم وعثمان في السنين الست الاخيرة من خلافته ، فأثنى عليهم خيرا ، فقالوا : ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة ، فقال : ان عليا أعلم بالله وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا : انك لا تتبع الهدى بل تتبع الهوى والرجال على اسمائهم ، ثم جروه الى شاطىء النهر وذبحوه وجاؤوا بزوجته فبقروا بطنها وذبحوها مع ولدها الى جانبه .

ولما بلغ الامام (ع) ما فعلوه مع ابن خباب وزوجته وفسادهم في الارض سار اليهم في اصحابه وكان يستعد لحرب اهل الشام ، ولما انتهى الى مكان قريب اليهم ارسل اليهم ان يدفعوا قتلة الصحابي الجليل عبد الله بن خباب ومن قتلوه من المسلمين في طريقهم الى النهروان فقالوا لرسوله كانا قتلة ابن خباب ولو قدرنا على علي بن ابي طالب ومن معه لقتلناهم ، فمشى اليهم بنفسه وقال : ايتها العصابة اني نذير اليكم ان تصبحوا لعنة هذه الامة غدا وأنتم صرعى في مكانكم هذا بغير برهان ولا سنّة ، ألم تعلموا بأني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم ان طلب القوم كان مكيدة ، وأنبأتكم انهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن واني اعرف بهم منكم وهم اهل المكر والغدر فعصيتموني وأكرهتموني حتى وافقت على التحكيم بعد ان شرطت واستوثقت

وأخذت على الحكمين ان يحييا ما احياه القرآن ويميتا ما اماته ، ولما خالفا حكم الكتاب والسنّة وعملا بالهوى نبذنا امرهما وبقينا على امرنا الاول وها انا عائد الى حرب معاوية وأتباعه ، فقالوا : انا حيث حكمنا الرجلين اخطأنا وكفرنا وقد تبنا الى الله من ذلك ، فان شهدت على نفسك بالكفر وتبت كما تبنا فنحن معك ومنك ، والا فاعتزلنا ، وان ابيت فنحن منابذوك على سواء ، فقال لهم : بعد ايماني بالله وهجرتي وجهادي مع رسول الله اشهد على نفسي بالكفر ، لقد ضللت اذا وما انا من المهتدين ، ويحكم بم استحللتم قتالنا والخروج عن جماعتنا ؟ فلم يجيبوه وتنادوا من كل جانب الرواح الى الجنة وشهروا السلاح على اصحابه وأثخنوهم بالجراح ، فاستقبلهم الرماة بالنبال والسهام وشد عليهم امير المؤمنين وأصحابه فما هي الا ساعات قلائل حتى صرعهم الله كأنما قيل لهم موتوا فماتوا .

وكان امير المؤمنين (ع) قد اخبر اصحابه قبل المعركة بأنه لا يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة ، وكان الامر كما إخبرهم ، فلم ينج منهم الا تسعة او ثمانية ، ولم يقتل من اصحابه الا تسعة كما روى ذلك اكثر المؤرخين .

وهنا يروي المؤرخون حديث المخدج المعروف بذي الثدية احد القتلى في هذه المعركة وكان النبي (ص) قد اخبر امير المؤمنين بقتل الخوارج وقتل المخدج معهم لذلك فانه بعد انتهاء المعركة فتش عنه وألح في طلبه حتى وجده بين القتلى .

وجاء في الصحاح المتفق عليها على حد تعبير ابن ابي الحديد كما جاء في المجلد الاول من شرح النهج ان رسول الله لما شرع في تقسيم الغنائم بعد انتهائه من معركة حنين قام اليه رجل من بني تميم يدعى ذا الخويصة فقال له: اعدل يا محمد ، فقال : لقد عدلت وأعاد عليه التميمي قوله ثانية وثالثة وفي الثالثة رد عليه النبي (ص) بقوله : سيخرج من

ضئضيء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يخرجون على حين فرقة من الناس تحقرون صلاتكم في جنب صلاتهم يقرأون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم آيتهم رجل اسود مخدج اليدين احدى يديه كأنها ثدي امرأة وأضافت رواية عائشة الى ذلك ، يقتله خير امتي من بعدي .

وفي مسند احمد بن حنبل عن مسروق انه قال : قالت لي عائشة انك من ولدي ومن احبهم الي فهل عندك علم بالمخدج فقلت نعم : قتله علي ابن ابي طالب على نهر يقال له النهروان ، فقالت : ابغني على ذلك بينة فأتيتها برجال عندهم علم بذلك ، ثم قلت لها : اسألك بصاحب القبر ، ما الذي سمعت من رسول الله (ص) فيه ، قالت سمعته يقول : انه شر الخلق والخليقة يقتله خير الخلق وأقربهم عند الله وسيلة .

وفي رواية ثانية عنها انه لما بلغها ان عليا (ع) قد قتله قالت : لعن الله ابن العاص لقد كتب الي يخبرني انه قتله بالاسكندرية ، الا انه ليس يمنعني ما في نفسي ان اقول ما سمعته من رسول الله ، لقد قال يقتله خير امتي من بعدي .

وقد اجمعت الروايات على ان امير المؤمنين قد اهتم بالبحث عنه ، ولما عجز اصحابه عن العثور عليه خرج بنفسه وما زال يبحث عنه حتى وجده فكبر وكبر معه اصحابه ، ثم قال : والله ما كذبت وما كذبت ، وبلا شك في انه لولا حديث الرسول (ص) عن هذه الفئة المارقة وعن ذي الثدية لما اهتم امير المؤمنين ذلك الاهتمام البالغ به ، ولما اخفاه ابن العاص عن السيدة عائشة وأخبرها بأنه قتله في الاسكندرية خلال الفتح الاسلامي لمصر .

وأكتفي بهذه اللمحات في حديثي عمن اسموهم بالخوارج وعدهم المؤرخون والمؤلفون في الفرق الاسلامية منذ اقدم العصور الاسلامية النواة الاولى لتلك الفرقة التي اقضت مضاجع حكام الدولة الاموية

خلال قرن من الزمن تقريبا ، وكانت حركتهم في العصر تتميز بالدعوة الى المساواة والعدالة الاجتماعية ولهم آراء في اصول الاسلام وفروعه كانت مسرحا للجدل والنقاش بين قادة الفكر والرأي عندما ظهرت آراء المعتزلة والمرجئة والقدرية والاشاعرة وغير ذلك في حين انهم حينما خرجوا على امير المؤمنين وتمردوا عليه لم يكن لحركتهم اي ميزة على غيرهم من المتمردين عليه كطلحة والزبير ومعاوية وغيرهم ولم يكن لهم هدف خاص كما كان لمعاوية وطلحة والزبير ، وما ينسبه لهم المؤرخون من الجدل حول التحكيم مع انهم من انصاره في بداية الامر وتنائجه لم يلتزم بها امير المؤمنين (ع) ان صح يدل على انهم كانوا في منتهى السذاجة والعفوية ، على اني لا ازال عند رأيي في انهم كانوا ضحايا المتآمرين على امير المؤمنين بقصد اثارة الفتن في جيشه وإلهائه عن معاوية والرجوع لحربه ، وكان لمقتلهم آثاره السيئة في نفوس الكثيرين من اصحابه ، لان القتلى كان اكثرهم ينتمي الى عشائر الكوفة والبصرة، فليس بغريب اذا ترك قتلهم في نفوس من ينتمون اليهم ما يجده كل قريب لفقد قريبه .

ولما انتهى امير المؤمنين منهم دب الوهن والتخاذل والخلاف بين اصحابه فجعل يستحثهم على الخروج معه لحرب معاوية ويخطب فيهم المرة تلو الاخرى فلا يجد منهم الا التخاذل والخلاف عليه فيقولون : لقد نفدت نبالنا وكلت اذرعنا ونصلت أسنة رماحنا وتقطعت سيوفنا ، فامهلنا لنستعد فان ذلك اقوى لنا على عدونا ، واستمر على ذلك مدة من الزمن كان يدعوهم بين الحين والآخر للخروج الى معسكرهم في النخيلة فلا يخرج الا القليل الذي لا يغني شيئا . هذا والاشعث بن قيس وشيث ابن ربعي وأمثالهما لا هم لهم الا التخريب وبث روح التخاذل في النفوس ، وراح يضع في اذهان الجيش ان عليا كان عليه ان يصنع مع اهل النهروان كما صنع عثمان ويتغاضى عنهم وهم قلة لا يشكلون خطرا

عليه، لقد قال الاشعث ذلك ليحدث تصدعا في صفوف الجيش وليشحن نفوس من تربطهم بأولئك القتلى انساب وقرابات بالكراهية والعداء لعلي (ع) .

فقد جاء في كتاب علي بن ابي طالب لعبد الكريم الخطيب ان عليا (ع) خطب يوما اصحابه وحثهم على الجهاد وأنبهم على تخاذلهم وقعودهم عنه ، وما ان انتهى من خطابه ينتظر ردهم عليه حتى انبرى له الاشعث بقوله : يا امير المؤمنين أفهلا فعلت كما فعل عثمان ؟ فقال له الامام : وما فعل عثمان ؟ فقال : لقد ابى ان يلقى المشاغبين عليه بالقوة وان يردهم عنه بالسيف حتى قتل، فرد عليه الامام بقوله : ويلك وكما فعل عثمان رأيتني فعلت عائذا بالله من شر ما تقول ، والله ان الذي فعل عثمان لمخزاة على من لا دين له ولا حجة معه فكيف وأنا على بينة من ربي والحق معي ، ومضى يقول : والله ان امرأ امكن عدوه من نفسه فنهش عظمه وسفك دمه لعظيم عجزه وضعيف قلبه .

ثم قال : انت يا بن الاشعث كن كذلك ، اما انا فوالله دون ان اعطي ذلك ضرب بالمشرفي يطير له فراش الرأس وتطيح منه الاكف والمعاصم وتجذبه الفلاصم ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

وسرت مقالة الاشعث بين الناس فزادتهم تخاذلا وتصدعا ، وأتيح لمعاوية ان يتصل بسراتهم ورؤسائهم اكثر من قبل ، تحمل كتبه لهم الوعود والاماني ، ويقدم بين يدي الوعود والاماني العطايا والصلات يعجل لهم ما يرغبون في عاجله وما يغري قليله المعجل بكثيره الموعود حتى اشترى ضمائرهم وأفسدهم على امامهم وجعلهم يعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان .

ومجمل القول ، لقد استطاع المتآمرون من اهل العراق ان يحققوا لمعاوية كل اطماعه وأن يشلوا حركة الامام (ع) ويخلقوا له من المصاعب

والمشاكل ما يشغله عن لقاء اهل الشام مرة ثانية، فلم تنته معركة النهروان حتى ظهرت فلولهم في اكثر من ناحية في العراق ، وتركت معركة النهروان في اهاليهم وقبائلهم اوتارا لم يكن من السهل نسيانها ، لاسيما وان ايدي المتآمرين ممن كانوا على صلة بمعاوية كانت تزودهم بالاموال والعتاد فيخرج الرجل ومعه المائة والمئتان ، فيضطر امير المؤمنين (ع) الى ان يرسل اليهم رجلا من اصحابه ومعه طائفة من الجند فيقاتل المتمردين، حتى اذا قتلهم او شردهم عاد الى الكوفة ، وقبل ان يستقر يخرج آخر بجماعة من المتمردين ، وهكذا كانت الحالة بعد معركة النهروان حتى خرج الخريت بن راشد ، وقد جاءه قبل خروجه ، وقال له : والله اني لا اطيعك ولا اصلي خلفك لانك حكمت الرجال وضعفت عن الحق ، فقال له : اذن تعصي ربك وتنكث عهدك ولا تضر الا نفسك ، ودعاه للمناظرة ، فقال له : اعود اليك غدا ، فقبل منه وأوصاه ان لا يؤذي احدا من الناس ولا يعتدي على الدماء والاموال والاعراض فخرج ولم يعد ، وكان مطاعا في قومه بني ناجية وخرج معه جماعة في ظلمة الليل والتقى في طريقه برجلين وكان احدهما يهوديا والآخر مسلما ، فقتلوا المسلم ، وعاد اليهودي الى عامل علي على السواد فأخبره بأمرهم فكتب العامل لأمير المؤمنين فأرسل اليهم جماعة من اصحابه وأمره بردهم الى الطاعة ومناجزتهم ان رفضوا ذلك ، وحدثت بينه وبين الخريت وجماعته مناظرة لم تجد شيئا ، فطلب منهم اصحاب امير المؤمنين ان يسلموهم قتلة المسلم فأبوا الا الحرب ، وكانت بين الطرفين معارك دامية ، فأرسل اليهم امير المؤمنين قوة اخرى ، وكتب الى عبد الله بن العباس وكان اميرا على البصرة يأمره بملاحقتهم ، والخريت مرة يدعي بأنه يطلب بدم عثمان ، وأخرى ينكر على علي (ع) التحكيم وأخيرا قتل الخريت وجماعة من اصحابه وأسر منهم خمسمائة قادوهم الى الكوفة فمر بهم الجيش على مصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عاملا لعلي (ع) على بعض المقاطعات

فاستغاث به الاسرى فرق لحالهم كما تزعم بعض الروايات واشتراهم من القائد على ان يسدد اثمانهم اقساطا وأعتقهم ، وجعل يماطل في اداء ما عليه ، ولما طالبه عبد الله بن عباس باداء المبلغ اجابه : لو طلبت هذا المبلغ وأكثر منه من عثمان ما منعني اياه ، ثم هرب الى معاوية فاستقبله استقبال الفاتحين وأعطاه ما يريد ، وطمع مصقلة ان يستجلب اخاه نعيم ابن هبيرة الى جانب معاوية ، فأرسل اليه رسالة مع رجل من نصارى تغلب كان يتجسس لصالح معاوية ، ولم يكد يبلغ الكوفة حتى ظهر امره فأخذه اصحاب امير المؤمنين وقطعوا يده ، الى كثير من امثال هذه الحوادث التي تدين المتمردين ومن كان يعاونهم بالتآمر واشاعة الفوضى في جميع اطراف الدولة لاستنزاف قوة الإمام في الداخل وليكون في شغل عن معاوية وتصرفاته • ومن غير البعيد ان يكون مصقلة الشيباني على صلة بالمتمردين وان حرصه على تخليصهم من الاسر لقاء مبلغ من المال يعجز عن دفعه لم يكن بدافع انساني كما يبدو ذلك لاول نظرة في حادثة من هذا النوع ، بل كان بدافع الاحساس بمسؤوليته عن فئة كان يشترك معها في الهدف والغاية ويمنيها بالمساعدة عندما تدعو الحاجة ، وقد لقي من معاوية هذا الترحيب لانه اشترك في الفساد والفوضى وساعد المخربين الذين جرعوا عليا الغصص وأرهقوه من امره عسرا وكانوا الى ابن هند فرجا ومخرجا •

اما امير المؤمنين (ع) فلم يزد حين بلغه فرار مصقلة الى الشام على ان قال : ماله قاتله الله فعل فعل الاحرار وفر فرار العبيد وأمر بداره فهدمت •

وقد اتيح لمعاوية في ذلك الجو الذي ساد العراق في الداخل ان يتحرك من ناحيته على القرى والمدن المتاخمة لحدود الشام فيقتل وينهب وينكل بقوات المخافر المرابطة على الحدود بدون رادع من احد ووازع

من دين ، وأمير المؤمنين (ع) يدعو اهل العراق لنجدة اخوانهم وملاحقة المعتدين فلا يجد منهم ما يرضيه .

وأغارت قوات معاوية على الحجاز واليمن بقيـــادة بسر بن ارطاة وأوصاه باستعمال كل ما من شأنه اشاعة الفوضى وبث الخوف والرعب في تلك البلاد فمضى ابن ارطاة ينفذ امر معاوية فأسرف في الاستخفاف بالدماء والحرمات والاعراض والاموال في طريقه الى المدينة ولما بلـــغ المدينة قابل اهلها بكل انواع الاساءة والقسوة فقتل فيها عددا كبـيرا واضطرهم الى بيعة معاوية ، وكانت اخباره قد انتهت الى اليمن فانتشر فيها الخوف والرعب وفر منها عامل امير المؤمنين عبيد الله بن العباس، ولما دخلها اسرف في القتل والنهب والتخريب ، ووجد طفلين صغيرين لعبيد الله بن العباس ، فذبحهما في حضن امهما ، فأصابها خلل فـــي عقلها وظلت تندبهما وتبكيهما حتى ماتت غما وكمدا .

وجهز جيشا آخر لغزو مصر ليحقق لابن العاص امنيتـــه الغالية ، وولاه قيادة ذلك الجيش ، ولما بلغ امير المؤمنين دعا اهل الكوفة لنجدة اخوانهم في مصر فلم يستجيبوا لطلبه ، وبعد ان ألح عليهم اجابه جماعة منهم وما لبث ان جاءته الانباء بأن ابن العاص قد تغلب عليها وقتـــل واليها محمد بن ابي بكر ومثل به ثم احرقه ، فانتدب مالك بن الحرث الاشتر وولاه عليها لانقاذها من ايدي الغزاة، وكان كما يصفه المؤرخون حازما قويا مخلصا لامير المؤمنين كما كان امير المؤمنين لرسول الله على حد وصف الامام وغيره له .

ولما بلغ معاوية نبأ اختياره حاكما في مصر اضطرب واشتد خوفه على انصاره وقواته المرابطة فيها ، واستطاع بعد تفكير طويل ان يجد المخرج من تلك الازمة التي احاطت به ، فأغرى احد انصاره ممن يسكنـــون الطريق التي لا بد للاشتر من المرور عليها بالمال لقاء اغتياله ، ولما بلـــغ الاشتر ذلك المكان ونزل فيه جاءه بعسل مسموم كان قد اعده له بنـــاء

اتخطيط معاوية ، فكانت به نهايته ، وكان ناجحا في التخلص من اخصامه بهذا الاسلوب فقد قتل ابن خاله محمد بن ابي حذيفة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وسعد بن ابي وقاص والامام ابا محمد الحسن بهذا الاسلوب ، وأحيانا كان يتباهى به ويقول : ان لله جندا من العسل ينتقم به لاوليائه .

وتوالت الاحداث في داخل العراق والبلاد التي كانت تخضع لسلطة امير المؤمنين، فلم يكن يفرغ من تمرد حتى يفاجأ بآخر ولا يسد ثغرة الا فتحت له اخرى حتى طمع فيه معاوية الى حدود الاستخفاف ، هذا وأصحابه بالرغم مما يجري حولهم وعلى حدود بلادهم وفي خارجها من احتلال لبعض المقاطعات وقتل ونهب مسعنون في خلافه مفرقون فيما احبوا من طلب العاقبة اذا استنفرهم لا ينفرون واذا دعاهم لا يجيبون يتعللون بالاعذار الواهية كحر الصيف وبرد الشتاء ، ولا يغضبون لحق او دين ولا للمشردين والمستضعفين حتى كان يتمنى فراقهم بالموت او القتل ويبكي احيانا على من مضى من انصاره ويقول : متى يبعث اشقاها فيخضب هذه من هذا مشيرا الى رأسه الكريم ولحيته الشريفة ، ويتمنى لو ان معاوية صارفه فيهم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منه عشرة وأعطاه واحدا من اهل الشام ، ووطن نفسه اخيرا ان يخرج لحرب معاوية بمن هم على رأيه من اهله وعشيرته وأنصاره فيقاتل بهم حتى يلقى الله في سبيل الحق والعدل وتحدث اليهم حديثا لا لبس فيه وحملهم تبعات ما سينجم عن تخاذلهم فقال لهم كما جاء في رواية البلاذري في انساب الاشراف :

اما اني قد سئمت من عتابكم وخطابكم فبينوا لي ما انتم فاعلون ، فان كنتم شاخصين معي الى عدوي فهو ما اطلب وما احب ، وان كنتم غير فاعلين فاكشفوه لي عن امركم ، فوالله لئن لم تخرجوا معي بأجمعكم الى عدوكم فتقاتلوه حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين

لادعون الله عليكم ثم لاسيرن الى عدوكم ولو لم يكن معي الا عشرة، ومضى يقول : اجلاف اهل الشام اصبر على نصرة الضلال وأشد اجماعا على الباطل منكم على هواكم وحقكم ما بالكم وما دواؤكم ان القوم امثالكم لا ينشرون ان قتلوا الى يوم القيامة .

وكان على ما يبدو لهذا الموقف الحازم منه اثره في نفوس القوم بعد ان ايقنوا بأنه سيخرج بنفسه وأهله وخاصته الى معاوية ، وسيلحقهم بذلك الخزي والعار ويصبحون حديث الاجيال اذا هم تركوه يخرج على هذا الحال . فرد عليه زعماؤهم ردا جميلا ، وجمع كل رئيس منهم قومه وتداعوا للجهاد من كل جانب وتعاقدوا على الموت معه ، حتى اصبحت الحرب حديث الناس ، وأرسل الى عماله في مختلف المناطق يدعوهم للاشتراك معه بمن عندهم من الجيوش والمقاتلين ، وخرج الناس الى معسكراتهم في النخيلة ينتظرون انسلاخ شهر رمضان من سنة اربعين لهجرة النبي (ص) ، وأرسل امير المؤمنين زياد بن حفصة في جماعة من اصحابه طليعة بين يديه ، وبقي هو مع الجيش ينتظر انسلاخ الشهر المبارك ، واذا بالقدر ينقض عليه وعلى اهل العراق فيكمن له اشقى الاولين والآخرين في فجر اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر وهو في بيت الله فيضربه على رأسه الشريف وهو يصلي لربه فيخر منها في محرابه وهو يقول :

فزت ورب الكعبة .

المؤامرة الكبرى

في شهر رمضان من سنة اربعين للهجرة ، وبينما امير المؤمنين يجاهد ويكابد ليحمل اصحابه على مناصرة الحق والمستضعفين وحرب البغاة وعلى رأسهم معاوية بن ابي سفيان ويعدهم لهذه الغاية اعدادا سليما ، ويبعث فرقا من جيشه الى هنا وهناك لرصد الغارات التي كان يشنها ابن ابي سفيان على اطراف العراق والحجاز واليمن ، وفي الوقت ذاته يجاهد عماله ليحملهم على الحق الواضح ويأخذهم بالامانة في اعمالهم وعدم التفريط بأبسط الحقوق والواجبات ، بينما كان في هذا كله واذا به يسقط صريعا في بيت الله بسيف ابن ملجم المرادي تتيجة لمؤامرة دُهب اكثر المؤرخين انها وضعت في مكة المكرمة وفي موسم الحج بالذات ، واشترك فيها ثلاثة من الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والحجاج بن عبد الله الصريمي المعروف بالبرك ، وعمرو بن بكر التميمي ، وقيل ان الثالث كان من الموالي يدعى زادوية مولى بني العنبر بن عمرو بن تميم جمعتهم الصدف او انهم خططوا للاجتماع في موسم الحج وتذاكروا امور المسلمين وما آلت اليه من الخلاف والشقاق والفساد واتفقوا في الرأي على ان الامة لا يمكن لها ان ترتاح مما

تعانيه من الفوضى والفساد والخلاف ما دام علي بن ابي طالب ومعاوية ابن ابي سفيان وعمرو بن العاص على قيد الحياة وتعاقدوا على قتلهم فاختار ابن ملجم قتل علي بن ابي طالب ، واختار الحجاج بن عبد الله قتل معاوية ، واختار الثالث ابن العاص وتواعدوا صبيحة اليوم التاسع عشر او السابع عشر من شهر رمضان لتنفيذ ما تعاقدوا عليه على ان يتم التنفيذ في الاقطار الثلاثة في ساعة واحدة .

وفي رواية ذكرها البلاذري في الانساب انهم تواعدوا في عمرة رجب من سنة اربعين ولم يزد على ذلك وهذه الرواية يكتنفها الغموض من حيث ان تواعدهم في رجب كما يحتمل انه كان لتنفيذ المؤامرة في ذلك الوقت يحتمل انهم وضعوها في ذلك الوقت والتنفيذ في شهر رمضان ، ومما يرجح ان تواعدهم يعني اجتماعهم في العمرة ، ما ذكره اليعقوبي من ان عبد الرحمن بن ملجم دخل الكوفة في العشرين من شعبان . وقيل ان الاشعث بن قيس الكندي هو الذي دبر المؤامرة على حياة امير المؤمنين (ع) واتفق مع ابن ملجم على تنفيذها وكان عداده في كندة علم حد تعبير الرواة ، ويعتمد اصحاب هذا الرأي في جملة ما يعتمدون عليه على ما رواه ابو الفرج الاصفهاني عن محمد بن الحسين، ان الاشعث بن قيس دخل على امير المؤمنين فكلمه في امر فأغلظ له علي (ع) فعرض له الاشعث في انه سيفتك به ، فقال له امير المؤمنين(ع): **أبالموت تخوفني وتهددني فوالله ما أبالي وقعت على الموت او وقع الموت عليّ .**

وجاء في رواية ثانية ان الاشعث بن قيس في الليلة التي قتل فيها امير المؤمنين خلا بابن ملجم في بعض نواحي المسجد ومر بهما حجر بن عدي فسمع الاشعث يقول له : النجاة النجاة بحاجتك قد فضحك الصبح ، فقال له حجر بن عدي : قتلته يا اعور ومضى مسرعا الى امير المؤمنين فوجد ابن ملجم قد سبقه اليه وضربه بالسيف على رأسه وهو

في محرابه، وأصحاب هذا الرأي اكثر ما يعتمدون عليه تلك المواقف العدائية التي كان يقفها ابن الاشعث مع امير المؤمنين كما اشرنا الى بعضها خلال حديثنا عن التحكيم وتنائجه .

وقيل ان المؤامرة تمت بين ابن ملجم ومعاوية بن ابي سفيان ، ونقل هذا الرأي (فلهوزن) في كتابه تاريخ الدول العربية عن الطبري ، وأيد جماعة هذا القول بالابيات التي خاطب بها ابو الاسود الدؤلي معاوية بعد تنفيذ المؤامرة وفيها يقول :

ألا ابلغ معاوية ابن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طرا اجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثاني والمبينا

والبيتان الثاني والثالث قد اسند فيهما الجريمة لمعاوية وحزبه مباشرة ولو كان من فعل الخوارج لم يكن لاسنادها لمعاوية وجه مقبول .

ويبدو من حديث الاستاذ احمد عباس صالح في كتابه اليمين واليسار في الاسلام عن جريمة اغتيال ابن ملجم لامير المؤمنين انه قد خرج منه وهو مقتنع بأن الجريمة من تدبير معاوية ، حيث قال متسائلا: لماذا نجحت خطة الاغتيال بالنسبة الى علي بن ابي طالب ولم تنجح مع عمرو بن العاص ومعاوية ، ومضى يقول : بأن الجريمة هنا مدبرة بإحكام شديد يفوق اي جريمة اخرى ، فقد رتبت ببراعة مستفيدة من كل الظروف ، وانتهى الى القول : بأنه ليس هناك شك في ان حقيقة الجريمة قد عرفت في حينها وان الشعب كان يعلمها او على الاقل يشك في وقوعها فهناك رجال كثيرون قد افصحوا عن هذا ، بل منهم من جهر بها امام الناس وعلى رأسهم رجل من خيرة المسلمين وفي مقدمة صفوفهم هو ابو الاسود الدؤلي .

في حدود هذه الاحتمالات الثلاثة تناول الباحثون القدامى والمحدثون جريمة الاغتيال التي نفذها ابن ملجم المرادي وفشل رفيقاه في تنفيذها بعمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان ، وقد اخذ اكثر المؤرخين والمحدثين بالرأي الاول بدون تمحيص للمرويات ولا دراسة للظروف والملابسات والاحداث التي رافقت خلافة الامام (ع) .

والذي اراه ان التخطيط للجريمة اذا صح انه كان في موسم الحج وفي مكة بالذات كما تزعم اكثر المرويات ورجحه اكثر المحدثين والمؤرخين وان الثلاثة تواعدوا على تنفيذها في مصر والشام والعراق في ليلة واحدة بل وفي الساعة الاولى من اليوم التاسع عشر او السابع عشر من شهر رمضان ، ومعنى ذلك ان بين التخطيط لها وتنفيذها عشرة اشهر تقريبا ، لو افترضنا صحة ذلك وان كان عندي اكثر من مرجح لبطلان هذا الافتراض لو افترضنا ذلك فليس ببعيد ان يكون التخطيط لها قد تم بالاتفاق مع ابن العاص وابن الزبير وغيرهما من الطامعين في الخلافة على ان يتم التنفيذ بالامام علي ومعاوية ليخلو الجو لغيرهما ، ولذا فان ابن العاص لم يخرج في تلك الليلة بالذات دون غيرها من سائر الليالي ، وبلا شك فلقد كان يطمع بها وقد حاول مع الاشعري في دومة الجندل على ان تكون له او لولده عبد الله كما تشير الى ذلك بعض المرويات ، وليس ذلك بغريب ولا ببعيد عليه وتمت صياغة المؤامرة بهذا الشكل حتى لا يتهم بها هو او غيره ، ولا احسب احدا يلم بتاريخه وتاريخ ابن الزبير وبتلك الفترة من تاريخ المسلمين وما فيها من احداث يستبعد عليهما وعلى غيرهما من ذوي الاطماع ذلك .

ولكن الباحث لا يجد فيما بأيدينا من المصادر دليلا على التخطيط للمؤامرة بهذا النحو ولا بالنحو الذي يعتمده اكثر المؤرخين ذلك لان المؤامرة كما يدعيها المؤرخون بجميع حلقاتها تدعو الى الاستغراب والتساؤل لان اجتماع ثلاثة في موسم الحج ليسوا من قادة الخوارج ولا

من المعروفين فيهم ولا تجمعهم قبيلة واحدة او قطر واحد على امـــر عظيم من هذا النوع بعيد وغريب في نوعه ، وكيف اطمأن بعضهم الى بعض على امر من هذا النوع ، ولماذا التأخير في التنفيذ من موسم الحج الى اواخر رمضان من السنة الثانية ، ولماذا تخلف ابن العاص في تلـك الليلة واستناب غيره ليصلي بالناس ، ولماذا خرج معاوية دارعا للصلاة في تلك الليلة كما نسب ذلك الاستاذ احمد عباس لبعض الروايات ، مع ان ذلك من غير المألوف في الصلاة ، والروايات التي تنص على انه قد اصيب متفقة على ان اصابته كانت طفيفة وليست شيئا ، مع ان جماعة من الكتّاب يشكك بها ، وبعضهم يجزم بكذبها .

واذا كانت المؤامرة بين ثلاثة من الخوارج في مكة ، فلماذا استعان ابن ملجم بشبيب بن بحران ، ووردان بن مجالد ، ولماذا كان الاشعث متحمسا للفتك بأمير المؤمنين. كل هذه التساؤلات تثير اكثر من الشك فيما تبناه الجمهور الاعظم من المؤرخين .

فلم يبق اقرب الى منطق الاحداث وملابساتها الا الرأي القائل بأن اغتيال امير المؤمنين كان نتيجة لمؤامرة دبرها معاوية وابـــن العاص بالاتفاق مع الاشعث بن قيس في الكوفة وغيره من الخونة بعد ان ايقن ان الامام (ع) صائر اليه بأهل العراق ، ولا تنجيه منه هذه المرة جميع المكائد والمحاولات مهما كان نوعها ، كما ترجح ذلك المرويات التي تنص على ان الاشعث قد هدد امير المؤمنين بالقتل ، وان ابن ملجم اقام شهرا بالكوفة عند الاشعث كما في تاريخ اليعقوبي ، وانه في تلك الليلة قال له : النجاة لحاجتك قد فضحك الصبح .

وقد ذكرنا ان كل ما حدث بعد رجوع الامام من صفين كان مـن حلقات المؤامرة التي ابتدأت برفع المصاحف في صفين وتوالت بعد ذلك حتى انتهت بمصرع الامام بذلك النحو من الصياغة التي دبرت ببراعـة

واتقان . وأبيات ابي الاسود تشير الى ان ذلك لم يكن خافيا يوم ذاك ولذلك فقد خاطب معاوية بها وأسند القتل اليه .

ومهما كان الحال فقد جاء في رواية ابي الفرج عن ابي مخنف عن عبد الله بن محمد الأزدي انه قال : اني لاصلي في تلك الليلة بالمسجد الاعظم مع رجال من اهل المصر كانوا يصلون في ذلك الشهر من اول الليل الى آخره اذ نظرت الى رجال يصلون قريبا من السدة قياما وركوعا لا يسأمون اذ خرج عليهم علي بن ابي طالب عند الفجر فأقبل ينادي الصلاة الصلاة وبعدها رأيت بريق السيف وسمعت قائلا يقول : الحكم لله لا لك يا علي ، ثم رأيت بريق سيف آخر، وسمعت عليا يقول : لا يفوتنكم الرجل ، وكان الاشعث قال لابن ملجم : النجاة لحاجتك قبل ان يفضحك الفجر .

وقال ابو الفرج : فأما بريق السيف الاول فانه كان شبيب بن بحيرة، وقد ضربه فأخطأه ووقعت ضربته في الطاق ، وأما بريق السيف الثاني فانه ابن ملجم ضربه على رأسه فأثبت الضربة في وسط رأسه وأكثر الروايات تنص على انه ضربه بعد ان رفع رأسه من السجود ، ومضى الراوي يقول : فشد الناس عليهما من كل جانب ، اما ابن ملجم فقد قبض عليه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وصرعه وأخذ السيف منه ، وأما شبيب بن بحيرة فقد اخذه رجل وصرعه وجلس على صدره ليقتله بسيفه ، ولما رأى الناس يشدون عليه من كل جانب خشي ان يصيبوه فوثب عن صدره ففر هاربا حتى اتى منزله فجاءه ابن عم له فوجده يحل الحرير عن يده ، فقال له : ما شأنك لعلك قتلت امير المؤمنين فأراد ان يقول لا فقال نعم ، فخرج وأتى بسيفه وقتله .

وأدخل الناس ابن ملجم على امير المؤمنين ، فقال عبد الله بن محمد الازدي : فدخلت فيمن دخل فسمعت امير المؤمنين يقول : النفس بالنفس ان انا مت فاقتلوه كما قتلني وان سلمت رأيت فيه رأيي ، فقال ابن ملجم:

لقد اشتريته بألف وسممته بألف فان خانني فأبعده الله، وانصرف وأحدق الناس بابن ملجم يحاولون ان ينهشوا لحمه بأسنانهم ، وتعالت الاصوات بالبكاء والنحيب من كل جانب ، وأصيب اهل الكوفة بالذهـــول والدهشة لذلك الحادث الجلل ، وهم يقولون : يا عدو الله ماذا صنعت لقد اهلكت امة محمد وقتلت خير الناس بعد رسول الله وهو صامت لا يتكلم .

ثم جمعوا له اطباء اهل الكوفة وكان اعلمهم بالطب والجراحة اثير بن عمرو بن هاني ، فلما وقف اثير على جرح امير المؤمنين ، قال والغصة في قلبه وصوته يتهدج : اعهد عهدك يا امير المؤمنين ، فان ضربة اللعين قد وصلت ام رأسك، فلم يتأفف او يتضجر من ذلك ، وجمع ولده وأوصاهم بالاعتصام بحبل الله وبما جاء به الاسلام من مكارم الاخلاق والاحسان الى الفقراء والمساكين .

وجاء في وصيته: الله الله في الفقراء والمساكين فاشركوهم فـــي معايشكم ، الله الله في ما ملكت ايمانكم فان رسول الله في آخر مـا اوصى به قال : اوصيكم بالضعيفين مما ملكت ايمانكم ، ومضى يقول : قولوا للناس حسنا كما امركم الله ولا تتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى ذلك غيركم ، وتدعون فلا يستجاب لكم ، وعليكـــم بالتواضع والتباذل واياكم والتقاطع والتفرق وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، الى غير ذلك مما كان يحرص ان يجمع الناس عليه طيلة حياته .

وظل يكابد الالم من تلك الضربة حتى قضى نحبه في ليلة احـدى وعشرين من شهر رمضان شهيد الحق والعظمة والعدالة ، تاركا وراءه اروع الامثلة من البطولات والتضحيات والاستخفاف بالدنيا وأمتعتهـا وعشاقها وقضى وهو يخاطب الدنيا وخيراتها التي كانت تحت قدميه : يا دنيا غري غيري فلقد طلقتك ثلاثا لا وصية لي فيك .

لقد خرج من هذه الدنيا من بيت الله كما دخلها من بيت الله تاركا الحسن والحسين وزينب والذرية الطاهرة بين يدي خصمه في اللـــه معاوية بن ابي سفيان ومن تلاه من اولئك الحكام ، يمزقهم الالم ويقسو عليهم الزمن في سلسلة من المآسي لم تعرف البشرية اشد هولا منها ولا اقسى في تاريخها الطويل وحلت على اخصامه لعنة الله ولعنة اللاعنين من ولدوا وماتوا الى يوم الدين •

الإمام الحسن بن علي (ع)

اما الحسن فله هيبتي وسؤددي وأما الحسين فله جرأتي وجودي .

لقد استقبل رسول الله (ص) سبطه الحسن سيد شباب اهل الجنة في ليلة النصف من رمضان المبارك الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان في السنة الثالثة من هجرته . ولما بلغه نبأ ولادته غمرته الفرحة وبدا عليه الارتياح وقام من ساعته الى بيت الصديقة فاطمة الزهراء ونادى يا اسماء اين ولدي ؟ فأسرعت اسماء الى الوليد المبارك وهو ملفوف بخرقة صفراء فتناوله منها وقال : الم اعهد اليكم ان لا تلفوا المولود في خرقة صفراء واذن في اذنه اليمنى وأقام في اليسرى ، فكان اول صوت مر على سمع السبط الكريم وتغلغل في اعماق نفسه وقلبه ، صوت جده العظيم: الله اكبر لا إله الا الله والله أكبر ، هذه الكلمات القصار بمحتوياتها الكثيرة كانت انشودة الامام ابي محمد الحسن في كل مراحل حياته يحاول بكل ما لديه من جهد ان يغرسها في اعماق النفوس لتكون انشودة الحياة جيلا بعد جيل .

والتفت الى الامام بعد ان كبر في اذنيه وسأله هل سميت وليدك

الميمون يا علي ؟ فأجابه الامام على الفور : ما كنت لاسبقك يا رسول الله ، فتوقف النبي (ص) عن الكلام لحظات وكأنه ينتظر امر السماء في ذلك ، وفيما هو يفكر واذا بالوحي يناجيه بالاسم المبارك من عند الله سبحانه ويقول له : سمه حسنا يا رسول الله كما جاء في بعض المرويات.

وجاء عن الامام ابي عبد الله الصادق (ع) ان رسول الله عق عنه بكبش ، وقال اللهم عظمها بعظمه ودمها بدمه ولحمها بلحمه وشعرها بشعره ، اللهم اجعلها وفاء لمحمد وآل محمد .

وفي رواية ثانية انه عق عنه بكبشين وأمر فاطمة (ع) ان تحلق رأسه وتتصدق بوزنه فضة على الفقراء ، وأمر بختانه في اليوم السابع لولادته، وقال : طهروا اولادكم يوم السابع فانه اطيب وأطهر وأسرع لنبات اللحم.

وروي في اسد الغابة عن ام الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب انها قالت للنبي : يا رسول الله رأيت كأن عضوا من اعضائك في بيتي، وفي رواية ثانية في حجري ، فقال لها : خيرا رأيت ان ابنتي فاطمة تلد غلاما فترضعيه بلبن ولدك قثم وكان الامر كما قال (ص) فلقد ارضعته بلبن قثم كما جاء في بعض الروايات .

والظاهر ان هذه الرواية من صنع الرواة لان قثم بن العباس اكبر من الحسن سنا ، وحين ولادة الحسن كان العباس في مكة ولم يهاجر الى المدينة الا في السنة السابعة او الثامنة وقد بقي في مكة مع عائلته برأي النبي (ص) يراقب تحركات قريش ويخبره بها وقد خرج مع المشركين الى بدر مكرها ووقع اسيرا ، وفدى نفسه وابني اخويه عقيل والحارث بن الحرث كما تؤكد ذلك اكثر المصادر ورجع الى مكة بعد ان دفع الفداء المطلوب منه وبقي بها مع عائلته وأولاده الى ان التحق بالنبي بعد الفتح.

ومهما كان الحال فلقد كان الحسن بن علي (ع) يلقب بالطيب والتقي والزكي والولي والسبط والمجتبى ، ويكنى بأبي محمد ، وهو سيد شباب اهل الجنة باجماع المحدثين وأحد اثنين انحصرت بهما ذرية رسول

الله (ص) وأحد الاربعة الذين باهى بهم رسول الله نصارى نجران ، ومن اصحاب الطهر .

الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

ومن القربى الذين امر الله بمودتهم وجعلها اجرا لرسالته كما نصت على ذلك الآية :

قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى .

وأحد الثقلين اللذين من تمسك بهما نجا ومن تخلف عنهما ضل وغوى كما اتفق على ذلك اكثر الرواة ، ومن اهل البيت الذين شبههم الله بسفينة نوح ، وقد قال فيه وفي اخيه الحسين : اللهم اني احبهما فأحبهما وأحب من احبهما ، وقال فيهما : كل بني بنت ينتمون وينتسبون لآبائهم الا ولد فاطمة فاني انا ابوهم والي ينتسبون الى غير ذلك مما صح من اقواله فيه وفي اخيه الحسين عليهما السلام .

وقال واصفوه انه كان اشبه الناس برسول الله خلقا وخلقا وسؤددا وهديا ، وقال الغزالي في احياء العلوم : ان النبي (ص) قال له : لقد اشبهت خلقي وخلقي ، ولم يكن احد اشبه برسول الله منه كما جاء عن مالك بن انس .

وروى محمد بن مسلم البخاري في صحيحه عن ابي بكرة انه قال : رأيت النبي (ص) على المنبر والحسن بن علي معه وهو يقبل على الناس مرة وينظر اليه مرة ويقول : ان ابني هذا سيد .

لقد نشأ ابو محمد الحسن بن علي في احضان جده رسول الله ، وغذاه برسالته وتعاليم الاسلام وأخلاقه ويسره وسماحته وظل معه وفي رعايته الى ان اختاره الله اليه حتى اصبح مفطورا على اخلاقه وآدابه وتعاليمه .

وروت زينب بنت ابي رافع ان فاطمة الزهراء (ع) اتت بالحسن والحسين الى ابيها في شكواه التي توفي فيها فقالت له : هذان ابناي

فورثهما شيئا ، فقال : اما الحسن فله هيبتي وسؤددي ، وأما الحسين فله جرأتي وجودي .

وروى الطبرسي في اعلام الورى عن محمد بن اسحاق انه قال : ما بلغ احد من الشرف بعد رسول الله ما بلغه الحسن بن علي ، فلقد كان يبسط له فراش على باب داره فاذا خرج وجلس عليه انقطع الطريق فما يمر احد من خلق الله اجلالا له ، فاذا علم بذلك قام ودخل بيته فيمر الناس ، ومضى الراوي يقول : ولقد رأيته في طريق مكة ينزل عن راحلته ويمشي على قدميه ، فما من خلق الله احد الا وينزل عن راحلته ، وكان مع القافلة سعد بن عبادة فنزل ومشى الى جانبه .

وجاء في رواية البخاري والترمذي ومسلم في صحاحهم وابن كثير في البداية والنهاية عن البراء بن عازب انه قال : رأيت النبي (ص) والحسن على عاتقه وهو يقول :

اللهم اني احبه فاحبه .

كما روت عائشة عن النبي (ص) انه كان يأخذه فيضمه اليه ويقول : اللهم ان هذا ابني وأنا احبه وأحب من يحبه ، وكان يحمله على رقبته فلقيه رجل وهو على هذه الحالة فقال : نعم المركب ركبت يا غلام ، فقال رسول الله : ونعم الراكب هو ، وكان يأتيه احيانا وهو ساجد فيركب ظهره فيطيل السجود والحسن على ظهره ، فاذا فرغ يسأله المسلمون عن سبب ذلك ، فيجيب لقد ثرحلني ابني فكرهت ان أعجله .

وقال فيه وفي اخيه الحسين عشرات المرات :

هذان ريحانتاي من الدنيا من احبني فليحبهما، ومن ابغضهما ابغضني ومن ابغضني ابغضه الله وأدخله النار ، وانهما سيدا شباب اهل الجنة .

وأجيانا كان يعقب على ذلك بقوله : ان أباهما خير منهما .

وحدث ابو هريرة كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير ان النبي (ص) نظر الى علي وفاطمة والحسن والحسين وقال : انا حرب

لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم ، ويروي الرواة ان ابا هريرة التقى بالحسن ابن علي يوما ، فقال له : يا ابن رسول الله ، ارني جسدك حتى اقبل منه ما كان يقبل رسول الله فكشف له قميصه فقبله في سرته ، وكان ابن عباس مع جلالته اذا ركب الحسن والحسين اخذ في ركابهما ويعد ذلك من نعم الله عليه ، وكانا اذا طافا في البيت يكاد الناس يحطمونهما من الازدحام عليهما .

وكان ابن الزبير مع حقده على اهل البيت وحسده لهم يقول : والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي (ع) .

وقال عنه واصل بن عطاء : كان الحسن بن علي عليه سيماء الانبياء وبهاء الملوك ، وكان كما في رواية ابن كثير اذا صلى الغداة في مسجد النبي (ص) يجلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس فيجلس اليه سادة الناس يسألونه عن امور دينهم ويتحدثون بين يديه ، وكان اذا توضأ للصلاة تغير لونه واذا وقف لها ارتعدت فرائصه ، واذا ذكر الموت او القبر او البعث والصراط يبكي حتى يغشى عليه ، واذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ من النار ، وقد قاسم الله ماله ثلاث مرات ، وخرج من ماله كله مرتين وحج خمسا وعشرين حجة وان النجائب لتقاد بين يديه وهو ماش على قدميه يقول : اني لأستحي من ربي ان القاه ولم امش الى بيته ، واذا رآه الناس ماشيا ترجلوا اكراما له ، فاذا اعياهم المشي جاؤوا اليه وقالوا : يا ابن رسول الله ان الناس قد اعياهم المشي على أقدامهم فإما ان تركب بعض نجائبك ليركب الناس ، او تتنكب الطريق فان احدا لا تطاوعه نفسه ان يركب وأنت تسير على قدميك ، فينحرف بمن معه عن الجادة، فاذا ابتعد عن الناس ركبوا رواحلهم .

لقد اجتمع في الامام ابي محمد الحسن بالاضافة الى شرف النسب ما ورثه من جده النبي وأبيه الوصي من العلم وكريم الصفات ما لم

يجتمع في احد من الناس ، ووجد فيه المسلمون ما وجدوه في جـده الرسول من اخلاق ومزايا وصلابة في الحق وتضحية في سبيل اللـه وخير الانسانية ، لقد جسد الامام الحسن اخلاق جده ومزايـا جده وتعاليم الاسلام وكان يذكرهم به من جميع نواحيه فأحبوه وعظمـوه وكان مرجعهم الاول بعد ابيه في كل ما كان يعترضهم من المشاكل ومـا يستعصي حله عليهم من امور الدين ، لاسيما وقد اطل المسلمون في عصره على فجر جديد وحياة جديدة حافلة بالاحداث التي لم يعـرف المسلمون لها نظيرا من قبل .

تواضعه وكرمه

لقد روى المؤرخون عن تواضعه وكرمه عشرات الروايات فمن ذلك انه اجتاز على جماعة من الفقراء وقد جلسوا على التراب يأكلون خبزا كان معهم فدعوه الى مشاركتهم فجلس معهم وقال : ان الله لا يحب المتكبرين ، ولما فرغوا من الاكل دعاهم الى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم من عطائه ، ومرة اخرى مر على فقراء يأكلون فدعوه الى مشاركتهم ، فنزل عن راحلته وأكل معهم ثم حملهم الى منزله فأطعمهم وأعطاهم ، وقال : اليد لهم لانهم لم يجدوا غير ما اطعموني ونحن نجد ما اعطيناهم .

وروى المحدثون عنه انه اتاه رجل في حاجة فقال له : اكتب حاجتك في رقعة وارفعها الينا فكتبها ورفعها اليه فضاعفها له ، فقال له بعض جلسائه : ما كان اعظم بركة هذه الرقعة عليه يا ابن رسول الله ، فقال : بركتها علينا اعظم حيث جعلنا للمعروف اهلا ، اما علمتم ان المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة ، فأما اذا اعطيته بعد مسألة فانما اعطيته بما بذل لك من وجهه وعسى ان يكون بات ليلته متململا ارقا يميل بين

اليأس والرجاء لا يعلم بما يرجع من حاجته ابكأية الروام بسرور النجح فيأتيك وفرائصه ترعد وقلبه خائف يخفق فان قضيت له حاجته فيما بذل من وجهه فان ذلك اعظم مما نال من معروفك .

وأعطى شاعرا مبلغا كبيرا من المال ، فقال له رجل من جلسائه : سبحان الله اتعطي شاعرا يعصي الرحمن ويقول البهتان ؟ فقال : يا عبد الله ، ان خير ما بذلت من المال ما وقيت به عرضك ، وان من ابتغاء الخير اتقاء الشر .

وسأله رجل فأعطاه خمسين الف درهم وخمسماية دينار ، وقال له: ائت بمن يحملها لك ، فأتى بحمال فأعطاه طيلسانه وقال : هذا كرى الحمال .

وجاءه اعرابي سائلا ، فقال : اعطوه ما في الخزانة ، وكان فيها عشرون الفا فدفعوها اليه ، فقال الاعرابي : يا مولاي ألا تركتني ابوح بحاجتي وأنشر مدحتي فقال الامام (ع) :

نحن اناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والامل
تجود قبل السؤال انفسنا ... خوفا على ماء وجه من يسل

ومر به رجل من اهل الشام ممن غذاهم معاوية بالحقد والكراهية لعلي وآل علي فجعل للامام الحسن (ع) السب والشتم والامام ساكت لا يتكلم وهو يعلم بأن الشامي لا يعرف عليا وآل علي الا من خلال الصورة التي كان معاوية بن هند يصورهم بها وعندما انتهى الشامي من حديثه بما فيه من صلف وفظاظة ابتسم اليه وتكلم معه بأسلوب هادىء ينم عن سماحة وكرم متجاهلا كل ما سمع وما رأى ، وقال : ايها الشامي اظنك غريبا فلو انك سألتنا اعطيناك ، ولو استرشدتنا ارشدناك وان كنت جائعا اطعمناك ، وان كنت محتاجا اغنيناك ، او طريدا آويناك ، ومضى يتحدث الى الشامي بهذا الاسلوب الذي يفيض بالعطف والرحمة

حتى ذهل الشامي وسيطر عليه الحياء والخجل وجعل يتململ بين يديه يطلب عفوه وصفحه ويقول :

الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وهكذا كان في جميع مواقفه مثالا كريما للخلق الاسلامي الرفيع الذي دعا اليه القرآن الكريم بقوله :

ادفع بالتي هي احسن السيئة فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

لقد قابل جميع ما كان يوجه اليه من الاذى والمكروه من اخصامه وحساده بالصبر والصفح الجميل حتى اعترف له ألد اخصامه وأنكدهم بذلك ، فقد روى المؤرخون ان مروان بن الحكم اسرع الى حمل جنازته ومشى مع المشيعين والكآبة بادية عليه ، فقال له ابو عبد الله الحسين : انك لتحمل جنازته وقد كنت بالامس تجرعه الغيظ، فقال: لقد كنت افعل ذلك مع من يوازي حمله الجبال .

وروى المدائني وغيره ان الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر خرجوا من المدينة الى مكة لاداء فريضة الحج يقطعون المسافة مشيا على أقدامهم وتجنبوا الجادة رحمة بالحجاج حتى لا يتكلفوا السير على أقدامهم ففاتتهم اثقالهم وأمتعتهم فجاعوا وعطشوا فقصدوا خباء في بعض نواحي الصحراء فوجدوا فيه عجوزا فطلبوا منها الطعام والشراب، فقالت : ليس عندي سوى هذه الشاة فاذبحوها فذبحها احدهم وشوت لهم من لحمها ، ولما ارادوا المضي قالوا لها : يا امة الله نحن نفر من قريش نريد مكة فاذا رجعنا الى المدينة فألمي بنا فانا صانعون بك خيرا ان شاء الله ، ومضوا في طريقهم ، ولما جاء زوجها اخبرته بما جرى لها ، فقال : ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش .

ومضت الايام فأصابهم جدب اضر بحالهم فقصدت المدينة هي

وزوجها لطلب العيش ، فرآها الامام ابو محمد الحسن فعرفها ولم تعرفه فقال لها : انا ضيفك يوم كذا وكذا وأعطاها الف شاة وألف دينار ، وأرسلها الى اخيه الحسين (ع) وعبد الله بن جعفر فأعطاها كل واحد منهما مثل ذلك فعادت الى حيها بعد الفقر المدقع من اثرى اهل الحي وأغناهم كما نص على ذلك الغزالي في المجلد الثالث من احيائه والبستاني في دائرة المعارف .

ويروي المؤرخون عن سخائه ايضا ان جماعة من الانصار كانوا يملكون بستانا يعتاشون منه فاحتاجوا لبيعه فاشتراه منهم بأربعمائةالف، ثم أصابتهم ضائقة بعد ذلك اضطرتهم لسؤال الناس ، فرد عليهم البستان حتى لا يسألوا احدا شيئا .

وروى ابن شهراشوب في مناقبه ان جارية حيته بباقة ريحان ، فقال لها : انت حرة لوجه الله. فلامه بعض جلسائه على ذلك ، فقال له : أوما سمعت قول الله :

واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها او ردوها ، ولا شيء احسن من عتقها .

وسأله رجل ان يعطيه شيئا فقال له : ان المسألة لا تصلح الا في غرم فادح او فقر مدقع او حمالة مفظعة [1] فقال له : ما جئتك الا في احداهن فأعطاه مائة دينار ، ثم اتجه الرجل الى الحسين (ع) فأعطاه تسعة وتسعين دينارا وكره ان يساوي اخاه في العطاء ، ثم ذهب الرجل الى عبد الله بن جعفر فأعطاه اقل منهما ولما قص عليه ما جرى له معهما، قال له : ويحك أتريد ان تجعلني مثلهما انهما غرا العلم والمال غرا .

وروى المؤرخون صورا كثيرة من الوان بره وكرمه ومعروفه التي

---

١ ــ الحمالة هي ما يتحمله الشخص من الدية والغرامة عن قومه وغيرهم ، والمفظعة الثقيلة الشديدة .

كان يغدق بها على السائلين والفقراء والمحرومين لانقاذهم مما كانوا يعانون من آلام الحاجة والبؤس ابتغاء وجه الله وثوابه لا للجاه والدنيا وتدعيم ملك وسلطان ولا لمكافأة على المديح والثناء كما كان يصنع ابن هند وغيره من حكام الامويين والعباسيين ، ومن يتلذذون بالمديح والاطراء والجاه والسلطان .

ونكتفي بهذا المقدار اليسير من احاديث الرواة عن كرمه ومعروفه وان كان الكثير مما يرويه الرواة يخضع للنقد والحساب ، الا ان القليل المتفق عليه بينهم يكفي لان يجعله في القمة بين اجواد العرب الذين لا يرون للمال وزنا ولا يحسبون له حسابا ، نكتفي بهذا المقدار لننتقل الى الحديث عن بعض ما رواه عنه الرواة في مختلف المواضيع ، وقد رووا ان له مسندا ألفه ابو بشير محمد بن احمد الدولابي سنة ٣٢٠ هجرية وأدرجه في ضمن كتابه الذرية الطاهرة [1] .

ويبدو ان هذا المسند هو مجموعة من احاديثه عن جده رسول الله مع العلم انه كان حين وفاة جده ما بين السابعة والسادسة من عمره ، ولكن ذلك لا يمنع من ان يكون قد اخذ عنه مباشرة ما خف عليه ومن ابيه بقية الاحاديث ، وقد اورد منه القرشي في كتابه حياة الحسن (ع) الاحاديث التالية كما هي مروية في المسند المذكور .

روى الامام الحسن عن جده انه قال : اللهم اقلني عثرتي وامن روعتي واكفني من بغى علي وانصرني على من ظلمني وارني ثاري منه، وروى عبد الله بن الحسن عن ابيه عن جده الحسن ان رسول الله كان يقول : يا مسلم اضمن لي ثلاثا اضمن لك الجنة ان انت عملت بما

---

١ ــ من مخطوطات المكتبة الاحمدية بجامع الزيتونة في تونس وتوجد منه نسخة مصورة عنها في مكتبة الامام امير المؤمنين كما جاء ذلك في المجلد الثاني من حياة الامام الحسن للقرشي .

افترض عليك في القرآن فأنت اعبد الناس وان قنعت بما رزقك فأنت اغنى الناس ، وان اجتنبت ما حرم الله عليك فأنت اورع الناس • وقال سمعت جدي رسول الله يقول : من صلى الفجر فجلس في مصلاه الى طلوع الشمس ستره الله من النار •

وجاء في المسند المذكور ان امرأة جاءت الى النبي (ص) ومعها ابناها فأعطاها ثلاث تمرات فأعطت كل واحد منهما تمرة ثم نظر الى امهما فشقت التمرة الثالثة بينهما فقال رسول الله : رحمها الله برحمتها ابنيها •

وجاء عنه انه قال : علمني رسول الله (ص) كلمات اقولهن في الوتر ، اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما اعطيت وقني شر ما قضيت فانك تقضي ولا يقضى عليك وانه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت •

وقال له رجل من اصحابه : ما تذكر من رسول الله ؟ قال : سمعته يقول لرجل : دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الشر ريبة والخير طمأنينة ، واذا سألك احد حاجة فلا ترده الا بها او بميسور من القول•

وقال سمعت رسول الله (ص) يقول ادعوا لي سيد العرب ، فقالت له عائشة : ألست سيد العرب يا رسول الله ، فقال : انا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب فدعي له الامام (ع) ، فلما مثل بين يديه ارسل الى الانصار يدعوهم ، فلما حضروا التفت اليهم وقال : يا معشر الانصار الا ادلكم على شيء ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ابدا ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : هذا علي فأحبوه بحبي وأكرموه بكرامتي فان جبريل اخبرني بالذي قلت لكم عن الله عز وجل •

وقد روى الامام الحسن (ع) عن هند بن ابي هالة ربيب رسول الله صفات النبي (ص) في بدنه وخلقه ومجلسه وجميع حالاته ، وكان هند

ابن ابي هالة بليغا وصافا وأكثر المؤرخين يروون صفـــات رسول الله (ص) عنه .

وجاء عن الامام ابي محمد الحسن (ع) انه قال : سألته عن مجلس رسول الله فقال : كان لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله ، واذا دخل على قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ويعطي كلا من جلسائه نصيبه ، فلا يحسب جليسه ان احدا اكرم عليه منه ومن جالسه او اتاه في حاجة حايرة حتى يكون هو المتصرف ، ولم يرده الا في حاجته او بميسور من القول يجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع عنده الاصوات ترى جلاسه متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى وفعل الخيرات، متواضعين يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ويؤثرون ذا الحاجـــة ويحفظون الغريب .

ومضى الراوي عن الامام الحسن يقول : كان رسول الله دائـــم السرور سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخـاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح قد ترك نفسه من ثلاث المراء والاكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث ، كان لا يذم احدا ولا يعيره ولا يطلب عثرة احد ، ولا يتكلم الا فيما رجا ثوابه ، واذا تكلم اطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، واذا سكت تكلموا ومن تكلم انصتوا له حتى يفرغ يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبـون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته .

وكان الامام ابو محمد الحسن يقول لجليسه : اذا اردت عزا بـلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله الى عز طاعة الله ، واذا نازعتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من اذا صحبته زانك واذا خدمته صانك ، واذا اردت منه معونة اعانك ، واذا قلت صدق قولك واذا صلت شد صولتك واذا مددت يدك بفضل مدها وان بدت منك ثلمة سدها وان رأى منك حسنة عدها ، وان سألته اعطاك ، وان سكت عنه

ابتداك ، وان نزلت بك احدى الحلمات واساك لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وان تنازعتما مغنما آثرك .

وقد روى الرواة ان امير المؤمنين (ع) وجه الى ولده الحسن السبط أسئلة حول الاخلاق والآداب وما يمكن ان يتصف به الانسان من الصفات الكريمة فأجابه عليها على البديهة وكانت اجوبته في منتهى الابداع والروعة .

وجاء في المرويات التي تعرضت لهذا الموقف انه سأله عن السداد والشرف والمروءة والدنية والسماحة والحلم والغنى والفقر والكلفة والعقل والحزم وغير ذلك من الصفات فقال : السداد دفع المنكر بالمعروف والشرف اصطناع العشيرة وحمل الجريرة ، والمروءة العفاف واصلاح المرء ما له ، والدنيئة النظر في اليسير ومنع الحقير ، والسماحة البذل في العسر واليسر ، والشح ان ترى ما في يديك شرفا والنفقة تلفا، والإخاء الوفاء في الشدة والرخاء ، والجبن الجرأة على الصديق والنكول عن العدو ، والحلم كظم الغيظ وملك النفس ، والغنى رضا النفس بما قسم الله وان قل فانما الغنى غنى النفس والفقر شره النفس في كل شيء ، والكلفة كلامك فيما لا يعنيك ، والمروءة اصلاح الرجل امر دينه وحسن قيامه على ماله وافشاء السلام والتودد الى الناس ، والكرم هو العطية قبل السؤال والتبرع بالمعروف والإطعام في المحل .

وقد تحدث يوما الى جماعة من اصحابه عن اصول الجرائم وأمهات الرذائل ، فقال : هلاك الناس في ثلاث الكبر والحرص والحسد ، ففي الكبر هلاك الدين وبه لعن ابليس ، والحرص عدو النفس وبه اخرج ادم من الجنة ، والحسد رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل .

وكان يحرص على المزيد من العلم ويحرض الناس عليه ويقول : تعلموا العلم فانكم اليوم صغار القوم وكبارهم غدا ، ومن لم يحفظ

منكم فليكتب ، وقال لبعض جلسائه : علم الناس وتعلم علم غيرك فتكون قد اتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم والسؤال نصف العلم .

ومن المأثور عنه انه قال : لا ادب لمن لا عقل له ولا مودة لمن لا همة له ولا حياء لمن لا دين له ، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل وبالعقل تدركون سعادة الدارين ومن حرم العقل حرمهما جميعا .

وكان يقول لاصحابه : هل رأيتم ظالما اشبه بمظلوم فيقولون له وكيف ذاك يا ابن رسول الله ؟ فيقول: ذاك هو الحسود فانه في تعب دائم والمحسود في راحة ، ويقول لهم : من زعم انه لا يحب المال فهو عندي كاذب ، فان علمت انه صادق فهو عندي احمق ، ويقول : فوت الحاجة اهون من طلبها الى غير اهلها .

وقد سأله رجل عن السياسة ، فقال : السياسة ان ترعى حقوق الله وحقوق الاحياء والاموات فاما حقوق الله فاداء ما طلب والاجتناب عما نهى ، وأما حقوق الأحياء فهي ان تقوم بواجبك نحو اخوانك ولا تتأخر عن خدمة امتك ، وان تخلص لولي الامر ما اخلص لأمته، وترفع عقيرتك في وجهه اذا ما حاد عن الطريق السوي ، وأما حقوق الاموات فهي ان تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم فان لهم ربا يحاسبهم .

وقال معاوية بن ابي سفيان يوما : ما يجب لنا في سلطاننا ، فقال الامام (ع) : ما قال سليمان بن داوود، فقال ما قال سليمان يا ابن رسول الله ؟ قال : لقد قال لبعض جلسائه : أتدري ما يجب على الملك في ملكه وما لا يضره اذا ادى الذي عليه ، اذا خاف الله في السر والعلانية وعدل في الغضب والرضا واقتصد في الفقر والغنى ، ولم يأخذ الاموال غصبا ولم يأكلها اسرافا وتبذيرا ولم يضره ما تمتع به من دنياه اذا كان من حله .

وجاء في تحف العقول ان رجلا سأله ان يكون من جلسائه وأصدقائه ، فقال له (ع) : اياك ان تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك ، او

تكذبني فانه لا رأي لمكذوب ، او تغتاب احدا عندي ، فقال له الرجل بعدما سمع هذه الشروط : ائذن لي في الانصراف ، فقال لـه نعم اذا شئت .

وفيما هو يطوف في البيت سأله رجل عن معنى الجواد ، فقال له : ان لكلامك وجهين ، فان كنت تسأل عن المخلوق ، فالجواد هو الذي يؤدي ما افترض عليه ، والبخيل هو الذي يبخل بما افترض عليه ، وان كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد ان اعطى والجواد ان منع ، لانه ان اعطى عبدا اعطاه ما ليس له ، وان منع منع ما ليس له ، والمعروف هو الذي لا يتقدمه مطل ولا يتبعه من ، والاعطاء قبل السؤال من السؤدد .

وقال له رجل اني من شيعتكم يا ابن رسول الله ، فقال له : يـا عبد الله ان كنت لنا في اوامرنا وزواجرنا مطيعا فقد صدقت ، وان كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من اهلها ، لا تقل انا من شيعتكم ولكن قل انا من مواليكم ومحبيكم ومعـادي اعدائكم وأنت في خير والى خير .

وقد روى الرواة مجموعة من الكلمات القصار في الحكم والاخلاق والآداب وغير ذلك من المواضيع فيها من سهولة البيان والعمق فـي التفكير والخبرة الواسعة بأصول الاخلاق والسياسة ومشاكل الحياة ما يكفي لان يكون في القمة بين عباقرة العصور في كل زمان ومكان كما تؤكد هذه الحقيقة النماذج التي عرضناها من آثاره وآرائه في مختلف المواضيع ، وليس ذلك بغريب عمن نشأ في بيت الوصي والتنزيل بيت محمد سيد المرسلين وعلي امام الفصحاء والموحدين ، وفاطمة سيـدة نساء العالمين ، هذا بالاضافة الى امامته الثابتة بنص الرسول ، والتي يلزمها ان يكون من اوفر الناس حظا بكل صفة كريمة وان يحيط بمـا يحيط به الناس ويختص بما لا يشاركه فيه احد من الناس .

ونقف بعد هذه اللمحات عن آثاره وعما جاء فيه عند هذا الحد لنعود

الى عرض موجز لحياته مع جده وأبيه ومواقفه السياسية وخلافته القصيرة وما تتج عنها من أحداث كانت ولا تزال مسرحا للجدل وتضارب الآراء بين الكتّاب والمؤرخين طيلة القرون الماضية وفي عصرنا الحاضر.

لقد بقي الامام ابو الحسن (ع) مع جده المصطفى سبع سنين او اقل من ذلك بقليل ، وهي السنين الاولى من حياته سنين الطفولة البيض التي كان جده فيها يرسم في روحه ونفسه ما يشاء له ويزوده بما كان يأتيه من السماء بين الحين والآخر وانتقل من جده لأبيه امير المؤمنين الذي كان يجسد النبي بجميع تصرفاته وأقواله وأفعاله .

لقد كانت السنين الاولى من حياته حافلة بالنور والسعادة بين ابويه العظيمين وفي رحاب جده النبي يلقنه الحكمة ويبث في روحه ونفسه من اسرار السماء ما يؤهله للامامة التي تنتظره بعد ابيه ويؤكد على الناس في كل مناسبة ان يحفظوه فيه وفي اخيه الحسين ويقروا لهما بالامامة فيقول مشيرا اليه والى اخيه : هذان امامان قاما او قعدا ، اللهم اني احبهما فأحبهما وأحب من يحبهما .

الحسن بعد وفاة جده وامه

لقد انتقل الرسول عن هذه الدنيا وسبطه الحسن (ع) في مطلع صباه لم يتجاوز السابعة من عمره ، والسنين السبع وان كانت قصيرة في حساب الزمن وفي عمر الناس لا يخرج الانسان بها عن سن الطفولة، ولكن الامام أبا محمد الحسن (ع) بالرغم من انه لم يتجاوز يوم ذاك هذا السن ، فلقد كان يعي ويفكر ويتلقى من جده ما يعيه ويتلقاه الكبار من اصحابه، لذلك فقد احس بفقد جده وظلت الكآبة بادية عليه وبخاصة حينما كان يرى امه الزهراء تتلوى من الحزن والالم وتبكيه ليلها ونهارها ويرى ما لاقته من بعده من الاذى والجور والاحداث القاسية التي تجرعت مرارتها وظلت تكافح وتناضل الغاصبين بالحجة والمنطق وهي مع ذلك تذكر اباها وأيامه وتذهب على قبره شاكية باكية وتقول :

صبت علي مصائب لو انها ... صبت على الايام صرن لياليا
قد كنت ذات حمى بظل محمد ... لا أختشي ضيما وكان جماليا
واليوم اخضع للذليل وأتقي ... ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا

كل ذلك كان يعانيه الامام ابو محمد الحسن ويحس بمرارة ما

تقاسيه امه من ظلم وجوز واضطهاد حتى خارت قواها ولم يعد جسمها النحيل يقوى على تحمل تلك الاحداث فأحست بدنو اجلها ودعت اولادها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم وأخذت بيدهم تقبلهم تارة وتضمهم الى صدرها اخرى وكأنها كانت على ميعاد مع الموت وفارقت الدنيا فتعالى صراخهم وبكاؤهم من داخل البيت ، فأقبل علي (ع) الى البيت مسرعا يغالب دموعه الحائرة في مقلتيه ودنا من الجثمان المسجى في وسط البيت ومن حوله الحسن والحسين ، وبعد ان واراها الثرى التفت الى قبر الرسول (ص) وقال : لقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة ، اما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد الى ان يختار لي الله دارك التي انت فيها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فاصفها السؤال واستخبرها لحال . هذا ولم يطل العهد ولم يخلق منك الذكر ، والسلام عليك سلام مودع لا قال ولا سئم فان انصرف فلا عن ملالة وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الصابرين .

لقد طوى القدر الصفحة الاولى من حياة الامام الحسن بوفاة جده التي كانت من اسعد ايام حياته كلها وظل يتذكرها ويستفيد من ابعادها ، وبقي بعد جده ثلاثة اشهر او ستة على ابعد التقادير في رعاية امه الزهراء وأبيه امير المؤمنين وهما في صراع دائم مع القوم وفي غمرة من الحزن والالم لفقد النبي (ص) ، وما لبث ان عاد القدر بعد تلك الاشهر القليلة فطوى الصفحة الثانية من حياته بوفاة امه الزهراء وقد حفت بأبيها الاحداث والنكبات والحسن يشاهد كل ذلك ويتجرع مرارتها وهو لا يزال في سن الطفولة فيرى أبا بكر على منبر جده رسول الله والناس محدقون به فيندفع نحوه مسرعا وهو يقول : انزل عن منبر ابي ، فيبتسم له ويقول : بأبي انت يا ابن رسول الله لعمري انه منبر ابيك لا منبر ابي، ويخيم الصمت على الحشود المجتمعة حول المنبر فيذكرون رسول الله وأيامه يوم كان يضعه على منكبه الايمن ويضع اخاه الحسين على الايسر،

ويوم جاءه وهو ساجد فركب رقبته ، ويوم جاءه وهو راكع فأفرج له بين رجليه حتى خرج من الجانب الآخر ، ويوم قيل له : يا رسول الله انـــك لتصنع مع الحسن ما لا تصنعه مع غيره فقال لهم : انه ريحانتي من الدنيا، وتذكروا جميع تلك المشاهد وأيام رسول الله (ص) واذا هم بين طوفان من الذكريات غطت بألوانها القاتمة جميع مسراتهم وأفراحهم .

الحسن مع مؤذن النبي بلال

لقد نزح بلال الحبشي بعد وفاة النبي الى ارض الشام والتحق في صفوف المجاهدين رغبة فيما عند الله سبحانه وظل مرابطا هناك مع المرابطين فرأى في بعض الليالي وهو في سبات عميق رسول الله (ص) فسر في لقائه فقال له : ما هذه الجفوة يا بلال ، اما آن لك ان تزورني ، فانتبه من نومه فزعا وهو يقول : والله ما غاب رسمك يا رسول الله عن عيني وما نسيتك لحظة واحدة ولا بد وان اعود الى يثرب لزيارة قبرك الشريف فانتبهت زوجته على حديثه وسألته عما به ، فقال لها : اني انتظر النهار لاعود الى يثرب لزيارة قبر الرسول وقد جاءني يعاتبني على هذا الجفاء ، وما ان بزغ فجر ذلك اليوم حتى امتطى راحلته وانطلق في البيداء لا يلوي على شيء حتى انتهى الى المدينة ، ولما لاح له قبر النبي (ص) القى بنفسه عليه يبكي ويمرغ وجهه بترابه ، وفيما هو يناجيه واذا بالحسن والحسين قد اقبلا لزيارة قبر جدهما وأمهما ، فلما رآهما تجددت احزانه وأسرع اليهما يضمهما الى صدره ويقول : كأني بكما رسول الله . والتفتا اليه وقالا : اذا رأيناك ذكرنا صوتك وأنت تؤذن لرسول الله ونشتهي ان نسمعه الان بعد غيابك الطويل ، وانطلق بلال من

ساعته الى سطح المسجد تلبية لرغبة السبطين فأجهش بالبكاء وانطلق صوته من ناحية المسجد الى كل بيت في المدينة ، الله اكبر لا إله الا الله محمد رسول الله فهز المشاعر وارتجت المدينة من اصوات الباكين ، ومضى الذهبي في كتابه سيرة اعلام النبلاء يقول : فلما قال بلال : اشهد ان محمدا رسول الله خرجت العواتق من خدورهن ، وظن الناس ان رسول الله لقد بعث من قبره وما رؤي يوم اكثر باكيا ولا باكية بعد رسول الله من ذلك اليوم .

الحسن في عهد الخلافاء الثلاثة

لم يحدث التاريخ بشيء يلفت النظر عن حياة الامام الحسن (ع) في عهد ابي بكر لانه لم يتجاوز سن الطفولة في عهده القصير لانه كان في حدود العاشرة من عمره يوم توفي ابو بكر ، ومع انه كان بهذه السن ، فلقد كان يقوم بأكثر مما ينتظر من مثله من حيث وعيه وتفكيره وتصرفاته واحساسه بالاوضاع العامة وتطوراتها ، وكان لذلك ولما شاهده من جده الرسول الاعظم وما سمعوه فيه وفي اخيه يتمتع بتقدير المسلمين وعطفهم عليه ، وقطع دور الصبا وأشرف على الشباب في خلافة عمر بن الخطاب ، وانصرف مع ابيه عن السياسة والحكم الى تعليم الناس وتفقيههم وحل مشاكلهم .

وحينما فرض عمر بن الخطاب لكل واحد من المسلمين نصيبه من العطاء في السنة الثانية من خلافته يوم كانت تتدفق الغنائم على المدينة من كل الجهات فرض لكل واحد ممن قاتل مع النبي (ص) في بدر خمسة آلاف درهم وألحق بأهل بدر اربعة من المسلمين الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان الفارسي، وفرض لبقية المسلمين لكل واحد حسب جهاده ومكانته من الاسلام كما جاء في تاريخ الطبري .

وأضاف الى ذلك ابن عساكر في تاريخه من حوادث السنة الخامسة عشرة انه وردت على عمر بن الخطاب حلل من وشي اليمن فوزعها على المسلمين ونسيهما فبعث الى عامله على اليمن ان يبعث له حلتين فأرسلهما اليه فأعطى لكل منهما حلة .

ومن المؤكد انهما لم يشتركا في المعارك الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب بالرغم من انها قد بلغت ذروتها في مختلف المناطق والانتصارات يتلو بعضها بعضا ، والاموال والغنائم تتدفق على المدينة من هنا وهناك ، ولم تظهر اي بادرة للامام ابي محمد الحسن طيلة عهد الخليفة الثاني ، في حين انه كان في السنين الاخيرة من خلافة ابن الخطاب قد اشرف على العشرين من عمره، وهو سن يخوله الاشتراك في الحروب والغزوات التي كان المسلمون شبابا وكهولا وشيوخا يتسابقون اليها ، ولعل السبب في ذلك يعود الى انصراف امير المؤمنين عن التدخل في شؤون الدولة والحياة السياسية، ومما لا شك فيه ان عدم اشتراك الامام في الحروب والغزوات لم يكن مرده الى تقاعس الامام وحرصه على سلامة نفسه ، بل كان كما يذهب اكثر الرواة والمؤرخين لان عمر بن الخطاب قد فرض على الكثير من اعيان الصحابة ما يشبه الاقامة الجبرية لمصالح سياسية يعود خيرها اليه ، وبقي الحسن السبط الى جانب والده منصرفا الى خدمة الاسلام ونشر تعاليمه وحل ما يعترض المسلمين من المشاكل الصعاب ، وكانت تصدر من الخليفة فلتات بين الحين والآخر يستشم منها الجمهور الاعظم من المسلمين بأن عمر بن الخطاب سيعهد الى علي من بعده ولعل ذلك كان من اسباب اغتياله كما ذكرنا ، وظل هذا الاحتمال يراود الناس حتى كانت الشورى بتلك الصياغة التي لا تختلف في واقع الامر عن التعيين الا بالشكل والمظهر كما ذكرنا من قبل ، وقد دخل امير المؤمنين في الشورى مع علمه بالنتيجة التي انتهت اليها ليفضح نواياهم ومخططاتهم كما جاء في جوابه لمن سأله عن اسباب عدم اعتزاله ، وكان الحسن (ع)

الى جنب والده يشاطره الآلام والنكبات التي لقيها من تحديات القوم وتجاهلهم له .

لقد كان عمر بن الخطاب وهو يصارع الموت يتذكر الاموات ويتمنى بقاءهم بين الاحياء ليعهد اليهم في خلافة المسلمين ، فقال بلغة الآسف الحزين : لو كان ابو عبيدة حيا لاستخلفته لانه امين هذه الامة ، ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حيا لاستخلفته لانه شديد الحب لله تعالى ، لقد تأسف على ابي عبيدة وعلى سالم مولى ابي حذيفة لانهما قد احدثا فراغا لا يسده غيرهما بزعمه ، وتجاهل عليا وبالامس القريب كان يقول فيه انه على الحق الواضح والمحجة البيضاء ولن يعدو كتاب الله وسنّة رسوله ويقسم بالله بأنه لولاه لما قام للاسلام عمود ، وجال ببصره وبصيرته بين الاحياء فلم يجد سوى ستة من المسلمين يصلحون لها زعم ان عليا احدهم، في خين انه قد ناقض نفسه وهو يصف الخمسة بصفات لا تسمح له ان يوليهم ابسط الاعمال فضلا عن الخلافة .

وكان ابو محمد الحسن قد بلغ عشرين عاما او تزيد وقد برز بين اعيان المسلمين في مواهبه العالية وتطلعاته الى حقائق الامور ومشكلاتها، ومضى مع ابيه يتجرع مرارة تلك الاحداث القاسية ويستسلم معه للقدر المحتوم ويعملان لصالح الاسلام وانضم الحسن الى جنود المسلمين الذين اتجهوا الى افريقيا بقيادة عبد الله بن نافع وأخيه عقبة في جيش بلغ عشرة آلاف مجاهد كما جاء في العبر لابن خلدون ، وتطلع المسلمون الى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحبيبه يجاهد معهم، وكانت الغزوة ناجحة وموفقة كما يصفها المؤرخون ، وعاد الحسن منها الى مدينة جده وقلبه مفعم بالسرور وعلامة الارتياح بادية على وجهه الكريم لانتشار الاسلام في تلك البقعة من الارض .

ويظهر من رواية ابن خلدون ان الحسين كان مع اخيه الحسن في تلك الغزوة كما جاء في تاريخ الامم والملوك في حوادث سنة ثلاثين

للهجرة ان سعيد بن العاص غزا خرسان ومعه حذيفة بن اليمان وناس من اصحاب رسول الله والحسن والحسين وعبد الله بن عباس ، وتحـــرك عبد الله بن عامر من البصرة بمن معه من المجاهدين باتجاه خراسان فسبق سعيد بن العاص ونزل ابرشهر وبلغ ذلك سعيد بن العاص فنزل قومس وكان قد صالحهم فيها كما صالحهم في نهاوند ، ومضى سعيد ومعـــه الحسن والحسين الى جرجان فصالحوه على مائتي الف ، ثم هاجم طميسة وهي تابعة لطبرستان وصحادة لجرجان على حد تعبير الطبري على ساحل البحر فقاتلهم اهلها قتالا شديدا وصلى المسلمون صلاة الخوف وأخيرا انتصر المسلمون في تلك المناطق كما نص على ذلك ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

وجاء في الفتوحات الاسلامية وغيرها ان سعيد بن العاص غـــــزا طبرستان سنة ثلاثين من الهجرة وكان الاجهيد قد صالح سويد بن مقرن على مال بذله في عهد عمر بن الخطاب ، وفي عهد عثمان بعد استيلائه على السلطة بخمس سنوات تقريبا جهز اليهم جيشا بقيادة سعيد بن العاص كان فيه الحسن والحسين وعبد الله بن العباس وغيرهم من اعيان المهاجرين والانصار وتم لهم الاستيلاء على تلك المناطق والتغلب عليها [1] .

وتؤكد اكثر المرويات ان الحسن والحسين قد اشتركا في كثير من الفتوحات الاسلامية وكان لهما دور بارز في سير تلك المعارك التي كانت تدور رحاها بين المسلمين وغيرهم ، وليس بغريب على علي بن ابي طالب وبنيه ان يجندوا كل امكانياتهم وطاقاتهم في سبيل نشر الاسلام واعـــلاء كلمته ، واذا كانوا يطالبون بحقهم في الخلافة فذاك لاجل الاسلام ونشر

---

١ ــ انظر المجلد الخامس من تاريخ الامم والملوك ص ٥٧ والمجلد الاول من الفتوحات الاسلامية ص ١٧٥ .

تعاليمه فاذا اتجه الاسلام في طريقه فليس لديهم ما يمنع من ان يكونوا جنودا في سبيله حتى ولو مسهم الجور والاذى ، وقد قال امير المؤمنين اكثر من مرة : والله لأسالمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن جورا الا علي خاصة .

لقد وقف الامام الحسن الى جانب ابيه في عهد الخليفة الثالث وقد تكاملت رجولته يعمل مخلصا لمصلحة الاسلام ويشترك مع ابيه في وضع حد للفساد الذي استشرى في جسم الدولة من عثمان وبطانته الذين استأثروا بأموال العباد وخيرات الشعوب ونكلوا بالعلماء والابرياء ، وتعالت الصيحات من كل جانب ، ولم تكن صيحة ابي ذر التي لا تزال مثلا كريما يحتذي به كل ثائر على الظلم وكل من ينشد الاصلاح الا صدى لغضب الجماهير التي لم تعد تستطيع ان تهضم تسلط مروان بن الحكم الطريد ابن الطريد والوليد بن عقبة وابن ابي سرح وغيرهم من المروانيين والامويين على الامة ومقدراتها ، وتلفت الناس فرأوا عالما غير ذاك الذي بناه الاسلام وكادت ان تكون معالمه معدومة ولاذوا بعلي (ع) وكتائب الايمان الاولى ، فتوجهوا لعثمان ليأخذ على ايدي اولئك العابثين والمخربين ويحد من مجونهم واستهتارهم بالقيم والاخلاق وحقوق العباد ، ولكنه بدلا من ان يستجيب لطلب الامام وصحابة النبي الابرار ويراعي شعور الجماهير التي ارتفعت اصواتها هنا وهناك بدلا من ذلك انتزع مفاتيح بيت المال من زيد بن ارقم ، وراح يهدد ويتوعد ، وضرب ابن مسعود ورفس عمار برجليه وأغرى به غلمانه حتى اوسعوه ضربا وشتما وكاد يودي بحياته ، وفعل مثل ذلك بأبي ذر ، وراح يناجز الصلحاء بالقوة والقسوة والتعذيب فأخرج ابا ذر من مدينة الرسول مقهورا الى الشام على اسوأ حال ليكون تحت رقابة عاملها معاوية بن ابي سفيان ، ووجد الصحابي الجليل في عاصمة بلاد الشام المستثارا واسرافا وتبذيرا في اموال المسلمين واستهتارا بالقيم والمقدسات فارتفع صوته

هناك كما كان يرتفع حيث يوجد الظلم والطغيان والفساد لم ترهبه سياط الجلادين وسطوة الحاكمين ولم يجد معاوية بدا من ارجاعه الى المدينة ، وفيها اختار له عثمان الربذة لتكون مسكنه ومدفنه فنفاه اليها ومنع الناس من الاتصال به ووداعه ، ولكن امير المؤمنين وولديه الحسن والحسين وعمار بن ياسر وجماعة من خيرة الصحابة قد تحدوا ارادة الخليفة وخرجوا لوداعه ، وحاول مروان بصلفه وغروره ان يحول بين ابي ذر ومودعيه ويخاطبهم بأسلوب الحاكم الذي عليه ان يأمر وعلى الرعية ان تنفذ ، فقال لعلي (ع) : أما بلغك ان امير المؤمنين عثمان قد نهى الناس ان يصحبوا ابا ذر في مسيرة وأن يشيعوه .

ثم اتجه الى الامام ابي محمد الحسن (ع) وقد رأى في وجهه غضبة الاستنكار لاساليب العنف التي بلغت اقصى حدودها اتجه اليه وقال : ايه يا حسن ألا تعلم ان الخليفة قد نهى عن وداع ابي ذر والتحدث اليه فان كنت لا تعلم فاعلم ذلك ، فلم يتحمل منه امير المؤمنين هذا الاسلوب المتعجرف وضرب وجه راحلته التي حاول ان يسد بها الطريق وقال له : تنح نجاك الله الى النار فولى مروان منهزما يشكوه الى عثمان .

واتجه امير المؤمنين الى ابي ذر فودعه وألقى عليه كلمة حدد فيها موقفه من السلطة الحاكمة وموقفها منه تحديدا وافيا بكل اسباب الصراع بين الفئة المتدينة التي لا تهادن على حساب الاسلام ولا تلين لكل الضغوط والاغراءات مهما كانت النتائج وبين الفئة الحاكمة من غلمان بني امية الذين استغلوا السلطة للتسلط على الناس واعادة مظاهر الجاهلية بكل اشكالها وقد ذكرنا نص الكلمة التي القاها في وداع ابي ذر خلال حديثنا عن ابي ذر في الفصول السابقة .

واتجه اليه الحسن بن علي (ع) فودعه بكلمات تنم عن المه وتأثره من معاملة القوم لابي ذر وغيره من خيار الصحابة ، فقال : يا عماه لولا انه ينبغي للمودع ان يسكت وللمشيع ان ينصرف لقصر الكلام وان طال

الاسف وقد اتى القوم اليك فقطع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة مـــا اشتد منها برجاء ما بعدها واصبر حتى تلقى نبيك ويحكم الله بينك وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين .

وبعد ان تكلم الحسين وابن عباس وبقية المشيعين ، اتجه ابو ذر الى علي والحسنين (ع) وقال رحمكم الله يا اهل البيت اذا رأيتكم ذكـرت بكم رسول الله مالي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم انيْ ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره ان اجاور اخاه وابن خالـــه بالمصرين فصيرني الى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع الا الله ، والله لا اريد الا الله صاحبا وما اخشى معه وحشة ، وختم الصحابي الجليـــل حياته في فلاة من الارض ليس له فيها صاحب الا الله وصدق فيه قول النبي : يا ابا ذر تعيش وحدك وتدفن في فلاة من الارض وحـــدك وتحشر وحدك .

لقد مل المسلمون سياسة عثمان وأعوانه وعماله وفشلت كل محاولات الاصلاح فخافوه على دينهم ودنياهم فزحفوا اليه من جميع الاقطـــار يطالبونه باصلاح ما افسده هو وعماله ، او بالتخلي عن السلطة ، وكان امير المؤمنين وولده الحسن وسيطين بين الخليفة ووفود الامصار فـي محاولة للاصلاح ووضع حد للفساد الذي شمل جميع مرافق الدولة، وكانا كلما اشرفا على النجاح ، ووضعا الحلول الكفيلة بالاصلاح وارجـــاع الثوار الى بلادهم ، جاء مروان ونقض كل ما ابرم بين الطرفين من حلول واتفاقات ، حتى تعقدت الامور اخيرا وهاجمه الثوار بتحريض من السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وقالت لهم عائشة كما تؤكد ذلك اكثر المرويات : اقتلوا نعثلا فقد كفر، وأخرجت للمسلمين قميص رسول الله(ص) وقالت بصوت يسمعه الجميع : هذا قميص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته، كما تؤكد المصادر الموثوقة ان طلحة لم يقتصر دوره على التحريض على عثمان ، بل اشترك معهم وسهل لهم الوصول الى داره للقضاء عليه

في حين ان امير المؤمنين كما يدعي الرواة قد ارسل ولديه حسنا وحسينا ليدفعا عنه الثوار ، وحينما بلغه قتله اقبل مسرعا الى داره ولام ولديه ومن معهما في الدار بلهجة قاسية .

وجاء في رواية ابن كثير ان الحسن بن علي قد اصيب ببعض الجروح وهو يدافع عنه ومضى ابن كثير في البداية والنهاية يروي عن المدائني والزبير بن بكار ان عليا بكى على عثمان حتى ظن الناس انه سيلحق به وانه قال : لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان الى كثير من امثال هذه المرويات التي وضعت في العصر الاموي .

ومما لا شك فيه ان امير المؤمنين كان كغيره من خيار الصحابة ناقما على تصرفات عثمان وأنصاره وعماله ، ومع ذلك فلم يبلغ به الحال الى حدود الرضا بقتله والتحريض عليه، بل وقف منه موقفا سليما وشريفا اراد من عثمان ان ينتهج سياسة تتفق مع الدين والاسلام وان يجعل حدا لتصرفات ذويه وعماله الذين اسرفوا في تبذير الاموال واستعمال المنكرات ، وأراد من الثائرين عليه ان يقفوا عند حدود المطالبة بالاصلاح الشامل لجميع مرافق الدولة وان لا تتخذ ثورتهم طابع العدوان والانتقام، واستطاع في المراحل الاولى من وساطته ان يضع حدا للصراع القائم بين الطرفين بما يحفظ لكل منهما حقه لولا ان مروان بن الحكم قد افسد كل ما اصلحه الامام (ع) وظل الامام الى آخر لحظة يتمنى على عثمان ان يتخذ موقفا سليما حتى يتاح له ان يعالج الموقف في حدود ما انزل الله .

مع الدكتور طه حسين في تفسيره لموقف الحسن من ابيه

وأما موقف الحسن (ع) من عثمان وتصرفاته فلم يدّع احد من المؤرخين بأنه كان من المؤيدين لعثمان وأنصاره المستهترين بكل ما جاء به جده رسول الله ، بل كان الى جانب ابيه في كل ما يقول ويفعل واشترك معه في جميع حروبه وكان يتمنى على ابيه ان يسمح له بمواصلة القتال وخوض المعارك عندما يتأزم الموقف ويشتد القتال ، ولكن اباه كان شديد الحرص عليه وعلى اخيه الحسين فلم يسمح لهما بمواصلة القتال وكان يقول لقادة جيشه في صفين : املكوا عني هذين فاني اخاف ان ينقطع بقتلهما نسل رسول الله ، وكان يقاتل مع ابيه من يزعمون انهم يثأرون لعثمان ، وقد اجمع محبوه ومبغضوه على انه كان ثورة على الظلم والظالمين والمستغلين وان حياته كلها كانت لله وفي سبيل الله كما تحدثنا عن بعض جوانبها في الفصول السابقة ، ومع انه كان كذلك فقد ادعى بعض الكتّاب القدامى والمحدثين بأنه كان على خلاف دائم مع ابيه وأضاف الى ذلك الدكتور طه حسين في كتابه عن علي وبنيه انه كان عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة وانه اقام مع ابيه وشهد مشاهده كلها على غير حب لذلك او رغبة منه فيه .

ولم اجد مصدرا لهذا النوع من التحريف والتضليل سوى بعض المرويات التي لا يشك الباحث في سندها ومتنها بأنها من موضوعات الامويين والعثمانيين الذين كانوا يحاولون براءة عثمان مما وصفه به التاريخ واعطاء تصرفاته صفة الشرعية ، وفي الوقت ذاته ايجاد فجوة بين موقف كل من علي وولده الحسن السبط من عثمان والسياسة التي اتنهجها امير المؤمنين (ع) .

اما الروايات التي تعلق بها اصحاب هذا الرأي وعلى رأسهم عميد الادب العربي فقد روى بعضها البلاذري في الانساب والاشراف بسند ينتهي الى طارق بن شهاب كما رواها ابن ابي الحديد عن طارق بن شهاب ايضا ، ورواها الطبري عن سيف بن عمر الذي اكثر من الرواية عنه في تاريخه .

وجاء في رواية البلاذري وشرح النهج ان الحسن بن علي (ع) قال لابيه : يا امير المؤمنين اني لا استطيع ان اكلمك وبكى ، فقال له : تكلم ولا تحن حنين الجارية ، فقال ان الناس قد حصروا عثمان فأمرتك ان تعتزلهم وتلحق بمكة حتى تؤوب الى العرب عوازب احلامها فأبيت ذلك، ولما قتل عثمان امرتك ان تعتزل الناس فلو كنت في جحر ضب لضربت اليك العرب اباط الابل حتى يستخرجوك فغلبتني ، وأنا آمرك اليوم ان لا تقدم على العراق ، فاني اخاف عليك ان تقتل بمضيعة ، فقال امير المؤمنين (ع) : اما قولك تأتي مكة فوالله لا اكون الرجل الذي تستحل به مكة ، وأما قولك : ان القوم قد حصروا عثمان ، فما ذنبي ان كان بين الناس وبين عثمان ما كان ، وأما رأيك بأن اعتزل الناس ولا اقدم العراق، فوالله لا اكون مثل الضبع انتظر اللدم ، ويدعي شارح النهج ان هذا الحوار كان بين الحسين وأبيه وهو في الربذة في طريقه الى البصرة .

وفي رواية ثانية للبلاذري عن ابي قبيصة عمرو بن طارق بن شهاب ان الحسن (ع) قال لابيه في الربذة وقد ركب راحلته وعليها رحل رث : اني

لاخشى ان تقتل بمضيعة ، فقال له امير المؤمنين : اليك عني فوالله ما وجدت الا قتال القوم او الكفر بما جاء به محمد .

وفي رواية ثالثة تنتهي بسندها الى طارق بن شهاب انه قال للحسن والحسين وهما يحاولان منعه عن القتال : مالكما تحنان حنين الجارية ، والله لقد ضربت هذا الامر ظهرا لبطن فما وجدت بدا من قتال القوم او الكفر بما انزل الله على محمد .

وقال الدكتور طه حسين : وقد روى الرواة ان عليا (ع) مر بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : اسبغ الوضوء ، فأجابه بالكلمة التالية المرة على حد زعم الرواة : لقد قتلتم بالامس رجلا كان يسبغ الوضوء ، فلم يزد امير المؤمنين على قوله : لقد اطال الله حزنك على عثمان .

من هذه المرويات استنتج بعض الكتّاب ان الحسن (ع) كان على خلاف مع ابيه ، وكان يرى له ان لا يشترك في شيء وان يعتزل الناس والمدينة ويقيم في ماله او يذهب الى مكة فيعتصم بها ولا يتعرض للبيعة وان عرضت عليه .

ومضى الدكتور طه حسين يقول : ولو استطاع الحسن ان يعتزل الفتنة كما فعل سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما لفعل ، وكان يكره لابيه ان يترك المدينة ويذهب الى العراق لحرب طلحة والزبير وعائشة ، وكان ابوه يعصيه في كل ما كان يشير عليه من ذلك ، ولم يفارقه حزنه على عثمان وكان عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

والروايات المذكورة على ما بينها من اختلاف في مضامينها تشتمل على بعض الكلمات التي لا يحسن صدورها من عوام الناس مع آبائهم مثل قوله : امرتك فعصيتني والحسن (ع) ارفع شأنا من يستعمل هذا الاسلوب مع ابيه ، وهل يعني اعتزاله للناس وعدم ملاحقة طلحة والزبير وعائشة الا اعتزال الامة ومقدراتها وترك الامور بيد العابثين والمفسدين يعبثون ويفسدون في الارض ؟ وكيف يطلب منه ذلك وهو يعلم بأن

الاسلام يفرض محاربة البغي والظلم والفساد . هذا بالاضافة الى ان الرواة لهذه الاحاديث بين من هو معروف بالكذب ووضع الاحاديث كسيف بن عمر وبين مهجول الحال لم يتعرض له المؤلفون في الرجال بمدح او ذم ، وبين من اهملوا ذكره وكأنه لم يكن كعمرو بن قبيعة ، كما يبدو ذلك من الميزان لابن حجر وميزان الاعتدال للذهبي .

وأما الرواية الاخيرة التي استنتج منها طه حسين ان الحسن بن علي كان عثمانيا بالمعنى الدقيق ، فقد رواها البلاذري عن المدائني ، والمدائني معروف بالكذب والعداء لعلي وآل علي (ع) على ان متن الرواية يشهد بأن المقصود منها النيل من قدسية الامامين ، واتهام علي (ع) بالاعتداء على عثمان والاشتراك في قتله ، فلقد جاء فيها ان الحسن كان يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فأمره ابوه ان يسبغ وضوءه ، وهذا لا يحتمله احد في الحسن بن علي (ع). ولو افترضنا وباب الافتراض واسع ان الحسن لا يحسن الوضوء كما يدعي المدائني وان أباه ارشده الى ما يجب عليه ، فأي مناسبة تستدعي ان يجيب أباه بذلك الجواب الجاف ، لقد قتلتم بالامس رجلا كان يسبغ الوضوء .

ومهما كان الحال فليس بغريب على المدائني ولا على اسياده ان يضعوا عثمان في صفوف المظلومين وان عليا كان من اولئك الظالمين الذين اعتدوا عليه وسلبوه طعم الحياة بشهادة الحسن بن علي . والامر الغريب ان يقف عميد الادب العربي من هذه الرواية موقف المطمئن اليها ويبني عليها هذا الحكم الجائر على الحسن بن علي الذي كان من احب الناس الى جده رسول الله وأشبههم به خلقا وخلقا والذي قال فيه وفي اخيه :

هذان إمامان قاما او قعدا .

باجماع المحدثين ، الغريب ان يقف منها موقف المطمئن اليها ويبني عليها حكمه الجائر ، بأنه كان عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة مع ما

فيها من العيوب التي لا تخفى على عامة الناس فضلا عن الادباء ونقاد الادب كالدكتور طه حسين وأمثاله .

ومع ان الدكتور طه حسين حاول ان يظهر بمظهر من لا تعنيه غير الحقيقة لأي جهة كانت فقد بدا عليه التحيز في كثير من مواضيع كتابه، ولكن تحيزه لم يكن قاسيا كما هو الحال بالنسبة لموقفه من الامام الحسن (ع) لان كونه عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة على حد تعبيره يعني انه كان يبارك جميع تصرفات عثمان وأعماله التي تخالف كتاب الله وسنّة رسول الله وحتى سيرة من تقدمه من الخلفاء ، ويبارك اخراج ابي ذر من المدينة مطرودا ومهانا ورفسه لعمار وتسليط غلمانه عليه وعلى ابن مسعود وغيرهم من اجلاء الصحابة ويبارك تكريمه وحفاوته بطريد رسول الله الحكم بن العاص وذريته وتسليطه الفساق والمستهترين من ذويه وبني امية بالاسلام وحقوق العباد ، وبتعبير آخر ان الحسن بن علي لا يكون عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة الا اذا كان كمروان وعقبة ابن ابي معيط والوليد بن عقبة وابن ابي سرح وأمثالهم من زبانية عثمان، ولا احسب ان احدا من المسلمين مهما بلغ به الحقد والعداء لاهل البيت يضع ريحانة رسول الله بهذا المستوى الذي لا يرضاه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر لنفسه .

ومضى الدكتور طه حسين يقول : وقد شهد الحسن مع ابيه مشاهده كلها في البصرة وصفين والنهروان ، وأكاد اعتقد مع ذلك انه وأخاه الحسين قد شهدا هذه الحروب دون ان يشاركا فيها .

وما ادري من اين جاءه هذا الاعتقاد مع ان نصوص المؤرخين تشهد لهما بالمشاركة وانهما كانا يتململان بين يدي ابيهما ليأذن لهما بالقتال .

وقد جاء في شرح النهج ان عليا (ع) حينما احتدمت المعركة في البصرة زحف نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والانصار وحوله الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ودفع له الراية وقال له تقدم

حتى تركزها في عين الجمل ، فلما تقدم بها رشقته السهام فقال لاصحابه: رويدا حتى تنفد سهامهم ، ولما ابطأ بها جاءه من خلفه ووضع يده اليسرى على منكبه الايمن وقال له : اقدم لا ام لك ، وأخذ منه الراية ، ودفعها الى الحسن فحمل الحسن على القوم وفرقهم عن الجمل حتى انتهى اليه وطعنه في عينه ، ثم دفعها الى الحسين ففعل كما فعل اخوه الحسن الى كثير من المرويات التي تؤكد انهما كانا يشتركان معه ويفديانه بنفسيهما، غير انه كان يضن بهما عن الخطر مخافة ان يصيبهما سوء فتنقطع بقتلهما ذرية رسول الله على حد تعبيره احيانا ، وأحيانا كان يقول : انهما ابنا رسول الله ومحمد بن الحنفية ابني ، وأحيانا اخرى يقول : انهما عيناي ومحمد ساعدي ويدي والمرء يدفع عن عينيه بيديه وساعديه .

ومجمل القول ان الامام الحسن قد اشترك مع ابيه في حياته السياسية والعسكرية وكان موقفه من عثمان كموقف ابيه وخيار الصحابة، ولما توجه امير المؤمنين (ع) الى البصرة ونزل ذا قار ارسله الى الكوفة مع عمار بن ياسر وزيد بن حومان وقيس بن سعد ، ليستنفروا اهلها لمساعدته على طلحة والزبير ، وكان قد ارسل قبلهم وفدا فعارضهم ابو موسى ولم يستجب لطلب امير المؤمنين (ع) ، ومضى الحسن بمن معه باتجاه الكوفة ولما دخلوها استقبلهم اهلها فقرأ عليهم كتاب ابيه ، ووقف ابو موسى نفس الموقف الذي وقفه مع الوفد الاول وافتعل حديثا عن النبي ليثبط الناس عن مساعدة امير المؤمنين وادعى انه سمعه يقول : ستكون بعدي فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والنائم خير من القاعد فرد عليه عمار بن ياسر وقال : اذا صح انك سمعت رسول الله يقول ذلك فقد عناك وحدك فالزم بيتك ، اما انا فأشهد الله ان رسول الله قد امر عليا بقتال الناكثين وسمى لي منهم جماعة وأمره بقتال القاسطين ، وان شئت لاقيمن لك شهودا ان رسول الله قد نهاك وحدك وحذرك من الدخول في الفتنة .

ووقف الحسن (ع) يستنفر الناس فحمد الله وصلى على رسوله ثم

قال : ايها الناس انا جئنا ندعوكم الى الله وكتابه وسنّة رسوله والى افقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون من لم يعبه القرآن ولم تجهله السنّة ولم تقعد به السابقة ندعوكم الى من قربه الله ورسوله قرابتين قرابة الدين وقرابة الرحم الى من سبق الناس الى كل مأثرة ، الى من كفى الله بـــه رسوله والناس متخاذلون فقرب منه وهم متباعدون وصلى معه وهم مشركون وقاتل معه وهـــم منهزمون وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون وهو سائلكم النصر ويدعوكم الى الحق ويأمركم بالمسير اليه لتؤازروه وتنصروه على قوم نكثوا ببيعته وقتلوا اهل الصلاح من اصحابه ومثلوا بعماله ونهبوا بيت ماله فاشخصوا اليه رحمكم الله .

وفي رواية ثانية عن جابر بن يزيد انه قال : حدثني تميم بن جذيم التاجي ان الحسن بن علي (ع) وعمار بن ياسر قدما الكوفـــة يستنفران الناس الى علي (ع) ومعهما كتابه فلما فرغا من قراءته قام الحسن فرمـاه الناس بأبصارهم وهم يقولون : اللهم سدد منطق ابن بنت بيتك فوضع يده على عمود يتساند اليه وكان عليلا من شكوى به فقال الحمـــد لله العزيز الجبار الواحد الاحد القهار الكبير المتعال سواء منكم مـن اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار احمده علـى حسن البلاء وتظاهر النعماء وعلى ما احببنا وكرهنا من شدة ورخاء ، وأشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسولـه امتن بنبوته واختصه برسالته وأنزل عليه وحيه واصطفاه على جميع خلقه وأرسله الى الانس والجن حين عبدت الاوثان وأطيع الشيطان وجحـد الرحمن فصلى الله عليه وعلى آله وجزاه افضل الجزاء ، اما بعد فاني لا اقول لكم الا ما تعرفون ، ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب ارشد الله امره وأعز نصره بعثني اليكم يدعوكم الى الصواب والعمل بالكتـــاب

والجهاد في سبيل الله ، وان كان في عاجل ذلك ما تكرهون فان في آجله ما تحبون ان شاء الله ، ولقد علمتم بأن عليا صلى مع رسول الله وحده ، وانه يوم صدق به لفي عاشرة من عمره ثم شهد مع رسول الله جميع مشاهده ، وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الاسلام ما قد بلغكم ، ولم يزل رسول الله راضيا عنه حتى غمضه بيده وغسله وحده والملائكة اعوانه والفضل ابن عمه ينقل اليه الماء ، ثم ادخله حفرته وأوصاه بقضاء دينه وعداته وغير ذلك من اموره كل ذلك من من الله عليه ، ثم والله ما دعا الى نفسه ولقد تداك الناس عليه تداك الابل الهيم عند وردها فبايعوه طائعين ، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدث احدثه ولا خلاف اتاه حسدا له وبغيا عليه فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة بالله والاسراع الى ما دعاكم اليه عصمنا الله واياكم بما عصم به اولياءه وأهل طاعته وألهمنا واياكم تقواه وأعاننا واياكم على جهاد اعدائه واستغفر الله لي ولكم .

وبعد جدال طويل وحوار بين عمار بن ياسر والحسن بن علي من جهة وبين ابي موسى الاشعري التفت الحسن (ع) الى ابي موسى وقال له : اعتزل عملنا لا ام لك وتنح عن منبرنا وظل ابو موسى على موقفه المتصلب يخذل الناس ويوحي اليهم بأن رسول الله قد امرهم باعتزال هذه الفتنة ، حتى جاء مالك الاشتر ودخل القصر وأخرج منه الحرس ، هذا وأبو موسى في جدال مع الحسن وعمار فجاءه الغلمان والحرس يشتدون اليه وأخبروه بما صنع الاشتر فخرج من المسجد مذموما مدحورا واستجاب الناس لنداء الحسن وخرج معه الى البصرة اثنا عشر الفا ، وكان امير المؤمنين قد اخبر بعددهم وهو في ذي قار كما جاء في رواية الشعبي عن ابي الطفيل وأضاف الى ذلك ابو الطفيل يقول : والله لقد قعدت على الطريق وأحصيتهم واحدا واحدا فما زادوا رجلا ولا نقصوا رجلا [1] .

---

١ ــ انظر شرح النهج جـ٣ ص ٢٩٥ .

وكما ذكرنا لقد اشترك الحسن في معارك البصرة كما اجمع على ذلك المؤرخون ولما زحف امير المؤمنين في كتيبته الخضراء على حد تعبير المؤرخين التي جمعت المهاجرين والانصار وحوله اولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وكان قد اعطاه الراية فحمل بها على انصار عائشة ومضى يتقدم بها حتى تزعزعت صفوفهم . فقال له الانصار : والله يا امير المؤمنين لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدمنا على محمد احدا من العرب ، فقال لهم امير المؤمنين : اين النجم من الشمس والقمر، اما انه قد اغنى وأبلى وله فضله ولا ينقص فضل صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى عليه ، فقالوا له: يا امير المؤمنين انا والله لا نجعله كالحسن والحسين ولا نظلمهما له ولا نظلمه لفضلهما عليه حقه ، فقال : اين يقع ابني من ابني بنت رسول الله وقال خزيمة بن ثابت فيه :

محمد ما في عودك اليوم وصمة ولا كنت في الحرب الضروس معردا
ابوك الذي لم يركب الخيل مثله علي وسماك النبي محمدا
فلو كان حقا من ابيك خليفة لكنت ولكن ذاك ما لا يرى بدا
واطعنهم صدر الكمي برمحه وأكساهم للهام عضبا مهندا

الى ان يقول :

سوى اخويك السيدين كلاهما امام الورى والداعيان الى الهدى

ويجد المتتبع عشرات الشواهد على انه كان يشارك اباه في حروبه مع الناكثين والقاسطين والمارقين بالرغم من ان اباه كان يضن به وبأخيه الحسين عن خوض المعارك ويستعين بأصحابه عليهما .

فقد جاء في نهج البلاغة وقد رأى ولده الحسن يشتد نحو المعركة انه قال لمن حوله: املكوا عني هذا الغلام لا يهدني فاني انفس بهذين على الموت لئلا ينقطع بموتهما نسل رسول الله .

وتشير هذه الكلمة الى انه كان يخوض المعارك ويندفع اليها ، ولم

يكن يقف عند رغبة ابيه ، ولذا فقد استنجد بأصحابه للحد من حماسته واندفاعه .

وبعد ان أورد شارح النهج هذه الكلمة بين كلماته القصار طرح على نفسه السؤال التالي : أيجوز ان يقال للحسن والحسين وولدهما ابناء رسول الله وولد رسول الله ، او نسل رسول الله ، مع انهم اولاد بنته الزهراء من علي بن ابي طالب .

وأجاب عن ذلك : لقد سماهم الله ابناء رسول الله في الآية ، قال تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ولم يكن له غيرهما وقد جاء بهما وبفاطمة وعلي (ع) ومضى يقول : لو اوصى رجل لولد فلان دخل بينهم اولاد البنات عند عامة الفقهاء ، وقد جعل الله عيسى من ذرية ابراهيم في الآية ومن ذريته داوود وسليمان ويحي وعيسى ، ومن المعلوم ان عيسى انما يتصل به من جهة امه [1] .

وجاء في المجلد الاول من شرح النهج ان الحسن بن علي (ع) دعا الناس الى الجهاد وقال : الحمد لله لا إله غيره ولا شريك له وانه مما عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ولا يبلغه قول ولا صفة ، ونحن انما غضبنا لله ولكم ، انه لم يجتمع قوم قط على امر واحد الا اشتد امرهم واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده ولا تتخاذلوا فان الخذلان يقطع نياط القلوب وان الاقدام على الاسنّة نخوة وعصمة لم يتمنع قوم قط الا رفع الله عنهم العلة وكفاهم حوائج الذلة وهداهم الى معالم الملة ثم انشد :

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من انفاسها جرع

---

١ ــ انظر ص ٩ من المجلد الثالث ، ٢ مجلد ١ ص ٢٨٣ .

ووقف بعده الحسين (ع) فقال : يا اهل الكوفة انتم الأحبة الكرام والشعار دون الدثار جدوا في اطفاء ما وتر نبيكم وتسهيل ما توعر عليكم، الا ان الحرب شرها وريع وطعمها فظيع فمن اخذ لها اهبتها واستعد لها عدتها ولم يألم كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها ومن عاجلها قبل اوان فرضها واستبصار سعيه فيها فذاك قمن ان لا ينفع قومه وان يهلك نفسه نسأل الله بقوته ان يدعمكم بالفيئة انه قريب مجيب .

وأرسل عبيد الله بن عمر الى الحسن بن علي ان لي حاجة وكان الى جانب معاوية بن ابي سفيان فلقيه الامام ابو محمد الحسن فقال لـه عبيد الله : ان اباك قد وتر قريشا اولا وآخرا وقد شنئه الناس فهل لك في خلعه وتتولى انت هذا الامر ، فقال له الحسن (ع) : كلا والله لا يكون ذلك ابدا ، ومضى يقول : يا ابن الخطاب والله لكأني انظر اليك مقتولا في يومك او غدك ، اما ان الشيطان قد زين لك وخدعك حتى اخرجك متخلقا بالخلوق ترى نساء اهل الشام موقفك وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلا .

ثم انصرف كل منهما الى جهته ، وأضاف الى ذلك ان احد الرواة قال : فوالله ما كان الا بياض ذلك اليوم حتى قتل عبيد الله وهو في كتيبة رقطاء تدعى الخضرية وكان في اربعة آلاف عليهم ثياب خضر فمر الحسن بن علي (ع) واذا برجل متوسد برجل قتيل قد ركز رمحه في عينه وربط فرسه برجله فقال الحسن لمن معه : انظروا من هذا فاذا رجل من همدان واذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب قد قتله الهمداني في اول الليل وبات عليه حتى اصبح .

وتؤكد المصادر الموثوقة ان الحسن بقي الى جنب والده الى آخر لحظة وكان يعاني ما يعانيه ابوه من اهل العراق ويتألم لآلامه ومتاعبه وهو يرى معاوية يبث دعاته في انحاء العراق ويغري القادة والزعماء بالاموال والمناصب حتى فرق اكثرهم عنه ، وأصبح امير المؤمنين يتمنى

فراقهم بالموت او القتل ، ثم يبكي ويقبض على كريمته ويقول متى يبعث اشقاها فيخضب هذه من هذا والحسن يرى كل ذلك ويتلوى من الالم والحسرة لما يحيط بأبيه من المتاعب والاحداث .

وتشاء الاقدار ان يبعث اشقاها في صبيحة الحادي والعشرين من رمضان وعلي يتأهب لقتال اهل الشام ، فيضربه ابن ملجم بسيفه وهو يصلي الفجر في محرابه ضربة تصل الى دماغه ، فيخر في المحراب وهو يقول : فزت ورب الكعبة ، ويبقى الحسن بن علي وحده بين تلك الاعاصير وبين اهل الكوفة المتخاذلين والى جانب الحدود فلول الخوارج من جهة وتحديات جيش الشام من جهة ثانية، وعملاؤه في العراق يكتبون اليه بكل صغير وكبير ويعرضون عليه ولاءهم وخدماتهم وحتى لو اراد تسليم الحسن مكتوفا سلموه اياه ، الى غير ذلك مما استقبله الحسن من احداث لم يعرف التاريخ اسوأ وأشد تعقيدا منها .

وقبيل وفاته اوصى لولده الحسن ونص على امامته وامامة اخيه الحسين مؤكدا نصوص جدهما من قبل ، وجاء في وصيته : اوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربنا ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : اصلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام ، انظروا الى ارحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب، الله الله في الايتام فلا تقيدوا افواههم بجفوتكم ، والله الله بجيرانكم فانها وصية رسول الله (ص) ما زال يوصينا بهم حتى ظننا انه سيورثهم ، والله الله في القرآن فلا يسبقكم الى العمل به غيركم ، والله الله في الصلاة فانها عماد دينكم ، والله الله في بيوت ربكم ، فلا تخلون منكم ما بقيتم ، والله الله في صيام شهر رمضان فانه جنة من النار ، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، والله الله في زكاة اموالكم فانها تطفىء غضب ربكم ، والله الله في الفقراء والمساكين فاشركوهم في

معايشكم ، والله الله فيما ملكت ايمانكم فانها كانت آخر وصية لرسول الله .

ولا تتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى الاشرار عليكم وتدعون فلا يستجاب لكم ، وتوجه الى جميع اولاده وقال : عليكم بالتواضع والتباذل واياكم والتقاطع والتفرق والتدابر وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب ، ولا تبغوا الدنيا وان بغتكم ولا تأسفوا على شيء منها، وكونوا للظالم خصما وللمظلوم عونا ولا تأخذكم في الله لومة لائم .

والتفت الى ولده محمد بن الحنفية وقال : اوصيك بتوقير اخويك وتزيين امرهما ولا تقطعن امرا دونهما ، ثم توجه الى الحسنين وقال لهما: اوصيكما به فانه سيفكما وابن ابيكما فأكرماه واعرفا له حقه ونص على امامة الحسن والحسين والتسعة من اولاد الحسين .

وقد تواتر عن النبي (ص) انه قال : يكون بعدي اثنا عشر اماما كلهم من قريش ، وفي رواية ثانية انه قال : لا يزال هذا الدين قائما حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر اماما وفي رواية خليفة كلهم من قريش . وقد تحدثنا عن الائمة وعددهم في الفصول السابقة من هذا الكتاب .

وبعد ان نص امير المؤمنين على الحسن وسلمه مواريث النبوة اجتمع عليه اهل الكوفة وجماعة من المهاجرين والانصار وبايعوه بالخلافة بعد ابيه عليه افضل الصلاة والسلام .

وجاء في رواية محمد بن يعقوب الكليني ان امير المؤمنين (ع) اوصى الى ولده الحسن وأشهد على وصيته الحسين ومحمد بن الحنفية وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته ودفع اليه الكتب والسلاح وقال له : يا بني امرني جدك رسول الله ان اوصي اليك وأن ادفع اليك كتبي وسلاحي .

وقال الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت : والامام الحسن بدون شك هو الخليفة الطبيعي لوالده امير المؤمنين لانه ريحانة الرسول وسيد شباب اهل الجنة ، وهو امام قام او قعد بحكم النص عليه وعلى اخيه الحسين من جدهما رسول الله فيما تواتر عنه ، الحسن والحسين امامان قاما او قعدا ، ومضى يقول : وقد هذبه الله من كل نقص ورجس كما دلت على ذلك آية التطهير ، بالاضافة الى توفر جميع ما تتطلبه الخلافة من الصفات الرفيعة في شخصيته كالعلم والتقوى والحزم والجدارة .

وقد نفذ الامام الحسن وصية ابيه في قاتله ، فقد استدعاه في صبيحة اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان بعد ان دفن اباه حيث مرقده الان حسب وصيته كما هو معروف بين جميع المسلمين منذ الفترة التي دفن فيها حتى يومنا هذا ، ولم يتردد واحد في ذلك سوى بعض الحاقدين الذين اعماهم الحقد والحسد عن رؤية الحق والسير على نهجه .

الحسن بعد وفاة ابيه

وجاء في رواية ابي الفرج في مقاتل الطالبيين وغيره انه لما امـــــر الحسن (ع) بقتل ابن ملجم قال له : ان رأيت ان تؤخرني وتأخذ علـي العهود والمواثيق ان ارجع اليك وأضع يدي في يدك بعد ان امضي الى الشام وأنظر ما صنع صاحبي بمعاوية ، فان قتله والا قتلته ثم اعود اليك لتحكم في بحكمك ، فقال له الحسن : هيهات والله لا تشرب الماء البارد او تلحق روحك النار ، ثم ضربه ضربة واحدة قضت على حياته كما اوصاه امير المؤمنين .

وجاء في بعض المرويات ان الناس اخذوه من بين يديه وقطعـــوه بأسيافهم ثم احرقوا اشلاءه بالنار ، وبعد الفراغ من امره اتجه الى الامام الحسن في صبيحة ذلك اليوم حشد كبير من اهل الكوفة غص بهم الجامع على سعته فوقف خطيبا حيث كان يقف امير المؤمنين وحوله من بقي من وجوه المهاجرين والانصار ، فابتدأ خطابه عن مصابه بأبيه الذي اصيب به جميع المسلمين، وقال بعد ان حمد الله وصلى على محمد وآله: لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الاولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل ،

لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه ، وأينما وجهه رسول الله كان جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها عيسى بن مريم الى السماء وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسى ، وما خلف خضراء ولا بيضاء سوى سبعمائة درهم فضلت عن عطائه اراد ان يبتاع فيها خادما لاهله وقد امرني ان اردها الى بيت المال ، ثم تمثل له ابوه وما كابده في حياته من الآلام والمتاعب فاستعبر باكيا وبكى الناس من حوله حتى ارتفعت الاصوات بالبكاء والنحيب من جميع انحاء الكوفة ، وعاد الى حديثه بعد ان استنصت الناس وقال ايها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وأنا ابن النبي والوصي ، وأنا ابن البشير النذير والداعي الى الله بإذنه وأنا ابن السراج المنير وأنا من اهل البيت الذين كان جبريل ينزل الينا ويصعد من عندنا ، وأنا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وافترض مودتهم على كل مسلم فقال في كتابه : قل لا اسألكم اجرا الا المودة في القربى ومن يقترف حسنه نزد له منها حسنا فاقتراف الحسنة مودتنا اهل البيت .

وقد تضمن خطابه هذا لاول مرة بعد وفاة ابيه على اختصاره تأبين الراحل العظيم الذي اهتز لقتله العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، لقد أبنه بغير الاسلوب المألوف في تأبين العظماء من رجال التاريخ ، موجزا جميع خصائصه ومزاياه بقوله : لم يسبقه الاولون بعمل ولا يدركه الآخرون جاهد بين يدي رسول الله وجبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، فجمع في هذه الكلمات القصار جميع خصائصه كإنسان لا يضاهيه في جميع نواحيه انسان في مراحل التاريخ .

وحينما انتقل الى الحديث عن نفسه دعا الناس الى بيعته ، ولكن بهذا الاسلوب الذي لا يترك عذرا لمتخلف عنها ، فقال : انا ابن النبي الداعي الى الله والسراج المنير ، وأنا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم

الرجس وطهرهم تطهيرا وافترض مودتهم وطاعتهم على كل مسلم ومسلمة.

ومن اذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرا وفرض مودته وطاعته على جميع الناس لا بد وأن يكون قد تحلى بجميع الصفات الخيرة الكريمة ومن اولى بالخلافة وقيادة الامة ممن جمع هذه الفضائل وليس على وجه الارض يوم ذاك من هو اكرم على الله منه ومن اخيه الحسين (ع) .

ولما انهى خطابه قام عبيد الله بن العباس وقبل عبد الله فدعا الناس الى بيعته وقال : معاشر الناس ، هذا ابن نبيكم ووصي امامكم فبايعوه فاستجاب الناس لهذه الدعوة المباركة وأعلنوا الرضا والانقياد وقالوا : ما أحبه الينا وأوجب حقه علينا ومن احق بالخلافة والبيعة منه ، وكان اول من تقدم اليه ليبايعه قيس بن سعد بن عبادة الانصاري فقال له : ابسط يدك ابايعك على كتاب الله وسنّة نبيه وقتال المحلين ، فالتفت اليه الامام (ع) بعطف ورفق وقال ان البيعة على كتاب الله وسنّة نبيه تغني عن هذا الشرط لان فيهما تبيان كل شيء وهما يأمران بقتال المحلين والباغين والمفسدين كما يأمران بالصلاة والصيام والزكاة وغيرها من الفرائض .

وأقبل الناس يتسابقون على بيعته وتمت البيعة في الكوفة والبصرة كما بايعه اهل الحجاز واليمن وفارس وسائر المناطق التي كانت تدين بالولاء والبيعة لابيه .

وقد اجمع المؤرخون على ان خلافته كانت في صبيحة اليوم الذي دفن فيه امير المؤمنين ، ولما بلغ نبأ البيعة الى معاوية وأتباعه بدأوا يعملون بكل ما لديهم من قوة ومكر وخداع لافساد امره والتشويش عليه .

فقد جاء في شرح النهج ومقاتل الطالبيين وغيرهما ان معاوية دس رجلا من حمير الى الكوفة ورجلا من بني عبد الغني الى البصرة فأخذا وقتلا ، وكتب الحسن (ع) الى معاوية : اما بعد فانك دسست الي الرجال كأنك تحب اللقاء لا اشك في ذلك فتوقعه ان شاء الله ، وقد بلغني انك

شمت بما لم يشمت به ذو حجى وانما مثلك في ذلك كما قال القائل :

فإنا ومن قد مات منا لكالـــذي يروح ويمسي في البيت ليفتدي
فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى تجهز لاخرى مثلها فكأن قـــد

وكتب عبد الله بن العباس من البصرة الى معاوية : اما بعد فانـــك ودسك اخا بني عبد الغني الى البصرة تلتمس من غفلات قريش بمثل ما ظفرت به من يمانيتك كما قال امية بن الصلت :

لعمرك اني والخزاعي طارقـــا كنعجـة عاد حتفها تتحفـــر
اثارت عليها شفرة بكراعهـــا فظلت بها من آخر الليل تنحر
شمت بقوم من صديقك اهلكوا اصابهم يوم من الدهـــر اعسر

فأجابه معاوية بكتاب جاء فيه : اما بعد فان الحسن بن علي (ع) قد كتب الي بنحو ما كتبت به وأنبأني بما لم اخبر ظنا وسوء رأي وانك لم تصب مثلكم ومثلي ، ولكن مثلنا ما قاله طارق الخزاعي يجيب امية عن هذا الشعر :

فوالله ما ادري وانـــي لصادق الـــى اي من يظننـــي اتعذر
اعنف ان كانت زبينـــة اهلكت ونال بنـــي لحيان شر فانقروا

وقال ابن ابي الحديد في شرح النهج : ان عبد الله بن عباس كتب الى الامام الحسن من البصرة كتابا يحرضه فيه على قتال معاوية ، وجاء في كتابه اليه : اما بعد فان المسلمين ولوك امرهم بعد ابيك فشمـــر للحرب وجاهد عدوك وقارب اصحابك واشتر مـــن الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه .

وفي رواية ثانية لعلها أصح من الاولى واشتر مـــن الظنين دينه بما لا يثلم دينك وول اهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم حتـــى يكون الناس جماعة ، فان بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق وكانت

عواقبه تؤدي الى ظهور العدل وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس اذا كانت عواقبه تدعو الى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن ائمة العدل ، فقد قالوا : لا يصلح الكذب الا في حرب او اصلاح بين الناس فان الحرب خدعة ولك في ذلك سعة اذا كنت محاربا ما لم تبطل حقا .

وأضاف الى ذلك : ان اباك انما رغب عنه الناس الى معاوية لانه واسى بينهم في الفيء وسوى بينهم في العطاء فثقل عليهم ، واعلم بأنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الاسلام حتى ظهر امر الله ، فلما وحد الرب ومحق الشرك وعز الدين اظهروا الايمان وقرأوا القرآن مستهزئين بآياته وقاموا الى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون .

ولما رأوا انه لا يعز في الدين الا الاتقياء الابرار وسمو بسيما الصالحين ليظن المسلمون بهم خيرا فما زالوا بذلك حتى شركوهم في اماناتهم وقالوا حسابهم على الله ، فان كانوا صادقين فاخواننا في الدين وان كانوا كاذبين بما اقترفوا هم الأخسرون، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ، والله ما زادهم طول العمر الا غباء ولا زادهم ذلك لاهل الدين الا مقتا ، فجاهدهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفا ، فان عليا اباك لم يجب الى الحكومة حتى غلب على امره ، وهم يعلمون انه اولى بالامر ان حكموا بالعدل فلما حكموا بالهوى رجع الى ما كان عليه حتى اتى اجله ، ولا تخرجن من حق انت اولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام .

وقد عالج عبد الله بن عباس في هذه الرسالة مشكلة الصراع بين بني امية وعلي بن ابي طالب ، والاسباب التي ادت الى خذلان الامام ونجاح معاوية فيما كان يخطط له ، وأعطى صورة واضحة عن موقف الامويين من الاسلام منذ ان بزغ فجره الى ان دخلوا فيه مكرهين

ولبسوا ثياب الصديقين وهم يضمرون الشرك والالحاد ، وبالرغم من انهم تستروا بالاسلام وقرأوا القرآن وأقاموا الصلاة وتوسموا بسيما الصالحين ، فقد كانت تبدو منهم بين الحين والآخر فلتات تدل على شركهم وإلحادهم وحقدهم على الاسلام .

وقد حدث الرواة عن معاوية مع انه كان اقدرهم على الدجل والنفاق ، كما جاء في مروج الذهب للمسعودي والمجلد الثاني من شرح النهج ان مطرف بن المغيرة بن شعبة قال : وفدت مع ابي المغيرة على معاوية وكان ابي يأتيه ويتحدث عنده ثم ينصرف الي فيذكر معاوية وعقله ويعجب مما يرى منه ، وفيما كان هذا حاله واذا به قد اقبل ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتما فانتظرته ساعة وظننت انه لشيء حدث فينا او عملناه ، فقلت له : مالي اراك مغتما منذ الليلة ، قال : يا بني اني جئت من اخبث الناس ، قلت له : وما ذاك ؟ فقال : لقد خلوت بمعاوية وقلت له قد بلغت مناك يا امير المؤمنين ، فلو اظهرت عدلا وبسطت خيرا فانك قد كبرت ولو نظرت الى اخوتك من بني هاشم فوصلت ارحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء نخافه ، فقال لي: هيهات هيهات، ملك اخو تيم وفعل ما فعل فوالله ما عدا ان هلك ذكره الا ان يقول قائل ابو بكر : ثم ملك اخوعدي فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره الا ان يقول قائل عمر بن الخطاب ، ثم ملك اخونا عثمان بن عفان ولم يكن احد في مثل سنيه فعمل ما عمل به ، فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره وذكر ما فعل به ، وان اخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات أشهد ان محمدا رسول الله فأي عمل يبقى بعد هذا لا ام لك الا دفنا دفنا [1] .

---

١ ــ انظر شرح النهج مجلد ٢ ص ٣٧٥ .

ومهما كان الحال فلقد استلم الامام ابو محمد الحسن بن علي السلطة بعد ابيه وقام بأفضل ما يمكن القيام به في ذلك الجو المشحون بالفتن والمؤامرات ، فأقر الولاة على اعمالهم وأوصاهم بالعدل والاحسان ومحاربة البغي والعدوان ، ومضى على نهج ابيه وسيرته ، وكان في جميع حالاته خلال خلافته القصيرة وقبلها وبعدها امتدادا لجده المصطفى وأبيه المرتضى في سياسته وسيرته .

وبالرغم من انه يعرف معاوية وما كانت تنطوي عليه تلك الاسرة من الكفر والالحاد والعداء لمحمد ورسالته والعمل لإحياء مظاهر الجاهلية بجميع اشكالها ، مع علمه بذلك كله فقد ابى ان يعلن الحرب عليه الا بعد ان كتب اليه المرة تلو المرة يدعوه الى جمع الكلمة وتوحيد امة المسلمين حتى لا يبقى لاحد عذر او حجة في التخلف عن نصرته، فكتب اليه مع رجلين من اهل الكوفة في جملة كتبه ورسائله الرسالة التالية :

من الحسن بن علي (ع) الى معاوية بن ابي سفيان سلام عليك فاني احمد الله الذي لا إله غيره ، اما بعد فان الله جل جلاله بعث محمدا رحمة للعالمين ومنة للمؤمنين وكافة الناس اجمعين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان وبعد ان اظهر الله به الحق ومحق به الشرك وخص قريشا به خاصة فقال له : وانه لذكر لك ولقومك ، فلما توفي تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحل لكم ان تنازعونا سلطان محمد وحقه فرأت العرب ان القول ما قالت قريش وان الحجة لهم في ذلك على من نازعهم امر محمد فأنعمت لهم وسلمت اليهم ، ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاججت به العرب، فلم تنصفنا قريش انصاف العرب لها ، انهم اخذوا هذا الامر دون العرب بالانصاف والاحتجاج ، فلما صرنا آل بيت محمد وأولياءه الى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا على الخلافة بالاجتماع

على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا فالموعد الله وهو الولي النصير .

لقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا وان كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الاسلام وأمسكنا عن منازعتهم مخافة ان يجد المنافقون والاحزاب في ذلك مغمزا يثلمونه به او يكون لهم بذلك سبب الى ما ارادوا من افساده واليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على امر لست من اهله لا بفضل في الدين ولا اثر في الاسلام محمود وأنت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه الكريم ، والله حسيبك فسترد وتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقين عن قليل ربك ، ثم ليجزينك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد .

ان عليا لما مضى لسبيله رحمة الله عليه يوم قبض ويوم من الله عليه بالاسلام ويوم يبعث حيا ولاني المسلمون الامر من بعده ؛ فاسأل الله ان لا يؤتينا في هذه الدنيا الزائلة شيئا ينقصناه في الآخرة بما عنده من كرامة ، وانما حملني على الكتابة اليك الإعذار فيما بيني وبين الله عز وجل في امرك ، ولك في ذلك ان فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي فانك تعلم اني احق بهذا الامر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الامر اهله ومن هو احق به منك ليطفىء الله النائرة ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين ، وان انت ابيت الا التمادي في غيك سرت اليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

لقد كتب الامام الحسن هذه الرسالة وغيرها الى معاوية وهو يعلم بأنه لا يستجيب لطلبه وانه سيقف منه موقفا اكثر صلفا ووقاحة من مواقفه السابقة مع ابيه امير المؤمنين وامام المتقين لاسيما وقد نجح في

مؤامرته التي وضعها لاغتياله واستمالة القسم الاكبر من قادة اهـــل العراق الى جانبه ، وهم بعد غيابه عنهم اكثر تفككا وتخاذلا وخيانة منهم بالامس ، لهذا ولغيره كان الامام ابو محمد الحسن على يقين من ان معاوية سيكون اصلب عودا من الامس وسيتصرف من منطق القوة التي اصبحت بيده وسيتقدم هو الى الحرب اذا لم يجده المكر والخداع ، لقد كان على بينة من كل ذلك ولكنه اراد ان يظهر للعالم الاسلامي ما يضمره هذا البيت للنبي وآله وللاسلام من حقد وعداء ورثهما مـــن اجداده وأبيه وأمه آكلة الاكباد .

ولقد اجاب معاوية على رسالة الامام الحسن السبط هذه بجواب لم يدع وسيلة من وسائل المكر والخداع والتضليل الا وشحن فيها رسالته ، وحاول فيها ان يضع لنفسه فيها مخرجا مما خطط له تجاه الرأي العام الاسلامي وان يحمل الحسن (ع) تبعة كل خلاف وشقاق كما يبدو ذلك من جوابه التالي :

لقد جاء في جوابه : لقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمـــدا رسول الله من الفضل وهو احق الاولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه صغيره وكبيره ، وقد والله بلغ وأدى ونصح وهدى حتى انقذ الله به من الهلكة وأنار به من العمى وهدى به من الجهالة والضلالـــة فجزاه الله افضل ما جزى نبيا عن امته، وسلام الله عليه يوم ولد ويوم بعث ويوم قبض ويوم يبعث حيا، وقد ذكرت وفاة النبي وتنازع المسلمين الامر من بعده وتغلبهم على ابيك فصرحت بتهمة ابي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الامين وجواري رسول الله وصلحاء المهاجرين والانصار ، فكرهت ذلك لك ، انك امرىء عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسيء ولا اللئيم ، وأنا احب لك القول السديد والذكر الجميل .

ومضى يقول : ان هذه الامة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم ولا مكانتكم من الاسلام ، فرأت الامة

ان تخرج هذا الامر لقريش لمكانها من نبيها ورأى صلحاء الناس من قريش والانصار وغيرهم من سائر الناس وعوامهم ان يولوا هذا الامر من قريش أقدمها اسلاما وأعلمها بالله وأحبها اليه وأقواها على امر الله فاختاروا ابا بكر وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة ولم يكونوا متهمين ولا فيما اتوا بالمخطئين ، ولو رأى المسلمون ان فيكم من يغني غناءه ويقوم مقامه ويذب عن حريم الاسلام ذبه ما عدلوا بالامر الى غيره رغبة عنه ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحا للاسلام وأهله والله يجزيهم عن الاسلام وأهله خيرا .

وقد فهمت الذي دعوتني اليه من الصلح ، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال الذي كنتم عليها انتم وأبو بكر بعد وفاة النبي (ص) فلو علمت انك اضبط مني للرعية وأحوط على هذه الامة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الاموال وأكيد للعدو لاجبتك الى ما دعوتني اليه ورأيتك لذلك اهلا ، ولكني قد علمت اني اطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الامة تجربة وأكبر منك سنا فأنت احق ان تجيبني الى هذه المنزلة التي سألتني فادخل في طاعتي ولك الامر من بعدي ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغا ما بلغ تحمله الى حيث احببت ، وخراج اي كور من العراق شئت معونة لك على نفقتك يجبيها امينك ويحملها اليك في كل سنة ، ولك ان لا يستولي عليك بالاساءة ولا تفض دونك الامور ولا تعصى في امر اردت به طاعة الله اعاننا الله واياك على طاعته انه سميع مجيب الدعاء .

ومضى الراوي يقول : فلما سلمت كتاب معاوية الى الحسن (ع) قلت له ان الرجل سائر اليك فابدأه بالمسير حتى تقاتله في ارضه وبلاده، فاما ان تقدر انه ينقاد اليك فلا والله حتى يرى منا اعظم من يوم صفين فقال افعل ، ثم قعد عن مشورتي وتناسى قولي .

وكتب له معاوية رسالة ثانية بعد تلك الرسالة جاء فيها : اما بعد فان

الله يفعل بعباده ما يشاء ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب فاحذر ان تكون منيتك على ايدي رعاع الناس وائس من ان تجد فينا غميزة ، وان انت اعرضت عما انت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت وأجريت لك ما شرطت وأكون في ذلك كما قال اعشى بني قيس بن ثعلبة :

وان احذ اسدى اليـــك امانة فاوف بما تدعى اذا مت وافيا
ولا تحسد المولى اذا كان ذا غنى ولا تجفه ان كان في المال فانيا

وجاء في آخر الكتاب: ولك الخلافة من بعدي فأنت اولى الناس بها.

لقد اشتملت رسالة معاوية الاولى على اللف والدوران والمكـــــر والخداع وكان بارعا اقصى حدود البراعة في اساليبه ، فبينما تراه فيها يمجد الحسن وأباه ويشيد بفضلهما وبما قدماه من تضحيات في سبيل الاسلام ويحاول ان يظهر بمظهر القديس الذي يقدر الفضل لاهله ولو كانوا من ألد اعدائه ويذوب في سبيل مصلحة الاسلام ، يعود بعد هذا الاطراء الذي لا يصدر الا من الصالحين المؤمنين بالله ورسله ورسالاتهم ليغمز من امير المؤمنين ويجرده ولو من بعض ما وصفه به ، فيقول : ان الامة رأت ان تولي أقدمها اسلاما وأعلمها بالله وأحبها اليه وأقواها على امره فولت ابا بكر حيث لم تجد من يغني غناءه ويقوم مقامه ويذب عن حريم الاسلام ذبه .

ثم مضى يقول للحسن : انا وأنت كأبيك وأبي بكر ، فلو علمت بأنك اضبط مني للرعية وأحوط على الامة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الاموال وأكيد للعدو لاجبتك ، وهذا يعني ان المؤهلات التـــي توفرت فيه لم تتوفر في الحسن بن علي (ع) كما لم تتوفـــر في ابيه شروط الخلافة يوم بايع الناس ابا بكر فمصلحة الاسلام تفرضه اليوم كما فرضت ابا بكر بعد وفاة الرسول .

وهذا الاسلوب الماكر لم يكن يستعمله مع امير المؤمنين من قبل ولم يخاطبه بمثله اما في عهد الحسن عليه السلام فلقد كان يتكلم من منطق

القوة وبمنطق من كادت الامور ان تكون ممهدة له ، والقوي كما هي العادة يقول ما يشتهي ولا حرج عليه في ذلك ، وقد اطمأن معاوية على مصيره وعلاقته المتينة مع اكثر القادة كما تشير الى ذلك بعض رسائله لعماله كما جاء في شرح النهج ، التي يقول فيها : وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الامان لانفسهم وعشائرهم ، وقوله في بعض رسائله الى الحسن : واحذر ان تكون منيتك على أيدي رعاع من الناس .

وحاول في رسالته اغراء الحسن بالاموال والخلافة من بعده وتضليل الرأي العام الاسلامي بقوله : ولك ان لا تفض دونك الامور ولا تعصى في امر من الامور اردت بها طاعة الله كما سنتعرض لهذه الناحية خلال حديثنا عن صلح الحسن (ع) .

الاستعداد للحرب

ومهما كان الحال فقد اكد المؤرخون ان الحسن (ع) لم يتغـــــير موقفه من معاوية ولم يلن لتهديده ووعوده ومغرياته ، فكتب اليه : اما بعد فقد وصلني كتابك تذكر فيه ما ذكرت وتركت جوابك خشية البغي عليك وبالله اعوذ من ذلك فاتبع الحق تعلم اني من اهله وعلي اثم ان اقول فاكذب والسلام .

ولما وصله كتاب الحسن (ع) ادرك ان اساليبه ومغرياته لم تغير من موقفه شيئا ، فكتب الى جميع عماله في بلاد الشام : اما بعد فاني احمد اليكم الله الذي لا إله غيره والحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتكم ان الله بلطفه وحسن صنيعه اتاح لعلي بن ابي طالب رجلا من عباده فاغتاله وقتله وترك اصحابه متفرقين مختلفين وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الامان لانفسهم وعشائرهم فأقبلوا الى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد اصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الامل وأهلـك الله اهل البغي والعـــدوان والسلام عليكم ورحمة الله .

فاجتمعت اليه الوفود من كل الجهات وسار بهم باتجـاه العراق ،

ويدعي المؤرخون انه لما بلغ الحسن بن علي خبر مسيره وانه قد بلغ جسر منبج تحرك عند ذلك وكتب الى عماله يدعوهم الى التحرك ونادى مناديه في الكوفة يدعوهم الى الاجتماع في المسجد فأقبل الناس حتى امتلأ بهم فخرج الامام وصعد المنبر فأثنى على الله وصلى على رسوله ، ثم قال : لقد كتب الله الجهاد على خلقه وسماه كرها وأوصى المجاهدين بالصبر ووعدهم النصر وجزيل الاجر ، ثم قال : ايها الناس انكم لستم نائلين ما تحبونه الا بالصبر على ما تكرهون ، وقد بلغني ان معاوية كان قد بلغه انا ازمعنا على المسير اليه فتحزك نحونا بجنده فاخرجوا رحمكم الله الى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون . فسكت الناس ولم يتكلم احد منهم بحرف واحد ، فلما رأى ذلك منهم عدي بن حاتم قام وقال : انا ابن حاتم سبحان الله ما اقبح هذا المقام ، ألا تجيبون امامكم وابن بنت نبيكم اين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة فاذا جد الجد فمراوغون كالثعالب ، اما تخافون مقت الله وعيبها وعارها ، ثم استقبل الامام الحسن بوجهه وقال : اصاب الله بك المراشد وجنبك المكاره ووفقك لما تحمد وروده وصدوره قد سمعنا مقالتك وانتهينا الى امرك وأطعناك فيما قلت وما رأيت وهذا وجهي الى معسكري فمن احب ان يوافيني فليواف ، ثم مضى لوجهه وخرج من المسجد فركب دابته وكانت على باب الجامع وأمر غلامه ان يلحقه بما يصلحه ومضى هو الى النخيلة .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة التيمي فأنبوا الناس ولاموهم على تخاذلهم وحرضوهم على الخروج وكلموا الحسن بمثل كلام عدي بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ما زلت اعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة والنصيحة فجزاكم الله خيرا ، وخرج الناس الى النخيلة فلما تكامل عددهم لحق بهم الحسن واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل

ابن عبد المطلب وأمره بأن يحرك الناس ويحثهم على الخروج والالتحاق بالجيش .

ويروي المؤرخون انه لما تكامل الجيش خرج به الحسن (ع) ، وقد حدده بعضهم بأربعين الفا وبعضهم بستين وبأكثر من ذلك ، ولما نزل دير عبد الرحمن اقام به ثلاثة ايام ، ودعا عبيد الله بن العباس وقال له : يا ابن العم اني باعث معك اثني عشر الفا من فرسان العرب وقرأ مضر الرجل منهم يريد الكتيبة فسر بهم على الشاطىء حتى تقطع الفرات وتنتهي الى مسكن وامض منها حتى تستقبل معاوية فألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وافرش لهم جناحك وادنهم من مجلسك فانهم من ثقات امير المؤمنين فان انت لقيت معاوية فاحبسه حتى آتيك فاني على اثرك وشيكا وليكن خبرك عندي كل يوم .

وأرسل معه قائدين من خيرة المسلمين اخلاصا وجهادا وتضحية في سبيل الله وهما قيس بن سعد بن عبادة وسعيد بن قيس الهمداني ، وأمره ان لا يقطع امرا دونهما وأن يستشيرهما في جميع الامور ، وقال له : اذا انت لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يكون هو البادىء في القتال، فان اصبت فقيس بن سعد على الناس وان اصيب فالقيادة من بعده لسعيد بن قيس .

وسار عبيد الله بالناس يقطع الصحاري حتى انتهى الى الفلوجة ، ومنها الى مسكن وكان معاوية قد نزل عليها ، فنزل عبيد الله بن العباس بازائه ، وفي اليوم الثاني وجه معاوية بخيل اغارت على جيش عبيد الله فوقفوا لها وردوها على أعقابها ، وأيقن معاوية تصميم الحسن (ع) على مواصلة القتال بعد ان رفض العروض المغرية التي قدمها اليه في رسائله ، وكان يؤمن بوحي من طبيعته المفطورة على الغدر والمكر والخداع والكذب والاحتيال بأن اقوم الناس خلقا وأشدهم عزيمة وأتقاهم نفسا قد تستغويه الاطماع ويذله الحرص فرسم سياسته على

الاغراء والترغيب والتخويف ، وكان يقول : والله لاستميلن بالدنيا ثقاة علي (ع) ولاقسمن فيهم الاموال حتى تغلب دنياي آخرته ، واستطاع بذلك ان يستميل اليه اكبر عدد من جند امير المؤمنين وقادته ، ولم يبق معه الا الصفوة من القادة والجند وهم قلة لا تغني شيئا في ساعات المحنة ولذلك اضطر الى قبول التحكيم والحكم الذي اختاره اهل العراق مع علمه بما تنطوي عليه تلك الدعوة من المفاسد وبما كان يضمره له الاشعري من كراهية وبما كان يتمناه لخلافته من سوء ، ولكنه كما ذكرنا من قبل لما رأى نفسه تجاه امر واقع ورأى ان المضي في الحرب ورفض التحكيم يؤدي الى هلاك الصفوة المختارة من اصحابه وربما الى قتله وانتصار معاوية ، ويستطيع معاوية عند ذلك ان يقول : لقد رفض ابن ابي طالب حكم القرآن والرجوع الى القرآن فكانت نهايته ما ترون وسيجد من يسمع له ذلك ، فاختار امير المؤمنين اهون الشرين ووافق على التحكيم ، ومع ما انتهت اليه نتيجته فلقد كان اهون الشرين وأيسر الامرين .

وكان الحسن (ع) كأبيه خلال خلافته القصيرة فلم ينثر على جنده الاموال نثرا كما كان يفعل معاوية ولم يشتر ضمائر القادة والطامعين ، ولم يستعن بالباطل على الحق ، بل اراد من الناس ان يقاتلوا معه انتصارا للحق وطمعا في الاجر فلم يتحمس له الا اهل الصدق والوفاء والدين وقليل ما هم لذلك فان معاوية لما ارسل خيله لقتال الجيش الذي يقوده عبيد الله ردها اهل العراق على اعقابها وبمجيء الليل ارسل معاوية رسالة الى عبيد الله جاء فيها : ان الحسن قد ارسلني في الصلح وسلم الامر لي فان دخلت في طاعتي الان تكن متبوعا خير لك من ان تكون تابعا بعد غد ولك ان اجبتني الان ان اعطيك الف الف درهم اعجل لك في هذا الوقت نصفها وعندما ادخل الكوفة ادفع لك النصف الثاني .

ويدعي اكثر المؤرخين ان عبيد الله انسل من قاعدته ودخل عسكر معاوية ومعه بضعة آلاف ممن كانوا معه فوفى له بما وعده، وانتبه الناس بدخول النهار فانتظروا عبيد الله ليصلي بهم فلم يجدوه فصلى بهم قيس ابن سعد ، ولما تأكدوا من خبره خطبهم قيس وذكر عبيد الله فنال منه وأمرهم بالصبر والثبات وعرض عليهم الحرب ومناهضة معاوية مهما كان الحال فأجابوه لذلك فنزل عن المنبر ومضى بهم لقتال معاوية فقابلهم جيشه بقيادة بسر بن ارطاة ، وبث دعاته بين اصحاب قيس يذيعون ان اميرهم عبيد الله مع معاوية في خبائه والحسن بن علي قد وافق على الصلح فعلام تقتلون انفسكم . وهنا يدعي المؤرخون ان قيسا قال لاهل العراق : اختاروا احدى اثنتين اما القتال بدون امام واما ان تبايعوا بيعة ضلال ، فقالوا بأجمعهم : بل نقاتل بدون امام ، ثم اتجهوا نحوهم واشتبك الفريقان في معركة ضارية كانت نتائجها لصالحهم وتراجع بسر بمن معه الى معسكراتهم مخذولين مقهورين .

وفي رواية مقاتل الطالبيين ان قيس بن سعد بعد ان صلى بالناس صلاة الصبح قام خطيبا فيمن بقي من الجيش فهدأ روعهم ودعاهم الى الثبات وجهاد معاوية ، وكان مما قاله في خطابه : ان هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيرا قط ، ان اباه عم رسول الله خرج مع المشركين الى بدر فأسره ابو اليسر كعب بن عمرو الانصاري فأتى به رسول الله (ص) فأخذ منه فداءه وقسمه بين المسلمين ، وان ابنه عبد الله ولاه امير المؤمنين على البصرة فسرق بيت المال وذهب به الى مكة فاشترى به الجواري وزعم ان ذلك يحل له ولاسرته ، وان هذا ولاه على اليمن فهرب من بسر بن ارطاة وترك ولديه حتى قتلا وصنع الان ما صنع ، وترك حديثه هذا اثرا عميقا في نفوس سامعيه فتنادوا من كل جانب

الحمد لله الذي اخرجه من بيننا وعاهدوه على المضي في الحرب حتى النفس الاخير .

وكان موقف عبيد الله من جملة العوامل التي تسببت في تفكك جيش الإمام وتخاذله وفتح لهم ابواب الغدر والخيانة والتسلل الجماعي، وتذرع بذلك ذوو النفوس الضعيفة والقلوب المريضة لان عبد الله بن عمه وأولاهم بمناصرته والتضحية في سبيله وقديما قيل :

اذا فاتك الادنى الذي انت حزبه فلا عجب ان أسلمتك الأباعد

كما كان لغدر عبيد الله بن العباس في نفس الامام (ع) حزن بالغ وأسى مرير لانه فتح الباب لغيره وتستر بغدره وخيانته جميع الطامعين والخونة من اهل العراق وشجع انصار معاوية في نشر الترهيب والترغيب في صفوف الجيش ، ولم يتركوا وسيلة لصالح معاوية الا واستعملوها واستمالوا اليهم حتى رؤساء ربيعة الذين كانوا حصنا لامير المؤمنين (ع) في صفين وغيرها من المواقف ، فلقد راسله خالد بن معمر احد زعمائها البارزين وبايعه عن ربيعة كلها وبهذه المناسبة كما يدعي بعض المؤرخين قال احد الشعراء يخاطب معاوية :

معاوي اكرم خالد بن معمر فانك لولا خالد لم تؤمر

كما راسله وبايعه عثمان بن شرحبيل احد زعماء بني تميم وشاعت الخيانة بين جميع كتائب الجيش وقبائل الكوفة وأدرك الامام ابو محمد الحسن كل ذلك وصارحهم بالواقع الذي لم يعد يجوز السكوت عنه فقال : يا اهل الكوفة انتم الذين اكرهتم ابي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه وقد اتاني ان اهل الشرف منكم قد اتوا معاوية وبايعوه فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي .

معاوية بين الصلح والقتال

لقد اطمأن معاوية بأن المعركة فيما لو وقعت بين اهل الشام وأهل العراق ستكون لصالحه وسيكون الحسن بن علي (ع) والمخلصون له من جنده خلال ايام معدودات بين قتيل وأسير تحت رحمته وان السلطة صائرة اليه لا محالة ، ولكن استيلاءه عليها بقوة السلاح لا يعطيها الصبغة الشرعية التي كان يحاول التمويه بها على الناس ، هذا بالاضافة الى ما قد يحدث من المضاعفات الخطيرة التي ستجعله في ضيق من تتائجها وذلك فيما لو اصيب الحسن والحسين خلال المعارك وهما سيدا شباب اهل الجنة وريحانتا جدهما وأحب الخلق اليه بالنصوص المتواترة التي لا يجهلها احد من المسلمين .

لذلك ولغيره كان معاوية على ما يبدو حريصا على ان لا يتورط مع الحسن بن علي (ع) في الحرب ولو كان مطمئنا لنتائجها ، فعرض عليه فكرة الصلح في اولى رسائله وترك له ان يشترط ويطلب ما يريد ، وراح يردد حديث الصلح في مجالسه وبين انصاره في جيش العراق ويأمرهم باشاعته وكاتب القادة والرؤساء به ليصرف انظارهم عن الحرب ويبث بينهم روح التخاذل والاستسلام للامر الواقع .

وكانت فكرة الصلح كما ذكرنا مغلفة بلون ينخدع له الكثيرون من الناس ويفضلونه على الحرب والقتال ، فلقد عرضها في رسالته الاولى على الحسن (ع) وأشاعها بين اهل العراق على ان لا يقضي امرا من الامور بدون رأيه ولا يعصيه في امر اريد به طاعة الله ورسوله وترك له مع ذلك ان يقترح ما يريد، كل ذلك لعلمه بأنها ستصادف بهذه الصياغة قبولا من الكثيرين وسيتبع ذلك انقسام في صفوف الجيش يضطره الى الصلح لانه اهون الشرين كما التجأ والده من قبل الى قبول التحكيم والرضا بالاشعري حكما لاهل العراق في مقابل ابن العاص لانه أقل خطرا وضررا من المضي في الحرب مع انحياز القسم الاكبر من الجيش الى جانب فكرة التحكيم التي وضعها معاوية بعد ان ضاق عليه امره وكاد ان يقع اسيرا بيد الاشتر ومن معه من الجنود البواسل .

وبالاضافة الى ان فكرة الصلح بتلك الشروط ستكون سلاحا بيد الخونة من اهل العراق ستكون ايضا عذرا مقبولا لمعاوية فيما لو كانت الحرب وأصيب الحسنان وخيار الصحابة عند السواد الاعظم من الناس.

وكان الامر كما قدر معاوية فقد ادت فكرة الصلح بتلك الصيغة الى التشويش والاضطراب في صفوف الجيش والى تسلل عبيد الله بن العباس وعدد من القادة وزعماء العشائر الى معاوية واتصال بعضهم به عن طريق المراسلة ، وكان هو بدوره بما لديه من وسائل الاعلام يرسل الى الحسن بجميع اخبارهم وتصرفاتهم ليقطع امله من نتائج الحرب ولا يبقى له خيار في الصلح وكان الامر كذلك كما سنثبت ذلك بالارقام .

وقال الشيخ المفيد في ارشاده والطبرسي في اعلام الورى : ان اهل العراق كتبوا الى معاوية بالسمع والطاعة واستحثوه على السير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن اليه اذا شاء عند دنوه من معسكرهم او الفتك.

وجاء في علل الشرائع ان معاوية دس الى عمرو بن حريث والاشعث ابن قيس وحجار بن ابجر وشيث بن ربعي ووعد من يقتل الحسن بمائة

الف وقيادة جند من اجناد الشام وبنت من بناته ، ولما بلغ الحسن ذلك كان لا يخرج بدون لأمة حربه ولا ينزعها حتى في الصلاة وقد رماه احدهم بسهم وهو يصلي فلم يثبت فيه .

وبلا شك لقد كان اغتياله على يد العراقيين ليسلم له الامر ويخلو له الجو بدون قتال اذا تعذر الصلح كان من جملة امانيه ومخططاته حتى لا يضطر الى قتاله ويتحمل مسؤولية قتله وقتل آله وأنصاره تجاه الرأي العام الاسلامي الذي لا يغفر له عملا من هذا النوع مهما كانت الظروف.

وهذا لا يعني انه كان يفكر ان يتنازل عن اهدافه ومصالحه مجاراة للرأي العام او للاسلام ، فالسلطة كانت اغلى وأثمن عنده من كل شيء وقد استباح الكثير من المقدسات في سبيلها وقتل آلاف الابرياء والصلحاء حيث وجد ذلك عقبة في طريق الوصول اليها او استقرارها ، ولكنه كان لخبرته الواسعة بأساليب المكر والخداع والتضليل يختار منها الانفع .

ولم يكن الامام ابو محمد الحسن (ع) يفكر بصلح معاوية ولا بمهادنته غير انه بعد ان تكدست لديه الاخبار عن تفكك جيشه وانحياز اكثر القادة لجانب معاوية اراد ان يختبر نواياهم ويمتحن عزيمتهم فوقف بمن كان معه في ساباط ولوح لهم من بعيد بالصلح وجمع الكلمة فقال: فوالله اني لارجو ان اكون انصح خلق الله لخلقه وما اصبحت محتملا على احد ضغينة ولا مريدا له سوءا ولا غائلة ، الا وان ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، الا واني ناظر لكم خيرا من نظركم لانفسكم فلا تخالفوا امري ولا تردوا علي رأيي غفر الله لي ولكم وأرشدني واياكم لما فيه محبته ورضاه .

ويدعي الرواة انه لما نزل نظر الناس بعضهم لبعض وقالوا ما ترونه يريد بما قال ، قالوا : نظنه يريد ان يصالح معاوية ويترك الامر اليه كفر والله الرجل ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى اخذوا مصلاه من

نحته ، وشد عليه عبد الرحمن بن عبد الله الازدي فنزع مطرفه عن عاتقه وبقي جالسا متقلدا لسيفه بدون رداء فدعا بفرسه وركبه وأحدق به طوائف من خاصته فمنعوا عنه من اراده ، ثم استدعى ربيعة وهمدان فطافوا به ومنعوا الناس عنه ، فلما مر بمظلم ساباط قام اليه رجل يقال له جراح بن سنان وبيده معول فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن لقد اشرك ابوك ثم اشركت من بعده وطعنه بمعول فوقعت ضربته في فخذه فشقته وسقط الى الارض بعد ان ضرب الذي طعنه بسيف كان في يده وتكاثر عليه جماعة فقتلوه وحمل الحسن على سرير الى المدائن وبها سعيد بن مسعود الثقفي وكان امير المؤمنين قد ولاه عليها، وأقام بها الحسن اياما يعالج نفسه ، وأرسل اليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فزهداه في الامر وأعطياه كل ما شرطه معاوية على نفسه وانصرف قيس بمن معه الى الكوفة كما انصرف اليها الحسن وأقبل معاوية قاصدا الكوفة وتم الصلح بينهما كما جاء في بعض روايات شرح النهج .

وقال اليعقوبي في المجلد الثاني من تاريخه : ان معاوية ارسل الى قيس بن سعد الف الف درهم على ان يصير اليه او ينصرف عنه فرفضها، فأرسلها معاوية الى عبيد الله بن العباس فقبلها ومال معه الى معاوية ثمانية آلاف ممن كانوا معه ، وأقام قيس على محاربته ، وكان معاوية خلال تلك الفترة يدس الى عسكر الحسن من يتحدث ان قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار اليه ، ويدس في نفس الوقت الى عسكر قيس بأن الحسن قد صالح وسلم له الامر ، وأرسل الى الحسن المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن ام الحكم وهو بالمدائن فتحدثوا اليه وخرجوا من مجلسه وهم يقولون بصوت يسمعه الناس : ان الله قد حقن الدماء بابن رسول الله وسكن به الفتنة ، وأجاب الى الصلح ، فاضطرب العسكر ولم يشك الناس في صدقهم

فوثبوا بالحسن واتتهبوا مضاربه وما فيها فركب فرسه ومضى فكمن له الجراح بن سنان الاسدي فجرحه بمعول وقبض الحسن على لحيـــة الجراح فلواها فدق عنقه ، وحمل الحسن الى المدائن وقد نزف نزفـا شديدا واشتدت به العلة فافترق الناس عنه وقدم معاوية الى العراق فغلب على الامر والحسن عليل شديد العلة فلما رأى ان لا قوة بـــه وافترق عنه اصحابه صالح معاوية وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليـــه وقال : ايها الناس ان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وقد سالمت معاوية وان ادري لعله فتنة لكم .

ويبدو من رواية اليعقوبي ان الحسن بقي مصرا على الحرب الـــى آخر لحظة وان وفد معاوية لم يصل معه الى نتيجة بخصوص الصلح ، وقد استعمل معاوية اساليب الخداع والتضليل في اعلانه عن وقـــوع الاتفاق بين الطرفين كما يوحي بذلك قول اليعقوبي ان معاوية قـــدم العراق وغلب على الامر والحسن عليل شديد العلة وان معاوية لم يجد مقاومة تمنعه من دخول العراق واحتلاله ، وان الحسن لما رأى ذلك لم يكن له خيار في تسليمه الامر .

وتختلف رواية ابن الجوزي في تذكرته عن روايتي شرح النهـج واليعقوبي ، فقد جاء فيها ان قيادة الفرقة التي ارسلها الامام الحسن(ع) كانت بقيادة قيس بن سعد ، وروى عن الشعبي انه قال : بينما كـــان الامام في السرادق الذي اعد له بالمدائن واذا بالمنادي ينادي في اوساط عسكر الامام ابي محمد ان قيسا قد قتل فانفـــروا فنفروا الى سرادق الحسن (ع) فنازعوه حتى اخذوا بساطا كان تحته وطعنه رجل بمشقص فأدماه فازدادت رغبته في الدخول في الجماعة وذعر منهم فدخـــل المقصورة التي في المدائن بالبيضاء وكان الامير على المدائن سعد بـن مسعود عم المختار ابي عبيدة ، فقال المختار لعمه وكان شابا : هل لك في الغناء والشرف ، قال وما ذاك ؟ قال : تستوثق الحسن وتسلمه الى

معاوية ، فقال له سعد بن مسعود : قاتلك الله أثب على ابن رسول الله وأوثقه وأسلمه الى ابن هند بئس الرجل انا ان فعلت ذلك .

وروي عن طبقات ابن سعد ان المختار قال لعمه : هل لك في امر تسود به العرب ، قال : وما هو ؟ قال : تدعني اضرب عنق الحسن وأذهب به الى معاوية ، فقال له : قبحك الله ما بهذا نجازي بلاء اهل البيت ، ومضى يقول : ولما رأى الحسن تفرق الناس عنه واختلاف اهل العراق عليه وغدر اهل الكوفة به رغب في الصلح وكان معاوية قد كاتبه يدعوه اليه فلم يجبه .

وهذه المرويات على ما بينها من اختلاف في المضمون كلها تؤكد على ان معاوية كان يعمل هو وزبانيته بكل ما لديهم من وسائل المكر والخداع والاحتيال على تفتيت جيش العراق وبث الذعر والخوف والتخاذل في صفوفه وشراء قادته وزعماء العشائر بالاموال والوعود المغرية ، وتؤكد اكثر المصادر ان الامام الحسن (ع) بقي مصرا على القتال بالرغم من انه كان على صلة بكل ما كان يجري ويدور بين معاوية وبين اكثر القادة وزعماء العشائر ولكنه بعد ان هوجم وهو في فسطاطه وطعن في فخذه ونهب المهاجمون امتعته ولم يبق معه من يطمئن اليهم سوى اخوته وأهل بيته وعدد محدود من القادة والجنود ورأى ان القتال يعرضهم الى اشد المخاطر وافق على الصلح الذي كان ينشده معاوية ويفضله على جميع الحلول لانه يستطيع التضليل به على الجماهير كما ذكرنا من قبل .

ولعل الذين هاجموا الحسن (ع) ونهبوا امتعته وطعنوه في فخذه كما نصت على ذلك رواية ابن الجوزي التي ربما تكون اقرب الى الصحة من غيرها ، لعلهم كانوا رسل معاوية لهذه الغاية ، وليس ذلك ببعيد على ابن هند وزبانيته الذين مارسوا كل انواع الفتن والغدر والمكر حتى بلغوا القمة في غدرهم وخياناتهم لكل ما جاء به الاسلام من سنن

وأخلاق وآداب وتشريعات كما ينص على ذلك تاريخهم الحافل بالمخازي والمنكرات .

ومهما كان الحال فقد تم الصلح بعد ان مر الامام بهذه التجارب المريرة مع اهل الكوفة وقادة جنده وكان امرا لا مفر منه ولا خيار للحسن (ع) فيه حرصا منه على مصلحة الاسلام العليا التي كان مسيرا لها ولا يتحرك الا في حدودها كما كان ابوه من قبله وأخوه الحسين من بعده ، ولو مضى الحسن (ع) بتلك الفئة القليلة من اخوته وأهل بيته وأصحابه البررة وحارب معاوية مع تخاذل جيشه الذي عبثت به دسائس معاوية ومغرياته كما تعبث النار في الهشيم لكانت نهايته المحتومة الاسر او القتل وربما يتم ذلك عى يد اهل العراق بالذات ، ولا يقتل الحسن حتى يقتل معه اخوته وخلص شيعته ، ولو جرى ذلك لوقف ابن هند وابن النابغة على منابر المسلمين في كل بلد يقولان للناس : لقد عرضنا على الحسن الصلح وان يكون هو الخليفة في الواقع ومعاوية هو المنفذ لا نقطع امرا دونه ولا نخالفه في مرضاة الله ، وله مع ذلك الخلافة في مستقبل حياته خالصة لا ينازعه فيها منازع وهذه رسائلنا اليه بهذا الخصوص ، ولكنه ابى الا الحرب واراقة الدماء . ولو فعل معاوية ذلك لوجد الاكثرية الساحقة من المسلمين الى جانبه يباركون قوله ويحملون الحسن (ع) مسؤولية كل ما حدث ، وبلا شك فان الامام ابا محمد الحسن (ع) قد ادرك جميع هذه الظروف وأحاط بكل ما يترتب على المضي في الحرب والمصالحة من نتائج ومفاسد وبالتالي ادرك ان التنازل عن السلطة على ما فيه من سوء أنفع لمصلحة الاسلام وأقل ضررا وفسادا من المضي في القتال بذلك الجند المتخاذل التي انتشرت فيه الخيانة بين جميع فئاته .

لقد كان في تنازله عن السلطة في ذلك الجو المحموم منتهى الحكمة والحنكة والسياسة الرشيدة كما كان ابوه امير المؤمنين من

قبل موفقا في قبول التحكيم الذي فرض عليه بحد السيوف وآسنة الرماح .

هذا بالاضافة الى انه لو مضى بمن معه وحارب معاوية بتلك الفئة القليلة لكان حالها كحال غيره من العلويين الذين نهضوا في ظروف مختلفة خلال العصور الاسلامية يهتفون بالاصلاح ويدعون اليه ، ثم غلبوا على امرهم ، ولم يبق من ذكرهم الا اسماؤهم في مجاميع التاريخ والانساب .

وما يدرينا فيما لو قتل الحسن وجميع اهل بيته وقتل من كان على رأيه من خيار المسلمين بعد ان ندبهم معاوية الى الصلح ، ما الذي يمنع معاوية وهو العدو اللدود للاسلام ولكل ما جاء به من المبادىء والمثل وقد كان صدره ضيقا والحقد يعبث في نفسه لان محمدا لا يزال يذكر في كل يوم عشرات المرات من فوق المنابر والمآذن في اوقات الصلاة وفي جميع المناسبات وقد طوى التاريخ اسلافه ومن تعاقبوا على الحكم من قبله كما جاء في رواية المروج للمسعودي وشرح النهج للمعتزلي[1] ما يدرينا فيما لو قتل الحسن واخوته وأهل بيته والصفوة المختارة من شيعته، ماذا يصنع معاوية ورجاله المنتصرون كزياد بن عبيد وابن النابغة والمغيرة بن شعبة ومسلم بن عقبة وأمثال هؤلاء من عتات بني امية بمقدسات الاسلام ومبادىء الاسلام ، وهل هناك ما يمنع هؤلاء الذين فعلوا ما فعلوا من الجرائم والموبقات ان يعملوا على محق الاسلام او تحويره وطمس معالمه وتحقيق احلام ابي سفيان والحكم بن العاص وبنيه والعتاة المردة من بني أمية والتاريخ وحده خير شاهد على ان معاوية ومن كان معه من المستهترين والمتسترين بالاسلام لولا البقية

---

١ ــ انظر ص ٣٤٣ من مروج الذهب المجلد الثاني والمجلد الثاني من شرح النهج طبع مصر ص ٣٥٧ .

الباقية من اهل البيت والصفوة المختارة من المسلمين لغيروا وبدلوا وحققوا لاسلافهم ما كانوا يصبون اليه في حربهم لمحمد بن عبد الله طيلة عشرين عاما او تزيد ، وهذا يعني بداية عهد اموي جديد له طابعه وخصائصه التي ان اختلفت عن الشرك والوثنية لا تختلف الا بالاسم او الشكل ، وقد جاء عن النبي (ص) انه قال : لو لم يبق من بني امية الا عجوز درداء لبغت دين الله عوجا .

ومهما كان الحال فقد تم الصلح كما املته الحكمة وفرضته مصلحة الاسلام العليا ، اما المكان الذي تم فيه فقيل انه في مسكن حيث التقى معاوية بجنده مع مقدمة الحسن التي ارسلها عندما تحرك جيشه من معسكراته ، وقيل انه كان باذرح داخل الحدود السورية وقيل في الكوفة وبيت المقدس ، وقيل غير ذلك ومن غير البعيد ان تكون الموافقة عليه كانت في المدائن وتم تنفيذه بعد ان رجع الامام الى الكوفة كما تشير الى ذلك بعض المرويات .

بنود الصلح كما يرويها المؤرخون

لقد اتفق المؤرخون ان الحسن بن علي (ع) قد تنازل عن السلطة لمعاوية بن هند لقاء شروط وعهود اخذها عليه ، وروى الطبري وغيره ان معاوية ارسل الى الحسن صحيفة بيضاء وختم اسفلها بخاتمه وترك للحسن ان يكتب ما يشاء ويقترح ما يريد كائنا ما كان .

وجاء في رواية ابن عبد البر في الاستيعاب ان من جملة شروط الحسن على معاوية ان لا يطلب احدا من اهل المدينة والحجاز والعراق بشيء كان منهم في عهد ابيه امير المؤمنين فأجابه لذلك ما عدا عشرة قد عاهد الله انه اذا ظفر سينكل فيهم ، ومضى معاوية يقول : اني عاهدت الله اني اذا ظفرت بقيس بن سعد بن عبادة الانصاري ان اقطع لسانه ويده ، فرد عليه الامام بقوله : اني لا اوافق على ذلك ابدا وأنت تطلب قيسا او غيره بتبعة قلت او كثرت ، فبعث معاوية اليه برق ابيض وقال له : اكتب ما شئت وأنا التزم بكل ما تريد فكتب ما اراد وشرط لنفسه الامر من بعده .

ونص جماعة من المؤرخين على ان بنود الاتفاق لا تتعدى الامور التالية : لقد اتفق الحسن بن علي ومعاوية بن ابي سفيان على ان يسلم

(١) له الحسن ولاية امر المسلمين على ان يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين وليس لمعاوية (٢) ان يعهد بالامر الى احد من بعده بل يكون الامر شورى بين المسلمين ، وعلى (٣) ان الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ، وعلى ان اصحاب علي بن ابي طالب آمنون على انفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه وما اخذ الله على احد من حقه بالوفاء وبما اعطى الله على نفسه وعلى ان لا يبغي للحسن بن علي ولا لاخيه الحسين ولا لاحد من اهل بيت رسول الله (ص) غائلة سرا ولا جهرا ولا يخيف احدا منهم في افق من الآفاق وكفى بالله شهيدا .

ويرى بعض المؤرخين ان هذه الوثيقة لا تحتوي على جميع بنود الاتفاق وقد سقط منها اكثر البنود على حد زعمهم وكان من جملتها ان يكون الامر بعد معاوية للحسن (ع) وان حدث بالحسن قبل معاوية حدث يكون الامر بعد معاوية للحسين (ع) ، والعفو العام عن جميع الناس وبخاصة اهل العراق وشيعة علي امير المؤمنين (ع) وان لا يسمي معاوية نفسه بأمير المؤمنين ، (٨) وان لا يسمي امير المؤمنين ولا يذكره الا بخير ، وان لا يقيم عنده الشهادة ، (١٠) وان ينفق على ايتام من قتل مع امير المؤمنين في حربي الجمل وصفين الف الف درهم ، وان يأخذ الامام الحسن جميع ما في بيت مال المسلمين في الكوفة بالغا ما بلغ ، ويدفع اليه معاوية في كل عام مائة الف درهم .

وتنص بعض المرويات ان ما كان في بيت المال يبلغ نحوا من خمسة ملايين درهم ، وان الذي شرطه الحسن لنفسه في كل سنة مائتا الف درهم وان على معاوية ان يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس الى غير ذلك من الروايات المتضاربة حول نصوص المواد التي

وضعها الحسن (ع) والتزم بها معاوية ،[والقدر المتيقن منها ان لا يعهد معاوية بالامر لاحد من بعده واعلان العفو العام عن جميع الذين كانوا يقاتلون الى جانب امير المؤمنين وبخاصة اهل العراق ومن كان منهم شديد الولاء لعلي وبنيه لان الامام يعلم بما تنطوي عليه نفس معاوية من الحقد والعداء الشديد لاهل البيت (ع) ، وانه سوف ينتقم منهم اذا اتيح له ذلك ، ولعل هذه المادة كانت من اهم بنود الاتفاق بنظر الامام ابي محمد الحسن (ع) ، ومع التأكيد عليها فلقد ابت له نفسه الحاقدة ان يفي بما عاهد الله عليه فتتبع اعيان الشيعة بالقتل والحبس والتشريد ، وقطع ارزاقهم وصلاتهم وشردهم في البراري والآفاق ؛ وأوصى عماله وأنصاره في جميع المقاطعات بمطاردتهم وقتلهم ، وان لا يتركوا سب علي على منابرهم ويعلموا ذلك اطفالهم وصبيانهم كما اجمع على ذلك المؤرخون والمحدثون .

اما الروايات التي تنص على انه اشترط لنفسه ما في بيت مال المسلمين في الكوفة ومائتي الف درهم في كل عام بالاضافة الى ذلك وخراج بعض المقاطعات في الاهواز وتفضيل الهاشميين على بني عبد شمس وغيرهم في العطاء ، هذه الروايات بالاضافة الى ضعف اسانيدها فمن غير البعيد ان تكون من موضوعات الامويين او العباسيين الذين وضعوا حوله عشرات الاحاديث ليضعوا في الاذهان ان الحسن قد باع الخلافة بالاموال وكان منصرفا الى الملذات والشهوات عن عظائم الامور ، كما قالها احد حكام العباسيين في محاولة منه لانتقاص بعض الحسنيين الذين كانوا لا يتحملون الضيم ويثورون بين الحين والآخر على الظلم والطغيان في اواخر العصر الاموي والعصر العباسي .

ولو صح انه اشترط لنفسه ما في بيت مال الكوفة فذاك لينقذه من ايدي الطغاة وينفقه على ايتام المسلمين وفقرائهم في الكوفة وغيرها كما

كان ينفق اكثر امواله في هذا السبيل ، وقد صح عنه انه قاسم الفقراء امواله ثلاث مرات وخرج منها بكاملها مرتين ، ولو بقيت فـي تصرف معاوية ستصرف على الفجور والمنكرات وعلى اعوانه الذين باعوا دينهم كابن العاص والاشعث بن قيس والمغيرة وغيرهم من الانصار والاتباع والمفسدين في الارض .

ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين

لقد شاع هذا الحديث بين المرويات عن النبي (ص) في سبطه الحسن (ع) ، ولعل مصدره الوحيد عن النبي ابو بكرة شقيق زياد بن عبيد لأمه سمية ، ورواه البخاري في كتاب الصلح من صحيحه والامام احمد بن حنبل في مسنده عن المبارك عن الحسن عن ابي بكرة ، وورد نصه في الاصابة لابن حجر على النحو التالي عن ابي بكرة ، قال رأيت رسول الله على المنبر والحسن بن علي الى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه اخرى ويقول : ان ابني هذا سيد ولعل الله ان يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

وفي رواية البخاري ومسند احمد عن ابي بكرة انه قال : كان رسول الله يصلي بالناس وكان الحسن بن علي يثب على ظهره اذا سجد فعل ذلك مرارا ، فقالوا له : يا رسول الله انك لتفعل بهذا شيئا ما رأيناك تفعله بأحد ، قال ابو بكرة : فذكر شيئا ثم قال : ان ابني هذا سيد وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين من المسلمين .

وجاء في رواية العقد الفريد ان رسول الله (ص) دخل على ابنته فاطمة فوجد الحسن طفلا يلعب بين يديها فقال لها : ان الله سيصلح على

يدي ابنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

بهذه الصيغ المتقاربة في المضمون روى المحدثون حديث نبـــوءة النبي (ص) بما سيجري على يد سبطه الحسن الزكي مـــن اصلاح بين فئتين عظيمتين من المسلمين على حد تعبير الراوي وأخذوا به وكأنه من المسلمات وقرت بهذه الرواية عين واضعها معاوية بن ابي سفيان لانهـــا اعتبرته احدى الفئتين المسلمتين العظيمتين ، في حين ان القرآن الكريم يراه من البغاة الذين يجب على المسلمين قتالهم حتى يفيئوا الى امر الله كما اعتبره النبي (ص) باغيا كما يستفاد ذلك من قوله لعمار : تقتلـــك الفئة الباغية .

واعتبرها اكثر الشيعة كرامة للإمام ابي محمد الحسن لان النبي اشاد بمقامه وفضله وتم على يده الاصلاح الذي تنبأ به جده الرسول الاعظم، وقد ذكرنا اسباب الصلح الذي تم بين الطرفين والمراحل الاليمة التي مر بها الحسن حتى اضطرته الى الصلح حرصا على مصلحة الاسلام بنحو لم يكن له خيار فيه .

اما الرواية فلا اشك بأنها من موضوعات ابي بكرة او انها وضعت ونسبت اليه ليثبت ان معاوية من المسلمين لا من البغاة بعد ان وصمـــه القرآن بهذه الصفة وأكدها النبي في حديثه مع عمار الذي رواه عـــن النبي اكثر الصحابة وكان من اكثر الاحاديث شيوعا وانتشارا ، وقـــد اقلق هذا الحديث معاوية بن هند بعد مقتل عمار وكاد جيشه ان ينتقض عليه لولا ابن النابغة الذي استطاع ان يضلل ويموه على الجيش ، بأن الذي قتل عمارا من جاء به الى المعركة وغرر به وظلت وصمة البغي التي وصمه بها القرآن الكريم والرسول تقلقه حتى تيسر له ابو بكرة بـــن الحارث بن كلدة شقيق زياد من امه سمية فوضع له الحديث ليكون هو وجماعته احدى الفئتين المسلمتين . ومما يدل على انه من الموضوعات، ان الحديث المذكور لم يروه عن النبي سوى ابي بكرة وادعى انه رأى

الحسن الى جانب جده على المنبر يلتفت اليه تارة والى المسلمين اخرى ثم قال : ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين، وكما شاهده الى جانبه على المنبر لا بد وان يشاهده ويسمع منه جميع من كان حاضرا تحت منبره ، فلماذا تفرد وحده بروايته ، وفي الرواية الثانية انه شاهده على ظهره وهو ساجد ، وقد سأله المسلمون فقال لهم انه سيد وسيصلح الله به . وبالطبع فقد سمع منه على تقدير صدق الراوي جميع المصلين ، ومع ذلك فلم يسند الحديث لغيره هذا بالاضافة الى ان ابا بكرة كان منحرفا عن علي وآل علي ولم يشترك معه في حروبه وهو الذي روى عن النبي (ص) حينما خرج طلحة والزبير وعائشة على امير المؤمنين حديث ستكون بعدي فتنة القاعد فيها خير من القائم ليخذل الناس عنه ، وكان يرى ان الحروب التي دارت في البصرة وصفين قد دعا النبي الى اعتزالها لانها من نوع الفتن التي لا خير فيها للاسلام ، وبالاضافة الى كل ذلك فالذين رووا الحديث عن ابي بكرة يدعون ان النبي (ص) قد قال ذلك للحسن وهو طفل في حدود الثلاث سنوات من عمره حينما كان يدرج ويصعد على ظهر النبي وهو يصلي وعلى منبره وهو يخطب في المسلمين ، وأبو بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة يوم ذاك كان لا يزال مشركا في الطائف .

فقد جاء في تهذيب التهذيب لابن حجر ان ابا بكرة شقيق زياد لأمه سمية وكانت امة للحارث بن كلدة ومضى يقول : وانما سمي ابو بكرة لانه تدلى من حصن الطائف يوم حاصرها النبي والتحق بالاسلام في السنة الثامنة للهجرة بعد ان فتح مكة وانتهى من معركة حنين والحسن يوم ذاك في الخامسة من عمره او اكثر من ذلك [1] .

---

١ ـ انظر ص ٤٦٩ جـ١٠ من التهذيب .

ومما يشير الى ان الحديث من الموضوعات هو ان معاوية كان يردده بعد عام الجماعة مستبشرا به .

فقد جاء في مروج الذهب للمسعودي انه لما صالح الحسن معاوية كبر معاوية بالخضراء وكبر اهل المسجد لتكبير اهل الخضراء فخرجت فاختة بنت قرظة من خوخة لها وقالت : سرك الله يا امير المؤمنين ما هذا الذي بلغك ؟ فقال اتاني البشير بصلح الحسن وانقياده ، فذكرت قول رسول الله : ان ابني هذا سيد اهل الجنة وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين فحمدت الله الذي جعل فئتي احدى الفئتين المؤمنتين [1] .

فلقد كبر مستبشرا لان الحديث يجعله وفئته من المؤمنين ، في حين ان حديث الرسول لعمار الذي رواه اكثر الصحابة يجعله وفئته من البغاة الذين يجب قتالهم حتى يرجعوا الى امر الله .

والغريب في المقام ان يقف الدكتور طه حسين من هذا الحديث موقفا سطحيا بعيدا عن منطق الاحداث والظروف التي ترجح ان الحديث من الموضوعات التي لا واقع لها فبعد ان رجح صحة الحديث قال : لقد وقع هذا الحديث موقعا من نفس الصبي اي موقع ، وكأنه ذكره حين ثارت الفتنة وحاول بمشورته على ابيه في مواطنه تلك التي ذكرتها آنفا ان يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوءة جده ، وكأن بكاءه حين بكى لم يكن رفقا بأبيه واشفاقا فحسب ، وانما كان الى ذلك حزنا لانه لم يحقق ما توسم به جده فيه ، ومضى يقول : ان الحسن خرج في عدد ضخم من اهل العراق وكأنه خرج يظهر لهم الحرب ويدبر امر الصلح فيما بينه وبين معاوية ليحقق نبوءة .

---

١ ـ المسعودي مروج الذهب ص ٥٢ من المجلد الثاني .

ومحل الغرابة في حديث طه حسين هذا الموقف السطحي الذي وقفه من الامام الحسن (ع) ومن الحديث المذكور ، في حين ان النصوص التاريخية تؤكد ان فكرة الصلح لم تكن واردة عند الامام ابي محمد الحسن حتى اللحظات الاخيرة ، ولم يجنح اليها الا بعد ان يئس من جدوى المقاومة ومن أخطارها على الاسلام كما ذكرنا ، وأما الحديث الذي وقف عنده وكأنه اكتشف منجما غنيا بالمعادن ، فقد ذكرنا عيوبه وبعض الشواهد على انه من موضوعات الامويين للغاية التي ذكرناها.

في النخيلة

يدلي جماعة من المؤرخين ان المراسيم التي تقضي بتسليم السلطة لمعاوية بن ابي سفيان قد تمت بالنخيلة على أميال من الكوفة ، واجتمع في المكان المذكور حشد كبير من العراقيين والسوريين ، وبلا شك لقد كان الاجتماع المذكور من اقسى ما لاقاه الحسن (ع) في حياته فقد رأى معاوية عدو الاسلام والبيت الهاشمي يدخل عاصمة الدولة الاسلامية الكبرى دخول الجبابرة الفاتحين ، ورأى شيعته وشيعة ابيه الاوفياء للاسلام وحماة الاسلام يتململون مما ينتظرهم من جور واضطهاد وتشريد ، وينتظر الاسلام من اولئك المستهترين العابثين بالقيم والمقدسات وبكل ما جاء به محمد بن عبد الله .

فقد جاء في شرح النهج عن ابي الفرج ان معاوية نزل بالنخيلة فخطب خطبة طويلة لم ينقلها احد من الرواة تامة على حد تعبيره ، ومضى يقول: لقد روى الشعبي ان معاوية قال : ما اختلف امر امة بعد نبيها الا وظهر اهل باطلها على اهل حقها ثم انتبه وقال الا هذه الامة .

وروى ابو اسحاق السبيعي انه قال : الا وان كل شيء اعطيته للحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي له بشيء منه ، وأضاف الى ذلك

كما في رواية الاعمش : والله ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلـــوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا لانكم تفعلون ذلك ، وانما قاتلتكم لا تأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون .

وفي رواية حبيب بن ثابت ان معاوية لما خطب في النخيلة نال من امير المؤمنين بحضور الحسن والحسين ، ثم نال من الحسن بن علي (ع) فقام الحسين ليرد عليه فأخذ الحسن بيده وأجلسه ، ثم قام فقال : ايها الذاكر عليا انا الحسن وأبي علي وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة وجدتي خديجة بنت خويلد وجدتك قتيلة فلعن الله اخملنا ذكرا وألأمنا حسبا وشرفا قديمـــا وحديثا وأقدمنا كفرا ونفاقا ، فقالت طوائف من اهل المسجد : امين امين ومضى في شرح النهج يقول : ان يحيى بن معين يقول امين وعبد الحميد ابن ابي الحديد مصنف هذا الكتاب يقول امين .

وجاء في بعض المرويات ان معاوية بعد ان خطب في النخيلة طلب من الحسن ان يتحدث الى الناس بناء لاقتراح ابن العاص ليظهـــر للناس عجزه فوقف الحسن (ع) بين تلك الجموع المحتشدة وصوّر الاحداث القاسية التي اعترضت طريق اهل البيت منذ وفاة الرسول (ص) حتـــى يومه ذلك وموقف ابيه منها الذي كانت تمليه مصلحة الاسلام العليا ، وبعد ان استعرض الظروف التي فرضت عليه الصلح فرضا لا مفر منه قال : ان معاوية زعم لكم اني رأيته للخلافة اهلا ولم أر نفسي اهلا لها، لقد كذب معاوية ، نحن اولى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبيه ، ولم نزل اهل البيت مظلومين منذ قبض الله نبيه فالله بيننا وبين من ظلمنا وتوثب على رقابنا وحمل الناس علينا ومنعنا سهمنا من الفيء ومنع امنا ما جعله لها رسول الله .

وأقسم بالله لو ان الناس بايعوا ابي بعد رسول الله لاعطتهم السماء قطرها والارض بركتها ، ولما طمعت فيها معاوية ، فلما خرجت من معدنها

تنازعتها قريش بينها وطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء انت وأصحابك ، وقد قال رسول الله (ص) ما ولت امة امرها رجلا وفيهم من هو اعلم منه لم يزل امرهم يذهب سفالا حتى يرجعوا الى ما تركوا ، فقد ترك بنو اسرائيل هارون وهم يعلمون انه خليفة موسى فيهم واتبعوا السامري ، وتركت هذه الامة ابي وبايعوا غيره ، وقد سمعوا رسول الله يقول له : انت مني بمنزلة هارون من موسى الا النبوة ، ورأوا رسول الله حين نصب ابي يوم غدير خم وأمرهم ان يبلغ امره الشاهد الغائب ، وهرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم الى الله حتى دخل الغار ، ولو انه وجد اعوانا لما هرب ، وأضاف الى ذلك : وقد جعل النبي في سعة حين دخل الغار ولم يجد اعوانا وكذلك ابي ، وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الامة ، وانما هي السنون والامثال يتبع بعضها بعضا .

ثم التفت الى الحشود المجتمعة وقال : فوالذي بعث محمدا بالحق لا ينقص من حقنا اهل البيت احد الا نقص الله من عمله ولا تكون علينا دولة الا وتكون لنا العاقبة ولتعلمنّ نبأه بعد حين .

والتفت الى معاوية فرد عليه سبه لابيه وقال : ايها الذاكر عليا انا الحسن وأبي علي وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله وجدك عتبة وجدتي خديجة وجدتك قتيلة فلعن الله اخملنا ذكرا وألأمنا حسبا وشرفا قديما وحديثا وأقدمنا كفرا ونفاقا ، فارتفعت الاصوات من جميع الجهات امين امين على حد تعبير الراوي، وأنا مؤلف هذا الكتاب اقول امين امين يا رب العالمين .

وقد استعرض الامام ابو محمد الحسن في خطبته هذه جميع المراحل التي مر فيها امير المؤمنين ، وربط بينها وبين الاحداث التي اضطرته الى التخلي عن السلطة الى ابن هند وبين الاحداث التي مرت على ابيه وأدت الى انتزاع السلطة منه الذي مهد لكل طامع بالاستيلاء عليها الى ان وصلت الى الطلقاء وأبنائهم .

ومهما يكن الحال فلقد تم الصلح وبايع اهل العراق لمعاوية وهم بين طائع ومكره ، وكان قيس بن سعد بن عبادة من اوثق الناس في نفس الحسن (ع) ومن اشد اهل الكوفة وأهل الحجاز عداء لمعاوية ، ولقد اصيب بصدمة قاسية عندما علم بموافقة الحسن على الصلح وبقي مصرا على مقاومة معاوية بمن معه من الجيش مهما كانت النتائج لولا ان الحسن (ع) رغب اليه في المهادنة وعدم القتال .

وجاء في شرح النهج انه لما تم الصلح ارسل الى قيس بن سعد يدعوه للبيعة وكان رجلا طويلا يركب الفرس المشرف ورجلاه تخطان في الارض ، ولما ارادوا ادخاله على معاوية قال : اني حلفت ان لا القاه الا وبيني وبينه السيف او الرمح فأمر معاوية برمح وسيف ووضعهما بينه وبينه ، والتفت قيس الى الحسن وقال : أفي حل انا من بيعتك يا ابن رسول الله ؟ قال نعم ، فألقي له كرسي فجلس عليه وجلس معاوية على سريره والحسن بن علي معه ، فقال له معاوية : أتبايع يا قيس ؟ قال : نعم ، ووضع يده على فخذه ولم يمدها لمعاوية ، فقام معاوية عن سريره ومسح يده على يده وهي في مكانها ، وانتهى الامر بعد ذلك لمعاوية بدون معارض ، فسمى الناس ذلك العام بعام الجماعة .

وقال الدكتور احمد محمود صبحي في كتابه نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية : وهذه نظرة لا تعدو السياسة الظاهرية ، اما في مجال العقيدة فقد كان المسلمون مجتمعين حتى هذا العام فحدث الانشقاق بعد عام الصلح الذي يسمونه عام الجماعة ، ولذا وصفه الجاحظ بحق بقوله عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا والخلافة غصبا قيصريا [1] .

---

١ ــ انظر ص٣٢٨ من ألكتاب المذكور عن رسالة الجاحظ في الامويين.

ما حدث بعد الصلح

لقد بقي الامام السبط بعد الصلح اياما في الكوفة تطوف به الآلام وتعلوه الكآبة يرى شيعته يتململون من الاسى والالم ، ويدفعهم الوجد الى الخروج عن المألوف في حديثهم معه ، ويتلقى كل ذلك بالصبر ويحاول اقناعهم والتخفيف عنهم باستعراض ما حدث من الاحداث التي فرضت عليه الصلح ولم تترك له خيارا فيه ولكن بدون جدوى ، وأخذ بعد برهة وجيزة يعد العدة للرجوع مع اخوته وأهل بيته الى مدينة جده (ص) .

ونص اكثر المؤرخين انه لم يتأخر في الكوفة بعد الصلح سوى ايام قلائل وخرج منها تاركا فيها من شيعته ومحبيه أضعاف ما له من الشيعة والانصار في المدينة وجميع انحاء الحجاز ، وموضع التساؤل هل ان معاوية قد شرط عليه فيما شرط ان ينزح عن الكوفة الى المدينة لان بقاءه فيها ربما يؤدي الى التفاف اهلها حوله وبالتالي الى تمردهم عليه ، او انه نزح عنها رغبة منه في ان يكون فيما بقي من عمره بعيدا عن قوم غدروا به وبأبيه وجرعوهما اسوأ انواع الاذى والبلاء ، ليس لدينا من المصادر ما يشير الى ان معاوية قد اشترط عليه ان يترك العراق،

ومن الجائز القريب ان يكون قد تركها باختياره ليبقى بعيدا عن أحداثها ومشاكلها ويتفرغ الى مصالح الناس وحوائجهم بعيدا عن السياسة ومشاكلها ، ولا اظن ان معاوية يسمح له في البقاء فيها لو اراد ذلك .

ولما علم اهل الكوفة بعزمه على الخروج خرجوا لوداعه وهم بين باك وباكية يندبون حظهم ومصيرهم المظلم في عهدهم الجديد وقد اصبح بلدهم مصرا من الامصار وتابعا لدمشق بعد ان كان عاصمة الامصار يصدر القرارات ويوزع الولاة وتجبى اليه الخيرات ، ورأوا جيش معاوية الذي كان عدوهم بالامس يحتل بلدهم نشوان بلذة النصر والفتح وسمعوا معاوية وهو على منبر امير المؤمنين يقول جذلان مسرورا : اني قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون .

لقد رحل عن الكوفة هو وأهل بيته وسارت قافلته تطوي البيداء، فلما انتهى الى دير هند القى على عاصمته نظرة مليئة بالاسى واللوعة وتمثل بقول القائل :

ولا عن قلى فارقت دار احبتي هم المانعون حوزتي وذماري

وقبل ان يقطع موكبه مسافة بعيدة عن الكوفة ادركه معاوية يطلب اليه الرجوع اليها ليقاتل طائفة من الخوارج اعلنوا العصيان والتمرد في جوارها ، فابى ان يرجع وكتب الى معاوية : لو آثرت ان اقاتل احدا من اهل القبلة لبدأت بقتالك قبل اي احد من الناس [1] .

ومضى في طريقه وكلما حاذى موكبه قرية او حيا من الاحياء خف اهله الى استقباله والترحيب به ، وسألوه عن الصلح وأسبابه وظروفه، والامام (ع) يخبرهم بالواقع الذي اضطره الى ترك السلطة وتسليمها

---

١ ــ الكامل لابن الاثير جـ٣ ص ٣٠٨ .

لمعاوية ، ولما انتهت قافلته الى يثرب استقبله اهلها بالترحاب وذكروا به رسول الله وهو يحمله على كتفه ويقول حسن مني وأنا من حسن اللهم اني احبه فأحبه وأحب من يحبه . فأقام في يثرب عشر سنين انصرف فيها الى خدمة الاسلام ونشر تعاليمه وكل ما يعود على الاسلام وأهله بالخير وكان مع ذلك موئلا لذوي الحاجات ونصيرا للمظلومين وموردا كريما للفقراء والمحتاجين ، وخلال اشهر معدودات من استيلاء معاوية على السلطة جعل ينكل بالشيعة ويطاردهم من بلد الى بلد فأحسوا بمرارة تلك الصدمة ووطأتها فكانوا يفرون اليه من جور معاوية وعماله ويفاجئونه بما هو اشد عليه من وقع الحسام مع علمهم بالظروف القاسية التي الجأته الى اعتزال السلطة ، فقال له ابو عامر شعبان بن ابي ليلى : السلام عليك يا مذل المؤمنين ، وقال له حجر بن عدي ، حينما سمع معاوية من على منبر الكوفة يسب امير المؤمنين ، اما والله لوددت انك مت في ذلك اليوم ومتنا معك ، فانا رجعنا راغمين ورجعوا مسرورين وقال له عدي بن حاتم الطائي ونفسه تكاد تذهب من الالم والاسى : يا ابن رسول الله لوددت اني مت قبل تسليمك الامر لمعاوية لقد اخرجتنا من العدل الى الجور فتركنا الحق الذي كنا فيه ودخلنا الباطل الذي كنا نهرب منه وأعطينا الدنية من انفسنا .

وقال له المسيب بن نجية وكان من خيار الصالحين الذين عرفوا بالولاء والاخلاص لاهل البيت : ما ينقضي تعجبي منك بايعت معاوية ومعك اربعون الفا ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعهدا ظاهرا ، اعطاك امرا فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت على ملأ من الناس .

وقال له سليمان بن حرد : السلام عليك يا مذل المؤمنين وتكلم بكلام يشبه كلام غيره من الشيعة في القسوة والشدة ، كما خاطبه بعض اصحابه بقوله : لقد اذللت رقابنا بتسليمك الامر لهذا الطاغية ، الى غير ذلك مما رواه المؤرخون من الكلمات القاسية التي كان يسمعها

من شيعته وأنصاره والتي لم تكن لتصدر منهم لولا الجور والاضطهاد والتعذيب الذي لحقهم من معاوية وعماله لا لشيء الا لانهم يوالون عليا وآله ، وكان (ع) يتحمل منهم كل ذلك ويعرف الدوافع التي اضطرتهم الى مقابلته بهذا الاسلوب ، وكانت اجوبته لهم على ما بينها من اختلاف في الصياغة والاسلوب تلتقي عند تحديده لموقف اهل الكوفة منه وتخاذلهم عن نصرته وانحياز اكثرهم الى جانب معاوية حتى بقي في اهل بيته وخلص شيعته الذين لا يغنون عنه شيئا .

وكما بلغ التذمر والاستياء اشدهما في نفوس الشيعة الحريصين على مصلحة الاسلام وتعاليمه من تسلط معاوية على المسلمين ومقدراتهم ، فلقد وقف اكثر المسلمين موقفا يتسم بالحذر والخوف من خلافة معاوية ، وحتى انها لم تقابل بالارتياح من اولئك الذين لم يقفوا الى جانب علي والحسن في الصراع الذي احتدم بينهما وبين معاوية وطلحة والزبير في البصرة وصفين ، وكان رأي تلك الفئة ان الخلافة التي ادعاها معاوية لنفسه وقاتل عليها عليا والحسن بن علي ليس للطلقاء وأبنائهم ولا لمسلمة الفتح ممن اسلموا في السنة الثامنة نصيب فيها ولو صدقوا في اسلامهم .

في حين ان بعضهم كان يتخوف على الاسلام من بني امية اذا اصبحت السلطة في ايديهم ، وقد رووا عن النبي انه قال : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصبح ملكا عضوضا ، وقد عد جماعة من المسلمين ذلك تحولا في تاريخ الاسلام ستكون له اسوأ العواقب والنتائج على عالم الاسلام .

ويروي الرواة ان سعد بن ابي وقاص دخل على معاوية بعد ان تنازل له الحسن بن علي عن السلطة ، وقال له : السلام عليك ايها الملك ، فضحك له معاوية وقال : ما كان عليك يا ابا اسحق لو قلت : السلام عليك يا امير المؤمنين ، فقال له سعد بن ابي وقاص : اتقولها جذلان

ضاحكا والله ما احب اني وليتها بما وليتها به [1] .

كما روى الرواة عن ابن عباس انه قال : ليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة .

وجاء في تاريخ ابن كثير عن ابي هريرة في معرض استنكاره لخلافة معاوية ان رسول الله قال : الخلافة في المدينة والملك في الشام .

وجاء في النصائح الكافية عن سفينة مولى رسول الله (ص) فيما اخرجه ابن شيبة في معرض الحديث عن استخفاف بني امية للخلافة جاء عنه انه قال : كذب ابن الزرقاء ، انهم ليسوا بخلفاء ، بل هم ملوك من شر الملوك وأول الملوك معاوية .

وممن انكر خلافة معاوية عائشة ، فلقد جاء في المجلد الرابع من شرح النهج ان الحسن بن علي (ع) دخل على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس في مكان ضيق فجلس الحسن (ع) عند رجليه فتحدث معاوية بما شاء ان يتحدث ثم قال : عجبا لعائشة تزعم اني في غير ما انا اهله وان الذي اصبحت فيه ليس لي بحق مالها ولهذا الامر غفر الله لها، انما كان ينازعني هذا الامر ابو هذا الجالس وقد استأثر الله به .

فقال الامام (ع) أوعجب ذلك يا معاوية ؟ فقال : إي والله ، قال أفلا اخبرك بما هو أعجب من ذلك ؟ قال فما هو قال : جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجليك ، فضحك معاوية وقال : يا ابن اخي بلغني ان عليك دينا فكم هو؟ فقال: مائة الف ، فقال قد امرنا لك بثلاثمائة الف فقم مكرما واقبض حلتك ، فلما خرج الحسن قال يزيد بن معاوية لابيه : تالله ما رأيت رجلا مثلك استقبلك بما استقبلك به ثم اجزته بهذا المقدار، فقال : يا بني ان الحق حقهم فمن اتاك منهم فأحث له .

---

١ ــ انظر صلح الحسن ص ٢٦٨ عن ابن الاثير في الكامل جـ ٣ ص ١٦٣ والنصائح الكافية ص ١٥٨ .

وممن انكر على معاوية استيلاءه على السلطة ابو بكرة بن الحارث ابن كلدة شقيق زياد من امه سمية فيما يروي صاحب النصائح الكافية عن عبد الرحمن بن ابي بكرة انه قال : كنت مع ابي عند معاوية فأنكر عليه استيلاءه على السلطة وحدثه بقول النبي (ص) الخلافة بعدي ثلاثون ثم يكون الملك فأمر معاوية غلمانه فدفعونا حتى اخرجونا من مجلسه طردا .

وفيما يرويه الرواة ان معاوية سأل صعصعة بن صوحان العبدي ، اي الخلفاء رأيتموني ، فقال له ابن صوحان : انى يكون الخليفة من ملك الناس قهرا ودانهم كبرا واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا ، اما والله مالك في يوم بدر مضرب ولا مرمى ، لقد كنت انت وأبوك في العير والنفير ممن اجلب على رسول الله (ص) وانما انت طليق وابن طليق اطلقكما رسول الله فأنى تصلح الخلافة لطليق .

وقد وصفه صديقه الحميم وشريكه في اكثر جرائمه وموبقاته المغيرة ابن شعبة بأنه اخبث الناس وألأم الناس وأدانه بالشرك الصريح في حديث رواه مطرف بن المغيرة عن ابيه وقد ذكرناه فيما مضى خلال الفصول السابقة .

وجاء في مروج الذهب ان المأمون العباسي لما حدثه بعض الرواة بما رواه مطرف بن المغيرة عن ابيه بما سمع من معاوية امر مناديه ان ينادي برئت الذمة ممن يذكر معاوية بخير ويقدمه على احد من اصحاب رسول لله (ص) [1] .

وقال الحسن البصري : اربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن الا واحدة لكانت موبقة انتزاؤه على هذه الامة بالسفهاء حتى ابتزها امرها بغير مشورة منها وفيها بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه

---

١ ـ انظر مروج الذهب جـ٢ ص ٢٤١ و٢٤٢ .

ابنه من بعده وهو يعلم بحاله واستهتاره وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله : الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجر بن عدي فويل له من حجر وأصحاب حجر الى اكثر مما قيل فيه من اعلام المسلمين في عصره وبعد عصره ، وأكثرهم كان يرى ان استيلاءه على السلطة حدث عظيم في تاريخ الاسلام وبداية لعهد جديد يهدد الاسلام ومبادئه وحماته بأشد الاخطار .

ولما جاء عهد المعتضد العباسي نشر تاريخ معاوية وجرائمه وما جاء فيه وفي اسرته عن النبي (ص) وما قيل فيه من معاصريه وغيرهم وأمر الخطباء ان تتحدث بجرائمه وأحداثه وبلعنه على المنابر وفي النوادي والمجتمعات .

ومهما كان الحال فلقد تعرض الامام ابو محمد الحسن الزكي (ع) للنقد اللاذع من شيعته وأصحابه الذين لم يتسع صبرهم لجور معاوية مع ان اكثرهم كان يدرك الظروف القاسية التي اضطرته الى تجنب القتال واعتزال السلطة كما أحس الكثير من اعيان المسلمين وقادتهم بصدمة عنيفة لهذا الحادث بما تنطوي عليه نفوس الامويين من حقد على الاسلام ودعاته الاوفياء وحرص على احياء ما اماته الاسلام من مظاهر الجاهلية بكل اشكالها .

موقف المستشرقين من صلح الامام الحسن (ع)

لقد تعرض الامام ابو محمد الحسن (ع) لهجمات عنيفة من بعض كتّاب العرب وغيرهم لموقفه من الخلافة خلال الاشهر القليلة التي كانت مسرحا للصراع بينه وبين معاوية بن ابي سفيان وكان منتقدوه بين فئتين فئة نظرت الى الاحداث التي دونها المؤرخون نظرة سطحية ولم تأخذ بعين الاعتبار ما قامت به اجهزة الامويين والعباسيين من تشويه وكذب وافتراء على علي وآله الكرام في العصرين الاموي والعباسي وتحريف لحقائق التاريخ ، ومن خلال هذه النظرة الى التاريخ والاحداث ليس بغريب اذا انتهى الباحث الى مثل هذه النتائج ، وليس لاحد ان يحاسبه على نتائج بحثه ، وانما الذي يؤخذ على الباحث ويعرضه الى الاتهام بسوء النية وبخاصة اذا كان من امثال الدكتور طه حسين الذي يتجاهل جميع الظروف والملابسات والاحداث القاسية التي كانت تعصف بالخلافة في تلك الفترة ويبني احكامه على بعض النصوص التاريخية التي هي تشير الى من يريد الحقيقة ان يتحراها في غيرها من النصوص والاحداث .

والبعض الآخر وأعني به اكثر المستشرقين من اعداء العرب والاسلام الذين يتعمدون في كتاباتهم وكتبهم تشويه الحقائق والدس والافتراء على الاسلام وأعلام المسلمين وابراز الاسلام من خلال حكامه وتصرفاتهم لا من خلال مبادئه وأنظمته وتشريعاته ، وابراز دعاته وحماته من خلال الصورة التي ارادها اخصامهم السياسيون لهم .

ومن هؤلاء المستشرق لامنس المعروف بعدائه للاسلام وحقده على أعلامه وقادته وتحريفه لحقائق التاريخ بما يخدم الصهيونية والمسيحية العالمية ، كما تؤكد ذلك مؤلفاته في المواضيع الاسلامية المشحونة بالكذب والافتراء والتشويش على الاسلام وقادته الاوفياء ، فقد قال في كتابه فاطمة وبنات محمد : وبويع الحسن بعد مقتل ابيه فحاول انصاره ان يقنعوه بالعودة الى قتال اهل الشام ، وقلب هذا الالحاح من جانبهم حفيظة الحسن القعيد الهمة ، ولم يعد يفكر الا في التفاهم مع معاوية ، كما ادى الى وقوع الفرقة بينه وبين اهل العراق وأدى بهم الحال الى اتخان امامهم اسما لا فعلا بالجراح وتملكت الحسن منذ ذلك الوقت فكرة واحدة هي الوصول الى اتفاق مع الامويين وترك له معاوية ان يحدد مطالبه جزاء تنازله عن الخلافة ، ولم يكتف الحسن بالمليون درهم التي طلبها معاشا لاخيه الحسين ، بل طلب لنفسه خمسة ملايين درهم اخرى ودخل كورة في فارس طيلة حياته ، وعارض اهل العراق بعد ذلك في تنفيذ الفقرة الاخيرة من الاتفاق ، بيد انه اجيب الى كل ما سأله حتى ان حفيد النبي اجترأ فجاهر بالندم على انه لم يضاعف طلبه وترك العراق مشبعا بسخط الناس عليه ليقبع بالمدينة .

ويروي بروكلمان ان الحسن لم يكن رجل الساعة اذ رفض ان يصحب جنده ليهاجم عدوه ، كما ذهب المستشرق هوكلي الى ان الحسن لم يكن كفؤا للموقف لميله الى السلم ، وعد ساكيس الحسن غير جدير بأن يكون ابنا لعلي ذلك الرجل العظيم لانشغاله بملذاته واكتفائه بارسال

اثني عشر الفا كطليعة لجيشه [1] .

وقال راويت رونلدسن في كتابه عقيدة الشيعة الامامية : ان الاخبار تدل على ان الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح .

وقال الدكتور فيليب حتى : وفي بدء حكم معاوية قامت حركة أخرى كان لها شأن كبير في الاجيال التي تلت وهي اعلان اهل العراق الحسن بن علي الخليفة الشرعي ، ومضى يقول : ولعلهم هذا اساس منطقي، لان الحسن كان اكبر ابناء علي وفاطمة ابنة النبي (ص) الوحيدة الباقية بعد وفاته ، ولكن الحسن الذي كان يميل الى الترف والبذخ لا الى الحكم والادارة ، لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفيا بهبة سنوية منحه اياها معاوية .

الى غير ذلك مما قيل عن موقف الحسن من اعتزال السلطة، وأحسب ان ما ذكرته سابقا حول الصلح وأسبابه يكفي لرد مزاعم المستشرقين وغيرهم ممن كتبوا حول الموضوع . وقبل ان انتقل من هذا الموضوع احب ان اختمه بكلمة للدكتور احمد محمد صبحي في كتابه نظرية الامامة رد فيها على منتقدي موقف الحسن (ع) وكشف عن اسبابه وملابساته التي لم تترك له اختيارا فيه .

فلقد قال بعد ان عرض بعض الآراء التي ذكرناها : وبلا شك فان في هذه التعليقات تجاهلا للموقف وتجنيا على الحسن الذي تولى الخلافة في أدق الظروف ، اذ لم يكن تحت ولايته من الاقاليم غير العراق وما وراءها بعد ان استولى معاوية على معظم ارجاء الدولة ، وكانت الامور في اواخر عهد ابيه تسير من سيء الى اسوأ ، ولم يستطع علي

---

١ ــ العراق في ظل العهد الاموي للدكتور علي الخرطبولي ص ٧٤ .

مع مقدرته الفائقة للحرب ان يجابهها ، وكان مقتل علي اكبر انهيار في الموقف ، ثم توالت الخيانات من أشراف العراق ، وقد عبر الحسن عن اسباب تنازله بقوله : يا اهل العراق اني سخي بنفسي عنكم لثلاث : قتلكم ابي وطعنكم اياي ، وانتهابكم متاعي ، وقد كرهت الدنيا ورأيت اهل الكوفة قوما لا يثق بهم احد الا غلب ليس احد يوافق الآخر في رأي ، ولا يطمئن في خير ولا شر وقد لقي ابي منهم امورا عظاما .

ومضى يقول : والذي لا شك فيه ان التنازل عن الخلافة قد تم تحت ظروف تجعل حرية الارادة معطلة والاكراه قائما ، اذ كان الحسن يواجه عدوا اكثر منه عددا وأوسع منه حيلة وأملك لناصية الامور فضلا عن الخيانة المستمرة في صفوف انصاره .

وأضاف الى ذلك ، والذي لا شك فيه ايضا ان الحسن لم يتنازل لمعاوية لاعتقاده ان معاوية اولى منه بالامر او اجدر به ، او لاستحقاق معاوية للخلافة، اذن فالحسن قد تنازل على ملأ من الناس وهو في قرارة نفسه كاره لهذا التنازل ناقم على الظروف التي هيأت ان يرى بعينه معاوية خليفة للمسلمين فكان تنازل الحسن تقية اصبحت عقيدة لدى الشيعة بعد ان اصبحوا على امرهم مغلوبين وتحت رحمة معاوية خاضعين [1] .

---

١ ــ انظر صفحة ٣٢٤ و٣٢٦ من الكتاب المذكور .

معاوية وشروط الصلح

مما لا شك فيه ان الحسن (ع) بالرغم من انه تنازل عن السلطة في ظل ظروف تفرض عليه التنازل ، ولكنه اشترط لنفسه ولشيعته ولانصار ابيه شروطا لم تتوفر لدينا المصادر الموثوقة على تحديدها بنحو تطمئن اليه النفس ، وقد اجاب اليها معاوية في بداية الامر وعاهد الله على الوفاء بها وكان سخيا في عروضه منذ البداية ، لا لانه لم يجد بديلا عنها ولا لان الصلح مخرجه الوحيد ، بل لانه كان يفضل الاستيلاء على السلطة بالصلح على القوة العسكرية للاعتبارات التي ذكرناها وأهمها ان الصلح يضفي على حكومته صفة الشرعية بنظره ، وبالرغم من العهود التي قطعها على نفسه والمواثيق التي اعطاها للامام الحسن (ع) على الوفاء بكل ما الزم نفسه به ، فقد اجمع المؤرخون بما فيهم المتعصبون لمعاوية وحزبه على انه لم يف بشيء منها ، وقد اعلن تراجعه عنها بعد ان دخل الكوفة واستتب له امرها ، فقال وهو يخطب في حشد كبير من اهلها : الا وان كل شرط اعطيته للحسن بن علي فهو تحت قدمي هاتين لا افي بشيء منه ، وبالفعل فلقد باشر بنقض جميع البنود التي اشتملت عليها وثيقة الصلح ، ولما اشتد بلاؤه على الشيعة وفد جماعة منهم على

الحسن في المدينة وعرضوا عليه بالحاح نقض المعاهدة ووضعوا انفسهم بين يديه ووعدوه بالنصر والصبر وضمنوا له كل ما تطلبه المعركة من السلاح والعتاد ، وقال له سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو يوم ذاك الرئيس المطاع في قومه وفي العراق على حد تعبير ابن قتيبة : وقد زعم معاوية على رؤوس الناس ما قد سمعت الا واني كنت شرطت لقوم شروطا ووعدتهم عدات ومنيتهم اماني فان كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، ووالله ما عنى بذلك الا نقض ما بينك وبينه فأذن لي ان اشخص الى الكوفة وأخرج منها عاملها وأظهر فيها خلعه وأنبذ اليه على سواء ان الله لا يهدي كيد الخائنين .

وتكلم بعده حجر بن عدي والمسيب بن نجية الغزاري المعروف بفارس مضر الحمراء وغيرهم بكلام يشبه بعضه بعضا ، وتوالت عليه الوفود من الكوفة وغيرها وكلها تئن وتضج من جور معاوية وعماله ، ولا ترى منفذا من تلك المحنة الا بالتراجع عن الصلح وكان جوابه الاخير : ليكن كل رجل منكم حلسا من احلاس بيته ما دام معاوية حيا ، فان يهلك معاوية ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على امرنا وان لا يكلنا الى انفسنا فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وكان جوابه هذا لتلك الفئة من المؤمنين لعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئا ، ولو تراجع عن الصلح وعاد الى الكوفة بعد ان استتب امر معاوية فيها وتغلغل انصاره بين قبائلها وبعد ان توالت عليهم صلات معاوية وقطفوا ثمار وعوده ومغرياته فسيكون موقفهم معه اسوأ من الاول لذلك فقد امرهم بالصبر والاخلاد الى السكينة وانتظار امر الله سبحانه .

وكان من الشروط التي اشترطها الامام الحسن ان لا يتعرض لشيعته وشيعة ابيه بسوء في اي قطر كانوا ، ولكن معاوية بن هند كان من اغلى

امانيه القضاء على كل ما يمت الى البيت العلوي بصلة من الصلات مهما كان نوعها ، فلم يترك وسيلة من وسائل العنف والارهاب والتعذيب الا استعملها مع الشيعة ، وكان اشدهم بلاء وأعظمهم محنة وشقاء شيعة الكوفة ، فلقد استعمل عليها المغيرة بن شعبة وأوصاه بالتنكيل بهم وان لا يترك شتم علي وبنيه في مناسبة من المناسبات ، وبعد ان هلك المغيرة استعمل عليها زياد بن سمية وكان بهم عارفا وبأحوالهم خبيرا فقتل من تمكن منه ومثل بهم بقطع الايدي والارجل وصلبهم على جذوع النخل وشرد اكثرهم في الامصار . وكتب معاوية الى جميع عماله في العراق وغيرها : انظروا الى من قامت عليه البينة انه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وامنعوا عنه عطاءه ورزقه ، وكتب كتابا آخر الى عماله قال فيه : من اتهم بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره، وجاء عن الامام محمد بن علي الباقر (ع) وهو يصف ما لاقاه شيعتهم من البلاء والمحن في عهد معاوية ، جاء عنه انه قال : وقتل شيعتنا بكل بلدة ومصر وقطعت الايدي والارجل على الظنة والتهمة وكل من اتهم بحبنا قتل وسجن وهدمت داره ونهب ماله حتى بلغ بهم الحال ان الرجل كان يتمنى ان يتهم بالكفر والزندقة ولا يتهم بحبنا اهل البيت [1] .

ومن الشروط كما يذهب المؤرخون ان لا يتعرض الى ابيه بسوء ، ولكنه بعد ان استولى على السلطة واستتب له الامر ووزع عماله على الامصار كان اول ما اوصاهم به شتم علي بن ابي طالب على المنابر وتسخير جميع الاجهزة لوضع الاحاديث في فضل الخلفاء الثلاثة وانتقاص امير المؤمنين ، ولما استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة بعد عام الجماعة ترك له ان يتصرف في جميع الشؤون الادارية والعسكرية

---

١ ـ انظر شرح النهج جـ٣ ص ١٥ .

حسبما تقتضيه خبرته وحكمته وأوصاه بشتم علي ولعنه على المنابر وفي المجتمعات فنفذ المغيرة هذه الوصية كما يريد وتوالى على ذلك الولاة من بعده .

وجاء في شرح النهج ان معاوية لما رجع الى الشام بعد الصلح اجتمع عليه الناس يهنئونه بالانتصار الذي احرزه ، فقال : ايها الناس ان رسول الله قال لي : انك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الارض المقدسة فان فيها الابدال وقد اخترتكم فالعنوا ابا تراب ، فأخذ الناس في سبه وانتقاصه [٢] . وكان كما تؤكد جميع المصادر لا يترك مناسبة تمر الا ويشتم فيها عليا (ع) وبخاصة في خطبتي الجمعة والاعياد حتى اصبح في مفهوم الناس سبه من السنن التي لا تتم بدونها صلاة الجمعة ، وكثيرا ما كان يردد في خطبه : اللهم ان ابا تراب قد ألحد في دينك وحاد عن سبيلك فالعنه لعنا وبيلا وعذبه عذابا اليما .

وجاء في تطهير الجنان واللسان انه عزل سعيد بن العاص عن امارة يثرب لا لشيء الا لانه امتنع عن سب امير المؤمنين وعين مكانه مروان ابن الحكم فبالغ مروان في سب الامام وانتقاصه بالرغم من وجود الحسن والحسين بالمدينة، وحينما رغب اليه بعض اهل المدينة ان يخفف من لهجته ويراعي جانب العلويين والهاشميين اجاب : لا يستقيم لنا الامر الا بذلك كما جاء في رواية الصواعق المحرقة لابن حجر [١] .

وفي حياة الامام الحسن للقرشي عن الحافظ السيوطي انه كان في ايام بني امية اكثر من سبعين الف منبر يلعنون عليها امير المؤمنين (ع) ومضى يقول : وبهذه المناسبة قال احمد حفظي الشافعي في ارجوزته :

---

٢ ــ نفس المصدر .

١ ــ انظر ص ٣٣ من الصواعق .

وقد حكى السيوطي انه قد كان فيما جعلوه سنه
سبعون الف منبر وعشره من فوقها يلعنون حيدره
وهذه في جنبها الفطائم تصفر بل توجه اللوائم

في حين ان امير المؤمنين (ع) في حياته سمع جماعة من اصحابه يسبون معاوية فأنكر عليهم ذلك وقال : اني اكره لكم ان تكونوا قوما سبابين ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم كان اصوب في القول وأبلغ في العذر قولوا مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم عن ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به .

وهكذا كان الامام ابو محمد الحسن (ع) يترفع عن استعمال لغة السب والشتم بالرغم من انه كان يبلغه كل ذلك عن معاوية وعماله ، وأحيانا يبلغ السفه والحقد من معاوية وزبانيته حدهما الاقصى فينالون من علي (ع) بحضور الحسن والحسين ومع ذلك فلم يستعمل هذه اللغة ولا دعا احدا من اصحابه اليها ، وكل ما في الامر انه كان اذا اجتمع بمعاوية وزبانيته كابن العاص وأمثاله وأحرجوه على الحديث كما كانوا يصنعون احيانا ، يستعرض تاريخهم الحافل بالمخازي والمنكرات فيخصمهم ويعودون نادمين خاسرين .

وقد حكى عنه صاحب الملاحم والفتن في كتابه المذكور ان معاوية ارسل الى الامام الحسن في حاجة له فلما قابله الرسول هابه وعظمه من حيث لا يريد وقال : حفظك الله يا ابن رسول الله وأهلك هؤلاء القوم، فنهره الامام (ع) وقال : لا تخن من ائتمنك وحسبك ان تحبني لحب رسول الله وأبي وأمي ، ومن الخيانة ان يثق بك قوم وأنت عدو لهم وتدعو عليهم .

وظل الامويون على موقفهم هذا من امير المؤمنين الى ان صارت

الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فمنع من سبه وكتب بذلك الى جميع عماله في الامصار وأمرهم ان يستبدلوا سبه في خطب الجمعة والاعياد بقراءة الآية : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم .

X وكان عمر بن عبد العزيز يحدث عن السبب الذي دعاه الى محاربة هذه البدعة ويقول : كنت غلاما اقرأ القرآن على بعض اولاد عتبة بن مسعود فمر بي يوما وأنا العب مع الصبيان ونحن نلعن عليا (ع) فكره ذلك ودخل المسجد فتركت الصبيان وجئت اليه لأدرس عليه وردي فلما رآني قام الى الصلاة وأطال فيها وكأنه معرض عني ، فلما انفتل من صلاته كلح في وجهي ، فقلت ما بال الشيخ معرضا عني ؟ فقال لي : انت اللاعن عليا منذ اليوم ، فقلت نعم ، قال فمتى علمت ان الله سخط على اهل بدر بعد ان رضي عنهم ، فقلت له : يا ابتي وهل كان علي من اهل بدر ، فقال : ويحك وهل كانت بدر كلها الا له، فقلت له لا اعود لمثلها، وأضاف الى ذلك ابن عبد العزيز : وكنت احضر تحت منبر المدينة وأبي يخطب يوم الجمعة وهو يوم ذاك اميرها ، فكنت اسمع ابي يمر في خطبته تهدر شقاشقه حتى يأتي الى لعن علي بن ابي طالب فيجمجم ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به فكنت اعجب من ذلك ، فقلت له يوما : يا ابتي انت افصح الناس وأخطبهم فما بالي اراك اذا مررت بلعن هذا الرجل صرت الكن عييا ، فقال : يا بني لو علم من تحت منبرنا من اهل الشام وغيرهم من فضل هذا الرجل ما يعلمه ابوك لم يتبعنا منهم احد ، فوقرت كلمته في صدري مع ما قال معلمي ايام صغري ، وأعطيت الله عهدا لئن كان لي في هذا الامر شيء لأغيرنه ، فلما من الله علي بالخلافة اسقطت ذلك .

ومن الشروط التي اعطاها معاوية للامام الحسن (ع) كما يدعي بعض المؤرخين ان يكون له خراج دار ابجر ويتصرف به كما يريد ، ولم

يف له معاوية بذلك كما جاء في تاريخ ابي الفداء .

ونص ابن الاثير في تاريخه ان دار ابجر كانت تابعة للبصرة فأوعز معاوية الى اهل البصرة ليمنعوه من تسليمه خراجها ، وبالفعل فلقد تم ذلك واحتج معاوية بأهل البصرة كما هو الحال في اكثر تصرفاته التي تقوم على الاحتيال والمكر والخداع ، وكنت قد ابديت رأيي في مثل هذه الشروط خلال الحديث عن الصلح وبنود الاتفاق .

ومن الشروط كما يدعي اكثر المؤرخين ان تكون الخلافة بعد معاوية الى الامام الحسن ، فان لم يكن الحسن موجودا حين وفاته فالى الحسين (ع) مباشرة ، والوفاء بهذه المادة يبدو وكأنه من المستحيلات على معاوية ، لانه منذ ان وطئت قدماه ارض الشام واليا عليها لعمر بن الخطاب وأصبح صاحب السلطة عليها جعل يخطط بكل وسائله لاعادة امجاده التي حطمها الاسلام ، وكانت تراوده الاحلام بأن يساعده الحظ ويأتيه اليوم الذي يصدر فيه المراسيم والاوامر باسم الدولة الاسلامية، وها هو اليوم الذي كان ينتظره ويحلم فيه وتنتظره اسرته التي عبر عن امانيها وأحلامها ابو سفيان يوم انتهت الخلافة الى عثمان ، بقوله : تلقفوها يا بني امية تلقف الكرة فوالذي يحلف به ابو سفيان ما من جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب ، بعد ان تحققت احلامه وأحلام اسرته وأصبح بامكانه ان يتركها لاسرته ، تتلقفها تلقف الكرة ، فكيف يتركها للحسن والحسين ، وقد حارب هو وأسرته الاسلام عشرين عاما من اجل السلطة ، ومنذ الايام الاولى التي استولى بها على الحكم اخذ يعمل ويمهد لوارث عرشه يزيد بن معاوية ، وكان وجود الحسن يشغل تفكيره لان المسلمين لا يعدلون به احدا من خيارهم ، فكيف اذا كان البديل للحسن ولده الفاسق الفاجر المستهتر بالاسلام وجميع القيم ، وقد وصفه عبد الله بن حنظلة الصحابي الجليل غسيل الملائكة المعروف بالراهب بقوله : والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا ان نرمى بالحجارة

من السماء ، انه رجل ينكح الامهات والبنات والاخوات ويشرب الخمر ويترك الصلاة ، والله لو لم يكن معي احد من الناس لابليت الله فيه بلاء حسنا .

وجاء عن المنذر بن الزبير فيه وكان قد وفد على الشام فأجازه يزيد ابن معاوية بمائة الف ولما رجع قال : لقد اجازني بمائة الف ولا يمنعني ذلك ان اخبركم خبره ، والله انه ليشرب الخمر حتى يسكر ويترك الصلاة [1] .

وجاء في صبح الاعشى ان اباه معاوية قد كتب اليه يندد به وينهاه عن المنكرات وفيما قال له : بلغني انك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير وقد قال الله سبحانه : أتبنون بكل ربع اية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سيرتها عندك جهرا ، واعلم يا يزيد ان اول ما سلبك السكر معرفة مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة وهي الجريمة العظمى والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات في اوقاتها وهو من اعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب وركوب الذنوب واظهار العورة واباحة السر فلا تأمن نفسك على سرك ولا تعتقد على فعلك [2] .

ومع ان هذا النوع من المرويات في مجاميع التاريخ اكثره من مراسيل الواقدي والمدائني وأمثالهما وهما من غير الموثوقين كما يبدو ذلك لمن تتبع تاريخهما ، ولكني لا أستبعد على معاوية ان يخاطب ولده المستهتر الفاجر بهذا النوع من الكلام او يكتب له بهذه المضامين لا لانه كان يتورع عن هذه المنكرات وما هو اعظم منها ، فلقد قتل مئات

---

١ ــ ابن عساكر جـ٧ ص ٢٨ و٣٧٢ والبداية والنهاية جـ٨ ص ٢١٦ .
٢ ــ صبحي الاعشى جـ٦ ص ٣٨٨ .

الابرياء والعلماء من الصديقين وعباد الله الصالحين جورا وبلا سبب الا لانهم انكروا جوره وطغيانه .

اما المنكرات ونكاح المحرمات والاستخفاف بالشعائر الاسلامية فلم يكن يتجاهر بها كما كان يفعل ولده يزيد دجلا ونفاقا ، وكان يتمنى على ولده ان لا يتجاهر بها ، لا تأثما واحتراما للاسلام ومقدساته وشعائره، بل لانه حينما بدأ يتحسس رأي الناس في ولده يزيد ليوليه الخلافة من بعده فوجيء بالمعارضة الشديدة ، وأكثر المعارضين كانوا يحتجون باستهتاره وادمانه على المسكرات وغيرها من المحرمات ، فكان يتمنى عليه التستر لتخف حدة المعارضة وتزول من طريقه بعض الصعاب .

ومع ان اباه كان يتمنى عليه ذلك فلم يحدث احد من المؤرخين على اختلاف نزعاتهم بأن يزيد قد غير اسلوب حياته ، او تستر فيما كان يتعاطاه من المنكرات .

ومهما كان الحال فلقد اخذ معاوية منذ استيلائه على السلطة يعمل بكل وسائله وامكانياته ليفرض ولده على الناس من بعده ، ولكن جميع جهوده كانت تصطدم بوجود الامام الحسن (ع) وحتى ان جماعة من مؤيديه في الحجاز والعراق اشاروا عليه بالتريث في هذا الامر ريثما يتوفر الجو الملائم لعمل خطير من هذا النوع كما اشار عليه جماعة من كبار المسلمين وأبناء المهاجرين والانصار ان يتحرى الاصلح لهذه الامة.

وكان مما قاله له الاحنف بن قيس احد زعماء المسلمين : انك قد اعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الامر من بعدك فان تف فأنت اهل الوفاء وان تغدر ستعلم والله ان وراء الحسن خيولا جيادا وأذرعا شدادا وسيوفا حدادا وان تدن له شبرا من غدر تجد وراءه باعا من نصر ، واعلم بأن اهل العراق ما احبوك منذ ابغضوك ، ولا ابغضوا عليا وحسنا منذ احبوهما .

وقال له في مجلس آخر وكان معاوية يحاول اقناعه بولاية العهد

ليزيد من بعده : يا معاوية انت اعلم بليله ونهاره وسره وعلانيته فان كنت تعلم انه خير لك فوله واستخلفه ، وان كنت تعلم انه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة، واعلم بأنه لا حجة لك عند الله ان قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما والى ما هما .

وقال له عبد الله بن العباس : ان الله تقدست اسماؤه وجل ثناؤه اختار محمدا لرسالته واختاره لوحيه وشرفه على خلقه فأشرف من تشرف به وأولاهم بالامر أحقهم به .

وقال له عبد الله بن جعفر : ان هذه الخلافة ان اخذ فيهـــا بسنّة الشيخين ابي بكر وعمر فأي الناس افضل وأكمل وأحق بهذا الامر من آل الرسول ، وايم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الامر موضعه ولاطيع الله وعصي الشيطان وما اختلف في الامة سيفان فاتق الله يا معاوية فانك قد صرت راعيا ونحن لك رعية فانظر لرعيتك فانك مسؤول عنها غدا .

وقال له ابن الزبير : اتق الله يا معاوية وانصف من نفسك فان هذا عبد الله بن عباس ، وهذا عبد الله بن عمر وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ، وقد خلف علي بن ابي طالب حسنا وحسينا وأنت تعلم من هما وما هما فاتق الله واحكم بيننا وبين نفسك .

وقال له عبد الله بن عمر : ان هذه الخلافة ليست هرقليـــة ولا كسروية يتوارثها الابناء عن الآباء ولو كانت كذلك كنت القائم بها بعد ابي ، فوالله ما ادخلني مع الستة من اصحاب الشورى الا علـــى ان الخلافة ليست شرطا مشروطا ، وانما هي في قريش خاصة لمن كان اهلا لها ممن يرتضيه المسلمون لانفسهم اذا كان ارضى واتقى ، وان كنت تريد يزيد فاعلم انه لا يغني عنك من الله شيئا .

الى غير هؤلاء من اعيان المسلمين ووجوههم الذين نصحوه فـــي التريث وحسن الاختيار وذكروه بعهده للامام الحسن ، وكان القريب

والبعيد لا يفضل احدا عليه وينصحه بأن لا يتعداه ولكن ذلك لم يغير من تصميمه وجعل يفكر في التخلص منه ويعد العدة لذلك في الوقت المناسب .

زوجات الحسن (ع)

لقد تحدث المؤرخون عن زوجات الحسن وأكثروا ومال اكثرهم الى المبالغة في تعدادهن مبالغة لا تعتمد على اساس معقول ، فقال بعضهم انهن يتراوحن بين الستين والسبعين ، وقال البعض الآخر بأنه تزوج بأكثر من مائتين وخمسين امرأة وان اباه كان يتضجر من ذلك ، ووقف بعضهم منه موقفا يتسم بالاعتدال والتجرد ، فقال بأن تعدد الزوجات كان شائعا ومألوفا بين المسلمين ولم يكن اكثر زواجا من غيره ، وقل من مات من اعيان المسلمين عن اقل من اربع زوجات ، فلقد تزوج وطلق حتى بلغ عدد زوجاته ومطلقاته نحوا من خمس عشرة امرأة

اما رواية السبعين والتسعين وغيرها من الروايات التي تصفه بأنه مطلاق ، وأن والده كان يقول : لا تزوجوا ولدي الحسن فانه مطلاق فلا مصدر لها الا المدائني وأمثاله من الكذبة كما يبدو من اسانيدها ، والمدائني والواقدي وغيرهما من المؤرخين القدامى قد كتبوا التاريخ في ظل الحكومات التي كانت تناهض اهل البيت وتعمل بكل ما لديها من الوسائل على تشويه واقعهم وانتقاصهم ، ولم يكن حكام الدولة العباسية بأقل سوءا وتعصبا من اسلافهم الامويين ، فقد شاركوهم في

وضع الاحاديث التي تسيء الى العلويين، وكانوا يحقدون على الحسنيين بصورة خاصة لان اكثر الثائرين على الظلم كانوا من اولاد الحسن وأحفاده .

ولما قبض المنصور على عبد الله بن الحسن احد الحسنيين الثائرين على الظلم والجور خطب في حشد كبير من الناس ونال من علي ابن ابي طالب ومن الامام الحسن وجميع الطالبيين ، وكان مما قاله :

ان ولد ابي طالب تركناهم والذي لا إله غيره والخلافة ولم تتعرض لهم لا بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن ابي طالب فما افلح وحكم الحكمين فاختلفت عليه الامة وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه ، وقام من بعده الحسن بن علي (ع) فوالله ما كان برجل ، لقد عرضت عليه الاموال فقبلها ودس اليه معاوية اني جاعلك ولي عهدي فخلعه وانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه ، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غدا اخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه .

وفي المجلد الاول من صبح الاعشى ان المنصور كتب الى النفس الزكية الحسني كتابا جاء فيه : وافضى امر جدك الى الحسن فباعها لمعاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية فدفع الامر الى غير اهله وأخذ مالا من غير حله فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه الى غير ذلك مما كان العباسيون يلصقونه بالحسن (ع) ردا على الانتفاضات الشعبية التي قادوها ردا على جورهم وطغيانهم .

وكما ذكرنا فرواية السبعين رواها المدائني كما جاء في شرح النهج، ورواية التسعين رواها الشبلنجي في نور الابصار ، ورواية المائتين وخمسين والثلاثمائة رواها المجلسي عن قوت القلوب لابي طالب المالكي المتوفى سنة ٣٨٠ .

وجاء في الكتاب المذكور كما يروي القرشي عنه في المجلد الثاني

من كتابه الحسن بن علي ان الحسن تزوج مائتين وخمسين امرأة وقيل ثلاثمائة وان عليا كان يتضجر من ذلك حياء من اهلهن اذا طلقهن ، وكان يقول : ان حسنا مطلاق فلا تزوجوه ، فقال له رجل من همدان : والله يا امير المؤمنين لننكحنه ما شاء فمن احب امسك ومن كره فارق فسر بذلك امير المؤمنين وأنشأ يقول :

ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ومضى في قوت القلوب يقول : وهذا احد ما كان الحسن يشبه فيه جده رسول الله ، وهو يشبهه في الخلق ، وقد قال له جده : اشبهت خلقي وخلقي ، وقال حسن مني وحسين من علي ، وأضاف الى ذلك ان الحسن كان ربما عقد على اربع وطلق اربعا .

وعلى ما يبدو ان الذين الصقوا بالحسن كثرة الزواج والطلاق هؤلاء الثلاثة المدائني والشبلنجي وأبو طالب المكي في قوت القلوب ، وعنهم اخذ المؤرخون والكتّاب من السنّة والشيعة والمستشرقون ، اما علي بن عبد الله البصري المعروف بالمدائني والمعاصر للعباسيين فهو من المتهمين بالكذب في الحديث . وجاء في ميزان الاعتدال للذهبي ان مسلما في صحيحه قد امتنع عن الرواية عنه ، وان ابن عدي قد ضعفه ، وقال له الاصمعي : والله لتتركن الاسلام وراء ظهرك ، وكان من خاصة ابي اسحاق الموصلي ، وقد تبعه لثرائه ، ويروي عن عوانة بن الحكم المتوفى سنة ١٥٨ والمعروف بولائه لعثمان والامويين .

ونص ابن حجر في لسان الميزان ان عوانة كان يضع الاخبار لبني امية ، وجاء في معجم الادباء انه كان مولى لسمرة بن جبيب الاموي، اما صاحب لسان الميزان فقد قال : انه كان مولى لعبد الرحمن بن سمرة ابن حبيب الاموي ، هذا بالاضافة الى ان اكثر رواياته من نوع المراسيل، كل ذلك مما يبعث على الاطمئنان بأن رواية السبعين التي لم يروها غير المدائني من موضوعاته لمصلحة الحاكمين اعداء العلويين .

اما رواية التسعين فقد ارسلها الشبلنجي في كتابه نور الابصار ولم ينسبها لاحد ، والشبلنجي في كتابه المذكور لم يتحر الصحيح في مروياته وأخباره كما يبدو ذلك للمتشبع فيه ، والمرسل اذا لم يكن مدعوما بشاهد من الخارج او الداخل للاستدلال ، في حين ان الشواهد والقرائن ترجح بأنه من صنع الحاقدين على اهل البيت .

وأما رواية المكي في قوت القلوب فهي اقرب الى الاساطير من غيرها لانها لم ترد على لسان احد من الرواة وأبو طالب المكي كان مصابا بالهستيريا كما نص على ذلك معاصروه وحينما وفد على بغداد وجد البغداديون في حديثه هذيانا وخروجا عن ميزان الاعتدال والاستقامة ، وجاء عنه انه كان يقول : ليس على المخلوق أضر من الخالق ، ويبيح استماع الغناء ولما عاتبه عبد الصمد بن علي أنشد :

فيا ليل كم فيك من متعة ويا صبح ليتك لم تقرب

ومن شذوذه كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير : والكنى والالقاب للقمي : انه اوصى احد اصحابه ان غفر الله له ان ينثر على جنازته لوزا وسكرا وجعل العلامة على ذلك ان يقبض على يد صديقه ساعة الاحتضار فقبض على يده في تلك الساعة ونفذ صديقه ما اوصاه به .

هذا بالاضافة الى ان جميع من تحدث عنه وصف مروياته كتابه بالضعف والشذوذ ، والذين رووا عنه هذا النوع من المرويات كالمجلسي وغيره لم يكن يعنيهم جمع الحديث من اي مصدر كان كما هو الشأن في مرويات البحار التي لا يثبت الكثير منها في مقام النقد والتمحيص

وقد روي في البحار كما جاء في كتاب القرشي انه لما توفي الحسن (ع) خرجت جمهرة من النساء حافيات حاسرات وهن يقلن : نحن زوجات الحسن ، على ان بعض المغفلين من الشيعة لقد تقبلوا هذه المرويات ظنا منهم ان ذلك فضيلة للحسن ودليل على ثقة الناس به ، كما

يظهر ذلك من الشيخ راضي ياسين في كتابه ملح الحسن ، وقد اشار في كتابه المذكور الى انه كان يحلل المطلقات ثلاثا لازواجهن ، ولا يثق الازواج بغيره في هذه المهمة ، فأساء الى الامام الحسن والى اهـــل البيت (ع) من حيث لا يقصد ، وفي الوقت ذاته اتاح لبعض الجهلة من الشيعة والحاقدين من غيرهم ان يتناولوه بالنقد والتجريح وان يلصقوا به ما لا يرضاه لنفسه كرام الناس فضلا عن سيد شباب اهل الجنـــة وريحانة رسول الله وأشبه الناس به خلقا وخلقا كما اجمع على ذلـك الرواة والمحدثون .

على ان المدائني نفسه الذي ادعى انه تزوج بسبعين ، قد احصى له عشر نساء لا غير وعدهن بأسمائهن كما جاء في المجلد الرابع من شرح النهج ، وزواجه من عشر نساء ليس بغريب في ذلك العصر لان الزواج كان مألوفا ومتعارفا بين الصحابة والتابعين ، وقد مات كل من الزبير وعبد الرحمن بن عوف وطلحة عن اربع زوجات عدا مطلقاتهم كما نص على ذلك اكثر المؤرخين .

اولاد الحسن (ع)

لقد اختلف المؤرخون في عدد اولاده ذكورا واناثا ، فبين من قال بأنه مات عن ثمانية ذكور وأربع اناث ، وبين من قال بأنه ترك احد عشر ذكرا وخمس اناث وقال آخرون : بأنه مات عن اربعة عشر ذكرا وثماني اناث الى غير ذلك من الاقوال التي لا يجدينا تحقيقها وتدقيقها نفعا ، وقد اشتهر من اولاده الذكور القاسم بن الحسن ، وأمه كما قيل رملة او نفيلة ، واستشهد مع عمه الحسين في كربلاء وتاريخه يقترن بتلك الفاجعة مع ابطال الطف .

وعبد الله بن الحسن ، وقتل مع عمه ايضا وكان في مطلع شبابه وقد ابت نفسه الكريمة ان يرى عمه الحسين وحيدا وقد احتوشه اهل الكوفة من كل جانب فبرز وقاتل حتى قتل ، وقيل ان حرملة بن كامل رماه بسهم وهو الى جانب عمه الحسين فذبحه بعد ان ضربه ابجر بن كعب بالسيف على يده فقطعها فاحتضنه عمه فجاءه السهم وهو بتلك الحالة ، كما جاء في مقاتل الطالبيين ان للحسن ولدا اسمه عبد الله كان صغيرا فلما سقط الحسين عن فرسه خرج يشتد نحوه فجاءه سهم اصاب منه مقتلا .

وزيد بن الحسن المعروف بزيد الابلج ولم يحدث المؤرخون لواقعة الطف بأنه اشترك فيها ، وجاء في بعض المرويات انه توفي بعد ان بلغ التسعين من عمره سنة مائة وعشرين وكان كما يصفه المؤرخون جليل القدر كثير البر والاحسان يقصده الناس لبره ومعروفه . وقد مدحه محمد بن بشير الخارجي كما في رواية البحار بأبيات جاء فيها :

اذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة نفى جدبها واخضر بالنبت عودها

وزيد ربيع الناس في كل شتوة اذا اخلفت انواؤها ورعودها

كما رثاه غيره من الشعراء وأشادوا بمآثره وفضله وممن رثاه قدامة ابن موسى الجمحي بقصيدة جاء فيها :

فان يك زيد غالت الارض شخصه فقد بان معروف هناك وجود

وكان يلي صدقات رسول الله (ص) كما ذكر المفيد في ارشاده وانتزعها منه سليمان بن عبد الملك وردها عليه عمر بن عبد العزيز ، ورجح توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت انه مدفون بالقاهرة بالقرب من جامع القراء .

ومن اولاده الحسن الانور ، الذي يقول فيه الشاعر :

اذا امسى ابن زيد لي صديقا فحسبي من مودته نصيبي

وهو والد السيدة نفيسة ذات المقام المعروف بالقاهرة ، ومن اولاده يحيى المتوج والد زينب التي لازمت عمتها نفيسة في القاهرة ودفنت فيها بجوار قبر ابن العاص وكانت من الزاهدات العابدات وأهل مصر يأتون لزيارة قبرها من كل فج حتى ان الخليفة الفاطمي الظاهر كان يقصده ماشيا ، ولعل القبر المعروف بقبر زينب في مصر هو قبرها [1] .

والحسن بن الحسن المعروف بالمثنى وقد اشترك مع عمه الحسين في

---

١ ـ انظر اهل البيت لتوفيق ابو علم ص ٥٤٤ وما بعدها .

معركة الطف وقاتل قتال الابطال وظل يقاتل حتى سقط الى الارض لكثرة ما اصابه من الجراح وظنه الناس مع القتلى ، وحينما ارادوا قطع رأسه تبين لهم انه لا يزال حيا فتشفع به اسماء بن خارجة الفزاري وكانت ام الحسن فزارية وعالجه حتى برىء من جراحه وتزوج من فاطمة بنت الحسين (ع) وأكثر الحسنيين الذين ثاروا على الظلم والطغيان في العصر العباسي وغيره من احفاده .

واليه والى اخيه زيد بن الحسن ينتسب السادة الحسنيون الذين لا يزالون حتى عصرنا الحالي يفخرون ويتباهون ويتاجرون بنسبهم كغيرهم ممن يدعون الانتساب الى رسول الله (ص) بعد مضي الف وأربعمائة من السنين مع بعد الزمن وتنكرهم لوصاياه وتعاليم الاسلام واني لا ارى للانتساب الى الرسول (ص) قيمة اذا لم يقترن بالدين القويم والعمل الطيب ، وقد قال (ص) لابنته فاطمة (ع) : اعملي فلن اغني عنك من الله شيئا .

وسلام الله وتحياته ورضوانه على الامام الصادق (ع) القائل : ولايتي لعلي احب الي من ولادتي منه وسلامه على الامام زين العابدين الذي قال لطاووس اليماني وهو يحاوله ان يرحم نفسه ويرفق بها ولا يجهدها في العبادة وقد ذكره بنسبه الرفيع الذي يشده الى رسول الله (ص) : يا طاووس دعني من حديث ابي وجدي وأمي الجنة لمن اطاع الله ولو كان عبدا حبشيا والنار لمن عصاه ولو كان سيدا قرشيا .

وفي عشرات المناسبات كان الائمة (ع) يحرصون على ان يصرفوا المنتسبين الى علي وفاطمة (ع) عن الاتكال على انسابهم مؤكدين لهم ان الانساب لا تغني عنهم شيئا وانه لا شيء يغني عن العمل الصالح كما اكد ذلك القرآن اكثر من مرة ، ولم يرد ذكر في المقاتل ولا في كتب الانساب لغير من ذكرنا من ولد الحسن السبط (ع) .

وفاة الامام الحسن (ع)

لقد كان وجود الحسن بين الاحياء ثقيلا على معاوية وعقبة في طريق وصول ولده يزيد الى السلطة من بعده ، وخاف ان يأتيه يومه والحسن (ع) بين الاحياء فأخذ يعد العدة للتخلص منه كما ذكرنا من قبل ، ففكر وأطال التفكير واستعرض اساليب الغدر والفتك التي كان يستعملها في سبيل مجده وملكه فلم يجد اشد فتكا وأخف مؤونة من العسل المسموم الذي جربه اكثر من مرة مع اخصامه ومناوئيه ، لقد جربه مع مالك الاشتر وهو في طريقه الى مصر واليا عليها لعلي (ع) فدس اليه من قتله قبل وصوله اليها بعسل مسموم وتخلص منه ، وبعدها بسنوات قليلات كانت ترتفع اسهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان محبوبا ومتزنا في سلوكه ومرموقا اكثر من ولده يزيد ، وخاف ان يجد في بلاد الشام من يقدمه على ولده فدس اليه السم وقتله .

وثقل عليه سعد بن ابي وقاص وهو احد الستة الذين رشحهم ابن الخطاب للخلافة ، والمسلمون لا يضعون يزيدا الى جانبه ولا يقدمونه عليه ، فدس اليه من قتله بالسم كما جاء ذلك في شرح النهج وغيره .

قال شارح النهج : ان معاوية لما اراد البيعة لولده يزيد من بعده لم

يكن شيء اثقل عليه من الحسن بن علي وسعد بن ابي وقاص فدس اليهما سما فماتا منه في ايام متقاربة بعد مضي عشر سنوات من استيلائه على السلطة [1] .

وكان العسل المسموم احد جنوده ، وقد اشتهر عنه انه كان يقول : ان لله جنودا من عسل ، ولما جاء دور الحسن ارسل الى ملك الروم يطلب منه سما فتاكا سريع التأثير فامتنع عن اجابته وكتب اليه انه لا يصلح في ديننا ان نعين على قتل من لم يقاتلنا ، فأجابه معاوية ان الرجل الذي اردت قتله هو ابن الرجل الذي خرج في ارض تهامة ، وقد خرج الان يطلب ملك ابيه ، وأنا اريد قتله بالسم لاريح منه العباد والبلاد ، فأرسل اليه ما اراد ، واستطاع معاوية ان يغري زوجة الحسن جعدة بنت الاشعث بن قيس ، فوعدها بأن يزوجها من ولده يزيد ويدفع لها مائة الف درهم ان هي دست اليه السم ومات منه ، فوافقت على طلبه ووضعت له السم في طعامه فتقطع كبده منه .

وجاء في شرح النهج وتذكرة الخواص عن عمران بن اسحاق انه قال : كنت مع الحسن والحسين في الدار فدخل الحسن المخرج ، فلما خرج قال : لقد سقيت السم مرارا ما سقيت مثل هذه المرة ، لقد لفظت قطعة من كبدي وجعلت اقلبها بعود في يدي فقال له الحسين (ع) : ومن سقاك يا اخي ، قال : وما تريد منه ، أتريد ان تقتله ان يكن هو هو فالله اشد منك نقمة ، وان لم يكن هو فما احسب ان يؤخذ بي برأي ، وأضاف الى ذلك ابن الجوزي في تذكرته انه جزع وبكى بكاء شديدا، فقال له الحسين (ع) يا اخي ما هذا الجزع ، وما هذا البكاء وانما تقدم على رسول الله وعلى ابيك وعمك جعفر وفاطمة وخديجة ، وقال لك

---

١ ــ انظر جـ٤ ص ١٧ من شرح النهج .

جدك : إنك سيد شباب اهل الجنة ، ولك سوابق كثيرة لقد حججت ماشيا خمسا وعشرين مرة وقاسمت الله مالك مرتين وفعلت وفعلت ، ومضى يعدد مكارمه وما قدمه في سبيل الله وخير الناس ، فقال له الحسن (ع) : اني اقدم على خطب عظيم وهول جسيم لم اقدم على مثله قط ، ولست ادري أتصير نفسي الى النار فأعزيها او الى الجنة فأهنيها .

وفي رواية ثانية انه لما اشرف على الموت قال : اخرجوا فراشي الى صحن الدار فأخرجوه فرفع رأسه الى السماء وقال : اللهم اني احتسب عندك نفسي فانها اعز الانفس علي ولم احب بمثلها اللهم ارحم صرعتي وآنس في القبر وحدتي .

وجاء عن الامام زين العابدين (ع) ان الاشعث اشترك في دم امير المؤمنين وابنته جعدة سمت الحسن (ع) وابنه محمد بن الاشعث اشترك في دم الحسين .

ولما مات الحسن طلبت جعدة من معاوية ان يفي لها بما وعدها فدفع لها المال ورفض ان يزوجها من ولده وقال لها : اننا نحب حياة يزيد ونخشى ان تصنعي به ما صنعت بابن رسول الله ، وتزوجها بعد الحسن رجل من آل طلحة فأولدها فكان اذا وقع بين ولدها وبين احد من بطون قريش كلام قالوا لهم : يا بني مسمة الازواج .

ولما توفي الحسن (ع) تولى امره الحسين وأخرجه ليدفنه الى جانب جده رسول الله (ص) فخرجت عائشة ومعها بنو امية وقالت : لا يدفن الحسن مع جده او تجز هذه ؟ وأشارت الى ناصيتها وكاد الشر ان يقع بين الفريقين ، وكانت قد خرجت على بغلة شهباء فقال لها القاسم بن محمد بن ابي بكر : يا عمة ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الاحمر اتريدين ان يقال يوم البغلة الشهباء ، وقال لها بعض من حضر : يوم على جمل ويوم على بغل يا ام المؤمنين تجملت تبغلت ولو عشت تفيلت لك التسع من الثمن وبالكل تملكت .

ولما اشتد الامر بين الفريقين عدل به الامام ابو عبد الله الحسين الى البقيع ودفنه الى جانب امه فاطمة الزهراء .

وفي بعض المرويات ان بني امية وأنصارهم رشقوا المشيعين بالسهام وأصيبت الجنازة ، ولم يمكن الحسين (ع) احدا من الهاشميين بالرد عليهم بالمثل عملا بوصية الحسن (ع) .

ولما فرغ من دفنه وقف على قبره وأنشد :

أدهن رأسي ام تطيب مجالسي وخدك معفور وأنت سليب
سأبكيك ما ناحت حمامة ايكة وما اخضر فيدوح الرياض قضيب
غريب واكناف الحجاز تحوطه الا كل من تحت التراب غريب

ووقف على قبره اخوه محمد بن الحنفية وأبنه بقوله :

رحمك الله ابا محمد لئن عزت حياتك لقد هدت دقاتك ولنعم الروح روح عمر بها بدنك ولنعم البدن بدن تضمنه كفنك وكيف لا وأنت سليل الهدى وحليف اهل التقى وخامس اصحاب الكسا ربيت فيحجر الاسلام ورضعت ثدي الايمان ولك السوابق العظمى والغايات القصوى فعليك من الله السلام ، فلقد طبت حيا وميتا .

وكان له من العمر ست وأربعون سنة وقيل ثمان وأربعون ، وأصيب الناس بدهشة لوفاته وأيقنوا بأن معاوية لم يعد يحاذر من احد وقال قائلهم لقد ذل الناس بموت الحسن بن علي .

وبلغ نبأ وفاته البصرة في يومين وليلتين فقال الجارود بن ابي سبرة:

اذا كان شرا سار يوما وليلة وان كان خيرا خر والسير اربعا
اذا ما يريد الشر اقبل نحونا باحدىالدواهي الدهمسار وأسرعا

وكان الذي نعاه في البصرة عبد الله بن سلمة نعاه لزياد فخرج الحكم بن ابي العاص الثقفي فنعاه فبكى الناس وأبو بكرة يوم ذاك مريض فسمع الضجة ، فقالت له امرأته قيسة بنت سخام الثقفية مات

الحسن والحمد لله الذي اراح الناس منه ، فقال لها اسكتي ويحك فقد اراحه الله من شر كثير وفقد الناس بموته خيرا كثيرا يرحم الله حسنا .

وحدث ابن جرير الطبري وغيره عن عبد الله بن العباس انه قال : والله اني لفي المسجد اذ كبر معاوية في الخضراء فكبر اهل الخضراء ، ثم كبر اهل المسجد لتكبيرة اهل الخضراء فخرجت فاختة بنت قرضة من خوخة لها فقالت، سرك الله يا امير المؤمنين ، ما هذا الذي بلغك ؟ قال: موت الحسن بن علي ، فقالت : انا لله وانا اليه راجعون ، ثم بكت وقالت : مات سيد المسلمين وابن بنت رسول الله ، فقال معاوية : انه كذلك وأهل لان يبكى عليه ، ولما بلغ الخبر عبد الله بن العباس دخل على معاوية فاستقبله معاوية بقوله : اعلمت يا ابن عباس ان الحسن قد توفي ، فقال له : ألذلك كبرت يا معاوية ؟ قال : نعم ، فقال : والله ما موته بالذي يؤخر اجلك ولا حفرته بسادة حفرتك ، ولئن اصبنا به فقد اصبنا بسيد المرسلين وامام المتقين ورسول رب العالمين ، ثم بسيد الاوصياء فجبر الله تلك المصيبة ورفع تلك العبرة ، فقال معاوية : ويحك يا ابن عباس ما كلمتك الا وجدتك صعدا .

وكانت وفاته في الخامس والعشرين من ربيع الاول من سنة خمسين للهجرة وقيل غير ذلك .

الفهرست

في هذا الكتاب	٥
المقدمـة	٧
تمهيـد	١٣
الائمة اثنا عشر كلهم من قريش	٣٦
الصحابية الاولى خديجة بنت خويلد	٤٥
اولادها من النبي (ص)	٦٠
فاطمة الزهراء	٦٩
هجرتها الى المدينة	٧٩
حديث زواجها من علي (ع)	٨٥
هل فكر علي في الزواج من غيرها ؟	٩٨
مصحف فاطمة	١٠٣
الزهراء في فتح مكة	١٠٨
الزهراء مع ابيها في مرضه	١١٤
موقفها من الخلافة والميراث	١٢١
حديث فدك	١٢٧
خطبة الزهراء في المسجد	١٣٤
مرض الزهراء	١٤٧
الامام علي بن ابي طالب	١٥٢
صفاتـه	١٥٨
اسلام علي (ع)	١٥٩

النص عليه في بداية الدعوة يوم الدار ١٦٧
علي في شعب ابي طالب ١٧٣
مبيته على فراش الرسول ليلة الهجرة ١٧٧
علي والفواطم في طريقهم الى المدينة ١٨٥
حديث المؤاخاة ١٨٨
علي ابو تراب ١٩٢
علي في بدر الكبرى ١٩٥
علي في معركة أحد ٢٠٧
علي في معركة أحد ٢١٠
علي في غزوة الاحزاب ٢٢٣
علي في الحديبية ٢٣٣
علي في خيبر ٢٣٨
دور علي في فتح مكة ٢٤٦
مع بني جذيمة ٢٥٠
علي في حنين ٢٥٢
علي وغزوة تبوك ٢٥٧
غزوة ذات السلاسل ٢٦١
سورة براءة ٢٦٥
علي في حجة الوداع ٢٦٧
مع النبي في ساعة الوداع ٢٧٤
السقيفة ٢٨٢
علي بعد البيعة ٢٩٩
شجاعته ٣٢٢
زهده في الدنيا ٣٢٨
علي وبيت المال ٣٣٧
الامام علي مع الخلفاء الثلاثة ٣٥١
علي في عهد عمر بن الخطاب ٣٦٤
وفاة عمر بن الخطاب ٣٧٧
الشورى ٣٨٤

ما أفرزته الشورى	٣٩٢
موقف ابي ذر الغفاري من عثمان وحاشيته	٤١٣
الثورة على عثمان ونهاية امره	٤٢٠
علي (ع) والخلافة	٤٣١
موكب عائشة في طريقها الى البصرة وما جرى فيها من أحداث	٤٤٥
علي (ع) في طريقه الى الكوفة	٤٦٤
معركة صفين وما رافقها من أحداث	٤٧١
المارقون	٤٨٧
المؤامرة الكبرى	٥٠٠
الامام الحسن بن علي (ع)	٥٠٩
تواضعه وكرمه	٥١٧
الحسن بعد وفاة جده وأمه	٥٢٨
الحسن مع مؤذن النبي بلال	٥٣١
الحسن في عهد الخلافاء الثلاثة	٥٣٣
مع الدكتور طه حسين في تفسيره لموقف الحسن من ابيه	٥٤١
الحسن بعد وفاة ابيه	٥٥٥
الاستعداد للحرب	٥٦٧
معاوية بين الصلح والقتال	٥٧٣
بنود الصلح كما يرويها المؤرخون	٥٨٢
ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين	٥٨٦
في النخيلة	٥٩١
ما حدث بعد الصلح	٥٩٥
موقف المستشرقين من صلح الامام الحسن (ع)	٦٠٢
معاوية وشروط الصلح	٦٠٦
زوجات الحسن (ع)	٦١٧
اولاد الحسن	٦٢٢
وفاة الامام الحسن (ع)	٦٢٥